من الأمور كلها أَرَبٌ [١] ، إلا في مواقِع قَدَر الله [٢] ، وكان كثيراً ما يدعو : اللهم رضني [٣] بقضائك ، وبارك لي في قدرك ، حتىٰ لا أحبَّ تعجيل شيء أخَّرته ، ولا تأخير شيء عجَّلته » [٤].

وقال : « ما أصبح لي هوىٰ في شيء سوىٰ ما قضىٰ الله عزَّ وجلَّ » [٥].

وقال شُعبة [٦] : « قال لي [٧] يونس بن عبيد [٨] : ما تمنيت شيئاً قط » [٩].

---

(١) أرب. الأرب : الحاجة ، مختار الصحاح (ص١٣).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٣٦) ، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥٢٢) ، المعرفة والتاريخ (١٠/ ٥٧٠).

(٣) غ (أرضني).

(٤) الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٣/ ٥٢) رقم (٤٦) ، شعب الإيمان (٢/ ٢٢٧).

(٥) نحوه في قوت القلوب (٢/ ٤٦) ، حلية الأولياء (٥/ ٣٣٠) ، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٦) ، الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٣/ ٨٦) رقم (٩٩) ، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥٢٢).

(٦) شعبة بن الحجاج بن الورد ، الإمام الحافظ أمير المؤمنين في الحديث ، قال عنه الإمام أحمد إنه من أثبت الناس ، توفي سنة ١٦٠هـ .
طبقات ابن سعد (٧/ ٢٨٠) ، حلية الأولياء (٧/ ١٤٤) ، تاريخ بغداد (٩/ ٢٥٥) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠٣).

(٧) (لي) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٨) يونس بن عبيد العبدي بن دينار البصري ، ثقة ثبت ورع ، توفي سنة ١٣٩هـ/ طبقات ابن سعد (٧/ ٢٦٠) ، حلية الأولياء (٣/ ١٥) ، سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٨٨).

(٩) شذرات الذهب (١/ ٢٠٧) ، سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٨٩) بلفظ (ما كتبت).

وقال الفضيل[١] : « الراضي لا يتمنىٰ فوق منزلته »[٢].

وقال ذو النون : « ثلاثة من أعلام التسليم : مقابلة القضاء بالرضىٰ ، والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، وثلاثة من أعلام التفويض : تعطيل إرادتك لمراده ، والنظر إلىٰ ما يقع من تدبيره لك ، وترك الاعتراض علىٰ الحكم ، وثلاثة من أعلام التوحيد : رؤية كل شيء من الله ، وقبول كل شيء عنه ، وإضافة كل شيء إليه »[٣].

وقال بعض العارفين أصل العبادة ثلاثة[٤] : « لا ترد من أحكامه شيئاً ، ولا تسأل غيره حاجة ، ولا تدَّخر عنه شيئاً »[٥].

وسُئل ابن شمعون[٦] عن الرضىٰ؟ فقال : « أن ترضىٰ به مُدبِّراً ومختاراً[٧]، وترضىٰ عنه قاسماً ومُعطياً ومانعاً وترضاه[٨] إلهاً ومعبوداً ورباً »[٩].

---

(١) ط زيادة (بن عياض).

(٢) الرسالة القشيرية (٣٠٠) ، الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٣/ ٣٠) رقم (١٦) ، البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٧) ، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٣٦).

(٣) حلية الأولياء (٩/ ٣٦٣) ، الرسالة القشيرية (٣٠٠) ، نحوه في قوت القلوب (٢/ ٤٦).

(٤) (ثلاثة) سقطت من ط.

(٥) نسبه ابن أبي الحواري إلىٰ الساجي في حلية الأولياء (٩/ ٣١٣).

(٦) ح٢ ، ش ، أ ، د ، ق (سمعون).

(٧) الأصل (أو مختاراً) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٨) ق (وترضىٰ به).

(٩) شعب الإيمان (١/ ٢٢٨).

وقال بعض العارفين : « الرضىٰ ترك الاختيار ، وسرور القلب بمرِّ القضاء ، وإسقاط التدبير من النفس ، حتىٰ يحكم الله لها أو عليها »[١][٢].

وقيل : « الراضي من لم يندم علىٰ فائت من الدنيا ، ولم يتأسف عليها »[٣].

ولله در[٤] القائل :

العبدُ ذو ضَجَرٍ والرَّب ذُو قَـدَرٍ والدَّهرُ ذُو دُوَلٍ والرِّزْق مَقْسُوم
والخيرُ أَجمَعُ فيما اختَار خالِقُنا وفي اختيار سِواه اللَّوم والشُّوم[٥]

السابع والخمسون : أنه إذا لم يرض بالقدر وقع في لوم المقادير ، إما بقالبه ، وإما بقلبه وحاله ، ولوم المقادير لوم لمقَدِّرها ، وكذلك يقع في لوم الخلق ، والله والناس يلومونه[٦] فلا يزال[٧] لائماً ملوماً ، وهذا مناف للعبودية.

قال أنس[٨] : «خدمت رسول الله ﷺ عَشر سنين ، فما قال لي لشيء فعلته : لم فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلته؟ ولا قال لشيء ليته لم يكن ، ولا لشيء

---

(١) الأصل (وعليها) والأقرب ما أثبته من ب ، غ ، ط.

(٢) القائل : هو ابن الفرجي ، كما في شعب الإيمان (١/ ٢٢٨).

(٣) القائل : هو أبو عثمان البيكندي كما في شعب الإيمان (١/ ٢٢٨).

(٤) (ولله در) سقطت من ش ، ق.

(٥) عزاه في شعب الإيمان (١/ ٢٣٣) ، لأبي الفوارس جنيد بن أحمد الطبري.

(٦) غ (ويلومه) و أ ، ب (يلومه) و ط (يلومون).

(٧) د (يراك).

(٨) ط زيادة (رضي الله عنه).

لم يكن : ليته كان ، وكان بعض أهله إذا لامني يقول: دَعوه لو[1] قُضي لكان»[2].

وقوله «لو قضي شيء لكان» يتناول أمرين :

أحدهما : ما لم يوجد من مراد العبد .

والثاني : ما وجد مما يكرهه[3] يتناول فوات المحبوب ، وحصول المكروه، فلو قضي الأول لكان ، ولو قضي خلاف الآخر لكان ، فإذا استوت الحالتان بالنسبة إلىٰ القضاء ، فعبودية العبد : [أن يستوي عنده الحالتان بالنسبة إلىٰ رضاه][4]، وهذا موجب العبودية ومقتضاها، يوضحه :

الثامن والخمسون : أنه إذا استوىٰ الأمران بالنسبة إلىٰ رضىٰ الرب تعالىٰ ، فهذا رضيه لعبده فقدره ، وهذا لم يرضه له فلم يقدره ، [5] فكمال الموافقة : أن يستويا بالنسبة إلىٰ العبد ، فيرضىٰ ما رضيه له ربه في الحالين.

التاسع والخمسون : أن الله[6] نهىٰ عن التقدُّم بين يديه ويدي رسوله في

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فلو).

(٢) أول الحديث في البخاري. الأدب (٤/ ٩٨) ح(٦٠٣٨) ، مسلم. الفضائل (٤/ ١٨٠٤) ح(٢٣٠٩) ، والحديث كله : عند أحمد (٣/ ١٠١) ، وعبد الرزاق في المصنف (٩/ ٤٤٣) بلفظ (ما قدر فهو كائن) ، وفي الأحاديث المختارة للمقدسي (٥/ ٢٠٦) نحوه.

(٣) ط زيادة (وهو) و م زيادة (مما).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ .

(٥) ش (وكمال).

(٦) ط زيادة (تعالىٰ).

حُكمه الديني الشرعي ، وذلك عبودية هذا الأمر ، فعبودية أمره الكوني القدري : أن لا يتقدم بين يديه إلىٰ حيث كانت المصلحة الراجحة في ذلك ، فيكون التقدم أيضاً بأمره[1] الكوني والديني ، فإذا كان فرضُه الصبر و[2] ندبه ، أو فرضه الرضىٰ حتىٰ ترك ذلك : فقد تقدم بين يدي شرعه وقدره.

الستون : أن المحبة والإخلاص والإنابة : لا تقوم إلا علىٰ ساق الرضىٰ.

فالمحب راضٍ عن حبيبه في كل حالة ، وقد كان عِمران بن حصين[3] استُسْقِي[4] بطنه ، فبقي ملقىٰ علىٰ ظهره مدة طويلة ، لا يقوم ولا يقعد ، وقد نُقِب له في سريره موضع لحاجته ، فدخل عليه مُطرِّفُ بن عبد الله ابن[5] الشِّخِّير[6] ، فجعل يبكي لما رأىٰ من حاله ، فقال[7] : لم تبكي؟ فقال : لأني

---

(١) الأصل (بأمره أيضاً) والصحيح ما أثبته من ط ، ب ، غ.

(٢) ط (أو) بإثبات الألف.

(٣) ط زيادة (رضي الله عنه) ، وهو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف ، القدوة الإمام صاحب رسول الله ﷺ، يكنىٰ أبا نجيد الخزاعي ، أسلم هو وأبو هريرة في وقت واحد سنة سبع للهجرة ، وله عدة أحاديث ، توفي سنة ٥٢هـ/ طبقات ابن سعد (٤/ ٢٨٧) ، التاريخ الكبير (٦/ ٤٠٨) ، المعارف (٣٠٩) ، سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٠٨).

(٤) استسقي : أي حصل فيه الماء الأصفر ، لسان العرب ١٤/ ٣٩٤.

(٥) (ابن) سقطت من ط.

(٦) مطرف بن عبد الله بن الشخير ، الإمام القدوة الحجة ، حدث عن أبيه وعلي وعمار وأبي ذر رضي الله عنهم ، وعنه الحسن البصري وغيره ، توفي سنة ٨٦هـ/ طبقات ابن سعد (٧/ ١٤١) ، تذكرة الحفاظ (١/ ٦٠) ، شذرات الذهب (١/ ١١٠) ، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (له عمران).

أراك علىٰ هذه الحال العظيمة[1] فقال : لا تبك ، فإن أحبَّه إليَّ أحبّه إليه ، وقال: أخبرك بشيء ، لعل الله أن ينفعك به ، واكتم عليَّ حتىٰ أموت ، إن الملائكة تزورني فآنس بها ، وتسلم عليَّ فأسمع تسليمها[2].

ولما قدم سعد بن أبي وقاص[3][4] إلىٰ مكة - وقد كُفَّ بصره - جعل الناس يُهرعون إليه ليدعو لهم ، فجعل يَدْعو لهم ، قال عبد الله بن السائب[5] : فأتيته وأنا غُلام ، فتعرفتُ إليه ، فعرفني ، فقلت : يا عم ، أنت تدعو للناس[6] ، فلو دعوت لنفسك لرد الله عليك بصرك ، فتبسم ، ثم قال : يا بني ، قضاء الله عندي[7] أحبُّ إليَّ من بَصري[8].

---

(١) ط (الفظيعة).

(٢) قوت القلوب ٢/ ٤٩ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٩ ، الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ ٣/ ٦٤ رقم ٦٠ ، ٦١ ، إتحاف السادة المتقين ١٢/ ٥٣٧ .

(٣) سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن كعب بن لؤي ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أهل الشورىٰ وهو أحد الثمانية الذين بادروا إلىٰ الإسلام، توفي سنة ٥٦هـ وقيل : ٥٧هـ/ سير أعلام النبلاء (١/ ٦٢) ، التاريخ الكبير (٤/ ٤٣) ، تاريخ بغداد (١/ ١٤٤).

(٤) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٥) عبدالله بن السائب القرشي المخزومي المكي ، مقرئ مكة ، وله صحبة ورواية ، وهو من صغار الصحابة ، توفي في إمارة عبد الله بن الزبير/ طبقات ابن سعد (٥/ ٤٤٥) ، أسد الغابة (٣/ ٢٥٤) ، سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٨٨).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (فيشفون).

(٧) (عندي) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د.

(٨) قوت القلوب ٢/ ٥٠ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٠ ، إتحاف السادة المتقين ١٢/ ٥٣٩ ، وورد آخره من قول عبدالله في شعب الإيمان ١/ ٢٢٣.

وقال بعض العارفين : ذنب أذنبته ، أنا أبكي عليه ثلاثين سنة ، قيل وما هو؟ قال : قلت لشيء كان[1] ليته لم يكن[2].

وقال بعض السلف : « لو قُرِّض جسمي[3] بالمقاريض كان أحب إليَّ من أن أقول لشيء قضاه الله : ليته لم يقضه »[4].

وقيل لعبد الواحد بن زيد : ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة ، فقصده ، فقال[5] : حبيبي ، أخبرني عنك ، هل قنعت به؟ قال : لا ، قال : فهل أنست به؟ قال : لا ، قال : فهل رضيت عنه؟ قال : لا قال : فإنما مزيدك منه الصوم الصلاة؟ قال : نعم ، قال : لولا أني أستحي منك لأخبرتك : أن معاملتك خمسين سنة مَدْخولة[6].

يعني أنه لم يُقرِّبه فيجعله في مقام المقربين ، فيوجده مواجيد العارفين ، بحيث يكون مزيده لديه : أعمال القلوب ، التي يستعمل بها كل محبوب

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (قضاه الله ليته لم يقضه) ، والمثبت موافق للقوت أيضاً.

(٢) قوت القلوب ٢/ ٥٠ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٠ ، إتحاف السادة المتقين ١٢/ ٥٣٩ ، ونحوه في إحياء علوم الدين عن ابن مسعود ٤/ ٣٤٦ ، والزهد لابن المبارك ٣١ ، آخره في شعب الإيمان عن عبدالله بن مسعود ١/ ٢٢٣.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (لحمي).

(٤) قوت القلوب ٢/ ٥٠ وعزاه لبعض السلف في إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٠ ونحوه عن ابن مسعود في إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٦) ، حلية الأولياء (١/ ١٢٤).

(٥) ط زيادة (له).

(٦) قوت القلوب ٢/ ٥٠ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٠ ، حلية الأولياء ٦/ ١٦٣.

مطلوب ؛ لأن القناعة به(١) حال الموقن(٢)، والأنس به: مقام المحب ، والرضىٰ : وصف المتوكل ، يعني أنت عنده في طبقات أصحاب اليمين ، فمزيدك عنده مزيد العموم من أعمال الجوارح.

وقوله : «إن معاملته مدخولة» يحتمل وجهين :

أحدهما : أنها ناقصة عن أعمال(٣) المقربين التي أوجبت لهم هذه الحال.

الثاني : أنها لو كانت صحيحة سالمة ، لا علة فيها(٤) لأثمرت له الأنس والرضىٰ والمحبة ، والأحوال العلية ، فإن الرب تعالىٰ شكور ، إذا وصل إليه عمل عبده جمَّل به ظاهره وباطنه ، وأثابه عليه من حقائق المعرفة والإيمان بحسب عمله ، فحيث لم يجد له أثراً في قلبه ، من الأنس والرضىٰ والمحبة : استدل علىٰ أنه مدخول ، غير سالم من الآفات.

الحادي(٥) والستون: أن أعمال الجوارح تضاعف إلىٰ حد معلوم محسوب، وأما أعمال القلوب : فلا ينتهي تضعيفها ، وذلك أنَّ(٦) أعمال الجوارح : لها حدٌّ تنتهي إليه ، وتقف عنده ، فيكون جزاؤها بحسب حدها ، وأما أعمال

---

(١) (به) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٢) د ، ق (الموفق).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (معاملة).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (ولا غش).

(٥) (الحادي) طمس من أ.

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (لأن).

القلوب : فهي دائمة متصلة ، وإن توارىٰ شهود العبد لها[1][2].

مثاله : أن المحبَّة والرضىٰ حال المحب الراضي ، لا تفارقه أصلاً ، وإن توارىٰ حكمها ، فصاحبها في مزيد متصل ، فمزيد المحب الراضي متصل بدوام هذه الحال له ، فهو في مزيد ، ولو فترت جوارحه ؛ بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثير من أهل النوافل بما لا[3] نسبة بينهما، ويبلغ ذلك بصاحبه إلىٰ أن يكون مزيده في حال نومه أكثر من مزيد كثير من أهل القيام [وأكله أكثر من مزيد كثير من أهل الصيام والجوع][4].

فإن أنكرت هذا فتأمل مزيد نائم بالله ، وقيام غافل عن الله ، فالله سبحانه[5] ينظر إلىٰ القلوب ، والهمم والعزائم ، لا إلىٰ صور الأعمال ، وقيمة العبد : هِمّته وإرادته ، فمن لا يرضيه غير الله - ولو أعطي الدنيا بحذافيرها - له شأن ، ومن يرضيه أدنىٰ حظ من حظوظها له شأن ، وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة ، وقد تكون أعمال هذا[6] أكثر وأشق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،

(١) ح٢ (عنها).

(٢) كأنه يشير إلىٰ أن الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف فيما يخص مضاعفة أعمال الجوارح.

(٣) ط (يترك).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٥) ط زيادة (إنما).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د زيادة (أعمال الملتفت إلىٰ الحظوظ).

والله ذو الفضل العظيم.

وقد اختلف أرباب هذا الشأن في مسألة ، وهي : هل للرِّضىٰ حَدٌّ ينتهي إليه؟ أم لا[1] فقال أبو سليمان الدّاراني : ثلاث[2] مقامات لا حد لها : الزهد ، والورع ، والرضىٰ ، و[3]خالفه سليمان ابنه - وكان عارفاً ، حتىٰ أن من[4] الناس من كان يقدِّمه علىٰ أبيه - فقال : بل[5] من تورع في كل شيء : فقد بلغ حد الورع ، ومن زهد في غير الله : فقد بلغ حد الزهد ، ومن رضي عن الله في كل شيء : فقد بلغ حد الرضىٰ[6].

وقد اختلفوا في مسألة تتعلق بذلك ، وهي أهل مقامات ثلاثة :

أحدهم : يُحبُّ[7] الموت شوقاً إلىٰ الله ولقائه.

والثاني : يحب البقاء للخدمة والتقرب.

الثالث قال[8] : لا أختار[9] ، بل أرضىٰ بما يختار لي مولاي ، إن شاء أحياني ،

---

(١) (أم لا) سقطت من س ، غ.

(٢) ط (ثلاثة).

(٣) (الواو) سقطت من ش.

(٤) أ ، ب ، غ (في) بدل (عن).

(٥) (بل) سقطت من م.

(٦) الرضىٰ عن الله بقضائه. لابن أبي الدنيا (٢/ ١١٥) ، حلية الأولياء (٩/ ٢٥٨).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (أن يحب).

(٨) ط (قال الثالث).

(٩) ق زيادة (شيئاً).

وإن شاء أماتني.

فتحاكموا إلىٰ بعض العارفين : فقال : صاحب الرضىٰ أفضلهم ؛ لأنه أقلهم فضولاً[١] [٢].

مقام الرضى فوق مقام الشوق والزهد

ولا ريب أن مقام الرضىٰ فوق مقام الشوق والزهد في الدنيا.

بقي النظر في مقامي الآخرين : أيهما أعلىٰ؟.

فرجحت طائفة مقام من أحب الموت ؛ لأنه في مقام الشوق إلىٰ لقاء الله ومحبة لقائه ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

ورجحت طائفة مقام مريد البقاء لتنفيذ أوامر الرب تعالىٰ.

واحتجوا بأن الأول محب لحظه من الله ، وهذا محب لمراد الله منه ، لم يشبع منه ولم يقض منه[٣] وطراً.

قالوا : وهذه حال موسىٰ - صلوات الله وسلامه عليه - حيث لطم وجه ملك الموت ففقأ عينه[٤] ، لا محبة للدنيا ، ولكن لتنفيذ أوامر ربه ، ومراضيه في الناس ، فكأنه قال : أنت عبده وأنا عبده ، وأنت في طاعته ، وأنا في طاعته

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (وأقربهم إلىٰ السلامة) و ط (أقرب..).

(٢) لم أجده.

(٣) (منه) سقطت من د.

(٤) الحديث في البخاري. الأنبياء (٢/ ٤٧٨) ح(٣٤٠٧) ، مسلم (٤/ ١٨٤٢) ح(٢٣٧٢) ، أحمد (٢/ ٣١٥).

وتنفيذ أوامره.

وحينئذ فنقول في الوجه الثاني والستين(١) : إن حال الراضي المسلِّم ينتظم حاليهما(٢) جميعاً ، مع زيادة التسليم ، وترك الاختيار ، فإنه قد غاب بمراد ربه منه - من إحيائه وإماتته - عن مراده هو من هذين الأمرين ، وكل محب فهو مشتاق إلىٰ لقاء حبيبه ، مؤثِرٌ لمرضاته(٣) فقد أخذ بزمام كل من المقامين ، واتصف بالحالين ، وقال : «أحب ذلك إليَّ أحبه إليه» لا أتمنىٰ غير رضاه ، ولا أتخير عليه إلىٰ ما يحبه ويرضاه ، وهذا القدر كافٍ في هذا الموضع ، وبالله التوفيق.

فلنرجع إلىٰ شرح كلامه ، قال :

«الثَّاني : سُقُوطُ الخُصُومَةِ مَع(٤) الخَلْقِ».

يعني أن «الرضىٰ» إنما يصح بسقوط الخصومة مع الخلق ، فإن الخصومة تنافي حال الرضىٰ ، وتنافي نسبة الأشياء كلها إلىٰ من بيده أزمة القضاء والقدر، ففي الخصومة آفات.

أحدها : المنازعة التي تضاد(٥) الرضىٰ.

---

(١) الأصل وغيرها (والستون) والصحيح ما أثبته من ط.

(٢) ش ، ح٢ (حالهما).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (لمراضيه).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (عن).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (تحاد).

الثاني : نقص التوحيد بنسبة ما يخاصم فيه إلىٰ[1] العبد دون الخالق[2].

الثالث : نسيان الموجب والسبب الذي جرَّ إلىٰ الخصومة ، فلو رجع العبد إلىٰ السبب والموجب لكان اشتغاله بدفعه أجدىٰ إليه[3] وأنفع له من خصومة من جرىٰ علىٰ يديه ، فإنه - وإن كان ظالماً - فهو الذي سلطه علىٰ نفسه بظلمه، قال[4] تعالىٰ : ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران :١٦٥] ، فأخبر أن أذىٰ عدوهم لهم ، وغلبتهم[5] بسبب ظلمهم وقال الله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ :٣٠].

فإذا اجتمعت بصيرة العبد علىٰ مشاهد القدر والتوحيد والحكمة والعدل : انسد عنه باب خصومة الخلق ، إلا فيما كان حقاً لله ورسوله ، فالراضي لا يُخاصم ولا يعاتب فيما يتعلق بحق الله ، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ ، فإنه لم يكن يخاصم أحداً ولا يعاتبه إلا فيما يتعلق بحق الله ، كما أنه كان[6] لا يغضب لنفسه ، فإذا انتهكت محارم الله لم يَقُم لغضبه شيء حتىٰ ينتقم لله[7] ،

---

(١) ح٢ (فيه العبد).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (لكل شيء).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (عليه).

(٤) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٥) ط زيادة (لهم إنما هو).

(٦) (كان) سقطت من ش.

(٧) كما في البخاري. المناقب (٢/ ٥١٨) ح(٣٥٦٠) ، مسلم. الفضائل ٠(٤/ ١٨١٣) ح(٢٣٢٧) ، أبو داود. الأدب (٥/ ١٢٤) ح(٤٧٨٥).

فالمخاصمة لحظ النفس تطفئ نور الرضىٰ ، وتُذهب بَهْجته ، وتبدل بالمرارة حلاوته(١) وتكدر صفوه.

(٢) «الشَّرطُ الثَّالِثُ : الخَلاَصُ مِن المسْألَةِ لهُم(٣) ، وَالإلْحَاحِ».

وذلك لأن المسألة والإلحاح(٤) فيها ضرب من الخصومة ، والمنازعة والمحاربة ، والرجوع عن مالك الضر والنفع إلىٰ من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا بربه ، وفيها(٥) الغيبة عن المعطي المانع.

والإلحاح ينافي حال الرضىٰ ووصفه ، وقد أثنىٰ(٦) سبحانه علىٰ الذين لا يسألون الناس(٧) ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ(٨) يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ(٩) مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة : ٢٧٣].

---

(١) أ ، ب ، غ (حلاوته المرارة).

(٢) ط (قال).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (للخلق) بدل لهم.

(٤) (الإلحاح) سقطت من ط.

(٥) أ ، ب ، غ (فيهما).

(٦) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (إلحافاً).

(٨) أول الآية سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق حتىٰ (يحسبهم).

(٩) أ ، ح٢ (قال هنا : إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾).

فقالت طائفة : يسألون الناس ما تدعو حاجتهم إلىٰ سؤاله ، ولكن لا يلحفون ، فنفىٰ الله عنهم سؤالهم الإلحاف ، لا مطلق السؤال.

قال ابن عباس : إذا كان عنده غداء لم يسأل عشاء ، وإذا كان عنده عشاء لم[1] يسأل غداء[2].

وقالت طائفة - منهم الزَّجاج[3] ، والفراء[4] وغيرهما - بل الآية اقتضت ترك السؤال مطلقاً ؛ لأنهم وُصِفوا بالتعفف ، والمعرفة بسيماهم ، دون الإفصاح بالمسألة ؛ لأنهم لو أفصحوا بالسؤال لم يحسبهم الجاهل أغنياء[5].

تفسير ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾

ثم اختلفوا في وجه قوله[6] : ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

فقال الزَّجاج: المعنىٰ لا يكون منهم سؤال، فيقع إلحاف[7]، كما قال تعالىٰ:

---

(١) ش (لا).

(٢) نسبه البغوي في تفسيره لعطاء ١/ ٢٥٩ ، وفي تفسير الواحدي ١/ ١٩١ ، من غير عزو.

(٣) الزجاج ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي ، مصنف كتاب « معاني القرآن» ، توفي سنة ٣١١هـ/ تاريخ بغداد (٦/ ٨٩) ، الكامل في التاريخ (٨/ ١٤٥) ، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٠).

(٤) يحيي بن زياد بن عبد الله الفراء ، الكوفي النحوي صاحب الكسائي ، توفي سنة ٢٠٧هـ/ تاريخ بغداد (١٤/ ١٤٦) ، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٧٢) ، سير أعلام النبلاء (١٠/ ١١٨).

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٥٧ ، المحرر الوجيز ٢/ ٣٤١.

(٦) ط زيادة (تعالىٰ).

(٧) زاد المسير ١/ ٣٢٩ ، المحرر ٢/ ٢٤١ ، معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٥٧ ، تفسير البغوي ١/ ٢٥٩ ، معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٠٤.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر :٤٨] ، أي لا تكون شفاعة فتنفع ، و[1] قوله : ﴿لَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٌ﴾ [البقرة :١٢٣]، أي لا يكون عدل فيقبل، ونظائره ، قال امرؤ القيس[2] :

على لاحبٍ[3] لا يُهتدىٰ لمناره[4]

أي ليس له[5] منار يُهتدىٰ به[6] ، قال ابن الأنباري[7] ، وتأويل الآية : لا يسألون البتَّة ، فيخرجهم السؤال في بعض الأوقات إلىٰ الإلحاف ، فجرىٰ[8] هذا مجرىٰ قولك : فلان يُرجىٰ خيره ، أي ليس له خير فيُرجىٰ[9].

---

(١) ط زيادة (وكما في).

(٢) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي ، يكنىٰ أبا الحارث ، وقيل : أبو وهب ، وقيل : أبو يزيد ، صاحب أحد المعلقات السبع ، ولد حوالى سنة ٥٠٠م ، وتوفي سنة ٥٤٠م . / البداية والنهاية (٢/ ٢١٨-٢٢٠) ، الأغاني (٨/ ٦٢).

(٣) لاحب : اللاحب الطريق الواضح ، لسان العرب ١/ ٧٣٧.

(٤) ديوان امرؤ القيس ٩٥.

(٥) (له) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) الأصل (له) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ش ، ط.

(٧) محمد بن جعفر بن محمد الأنباري ، شيخ من علماء الحديث ، ولد سنة ٢٦٧هـ ، وتوفي سنة ٣٦٠ هـ/ سير أعلام النبلاء (١٦/ ٦٣) ، شذرات الذهب (٣/ ٣١) ، تاريخ بغداد (٢/ ١٥٠).

(٨) أ ، ب ، غ (فيجري).

(٩) معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٥٧ ، الرازي في التفسير ٤/ ٨٨ ، زاد المسير ١/ ٣٢٩ ، ونقله ابن عطية عن الطبري والزجاج في المحرر ٢/ ٣٤٠.

وقال أبو علي : لم يثبت في هذه الآية مسألة منهم ، لأن المعنىٰ : ليس منهم مسألة ، فيكون منهم إلحاف[1] ، قال : ومثل ذلك قول الشاعر[2] :

لا يُفزِع الأرنب أهوالها ولا ترىٰ الضَّبَّ بها ينْجَحر[3]

أي ليس بها أرنب فيفزع[4] لهولها ، ولا ضب فينجحر

وقال الفراء: «نفىٰ الإلحاف عنهم ، وهو يريد نفي جميع وجوه[5] السؤال»[6].

فصل[7]

«والمسألة» في الأصل حرام[8] ، وإنما أبيحت للحاجة والضرورة ؛ لأنها ظلم في حَقِّ الربوبية ، وظلم في حَقِّ المسؤول ، وظلم في حق السائل.

المسألة

أما الأول[9] : فلأنه بذل سؤاله وفقره وذلّه واستعطاءه لغير الله ، وذلك نوع

(١) نحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٥٧ ، وتفسير الرازي ٤/ ٨٨ ، الكشاف١/ ٣٩٨.

(٢) الشاعر : لم أجده.

(٣) بيت الشعر : ذكر شطر البيت أبو السعود في تفسيره ٢/ ٩٨ ، ٨/ ١٩٢.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (فتفزع) ، وفي ط (فتفزغ).

(٥) (وجوه) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق.

(٦) تفسير الرازي ٤/ ٨٨ ، الكشاف ١/ ٣٩٨ ، زاد المسير نحوه ١/ ٣٢٨ وبنحوه في روح المعاني ٣/ ٤٧.

(٧) في ط (حكم المسألة).

(٨) حكم المسألة : أي سؤال الناس أموالهم ، ومن مواضع بحثها المغني (١٤/ ١٦٩) ، نهاية المحتاج (٦/ ١٦٩) ، طبعة مصطفىٰ الحلبي (١٣٨٦).

(٩) ح٢ (الأولىٰ).

عبودية ، فوضع المسألة في غير موضعها ، وأنزلها بغير أهلها ، وظلم توحيده وإخلاصه ، وفقره إلىٰ الله ، وتوكله عليه ورضاه بقسمه ، واستغنىٰ بسؤال الخلق[١] عن مسألته[٢] ، وذلك كله هضم[٣] من[٤] التوحيد ، ويطفئ نوره ويضعف قوته.

وأما ظلمه للمسؤول : فلأنه سأله ما ليس عنده ، فأوجب له بسؤاله عليه حقاً لم يكن له عليه ، وعرضه[٥] لمشقة البذل ، أو[٦] لَوْم المنع ، فإن أعطاهُ أعطاهُ علىٰ كراهة ، وإن منعه منعه علىٰ استحياء[٧] ، هذا إذا سأله ما ليس عليه ، وأما إذا سأله حقاً هو له عنده : لم[٨] يدخل في ذلك ، ولم يظلمه بسؤاله.

وأما ظلمه لنفسه : فإنه[٩] أراق ماء وجهه ، وذَلَّ لغير خالقه ، وأنزل نفسه أدنىٰ المنزلتين ، ورضيَ لها بأبخس[١٠] الحالتين ، ورضي بإسقاط شرف نفسه ،

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (الناس) ، بدل (الخلق).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (رب الناس).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (يهضم).

(٤) ط زيادة (حق).

(٥) (وعرضه) سقط من ق.

(٦) أ ، ب ، غ (ولوم) بدون ألف.

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (وإغماض).

(٨) ط (فلم).

(٩) أ (فإنما).

(١٠) بأبخس: البخس: النقص، والقصد هو الذي (لا بخس فيه ولا شطط)، مختار الصحاح (٤٢).

وعزة تعففه، وراحة قناعته، وباع صبره ورضاه، وتوكله، قناعته[1] بما قسم له، واستغناه[2] عن الناس بسؤالهم، وهذا عين ظلمه لنفسه، إذ وضعها في غير موضعها، وأخمل[3] شرفها وأوضع قدرها، وأذهب عزها، وصغَّرها وحقرها، ورضي أن تكون نفسه تحت نفس المسؤول، ويده تحت يده، ولولا الضرورة لم يبح ذلك في الشرع.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر[4]، قال: قال رسول[5] ﷺ: **«ما يزال الرجلُ يسأل الناس حتىٰ يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزعَةُ لحَم»**[6].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سأل الناس أموالهم تكثُّراً، فإنما يسأل جمراً، فليستقلّ أو ليستكثر»**[7].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه – : أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب علىٰ ظهره،**[8] **خير له**

---

(١) ط (وقناعته).

(٢) أ، ب، غ، د، (استغناؤه)، ط (استغناء).

(٣) أخمل: الخامل: الساقط الذي لا نباهة له، مختار الصحاح (١٩١).

(٤) ط زيادة (رضي الله عنهما).

(٥) ش زيادة (النبي).

(٦) تقدم تخريجه ص ١٧٨٦.

(٧) مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢٠) ح(١٠٤١).

(٨) د، ش زيادة (فيتصدق به علىٰ الناس).

من أن يأتي رجلاً فيسأله، أعطاه أو منعه»(١).

[وفي صحيح مسلم عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يغدو أحدكم، فيحتطب علىٰ ظهره، فيتصدق به، ويستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه](٢)، ذلك بأن اليد العليا أفضل(٣) من اليد السفلىٰ، وابدأ بمن تعول» زاد الإمام أحمد: «ولأن يأخذ تراباً فيجعله في فيه: خير له من أن يجعل في فيه ما حرَّم الله(٤) عليه»(٥).

وفي صحيح البخاري عن الزبير بن العوام(٦)، عن النبي ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمةٍ من الحطب علىٰ ظهره، فيبيعها، فيكُفَّ الله(٧) وجهه: خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»(٨).

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: أن أناساً من

---

(١) البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٦) ح(١٤٧٠)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢١) ح(١٠٤٢) بلفظ «لأن يغدو»، أحمد (٢/ ٤٧٥).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من د، ش.

(٣) أ، ب، غ، ط (خير) وهو خلاف الأصل وما في مسلم.

(٤) (لفظ الجلالة) سقط من ش.

(٥) مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢١) ح(١٠٤٢)، الترمذي. الزكاة (٣/ ٥٥) ح(٦٨٠) وقال حسن غريب أحمد (٢/ ٢٥٧) مع الزيادة، البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٦) ح(١٤٧٠) بلفظ «لأن يأخذ».

(٦) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٧) (لفظ الجلالة) سقط من ب.

(٨) البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٦) ح(١٤٧١).

الأنصار سألوا رسول الله ﷺ، فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتىٰ نفد ما عنده، فقال لهم - حين أنفق كل شيء بيده -: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف[1] يُعِفُّه الله، ومن يتصبَّر[2] يُصبِّره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً[3] وأوسع من الصبر»[4].

وعن عبد الله بن عمر[5] ـ رَضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال - وهو علىٰ المنبر وذَكر الصدقة والتعفُّف والمسألة -: «اليد العليا خير من اليد السُّفلىٰ، فاليد العليا[6] المنفقة، واليد السفلىٰ: هي[7] السائلة» رواه البخاري ومسلم[8].

وعن حكيم بن حزام[9] قال: سألت رسول الله ﷺ، فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم[10] قال: «يا حكيم، إنَّ هذا المال خَضِرة حُلوة، فمن أخذه

(١) الأصل (يستعف) والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب والبخاري ومسلم وأحمد.

(٢) ش (يصبر).

(٣) ق (له).

(٤) تقدم تخريجه ص١٨٤٢.

(٥) م، أ، غ، ح٢ (عامر) وهو خلاف الصواب.

(٦) (هي) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق والبخاري زيادة (هي).

(٧) (هي) ليست في مسلم.

(٨) تقدم تخريجه ص١٧٨٦.

(٩) ط زيادة (رضي الله عنه).

(١٠) (ثم) سقطت من ش.

بسخاوة نفسٍ بُورك له فيه ، ومن أخذه بإِشراف نفسٍ لم يُبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلىٰ» قال حكيم فقلت : «يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ، لا أرزأ[1] أحداً بعدك شيئاً حتىٰ أفارق الدنيا[2]» ، وكان أبو بكر - رضي الله عنه - يدعو حكيماً إلىٰ العطاء فيأبىٰ أن يقبله منه ، ثم إن عمر - رضي الله عنه - دعاهُ ليعطيه فأبىٰ أن يقبل منه شيئاً ، فقال عمر : إني أشهدكم يا معشر المسلمين علىٰ حكيم : إني أعرض عليه حقه من هذا الفيء ، فيأبىٰ أن يأخذه ، فلم يرزأ حكيم[3] أحداً من الناس بعد رسول الله ﷺ حتىٰ توفي متفق علىٰ صحته[4].

[5] وعن الشعبي[6] قال : حدثني كاتب المغيرة بن شعبة[7] قال : كتب مُعاوية

---

(١) أرزأ : رزأ فلان فلاناً برّه ، ومنها انتقص ، وأصاب منه خيراً ، لسان العرب (١/ ٨٥).

(٢) البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٦) ح(١٤٧٢) ، مسلم. الزكاة (٢/ ٧١٧) ح(١٠٣٤) ، أحمد (٣/ ٩١) ، (٤/ ٩٢ـ ٩٤).

(٣) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٤) البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٦) ح(١٤٧٢) ، مسلم. الزكاة (٢/ ٧١٧) ح(١٠٣٥) ، أحمد (٤/ ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤).

(٥) د ، ط زيادة (وروي).

(٦) عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار ، علامة العصر في زمانه ، يكنىٰ أبا عمرو الهمذاني ثم الشعبي ، قيل إنه ولد في خلافة عمر بن الخطاب ، وقيل سنة ٣٢هـ ، حدث عن جمع من الصحابة وعنه مكحول ، وعطاء بن السائب وغيرهم ، توفي سنة ١٠٥هـ/ طبقات ابن سعد (٦/ ٢٤٦) ، المعارف (٤٤٩) ، المعرفة والتاريخ (٢/ ٥٩٢) ، تذكرة الحفاظ (١/ ٧٤) ، سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٩٤.

(٧) كاتب المغيرة ، اسمه «وراد» والمغيرة هو المغيرة بن شعبة الصحابي المشهور ، سمع المغيرة

إلىٰ المغيرة بن شعبة[١] : أن اكْتُبْ إليَّ شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ فكتب إليه: سمعت النبي[٢] ﷺ يقول : «إن الله كره لكم[٣] ثلاثاً[٤] ، قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال» ، رواه البخاري ومسلم[٥].

وعن معاوية[٦] – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تُلْحِفوا في المسألة ، فوالله لا يسألني أحدٌ منكم شيئاً ، فتُخرج له مسألته منّي شيئاً وأنا[٧] كاره ، فيُبارك له فيما أعطيته»[٨].

وروىٰ عنه المسيب بن رافع وعبد الملك بن عمير/ تاريخ بغداد (٨/ ١١١) ، التاريخ الكبير (٨/ ١٨٦) ، سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٠٢) ، وفي حلية الأولياء (٥/ ١٧٦) اسمه «رواد».

(١) المغيرة بن شعبة ابن أبي عامر بن مسعود ، من كبار الصحابة ، شهد بيعة الرضوان ، توفي سنة ٥٠ هـ/ طبقات ابن سعد (٤/ ٢٨٤) ، تاريخ الطبري (٥/ ٢٣٤) ، تاريخ بغداد (١/ ١٩١) ، أسد الغابة (٤/ ٤٠٦) ، سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١).

(٢) ش (رسول الله) بدل (النبي).

(٣) (لكم) سقط من أ ، ب ، غ.

(٤) (ثلاثاً) طمس من أ.

(٥) البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٧) ح(١٤٧٧) ، مسلم. الأقضية (٣/ ١٣٤١) ح(١٧١٥) ، أحمد (٤/ ٢٤٦).

(٦) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ، أبو عبد الرحمن الخليفة الصحابي ، أسلم قبل الفتح وكتب الوحي ، توفي في رجب سنة ٦٠ هـ/ التقريب (٢/ ٢٥٩) ، طبقات ابن سعد (٣/ ٢٣) ، التاريخ الكبير (٧/ ٣٢٦) ، المعرفة والتاريخ (١/ ٣٠٥) ، تاريخ بغداد (١/ ٢٠٧).

(٧) أ ، د ، ط زيادة (له).

(٨) مسلم. الزكاة (٢/ ٧١٨) ح(١٠٣٨) ، صحيح النسائي. الزكاة (٢/ ٢٢٦) ح(٢٥٩٢) ، أحمد (٤/ ٩٨).

وفي لفظ «إنما أنا خازن ، فمن أعطيته عن طيب نفس فيُبارك له فيه ، ومن أعطيته عن مسألة وشَرَهٍ كان كالذي يأكل ولا يشبع» رواه مسلم(١).

وعن أبي مسلم الخولاني(٢) رضي الله عنه قال : حدثني الحبيب الأمين - أما هو : فَحبيب إليَّ ، وأما ما هو عندي : فأمين ، عوف بن مالك الأشجعي(٣) - قال : كنا عند رسول الله ﷺ تسعة - أو ثمانية ، أو سبعة - فقال : «ألا تبايعون رسول الله؟» - وكنا حديثي(٤) عهد ببيعة(٥) - فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، ثم قال(٦): «ألا تبايعون رسول الله؟» فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، ثم قال : «ألا تبايعون رسول الله؟» قال : فبَسَطْنا أيدينا ، وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك؟ قال : «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس، وتطيعوا(٧) - وأسر كلمة خفية - ولا تسألوا الناس شيئاً»،

---

(١) سبق في نفس الموضع من صحيح مسلم ومسند أحمد في ص٢٠٢١.

(٢) أبو مسلم الخولاني ، عبد الله بن ثوب وقيل ثواب ، الداراني ، سيد التابعين وزاهد العصر ، قدم من اليمن ، أسلم في أيام الرسول ﷺ ودخل المدينة في خلافة الصديق، حدث عن عمر ومعاذ وأبي ذر وغيرهم ، توفي سنة ٦٢ هـ/ طبقات ابن سعد (٧/ ٤٤٨) ، حلية الأولياء (٢/ ٢٢) ، سير أعلام النبلاء (٤/ ٧).

(٣) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (حديث).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (ببيعته) وهو خلاف ما في مسلم.

(٦) الأصل (فقال) والمثبت من بقية النسخ ومسلم.

(٧) ط زيادة (لفظ الجلالة).

فلقد رأيتُ بعض أولئك النَّفر يسقُط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناولُهُ إياه» رواه مسلم[١].

وعن سمُرة بن جُندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المسألة كدٌّ يَكُد بها الرجل وجهه، إلا أن يسأل الرجل سلطاناً، أو في أمر لا بدَّ منه» رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح[٢].

وفي مسند الإمام أحمد عن زيد بن عقبة الفزاري[٣]، قال: دخلت علىٰ الحجاج بن يوسف[٤]، فقلت: أصلح الله الأمير، ألا أحدثك حديثاً سمعته من سَمُرة ابن جُندب عن رسول الله ﷺ؟ قال: بلىٰ، قال سمعته يقول: «المسائل كدٌّ يكدّ بها الرّجُل وجهه، فمن شاء أبقىٰ علىٰ وجهه، ومن شاء ترك، إلا أن يسأل رجلاً ذا سلطان، أو يسأل في أمر لا بد منه»[٥].

---

(١) سبق تخريجه ص١٧٨٥.

(٢) سبق تخريجه ص١٧٨٧.

(٣) زيد بن عقبة الفزاري الكوفي، روىٰ عن سمرة بن جندب، وعنه ابنه سعيد وعبد الملك بن عمير ومعين بن خالد، قال العجلي: كوفي تابعي ثقة، وقال النسائي: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات/ تهذيب التهذيب (٣/ ٤١٩)، الثقات لابن حبان (٤/ ٢٤٧)، التاريخ الكبير (٣/ ٤٠٢).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (الثقفي) وهو الحجاج بن يوسف الثقفي، كان ذا شجاعة وإقدام وفصاحة وكان ظلوماً جباراً سفاكاً للدماء، ولي العراق عشرين سنة، توفي سنة ٩٥هـ/ المعارف (٣٩٥)، تاريخ ابن الأثير (٤/ ٥٨٣)، العبر (١/ ١١٢)، البداية والنهاية (٩/ ١١٧)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣).

(٥) أحمد (٥/ ١٠)، صحيح النسائي. الزكاة (٢/ ٢٢٩) ح(٢٦٠٠) وتقدم تخريجه ص١٧٨٧.

وعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «من يَتَقبَّل لي بواحدة وأتقبل له بالجنة » قال[١] : قلت : أنا ، قال : « لا تسأل الناس شيئاً » ، فكان ثوبان يقع[٢] سوطه وهو راكب ، فلا يقول لأحد : ناولنيه ، حتىٰ ينزل[٣] فيتناوله» رواه الإمام أحمد وأهل السنن[٤].

وعن[٥] ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصابته فاقة[٦] ، فأنزلها بالناس : لم تُسدَّ فاقته ، ومن أنزلها بالله : أوشك الله له بالغنىٰ : إما بموت عاجل ، أو غنىٰ عاجل» رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن[٧] صحيح[٨].

وعن سهل بن الحنظلية قال :[٩] «قدِم علىٰ رسول الله ﷺ عُيينة بن حِصن[١٠] ،

---

(١) (قال) سقطت من ط.

(٢) ب (يسقط).

(٣) ط زيادة (هو).

(٤) سبق تخريجه ص١٧٨٧ .

(٥) ط زيادة (عبد الله).

(٦) فاقة : الفقر والحاجة ، مختار الصحاح (٥١٥).

(٧) (حسن) سقطت من الأصل وهي فيما عداه من النسخ وفي الترمذي أيضاً.

(٨) تقدم تخريجه ص١٧٨٧ .

(٩) ط (قال : قال).

(١٠) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، أسلم بعد الفتح وشهد حنيناً والطائف وكان من المؤلفة قلوبهم/ البداية والنهاية (٦/ ٥٦) ، تهذيب الأسماء والألقاب (٢/ ٤٨).

والأقرع بن حابس[1] ، فسألاه ، فأمر لهما بما سألاه ، وأمر معاوية فكتب لهما بما سألا ، فأما الأقرع فأخذ كتابه فلفَّه في عمامته وانطلق ، وأما عيينة فأخذ كتابه ، فأتىٰ النبي ﷺ بكتابه ، فقال : يا محمد ، أراني حاملاً[2] إلىٰ قومي كتاباً لا أدري ما فيه ، كصحيفة المتلمِّس[3] ، فأخبر معاوية بقوله رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «**من سأل وعنده ما يُغنيه : فإنما يستكثر من النار** - وفي لفظ[4] -: **من جَمْرِ جهنم** » قالوا : يا رسول الله ، وما يُغنيه؟ - وفي[5] لفظ : ما[6] الغنىٰ الذي لا تنبغي[7] معه المسألة؟ - قال : « **قَدْر ما يُغدِّيه و**[8]**يُعشِّيه**» وفي لفظ «**أن يكون له شبع يوم وليلة**» رواه أبو داود والإمام أحمد[9].

---

(١) الأقرع بن حابس التميمي ، روىٰ عنه أبو هريرة/ الثقات لابن حبان (٣/ ١٨) ، الإصابة (١/ ٥٨) ، أسد الغابة (١/ ١١٩).

(٢) الأصل (حامل) والصحيح ما أثبته من ح٢ ، ط.

(٣) معجم الشعراء (٧١ ، ٢٠٢) ، الشعر والشعراء (٧٣) ، وانظر قصة المثل في جامع الأصول (١٠/ ١٥٢ ، ١٥٣).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب زيادة (آخر).

(٥) (في) سقطت من د.

(٦) الأصل (ما الغنىٰ) والبقية موافقة لما في أبي داود (وما الغنىٰ).

(٧) الأصل (لا ينبغي) والمثبت من بقية النسخ وأبي داود.

(٨) (وما) وهو خلاف بقية النسخ وأبي داود.

(٩) أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٨٠) ح(١٦٢٩) ، أحمد (٤/ ١٨١) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٩٦) وقال : رجاله رجال الصحيح.

وعن ابن الفراسي(١) أن الفِراسي قال لرسول الله ﷺ: أسأل يا رسول الله؟ قال: «لا وإن كنت سائلاً لا بُدَّ؟ فَسَلِ الصالحين» رواه النسائي(٢).

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي، قال: تحمَّلت حمالة، فأتيت النبي ﷺ أسأله فيها(٣) فقال: أَقِم حتىٰ تأتينا الصَّدقة فنأمر(٤) لك بها، قال(٥): ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحِلُّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة، فحلت له المسألة حتىٰ يصيبها ثم يُمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلَّت له المسألة حتىٰ يصيب قِواماً من عيش - أو قال: سَداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة(٦)، حتىٰ يقول ثلاثة من ذوي الحِجىٰ(٧) من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة فحلَّت له المسألة حتىٰ يصيب قِواماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - فما سِواهنَّ من المسألة يا قبيصة سُحت يأكلها صاحبها سُحْتاً» رواه مسلم(٨).

---

(١) ابن الفراسي/ الإصابة (٥/ ٢٠٦)، الاستيعاب (٢/ ٥٢٢)، الثقات لابن حبان (٣/ ٣٣٢).

(٢) ورد بألفاظ متقاربة: انظر أحمد (٤/ ٣٣٤)، أبي داود. الزكاة (٢/ ٢٩٦) ح(١٦٤٦)، ضعيف النسائي للألباني. الزكاة (ص٨١) ح(٢٥٨٦)، الطبراني في الكبير (١/ ٣٣٦) ح(١٠٠٤)، ضعيف أبي داود للألباني (رقم ٢٩٢)، شعب الإيمان (٣/ ٢٧٠)، التمهيد (٤/ ١٠٧)، المشكاة (١/ ٥٨٠) ح(١٨٥٣).

(٣) (فيها) سقطت من م، أ، د، ط.

(٤) ط (نأمر).

(٥) (قال) سقطت من ط.

(٦) (فاقة) سقطت من د.

(٧) الحِجىٰ: العقل والفطنة، لسان العرب (١٤/ ١٦٥).

(٨) تقدم تخريجه ص١٧٨٨.

وعن عائِذ بن عمرو[1] رضي الله عنه أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فسأله ، فأعطاه ، فلما وضَع رِجله علىٰ أُسْكُفَّة[2] الباب ، قال رسول الله ﷺ : « **لو تعلمون[3] ما في المسألة ما مشىٰ أحد إلىٰ أحدٍ يسأله شيئاً** » رواه النسائي[4].

وعن مالك بن نضلة[5] قال : قال رسول الله ﷺ : « **الأيدي ثلاثة ، فيَدُ الله : العليا ، ويَدُ المعطي : التي تليها ، ويدُ السائل : السفلىٰ ، فأعط الفضْل ، ولا تعجز عن نفسك** » رواه الإمام أحمد وأبو داود[6].

وعن ثوبان[7] عن النبي[8] ﷺ قال : « **من سأل مسألة وهو عنها غني كانت**

---

(١) عائذ بن عمرو المزني ، من أصحاب الشجرة ومن خيار الصحابة/ التاريخ الكبير (٧/ ٥٨) ، طبقات ابن سعد (١٧/ ٣١) ، تهذيب التهذيب (٥/ ٧٧).

(٢) أسكفَّة : عتبة الباب . المعجم الوسيط (١/ ٤٣٩).

(٣) ط ، الأصل (يعلمون) والمثبت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب والنسائي.

(٤) النسائي. الزكاة (٥/ ٩٥) وحسّنه الألباني في صحيح النسائي (٢/ ٢٢٤) ح(٢٥٨٥) ، أحمد (٥/ ٦٥) ، الترغيب والترهيب (١/ ٥٧٣) ، وأورده في كنز العمال برقم (١٦٧٢٢).

(٥) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٦) أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٩٨) ح(١٦٤٩) ، أحمد (١/ ٤٤٦) ، الحاكم في المستدرك (١/ ١٠٢) ح(٤٠٨) ، شرح السنة (٦/ ١١٤) ح(١٦١٨) ، الترغيب والترهيب (٢/ ١٠) ، وقال الغالب علىٰ رواته التوثيق ، وقال الحافظ في الفتح إسناده صحيح (٣/ ٢٣٦) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٩٧).

(٧) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٨) ط (رسول الله).

شيناً في وجهه يوم القيامة» رواه الإمام أحمد [١].

وعن عبد الرحمن بن عوف [٢] - رَضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثٌ، والذي نفس محمد بيده، إن كنتُ لحالفاً عليهن: لا ينقص مال من صدقة، فتصدَّقوا، ولا يعفو عبدٌ عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا رفعه الله بها، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقرٍ» رواه الإمام أحمد [٣].

وعن أبي سعيد الخدري [٤]، قال: سَرَّحَتني أمي إلىٰ رسول الله ﷺ أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلني، فقال: «من استغنىٰ أغناه الله، ومن استعف أعفَّه الله، ومن استكفىٰ كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية، فقد [٥] ألحف»، فقلت: ناقتي الياقوتة [٦] هي خير من أوقية، ولم أسأله. رواه الإمام أحمد

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨١)، والدارمي في الزكاة (١/ ٣٢٥) ح(١٦٤٧)، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٣٢٤)، وعزاه لأحمد والطبراني وقال رجال أحمد محتج بهم في الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٣٣٦) ح(٧٩٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٩٦)، رجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) عبد الرحمن بن عوف بن الحارث بن كعب بن لؤي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، توفي سنة ٣٢هـ ودُفن في البقيع / سير أعلام النبلاء (١/ ٦٨)، طبقات ابن سعد (٣/ ١٢٤).

(٣) أحمد (٤/ ٢٣١) (١/ ١٩٣)، الترمذي (٤/ ٧٦٢) ح(٢٣٣١) وقال حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٣٤٤) رقم (٨٠٨).

(٤) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٥) أ، ب، غ (فلقد).

(٦) في الأصل وأبي داود وأحمد وفي م، أ، ح٢، ق (الياقية)، ب (الساقية).

وأبو داود[1].

وعن خالد بن عدي الجهني[2] عن رسول الله ﷺ قال[3]: «من جاءه من أخيه معروف من[4] غير إشراف ولا مسألة، فليقبله ولا يرده، فإنما هو رِزق ساقه الله إليه» رواه الإمام أحمد[5].

فهذا أحد المعنيين في قوله: «**إِنَّ[6] مِن شُرُوطِ الرِّضَىٰ: تَرْكُ الإِلحَاحِ فِي المَسْأَلَةِ**» وهو أليق المعنيين وأولاها[7]؛ لأنه قرنه بترك الخصومة مع الخلق، فلا يخاصمهم في حقه، ولا يطلب منهم حقوقه.

---

(١) أحمد (٣/ ٩)، أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٧٩) ح(١٦٢٨)، النسائي في السنن الكبرىٰ (٢/ ٥٢)، الدارقطني (٢/ ١١٨)، وأورده ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٠٤)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤/ ٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٤٢) ح(٦٠٢٧).

(٢) ط زيادة (رضي الله).

(٣) (قال) سقطت من م.

(٤) الأصل (عن) والمثبت من البقية والمسند.

(٥) أحمد (٤/ ٢٢٠)، صحيح ابن حبان (٨/ ١٩٦)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٧١) وقال صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، الطبراني في الكبير (٤/ ١٩٦) ح(٣٧٩) (٥/ ٢٤٨)، وأورده الألباني وصححه بالشواهد، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٥) رقم (١٠٠٥)، ونحوه في المسند عن أبي هريرة (٢/ ٣٢٣)، وفي الباب حديث عمر في البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٦) ح(١٤٧٣)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢٣) ح(١٠٤٥)، أحمد (٦/ ٢٥٩).

(٦) أ، ب (إنه).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (وأولاهما).

والمعنىٰ الثاني : أنه لا يُلِحُّ في الدعاء ، و[1] يبالغ فيه ، فإن ذلك يقدح في رضاه وهذا يصح من[2] وجه دون وجه ، فيصح إذا كان الداعي يلح في الدعاء بأغراضه وحظوظه العاجلة ، وأما إذا ألح علىٰ الله في سؤاله ما[3] فيه رضاه والقرب منه : فإن ذلك لا يقدح في مقام الرضىٰ أصلاً ، وفي الأثر «إنَّ الله يحبُّ الملحين في الدعاء»[4] ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - يوم بدر - للنبي ﷺ : يا رسول الله ، قد ألححت علىٰ ربِّك ، كفاك بعض مناشدتك لربك[5] . فهذا الإلحاح عين العبودية.

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي صالح عن أبي هريرة[6] قال : قال رسول

---

(١) أ ، ب ، غ (ولا).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (في) بدل (من).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط ، د ، ق (بما).

(٤) الدعاء للطبراني (ص٢٨) عن عائشة ، ومسند الشهاب (٢/ ١٤٦) ، شعب الإيمان (٢/ ٢٨) ح(١١٠٨) ، ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٦٢١) ، وقال هذه الأحاديث التي رواها يوسف عن الأوزاعي كلها بواطيل ، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٥٢) ، وذكره ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٩٥) ، والألباني في إرواء الغليل (٣/ ١٤٣) ، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٨٧) ، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (٦٣٧) باطل.

(٥) مسلم. الجهاد والسير (٣/ ١٣٨٣) ح(١٧٦٣) بلفظ (كذاك) ، الترمذي. التفسير (٥/ ٢٦٩) ح(٣٠٨١) ، أحمد (١/ ٣٢) بدون (ألححت) ، تفسير القرطبي (٤/ ١٩٣) ، وفي البخاري جزء منه. التفسير (٣/ ١٣٠١) ح(٤٨٧٥).

(٦) ط زيادة (رضي الله عنه).

الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»(١).

فإذا كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافياً لرضاه.

وحقيقة الرضىٰ: موافقته سبحانه في رضاه، بل الذي ينافي الرضىٰ: أنه(٢) يلح عليه، متحكماً عليه متخيراً عليه(٣) ما لم يعلم: هل يرضيه أم لا؟ كمن يلح علىٰ ربه في ولاية شخص، أو إغنائه، أو قضاء حاجته، فهذا ينافي الرضىٰ؛ لأنه ليس علىٰ يقين أن مرضاة الرب في ذلك.

فإن قيل: فقد يكون للعبد حاجة يباح له سؤالها(٤) فيلح علىٰ ربه في طلبها حتىٰ يفتح له من لذيذ مناجاته وسؤاله، والذل بين يديه وتملقه(٥)، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وتفريغ القلب له، وعدم تعلقه في حاجته

---

(١) أخرجه ابن ماجه بلفظ (من لم يدع الله)، وأحمد (٢/ ٢٧٧) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٢٠٠)، والترمذي (٥/ ٤٥٦)، وقال لا نعرفه إلا من هذا الوجه، الأدب المفرد (٦٥٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩١)، والبغوي في شرح السنة (١٣٨٩)، وصححه الألباني في شرح الطحاوية (٥١٩)، وفي السلسلة الصحيحة رقم(٢٦٥٤)، وفي سنده الخوزي وهو ليِّن الحديث كما في تهذيب الكمال (٣٣/ ٤١٨)، وفي شاهده عند الطبراني في الدعاء (٢٤)، حماد والكلبي والمبارك ابن أبي حمزة وهما ضعيفان، كما في ميزان الاعتدال (٣/ ٤٣٠)، وباللفظ الذي ذكره المؤلف أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٤٤٢).

(٢) أ، ب، غ (أن).

(٣) الأصل سقطت (متخيراً عليه) والمثبت من بقية النسخ و ط.

(٤) ط (سؤله إياها).

(٥) تملقه: سبق ص١٩٥٨.

بغيره - : ما لم يحصل له بدون الإلحاح ، فهل يُكره له[1] هذا الإلحاح ، وإن كان المطلوب حظاً من حظوظه؟.

قيل هاهنا ثلاثة أمور :

أحدها : أن يفنىٰ بمطلوبه وحاجته عن مراده[2] ورضاه عنه[3] ويجعل الرب تعالىٰ وسيلة إلىٰ مطلوبه ، بحيث يكون أهم إليه منه ، فهذا ينافي كما الرضىٰ به وعنه.

الثاني : أن يفتح علىٰ قلبه - حال[4] السؤال - من معرفته[5] و محبته ، والذل له ، والخضوع والتملق : ما ينسيه حاجته ، ويكون ما فتح له من ذلك أحب إليه من حاجته ، بحيث يحب أن تدوم له تلك الحال ، وتكون آثر عنده من حاجته ، وفرحه بها[6] أعظم من فرحه بحاجته لو عجلت له وفاته ذلك ، فهذا لا ينافي رضاه.

[7]قال بعض العارفين : إنه لتكون[8] لي الحاجة[9] إلىٰ الله ، فأسأله إياها ،

---

(١) (له) سقطت من ش.

(٢) ش (مراد ربه).

(٣) (عنه) سقطت من ط ، وفي ق (منه).

(٤) ش (باب) بدل (حال).

(٥) أ ، ب ، غ (معرفة الله).

(٦) (بها) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٧) أ ، ب ، غ ، ط (وقال).

(٨) ط (ليكون).

(٩) أ ، ب ، غ ، م ، ط (حاجة).

فيفتح عليَّ من مناجاته ومعرفته، والتذلل له، والتملق بين يديه: ما أحب معه أن يؤخر[1] قضاءها، وتدوم لي تلك الحال[2].

وفي أثر: إن العبد ليدعو ربه[3]، فيقول الله[4] لملائكته: اقْضوا حاجة عبدي وأخروها، فإني أحب أن أسمع دعاءه، ويدعوه آخر، فيقول الله لملائكته: اقضوا حاجته وعجلوها له[5] فإني أكره صوته[6].

وقد روىٰ الترمذي وغيره عن عبدالله بن مسعود[7] قال: قال رسول الله ﷺ: [«إن الله يحبُّ أن يُسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج»[8].

(١) ط (عني).

(٢) ح٢ (الحالة).

(٣) أ، ب، غ (عزّ وجلّ).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (عزّ وجلّ).

(٥) (له) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٦) عن جابر أن النبي ﷺ قال: «إن جبريل ..» ثم ساق الأثر، مسند الحارث «زوائد الهيثمي» (٢/ ٩٦٦)، شعب الإيمان (٧/ ٢١١) رقم (١٠٠٣٤، ١٠٠٣٥).

(٧) ط (رضي الله عنه).

(٨) الترمذي في الدعوات (٥/ ٥٦٥) ح(٣٥٧١)، وعزاه لأبي نعيم من طريق آخر مرسلاً، وقال أشبه أن يكون أصح، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣١٦) ح(٢٥٣٣)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٢٤) ح(١٠٠٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٣)، والمزي في تهذيب الكمال (٧/ ٢٩١)، وابن أبي الدنيا في القناعة ـ الموسوعة ـ (١/ ٤٥) رقم(٩٧)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٢٤٨)، ثم قال وهذا الحديث يعرف بحماد بن واقد عن محمد بن ذكوان ولحماد بن واقد أحاديث ليست بالكثيرة، وعامة ما يرويه لا يتابعه عليه الثقات،

وروي أيضاً من حديث أبي هريرة(١) قال: قال رسول الله ﷺ](٢): «من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد، فليكثر من الدعاء في الرَّخاء»(٣).

وروي أيضاً من حديث أنس(٤)، أن رسول الله ﷺ قال: «ليسألَ أحدكم ربَّه حاجته، حتىٰ يسأله المِلْح، وحتىٰ يسأله شِسْع نعله إذا انقطع»(٥).

وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥٥٨)، وقال حسَّن إسناده ابن حجر في بعض حواشيه وضعفه العراقي، وحماد بن واقد ضعيف جداً، انظر تهذيب الكمال (٧/ ٢٩٨)، وفي المرسل حكيم بن جبير ضعيف جداً، انظر تهذيب الكمال (٢/ ٣٩٩)، والحديث ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (٤٩٢).

(١) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ.

(٣) الترمذي. الدعاء (٥/ ٤٦٢) ح(٣٣٨٢)، وقال حسن غريب، الحاكم في المستدرك (١/ ٧٢٩) (١/ ٥٤٤)، وصحح سنده وافقه الذهبي، والبغدادي في تاريخ بغداد (١/ ٤١٤)، وفي الكامل لابن عدي (٥/ ١٩٩٠)، وقال: عبيد بن واقد له غير ما ذكرت من الحديث، وعامة ما يرويه لا يتابع عليه، ورواه ابن الجوزي في العلل المتناهية رقم (١٤١٠) وهو في السلسلة الصحيحة للألباني (٢/ ١٤٢) ح(٥٩٣).

(٤) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٧)، والبزار في كشف الأستار (٣١٣٥)، وأبو يعلىٰ في مسنده (٣٤٠٣)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٥٣)، والطبراني في الدعاء (٢٥)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/ ٨٩٤)، والمزي في تهذيب الكمال (٢٣/ ٦٢٠)، وابن حجر في فتح الباري (٢/ ٣٠٠)، والحديث لا يصح إلا مرسلاً كما رجح ذلك الترمذي في الحديث رقم (٣٦٠٤)، وكذلك رجح إرساله وبطلانه مرفوعاً القواريري ووافقه ابن عدي كما في الكامل (٦/ ٥٣)، وأعله ابن المديني كما في العلل له (٧٢)، وقال الهيثمي في مجمع

وفيه أيضاً عن ابن عمر - رضي الله عنهما - ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ما سُئل الله شيئاً أحبَّ إليه من أن يُسأل العافية[1] ، وإن الدعاء لينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم عبادَ الله بالدُّعاء»[2].

[3]فإذا كان هذا محبة[4] الرب تعالىٰ للدعاء ، فلا ينافي الإلحاح فيه الرضىٰ.

الزوائد (١٠/ ٢٢٨) ، رجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة ، وحسَّنه ابن حجر كما في زوائد البزار (٢/ ٤٢٧) ، وروي موقوفاً علىٰ عائشة بلفظ « سلوا الله كل شيء حتىٰ الشسع.. » رواه أبو يعلىٰ في مسنده (٥/ ٤٥) ، وعزاه إليه ابن حجر كما في المطالب العالية (٣/ ٢٣٢) ، وقد أجاد الألباني في بحث هذا الحديث وبيان ضعفه في سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (١٣٦٢).

(١) (العافية) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٥/ ٥٥٢) ح(٣٥٤٨) ، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي ، وهو ضعيف من قِبَل حفظه ، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٨) ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي في التلخيص وقال : (يعني عبدالرحمن ابن أبي بكر) ضعيف (١/ ٤٩٨) ، والمليكي مجمع علىٰ تضعيفه كما في تهذيب التهذيب (٦/ ١٣٣) ، تهذيب الكمال (١٦/ ٥٥٣) ، ويغني عنه حديث العباس بن عبدالمطلب : قلت يا رسول الله علِّمني شيئاً أسأله الله فقال لي : يا عباس ، يا عم رسول الله : «سل الله العافية.. » ، أخرجه أحمد (١/ ٢٠٩) وابن أبي شيبة (٦/ ٢٤) ، والترمذي برقم (٣٥١٤) ، وقال صحيح ، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٦) ، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٢٣).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (وإذا) ، و ط (وإن).

(٤) ح٢ (يحبه).

الثالث : أن ينقطع طمعه عن[1] الخلق ، ويتعلق بربه في طلب حاجته ، [2] قد أفرده بالطلب ، [3] لا يلوي علىٰ ما وراء ذلك ، فهذا قد تنشأ له المصلحة من نفس الطلب ، وإفراد الرب بالقصد.

والفرق بينه وبين الذي قبله : أن ذلك قد فُتح عليه بما هو أحب إليه من حاجته ، فهو لا يبالي بفواتها بعد ظَفَره بما فتح[4] عليه ، وبالله التوفيق.

فصل

الدرجة الثالثة من درجات الرضى

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : الرِّضَىٰ بِرِضَىٰ اللهِ[5] ، فَلَا يرَىٰ العَبْدُ لِنَفْسِهِ سُخطاً ، وَلَا رِضَىٰ فَيَبعَثَهُ عَلَىٰ تَركِ التَّحَكُّمِ[6] وَحَسم الاختِيَارِ ، وَإِسقَاطِ التَّمييزِ ، وَلَو أُدخِلَ النَّارَ»[7] .

إنما كانت هذه الدرجة أعلىٰ مما قبلها من الدرجات عنده : لأنها درجة صاحب الجمع ، الفاني بربه عن نفسه وعما منها [8] ، قد غيبه شاهد رضىٰ الله

(١) م ، ح٢ ، ط (من).

(٢) ط (وقد).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ولا).

(٤) أ ، ب ، غ زيادة (الله).

(٥) الأصل (عزّ وجلّ) وليس في بقية النسخ ولا في المنازل أيضاً.

(٦) ش (التحكيم).

(٧) منازل السائرين (٤١).

(٨) قوله : (وعما منها) أي ما يصدر منه من أعمال وطاعات ، إشارة إلىٰ عدم رؤية العمل والإعجاب به.

بالأشياء في وقوعها علىٰ مقتضىٰ مشيئته عن شاهد[1] رضاه هو ، فيشهد الرضىٰ لله ومنه حقيقة ، ويرىٰ نفسه فانياً ، ذاهباً مفقوداً ، فهو يستوحش من نفسه ، ومن صفاتها ، ومن رضاها ، و[2] سخطها ، فهو عامل علىٰ التغيب عن وجوده وعما منه ، مترام إلىٰ العدم المحض ، قد[3] تلاشىٰ وجوده ونفسه وصفاتها في وجود مولاه[4] الحق وصفاته وأفعاله ، كما يتلاشىٰ ضوء السراج الضعيف في جرم الشمس ، فغاب برضىٰ ربه عن رضاه هو [5]عن ربه في أقضيته وأقداره ، وغاب بصفات وجود ربه عن صفاته ، وبأفعاله عن أفعاله ، فتلاشىٰ وجوده وصفاته وأفعاله في جنب وجود ربه وصفاته ، بحيث صار كالعدم المحض ، وفي هذا المقام لا يرىٰ لنفسه رضىٰ ولا سخطاً ، فيوجب له هذا الفناء : ترك التحكم علىٰ الله بأمر من الأمور ، وترك التخير عليه ، فتذهب مادة التحكم وتفنىٰ ، وتنحسم مادة الاختيار وتتلاشىٰ ، وعند ذلك يسقط تمييز العبد ويتلاشىٰ ، هذا تقرير[6] كلامه.

وبعد ، فهاهنا أمران :

---

(١) ق (شاهده).

(٢) أ ، ب ، غ زيادة (ومن).

(٣) ق (فلا).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (الملك).

(٥) ط (وعن).

(٦) أ ، غ ، ق ، ط (تقدير).

أحدهما : أن هذا حال يعرض ، لا مقام يطلب ، ويُشَمَّرُ إليه ، فإن هذه الحال متىٰ عرضت له وارَتْ عنه تمييزه ، ولا يمكن أن يدوم له ذلك ؛ بل يقصر زمنه ويطول ، ثم يرجع إلىٰ تمييزه وعقله ، وصاحب هذه الحال مغلوب: إمّا سَكْران بحاله ، وإما فانٍ عن وجوده ، والكمال وراء ذلك ، وهو أن يكون فناؤه[1] عن إرادته بإرادة ربه منه ، فيكون باقياً بوجود آخر غير وجوده[2] الطبيعي ، وهو وجود مطهر[3] كائن بالله ، ولله ، ومع الله ، وصاحبه[4] هذا[5] في مقام : «فَبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش» ، قد فني عن وجوده الطبيعي النفسي ، وبقي بهذا الوجود العلوي القدسي ، فيعود عليه تمييزه ، وفرقانه ، ورضاه عن ربه تعالىٰ ، ومقامات إيمانه ، وهذا أكمل وأعلىٰ من فنائه عنها كالسكران.

فإن قلت : فهل يمكن وصوله إلىٰ هذا المقام من غير درْب الفناء ، وعبوره إليه علىٰ غير جسره؟.

قلت : اخْتُلِفَ في ذلك ، فطائفة ظنت أنه لا يصل إلىٰ البقاء ، وإلىٰ هذا

---

(١) أ ، ب ، غ ، ط (فانياً) بدل (فناؤه).

(٢) ق (معبوده).

(٣) م ، ح٢ ، د (مظهر).

(٤) أ ، غ ، ط (صاحب).

(٥) (هذا) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

الوجود المطهر(١) إلا بعد عبوره علىٰ جسر الفناء ، [فعدّوه لازماً من لوازم السير إلىٰ الله.

وقالت طائفة : بل يمكن الوصول إلىٰ الله(٢) علىٰ غير درب الفناء ، والفناء عندهم عارض(٣) ، لا(٤) لازم ، وسببه : قوة الوارد ، وضعف المحل ، واستجلابه بتعاطي أسبابه.

والتحقيق : أنه لا يصل إلىٰ هذا المقام](٥) إلا بعد عبوره علىٰ جسر الفناء ، عن مُراده بمُراد سيِّده ، فما دام لم يحصل له هذا الفناء ؛ فلا سبيل له إلىٰ ذلك البقاء. وأما فناؤه عن وجوده : فليس بشرط(٦) لذلك البقاء ، ولا هو من لوازمه.

وصاحب هذا المقام : هو في رضاه عن ربه بربه لا بنفسه(٧) ، فيرىٰ ذلك كله

---

(١) م ، ح٢ ، د (المظهر).

(٢) د ، ق (البقاء) بدل (لفظ الجلالة).

(٣) د ، ق زيادة (من عوارض الطريق).

(٤) (لا) سقطت من م ، ش.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ ، ح٢.

(٦) ط (شرطاً).

(٧) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (كما هو في توكله وتفويضه ، وتسليمه ، وإخلاصه ، ومحبته ، وغير ذلك من أحواله بربه لا بنفسه).

من عين المنَّة والفضل ، مستعملاً فيه ، قد أقيم فيه[1] ، لا أنه قد قام هو به ، فهو واقف بين مشهد ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ ومشهد ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير :٢٨ ، ٢٩] ، والله المستعان.

* * *

(١) (فيه) سقطت من ش.

فصـــل[1]

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : « الشكر »[2]. منزلة الشكر

وهي من أعلىٰ المنازل ، وهي فوق منزلة «الرضىٰ» فإنه يتضمن الرضىٰ وزيادة[3] فالرِّضىٰ مُندرج في الشكر ، إذا يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان - كما تقدم - والإيمان[4] نصفان : نصف شكر ، ونصف صبر.

وقد أمر الله به ، ونهىٰ عن ضده ، وأثنىٰ علىٰ أهله ، ووصف به خواص خلقه ، وجعله غاية خلقه وأمره ، ووعد أهله بأحسن جزائه ، وجعله سبباً للمزيد من فضله ، وحارساً وحافظاً لنعمته ، وأخبر أن أهله هم[5] المنتفعون بآياته ، واشتق لهم اسماً من أسمائه ، فإنه سبحانه هو «الشكور »[6] وهو

---

(١) في حاشية الأصل ، ش (باب الشكر) ، ط (منزلة الشكر).

(٢) منزلة الشكر : هي عندهم أحد أقسام الأخلاق التي هي بمنزلة أركان الصلاة ، وهو اسم لمعرفة النعم ؛ لأنها السبيل إلىٰ معرفة المنعم ، وهو اعتراف بالنعمة بنعت الاستكانة ، واتصاف بالوفاق والخدمة ، واعتكاف علىٰ بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة ، وقال بعضهم هو الغيبة عن الشكر برؤية المنعم.. ينظر في ذلك لطائف الإعلام ٢/ ٤١ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٤١ ، التعرف ١١٨.

(٣) (فإنه يتضمن الرضىٰ) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٤) ش زيادة (هو).

(٥) (هم) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) قال تعالىٰ : ﴿والله شكور حليم﴾[التغابن : ١٧].

موصل(١) الشاكر إلىٰ مشكوره ؛ بل يعيد الشاكر مشكوراً ، وهو غاية رضىٰ(٢) الرب من عبده ، وأهله هم القليل من عباده ، قال(٣) تعالىٰ : ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ(٤) اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل :١١٤] ، وقال : ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة :١٥٢] ، وقال عن خليله إبراهيم ﷺ : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل : ١٢٠، ١٢١] ، وقال عن نوح - عليه السلام - :﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء :٣] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا(٥) وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ٧٨] ، [وقال تعالىٰ : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾](٦)[البقرة :١٥١-١٥٢] ، (٧)وقال تعالىٰ :﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران :١٤٤] ، وقال(٨) : ﴿وَإِذْ

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (يوصل).

(٢) (رضىٰ) سقطت من ط.

(٣) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٤) (نعمة) سقطت من جميع النسخ سوىٰ غ ، ط.

(٥) م (إلىٰ قوله : ﴿لعلكم تشكرون﴾.

(٦) الآية التي بين المعقوفين سقطت من ط ، ومن أ ، ب ، غ (إلىٰ قوله : ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾).

(٧) ط (وقال تعالىٰ :﴿واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾).

(٨) ط زيادة (تعالىٰ).

تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم :٧] وقال(١) :﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم :٥ ، لقمان :٣١ ، سبأ :١٩ ، الشورىٰ :٣٣].

وسمىٰ نفسه «شاكراً»(٢) «وشكوراً»(٣) ، وسمىٰ الشاكرين بهذين الاسمين ، فأعطاهم من وصفه ، وسماهم باسمه ، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً.

وإعادته للشاكر(٤) مشكوراً، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان :٢٢] ورضىٰ الرب عن عبده به ، كقوله : ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[الزمر :٧] وقلة أهله في العالمين تدل علىٰ أنهم هم خواصه ، كقوله تعالىٰ(٥) : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ :١٣] ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتىٰ تورمت قدماه ، فقيل له : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال(٦) : «أفلا أكون عبداً شكوراً»(٧).

وقال لمعاذ(٨) : «والله يا معاذ ، إني لأحبك ، فلا تنس أن تقول في دبر كل

---

(١) ط زيادة (تعالىٰ).

(٢) قال تعالىٰ : ﴿وكان الله شاكراً عليماً﴾ [النساء : ١٤٧].

(٣) قال تعالىٰ : ﴿إن الله غفور شكور﴾ [الشورىٰ :٢٣].

(٤) ح٢ (الشاكر).

(٥) (تعالىٰ) سقطت من ط.

(٦) ط (فقال).

(٧) البخاري. التفسير (٣/ ٢٩٣) ح(٤٨٣٦) ، مسلم. صفات المنافقين وأحكامهم (٤/ ٢١٧١) ح(٢٨١٩) ، أحمد (٤/ ٢٥١ - ٢٥٥) (٦/ ١١٥).

(٨) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس ، أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي ، الإمام المقدم في

صلاة : اللهم أعنِّي علىٰ ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك»[1].

وفي المسند والترمذي من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي[2] ﷺ : «كان يدعو بهؤلاء الكلمات : اللهم أعنِّي ولا تُعن عليَّ ، وانصرني ولا تنصر عليَّ ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ[3] ، واهدني ويسِّر الهدىٰ لي ، وانصرني علىٰ من بغىٰ عليَّ، ربِّ اجعلني لك شكَّاراً لك ذكَّاراً ، لك رهَّاباً ، لك مُطواعاً[4]، لك[5] مخبتاً ، إليك أوّاهاً منيباً ربِّ تقبل توبتي ، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبِّت حجَّتي، واهدِ قلبي، وسدِّد لساني، واسلل سخيمة صدري»[6].

علم الحلال والحرام ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، بعثه النبي ﷺ إلىٰ اليمن ، توفي سنة ١٧ هـ/ طبقات ابن سعد (٢/ ٣٤٧) ، سير أعلام النبلاء (١/ ٤٤٣) ، الإصابة (٦/ ١٠٦).

(١) أحمد (٥/ ٢٤٥) ، أبو داود. الصلاة (٢/ ١٨١) ح(١٥٢٣) ، المستدرك (١/ ٢٧٣) ، وقال صحيح علىٰ شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وقال ابن حجر في فتح الباري (١١/ ١٣٣) ، أخرجه أبو داود والنسائي وصححه ابن حبان والحاكم ، النسائي في السنن الكبرىٰ (٦/ ٣٢) ، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٧٩).

(٢) ط (رسول الله).

(٣) ط (بي).

(٤) ط (مطاوعاً).

(٥) (لك) سقطت من أ.

(٦) أحمد (١/ ٢٢٧) ، الترمذي. الدعوات (٥/ ٥٥٤) ح(٣٥٥١)، وقال حسن صحيح، أبو داود. الصلاة (٢/ ١٧٥) ح(١٥١٠) ، ابن ماجه. الدعاء (٢/ ١٢٥٩) ح(٣٨٣٠) ، وابن حبان رقم(٦٨٢٩) ، وقال الألباني إسناده صحيح ، شرح السنة (١/ ١٦٨) ح(٣٨٤).

فصل

تعريف الشكر في اللغة

وأصل «الشكر» في وضع[1] اللسان[2]: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيناً، يقال: شكِرَتْ الدابة تَشْكَر شَكَراً علىٰ وزن سَمِنَت تَسْمَن سَمَناً: إذا ظهر عليها أثر العَلف، ودابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ما[3] تعطَىٰ من العلف.

وفي صحيح مسلم «حتىٰ إن الدواب لتشْكَر من لحُومِهم»[4]، أي لتسمن[5] من كثرة ما تأكل منها.

وكذلك حقيقته في العبودية، وهو ظهور أثر نعمة الله علىٰ لسان عبده: ثناء واعترافاً، وعلىٰ قلبه: شهوداً ومحبة، وعلىٰ جوارحه: انقياداً وطاعة.

و«الشكر» مبني علىٰ خمس قواعد: خُضوع الشاكر للمشكور، وحبُّه له، واعترافهُ بنعمته، والثناء[6] عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

---

(١) ب (موضع).

(٢) لسان العرب ٤/ ٤٢٣، ٤٢٤.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (ما تأكل و).

(٤) أحمد (٥/ ٥١٠)، الترمذي. تفسير القرآن (٥/ ٣١٣) ح(٣١٥٣)، وقال حسن غريب، ابن ماجه. الفتن (٢/ ١٣٦٥) ح(٤٠٨٠)، الحاكم (٤/ ٤٨٨)، وقال علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ولم أجده في مسلم.

(٥) (اللام) سقطت من د، ش، م، ح٢.

(٦) ط (وثناؤه).

فهذه الخمسة[١] هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتىٰ عُدم منها واحدة: اختل من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم في الشكر وحَدِّه، فكلامه إليها يرجع، وعليها يدور.

المعنى الاصطلاحي للشكر

فقيل: حده أنه[٢] الاعتراف بنعمة المنعم علىٰ وجه الخضوع[٣].

وقيل: الثناء علىٰ المحسن بذكر إحسانه[٤].

وقيل: هو عكوف القلب علىٰ محبة المنعم، والجوارح علىٰ طاعته، وجريان اللسان بذكره والثناء عليه.

وقيل: وهو مشاهدة المنة، وحفظ الحرمة[٥].

وما ألطف[٦] ما قال حمدون القصار[٧]: شكر النعمة أن ترىٰ نفسك فيها

---

(١) ط (الخمسة).

(٢) (أنه) سقطت من أ، ب، غ، ح٢.

(٣) الرسالة القشيرية قال: قال الأستاذ: فذكره ٢٧٦، إحياء علوم الدين ٤/ ٨٤، عدة الصابرين ٢٣٣.

(٤) الرسالة القشيرية قال: قال الأستاذ: فذكره ٢٧٦، إحياء علوم الدين ٤/ ٨٤، عدة الصابرين ٢٣٣.

(٥) القائل: أبو بكر الوراق، الرسالة القشيرية ٢٧٦، عدة الصابرين ٢٣٣.

(٦) الأصل (وأما ألطف) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط.

(٧) حمدون بن أحمد القصار النيسابوري شيخ الصوفية صحب أبا تراب النخشي وأبا حفص النيسابوري، جمع السلمي جزءاً من حكاياته، توفي سنة ٢٧١هـ/ حلية الأولياء (١٠/ ٢٣١)، المنتظم (٥/ ٨٥)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٠).

طفيلياً[1][2].

وقال أبو عثمان : الشكر معرفة العجز عن الشكر[3].

وقيل : الشكر إضافة النعم إلىٰ موليها بنعت[4] الاستكانة له[5].

وقال الجنيد : الشكر أن لا ترىٰ نفسك أهلاً للنعمة[6].

هذا معنىٰ قول حمدون : «أن يرىٰ نفسه فيها طُفيلياً[7]»[8].

وقال رويم[9] : الشكر استفراغ الطاقة[10].

وقال الشبلي : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة[11].

قلت : يحتمل كلامه أمرين :

---

(١) ط (ضفيلاً).

(٢) الرسالة القشيرية ١٧٦ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٨٥ ، عدة الصابرين ٢٣٣.

(٣) الرسالة القشيرية (٢٧٧) ، عدة الصابرين ٢٣٣ ، ومعناه في إحياء علوم الدين ٤/ ٨٥.

(٤) م (بنعمت).

(٥) الرسالة القشيرية ٢٧٦.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٧٧ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٨٥ ، عدة الصابرين ٢٣٣.

(٧) د (طفيلاً).

(٨) الرسالة القشيرية ٢٧٦.

(٩) رويم بن أحمد أبو الحسن ، بغدادي الأصل ، من جملة مشايخ بغداد ، توفي سنة ٣٠٣هـ / صفة الصفوة (٢/ ٢٨٥) ، حلية الأولياء »١٠/ ٢٩٦) ، طبقات الشعراني (١/ ٨٨).

(١٠) الرسالة القشيرية ٢٧٧ ، عدة الصابرين ٢٣٣ وزاد (في الطاعة).

(١١) الرسالة القشيرية ٢٧٧، نحوه في التعرف ١١٨ ، القوت ١/ ٢٣٨ ، عدة الصابرين٢٣٣.

أحدهما : أن يفنىٰ برؤية المنعم عن رؤية نعمه(١).

والثاني : أن لا تحجبه رؤية نعمه ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها ، وهذا أكمل والأول أقوىٰ عندهم.

والكمال : أن تشهد النعمة والمنعم ؛ لأن شكره بحسب شهود النعمة ، فكلما كان أتم كان الشكر أكمل ، والله يحب من عبده : أن يشهد نعمه ، ويعترف(٢) بها ، ويثني عليه بها ، ويحبه عليها ، لا أن يفنىٰ عنها ، ويغيب عن شهودها.

وقيل : الشكر قَيد النعم الموجودة ، وصَيد النعم المفقودة(٣).

وشكر العامة : علىٰ المطعم والمشرب(٤) والملبس(٥) ، وقوت الأبدان(٦).

وشكر الخاصة : علىٰ التوحيد والإيمان وقوت القلوب(٧).

وقال داود(٨) : يا رب ، كيف أشكرك؟ وشكري(٩) نعمة عليَّ من عندك

---

(١) نحوه ما نقله الكلاباذي في التعرف عن بعض الكبراء ١١٨ ، وسوف يرد ابن القيم علىٰ هذا التعريف قريباً.

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (له).

(٣) عدة الصابرين ٢٣٣.

(٤) (المشرب) سقطت من ش.

(٥) (الملبس) سقطت من غ.

(٦) الرسالة القشيرية عزاه لأبي عثمان ٢٧٧ ، عدة الصابرين ٢٣٣.

(٧) الرسالة القشيرية وزاد « .. وشكر الخواص علىٰ ما يرد علىٰ قلوبهم من المعاني » ٢٧٧.

(٨) ط زيادة (عليه السلام).

(٩) ط زيادة (لك).

تستوجب بها شكراً، فقال الآن شكرتني يا داود[١].

وفي أثر إسرائيلي: أن موسىٰ[٢] قال: «يا رب، خلقت آدم بيدك، ونَفَخْت فيه من روحك، وأسجدت له ملائكتك، وعلمته أسماء كل شيء، وفعلت وفعلت، فكيف أطاق شكرك؟ فقال[٣] الله عزّ وجلّ: علم أن ذلك مني، فكانت معرفته بذلك شُكراً لي»[٤].

وقيل: «الشكر التلذذ بثنائه، علىٰ ما لم تستوجب من عطائه»[٥].

وقال الجنيد - وقد سأله سَري عن الشكر، وهو صبي بعد[٦]: «الشكر أن لا يُستعان بشيء من نعم الله علىٰ معاصيه، فقال: من أين لك هذا؟ قال من مجالستك»[٧].

---

(١) الشكر لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ٣/ ١٢ رقم (٥) وبرقم (٦) وعزاه لموسىٰ ـ عليه السلام ـ، الرسالة القشيرية ٢٧٨.

(٢) ط زيادة (ﷺ).

(٣) أ، ب، غ زيادة (قال).

(٤) الرسالة القشيرية ٢٧٨، الشكر لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ٣/ ١٤ برقم (١٢) قال محققه فيه يوسف بن ميمون الصباغ ضعيف، ونحوه في عدة الصابرين ٢٣٣.

(٥) عدة الصابرين ٢٣٣.

(٦) (بعد) سقطت من أ، ب، غ، د، ووُضِعَ مكانها في ط علامة (؟).

(٧) الرسالة القشيرية ٢٧٧ ـ ٢٧٨، صفة الصفوة ٢/ ٤١٧، سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٨، شذرات الذهب ٢٢٩، نحوه في القوت ١/ ٢٣٩، عدة الصابرين ٢٣٣.

وقيل : من قصرت يده[1] عن المكافآت فليطل لسانه بالشكر [2].

والشكر معه المزيد أبداً ، لقوله تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم :٧] ، فمتىٰ لم تر حالك في مزيد ، فاستقبل الشكر.

وفي أثر إلهي : يقول الله عزَّ وجلَّ : «أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رَحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يَتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب ، لأُطهِّرهم من المعايب»[3].

وقيل : من كتم النعمة فقد كفرها[4] ، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

وهذا[5] من قوله ﷺ : «إنَّ الله إذا أنعم علىٰ عبد بنعمة أحبَّ أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده»[6].

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (يداه).

(٢) عدة الصابرين (٢٣٤).

(٣) ذكره ابن القيم في الوابل الصيب ٩.

(٤) (كفرها) سقطت من د.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (مأخوذ).

(٦) أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة (٢/ ٣١١) ، ومن حديث عمران بن حصين (٤/ ٤٣٨) ، (٣/ ٣٧٤) ، والترمذي في الأدب (٥/ ١٢٣) ح(٢٨١٩) ، وحسنه والحاكم في المستدرك (٤/ ١٥٠)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٢٦٠)، وقع لنا موصولاً لابن أبي الدنيا بتمامه ، وقال أيضاً له شاهد من حديث أبي سعيد ، وأخرجه النسائي وأبو داود وصححه ابن حبان والحاكم من حديث أبي الأحوص ، والبيهقي في

وفي هذا قيل:

ومن الرزية: أنَّ شكري صامتٌ عما فعلتَ وأنَّ بِرَّك ناطقُ
أأرىٰ[1] الصنيعة منك ثم أُسِرُّها إني إذاً لِنَدَىٰ الكريم لسارق[2]

فصل

الفرق بين الحمد والشكر

وتكلم الناس في الفرق بين «الحمد» و «الشكر» أيهما أعلىٰ وأفضل؟ وفي الحديث «الحَمْدُ رأس الشكر، فَمن لم يحمد الله لم يَشْكُره»[3].

والفرق بينهما: أن «الشكر» أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، و «الحمد» أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنىٰ هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانة، وباللسان

السنن الكبرىٰ (٣/ ٢٧١)، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٣٥)، وابن حبان في الثقات (٣/ ٣٧٦)، وللحديث شواهد بألفاظ متقاربة عن عدد من الصحابة صححه بها الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٢٨٠) ح(١٢٩٠).

(١) م، أ، غ، ح٢، ب (أرىٰ)، ط (وأرىٰ)، وفي القصيدة (أأرىٰ)، انظر الديوان (٤٥٤) وهو في الأصل كذلك أيضاً.

(٢) بيت الشعر: لأبي تمام، انظر ديوانه ٤٥٤، الرسالة القشيرية ٢٨٠.

(٣) البغوي في شرح السنة (٢/ ١٤٤)، والخطابي في غريب الحديث (١/ ٣٤٦)، وعبدالرزاق في المصنف (١٠/ ٤٢٤) وفي سنده انقطاع، والسيوطي في تدريب الراوي (٢/ ٥٧)، والديلمي في الفردوس (٢/ ١٥٥) رقم(٢٧٨٤)، شعب الإيمان (٣/ ٩٧)، وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع (٣/ ١١٣) ح(٢٧٨٩).

ثناء واعترافاً ، وبالجوارح طاعة وانقياداً ، ومتعلقه : النعم ، دون الأوصاف الذاتية فلا يقال : شكرنا[١] الله[٢] علىٰ حياته وسمعه وبصره وعلمه ، وهو المحمود عليها ، كما هو محمود علىٰ إحسانه وعدله ، والشكر يكون علىٰ الإحسان والنعم.

فكل[٣] ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح ، والحمد[٤] بالقلب واللسان.

فصل

قال صاحب «المنازل» :

«الشُّكرُ : اسْمٌ لمعْرِفَةِ النِّعمَةِ ؛ لأَنَّهَا السَّبِيلُ إِلىٰ مَعرِفَةِ المنعِمِ ، وَلهَـذَا[٥] سَمَّىٰ اللهُ تَعَالىٰ الإسلاَمَ وَالإِيمَانَ فِي القُرآنِ شُكراً»[٦].

معرفة[٧] النعمة : ركن من أركان الشكر ، لا أنها جملة الشكر ، كما تقدم :

---

(١) (الألف) سقطت من ب.

(٢) (لفظ الجلالة) سقط من أ ، غ.

(٣) ق (وكل).

(٤) ط (يقع).

(٥) منازل السائرين زيادة (المعنىٰ).

(٦) منازل السائرين ٤١.

(٧) ط (فمعرفة).

أنه الاعتراف بها[١]، والثناء عليه بها، والخضوع له ومحبته، والعمل بما يرضيه فيها، لكن لما كان معرفتها ركن الشكر الأعظم، الذي يستحيل وجود الشكر بدونه: جعل أحدهما اسماً للآخر.

قوله: «لأنَّهَا[٢] السَّبِيلُ إِلىٰ مَعرِفَةِ المنعمِ».

يعني أنه إذا عرف النعمة توصل بمعرفتها إلىٰ معرفة المنعم بها.

وهذا من جهة معرفة كونها نعمة، لا[٣] من أي جهة عرفها[٤] بها، ومتىٰ عرف المنعم أحبه، وجَدَّ في طلبه، فإن من عرف الله أحبه لا محالة، ومن عرف الدنيا أبغضها لا محالة.

وعلىٰ هذا: يكون قوله: «الشُّكْرُ اسمٌ لمَعرفَةِ النِّعمَةِ» مستلزماً لمعرفة المنعم، ومعرفته تستلزم محبته، ومحبته تستلزم شكره.

فيكون قد ذكر بعض أقسام الشكر باللفظ[٥]، ونبه علىٰ سائرها باللزوم، وهذا من أحسن اختصاره، وكمال معرفته وتصوره، قدس الله روحه.

معاني الشكر وأقوال مأثورة في ذلك

قال: «وَمَعَانِي الشُّكرِ ثَلاَثَةُ أَشْيَاء: مَعرِفَةُ النِّعْمَةِ، ثُمَّ قَبُولُ النِّعمَةِ، ثُمَّ الثَّنَاءُ بِهَا، وَهُوَ أَيْضاً مِن سُبُلِ العَامَّةِ»[٦].

---

(١) ب (فيها).

(٢) غ (لأن)، أ، ط (لأنه).

(٣) أ، ب، غ (لآخر).

(٤) ب (عرفناها).

(٥) غ (بها) بدل (اللفظ).

(٦) منازل السائرين ٤١.

أما معرفتها : فهو إحضارها في الذهن[١] ، ومشاهدتها وتمييزها.

فمعرفتها : تحصيلها ذهناً ، كما حصلت له خارجاً ، إذْ كثير من الناس يحسن[٢] إليه وهو لا يدري ، فلا يصح من هذا الشكر.

قوله : «ثُمَّ قَبُولُ النِّعْمَةِ».

قبولها : هو تلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها ، وأنّ وصولها إليه بغير استحقاق منه ، ولا بذل ثمن ؛ بل يرىٰ نفسه فيها كالطفيلي ، فإن هذا شاهد بقبولها حقيقة.

قوله[٣] : «ثُمَّ الثَّنَاءُ بِهَا».

الثناء علىٰ المنعم ، المتعلق بالنعمة نوعان : عام ، وخاص ، فالعام : وصفه بالجود والكرم ، والبر والإحسان ، وسعة العطاء ، ونحو ذلك.

والخاص : التحدث بنعمته ، والإخبار بوصولها إليه من جهته ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[الضحىٰ :١١].

وفي هذا التحديث المأمور به قولان :

أحدهما: أنه ذِكْر النعمة والإخبار بها، وقوله[٤] : أنعم الله[٥] عليَّ بكذا وكذا،

---

(١) (في الذهن) سقطت من د.

(٢) ق ، ط (تحسن).

(٣) م (وقوله).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (قولك).

(٥) (لفظ الجلالة) سقط من م ، ح٢ ، د.

قال مقاتل: يعني اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتم، والهدىٰ[١] بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة[٢].

والتحدث بنعمة الله شكر، كما في حديث جابر مرفوعاً: «من صُنِع إليه معروف فليَجزِ به، فإن لم يجد ما يجزي[٣] فليُثْنِ عليه[٤] فإنه إذا أثنىٰ عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلَّىٰ بما لم يُعْطَ كان كلابس ثوبي زور»[٥].

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثنىٰ بها، والجاحد لها والكاتم لها، والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها، فهو متحلٍّ بما لم يعطه[٦].

وفي أثر آخر مرفوع: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدُّث بنعمة الله شُكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة،

---

(١) ش (الهداية).

(٢) فتح القدير ٥/ ٤٥٩، وعنه في زاد المسير: جميع الخيرات ٩/ ١٦٠، وعن قتادة في تفسير الطبري ٣٠/ ٣٣.

(٣) في الترمذي، ط (به).

(٤) (عليه) في الأصل، وفي أبي داود (به)، وبقية النسخ بدونها.

(٥) أخرجه الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٧٩) ح(٢٠٣٤)، وأبو داود. الأدب (٥/ ١٥٨) ح(٤٨١٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٤)، مسند أبي يعلىٰ (٤/ ١٠٥)، وقال محققه حسين أسد: إسناده ضعيف، والترغيب والترهيب (٢/ ٤٤)، وفي شعب الإيمان (٦/ ٥١٤)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة وقال له طرق يتقوىٰ بها (٢/ ١٨١) ح(٦١٧).

(٦) ح٢ (يعط)، أ (يعطه الله).

والفرقة عذاب»(١).

والقول الثاني :(٢)التحدث بالنعمة المأمور به في هذا الآية : هو الدعوة إلىٰ الله ، وتبليغ رسالته ، وتعليم الأمة ، قال مجاهد : هي النبوة(٣) ، قال الزجاج : أي بَلِّغ ما أرسلت به ، وحدث بالنبوة التي آتاك الله(٤) ، وقال الكلبي(٥) : هو القرآن ، أمره أن يقرأه(٦).

والصواب : أنه يعم النوعين ، إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث

---

(١) أخرجه من حديث النعمان بن بشير الإمام أحمد (٤/ ٣٧٥) ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٤) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٤٦) ، وقال رواه عبدالله في زوائده بإسناد لا بأس به ، وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٠٥) ح(٩٦٦) ، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٦٤) وعزاه لعبدالله بن أحمد بسند لا بأس به ، وفي شعب الإيمان (٣/ ١٠٢) ، ومن طريق عائشة صنفه ابن عدي في الكامل (٤/ ٤٢٩) ، وقال يروىٰ بإسناد أصلح من هذا ، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٢٩) ، وقال يروىٰ بغير هذا الإسناد من طريق أصلح من هذا.

(٢) أ ، ب ، غ زيادة (أنَّ).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥٠٠ ، ابن كثير في التفسير (٤/ ٦٢٤) ، الدر المنثور (٨/ ٥٤٥).

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ٣٤٠ ، وزاد : وهي من أجلِّ النعم.

(٥) محمد بن السائب بن بشر الكلبي المفسر ، شيعي متروك ، توفي سنة ١٤٦هـ/ طبقات ابن سعد (٦/ ٢٤٩) ، التاريخ الكبير (١/ ١٠١) ، الجرح والتعديل (٧/ ٢٧٠) ، سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٤٨).

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥٠٠ ، الدر المنثور ٨/ ٤٤٥ ، وعزاه لمجاهد ، وكذلك الثعالبي ٤/ ٤٢٣ ، فتح القدير (٥/ ٤٥٩).

بها ، وإظهارها من شكرها.

قوله : «**وَهُوَ أَيضاً مِن سُبُل العَامَّةِ**».

مخالفة ابن القيم للهروي في جعل الشكر من سبل العامة

يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل[1][2] ، إذ[3] جعل نصف الإسلام والإيمان من أضعف السبل[4].

بل «الشكر» سبيل رسل الله وأنبيائه ،[5] و[6]أخصِّ خلقه ، وأقربهم إليه.

ويا عجباً! أي مقام أرفع من «الشكر» الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان ، حتىٰ المحبة والرضىٰ ، والتوكل وغيرها؟ فإن «الشكر» لا يصح إلا بعد حصولها ، وتالله[7] ليس لخواص[8] الله ، وأهل القرب منه سبيل أرفع من «الشكر» ولا أعلىٰ ، ولكن الشيخ - وأصحاب الفناء كلهم - يرون أن فوق هذا مقاماً أجل منه وأعلىٰ ، لأن «الشكر»[9] يتضمن نوع دعوىٰ ، وأنه شكر

---

(١) م (التعطيل).

(٢) من مخالفات ابن القيم للهروي.

(٣) الأصل (وجعل) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ.

(٤) ق (السبيل).

(٥) ط زيادة (ﷺ أجمعين).

(٦) (الواو) ساقطة من ط.

(٧) ب (وبالله).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (أولياء).

(٩) ط زيادة (عندهم).

الحق علىٰ إنعامه ، ففي الشاكر بقية من بقايا رسمه ، لم يفن[١] عنها[٢] فلو فني عنها - بتحققه أن الحق سبحانه هو الذي شكر نفسه بنفسه ، وأنَّ من لم يكن كيف يشكر من لم يزل - علم أن الشكر من منازل العامة ، ولو أن السلطان كَسَا عبداً من عبيده ثوباً من ثيابه ، فأخذ[٣] يشكر السلطان علىٰ ذلك : لعُدَّ مخطئاً مسيئاً للأدب ، فإنه مدع بذلك مكافأة السلطان بشكره ، فإن الشكر مكافأة[٤] ، والعبد أصغر قدراً من المكافأة[٥] ، والشهود للحقيقة يقتضي اتحاد[٦] نسبة الأخذ والعطاء ، ورجوعها إلىٰ وصف المعطي وقوته ، فالخاصة يسقط[٧] عندهم الشكر بالشهود ، وفي حقهم ما هو أعلىٰ منه.

هذا غاية تقرير كلامهم ، وكسوته أحسن عبارة ، لئلا يتعدىٰ عليهم بسوء[٨] التعبير الموجب للتنفير.

ونحن معنا العصمة النافعة : أن كل واحد - غير المعصوم[٩] - فمأخوذ من

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (لم يتخلص) ، ش (يفر).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (ويفزع منها).

(٣) ق (وأخذ).

(٤) (التاء) ساقطة من غ.

(٥) (التاء) ساقطة غ ، ب ، ق.

(٦) م (إيجاد).

(٧) د (عنهم عندهم).

(٨) ش (لسوء).

(٩) ط زيادة (ﷺ).

قوله ومتروك ، وكل سبيل لا يوافق سبيله فمهجور غير مسلوك.

فأما تضمن «الشكر» لنوع دَعْوىٰ ، فإن أُريد بهذه الدعوىٰ إضافته[1] الفعل إلىٰ نفسه ، وأنه كان به وغاب بذلك عن كونه بحول الله وقوته ، ومُنتّهِ علىٰ عبده : فلعَمْرُ الله هذه علة مؤثرة ، ودعوىٰ[2] كاذبة.

وإن أُريد : أن[3] شهوده لشكره شهوده[4] لنعمة الله عليه به ، وتوفيقه له فيه[5] ، [6] وإذنه له به ، ومشيئته ومنته عليه[7] فشهد[8] عبوديته وقيامه بها ، وكونها بالله ، فأي دعوىٰ في هذا؟ وأي علة؟.

نعم غايته : أنه لا يجامع الفناء[9] فكان ماذا؟.

أنتم[10] جعلتم الفناء غاية ، فأوجب لكم ما أوجب ، وقدمتموه علىٰ ما قدمه الله ورسوله ، فتضمن[11] ذلك تقديم ما أخّر ، وتأخير ما قدّم ، وإلغاء ما اعتبر ،

---

(١) د ، ق ، ط (إضافة العبد).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (باطلة).

(٣) (أن) سقطت من غ ، م ، وفي ب (به).

(٤) (الهاء) سقطت من ش.

(٥) (فيه) سقطت من ش.

(٦) ق زيادة (وإرادته).

(٧) ق (عليه ومنته).

(٨) ب (بشهود).

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (ولا يخوض تياره).

(١٠) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق بزيادة (الفاء).

(١١) أ ، ب ، غ ، ق (يتضمن).

واعتبار ما أَلْغَىٰ.

ولولا مِنَّة الله علىٰ الصادقين منكم بتحكيم الرسالة، والتقيد بالشرع لكان أمراً غير هذا، كما جرىٰ لغير واحد من السالكين علىٰ هذه[1] الطريق الخطرة، فلا إله إلا الله، كم فيها من قتيل وسليب، وجريح وأسير وطريد؟.

وأما[2] «إن الشاكر فيه بقية من بقايا رسمه».

فيقال: إذا كانت هذه البقية محض العبودية ومركبها، والحاملة لها: فأي نقص في هذا؟ فإن العبودية لا تقوم بنفسها، وإنما تقوم بهذا الرسم، فلا نقص في حمل العبودية عليه، والسير به إلىٰ الله[3].

نعم، النقص كل النقص:[4]حمل النفس[5] والشهوة والحظ المخالف لمراد الرب تعالىٰ الديني[6] علىٰ هذا الرسم، والسير به إلىٰ النفس، ولعل العامل علىٰ الفناء بهذه المثابة وهو ملبوس عليه، فالعارف يستقصي التفتيش عن كمائن النفس.

---

(١) ب (هذا).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ط زيادة (قولكم).

(٣) ط زيادة (عزّ وجلّ).

(٤) ط زيادة (في).

(٥) (النفس) سقطت من الأصل، والصحيح إثباتها كما في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٦) ش (الذي).

أما قولكم : «كيف يشكر من لم يكن[1]من لم يزل؟» فهذا بالشطح[2] أليق منه بالمعرفة ، فإن «من لم يزل» إذا أَمَرَ «من لم يكن» بالشكر ، ورضيه منه وأحبه وأثنىٰ عليه به ، واستدعاه واقتضاه منه ، وأوجب[3] له به المزيد ، وأضافه إليه ، واشتقّ له منه[4] الاسم ، وأوقع عليه به الحكم ، وأخبر أنه غاية رضاه منه ، وأمره - مع ذلك - أن يشهد أن شكره به ، وبإذنه ومشيئته وتوفيقه : فهذا شكر من لم يكن لمن يزل ، وهو محض العبودية.

وأما ضرب[5] مثل كسوة السلطان لعبده ، وأخذه في الشكر له مكافأة : فهذا من أبطل الأمثلة عقلاً ونقلاً وفطرة ، وهو الحجاب الذي أوجب لمن قال «إن شكر المنعم لا يجِب عقلاً»[6] ما قال ذلك ، حتىٰ زعم أن شكره قبيح عقلاً ،

---

(١) ط (من لم يكن كيف يشكر من لم يزل).

(٢) الشطح : شطح في السير أو القول : تباعد واسترسل ، والشطحة : يقال لفلان الصوفي : له أحوال وشطحات ، المعجم الوسيط ١/ ٤٨٢ ، وهو عند الصوفية : كلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوىٰ إلا أن يكون صاحبه مستلباً و محفوظاً ، وقيل : عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة الدعوىٰ ، تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب وهو من زلات المحققين.. معجم مصطلحات الصوفية ١٤٠. معنى الشطح

(٣) د (أحب).

(٤) ط (منه له).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (ضبركم).

(٦) (شكر المنعم لا يجب عقلاً) : هذا القول ينسجم مع مذهب الأشاعرة ، انظر في ذلك ما قاله الإيجي وهو يمثل الصياغة النهائية لمذهبهم ، المواقف ٣٢٣ ، حيث لا حكم قبل ورود الشرع فالعقل لا يقبح ولا يحس لذاته ، علىٰ النقيض من مذهب المعتزلة.

ولولا الشرع لما حسن الإقدام عليه ، وضرب هذا المثل الذي ضربتموه بعينه ، وهذا من القياس الفاسد ، المتضمن قياس الخالق علىٰ المخلوق ، وبمثله عبدت الشمس والقمر والأوثان ، إذ قال المشركون : جناب العظيم لا يُهجم عليه بغير وسائل ووسائط ، وسرت هاتان الرقيقتان[1] فيمن فسد من أهل التعبد وأهل النظر والبحث[2] ، والمعصوم من عصمه الله.

فيقال : الفرق من وجوه [كثيرة جداً ، تفوت الحصر][3].

منها : أن الملك محتاج فقير إلىٰ من أنعم عليه ، لا يقوم بملكه إلا به ، فهو محتاج إلىٰ معاوضته[4] بتلك الكسوة - مثلاً - خدمة له ، وحفظاً له ، وذبّاً عنه ، وسعياً في تحصيل مصالحه ، فكسوته له من باب المعاوضة والمعاونة ، فإذا أخذ في شكره ، فكأنه جعل ذلك ثمناً لنعمته ، وليس بثمن لها.

وأما إنعام الرب تعالىٰ علىٰ عبده : فإحسان إليه ، وتفضل عليه ، ومجرد امتنان ، لا لحاجة منه إليه ، ولا لمعاوضة ، ولا لاستعانة به ، ولا يستكثر[5] به

---

(١) الرقيقتان.. لعله إشارة إلىٰ ما يرقق الدين من الأقوال الفاسدة ، ففي لسان العرب والمعجم الوسيط معاني الرق والرقيق والاسترقاق ، لسان العرب ١٠/ ١٢٤ ، المعجم الوسيط ١/ ٣٦٦.

(٢) أهل التعبد : إشارة إلىٰ المتصوفة والخوارج ، وأهل النظر والبحث : إشارة إلىٰ أهل الكلام من المعتزلة والفلاسفة ، يُنظر في ذلك مقدمة التدمرية.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٤) ط ، أ ، غ (معاوضة).

(٥) ط (ليستكثر).

من[1] قلة ، ولا ليتعزز به من ذِلَّة ولا ليقوىٰ به من ضعف ، سبحانه وبحمده.

وأمره له بالشكر أيضاً : إنعام آخر عليه ، وإحسان منه إليه ، إذ منفعة الشكر ترجع إلىٰ العبد[2]، لا إلىٰ الله[3]، والعبد هو الذي ينتفع بشكره ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [لقمان :١٢] ، فشكره[4] إحسان[5] منه إلىٰ نفسه[6] [فلا يذم ما أتىٰ به من ذلك][7] ، وإن كان لا يحسن مقابلة المنعم به[8] فإنما هو محسن إلىٰ نفسه بالشكر ، لا أنه مُكافِئٌ به لنعم الرب ، فالرب لا يُكافي أحد نعمه أبداً ولا أقلها[9] فالله أحسن إلىٰ عبده بنعمه ، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها فشُكْرُهُ نعمة منه يحتاج إلىٰ شكر آخر وهلمّ جرّا[10].

---

(١) (من) سقطت من أ.

(٢) أ ، م ، غ ، ح٢ ، ق زيادة (دنيا وآخرة).

(٣) د زيادة (دنيا وآخرة).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فشكر العبد).

(٥) د زيادة (أحب).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (دنيا وآخرة).

(٧) ما بين المعقوفين سقط من م.

(٨) ط زيادة (ولا يستطيع شكره).

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (ولا أدنىٰ نعمة من نعمه فإنه تعالىٰ هو المنعم المتفضل الخالق للشكر ، والشاكر ، وما يُشكر عليه فلا يستطيع أحد أن يحصي ثناءً عليه فإنه هو المحسن).

(١٠) أنشد محمود الوراق :

ومن تمام نعمته سبحانه، وعظيم برِّه وكرمه وجوده: محبته له على(١) هذا الشكر، ورضاه منه به، وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته(٢) مختصة بالعبد، لا تعود منفعته على الله، وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه، ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة، ويرضى عنك بذلك(٣) ثم يعيد إليك منفعة شكرك، ويجعله سبباً لك لاتصال نعمه(٤)، والزيادة(٥) منها.

وهذا الوجه وحده يكفي وبه يتنبه اللبيب(٦) على ما بعده.

وأما كون الشهود يسقط الشكر: فلعمر الله، إنه إسقاط لحق المشكور بحظ المشاهد(٧)، نعم بحظ عظيم متعلق بالحق عزَّ وجلَّ، لا حظ سُفلي، متعلق بالكائنات ولكن صاحبه قد سار من حَرَم إلى حَرَم.

وكان يقع لي هذا القدر منذ زمان(٨)، ولا أتجاسر(٩) على التصريح به، لأن

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف وقوعُ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيامُ واتَّصل العمرُ

الشكر لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ٣/ ٣٦ رقم (٨٢)، فضيلة الشكر للخرائطي ٤٧.

(١) ق (عند).

(٢) ش (وعائدته).

(٣) (بذلك) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، د.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (لتوالي نعمه واتصالها إليك).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (على ذلك).

(٦) ق (اللبيب به تنبه على ما قبله)، م، أ، غ، ح٢، ب، د، ط (اللبيب ليتنبه به على).

(٧) أ، ب، غ (الشاهد).

(٨) ط (أزمان).

(٩) ط، ب (أتجرأ)، أ، غ (أتجارى).

أصحابه يرون من ذَكَّرهم به بعين[١] الفرق الأول[٢] ، فلا يصغون إليهم البتة ، لا سيما وقد ذاقوا حلاوته ولذته ، ورأوا تخبيط أهل الفرق الأول ، وتلوثهم[٣] بنفوسهم وعوالمها ، وانضاف إلىٰ ذلك : أن جعلوه غاية ، فتركب[٤] من هذا[٥] الأمور ما تركب ، وإذا لاحت الحقائق فليقل القائل ما[٦] شاء.

فصل

درجات الشكر[٧]

درجات الشكر الدرجة الأولى

قال : « وهوَ علىٰ ثلاثِ دَرَجاتٍ ، الدَّرَجةُ الأُولىٰ: الشُّكْرُ علىٰ[٨]

---

(١) ش (بغير).

(٢) الفرق الأول : شهود الحقيقة الكونية والفناء فيها بحيث لا يفرق بين الأمر والنهي والمحبوب والمبغض. أما الفرق الثاني : فهو شهود الحقيقة الشرعية ، المدارج ١/ ٢٤٧ ، فأهل الجمع يشهدون الحقيقة الكونية فهم في الفرق الأول ، المدارج ١/ ١٥٣ ، وهنا تقسيم يتضح فيه الفرق :

التفرقة = موجب الإلهية = أمر ونهي شرعي.

جمع = موجب الربوبية = المشيئة والخلق قدري.

تفرقة الإرادة الدينية : شرعي - تفرقة ما يحبه ويرضاه : شرعي.

جمع الإرادة الكونية : قدري - في جمع ما قدره وقضاه : قدري ، مدارج السالكين ١/ ١٥٩.

(٣) أ ، م ، غ ، ب (تلونهم).

(٤) ح٢ (وتركب).

(٥) ق (هذه).

(٦) (الميم) سقطت من ط ، وفي ب (ما شاء).

(٧) (درجات الشكر) سقطت من م ، غ ، ح٢ ، ش ، ب ، د ، ق.

(٨) في المنازل (في المحاب).

المَحَابِّ، وَهَذَا شُكْرٌ تَشَارَكَت[1] فِيهِ المسْلِمُونَ وَاليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ وَالمجُوسُ، وَمِن سَعَةِ رَحْمَةِ[2] البَارِي سُبحَانَه أَنَّه[3] عَدَّهُ شُكْراً، وَوَعَدَ عَلَيهِ الزِّيَادَةَ، وَأَوْجَبَ فِيهِ[4] المثُوبَةَ»[5].

إذا علمت حقيقة «الشكر» وأن جزء حقيقته الاستعانة بنعم المنعم علىٰ طاعته ومرضاته: علمت[6] اختصاص أهل الإسلام بهذه الدرجة، وأن حقيقة الشكر علىٰ المحاب ليست لغيرهم.

نعم لغيرهم منها بعض أركانها وأجزائها، كالاعتراف بالنعمة، والثناء علىٰ المنعم بها، فإن جميع الخلق في نعم الله، وكل من أقر بالله[7] وتفرده بالخلق والإحسان، فإنه يضيف نعمته إليه، لكن الشأن في تمام حقيقة الشكر، وهو الاستعانة بها علىٰ مرضاته[8].

---

(١) في المنازل (شاركت المسلمين فيه..).

(٢) المنازل زيادة (بر).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (أن)، وهو خلاف البقية والمنازل.

(٤) المنازل (له).

(٥) منازل السائرين ٤١.

(٦) الأصل (علم)، والأقرب ما أثبته من بقية النسخ والمنازل.

(٧) ط زيادة (رباً).

(٨) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (وقد كتبت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلىٰ معاوية ـ رضي الله عنه ـ: «إن أقل ما يجب للمنعم علىٰ من أنعم عليه أن لا يجعل ما أنعم عليه سبيلاً إلىٰ معصيته» .. ذكر نحوه في عدة الصابرين ٢٣٣.

وقد عرف مراد الشيخ ، وهو أن هذا الشكر مشترك ، وهو الاعتراف بنعمه سبحانه ، والثناء عليه بها ، والإحسان إلىٰ خلقه منها ، وهذا بلا شك يوجب حفظها عليهم والمزيد منها ، فهذا الجزء من الشكر مشترك ، وقد تكون ثمرته في الدنيا بعاجل الثواب ، وفي الآخرة بتخفيف العقاب ، فإن النارَ[١] دركاتٌ ، ودرجاتُ أهلِها[٢] في العقوبة مختلفة.

فصـــل

الدرجة الثانيـة

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّانيةُ : الشُّكر فِي المكَارِه ، وَهَذَا ممَّن تَستَوِي[٣] عِندَهُ الحَالَاتُ إظهَاراً[٤] لِلرِّضَىٰ ، وَممَّن لا[٥] يُميِّزُ بَينَ الأَحْوَالِ ، كَظم[٦] الغَيظِ ، وَ[٧] الشَّكْوَىٰ ، وَرِعَايَة الأَدَب ، وسُلُوك مَسلَك العِلم ، وَهَذَا الشَّاكِرُ أَوَّلُ مَنْ يُدْعَىٰ إِلىٰ الجَنَّةِ»[٨].

يعني أن الشكر علىٰ المكاره : أشد وأصعب من الشكر علىٰ المحاب ،

---

(١) ب زيادة (أجارنا الله منها).

(٢) (ودرجات أهلها) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د.

(٣) منازل السائرين (يستوي).

(٤) المنازل (إظهار الرضىٰ).

(٥) أ ، ب ، غ ، ش ، ط سقطت (لا) وكذلك المنازل.

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (كضم) ، وفي ط (لكضم).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ش ، ط زيادة (ستر).

(٨) منازل السائرين ٤٤.

وهذا كان فوقه في الدرجة ، ولا يكون إلا من أحد رجلين :

إما رجل لا يميز بين الحالات ؛ بل يستوي عنده المكروه والمحبوب ، فشكر هذا إظهار منه للرضىٰ بما نزل به ، وهذا مقام الرضىٰ.

الرجل(١) الثاني : من يميز بين الأحوال ، فهو لا يحب المكروه ، ولا يرضىٰ بنزوله به ، فإذا(٢) نزل به مكروه شكر الله تعالىٰ عليه ، فكان شكره كظماً للغيظ الذي أصابه ، وستراً للشكوىٰ ، و(٣)رعاية منه للأدب ، وسلوكاً لمسلك العلم ، فإن العلم(٤) والأدب يأمران بشكر الله علىٰ السراء والضراء ، فهو يسلك بهذا الشكر(٥) مسلك العلم ، لا أنه(٦) شاكر لله شكر من رضي بقضائه ، كحال الذي قبله ، فالذي قبله أرفع منه.

وإنما كان هذا الشاكر أول من يُدعىٰ إلىٰ الجنة : لأنه قابل المكاره - التي يقابلها أكثر الناس بالجزع والسخط ، وأوساطهم بالصبر ، وخاصتهم بالرضىٰ - فقابلها هو بأعلىٰ من ذلك كله ، وهو الشكر ، فكان أسبقهم دخولاً إلىٰ الجنة ، وأول من يدعىٰ منهم إليها.

---

(١) في ط ، الأصل (الوجه) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ.

(٢) ق (ولكن إذا..).

(٣) (الواو) ساقط من ش.

(٤) (العلم) ساقطة من د.

(٥) ط (الشرك).

(٦) أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ط (لأنه).

وقسَّم أهلَ هذه الدرجة إلىٰ قسمين : سابقين ، ومقرَّبين ، بحسب انقسامهم إلىٰ من يستوي عنده الحالات ، من المكروه والمحبوب ، فلا يؤثر أحدهما علىٰ الآخر ؛ بل قد فني بإيثاره ما يُرضىٰ له به ربه عما يرضاه هو لنفسه ، وإلىٰ من يؤثر المحبوب ، ولكن إذا نزل به المكروه قابله بالشكر.

فصـــل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : أَن لا يَشْهَدَ العَبدُ إِلَّا المنُعِمَ ، فَإِذَا شَهِدَ المنعِمَ عُبُودِيَّةً[1] : استَعْظَمَ مِنهُ النِّعمَةَ ، وَإِذَا شَهِدَهُ حُبّاً : اسْتَحْلىٰ مِنْهُ الشِّدَّةَ ، وَإِذَا شَهِدَهُ تَفرِيداً : لَم يَشهَدْ مِنْهُ نِعْمَةً ، وَلَا شِدَّةً[2]»[3]. الدرجة الثالثة

[4] هذه الدرجة يستغرق صاحبها بشهود المنعم عن النعمة ، فلا يتسع شهوده للمنعم ولغيره.

وقَسم[5] أصحابها إلىٰ ثلاثة أقسام : أصحاب شهود العبودية ، وأصحاب شهود الحب، وأصحاب شهود التَّفريد، وجعل لكلٍّ منهم حُكماً ، هو أولىٰ به.

فأما شهوده عبودية : فهو مشاهدة العبد للسيد بحقيقة العبودية والملك له ،

---

(١) ق ، د ، ب (عبوديته) ، المنازل (عبودة).

(٢) المنازل (شدة ولا نعمة).

(٣) منازل السائرين ٤٢.

(٤) ق (فصل).

(٥) ش (ضم).

فإن العبيد إذا حضروا بين يدي سيدهم ، فإنهم ينسون ما هم فيه من الجاه ، والقرب الذي اختصُّوا به عن غيرهم باستغراقهم في أدب العبودية وحقها ، وملاحظتهم لسيدهم(١) ، خوفاً أن يشير إليهم(٢) بأمر ، فيجدهم غافلين عن ملاحظته ، وهذا أمر يعرفه من شاهد أحوال الملوك وخواصهم.

فهذا هو شهود العبد للمنعم بوصف عبوديته له ، واستغراقه عن الإحساس(٣) بما حصل له منه في(٤) القرب الذي تميز به عن غيره.

فصاحب هذا المشهد : إذا أنعم عليه سيده في هذه الحال - مع قيامه في مقام العبودية - يوجب عليه أن يستصغر نفسه في حضرة سيده غاية الاستصغار ، مع امتلاء قلبه من محبته ، فأي إحسان ناله منه في هذه الحالة رآه عظيماً ، والواقع شاهد بهذا في حال المحب الكامل المحبة(٥) ، المستغرق في مشاهدة محبوبه إذا ناوله شيئاً يسيراً ، فإنه يراه في ذلك المقام عظيماً جداً ، ولا يراه غيره(٦) كذلك.

القسم الثاني : يشهد الحق شهود محبة غالبة قاهرة له ، مستغرق في شهوده

---

(١) ش (لسيده).

(٢) ب (عليهم).

(٣) أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ط (الإحسان).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (من) بدل (في).

(٥) (المحبة) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح٢.

(٦) ش (غير ذلك).

كذلك، فإنه يستحلي في هذه الحال الشدة منه[١]؛ لأن المحب يستحلي فعل المحبوب به.

وأقل ما في هذا المشهد :[٢] أن يخف عليه حمل الشدائد، إن لم تسمح نفسه باستحلائها، وفي هذا من الحكايات المعروفة عند الناس ما يغني عن ذكرها، كحال الذي كان يُضرب بالسياط ولا يتحرك، حتىٰ ضرب آخر[٣] سوط، فصاح صياحاً شديداً، فقيل له في ذلك، فقال: العين التي[٤] كانت تنظر[٥] إليَّ وقت الضرب كانت تمنعني من الإحساس بالألم، فلما فقدتُها وجدتُ ألمَ الضَّربِ.

وهذه الحال عارضة ليست بلازمة، فإن الطبيعة تأبىٰ استحلاء المنافي كاستحلاء الموافق.

نعم قد يقوىٰ سلطان المحبة حتىٰ يستحلي المحب ما يستمره غيره، ويستخف ما يستثقله غيره، لذلك[٦] يأنس بما يستوحش منه الخَليُّ[٧]،

---

(١) غ (معه).

(٢) م، ب (أنه).

(٣) الأصل، ق (في الآخر) والأقرب ما أثبته من البقية.

(٤) ب (الذي).

(٥) (تنظر) سقطت من ش.

(٦) أ، ب، غ (ويأنس).

(٧) الخلي: هو الفارغ البال من الهم، وفي المثل: (ويل للشجي من الخلي) المعجم الوسيط ١/ ٢٥٤.

ويستوحش مما يأنس به ، ويستلين[1] ما يستوعره ، وقوة هذا وضعفه بحسب قهر سلطان المحبة ، وغلبته علىٰ قلب المحب.

القسم الثالث : أن يشهده تفريداً ، فإنهٔ لا يشهد معه نعمة ولا شدة.

يقول : إن شهود التفريد ، يُفني الرسم ، وهذه حال صاحب[2] الفناء المستغرق فيه ، الذي لا يشهد نعمة ولا بليّة ، فإنه يغيب بمشهوده عن شهوده له ، ويفنىٰ به عنه ، فكيف يشهد معه نعمة أو بليّة؟ كما قال بعضهم في هذا : من كانت مواهبه لا تتعدىٰ يديه فلا واهب ولا موهوب.

وذلك مقام الجَمع عندهم ، وبعضهم يحرِّم العبارة عنه.

وحقيقته : اصطلامٌ[3] يرفع إحساس صاحبه برسمه ، فضلاً عن رسم غيره ، لاستغراقه في مشهوده[4] وغيبته به[5] عما سواه ، وهذا هو مطلوب القوم.

---

(١) د ، ق (يستأنس).

(٢) (صاحب) سقطت من ط.

(٣) اصطلام : معنىٰ الاصطلام في اللغة : الاستئصال ، اصطلم القوم أُبيدوا ، من الصلم وهو القطع ، لسان العرب ١٢/ ٣٤٠ ، مادة (صلم).

تعريف الاصطلام

أما معناه عند الصوفية : فهو نعت وَلَهٍ يرد علىٰ القلب ، فيسكن القلب تحت غلبته وسلطانه ، وهو قريب من الهيمان ، وهو عندهم وَلَه يسلب النفس والحس ، فهو بهذه الحالة ممحو الآثار ، لا تجري عليه أحكام التكليف ، انظر لطائف الإعلام ٢/ ٢٠٩ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٧ ، رشح الزلال ١١٣.

(٤) م ، ح٢ (شهوده).

(٥) (به) سقطت من ش.

وقد عرفت أن فوقه مقاماً أعلىٰ منه ، وأرفع وأجل ، وهو أن يصطلم بمراده عن غيره ، فيكون في حال مشاهدته واستغراقه : منفذاً لمراسيمه[١] ومراده ، ملاحظاً لما محبوبه ملاحظٌ له[٢] من المرادات والأوامر.

فتأمل الآن عبدين بين يدي ملك من ملوك الدنيا ، وهما علىٰ موقف واحد بين يديه ، أحدهما مشغول بمشاهدته ، فَانٍ[٣] في استغراقه في ملاحظة الملك ، ليس فيه متسع إلىٰ ملاحظة شيء من أمور الملك البتة ، وآخر مشغول بملاحظة حركات الملك وكلماته ، وأيش[٤] أمره ولحظاته وخواطره ، ليرتب علىٰ كُلٍّ من ذلك ما هو مراد[٥] للملك.

وتأمل قصة بعض الملوك : الذي كان له غلام يخصه بإقباله عليه وإكرامه ، والحظوة عنده من بين سائر غلمانه - ولم يكن[٦] أكثرهم قيمة ، ولا أحسنهم صورة - فقالوا له في ذلك ، فأراد السلطان أن يبين لهم فضل الغلام في الخدمة علىٰ غيره ، فيوماً من الأيام كان راكباً[٧]، ومعه الحشم، وبالبعد منه[٨]

---

(١) ق (لمراده ولمراسيمه).

(٢) ط (لما يلاحظه محبوبه).

(٣) ط سقطت (في) وفي ق (فانٍ استغراقه).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (أيسر) ، و ق (أيس).

(٥) الأصل (مراداً) والصحيح من حيث اللغة ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ش.

(٦) د ، ق زيادة (الغلام).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د زيادة (في بعض شؤونه).

(٨) غ (من).

جبل عليه ثلج، فنظر السلطان إلىٰ ذلك الثلج وأطرق، فركض الغلام فرسه ولم يعلم القوم لماذا ركض، فلم يلبث أن جاء ومعه شيء من الثلج، فقال السلطان: ما أدراك أني أريد الثلج؟ فقال الغلام: لأنك نظرت إليه، ونظر السلطان[1] إلىٰ شيء[2] لا يكون عن غير قصد، فقال السلطان: إنما أخصه بإكرامي وإقبالي لأن لكل واحد[3] شغلاً، وشغله مراعاة لحظاتي، ومراقبة أحوالي، يعني في تحصيل مرادي.

وسمعت بعض الشيوخ يقول: لو قال ملك لغلامين له بين يديه، مستغرقين[4] في مشاهدته، والإقبال عليه: اذهبا إلىٰ بلاد عدوي[5]، فأوصلا إليهم هذه[6] الكتب، وطالعاني[7] بأحوالهم، وافعلا كيت وكيت، فأحدهما: مضىٰ من[8] ساعته لوجهه، وبادر ما أمره[9] به، والآخر قال: أنا لا أدع مشاهدتك، والاستغراق فيك، ودوام النظر إليك، و[10]أشتغل بغيرك:

---

(١) د (الملوك).

(٢) (شيء) سقطت من أ، ب، غ.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (منكم).

(٤) أ، ب، غ زيادة (له).

(٥) أ، ب، غ (كذا وكذا) بدل (عدوي).

(٦) غ (وهذا).

(٧) ب (طالعا).

(٨) (من) سقطت من ق.

(٩) ش (ما أمر).

(١٠) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (ولا أشتغل).

لكان[1] هذا جديراً بمقت الملك له، وبغضه إياه وسقوطه من عينه، إذْ هو واقف مع مجرد حظه من الملك، لا مع مراد الملك منه، بخلاف صاحبه الأول[2].

وسمعته أيضاً يقول: لو أن شخصين ادعيا محبة محبوب فجاءا حتىٰ[3] حضرا بين يديه، فأقبل أحدهما علىٰ مشاهدته والنظر إليه فقط، وأقبل الآخر علىٰ استقراء مراداته ومراضيه وأوامره ليمتثلها، فقال لهما: ما تريدان؟ فقال أحدهما: أريد دوام مشاهدتك، والاستغراق في جمالك، وقال الآخر: أريد تنفيذ أوامرك، وتحصيل مراضيك، فمرادي منك ما تريده[4] مني[5]، والآخر قال: مرادي منك تمتُّعِي بمشاهدتك، أكانا[6] عنده سواء؟.

ومن[7] هو[8] صاحب المحبة المعلولة[9] النفسانية، وصاحب المحبة الصحيحة الصادقة والتامة[10].

---

(١) ق (فهذا).

(٢) (الأول) سقطت من أ، ب، غ، ح٢.

(٣) (فجاءا حتىٰ) سقطت من ط، و (حتىٰ) سقطت من غ، ح٢، م.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (أنت).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (لا ما أريده أنا منك).

(٦) ق الألف ساقطة من (أكانا).

(٧) ط (فمن).

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (الآن).

(٩) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (المدخولة الناقصة).

(١٠) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (الكاملة أهذا أم هذا).

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحمه الله[١] - يحكي عن بعض العارفين[٢] أنه قال : الناس يعبدون الله ، و[٣]الصوفية يعبدون نفوسهم[٤].

أراد هذا المعنى[٥] ، وأنهم واقفون مع مرادهم من الله ، لا مع مراد الله منهم.

وهذا عين عبادة النفس ، فليتأمل اللبيب هذا الموضع حق التأمل فإنه محك وميزان ، والله المستعان.

* * *

(١) ق (قدس الله روحه).

(٢) د (الصادقين).

(٣) د زيادة (بعض).

(٤) ط (أنفسهم).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (المتقدم).

فصـــل[1]

منزلة الحيـاء

ومن منازل : «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الحياء»[2].

قال الله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق : ١٤][3].

وفي الصحيح من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ مرَّ برجل وهو يعظ أخاه في الحياء ، فقال : « **دَعْه ، فإن الحياء من الإيمان**»[4].

وفيهما عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[5].

---

(١) في حاشية ش (باب الحياء) ، ط (منزلة الحياء).

(٢) الحياء : « انقباض النفس من شيء ، وتركه حذراً من اللوم فيه ، وهو عندهم ينقسم إلىٰ حياء العامة: وهو ما يحدث لهم عند علمهم بنظر الحق إليهم، وهو حامل علىٰ تكميل المجاهدة ، وحياء الخاصة : وهو ما يحدث لهم عند مشاهدة كشف جمعية لا يمازجه حجاب تفرقة وغيرية ، وهو شهود الأمر محققاً بالله ، فالأول موجبه الخبر ، والثاني موجبه العيان لبلوغه مقام الإيمان » الرسالة القشيرية.

انظر لطائف الإعلام (١/ ٤٣٦) ، معجم مصطلحات الصوفية ٨٣.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (وقوله : ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ [النساء :١] ، وقال تعالىٰ : ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر :١٩]).

(٤) البخاري. الإيمان (١/ ٢٤) ح(٢٤) ، مسلم. الإيمان (١/ ٦٣) ح(٣٦) ، أحمد (٢/ ١٤٧).

(٥) البخاري. الأدب (٤/ ١١٣) ح(٦١١٧)، مسلم. الإيمان (١/ ٦٣) ح(٣٧)، أحمد (٤/ ٢٤٧).

وفيهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ[١] : «**الإيمان بِضعٌ وسبعون شعبة - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق ، والحياء شُعبة من الإيمان**»[٢].

وفيهما عن أبي سعيد[٣] رضي الله عنه[٤] «كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العَذراءِ في خِدرها ، فإذا رأىٰ شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»[٥].

وفي الصحيح عنه ﷺ : «**إنَّ مما أدرك الناس في كلام النبوة الأولىٰ : إذا لم تستحِ فاصنع ما شِئت**»[٦] ، وفي هذا قولان :

أحدهما[٧] : أنه أمر تهديد ، ومعناه الخبَر ، أي من لم[٨] يستح صنع ما شاء.

والثاني : أنه أمر إباحة ، أي انظر إلىٰ الفعل الذي تريد أن تفعله ، فإن كان

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (أنه قال).

(٢) البخاري. الإيمان (١/ ٢٠) ح(٩) ، مسلم. الإيمان (١/ ٦٣) ح(٣٥) ، أحمد (٢/ ٤١٤) ، الترمذي. الإيمان (٥/ ١٠) ح(٢٦١٤).

(٣) ط ، غ زيادة (الخدري).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (أنه قال).

(٥) البخاري. المناقب (٢/ ٥١٨) ح(٣٥٦٢) ، مسلم. الفضائل (٤/ ١٨٠٩) ح(٢٣٢٠) ، أحمد (٣/ ٧١ ـ ٩١).

(٦) البخاري. أحاديث الأنبياء (٢/ ٥٠١) ح(٣٤٨٣) ، أحمد (٥/ ٣٨٣) (٤/ ١٢١) ، أبو داود. الأدب (٥/ ١٤٨) ح(٤٧٩٧) ، ابن ماجه. الزهد (٢/ ١٤٠٠) ح(٤١٨٣).

(٧) (أحدهما) سقطت من ح٢.

(٨) (لم) سقطت من د.

مما لا يُسْتَحىٰ[١] منه فافعله[٢] ، والأول أصح وهو قول الأكثرين.

وفي الترمذي مرفوعاً : «استحيوا من الله حقَّ الحياء ، قالوا : إنَّا نستحي يا رسول الله ، قال : ليس ذلكم ، ولكن من استحىٰ من الله حق الحياء فليحفظ الرَّأس وما وعىٰ ، وليحفظ البطن وما حوىٰ ، وليذكرِ الموت والبِلىٰ ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدُّنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحىٰ من الله حق الحياء»[٣].

فصل

تعريف الحياء والأقوال المأثورة فيه

و«الحياء» من الحياة ، ومنه «الحيا» للمطر ؛ لكن هو مقصور ، وعلىٰ حسب حياة القلب يكون[٤] فيه قوة خُلُق الحياء ، وقلة الحياء من موت القلب والروح فكلما[٥] كان القلب أحيا كان الحياء أتم.

قال الجنيد - رحمه الله - : « الحياء رؤية الآلاء ، ورؤية التَّقصير ، فيتولد

---

(١) م ، ش (تستحي).

(٢) ق (لا تستحي من فعله إذا فعلته).

(٣) الترمذي. صفة القيامة (٤/ ٦٣٧) ح(٢٤٥٨) ، وقال حديث غريب ، أحمد (١/ ٣٨٧) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٣) ، وصححه ووافقه الذهبي ، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٥٢) ، وسنده ضعيف فيه الصباح الأحمسي ، انظر تهذيب الكمال (٤/ ٣٧٤) ، وقد رجح الأئمة وقفه كما في العلل للدارقطني (٥/ ٢٧٠) ، والذهبي في الميزان (٢/ ٣٠٦) ، فهو موقوف علىٰ ابن مسعود ، وذكره الألباني في ضعيف الجامع (١/ ٢٦٥) رقم(٩٠٥).

(٤) م ، ش (تكون).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (وكلما).

بينهما حالة تسمىٰ الحياء ، وحقيقته خُلق يبعث علىٰ ترك القبائح ، ويمنع التفريط في حق صاحب الحق»[١].

ومن كلام بعض الحكماء : «أحيوا الحياء بمجالسة من يُسْتحىٰ منه[٢] ، وعمارة القلب بالهيبة والحياء ، فإذا ذهبا من القلب لم يبق به خير»[٣].

وقال ذو النون : «الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلىٰ ربك ، والحب ينطق والحياء يُسكت والخوف يُقلق»[٤].

وقال السري[٥] : «إن الحياء والأنس يطرقان القلب ، فإن وجدا فيه الزهد والورع وإلا رحلا»[٦].

وفي أثر إلهي يقول الله عزَّ وجلَّ : «ابن آدم ، إنك ما استحييت مني[٧] أنسيت الناس عيوبك ، وأنسيت بقاع الأرض ذُنوبك ، ومحوت من أمِّ الكتاب

---

(١) الرسالة القشيرية (٣٢٦) ، وذكره النووي في آخر باب الحياء ، رياض الصالحين ، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٤٧).

(٢) عزاه البيهقي لابن الأعرابي ، انظر شعب الإيمان (٦/ ٥٠٦) ، الرسالة القشيرية(٣٢٣).

(٣) نحوه عن ابن عطاء ، الرسالة القشيرية(٣٢٣).

(٤) الرسالة القشيرية (٣٢٣) بنحوه ، أوله في شعب الإيمان (٦/ ١٤٧) رقم(٧٧٤٣).

(٥) أبو الحسن ، السري بن مغلس السقطي خال الجنيد وأستاذه ، له أقوال في الزهد والرقائق ، توفي سنة ٢٥١هـ/ صفة الصفوة (٢/ ٢٤٢) ، حلية الأولياء (١٠/ ١١٦).

(٦) الرسالة القشيرية (٣٢٤) ، شعب الإيمان (٦/ ١٤٨) رقم(٧٧٤٦) ، صفة الصفوة (٢/ ٣٨١).

(٧) (مني) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح٢.

زلاتك[1] ، وإلا ناقشتك الحِساب يوم القيامة»[2].

وفي أثر آخر : «أوحىٰ الله عزَّ وجلَّ إلىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : عظ نفسك ، فإن اتعظت ، وإلا فاستحي مني[3] : أن تعظ الناس»[4].

وقال الفضيل بن عياض : «خمس من علامات الشّقوة : القسوة في القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل»[5].

وفي أثر إلهي «ما أنصفني عبدي ، يدعوني فأستحيي أنْ أردَّه ، ويعصيني ولا يستحي مني[6]»[7].

---

(١) قال الإمام السعدي ـ رحمه الله ـ : «هذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه ، وكتبه قلمه ، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير ؛ لأن ذلك محال علىٰ الله أن يقع في علمه نقص أو خلل ، ولهذا قال : ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أي اللوح المحفوظ.. فالتبديل والتغيير يقع في الفروع والشعب ، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة ويجعل الله لثبوتها أسباباً ولمحوها أسباباً لا تتعدىٰ تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ.. فما يديره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ » .
تفسير الكريم الرحمن ٤/ ١١٦ ـ ١١٧ .

(٢) الرسالة القشيرية ٣٢٥ ، شعب الإيمان بسنده إلىٰ أبي سليمان الداراني ٦/ ١٥٠ .

(٣) م ، ش (من).

(٤) الرسالة القشيرية ٣٢٥ ، حلية الأولياء ٢/ ٣٨٢ ، إحياء علوم الدين ١/ ٦٣ .

(٥) الرسالة القشيرية (٣٢٩) ، شعب الإيمان (٦/ ١٤٨) رقم(٧٧٤٧).

(٦) (مني) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٧) عزاه في الرسالة القشيرية لبعض الكتب من دون تسمية لها ٣٢٦ .

وقال يحيىٰ بن معاذ : «من استحيا من الله مُطيعاً استحيا[1] منه وهو مذنب»[2].

وهذا الكلام يحتاج إلىٰ شرح.

ومعناه : أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتىٰ في حال[3] طاعته ، فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل : فإنه إذا واقع[4] ذنباً استحيا الله عزَّ وجلَّ من نظره إليه في تلك الحال[5] لكرامته عليه ، فيستحيي أن يرىٰ من وليه ومن يَكْرُم عليه : ما يشينه عنده ، وفي الشاهد شاهد بذلك ، فإن الرجل إذا اطلع علىٰ أخص الناس به ، وأحبهم إليه وأقربهم منه - من صاحب ، أو ولد ، أو من يحبه - وهو يخونه ، فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياء عجيب ، حتىٰ كأنه هو الجاني ، وهذا غاية الكرم.

وقد قيل : إن سبب هذا الحياء إنه يمثل نفسه[6] وهو الخائن فيلحقه الحياء ،

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (الله).

(٢) الرسالة القشيرية ٣٢٦.

(٣) (حال) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٤) ش ، د (وقع).

(٥) ح٢ (الحالة).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (في حال طاعته كأنه يعصي الله عزّ وجلّ فيستحي منه في تلك الحال ، ولهذا شرع الاستغفار عقيب الأعمال الصالحة ، والقرب التي يتقرب بها العبد إلىٰ الله عزّ وجلّ ، وقيل : أنه يمثل نفسه خائناً) ، وفي م ، ح٢ (جانياً).

كما إذا شاهد الرجل[١] مضروباً[٢] أو من[٣] أُحصِر علىٰ المنبر عن الكلام ، فإنه يخجل أيضاً ، تمثيلاً لنفسه بتلك الحال.

وهذا قد[٤] يقع، ولكن حياء من اطلع علىٰ محبوب له[٥] يخونه ليس من هذا، فإنه لو اطلع علىٰ غيره ممن هو فارغ البال منه ، لم يلحقه هذا الحياء ولا قريب منه ، وإنما يلحقه مقته وسقوطه من عينه ، وإنما سببه - والله أعلم - شدة تعلق قلبه ونفسه به ، فينزل الوهم فعله بمنزلة[٦] فعله هو ، و[٧]لا سيما إن قدر حصول المكاشفة بينهما ، فإن عند حصولها يهيج خلق الحياء منه تكرُّماً ، فعند تقديرها ينبعث الحياء ، هذا في حق الشاهد.

وأما حياء الرب[٨] من عبده : فذاك نوع آخر ، لا تدركه الأفهام ، ولا تكيفه العقول ، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال ، فإنه[٩] حيي كريم يستحيي من عبده

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (رجلاً).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط زيادة (وهو صديقاً له) ، وفي ق (وهو صديق له مضروباً).

(٣) ط زيادة (قد).

(٤) (قد) سقطت من غ.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (محبوبه وهو).

(٦) ش (ما فعله).

(٧) (الواو) سقطت من ش.

(٨) ق ، ط زيادة (تعالىٰ).

(٩) ق ، ط زيادة (تبارك وتعالىٰ).

إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صفراً[1]، ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام[2].

وكان يحيىٰ بن معاذ[3] يقول: «سبحان من يذنب عبده ويستحيي هو»[4]، وفي أثر: «من استحيا من الله استحيا الله منه»[5].

وقد قُسم «الحياء» علىٰ عشرة أوجه: حياء جِناية، وحياء تقصير، وحياء

(١) في هذا إشارة إلىٰ الحديث: «إن الله يستحي من عبده إذا رفع يديه..» أخرجه أبو داود. الصلاة (٢/ ١٦٥) ح(١٤٨٨)، الترمذي. الدعوات (٥/ ٥٥٦) ح(٣٥٥٦)، وقال حسن غريب، البيهقي في السنن (٢/ ٢١١) ح(٢٩٦٢)، الطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٦) ح(٦١٤٨)، صحيح ابن حبان (٣/ ١٦٠) ح(٨٧٥)، صحيح ابن ماجه (٢/ ٣٣١) ح(٣٨٦٧) وزيادة (أو قال خائبتين).

(٢) في هذا الكلام إشارة إلىٰ الحديث القدسي، وقد ورد من طريق أنس ولفظه «إن الله يستحي من عبده وأمته يشيبان في الإسلام يعذبهما..» أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٥/ ١٣٥)، وقال محققه حسين أسد إسناده ضعيف، مسند الحارث (زوائد الهيثمي) (٢/ ٩٧٦)، وابن عدي في الكامل (١/ ٣٥٧)، وفيه أيوب بن ذكوان عن الحسن، قال البخاري منكر الحديث، وابن حبان في المجروحين (٢/ ١٦٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٨٧)، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٨٤)، وقال في سنده ضعف، وعزاه للسيوطي في الجامع الصغير عن ابن النجار.

(٣) ق زيادة (رحمه الله).

(٤) الرسالة القشيرية ٣٢٦.

(٥) ورد في معناه قصة الثلاثة نفر الذين مروا علىٰ رسول الله ﷺ في حلقة ذكر يعظ أصحابه، والقصة في الدعاء للطبراني (٥٣٣)، والتمهيد لابن عبدالبر (١/ ٣١٧).

أقسام الحياء

جلال[1]، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استِصْغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة[2]، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحيي من نفسه[3].

فأما حياء الجناية: فمنه حياء آدم عليه السلام لما فَرَّ هارباً في الجنة، قال الله تعالىٰ: أفراراً مني يا آدم؟ قال: لا[4] يا ربّ، بل حياء منك[5].

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سُبحانك! ما عبدناك حق عبادتك[6].

وحياء الإجلال: هو حياء معرفة، وعلىٰ حسب معرفة العبد بربه يكون

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (إجلال).

(٢) ب، م (محب).

(٣) انظر هذه الأقسام في الرسالة القشيرية ٣٢٥.

(٤) (لا) سقطت من الأصل، والأقرب إثباتها كما في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط.

(٥) حلية الأولياء (٥/ ١١٣)، التوابين للمقدسي تحقيق الأرناؤوط ٩.

(٦) روي هذا الحديث من طرق متعددة وعن عدد من الصحابة: من طريق جابر عند الطبراني في الكبير (٢/ ١٨٤)، والعظمة لأبي الشيخ (٣/ ١٠١٥)، وتعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٦٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥٨) فيه عروة بن مروان قال الدارقطني ليس بقوي الحديث وبقية رجاله رجال الصحيح، وأورده في شعب الإيمان (١/ ١٨٤)، ومن طريق عمر في المستدرك (٣/ ٩٣)، وقال: صحيح علىٰ شرط البخاري ولم يخرجاه، ومن طريق سلمان في المستدرك (٤/ ٦٢٩)، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه، والزهد لابن المبارك (٤٧٨)، وفي الترغيب والترهيب (٤/ ٢٣٠)، وعن عدي بن أرطأة عن رجل، أخرجه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٤٧)، وقال إسناده لا بأس به.

حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبيّ ﷺ من القوم الذين دعاهم إلىٰ وليمة زينب، وطَوَّلوا[1] عنده فقام واستحيىٰ أن يقول لهم انصرفوا[2].

وحياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه[3].

وحياء الاستحقار[4]، واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عزّ وجل حين يسأله حوائجه، احتقاراً لشأن[5] نفسه واستصغاراً لها، وفي أثر إسرائيلي «إن موسىٰ[6] قال: يا رب، إنه لتعرض لي الحاجة من الدنيا، فأستحيي أن أسألك[7] يا رب، فقال الله تعالىٰ: سَلْني حتىٰ مِلْح عجينك[8] وعَلَف شاتك»[9].

---

(١) ط زيادة (الجلوس).

(٢) البخاري. النكاح (٣/ ٣٧٦) ح(٥١٥٤)، مسلم. النكاح (٢/ ١٠٤٨) ح(٤٢٨)، أحمد (٣/ ١٦٥).

(٣) الحديث في البخاري. الغسل (١/ ١٠٥) ح(٢٦٩)، مسلم. الحيض (١/ ٢٤٧) ح(٣٠٣)، أحمد (١/ ١٢٤)، وقوله: (حياء الحشمة) في الرسالة القشيرية(٣٢٥).

(٤) أ، ب، غ زيادة (وهي).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (بشأن).

(٦) ط زيادة (عليه السلام).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (هي).

(٨) أ، ب، غ (عجينتك).

(٩) ذكره أبو بكر الرازي بدون عزو في منازل السائرين ٤٥٣، الرسالة القشيرية ٣٢٦، وأورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم، طبعة دار المعرفة ٢٢٥.

وقد يكون لهذا[١] النوع من الحياء[٢] سببان.

أحدهما : استحقار السائل نفسه[٣].

الثاني : استعظامه[٤] مسؤوله.

وأما حياء المحبة : فهو حياء المحب من محبوبه ، حتىٰ أنه[٥] إذا خطر علىٰ قلبه في حال[٦] غيبته هاج الحياء من قلبه ، وأحس به في وجهه ، ولا يدري[٧] ما سببه ، وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته[٨] محبوبه ومفاجأته[٩] له روعة شديدة ، ومنه[١٠] قولهم «جمال رائع» وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثر الناس ، ولا ريب أن للمحبة[١١] سلطاناً قاهراً للقلب أعظم من سلطان من يقهر البدن ، فأين من يقهر قلبك وروحك إلىٰ من يقهر بدنك؟ ولذلك[١٢]

---

(١) غ (هذا).

(٢) (من الحياء) سقطت من غ ، ب ، أ ، ط.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د زيادة (واستعظام ذنوبه وخطاياه).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (استعظام).

(٥) (أنه) سقطت من ق.

(٦) (حال) سقطت من ط.

(٧) ش (يدرك).

(٨) ب ، ش (ملاقاة).

(٩) أ ، ب ، غ (مفاجأته).

(١٠) ش (منهم).

(١١) ق (للمحب).

(١٢) ح٢ (فلذلك).

تعجبت الملوك والجبابرة من قهرهم للخلق، وقهر المحبوب لهم، وذلهم له فإذا فاجأ[1] المحبوب محبه، ورآه بغتة[2]: أحس القلب بهجوم سلطانه عليه، فاعتراه روعة وخوف.

وسألنا يوماً شيخُ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله[3]- عن هذه المسألة؟ فذكرتُ أنا هذا[4] الجواب، فتبسَّم ولم يقل شيئاً.

وأما الحياء الذي يعتريه منه، وإن كان قادراً عليه - كأمتِهِ وزوجته - فسببه - والله أعلم - أن هذا السلطان لما زال خوفه عن القلب بقيت هيبته واحتشامه، فتولد منها الحياء، وأما حصول ذلك له[5] في غيبة المحبوب: فظاهر، لاستيلائه علىٰ قلبه، فوهمه[6] يغالطه عليه[7] ويكابره، حتىٰ كأنه معه.

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج بين[8] محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلىٰ وأجل منها، فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

---

(١) ش (جاء).

(٢) ش (بغيته).

(٣) ط زيادة (قدس الله روحه).

(٤) (هذا) سقطت من ش.

(٥) (له) سقطت من د.

(٦) أ، ب، غ (فوهم).

(٧) (عليه) سقطت من ط.

(٨) ط زيادة (من)، و (بين) سقطت من د.

وأما حياء الشَّرف والعزة : فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل عطاء أو إحسان ، فإنه يستحيي مع بذله حياء شرف نفس وعزة ، وهذا له سببان :

أحدهما : هذا . والثاني : استحياؤه[1] من الأخذ ،[2] حتىٰ إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه ، وهذا يدخل في حياء التكرم[3] ؛ لأنه يستحيي[4] من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء من نفسه : فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة[5] من رضاها لنفسها بالنقص ، وبيعها[6] بالدون ، فيجد نفسه مستحيياً من نفسه ، حتىٰ كأنه له نفسين[7] يستحيي بإحداهما من الأخرىٰ ، وهذا أكمل ما يكون من الحياء ، فالعبد إذا استحيىٰ من نفسه ، فهو بأن يستحيي من غيره أجدر.

---

(١) ش (استحياؤ).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (حتىٰ كأنه هو الآخذ السائل).

(٣) أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ط (التلوم).

(٤) أ ، ب ، غ (لا يستحيي).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ط (الرفيعة).

(٦) ط (قناعتها) ، وم ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (قنعها).

(٧) الأصل (نفسان) والصحيح لغة ما أثبته من م ، ح٢ ، ط.

فصل

قال صاحب «المنازل» رَحمه الله[١] :

«الحَيَاءُ : مِنْ أَوَّلِ مَدَارِجِ أَهْلِ الخُصُوصِ ، يَتَوَلَّدُ مِن تَعْظِيمِ مَنُوطٍ بِودٍّ»[٢].

إنما جعل «الحياء» من أول مدارج أهل الخصوص : لما فيه من ملاحظة حضور من يستحيي منه ، وأول سلوك أهل الخصوص : أن يروا[٣] الحق سبحانه حاضراً معهم[٤] ، وعليه بناء سلوكهم.

وقوله : «إِنَّهُ يَتَوَلَّدُ مِن تَعْظِيمِ مَنُوطٍ بِودٍّ».

يعني أن الحياء حالة تحصل[٥] من امتزاج التعظيم بالمودة ، فإذا اقترنا تولد بينهما الحياءُ.

والجنيد - رحمه الله - يقول : إن تولده من مشاهدة النعم ، ورؤية التقصير[٦].

---

(١) (رحمه الله) سقطت من الجميع سوىٰ الأصل ، ق.

(٢) منازل السائرين (٤٢).

(٣) الرؤية هنا لا بد أن يكون معناها الاعتقاد القلبي وإلا فهي فاسدة.

(٤) إن كان هذا اللفظ علىٰ ظاهره فهو باطل ؛ لأنه ذريعة لقول الحلولية.

(٥) ط (حاصلة).

(٦) الرسالة القشيرية (٣٢٦) ، وأورد نحوه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥١٦) ، حلية الأولياء (١٠/ ٢٩٩).

ومنهم من يقول: تولده من شعور القلب بما يستحيي منه (وشدة نفرته عنه)(١) فيتولد من هذا الشعور والنفرة حالة تسمىٰ الحياء.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن(٢) للحياء عدة أسباب، قد تقدَّمَ ذكرُها، فكل(٣) أشار إلىٰ بعضها(٤).

فصل

درجات الحياء الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: حَيَاءٌ يَتَوَلَّدُ مِن عِلْمِ العَبدِ بِنَظَرِ الحَقِّ إِلَيهِ، فَيَجْذِبُهُ إِلىٰ تحمُّلِ(٥)، (٦)المجُاهَدَةِ، وَيحْمِلُهُ عَلىٰ استِقْبَاحِ الجِنَايَةِ، وَيُسْكِتُه(٧) عَنِ الشَّكْوَىٰ»(٨).

يعني أن العبد متىٰ علم أن الرب تعالىٰ ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه، يجذبه إلىٰ احتمال أعباء الطاعة، مثل العبد إذا عمل الشغل بين يدي سيده، فإنه يكون نشيطاً فيه، محتملاً لأعبائه،(٩) بخلاف ما إذا كان غائباً عن سيده

---

(١) (وشدة نفرته عنه) ساقطة من ط.

(٢) غ، أ، ح٢ (وبأن) و ش، م (لأن).

(٣) ش (وكل).

(٤) ق زيادة (والله أعلم).

(٥) غ (عمل).

(٦) د، ط زيادة (هذه).

(٧) الأصل (ويستكفه) والأقرب ما أثبته من هامش الأصل، م، غ، ب، ش، ق، ط.

(٨) منازل السائرين (٤٢).

(٩) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ط زيادة (ولا سيما مع الإحسان من سيده إليه ومحبته لسيده).

والرب[١] تعالىٰ لا يغيب نظره[٢] عن عبده، ولكن يغيب نظر القلب والتفاته إلىٰ نظره سبحانه إلىٰ العبد[٣][٤].

وكذلك يحمله علىٰ استقباح جنايته[٥]، وهذا الاستقباح الحاصل بالحياء قدر زائد علىٰ استقباح ملاحظة الوعيد، وهو فوقه.

وأرفع درجة منه: درجة الاستقباح الحاصل عن المحبة، فاستقباح المحب أتم من استقباح الخائف، وكذلك[٦][٧] هذا الحياء يكف العبد عن أن يشتكي إلىٰ غير[٨] الله، فيكون قد شكا الله إلىٰ خلقه، ولا يمنع الشكوىٰ إليه سبحانه، فإن الشكوىٰ إليه[٩] فقر، وذلة[١٠]، وفاقة، وعبودية، فالحياء منه[١١] لا ينافيها.

---

(١) ق (فالرب).

(٢) (نظره) سقطت من أ، ب، غ، ح٢، ق.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (العبيد).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (فإن القلب إذا غاب نظره، وقل التفاته إلىٰ نظر الله تبارك وتعالىٰ إليه تولد له من ذلك قلة الحياء والقحة).

(٥) ط (جنابته).

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، د (ولذلك).

(٧) ط زيادة (فإن).

(٨) ط (لغير الله).

(٩) ط، ق زيادة (سبحانه).

(١٠) ق، غ (ذل) وهي مطموسة من ب.

(١١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ط زيادة (في مثل ذلك).

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ(١) : حَيَاءٌ يَتَوَلَّدُ مِن النَّظَرِ فِي عِلمِ القُرْبِ ، فَيَدعُوهُ(٢) إِلىٰ رُكُوبِ المحبَّةِ ، وَيَربطه بِرَوحِ الأُنسِ ، وَيُكَرِّهُ إِلَيهِ مُلَابَسَةَ الخَلقِ»(٣).

النظر في علم القرب : تحقق القلب بالمعية الخاصة مع(٤) الله ، فإن المعية نوعان :

عامة : هي معية العلم والإحاطة ، كقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وخاصة : وهي معية القرب ، كقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ،(٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] ،(٦) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذا معية قرب ، تتضمن الموالاة ، والنصر ، والحفظ(٧) ، وكلا المعنيين

(١) د (الثالثة).

(٢) أ (فيدعو).

(٣) منازل السائرين ٤٢.

(٤) أ ، ب ، غ (من).

(٥) ط (وقوله).

(٦) ط (وقوله).

(٧) ح٢ (الحفظ والنصر).

مصاحبة منه للعبد؛ لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة، وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة، فـ «مع» في لغة العرب[1] للصحبة اللائقة، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط، ولا مجاورة، ولا مجانبة، فمن فهم[2] منها شيئاً من هذا فمن سوءِ فهمه أُتي.

وأما القرب: فلم[3] يقع في القرآن إلا خاصاً، وهو نوعان: قُربُه من داعيه بالإجابة، وقربُه من عابده بالإثابة.

فالأول: كقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ١٨٦] ولهذا[4] نزلت جواباً للصحابة رضي الله عنهم، وقد سألوا رسول الله ﷺ: ربُّنا قريبٌ فنناجيه؟ أم بعيدٌ فنناديه؟ فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية»[5].

(١) ط (تفيد).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ط (ظن)، ح٢ (ظنها).

(٣) أ، ب، غ (فلا).

(٤) د (فهذا).

(٥) رواه الصلت بن حكيم عن أبيه عن جده قال: جاء أعرابي إلىٰ النبي...، انظر فوائد العراقيين (ص٣١)، وقال محققه، إسناده موضوع، لسان الميزان (٣/ ١٩٥)، وقال فيه الصلت بن حكيم مجهول روىٰ عن أبيه، وعزاه للعلائي في الوشي، وقال لم أر للصلت ذكراً في كتب الرجال، الثقات لابن حبان (٨/ ٤٣٦)، العظمة لأبي الشيخ (٢/ ٥٣٥)، الطبري في التفسير (٢/ ١٥٨)، أخرجه ابن كثير بسنده (١/ ٣٧١)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٦٩)، البغوي في تفسيره (١/ ١٥٥)، القرطبي في التفسير (٢/ ٣٠٨).

والثاني كقول النبي[1] : «أقرب ما يكون العبد من ربه : وهو ساجد ، وأقرب ما يكون الرب من عبده : في جوف الليل[2]»[3] ، فهذا قربه من أهل طاعته.

وفي الصحيح : عن أبي موسىٰ[4] ـ رضي الله عنه ـ قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فارتفعت أصواتنا بالتكبير ، فقال : « أيها الناس، اربعوا علىٰ أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إن الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلىٰ أحدكم من عُنقِ راحلته»[5].

فهذا قرب خاص بالداعي دعاء[6] العبادة والثناء والحمد ، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه ، واستواءه علىٰ عرشه ؛ بل يجامعه ويلازمه ، فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولكنه نوع آخر ، والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جداً من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي ، ويجده أقرب إليه من جليسه ، كما قيل :

ألا رُبَّ من يدنو ويَزعُم أنه ... يحبك والنائي أحَبُّ إليه وأقربُ[7]

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (قوله ﷺ).

(٢) د (العبد).

(٣) مسلم. الصلاة (١/ ٣٥٠) ح(٤٨٢) ، صحيح النسائي (١/ ٣٦٩) ح(١١٣٦) ، أحمد (٢/ ٤٢١).

(٤) ح٢ (الأشعري).

(٥) البخاري. القدر (٤/ ٢١١) ح(٦٦١٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٧٦) ح (٢٧٠٤) ، أحمد (٤/ ٤٩٣) ، ابن حبان في صحيحه (٣/ ٨٤).

(٦) ح٢ (ودعاء).

(٧) بيت الشعر : لم أجده.

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ ، وورثته وأحباؤه الذي[1] هو عندهم أولىٰ بهم من أنفسهم ، وأحبُّ[2] إليهم منها يجدون نفوسهم أقرب إليه ، وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة ، والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومَنْ حولها ، هذا مع عدم تأتي القرب منها ، فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يشاء ، وهو مستوٍ علىٰ عرشه ، وأهل الذوق[3] لا يلتفتون في ذلك إلىٰ شُبهةِ مُعطِّل بعيد من الله خليٍّ من محبته ومعرفته.

والقصد : أن هذا القرب يدعو صاحبه إلىٰ ركوب المحبة ، وكلما زاد حباً ازداد قرباً ، فالمحبة بين قُربين : قربٌ قَبلها ، وقُرب بعدها ، وبين معرفتين : معرفة قبلها حملت عليها ، ودَعت[4] إليها ، ومعرفة بعدها ، هي من نتائجها وآثارها.

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (الذين).

(٢) أ (وحب).

(٣) **الذوق** : نور عرفاني يقذفه الحق في قلوب أوليائه ، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره ، وهو أول مبادئ التجليات ، ولا ينالها إلا من خلا قلبه عن العلائق والعوائق ، بخلاف الرسوم ، وهو عندهم مثل الفرق بين من علم طعم العسل ومن ذاقه.
وقال القشيري : إنهم يعبرون به عن نتائج الكشوفات وبواده الواردات، انظر في هذه الأقوال: لطائف الإعلام (١/ ٤٧٢) ، الرسالة القشيرية ١٤٦ ، معجم مصطلحات الصوفية (١٠٤) ، رشح الزلال (٨١) ، وهذه الأقوال تستند إلىٰ جرف هار من أقوال الحلاج وابن الفارض ، حيث إن أعلىٰ درجات العلم عندهم هو الاتحاد ، انظر لطائف الإعلام ١/ ٤٧٣.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (ودلت عليها).

وأما ربطه بروح الأنس: فهو تعلق قلبه(١) بالأنس بالله ، تعلقاً لازماً لا يفارقه، بل يجعل بين القلب والأنس رابطة لازمة ، ولا ريب أن هذا يُكرِّه إليه ملابسة الخلق ، بل يجد الوحشة في ملابستهم بقدر أنسه(٢) بربه ، وقرة عينه بحبه وقربه منه ، فإنه ليس مع الله غيره ، فإن لابسهم لابسهم برسمه(٣) دون سرِّه وروحه وقلبه ، فقلبه في ملأٍ(٤) ، وبدنه ورسمه في ملأٍ.

فصـــل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : حَيَاءٌ يَتَوَلَّدُ مِن شُهُودِ الحَضْرةِ(٥) وَهَي الَّتِي يِشُوبُهَا(٦) الدرجة الثالثة

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، (بروح الأنس).

(٢) ط (أنه) بدل (أنسه).

(٣) رسمه : هو الخَلق وصفاته ، لأن الرسوم هي الآثار.. وهم يطلقونه ويريدون به كل ما سوىٰ الله ، لأن كل ما سوىٰ الله آثار عنه ، وآثار لقدرته.. لطائف الإعلام ١/ ٤٨٩ ، معجم مصطلحات الصوفية ١١٢.

(٤) الملأ : الجماعة.. مختار الصحاح ٦٣١.

(٥) شهود الحضرة : الشهود عند الصوفية مقامات ، فالحضور مع الشهود ، يطلق ويُرادُ به الجمع بين الحواس الظاهرة والباطنة ، وتتّحد في إدراكها والموجب لذلك نور من جناب الشهود يمحو ظلمة الحجاب ، فيفنىٰ كل ما سواه بظهوره.. ومنه شهود المتوسطين ، وشهود المنتهين ، وهو أعلاها عندهم ، فهو رؤية المجمل في المفصل ، والمفصل في المجمل ، بحيث يرىٰ كل شيء فلا ينحجب برؤية الحق علىٰ الخلق ولا برؤية الخلق عن الحق ، لطائف الإعلام ٢/ ٤٢ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٤٢.

(٦) م ، أ ، غ ، ب ، ش (لا تشوبها) ، وهو خلاف المنازل ٤٣.

هَيْبَةٌ، وَلَا تُقَارِنُهَا تَفْرِقَةٌ[١] وَلا يُوقَفُ لهَا عَلىٰ غَايَةٍ»[٢].

شهود الحضرة: انجذاب الروح والقلب من الكائنات، وعكوفه علىٰ رب البريات، فهو في حضرة قربه مشاهداً لها، وإذا وصل القلب إليها غَشِيته الهيبة وزالت عنه التفرقة، إذ ما مع الله سواه، فلا يخطر بباله في تلك الحال سوىٰ الله وحده، وهذا مقام الجمعية.

وأما قوله: «وَلا يُوقَفُ[٣] لهَا عَلىٰ غَايَةٍ».

يعني[٤] أن كل من وصل إلىٰ مطلوبه، وظفر به: وصل إلىٰ الغاية، إلا صاحب هذا الشهود[٥] فإنه لا يقف بحضرة الربوبية علىٰ غاية، فإنّ ذلك مستحيل، بل إذا شهد تلك الروابي، ووقف علىٰ تلك الرُّبوع، وعاين الحضرة التي هي غاية الغايات، شارف أمراً لا غاية له ولا نهاية، والغايات والنهايات كلها إليه تنتهي ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فانتهت إليه الغايات والنهايات، وليس له سبحانه غاية ولا نهاية: لا في وجوده، ولا في مزيده وجوده[٦]، إذ هو «الأول» الذي ليس قبله شيء، و«الآخر» الذي ليس

---

(١) الأصل (ولا يقاربها بفرقة) والأقرب ما أثبته من المنازل (ص٤٣)، م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط.

(٢) منازل السائرين (٤٣).

(٣) أ، ب، غ، ح٢، ق (يقف).

(٤) ط (فيعني).

(٥) ق (المشهود)، أ، ب، غ، ح٢ (المشهد).

(٦) ش، ط (مزيد) بسقوط الهاء.

بعده شيء ، ولا نهاية لمجده وحمده[1] وعطائه ، [2]وكلما ازداد منه قرباً لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك ، وهكذا أبداً لا يقف علىٰ غاية ولا نهاية ، ولهذا جاء «إنّ أهل الجنَّة في مزيد دائمٍ بلا انتهاء[3]»[4].

فإن نعيمهم متصل ممن لا نهاية لفضله ولا لعطائه ، ولا لمزيده ولا لأوصافه ، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام[5].

* * *

---

(١) ط (لحمده).

(٢) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (بل كلما ازداد له العبد شكراً زاده فضلاً ، وكلما زاده طاعة زاده لمجده مثوبة) ولفظة (لمجده) سقطت من ط.

(٣) ق (بلا نهاية).

(٤) لم أجده.

(٥) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (﴿إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾ ، «يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر»).

فصل

منزلة الصدق

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الصدق»[1].

وهي منزلة[2] القوم الأعظم ، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين ، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين ، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان ، وسكان الجنان من أهل النيران ، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِع علىٰ شيء إلا قطعه ، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم تُردّ صولتُه ، ومن نطق به عَلَتْ علىٰ الخصوم كلمتُه ، فهو روح الأعمال ، و محكُّ الأحوال ، والحامل علىٰ اقتحام الأهوال ، والبابُ الذي دخل منه الواصلون إلىٰ حضرة ذي الجلال ، وهو أساسُ بناء الدّين ، وعمود فسطاط[3] اليقين ، ودرجته[4] تالية لدرجة «النبوة» التي هي أرفع درجات العالمين ، ومن مساكنهم في الجنان[5] تجري العيون والأنهار إلىٰ

---

(١) منزلة الصدق : لها عند القوم تعريفات وأقسام ، وهو الموافق للحق في الأقوال والأفعال والأحوال، وهو اجتماع الهم علىٰ الحق بحيث لا يختلج في القلب، تفرقه عن الحق بوجهه، ومن ترك ملاحظة الخلق بدوام مشاهدة الحق سمي صديقاً والصديقية أعلىٰ مقاماتها.. لطائف الأعلام (٢/ ٥٨) معجم مصطلحات الصوفية ١٥٠ ، الرسالة القشيرية ٣١٨.

(٢) د ، ح٢ ، ش (منزل).

(٣) فسطاط : الفسطاط بيت من شَعَر ، مختار الصحاح (٥٠٣).

(٤)ح٢ (درجة)

(٥) م ، ح٢ ، ط (الجنات).

مساكن الصدِّيقين ، كما كان من قلوبهم إلىٰ قلوبهم في هذه الدار مددٌ متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان : أن يكونوا مع الصادقين ، وخصَّ المُنْعَم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فقال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة :١١٩] وقال : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ(١)﴾ فهم أهل(٢) الرفيق الأعلىٰ ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء : ٦٩] ولا يزال الله يُمدّهم بنعمه(٣) وألطافه ومزيده إحساناً منه وتوفيقاً ، ولهم مزية(٤) المعية مع الله ، فإن الله مع الصادقين ، ولهم منزلة القرب منه ، إذ درجتهم منه ثاني(٥) درجة النبيين(٦).

وأخبر تعالىٰ أنّ من صَدَقه فهو خير له ، فقال : ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد :٢١].

وأخبر تعالىٰ عن أهل البرِّ ، وأثنىٰ عليهم بأحسن أعمالهم : من الإيمان ،

---

(١) ﴿والصالحين﴾ سقط من ط.

(٢) (أهل) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (بأنعمه).

(٤) ط (مرتبة) ، وفي ح٢ (العبودية والمعية).

(٥) أ ، ب ، غ (بأدنىٰ).

(٦) د (اليقين).

والإسلام، والصدقة، والصبر، بأنهم أهل الصدق(١) فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ(٢)﴾ إلىٰ قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧]، وهذا صريح في أن «الصدق» بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن «الصدق» هو مقام الإسلام والإيمان(٣).

وقسم الله سبحانه الناس إلىٰ صادق ومنافق، فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ(٤) إِن شَآءَ(٥) أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه(٦) من عذابه(٧) إلا صدقه، قال الله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ(٨) لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

(١) (بأنهم أهل الصدق) سقط من أ، ب، غ.

(٢) ط زيادة (﴿وآتىٰ المال علىٰ حبِّه ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتىٰ الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾).

(٣) غ (الإيمان والإسلام).

(٤) ب، أ (والمنافقات) وهو خطأ.

(٥) أ، ب، غ (الآية).

(٦) ق زيادة (ريغه).

(٧) ح٢ (عذاب الله).

(٨) أ، ب، غ (.. الآية).

ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة :١١٩] وقال : ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الزمر :٣٣ - ٣٤] ، فالذي جاء بالصدق : هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله ، فالصدق في هذه الثلاثة.

فالصدق في الأقوال : استواء اللسان علىٰ الأقوال ، كاستواء السنبلة علىٰ ساقها ، والصدق في الأعمال : استواء الأفعال علىٰ الأمر والمتابعة ، كاستواء الرأس علىٰ الجسد ، والصدق في الأفعال(١) ، استواء القلب والجوارح علىٰ الإخلاص ، واستفراغ الوسع ، وبذل الطاقة ، فبذلك يكون العبد من الذين جاؤوا بالصدق ، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صدِّيقيته ، و(٢) لذلك كان لأبي بكر الصديق(٣) ذروة سنام الصدِّيقية حتىٰ(٤) سمِّي «الصِّدّيق» علىٰ الإطلاق ، أبلغ من الصدوق ، والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلىٰ مراتب الصدق : مرتبة الصديقية ، وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ ، مع كمال الإخلاص للمرسِل.

وقد أمر الله سبحانه رسوله : أن يسأله أن يجعل مَدْخَله ومخْرَجه علىٰ

---

(١) بقية النسخ و ط (الأحوال).

(٢) ب ، ح٢ (كذلك).

(٣) م زيادة (رضي الله عنه وأرضاه).

(٤) (حتىٰ) سقطت من ط.

الصّدق فقال: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠﴾ [الإسراء: ٨٠]، وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ أنه سأله أن[1] يهب له لسان صدق في الناس[2] فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝٨٤﴾[الشعراء: ٨٤] وبشّر عباده أنّ[3] لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق، فقال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ[4]﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

تعريف الصدق والأقوال المأثورة فيه

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء، هو الحق الثابت، المتصل بالله الموصل إلىٰ الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله[5] وفي مرضاته، متصلاً[6] بالظّفر بالبُغية وحصول المطلوب، ضد مخرج

---

(١) م زيادة (يجعل).

(٢) د، ق، ط زيادة (الآخرين).

(٣) ط (بأنّ).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (﴿عند مليك مقتدر﴾).

(٥) ش (لله).

(٦) (متصلاً) سقطت من ط.

الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها، كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك[1] مدخله المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوه به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله، ولا لله؛ بل[2] محادة[3] لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حِصْن بني قُريظة[4]، فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم[5] ما أصابهم.

فكل مدخل[6] ومخرج كان بالله ولله، فصاحبه ضامن على الله، فهو مدخل

---

(١) (وكذلك) سقطت من د.

(٢) ط زيادة (كان).

(٣) أ، ب، غ (مخالفة).

(٤) بني قُريظة: حيٌّ من أحياء اليهود حول المدينة، نقضوا عهد رسول الله ﷺ ومالؤوا الأحزاب، فباؤوا بغضب من الله، وزلزلت الأرض من تحتهم فورث المسلمون أرضهم وديارهم وأموالهم.. وكان ذلك في السنة الخامسة من الهجرة، انظر البخاري. المغازي (٣/ ١١٨) ح(٤١١٧)، البداية والنهاية (٣/ ١١٦).

(٥) (معهم) سقطت من ق.

(٦) ط زيادة (معهم).

صدق، ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلىٰ السماء، وقال: اللهم إنِّي أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك[1].

يريد: أن لا يكون المخرج مخرج صِدق، ولذلك فُسِّر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه[2] من مكة، ودخوله المدينة[3]، ولا ريب أن هذا علىٰ سبيل التمثيل، فإن هذا المدخل والمخرج من أجَلِّ مداخله ومخارجه ﷺ وإلا فمداخله ومخارجه كلها مداخل صدق[4] ومخارج صدق، إذ هي لله وبالله وبأمره، ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه - أو مدخلاً آخر - إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحَسَن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء بالكذب، كما قال عن إبراهيم وذريَّته من الأنبياء[5] والرسل[6] ﴿وَجَعَلْنَا

---

(١) أخرجه ابن المبارك عن أبي هريرة بلفظ (مركباً) بدل (مخرجاً) ص٥، وكذا ابن أبي شيبة في الزهد ٢/ ١٧٧.

(٢) غ (بخروج رسول الله).

(٣) الطبري في التفسير ١٥/ ١٤٨، ١٥٠، الدر المنثور ٥/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٤) ط (إلا فمداخله كلها مداخل صدق ومخارجه مخارج صدق).

(٥) (الأنبياء) سقطت من أ، ب.

(٦) الأصل (ورسله) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٠] ، والمراد باللسان هاهنا : الثناء الحسن ، فلما كان الصدق[1] باللسان ، وهو محله[2] ، عبر به عنه.

فإن اللسان يُراد به ثلاثة معان : هذا ، واللُّغة ، كقوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ[3]﴾ [إبراهيم : ٤] ، وقوله : ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم : ٢٢] ، وقوله : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل : ١٠٣] ، ويُراد به الجارحة نفسها ، كقوله تعالىٰ : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة : ١٦].

وأما قدم الصدق: ففُسِّر بالجنة ، وفُسر بمحمد ﷺ ، وفُسِّر بالأعمال الصالحة[4].

وحقيقة «القدم» ما قدموه ، و[5]يقدمون عليه يوم القيامة ، وهم قدَّموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ ، ويقدمون علىٰ الجنة التي هي جزاء ذلك.

فمن فسّره بها أراد : ما يَقْدمون عليه ، ومن فسّره بالأعمال وبالنبي ﷺ : فلأنهم قدّموها ، وقدّموا الإيمان به بين أيديهم ، فالثلاثة قَدَم صدق[6].

---

(١) (الصدق) ساقطة من الأصل ، ش والأصح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط.

(٢) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء علىٰ الصادق جزاء وفاقاً).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة ﴿ليبين لهم﴾.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ١٥ ـ ١٦ عن زيد بن أسلم ، الدر المنثور ٤/ ٣٤١.

(٥) ط (وما يقدمون).

(٦) أخرجه الحاكم من قول أبيِّ بن كعب : « (قدم صدق) ، قال : سلف صدق عند ربهم » ، المستدرك (٢/ ٣٦٨).

وأما مقعد الصدق : فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى[١].

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره ، وأنه حق ، ودوامه ونفعه ، وكمال عائدته ، فإنه متصل بالحق سبحانه ، كائن به وله ، فهو صدق غير كذب ، وحق غير باطل ، ودائم غير زائل ، ونافع غير ضار ، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ، ولا مدخل.

علامات الصدق وآثاره

ومن علامات الصدق : طُمأنينة القلب إليه ، ومن علامات الكذب : حصول الريبة ، كما في الترمذي - مرفوعاً - من حديث الحسن بن علي - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال «الصدق طُمأنينة ، والكذب ريبة»[٢].

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إنّ الصِّدق يهدي إلىٰ البرِّ ، وإنّ البرَّ يهدي إلىٰ الجنَّة ، وإنّ الرّجل ليَصدق حتىٰ يُكتب عند الله صِدِّيقاً ، وإنّ الكذب يهدي إلىٰ الفجور ، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار ، وإنّ الرجل ليكذب حتىٰ يُكتب عند الله كذّاباً»[٣] ،

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ١٥٠.

(٢) الترمذي صفة القيامة (٤/ ٦٦٨) ح (٢٥١٨) وقال حسن صحيح ، وقال محقق جامع الأصول : سنده صحيح (٦/ ٤٤٣-٤٤٤)، أحمد (١/ ٢٠٠)، المجمع (١/ ٢٣٨)، الطبراني (٣/ ٧٦٧٥) ح (٢٧٠٨) (٢٧١١) ، الحاكم (٢/ ١٣) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧/ ١٥٥) ح (٢٠٧٤).

(٣) البخاري. الأدب (٤/ ١٠٩) ح (٦٠٩٤) ، الفتح (١٠/ ٦٠٩٤) ، مسلم البر والصلة (٤/ ٢٠١٢) ح (٢٦٠٧)، أحمد (١/ ٤٣٢) ، الترمذي. البر والصلة (٤/ ٥٩) ح (١٩٧١).

فجعل الصدق مفتاح الصدِّيقية ومبدأها ، وهي غايته ، فلا ينال درجتها كاذبٌ البتة لنفسه[1] لا في قوله ، ولا في عمله ، ولا في حاله ، ولا سيما كاذب علىٰ الله في أسمائه وصفاته ، بنفي[2] ما أثبته ، أو إثبات ما نفاه عن نفسه ، فليس في هؤلاء صِدِّيق أبداً.

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه ، بتحليل ما حرمه ، وتحريم ما لم[3] يحرمه ، وإسقاط ما أوجبه ، وإيجاب ما لم يوجبه ، وكراهة ما أحبه ، واستحباب ما لم يحبه ، كل ذلك مناف للصديقية.

وكذلك الكذب معه في الأعمال : بالتحلِّي بحِلْية الصادقين ، المخلصين ، الزاهدين[4] ، المتوكلين ، وليس[5] منهم.

فلذلك كانت الصديقية : كمال الإخلاص والانقياد ، والمتابعة للخبر[6] والأمر ظاهراً وباطناً ، حتىٰ إن صدق المتبايعين يحُلُّ البركة في بيعهما ، وكذبهما يمحق بركة بيعهما ، كما في الصحيحين عن حكيم بن حزام[7] ـ رضي

---

(١) (لنفسه) ساقطة من أ ، ب ، غ.

(٢) أ ، ب ، غ ، ط (ونفي).

(٣) د سقط (لم).

(٤) ط (والزاهدين).

(٥) ط زيادة (في الحقيقة).

(٦) ق (للمخبر).

(٧) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد القرشي الأسدي ، أسلم يوم الفتح ، وشهد حنيناً والطائف ،

الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «البيِّعان[1] بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبيَّنا بُورِك لهما في بيعهما ، وإن كذبا وكَتما : محُِقَت بركة بيعهما»[2].

* * *

كان من الأشراف العقلاء النبلاء ، ولد قبل عام الفيل بثلاثة عشر سنة ، وتوفي سنة ٥٤هـ/ أسد الغابة (٢/ ٤٠) ، تهذيب التهذيب (١/ ١٦٩) ، البداية والنهاية (٨/ ٦٨) ، شذرات الذهب (١/ ٦٠) ، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤).

(١) الأصل (في) والصحيح ما أثبته من البقية والصحيحين.

(٢) البخاري. البيوع (٢/ ٨٢) ح (٢٠٧٩) ، الفتح (٤/ ٢٠٧٩) ، مسلم البيوع (٣/ ١١٦) ح (١٥٣٢).

فصل

الكلمات[1] في حقيقة الصدق .

حقيقة الصدق والأقوال المأثورة فيه

قال عبد الواحد بن زيد[2]: الصدق الوفاء لله بالعمل[3].

وقيل: موافقة السر النطق[4].

وقيل: استواء السر والعلانية[5]، يعني أن الكاذب علانيته خير من سريرته، كالمنافق الذي ظاهره خير من باطنه.

وقيل: الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة[6].

وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترجوه[7].

وقال الجنيد: الصادق يتقلَّب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت علىٰ

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (في كلمات).

(٢) عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة البصري الزاهد القدوة، شيخ العباد، حدث عن الحسن وعطاء وغيرهم، وعنه محمد بن السماك ووكيع وغيرهم، قال البخاري: تركوه، وقال النسائي: متروك الحديث، توفي بعد الخمسين ومائة/ صفة الصفوة (٣/ ٣٢١)، سير أعلام النبلاء (٧/ ١٧٨)، المعرفة (٢/ ١٢٢)، حلية الأولياء (٦/ ١٥٥).

(٣) الرسالة القشيرية ٣١٩.

(٤) الرسالة القشيرية ٣١٨.

(٥) الرسالة القشيرية ٣١٨.

(٦) الرسالة القشيرية ٣١٨.

(٧) لم أجده.

حالة واحدة أربعين سنة[١].

وهذا الكلام يحتاج إلىٰ شرح ، وقد يسبق إلىٰ الذهن خلافه ، وأن الكاذب متلوّن ؛ لأن الكذب ألوان ، فهو يتلوّن بتلوّنه ، والصادق مستمر علىٰ حالة واحدة ، فإن الصدق واحد في نفسه ، وصاحبه لا يتلوّن ولا يتغير.

لكن مراد أبي القاسم صحيح غير هذا ، فإن المعارضات والواردات التي ترد علىٰ الصادق[٢] لا ترد علىٰ الكذاب[٣] المرائي؛ بل هو فارغ منها ، فإنه[٤] لا يرد عليه من قِبَل الحق موارد الصادق[٥] ،[٦] ولا يعارضه[٧] الشيطان ، كما يعارض الصادقين ، فإنه لا أرَب له في خَرِبة لا شيء فيها ، وهذه الواردات توجب تقلب[٨] الصادق بحسب اختلافها وتنوعها ، فلا تراه إلا هارباً من مكان إلىٰ مكان ، ومن عمل إلىٰ عمل ، ومن حال إلىٰ حال ، ومن سبب إلىٰ سبب؛ لأنه يخاف في كل حال يطمئن إليها ، ومكان وسبب: أن يقطعه عن مطلوبه ،

(١) الرسالة القشيرية ٣١٨.

(٢) م (الصادقين).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (الكاذب).

(٤) (فإنه) سقطت من م ، ب ، غ.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (الصادقين).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (علىٰ الكاذبين المرائين).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (يعارضهم).

(٨) م (قلب).

فهو لا يساكن حالة ولا شيئاً دون مطلوبه ، فهو كالجوَّال[١] في الآفاق في طلب الغنىٰ الذي يفوق به الأغنياء ، فالأحوال[٢] والأسباب تتقلب به ، وتقيمه وتقعده ، وتحركه وتسكنه ، حتىٰ يجد فيها ما يعينه علىٰ مطلوبه ، [وهذا عزيز فيها ، فقلبه في تقلب وحركة شديدة بحسب سعة مطلوبه][٣] وعظمته وهمته أعلىٰ من أن يقف[٤] دون مطلبه علىٰ رسم أو حال ، أو يساكن شيئاً غيره ، فهو كالمحب الصادق ،[٥] الذي همه التفتيش علىٰ[٦] محبوبه ، وهكذا[٧] حال الصادق في طلب العلم ، وحال الصادق في طلب الدنيا ، فكل صادق في طلب شيء لا يستقر له قرار ، ولا يدوم علىٰ حالة واحدة.

وأيضاً: فإن الصادق[٨] مطلوبه رضىٰ ربه ، وتنفيذ أوامره ، وتتبع محابّه ، فهو متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها ، ويستقل معها أين استقلّت مضاربها فبينا[٩] هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو ، ثم في حج ، ثم في

---

(١) د (الجول).

(٢) ق ، ط (والأحوال).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ.

(٤) ق (تقف).

(٥) ق زيادة (في طلب).

(٦) د (عن).

(٧) ط (وكذا).

(٨) أ ، ب ، غ (فالصادق).

(٩) ق (فبينما).

إحسان للخلق بالتعليم وغيره ، من أنواع النفع ، ثم في أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، أو في قيام بسبب فيه عمارة للدين[1] والدنيا[2].

فهو في تفرق دائم لله ، وجمعية علىٰ الله ، لا يملكه رسم ، ولا عادة ، ولا وضع ، ولا يتقيد بقيد ولا إشارة ، ولا بمكان معين لا يصلي إلا فيه[3] ، وزِيٍّ[4] معين لا يلبس سواه ، وعبادة معينة لا يلتفت إلىٰ غيرها ، مع فضلها[5] عليها ،[6] في الدرجة ، وبُعد ما بينهما كبعد ما بين السماء والأرض.

فإن البلاء والآفات والرياء والتصنع ، وعبادة النفس ، وإيثار مرادها ، والإشارة إليها: كلها في هذه الأوضاع ، والرسوم والقيود ، التي حبستْ أربابهَا عن السير إلىٰ قلوبهم ، فضلاً عن السير من قلوبهم إلىٰ الله تعالىٰ ، فإذا خرج أحدهم عن رسمه ووضعه وزِيِّه وقيده وإشارته - ولو إلىٰ أفضل منه - استهجن[7] ذلك ، ورآه نقصاً وانحطاطاً لرتبته عندهم[8] ، وهذا شأن

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (الدين).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (ثم في عيادة مريض أو تشييع جنازة ، أو نصرة مظلوم - إن أمكن - إلىٰ غير ذلك من أنواع القرب والمنافع).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (ولا بمكان معين يصلي فيه لا يصلي في غيره).

(٤) زي:- الزيُّ اللباس والهيئة ، مختار الصحاح ٢٧٩.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فضل غيرها عليها).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، ط زيادة (أو هي أعلىٰ من غيرها) ، ق زيادة (أو هي علىٰ غيرها).

(٧) استهجن: تهجين الأمر تقبيحه ، لسان العرب ١٣/ ٤٣٣ . واستهجنه: استقبحه ، المعجم الوسيط ٢/ ٩٧٤.

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (وهو قد انحط وسقط من عين الله ، وقد يحس أحدهم

الكذّاب[١]، العامل علىٰ عمارة نفسه ومرتبته.[٢] ولو كان عاملاً علىٰ مراد الله منه، وعلىٰ الصدق مع الله: لأثقلته تلك القيود، وحبسته تلك الرسوم، ولرأىٰ الوقوف عندها ومعها عين الانقطاع عن الله لا إليه[٣].

فكلام أبي القاسم الجنيد حقٌّ، كلام راسخ في الصدق، عالم بتفاصيله وآفاته ومواضع اشتباهه بالكذب.

وأيضاً فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم، فهم يتقلبون تحته تقلب الحمَّال[٤] بحمله الثقيل، والرياء والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلاً البتة، فهو حامل له في أي موضع اتفق، بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة،[٥] ولا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله.

وقال بعضهم[٦]: « لا يشم روائح[٧] الصدق عبد داهن نفسه أو غيره ».

ذلك من نفسه وحاله، ولا تدعه رسومه وأوضاعه وزيُّه وقيوده أن يسعىٰ في ترميم ذلك وإصلاحه).

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (المرائي الذي يبدي للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (وهذا هو النفاق بعينه).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (ولما بالىٰ بأي ثوب لبس، ولا أي عَمَلٍ عَمِلَ إذا كان علىٰ مراد الله من العبد).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (الحامل).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (فهو).

(٦) القائل: سهل بن عبد الله، الرسالة القشيرية ٣١٨، آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي ٧٤.

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (رائحة).

وقال بعضهم[١]: الصادق الذي يتهيأ له أن يموت ولا يستحي من سره لو كُشف، قال الله تعالىٰ: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤].

قلت: هذه الآية فيها للناس كلام معروف.

قالوا: إنها معجزة[٢] للنبي ﷺ أعجز بها اليهود، ودعاهم إلىٰ تمنّي الموت، ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أخبر: أنهم لا يتمنّونه أبداً، وهذا عَلَم من أعلام نبوته، إذ لا يمكن الاطلاع علىٰ بواطنهم إلا بأخبار الغيب، ولم ينطق الله ألسنتهم بتمنّيه أبداً.

وقالت طائفة[٣]: لما ادَّعت اليهود أنَّ لهم الدار الآخرة عند الله، خالصة[٤] من دون الناس، وأنهم[٥] أحباؤه وأهل كرامته، كذّبهم[٦] الله في دعواهم، وقال: إن كنتم صادقين فتمنوا الموت، لتصلوا إلىٰ الجنة دار النعيم، فإن الحبيب يتمنّىٰ لقاء حبيبه، ثم أخبر سبحانه: أنهم لا يتمنّونه[٧] [بسبب ما][٨]

(١) القائل: أبو سعيد القرشي، الرسالة القشيرية ٣١٩.

(٢) ذكر ذلك ابن كثير في قصة مباهلة الرسول ﷺ لليهود، عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة﴾ في سورة البقرة، (١: ١٦١)، وانظر نماذج للجدل والمناظرة في كتاب منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، د/ عثمان علي حسن.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٠.

(٤) ق زيادة (خالصة عند الله).

(٥) ط (أبناؤه).

(٦) د، ش، ق (أكذبهم).

(٧) أ، ب، غ، ط زيادة (أبداً).

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (بما).

قدمت أيديهم من الأوزار والذنوب الحائلة بينهم وبين ما قالوه ، فقال: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٥].

وقالت طائفة[١] - منهم محمد بن إسحاق وغيره - هذه من جنس آية المباهلة ، وأنهم لمَّا عاندوا ، ودفعوا الهُدىٰ عياناً ، وكتموا الحق: دعاهم إلىٰ أمر يحكم بينهم وبينه ، وهو أن يدعوا بالموت علىٰ الكاذب المفتري ، [و«التمني» سؤال ودعاء ، فتمنوا الموت وادعوا به علىٰ المبطل الكاذب المفتري][٢].

وعلىٰ هذا فليس المراد: تمنوه لأنفسكم[٣] خاصة كما قاله أصحاب القولين الأولين ، بل[٤] ادعوا بالموت وتمنوه للمُبطِل ، وهذا أبلغ في إقامة الحجة وبرهان الصدق ، وأسلم[٥] من أن يعارضوه[٦] ،[٧] بقولهم: فتمنّوه أنتم أيضاً ، إن كنتم محقين أنّكم[٨] من[٩] أهل الجنّة ، لتقدموا علىٰ ثواب الله وكرامته

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٦١ ، ٤/ ٤٣٠.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من د سوىٰ كلمة (المبطل) ، وفي ق كلمة (المبطل) عقب (المفتري).

(٣) أ ، ب ، غ ، ح٢ ، م (أنفسهم).

(٤) ط زيادة (معناه).

(٥) (وأسلم) سقط من ش.

(٦) ط (يعارضوا).

(٧) ط زيادة (رسول الله).

(٨) (أنكم) سقطت من الأصل والصحيح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط.

(٩) (من) سقطت من الأصل وغيره والصحيح ما أثبته من ب.

والقوم[١] كانوا أحرص شيء علىٰ معارضته ، فلو فهموا منه ما ذكره أولئك لعارضوه بمثله.

وأيضاً فإنّا نشاهد كثيراً منهم يتمنىٰ الموت لضرِّه وبلائه ، وشدة حاله ، ويدعو به وهذا بخلاف تمنِّيه والدعاء به علىٰ الفرقة الكاذبة ، فإن هذا لا يكون أبداً[٢] ، ولا وقع من أحد منهم في حياة النبي ﷺ [البتة[٣] ، وذلك لعلمهم بصحة نبوته وصدقه ، وكفرهم[٤] حسداً وبغياً ، فلا يتمنوه أبداً ، لعلمهم أنهم هم الكاذبون ، وهذا القول: هو الذي نختاره ، والله أعلم بما أراد[٥] من كتابه.

وقال: إبراهيم الخواص: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤدّيه ، أو فضل يعمل فيه[٦].

وقال الجنيد: حقيقة الصدق: أن تصدق في موطن لا يُنجيك منه إلا الكذب[٧].

---

(١) (القوم) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٢) (أبداً) سقطت من د.

(٣) من قوله: (البتة) إلىٰ قوله: (إن نطق أحس) قرابة صفحة من المخطوطة سقط من د ، ونهاية السقط في ص٢١٢٨ من هذه الرسالة.

(٤) ط (به).

(٥) ب (بمراده).

(٦) الرسالة القشيرية ٣٢٠ .

(٧) الرسالة القشيرية ٣٢٠.

وقيل: ثلاث لا تخطئ الصادق: الحلاوة، والملاحة، والهيبة[١].

وفي أثر إلهي: «من صَدَقني في سريرته صدقتُه في عَلانيَّته عند خلقي»[٢].

وقال سهل بن عبدالله: أول خيانة الصدِّيقين حديثهم أنفسهم[٣].

وقال يوسف بن أسباط: لأنْ أبيت ليلة أعامل الله بالصدق أحب إليَّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله[٤].

وقال الحارث المحاسبي: الصادق هو الذي لا يُبالي لو خرج كلُّ قَدْر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس على السيئ من عمله، فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من علامات الصديقين[٥].

وفي هذا نظر؛ لأن كراهته لاطلاع الناس على مساوئ عمله من جنس كراهته للضرب والمرض وسائر الآلام، وهذا أمر جِبلِّي طبيعي[٦]، ولا يُخرج

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٢٠، قائله يوسف ابن أسباط، شعب الإيمان ٤/ ٢٣٣، حلية الأولياء ١٠/ ١٧٠، صفة الصفوة ٤/ ٢٦٤.

(٢) لم أجده.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٢١.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٢١.

(٥) الرسالة القشيرية ٣٢١.

(٦) الأصل (طبيعي) وهي ساقطة من أ، ب، غ، والصحيح لغة (طبعي).

صاحبه عن الصدق ، لا سيما إذا كان قدوة متبعاً ، فإن كراهته لذلك من علامات صدقه ، لأن فيها مفسدتين: مفسدة ترك الاقتداء به ، واتباعه على الخير وتنفيذه ، ومفسدة اقتداء الجهال به فيها ، فكراهته[١] لاطلاعهم على مساوئ عمله: لا تنافي[٢] صدقه ، بل قد تكون[٣] من علامات صدقه.

نعم المنافي للصدق: أن لا يكون له مراد سوى عمارة حاله عندهم ، وسكناه في قلوبهم تعظيماً له ، فلو كان مراده تنفيذاً لأمر الله ، ونشراً لدينه ، وأمراً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر ، ودعوة إلى الله: فهذا الصادق حقاً ، والله يعلم سرائرَ القلوب ومقاصدَها.

وأظن أنَّ هذا[٤] مراد المحاسبي بقوله: «ولا يكره اطلاع الناس[٥] على السّيئ من عمله»[٦] فإنهم يرون[٧] ذلك فضولاً ، ودخولاً فيما لا يعني ، فرضي الله عن أبي بكر الصدِّيق حيث قال: «لأقاتلنَّ من فَرَّق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عناقاً - أو عقالاً - كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»[٨] ،

(١) ط ، أ ، ب ، غ (كراهيته).
(٢) الأصل (لا ينافي) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ط.
(٣) الأصل (يكون) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ط.
(٤) م ، ح٢ ، ق ، ط زيادة (هو).
(٥) (اطلاع الناس) سقط من م.
(٦) أ ، غ ، ب زيادة (عنهم) ، ق ، م ، ح٢ (عندهم).
(٧) ط (يريدون).
(٨) البخاري. استتابة المرتدين (٤/ ٢٨٠) ح(٦٩٢٥) ، مسلم. الإيمان (١/ ٥١ ـ ٥٢) ح(٢٠) ، أحمد (١/ ٣٥) ، الترمذي. الإيمان (٥/ ٣ ـ ٤) ح(٢٦٠٧).

فهذا وأمثاله يعدونه ويرونه من سيء الأعمال عند العوام والجهال.

وقال بعضهم: من لم يؤد الفرض الدائم لم يُقبل منه الفرض المؤقت.

قيل: وما الفرض الدائم؟ قال: الصدق[١].

وقيل: من طلب الله بالصدق أعطاه مرآة يبصر فيها الحق والباطل[٢].

وقيل عليك بالصِّدق حيث تخافُ أنه يضرُّك ، فإنه ينفعك ، ودع الكذب حيث ترىٰ أنه ينفعك ، فإنه يضرك ، وقيل: ما أملق تاجر صدوق[٣].

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله -:

«الصِّدْقُ اسْمٌ لحَقِيقَةِ الشَّيءِ بِعَيْنِهِ حُصُولاً وَوُجُوداً»[٤].

الصدق: هو حصول الشيء وتمامه ، وكمال قوته ، واجتماع أجزائه ، كما يقال: عزيمة صادقة ، إذا كانت قوية[٥] تامة ، وكذلك: محبة صادقة ، وإرادة صادقة ، وكذا قولهم: حلاوة صادقة ، إذا كانت قوية تامة ثابتة الحقيقة ، لم ينقص منها شيء.

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٢١.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٢١.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٢٢.

(٤) منازل السائرين ٤٣.

(٥) م (قوة).

ومن هذا أيضاً: صدق الخبر؛ لأنه وجود المخبر[١] بتمام حقيقته في ذهن السامع.

فالتمام والوجود نوعان: خارجي، وذهني، فإذا أخبرت المخاطب بخبر صادق حصلت له حقيقة المخبر[٢] بكماله وتمامه في ذهنه.

ومن هذا وصفهم الرمح بأنه «صدق[٣] الكُعُوب»[٤]، إذا كانت كُعُوبه[٥] صُلبة قوية ممتلئة[٦].

درجات الصدق

الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: صِدْقُ القَصْدِ، وَبِهِ يَصِحُّ الدُّخُول فِي هَذَا الشَّأْنِ، وَيُتَلاَفىٰ بِهِ كُل تَفْرِيطٍ، وَيُتَدَارَكُ بِهِ[٧] كُل فَائِتٍ، وَيُعَمَّرُ كُل خَرَابٍ، وَعَلَامَةُ هَذَا الصَّادِقِ: أَن لَا يَتَحَمَّلَ[٨] دَاعِيةً تَدْعُو إِلَىٰ نَقْضِ عَهْدٍ، وَلاَ يَصْبِرَ عَلَىٰ صُحْبَةِ ضِدٍّ، وَلا يَقْعُدَ عَنِ الجِدِّ بِحَالٍ»[٩].

---

(١) ب (الخبر).

(٢) ط زيادة (عنه).

(٣) ط (صادق).

(٤) قال عنترة بن شدّاد: (جادت له كفي بعاجل طعنة بمثقف صدق الكُعُوب مقوم).

انظر: ديوان عنترة ٢١٠.

(٥) أ (صعوبه).

(٦) أ، ب، غ (مملية).

(٧) (به) سقطت من المنازل ٤٣ وإثباتها أقرب كما في جميع النسخ.

(٨) المنازل (يحتمل).

(٩) منازل السائرين ٤٣.

[يعني بصدق القصد](١):(٢) كمال العزم، وقوة الإرادة، بأن يكون في القلب داعية صادقة إلىٰ السلوك، وميل شديد يقهر السر علىٰ صحة التوجه(٣)، فهو طلب لا يمازجه رياء ولا فتور، ولا يكون فيه قسمة بحال، ولا يصح الدخول في شأن السفر إلىٰ الله، والاستعداد للقائه إلا به.

«وَيَتَلَافَىٰ بِهِ كُلّ تَفْرِيطٍ» فإنه حامل علىٰ كل سبب ينال به الوصول، وقطع كل سبب يحول بينه وبينه، فلا يترك فرصة تفوته، وما فاته من الفرص السابقة تداركها بحسب الإمكان، فيُصلِح من قلبه(٤) ما مزَّقته يد الغفلة والشهوة، ويُعَمِّر منه ما خربته يد البطالة، ويوقد منه(٥) ما أطفأته(٦) أهوية النفس، ويَلُمُّ منه ما شعَّثته(٧) يد التفريط والإضاعة، ويستردُّ منه(٨) ما سرقته(٩) يد(١٠) اللصوص والسُّرَّاق(١١)، ويستفرغ منه ما ملأته مواد الأخلاط الرديئة الفاسدة المترامية به

---

(١) ما بين المعقوفين طمس من أ.

(٢) ب زيادة (يكون).

(٣) ش (التوحيد).

(٤) أ (قبله).

(٥) ط (فيه).

(٦) ق (ما أطفأ به).

(٧) شعّثته: الشعث: انتشار الأمر، والأشعث المغبر الرأس، مختار الصحاح (٣٣٩).

(٨) (منه) سقطت من ط.

(٩) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (نهبته)، ق (نهته).

(١٠) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (أكف).

(١١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (ويزرع منه ما وجده بواراً من أراضيه، ويقلع ما وجده شوكاً وشبرقاً في نواحيه).

إلىٰ الهلاك والعطب، ويداوي منه الجراحات التي أصابته عند الغارة عليه[1]، ويغسل منه الحوبات والأوساخ[2] التي تراكمت عليه علىٰ تقادم الأوقات، حتىٰ لو اطلع عليه لأحزنه سواده ووسخه الذي صار دباغاً[3] له، فيطهره بالماء البارد[4]، قبل أن يكون طهوره بالجحيم[5]،[6] فإنه لا يجاور الرحمن قلب دنس[7] أبداً، ولا بد من طهور، فاللبيب يؤثر أسهل الطهورين وأنفعهما، والله المستعان.

و[8]قوله: «وَعَلَامَةُ هَذَا الصَّادِقِ[9]: أَن لا يَتَحَمَّل[10] دَاعِيَةً تَدْعُو إِلىٰ نَقْضِ عَهْدٍ».

يعني أن الصادق حقيقة: هو الذي قد انجذبت قوىٰ روحه كلها إلىٰ إرادة

---

(١) (عند الغارة عليه) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط وبدلاً عنها (من عبرات الرياء) وهي ليست في الأصل، ش.

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، ش (الأوساخ والحوبات).

(٣) دباغاً: دبغ الجلد يدبغه دباغة، والدبَّاغ: محاول ذلك، وحرفته الدباغة، لسان العرب ٨/ ٤٢٤.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (من ينابيع الصدق الخالصة من جميع المكدورات).

(٥) (الجحيم) سقطت من ش.

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، ش زيادة (والحميم).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ط زيادة (بأوساخ الشهوات والرياء).

(٨) (الواو) سقطت من ق.

(٩) ش، ح٢ (الصدق).

(١٠) ش (يحتمل).

الله وطلبه ، والسير إليه ، والاستعداد للقائه ، ومن[1] هذه حاله: لا يحتمل سبباً يدعوه إلىٰ نقض عهده مع الله بوجه.

وقوله: «وَلاَ يَصْبِرَ عَلَىٰ صُحْبَةِ ضِدٍّ».

الضِد عند القوم: هم أهل الغفلة ، وقطاع طريق القلب إلىٰ الله ، وأضر شيء علىٰ الصادق: صحبتهُم ؛ بل لا تصبر نفسه علىٰ ذلك أبداً ، إلا جمع ضرورة ، وتكون صحبتهم له في تلك الحال بقالبه وشبحه[2] ، دون قلبه وروحه ، [فإن هذا لما استحكمت الغفلة فيه[3] كما استحكم الصدق في الصادق أحست روحه][4] بالأجنبية التي بينه وبينه[5] والمضادة[6] ، فاشتدت النفرة[7] ، و[8]بحسب هذه[9] الأجنبية وإحساس الصادق بها: تكون نفرته[10] عن الأضداد ، فإن الضد

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، ط زيادة (تكون).

(٢) شبحه: الشبح: ما بدا لك شخصه غير جليٍّ من بُعد ، وشبح الشيء ظله وخياله ، المعجم الوسيط ١/ ٤٧٠.

(٣) ط (عليه).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٥) ط (بينهم) ، وفي أ ، ب ، غ (وبينه وصحبتهم).

(٦) م ، ح٢ ، ط سقطت (النقطتان من التاء).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، ط زيادة (وقوىٰ الهرب).

(٨) (الواو) سقطت من ق.

(٩) (هذه) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(١٠) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب زيادة (وهربه).

إن نطق أحس][1] قلب الصادق: أنه نطق بلسان الغفلة ، والرياء والكبر ، وطلب الظهور[2] ،[3] فنفر قلبه منه ، وإن صمت أحس قلبه: أنه صمت علىٰ غير حضور وجمعية علىٰ القلب ، وإقبال بالقلب عليه ، وعكوف السر[4] ، فينفر منه أيضاً ، فإن[5] قلب[6] الصادق قوي الإحساس ، فيجد الغيرية[7] والأجنبية من الضد ، ويشم الرائحة الخبيثة ، فيزوي[8] وجهه لذلك ، ويعتريه عبوس ، فلا يأنس به إلا تكلُّفاً ولا يصاحبه إلا ضرورة ، فيأخذ من صحبته قدر الحاجة ، كصحبة من يشتري منه ، أو يحتاج إليه في مصالحة[9].

قوله: «**وَلاَ يَقعُدَ عَن الجِدِّ بِحَالٍ**».

يعني أنه لما كان في طلبه صادقاً[10] مستجمع القوة: لم يقعد به[11] عزمه عن الجد في جميع أحواله ، فلا تراه إلا جاداً ، وأمره كله جد.

---

(١) هنا نهاية السقط من د.. وبدايته من ص٢١٢٠.

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، ط (الجاه).

(٣) في م، أ ، غ ، ح٢ ، ب، د ، ق، ط (ولو كان ذاكراً أو قارئاً أو مصلياً أو حاجاً أو غير ذلك).

(٤) ط زيادة (عليه).

(٥) (فإن) سقطت من الأصل والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط.

(٦) ق (قلت).

(٧) ب (الغيرة).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (فينزوي).

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (كالزوجة والخادم ونحوه).

(١٠) بقية النسخ (صادقاً في طلبه).

(١١) (به) سقطت من أ ، ب ، غ.

فصـــل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : أَن لَا يَتَمَنَّىٰ الحَيَاةَ إِلَّا لِلحَقِّ ، وَلَا يَشهَدَ مِن نَفسِهِ إِلَّا أَثَرَ النّقصَانِ ، وَلَا يَلتَفِتَ إِلَىٰ تَرفِيهِ الرُّخَصِ»(١) .

أي لا يحب أن يعيش إلا ليشبع من رضىٰ محبوبه ، ويقوم بعبوديته ، ويستكثر من الأسباب التي تقربه منه(٢) ،(٣) كما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - «لولا ثلاث في الدنيا(٤) لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل علىٰ جياد الخيل في سبيل الله ، ومكابدة الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام ، كما يُنتقىٰ أطايب التَّمر»(٥).

يريد - رضي الله عنه - : الجهاد ، والصلاة ، والعلم(٦) ، وهذه درجات الفضائل ، وأهلها هم أهل الزلفىٰ ، والدرجات العالية(٧).

---

(١) منازل السائرين (٤٣).

(٢) ق ، ط (إليه) بدل (منه).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (وتدنيه منه لا لعلة من علل الدنيا ، ولا لشهوة من شهواتها).

(٤) (في الدنيا) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط سوىٰ م.

(٥) حلية الأولياء ١/ ٥١ ، الزهد لوكيع ٢/ ٣١٦ رقم٩٠ ، المروزي في زيادات زهد ابن المبارك ٤١٧ ، عيون الأخبار ١/ ٣٠٨ ، طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩٠ ، وعن أبي الدرداء في حلية الأولياء ١/ ٢١٢ ، الزهد لابن المبارك ٩٤ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٤٠٩.

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (النافع).

(٧) ط (العليا).

وقال بعض الصحابة(١) - رضي الله عنهم - عند موته: «اللهم تعلم أني لم أكن أحب [البقاء لجري الأنهار ،ولا لغرس الأشجار ، ولا لنكح الأزواج ولكن](٢) ، إنما كنت أحبها(٣) لظمأ الهواجر ، ومكابدة الليل ،ومزاحمة العلماء بالركب عند حِلق الذكر»(٤).

وقوله: «وَلاَ يَشْهَدَ مِن نَفْسِهِ إِلاَّ أَثَرَ النُّقْصَانِ».

يعني لا يرىٰ نفسه إلا مقصراً ، والموجب له هذه(٥) الرؤية: استعظام مطلوبه، واستصغار نفسه ، ومعرفته بعيوبها ، وقلة زاده في عينه ، فمن عرف الله وعرف نفسه: لم ير نفسه إلا بعين النقصان.

وأما(٦) قوله : «وَلاَ يَلتَفِتَ إِلىٰ تَرفِيهِ الرُّخصِ».

فلأنه - لكمال صدقه وقوة إرادته ، وطلبه للتقدم - يحمل نفسه علىٰ العزائم ، ولا يلتفت إلىٰ الرفاهية التي في الرخص.

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (معاذ رضي الله عنه).

(٢) في الأصل (الدنيا لغرس الأشجار ولا لكري الأنهار) بدل ما بين المعقوفين والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط ، وممن نقل عنه في غير هذا المصدر.

(٣) (وإنما كنت أحبها) سقطت من بقية النسخ.

(٤) حلية الأولياء عن معاذ - رضي الله عنه - ١/ ٢٣٩ ، والعاقبة في ذكر الموت لعبد الحق الإشبيلي ١٢٦ ، صفة الصفوة ١/ ٥٠١ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٤٨١.

(٥) ط (لهذه).

(٦) (وأما) سقطت من أ ، ب ، غ.

وهذا لا بد فيه من التفصيل ، فإن الصادق يعمل علىٰ رضىٰ الحق تعالىٰ ومحابه فإذا [كانت الرّخص أحب إليه[1] من العزائم: كان التفاته إلىٰ ترفيهها ، وهو عين صدقه ، فإذا][2] أفطر في السفر ، وقَصَر وجمع بين الصلاتين عند الحاجة إليه ، وخفف الصلاة عند الشغل ، ونحو ذلك من الرخص التي يحب[3] الله تعالىٰ أن يؤخَذَ بها، فهذا[4] الالتفات إلىٰ ترفيهها لا ينافي الصدق.

بل هاهنا نكتة: وهي[5] أنه فرّق بين أن يكون التفاته إليها تَرَفُّهاً وراحة وأن يكون متابعة وموافقة ، ومع هذا فالالتفاف إليها ترفُّهاً وراحة لا ينافي الصدق ، فإن هذا هو المقصود منها ، وفيه شهود نعمة الله علىٰ العبد ، وتعبد[6] باسمه «البر ، اللطيف، المحسن، الرفيق»[7] فإنه رفيق[8] يحب الرفق ، وفي الصحيح

---

(١) ط زيادة (تعالىٰ).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (يحبها).

(٤) الأصل (فهذه) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ش ، ح٢.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (وهو).

(٦) ط (تعبده).

(٧) البر: هو العطوف المحسن علىٰ عباده ، قال تعالىٰ: ﴿إنه هو البر الرحيم﴾ [الطور:٢٨] ، اللطيف: قال تعالىٰ: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ وتقدم بيانه، وانظر: ولله الأسماء الحسنىٰ ١٨٧ ، أسماء الله الحسنىٰ ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٦١ ، أما الرفيق: فقد أخبر رسول الله ﷺ عن ربه تعالىٰ «أنه رفيق يحب الرفق» مسلم. البر والصلة (٤/ ٢٠٠٣) ح(٢٥٩٣) ، والمحسن: سبق ص١٧٦٩.

(٨) (رفيق) سقطت من أ ، ب.

«ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً»[١]؛ لما فيه من روح التعبد باسم[٢] «الرفيق ، اللطيف» ، وإجمام القلب[٣] به[٤] لعبودية أخرىٰ ، فإن القلب لا يزال[٥] ينتقل في منازل العبودية ، فإذا أخذ بترفيه رخصة محبوبة: استعد بها لعبودية أخرىٰ ، وقد تقطعه عزيمتها عن عبودية هي[٦] أحب إلىٰ الله منها ، كالصائم في السفر الذي ينقطع عن خدمة أصحابه ، والمفطر الذي يضرب الأبنية[٧] ويسقي الركاب[٨] ، ويضم المتاع ، ولهذا قال فيهم النبي ﷺ : **«ذهب المفطرون اليوم بالأجر»**[٩].

أما الرخص التأويلية ، المستندة إلىٰ اختلاف المذاهب ، والآراء التي تصيب وتخطئ: فالأخذ بها عندهم عين البطالة و[١٠]مناف للصدق.

---

(١) البخاري. المناقب (٢/ ٥١٨) ح(٣٥٦٠) ، مسلم الفضائل (٤/ ١٨١٣) ح(٢٣٢٧) ، أحمد (٦/ ١٦٢) ، أبو داود. الأدب (٥/ ١٤٢) ح(٤٧٨٥) ، مالك في الموطأ (٢/ ٩٠٢) ح(٢).

(٢) ب ، أ ، ح٢ (باسمه).

(٣) أ ، ب ، غ (الطلب).

(٤) (به) سقطت من أ ، ب ، غ ، د ، ش.

(٥) (لا يزال) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) أ ، ب ، غ (وهي).

(٧) ط (الأخبية).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (الركايب).

(٩) البخاري. الجهاد والسير (٢/ ٣٢٩) ح(٢٨٩٠) ، مسلم. الصيام (٢/ ٧٨٨) ح(١١١٩) ، صحيح النسائي (٢/ ٤٨٦) ح(٢١٥٣).

(١٠) (الواو) سقطت من ط.

فصل[1]

الدرجة الثالثة قال: « الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: الصِّدقُ فِي مَعرِفَةِ الصِّدقِ، فَإِنَّ الصِّدقَ لَا يَستَقِيمُ - فِي أَهلِ[2] الخُصُوصِ - إِلَّا عَلَىٰ حَرفٍ وَاحِدٍ: وَهُوَ أَن يَتَّفِقَ[3] رِضَىٰ الحَقِّ بِعَمَلِ العَبدِ، أَو حَالِهِ، أَو وَقتِهِ، وَإِيقَانَ[4] العَبدِ وَقَصدَهُ فَيَكُونُ[5] رَاضِياً مَرضِيّاً، فَأَعمَالُهُ وَأَحوَالُهُ صَادِقَةٌ وَقُصُودُهُ مُستَقِيمَةٌ، وَإِن كَانَ العَبدُ كُسِيَ ثَوباً مُعَاراً، فَأَحسَنُ أَعمَالِهِ[6]: ذَنبٌ، وَأَصدَقُ أَحوَالِه: زُورٌ، وَأَصفَىٰ قُصُودِهِ: قُعُودٌ»[7].

يعني أن الصدق المتحقق إنما يحصل لمن صدق في معرفة الصدق، فكأنه قال: لا يحصل حال الصدق إلا بعد معرفة علم الصدق.

ثم عرَّف حقيقة الصدق[8]، فقال: «لاَ يَستَقِيمُ الصِّدقُ - فِي عِلمِ أَهلِ[9]

---

(١) (فصل) طمس من أ.

(٢) (أهل) سقطت من المنازل ٤٤.

(٣) الأصل (يتفن) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ط، المنازل ٤٤، وفي ش (يتيقن).

(٤) الأصل (وإتقان) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ وفي المنازل (وإتيان).

(٥) الأصل (يكون) وم، أ، غ، ح٢، ب، ط (بكون) والأقرب ما أثبته من المنازل ٤٤.

(٦) ش (أحواله).

(٧) منازل السائرين ٤٤.

(٨) المعرِّف هو الهروي كما في منازل السائرين ٤٤.

(٩) (أهل) سقطت من أ، ب.

الخُصُوصِ - إِلاَ عَلىٰ حَرفٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ أَن يَتَّفِق[١] رِضَىٰ الحَقِّ بِعَمَلِ العَبدِ ، أَو حَالِهِ ، أَو وَقتِهِ ، وَإِيقَانُهُ[٢] ، وَقَصدُهُ» ، هذا[٣] موجب الصدق وفائدته وثمرته.

فالشيخ - رحمه الله - ذكر الغاية الدالة علىٰ الحقيقة التي يعرف انتفاء الحقيقة[٤] بانتفائها ، وثبوتها بثبوتها.

فإن العبد إذا صدق الله: رضي الله بعمله ، وحاله ويقينه ، وقصده ، لا أن رضىٰ الله نفس الصدق ، وإنما يعلم الصدق بموافقة رضاه سبحانه ، ولكن من أين يعلم العبد رضاه؟.

فمن هاهنا كان الصادق مضطراً - أشد ضرورة - إلىٰ متابعة الأمر ، والتسليم للرسول ﷺ في ظاهره وباطنه ،[٥] والتعبد به[٦] في كل حركة وسكون ، مع إخلاص القصد لله[٧] ، فإن الله تعالىٰ لا يرضيه من عبده إلا ذلك ، وما عدا هذا فقوت النفس ، ومجرد حظها ،[٨] وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات

---

(١) الأصل (يتقن) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٢) الأصل (إتقانه) و م ، د (اتفاقه) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٣) ط (وهذا).

(٤) (الحقيقة) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (والاقتداء به).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (بطاعته).

(٧) ط زيادة (عزّ وجل).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (واتباع هواها) وفي ط (أهوائها).

والخلوات ما كان ، فإن الله سبحانه[١] أبىٰ أن يقبل من عبده عملاً ، أو يرضىٰ به، حتىٰ يكون علىٰ متابعة رسوله ﷺ خالصاً لوجهه[٢].

ومن هاهنا يفارق الصادق أكثر السالكين؛ بل يستوحش في طريقه[٣] ، فإن أكثرهم سائرون علىٰ أذواق نفوسهم[٤] ، ومتابعة رسوم شيوخهم ، والصادق في وادٍ ، وهؤلاء في وادٍ.

وقوله: «**فَيَكُونُ العَبْدُ رَاضِياً مَرضِيّاً**».

لأنه قد رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، فرضي الله به عبداً ، و[٥]أعماله إذاً مرضية لله ، وأحواله صادقة مع الله ، وقصوده مستقيمة علىٰ متابعة أوامر الله[٦].

قوله[٧]: «**وَإِنْ كَانَ العَبْدُ كُسِيَ ثَوْباً مُعَاراً ، فَأَحْسَنُ أَعْمَالِهِ: ذَنبٌ ، وَأَصْدَقُ أَحْوَالِهِ: زُورٌ ، وَأَصْفَىٰ قُصُودِهِ: قُعُودٌ**» ، هذا يُراد به أمران.

أحدهما: أن يكسىٰ حلية الصادقين ، ويلبس[٨] ثيابهم علىٰ غير قلوبهم

---

(١) ط زيادة (وتعالىٰ).

(٢) ط زيادة (سبحانه).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (وذلك لقلة سالكها).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (علىٰ طرق أذواقهم وتجريد أنفاسهم لنفوسهم).

(٥) ق (فأعماله).

(٦) ط زيادة (عزّ وجل).

(٧) ط (وقوله).

(٨) م (لبس).

وأرواحهم ، فثوب الصدق عارية له ، لا ملك[١] ، فهو كالمتشبع بما لم يُعط ، فإنه كلابس ثوبي زور[٢] ، فهذا أحسن أعماله: ذنب يُعاقب عليه ، كما يعاقب المقتول في الجهاد ، والقارئ القرآن المتنسك[٣] ، والمتصدق ، ويكونون[٤] أول من تُسعَّر النار بهم يوم القيامة ، لما لبسوا ثياب الصادقين على قلوب المرائين[٥].

فهذا[٦] معنىً صحيح و[٧]ما أظن الشيخ قصده.

وإنما أظنه قصد معنىً آخر، وهو أنه متىٰ تيقن[٨] العبد: أن وجوده ثوبٌ مُعار، ليس منه[٩] فإنه ليس به ولا له ، وإنما إيجاده وصفاته ، وإرادته وقدرته ، وأعماله: عارية من الفعَّال وحده ، والعبد ليس له من ذاته إلا العدم ، فوجوده ،

---

(١) أ ، ب ، غ زيادة (له).

(٢) المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور: فيه حديث عن رسول الله ﷺ كما في البخاري. النكاح (٣/ ٣٩٢) ح(٥٢١٩) ، مسلم. اللباس (٣/ ١٦٨١) ح(٢١٢٩) ، أحمد (٦/ ٩٠).

(٣) د زيادة (المقتصد).

(٤) ح٢ (فيكونون).

(٥) في هذا إشارة إلىٰ حديث أبي هريرة «.. أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة.. » ، أخرجه مسلم. الأمارة (٣/ ١٥١٣) ح(٩٠٥) ، الترمذي. الزهد (٤/ ٥٩١) ح(٢٣٨٢) وقال حسن غريب ، صحيح ابن حبان (٢/ ١٣٧) ، صحيح ابن خزيمة (٤/ ١١٦).

(٦) (الفاء) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٧) (الواو) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ط.

(٨) ح٢ (يتيقن).

(٩) (فإنه ليس به) في الأصل فقط.

وحياته: ثوب أُعيره ، فمتىٰ نظر بعين الحقيقة إلىٰ كسوته: رأىٰ أحسن أعماله ذنوباً في هذا المقام ، وأصدق أحواله زوراً ، وأصفىٰ قصوده قعوداً ، فلا يرىٰ لنفسه(١) عملاً ، ولا حالاً ولا قصداً ، فإنه ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم ، فكل ما من نفسه(٢) فهو ذنب وزور وقعود ، وما كان مرضياً فهو بالله ومن الله ولله ، لا بالنفس ، ولا منها ، ولا لها ، فإن العبد إذا رأىٰ أنه قد فعل الطاعة: كان(٣) رؤيته لذلك ذنباً ، فإنه(٤) نَسب الفعل إليه ، والله في الحقيقة هو المتفرد بالفعل.

فعلىٰ هذا لا يتخلَّص العبد من الذنب قط ، فإنه إذا خلص فعله من الرياء ومن كل شيء يُفسده: اقترن به آخر ، لا يمكنه الخلاص منه ، وهو اعتقاده: أنه هو الفاعل.

والصواب: أن هذا ليس بذنب ، ولا مقدور للعبد ولا مأمور(٥) ، والكمال في حقه أن يشهد الأمر كما هو عليه ، وأنه فاعل حقيقة ، كما أضاف الله إليه الفعل في كتابه كله ، والله هو الذي جعله فاعلاً ، فإذا شهد نفسه فاعلاً حقيقية ، وشهد فاعليته بالله ومن الله ، لا من نفسه ، فلا ذنب في هذا الشهود ، ولا زور

---

(١) ط (منه).

(٢) غ ، ط (النفس).

(٣) ط (كانت).

(٤) ط (قد).

(٥) ط (به).

بحمد الله، وهو نظر بمجموع عينيه إلىٰ السبب، والمسبب، والشرع، والقدر، والخلق، والأمر [ثم لو صح ما ذكروه لكان الكافر والعاصي والفاسق أيضاً لا ذنب له ولا معصية في حقيقة الأمر](١)، وأنه متىٰ شهد نفسه عاصياً، مخالفاً، مذنباً: كان عاصياً بهذا الشهود؛ لأن الفاعل فيه غيره، وهذا مناف للعبودية أشد منافاة، وهو من سَيْر القوم إلىٰ شهود الحقيقة الكونية(٢)، واعتقاد(٣): أنه غاية السالكين(٤).

فإن قيل: الشيخ - رحمه الله - هاهنا ما نطق [بلسان الأبرار؛ بل(٥) بلسان](٦) المقربين، ولا ريب أنَّ «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين» ولسنا نريد أنّ(٧) شهود فعله ذنب في الشرع؛ بل يكون حسنة كما ذكرتم، لكن هو حسنة للبرِّ، ذنب للمقرَّب، فإنّ نصيب البر من السيئة: ما جاء به العلم، ونصيب المقرب: ما جاءت به المعرفة التي هي أخص من العلم.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب سوىٰ م، د، ق، ط.

(٢) الحقيقة الكونية: هي الفرق الأول وهو مذموم وقد سبق ص١٧١٨، ١٨٧٣، وانظر المدارج ١/ ٢٤٧.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (واعتقادهم).

(٤) ق (للسالكين).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ط (وإنما نطق).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٧) (أنّ) سقطت من ق.

قيل: هذا أيضاً باطل قطعاً؛ بل[1] المعرفة الصحيحة: مُطابقة للحق[2] في نفسه شرعاً وقدراً، وما خالف[3] ذلك فمعرفة فاسدة.

والحق في نفس الأمر: نسبة الأفعال إلىٰ الفاعلين قياماً ومباشرة، وصدوراً منهم[4]، وذلك محل الأمر والنهي، والثواب والعقاب.

والقدح في ذلك مستلزم لإبطال الشرع والجزاء، فإنّ الشرع إنّما يأمر بأفعالنا[5] ونهىٰ عنها والجزاء إنما ترتب عليها، فشهود أفعالنا[6] كذلك من تمام الإيمان بالشرع والجزاء، ونسبتها إلىٰ الرب تعالىٰ، قضاءً وقدراً وخلقاً للأسباب التي منها إرادتنا وقدرتنا، فلم يجبرنا عليها ولم يكرهنا، بل خلقها بما أعطانا من القدرة والإرادة، اللتين[7] هما من أسباب الفعل.

فهذا المشهد يحقق عبودية: «إياك نستعين»، والمشهد الأول يحقق عبودية: «إياك نعبد»[8] ويحقِّقان مشهدي: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٢٩-٣٠]، وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن

---

(١) أ، ب، غ (فإنّ) بدل (بل).

(٢) ق (الحق).

(٣) ط (ومخالف).

(٤) (منهم) سقطت من د.

(٥) الأصل (بأفعالها) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٦) الأصل (أفعالها) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٧) ب (اللذين).

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (هما).

يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩].

وما جاء به العلم لا يناقض ما جاءت به المعرفة؛ بل المعرفة روح العلم ولُبُّه وكماله، وحقيقتها: العلم الذي أثمر لصاحبه مقصوده، ولسان الأبرار لا يخالف لسان المقربين، إنما يخالف لسان الفجار.

نعم لسان المقربين أعلىٰ منه وأرفع، علىٰ مقتضىٰ أعمالهم وأحوالهم، فنسبته إليه كنسبة مقام التوكل إلىٰ الرضىٰ، والرضىٰ إلىٰ الحمد والشكر.

فإن قيل كلامهم هذا بلسان العلم، ولو تكلمنا بلسان الحال لعلمتم صحة ما ذكرناه، فإن صاحب الحال صاحب شهود، وصاحب العلم صاحب غَيبة، والشاهد يرىٰ ما لا يرىٰ الغائب، و(1)نحن نشير إليكم إشارة حالية علمية، تنزلاً من الحال إلىٰ العلم.

فنقول: الحال تأثر عن نور من أنوار الأُحدية والفردانية(2)، تستر(3) العبد عن نفسه، وتبدي(4) ظهور مشهوده(5)، ولا ريب أنه(6) في هذا

---

(1) (الواو) سقطت من الأصل، د، والأقرب إثباتها كما في م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ش، ط.

أقسام الأحدية عند الصوفية

(2) الأحدية عندهم أقسام فمنها أحدية الذاتية والصفاتية، وأحدية الأسماء والفعلية، وأحدية الجمع، وهي اسم للذات باعتبار سقوط جميع الاعتبارات عنها، وبين الأحدية وأحدية الجمع مراتب، ينظر في ذلك: لطائف الإعلام (١/ ١٦٩ ـ ١٧١).

(3) بقية النسخ (يستر).

(4) بقية النسخ (يبدي).

(5) م (شهوده).

(6) أ، ب، غ، ط (أن).

الحال[1] قد يعتقد أنّ الشاهد هو المشهود ، حتىٰ قال أبو يزيد في مثل هذا الحال: سُبحاني[2] ، وما في الجبة[3] إلا الله[4] ، ولا شك أن هذا الاعتقاد زور ، وإن كان[5] سببه نوراً من أنوار الأحدية ، وصاحبه معذور ، ما دام مستوراً عن نفسه بوارده ، فإذا رُدَّ إلىٰ رسمه وعقله وحِسِّه: حال ذلك الحال وزال ، وعلم صاحبه أنه كان زوراً ، حيث ظنّ الشاهد هو المشهود.

فإن أنكرتم ذلك فلا كلام معكم ، وإن اعترفتم به حصل المقصود.

فهذا معنىٰ كون أصدق أحوال الصادق: زوراً ، وإذا[6] عُرف هذا في الحال عُرف مثله في كون أحسن أعماله: ذنباً ، فإنه - لصدقه في الطلب ، وبذله

---

(١) م ، ح٢ (الحالة).

(٢) ط (سبحاني سبحاني) تكرار.

(٣) ق (الجفة).

(٤) ذكر هذه المقولة شيخ الإسلام عن أبي يزيد البسطامي ثم علّق عليها وبيّن أنها من السكر والجنون ونقص العقل الذي فقد معه صاحبه التمييز ، انظر الفتاوىٰ ٢/ ٣٩٦ ، ٤٦١ ، ٨/ ٣١٣ ، ١٠/ ٣٣٩ ، ١٣/ ١٩٩ ، وهذه تُدْرج عند القوم في مصطلح الفناء ، انظر هذا المعنىٰ لديهم في لطائف الإعلام ٢/ ٢١٧ - ٢٢١ ، وهو النوع الثاني من أنواع الفناء ويُراد به الفناء عن شهود السوىٰ ، وتقدم الكلام علىٰ أقسام الفناء ١٦٦٤ ، وقد علق ابن القيم علىٰ هذه المسألة عند أول ورودها في المدارج ١/ ١١٩ ، وانظر في مسألة الفناء (الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرىٰ) دراسة مقارنة ، د/ عبد الباري محمد داود.

مقولة البسطامي وشطحاته والتعليق عليها

(٥) (كان) سقطت من أ ، ب ، غ ، د ، ط.

(٦) ش (فإذا).

الجهد في العمل، واستفراغه الوسع[1] فيه - يغيب بذلك عن شهود الحقيقة الكونية[2]، وأن المحرك له سواه وأنه آلة ومجرىٰ للمشيئة، وأن نفسه أعجز وأضعف من أن يكون لها، أو بها، أو منها فعل، أو إرادة، أو حركة، فإذا رجع إلىٰ الحقيقة فشهد[3] مِنَّة الله عليه، وأنه هو المحرك له[4]، وأن مشيئته هي التي أوجبت سعيه، رأىٰ أحسن أعماله: ذنباً بهذا الاعتبار.

وأما «رُؤْيَتُهُ أَصْفَىٰ قُصُودِهِ: قُعُوداً» فلأن القاصد إلىٰ الحقيقة متىٰ شهد مقصوده، قعد عن قصده، فإنّ المقصود المراد: أقرب إلىٰ اللسان من نطقه، وإلىٰ القلب من قصده، فالقصد إليه: هو عين القعود عن القصد، لأنّ القصد إنّما يكون لبعيد عن المقصود[5]، أما من هو أقرب إلىٰ القاصد من ذاته: فمتىٰ شهد القاصد الحقيقة: علم أنّ قصده عين القعود عن قصده، والعبارة تزيد هذا المعنىٰ جفوة، والحوالة فيه علىٰ الحال والذوق.

فالجواب أنْ يُقال: من أحالكَ علىٰ الحال فما أنصفك، فإنه أحالك علىٰ أمر مشترك بين الحق والباطل، فإنّ كلّ من اعتقد شيئاً وطلبه طلباً[6] صادقاً،

---

(١) ق (التوسع).

(٢) الحقيقة الكونية: سبق ص ١٧١٨، ١٨٧٣ .

(٣) ق (وشهد).

(٤) (له) سقطت من غ، ب.

(٥) أ، ب، غ، ط (القاصد).

(٦) (طلباً) سقطت من ق.

واستفرغ وسعه في الوصول إليه: كان له[1] لا محالة فيه حال ليست لغيره، بحسب صدقه في طلبه، وجمع همته وقصده عليه، وهذا[2] يكون للأبرار والفجار؛ بل لأولياء الله وأعدائه، فكون[3] الرجل له شهود بمشهوده، وحال في طلبه، لا يوجب كونه حقاً ولا باطلاً، فإنّ كلّ من اعتقد عقيدة، وارتاض وصقل قلبه بأنواع الرياضة، وجزم بما اعتقده: تجلّى[4] له صورة معتقده في عالم نفسه، فيظن ذلك كشفاً صحيحاً، وإن كان صادقاً في طلبه وحبه لما اعتقده: كان له فيه حال وتأثير بحسبه، فالحوالة على الحال حوالة مفلس من العلم على غير مليء به.

ومن هاهنا دخل الداخل على أكثر السالكين، وانعكس سيرهم، حيث أحالوا العلم على الحال، وحكموه عليه[5].

---

(١) (له) سقطت من ط.

(٢) ش زيادة (لا).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (فيكون).

(٤) ط (تجلّت).

(٥) تقديم الحال على العلم، والإحالة على الذوق والكشف والحال: علّق عليها شيخ الإسلام في مواضع متعددة من كتبه منها: الاستقامة ١/ ٣٨٨ ـ ٤١٥، ٢/ ١٢٧، الفتاوى ١١/ ٧٥، الفرقان ضمن الفتاوى ١١/ ٢٨٦، ولقد سبق تعريف الحال ص١٨٢٨، وهذا المعتقد سارٍ عندهم حتى الآن، ويصرحون به، ومما يقوله مُنظّرهم في العصر الحاضر/ عبد الحليم محمود: «وإذا عجز المنهج العلمي الحاوي عن دارسة التصوف في حقيقته وجوهره، وعجز المنهج العقلي كذلك، فإن الصوفية جميعاً، وفلاسفة الإشراق منذ فيثاغورس

تقديم الحال والإحالة على الذوق والكشف

وسير[1] أولياء الله وعباده الأبرار والمقربين: بخلاف هذا، وهو إحالة الحال علىٰ العلم، وتحكيمه عليه وتقديمه، ووزنه به[2] حكمه، فإن وافقه العلم، وإلا كان حالاً فاسداً، منحرفاً عن أحوال الصدِّيقين[3] بحسب بُعْده عن العلم، فالعلم حاكم والحال محكوم عليه، والعلم راعٍ والحال من رعيته، فمن لم يكن هذا أصل بناء سلوكه فسلوكه فاسد، وغايته الانسلاخ من العلم والدين، كما جرىٰ ذلك لمن جرىٰ له، وبالله[4] المستعان.

ونحن لا ننكر ما ذكرتم - من غيبة الشاهد بمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، وبمحبوبه[5] عن حبه - لكن ننكر كون هذا أكمل حالاً من صاحب البقاء والتمييز، وشهود الحقائق علىٰ ما هي عليه، فلا يحتاج أن[6] يشهد حاله زوراً؛ لأنه لم يحصل له ما حصل لصاحب السُّكْر[7]

وأفلاطون إلىٰ يومنا هذا يعلنون منهجاً محدوداً يقرونه ويثقون به ثقة تامة، ذلك هو المنهج القلبي، أو المنهج الروحي، أو منهج البصيرة وهو منهج معروف أقرته الأديان..» عبد الحليم محمود/ تأليف مرسي أبو العباس ص١٠، وقد تقدم الكلام عن الحال كمصدر للتلقي عندهم، وذلك في مبحث تقويم منازل السائرين في مطلع هذه الرسالة ص١٦٥٧.

(١) ب (ومسير).

(٢) ط زيادة (وقبول).

(٣) أ، ب، غ، م، ط (الصادقين).

(٤) ب (والله).

(٥) م، ب (ومحبوبه).

(٦) (أن) سقطت من الأصل وغيره والأقرب إثباتها كما في ط.

(٧) ق، ش (الشكر).

والاصطلام[1] من الزور، فهو أكمل منه حقيقة وشرعاً.

وأما الغائب عن الحقيقة الكونية بشهود فِعله: فإنه متىٰ صحبه استصحاب عقد التوحيد، وأن مصدر كل شيء مشيئة الله وحده، وأنَّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يتحرّك متحرِّك في ظاهره أو باطنه إلا به سبحانه: فلا تضرُّهُ[2] الغيبة عن هذا المشهد باستغراقه في القصد والفعل والطلب[3] إذ حكمه جار عليه في هذه الحال، وليس ضيق قلبه عن استحضار ذلك وقت استجماع إرادته وفعله وطلبه: ذنباً، لا للخاصة ولا للعامة، ولا بالنسبة إلىٰ مقامه أيضاً، فإن الذنب تعمُّد مخالفة الأمر، وهذا ليس كذلك، ولا هذا[4] مطالب بالغيبة عن شهود[5] الحقيقة، والفناء فيها عن شهود الفعل وقيامه به، مع اعتقاده[6] أنه بمشيئة الله وحوله وقوته.

وأما ما ذكرتم من أن مشاهدة القرب تجعل القصد قعوداً: فكلام له خبء[7]، وقد أفصح عنه بعض المغرورين المخدوعين بقوله:

---

(١) الاصطلام: سبق تعريفه ص٢٠٧٤ .

(٢) الأصل (يضره) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ، ط.

(٣) ط (والطلب والفعل).

(٤) الأصل (هذا) والأقرب ما أثبته من ش، ق، ح٢، ط وقد سقطت من أ، ب، غ، د، م.

(٥) الأصل (بشهود)، ق (بشهوده) والأقرب ما أثبته من ب، ط.

(٦) (الهاء) سقطت من ط.

(٧) خبء.. الخبء: الخَبْأة، ما عُمِّيَ عن شيء ثم سئل عنه.. وخبأه: ستره، واختبأ: استتر، المعجم الوسيط (١/ ٢١٣).

ما بال عينــك لا يقرُّ قرارهـا؟ وإلام ظلــك لا يني متنقــلا؟
فلسوف تعلم أن سيرَك لم يكن إلا إليك، إذا بلَغتَ المنــزلا[١]

وكأن صاحبه مشير[٢] إلىٰ أنه وجود قلبه ولسانه، ووجوده أقرب إليه من إرادته ولطفه[٣]، هذا خبء هذا الكلام، وتعالىٰ الله عن إلحاد هذا وأمثاله وإفكهم عُلُواً كبيراً، بل هو[٤] سبحانه فوق سمواته علىٰ عرشه بائن من خلقه.

وأما ما[٥] ذكرتم من القرب: فإن أردتم عموم قربه إلىٰ كل لسان[٦] من نطقه وإلىٰ كل قلب من قصده: فهذا - لو صح - لكان قرب قدرة وعلم إحاطة، لا قرباً بالذات والوجود، فإنه سبحانه لا يمازج خلقه، ولا يخالطهم، ولا يتحد بهم، مع أن هذا المعنىٰ لم يرد عن الله ورسوله، ولا عن[٧] أحد من السلف الأخيار تسميته قُرباً، ولم يجئ القرب في القرآن والسنة قط إلا خاصاً كما تقدم.

وإن أردتم القرب الخاص إلىٰ اللسان والقلب: فهذا قرب المحبة، وقرب

---

(١) بيت الشعر: لم أجده.

(٢) الأصل (مشير) والأقرب ما أثبته من ب، ط.

(٣) د، ش (نطقه).

(٤) من قوله: (بل هو) إلىٰ منزلة الإيثار سقط من ش.

(٥) (ما) سقطت من ط.

(٦) (لسان) سقطت من د.

(٧) (عن) سقطت من د، م، أ، وفي غ (من).

الرضىٰ والأنس، كقرب العبد من ربه وهو ساجد، وهو نوع آخر من القرب، لا مثال له ولا نظير، فإن الروح والقلب يقربان[١] من الله وهو علىٰ عرشه، والروح والقلب في البدن، وقد تقدمت الإشارة إلىٰ ذلك.

وهذا القرب لا ينافي القصد والطلب؛ بل هو مشروط بالقصد، فيستحيل وجوده بدونه، وكلما كان الطلب والقصد أتم: كان هذا القرب أقوىٰ.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

قيل: هذه الآية فيها قولان للناس:

أحدهما: أنه قربه بعلمه، ولهذا قرنه بعلمه [بوسوسة نفس الإنسان][٢]، «وحبل الوريد» هو[٣] حبل العنق،[٤] عرق بين الحلقوم والودجين[٥] متىٰ قُطع مات صاحبه وأجزاء القلب وهذا الحبل يحجب بعضها بعضاً، وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء[٦].

---

(١) الأصل (يقرب) والأقرب ما أثبته من ط.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من الأصل، ش والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط.

(٣) (هو) سقطت من ط.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (وهو).

(٥) ط (الذي).

(٦) انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٩، ٢٢/ ١٠٦، ٢٦/ ١٥٧، زاد المسير ٨/ ٩، روح المعاني ٢٥/ ١٧٨.

والقول الثاني: أنه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلىٰ قلبه، فيكون[1] أقرب إليه من ذلك العرق، اختاره شيخنا[2].

وسمعته يقول: هذا مثل قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨]، فإن جبريل ـ عليه السلام ـ هو الذي قرأه عليه، كما في صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسيره هذه الآية «فإذا قرأه رسولنا فأنصِت لقراءته حتىٰ يقضيها»[3].

قلت له فأول[4] الآية يأبىٰ[5] ذلك، [6]قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ قال: وكذلك[7] خلقه للإنسان إنما هو بالأسباب، وتخليق الملائكة.

---

(١) د (فيكونون).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٣) واختاره شيخ الإسلام كما في شرح حديث النزول ضمن الفتاوىٰ (٥/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦، ٤٩٤)، وأشار إلىٰ بعض الأقوال في ذلك، كالقدرة والرؤية ثم ضعفها، مبيناً أن لفظ القرب ليس مثل لفظ المعية.

(٣) البخاري. بدء الوحي (١/ ١٥) ح(٥)، البخاري. التفسير (٣/ ٥١٨) ح(٢٩٢٨ ـ ٤٩٢٩) بلفظ آخر قريب منه (٣/ ٣٥٠) ح(٥٠٤٤) (٤/ ٤١١) ح(٧٥٢٤)، وانظر الروايات في هذه الآية عن ابن عباس في تفسير ابن عباس ومروياته من كتب التفسير (٢/ ٩٤٧) د/ عبد العزيز الحميدي، مسلم. الصلاة (١/ ٣٣٠) ح(٤٨٨)، وانظر فتح الباري، ط/ دار الريان للتراث (٨/ ٥٥١).

(٤) ط (أوله).

(٥) ق (يأتي).

(٦) ط زيادة (فإنه).

(٧) ق (ولذلك).

قلت: وفي صحيح مسلم من[1] حديث حُذيفة بن أُسيد رضي الله عنه في تخليق النطفة: «**فيقول الملك الذي يخلقه: يا ربِّ أذكر أم أُنثىٰ؟ أسويٌّ أم غير سوي؟ فيقضي ربُّك ما يشاء ويكتب الملك**»[2]، فهو سبحانه الخالق وحده، ولا ينافي ذلك استعمال الملائكة بإذنه ومشيئته وقدرته في التخليق، فإن أفعالهم وتخليقهم خلق له سبحانه، فما ثمَّ خالق علىٰ الحقيقة غيره.

والمقصود: أنّ هذا موضع ضلت فيه أفهام، وزلت فيه أقدام، واشتبه[3] فيه معية العلم والقدرة والإحاطة بالقرب، واشتبه[4] فيه آثار قرب المحبة والرضىٰ والموافقة[5]، وغلبة ذكره ومراقبته بقرب ذاته، واشتبه فيه ما في الذهن بما في الخارج، واشتبه اضمحلال شهود الرسم وانمحاؤه من القلب بعدمه وفنائه، واشتبه[6] فيه آثار الصفات بحقيقتها، وأنوار المعرفة بأنوار الذات. وأصحابه - لتحكيمهم الحال والذوق - لا يلتفتون إلىٰ لسان العلم، ولا يصغون إليه، وفي هذا كفاية، والله المستعان[7].

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د (في).

(٢) مسلم. القدر (٤/ ٢٠٣٧) ح(٢٦٤٥)، البخاري. القدر (٤/ ٢٠٨) ح(٦٥٩٥)، أحمد (١/ ٤٧٤).

(٣) ط، حاشية م (واشتبهت).

(٤) ط (واشتبهت).

(٥) م، ب (والمراقبة).

(٦) ط (واشتبهت).

(٧) م، د (وعليه التكلان).. وعند هذا انتهت مخطوطة د.

فصـــل

منزلة الإيثار

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الإيثار»(١).

قال الله تعالىٰ [في مدح أهله](٢): ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

فالإيثار ضدّ الشُّح، فإن المؤثر علىٰ نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح حريص علىٰ ما ليس بيده، فإذا حصل بيده(٣) شحَّ عليه، وبخل بإخراجه، فالبخل(٤) ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: **«إياكم والشحَّ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمَرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»**(٥).

---

(١) الإيثار: هو تخصيص الغير علىٰ النفس، وهو مراتب، ومنه أن لا يريد العبد من الحق إلا ما أراده الحق له، وأعلىٰ منه إيثار: الإيثار لله، فلا ملك لك تؤثر به إنما هو لله، ومنه الإيثار بهبة ثواب القرب، ويحملهم الإيثار علىٰ فرط الشفقة والرحمة، ومنه إيثار الملامتية: وهو الإيثار بمقامك من الشرف والسؤدد.. انظر لطائف الإعلام ١/ ٢٥٧ ـ ٢٦١، معجم مصطلحات الصوفية ٢٨.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ، ش، ط.

(٣) م، أ، غ، ب، ق، ط زيادة (شيء).

(٤) ب (والبخل).

(٥) مسلم. البر والصلة (٤/ ١٩٩٦) ح(٥٧٨)، أحمد (٢/ ١٦٠، ١٩١، ١٩٥)، أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٣٤) ح(١٦٩٨)، الحاكم في المستدرك (١/ ١١/ ، ٤١٥)، وصححه وأقره الذهبي.

فالبخيل: من أجاب داعي الشح، والمؤثر: من أجاب داعي الجود.

و[1]كذلك السخاء[2] عما في أيدي الناس هو السخاء[3]، وهو أفضل من سخاء[4] البذل.

قال عبدالله بن المبارك - رضي الله عنه -: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النَّفس بالبذل[5].

وهذا المنزل: هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

وسمِّي بمنزل[6] «الإيثار» لأنه أعلىٰ مراتبه، فإن المراتب ثلاث:

علامة الإيثار بالسخاء

أحدها[7]: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه، فهو منزلة «السخاء».

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويُبقي له شيئاً، أو يبقي مثل ما أعطىٰ، فهو «الجود».

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، فهي[8] مرتبة «الإيثار» وعكسها

(١) (الواو) سقطت من ط.

(٢) السخاء: الجود، مختار الصحاح ٢٩١.

(٣) ق (السخي).

(٤) ق (سخىٰ).

(٥) الرسالة القشيرية (٣٦٧)، مجموعة آثار السلمي (٢/ ٥٠٢)، الإخوان لابن أبي الدنيا، دار الكتب العلمية (٢٠١).

(٦) م، غ (بمنزلة).

(٧) ط (إحداها).

(٨) أ، ب، غ، ط (وهو)، ح٢، م (وهي)، ق (فهو).

«الأثرة[١]» [٢]، وهو[٣] استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه، وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار[٤]: «إنَّكم ستلقون بعدي أَثرة، فاصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض» [٥]، والأنصار هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]، فوصفهم بأعلىٰ مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفاً[٦].

وكان قيس بن سعد بن عُبادة[٧] ـ رضي الله عنهما ـ من الأجواد المعروفين، حتىٰ أنه مرض مرة فاستبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم[٨] يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزىٰ الله مالاً يمنع الإخوان من

(١) ق (الأثر).

(٢) الأثرة: استأثر به، خصّ به نفسه، المعجم الوسيط (١/ ٥).

(٣) م (وهي).

(٤) ط زيادة (رضي الله عنهم).

(٥) البخاري. المناقب (٣/ ٤١) ح(٣٧٩٣)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧٣٣) ح(١٠٥٩)، أحمد (٣/ ١٦٦)، الترمذي. الفتن (٤/ ٤٨٢) ح(٢١٨٩).

(٦) قصة إيثار الأنصار، وسبب نزول الآية في البخاري. التفسير ٣/ ٣٠٦ ح(٤٨٨٩)، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٠.

(٧) قيس بن سعد بن عبادة بن دليم، الأمير المجاهد، سيد الخزرج، الأنصاري، الساعدي، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، توفي في آخر خلافة معاوية/ طبقات ابن سعد (٦/ ٥٢)، التاريخ الكبير (٧/ ١٤١)، أسد الغابة (٤/ ٢١٥)، الإصابة (٣/ ٢٤٩)، سير أعلام النبلاء (٣/ ١٠٢).

(٨) أ، ب، غ، ق زيادة (كانوا).

الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حلّ، فما أمسىٰ حتىٰ كُسرت عتبة بابه[١] لكثرة من عاده[٢].

وقالوا له يوماً: هل رأيت أسخىٰ منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية علىٰ امرأة، فحضر زوجُها، فقالت إنّه نزل بك ضيفان، فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم؟ فلما كان من الغد جاء بأخرىٰ فنحرها، فقلنا: ما أكلنا من التي نُحرت البارحة إلا اليسير، فقال: إني لا أطعم ضيفي[٣] البائت، فبقينا عنده يومين أو ثلاثة، والسماء تمطر، وهو يفعل ذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه ومضينا، فلما طلع[٤] النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتموني ثمن قراي؟ ثم إنه لحقنا، وقال: لتَأخُذُنَّه أو لأطاعننكم برمحي، فأخذناه وانصرف[٥].

فتأمل سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخبير - سبحانه - استئثار الناس علىٰ الأنصار بالدنيا - وهم أهل الإيثار - ليجازيهم علىٰ إيثارهم[٦] في الدنيا علىٰ نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن علىٰ الناس، فيظهر[٧] حينئذ

---

(١) ب زيادة (من).

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٠٧، وعزاه لابن عساكر ١٤/ ٢٢٩/ ب.

(٣) جميع النسخ (ضيفاي) وما أثبته هو الصحيح لغة.

(٤) الأصل (متع)، ح٢، غ (منع) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٥) الرسالة القشيرية ٣٦٢، ومواقفه التي وردت في سير أعلام النبلاء تشهد لكرمه ٣/ ١٠٧.

(٦) ط زيادة (إخوانهم).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (فتظهر).

فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك - مع كونك من أهل الإيثار - فاعلم أنه الخير يراد بك [1].

فصل

مراتب الجود

و«الجود» عشر[2] مراتب:

إحداها: الجود بالنفس، وهو أعلىٰ مراتبه، كما قال الشاعر:

يجودُ بالنفس إذ[3] ضنَّ البخيلُ بها والجودُ بالنفس أَقْصىٰ غاية الجُودِ[4]

الثانية: الجود بالرياسة، وهو ثاني مراتب الجود، فيحمل الجواد جوده علىٰ امتهان رياسته، والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإجمام نفسه، فيجود بها تعباً وكَدّاً في مصلحة غيره، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته[5] لمسامِرِه، كما قيل:

---

(١) ق (والله أعلم)، ط (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

(٢) ح٢، م، ق (عشرة).

(٣) أ، ب، غ (إذا).

(٤) بيت الشعر: قائله مسلم بن الوليد في ديوانه صريع الغواني، انظر شرح الديوان لأبي العباس الطبيخي ١٦٤، وانظر معجم لآلئ الشعر ١٤٢، ومعجم الحكم والأمثال لأحمد قبش ٧٦، وعزاه الطبري في التاريخ لعلي بن الجهم ٥/ ٢٠٥.

(٥) ط (ولذاته).

مُتيَّمٌ بالنّدىٰ، لو قـال سَائلُه   هَبْ لي جميعَ كَرَىٰ عينيك، لم ينَمِ[١]

الرابعة: الجود بالعلم وبذله، وهو من أعلىٰ مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به علىٰ مراتب متفاوتة، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: أن لا ينفع به بخيلاً أبداً.

ومن الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه؛ بل تطرحه عليه طرحاناً[٢].

ومن الجود به[٣]: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها[٤] شافياً، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفُتيا «نعم» أو «لا» مقتصراً عليها.

شيخ الإسلام ابن تيمية أنموذج للجود بالفتوى

وقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية[٥] في ذلك أمراً عجيباً: كان إذا سئل عن مسألة حُكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قَدِرَ عليه[٦] ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح، وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون[٧] أنفع

---

(١) بيت الشعر: لم أجده.

(٢) ط (طرحاً).

(٣) أ، ب، غ، ح٢، ق، ط (بالعلم) بدل (به).

(٤) ط (جواباً).

(٥) ط زيادة (قدس الله روحه).

(٦) (عليه) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(٧) الأصل (يكون) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

للسائل[١] من مسألته، فيكون فرحه بتلك المتعلقات[٢]، واللوازم أعظم من فرحه بمسألته.

وهذه فتاواه[٣]، [٤]بين الناس: فمن أحب الوقوف عليها رأىٰ ذلك[٥].

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر علىٰ مسألة السائل، بل يذكر له نظيرها[٦] ومتعلقاتها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ النبي ﷺ عن التوضؤ[٧] بماء البحر؟ فقال: «هو الطَّهور ماؤه، الحلُّ ميتته»[٨]، فأجابهم عن سؤالهم، وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

---

(١) غ (المسائل).

(٢) الأصل (التعلقات) والأقرب ما أثبته من أ، ب، ع، م، ش.

(٣) غ، ب، ط (فتاويه)، ق (فتواه).

(٤) ط (رحمه الله).

(٥) مما يعد نموذجاً لذلك رسالته لأهل البحرين حيث ضمنها الإجابة عن السؤال ومسائل يعلم حاجتهم إليها من الوصية بنبذ الفرقة والاختلاف، انظر الفتاوىٰ ٦/ ٤٨٥، ٥٠٩، ٢٤/ ١٦٣، ١٧٦.

(٦) ط (نظائرها).

(٧) ط (المتوضيء)، وبقية النسخ (التوضيء) وما أثبته هو الصحيح لغة.

(٨) أحمد (٢/ ٢٢٧)، أبو داود. الطهارة (١/ ٦٤) ح(٨٣)، الترمذي (١/ ١٠٠) ح(٦٩) وقال حسن صحيح، الحاكم في المستدرك (١/ ١٤١)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١/ ٤٢) رقم (٩).

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم علىٰ علته وحكمته، كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: «أينقص الرطب إذا جفَّ؟» فقالوا[١]: نعم. قال: «فلا إذن»[٢]، ولم يكن يخفىٰ عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم علىٰ[٣] علة الحكم، وهذا كثير جداً في أجوبته ﷺ مثل قوله: «إن بعت من أخيك ثمراً[٤]، فأصابها جائحة فلا يحلُّ لك أن تأخذ من مال أخيك شيئاً، بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق؟»[٥]، [٦]وفي لفظ: «أرأيت إن منع الله الثمرة: بم يأخذ أحدكم من مال أخيه، بغير حق؟» فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه

---

(١) أ، ب، غ، ط (قالوا).

(٢) أبو داود. البيوع (٣/ ٦٥٤) ح(٣٣٥٩)، الترمذي. البيوع (٣/ ٥١٩) ح(٢٢٥) وقال حسن صحيح، ابن ماجه في التجارات (٢/ ٧٦١) ح(٢٢٦٤)، وابن حبان في صحيحه (٤/ ٥٠)، والهيثمي في مجمع الزوائد وقال إسناده حسن (١/ ٢١٥)، وصححه الألباني في إرواء الغليل رقم (١٣٥٢).

(٣) ش (عن).

(٤) ط (ثمرة) والمثبت من الأصل، م، وصحيح مسلم.

(٥) مسلم. المساقاة (٣/ ١١٩٠) ح(١٥٥٤)، نحوه في أبو داود. البيوع (٣/ ٧٤٦) ح(٣٤٧٠)، ابن ماجه. التجارات (٢/ ٧٤٧) ح(٢٢١٩)، النسائي في المجتبىٰ (٧/ ٢٦٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢)، وقال صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأورده ابن حجر في فتح الباري (٤/ ٣٩٩).

(٦) أ، ق (فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن وهي منع وفي لفظ: «أرأيت إن منع الله الثمر بما يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق؟» فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن، وهي منع الله الثمرة).

بالثمن، وهي منع الله الثمرة التي[١] ليس للمشتري فيها[٢] صنع.

وكان خصومه[٣] يعيبونه بذلك، ويقولون يسأله السائل عن طريق مصر مثلاً فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان، والعراق، والهند، وأي حاجة بالسائل إلىٰ ذلك؟.

ولعمر الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب: الجهل والكِبر، وهذا موضع المثل المشهور: لقبوه بحامض، وهو حلو[٤]، مثل من لم يصل إلىٰ[٥] العُنقود[٦].

[٧]الخامسة: الجود بالنفع بالجاه، كالشفاعة والمشي مع الرجل إلىٰ ذي سلطان ونحوه، وذلك زكاة الجاه المطالب به العبد، كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن علىٰ اختلاف أنواعه، كما قال النبي ﷺ: «**يُصبح علىٰ كل سُلامىٰ من أحدكم صدقة، كلّ يوم تطلع فيه الشمس، يَعدل بين اثنين[٨]: صدقة، وتُعين الرجل في دابته فتحمله[٩] عليها أو يرفع له عليها متاعه: صدقة، والكلمة الطيبة: صدقة، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلىٰ الصلاة:**

---

(١) س، غ، ب (الذي).

(٢) الأصل، ح٢ (فيه) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ، ط.

(٣) ط (يعني شيخ الإسلام ابن تيمية).

(٤) أ، ب، غ، ط (خل).

(٥) (إلىٰ) سقطت من م.

(٦) المثل: لم أجده.

(٧) ق زيادة (وقول الآخر: سل الناس عنا إن جهلت وعنهم وليس يستوي عالم وجهول).

(٨) الأصل (الاثنين) وما أثبته من أ، ب، غ، ط، وصحيح مسلم.

(٩) الأصل (ليحمله) والمثبت في صحيح مسلم (١/ ٦٩٩) وأ، ب، غ، ط.

صدقة، ويميط الأذىٰ عن الطريق: صدقة» متفق عليه[1].

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضمضم من الصحابة - رضي الله عنهم -، كان إذا أصبح قال: «اللهم إنه[2] لا مال لي، فأتصدق[3] به علىٰ الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شتمني، أو قذفني: فهو في حل، فقال النبي ﷺ: « من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم؟»[4].

وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

---

(١) مسلم. الزكاة (٢/ ٦٩٩) ح(١٠٠٩)، في المسافرين (١/ ٤٩٩) ح(٧٢٠)، وقد ورد بألفاظ أخرىٰ بعضها في البخاري. الصلح (٢/ ٢٧٠) ح(٢٧٠٧)، أطرافه (٢٨٩١ ـ ٢٩٨٩)، أبو داود. الصلاة (٢/ ٦٠) ح(١٢٨٥)، أحمد (٥/ ١٦٧).

(٢) أ، ب، غ (أن لا مال).

(٣) ط (أتصدق).

(٤) الحديث أخرجه أبو داود في الأدب (٥/ ١٩٨ ـ ١٩٩) ح(٤٨٨٦)، لكنه مقطوع ورقم (٤٨٨٧)، مرسل وهو الذي رجحه أبو داود، وكذلك الذهبي رجح المرسل كما في الميزان (٣/ ٥٩٧)، وروي بسند آخر عند ابن السني في عمل اليوم والليلة رقم(٦٥)، وفي سنده شعيب بن بيان، قال الحافظ صدوق يخطئ، تهذيب الكمال (١٢/ ٧٠٥)، وذكر ابن حجر طرقاً أخرىٰ في نتائج الأفكار (٢/ ٣٩٢)، وكلها معلولة، ورواه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ١٣٧)، والبغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ٢٦)، من طريق أنس وفي سنده محمد بن عبدالله العمي قال عنه في تهذيب التهذيب (٩/ ٢٤٧): «ليِّن الحديث» وعلىٰ هذا فإن الطريقين الموصولين شاذان، والمحفوظ عن قتادة مقطوع وعن ثابت مرسل، والله أعلم.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء [1]، وهذه [2] مرتبة شريفة من مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعزُّ له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود، فإنه يجتني ثمرة عواقبه [3] الحميدة في الدنيا قبل الآخرة، وهذا جود الفُتوة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة: ٤٥] وفي هذا الجود قال تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، فذكر المقامات الثالثة في هذه الآية مقام العدل، وأَذن فيه، ومقام الفضل ونَدب إليه، ومقام الظلم، وحرّمه.

التاسعة: الجود بالخُلق والبِشر [4] والبسطة، وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو، وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يُوضع في الميزان، قال النبي ﷺ: «**لا تحقرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقىٰ أخاك ووجهك منبسط إليه**» [5]، وفي هذا الجود من المنافع والمسار، وأنواع

---

(١) قال عثمان بن زائدة: العافية عشرة أجزاء تسعة منها في التغافل، قال ـ الراوي ـ: فحدث به أحمد بن حنبل فقال: العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل، شعب الإيمان ٦/ ٣٣٠، تهذيب الكمال ١٩/ ٣٧٠.

(٢) ب (وهي).

(٣) (عواقبه) سقطت من ح٢.

(٤) أ، ب، غ (البشرة).

(٥) مسلم. البر والصلة (٤/ ٢٠٢٦) ح(٢٦٢٦)، أحمد (٣/ ٥٨٣)، الترمذي. الأطعمة (٤/ ٢٧٤) ح(١٨٣٣).

المصالح ما فيه، والعبد لا يمكنه أن يسع الناس بماله، و[1]يمكنه أن يسعهم بخُلقه واحتماله.

العاشرة[2]: الجود بتركه[3] ما في أيدي الناس عليهم، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه، وهذا هو[4] الذي قال عبدالله ابن المبارك: «إنّه من جود[5] البذل»[6].

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: و[7]إن لم أعطك ما[8] تجود به علىٰ الناس، فجُد عليهم بزهدك في[9] أموالهم، [وما في أيديهم، تَفضُلُ عليهم][10]، وتزاحمهم في الجود[11]، وتنفرد عنهم بالراحة.

---

(١) ط (لا يمكنه).

(٢) ق (العاشر).

(٣) الأصل (بترفيه) والأقرب ما أثبته من ب، أ، ط.

(٤) (هو) سقطت من ح٢، ب.

(٥) ط (سخاء النفس بالبذل).

(٦) الرسالة القشيرية (٣٦٧)، نحوه في مجموعة آثار السلمي (٢/ ٥٠٢)، وقد ورد في البداية والنهاية مواقف تدل علىٰ ذلك (١٠/ ١٧٨).

(٧) (الواو) سقطت من ش.

(٨) م، ش (ما لا).

(٩) الأصل (فجُد عليهم بأموالهم) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ح٢، ق، ط.

(١٠) ما بين المعقوفين سقط من الأصل والأقرب إثباته كما في أ، ب، غ، م، ح٢، ق، ط.

(١١) ب (بالجود).

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال، والله سبحانه ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك[1] والله المستعان.

فصـــل

قال صاحب «المنازل» - رحمه الله -:

الفرق بين الإيثار والأثرة

«الإِيثَارُ: تخَصِيصٌ وَاختِيَارٌ، وَالأَثَرَةُ: تحْسُن طَوْعاً، وَتَصحُّ كَرهاً»[2].

فرّق الشيخ بين «الإيثار» و «الأثرة» وجعل «الإيثار» اختياراً و «الأثرة» منقسمة إلىٰ اختيارية اضطرارية، وبالفرق بينهما يعلم معنىٰ كلامه، فإن «الإيثار» هو البذل، وتخصيص من[3] تؤثره علىٰ نفسك، وهذا لا يكون إلا اختياراً.

وأما «الأثرة[4]» فهي[5] استئثار صاحب الشيء به عليك، وحوْزه[6] لنفسه دونك، فهذه لا يحمد عليها المستأثر عليه، إلا إذا كانت طوعاً، مثل أن يقدر علىٰ منازعته ومجاذبته، فلا يفعل، ويدعه وأثرته طوعاً فهذا حسن، وإن لم يقدر علىٰ ذلك كانت أثرة كرهٍ[7].

---

(١) الأصل (علىٰ الممسك)، أ، ب، غ، ح٢، م (للمسك) والأقرب ما أثبته من ط.

(٢) منازل السائرين (٤٤).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب (تخصيصك لمن)، ط (من).

(٤) ب، غ (والأثر).

(٥) ب، غ (هي).

(٦) ق (وجوده).

(٧) ح٢، م (كرهاً).

ويعني بالصحة: الوجود، أي توجد كرهاً، ولكن إنما تحسن إذا كانت طوعاً من المستأثر عليه.

فحقيقة «الإيثار» بذل صاحبه وإعطاؤه، و «الأثرة» استبداده[1] هو بالمؤثر به، فيتركه وما استبد[2] به: إما طوعاً أو كرهاً، فكأنك آثرته باستئثاره حيث خلّيت بينه وبينه، ولم تنازعه.

قال عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ: **«بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة، في عُسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأَثرةٍ علينا، وأن[3] لا ننازع الأمر أهله»**[4]، فالسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره: لهم معه ومع الأئمة بعده، والأثرة، و[5] عدم منازعة الأمر مع الأئمة بعده خاصة، فإنه ﷺ لم يستأثر عليهم.

* * *

---

(١) غ، ب، ط (استبداله).

(٢) غ، ب، ط (استبدل).

(٣) (أن) سقطت من غ، ب.

(٤) البخاري. الفتن (٤/ ٣١٣) ح(٧٠٥٦)، مسلم (٢/ ١٣٣٣) ح(١٧٠٩)، أحمد (٣/ ٤٤١).

(٥) (الواو) سقطت من ط.

فصـــل

درجات الإيثار

قال: «وَهُوَ عَلىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: أَنْ تُؤْثِرَ الخَلْقَ عَلىٰ نَفسِكَ فِيمَا يَخْرِمُ[١] عَلَيكَ دِيناً، وَلاَ يَقطَعُ عَلَيكَ طَرِيقاً، وَلاَ يُفسِدُ عَلَيكَ وَقتاً»[٢].

الدرجة الأولى

يعني: أنْ تقدمهم علىٰ نفسك في مصالحهم، مثل أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتعرىٰ، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك إلىٰ ارتكاب إتلافٍ[٣] لا يجوز في الدين، ومثل[٤] أن تؤثرهم بمالك وتقعد كَلاًّ مضطراً، مستشرفاً للناس أو سائلاً، وكذلك إيثارهم بكل ما يحرم[٥] علىٰ المؤثر دينه، فإنه سفه وعجز، يُذمُّ المؤثِر به عند الله، وعند الناس.

وأما قوله: «وَلا يَقْطَعُ عَلَيكَ طَرِيقاً» أي لا يقطع[٦] عليك طريق الطلب والمسير[٧] إلىٰ الله تعالىٰ، مثل أن تؤثر جليسك علىٰ ذكرك، وتوجهك[٨] وجمعيتك علىٰ الله، فتكون قد آثرته علىٰ الله، وآثرت بنصيبك من الله من[٩] لا

(١) المنازل (يحرم) ص٤٤.

(٢) منازل السائرين ٤٤، وقال ابن القيم في طريق الهجرتين: «.. فإن الإيثار المحمود الذي أثنىٰ الله علىٰ فاعله في الدنيا لا بالوقت والدين وما يعود لصلاح القلب» ١/ ٤٤٦.

(٣) الأصل وغيره (تلاف) والأقرب ما أثبته من ط.

(٤) هذه الأمثلة ملحقة بما لا يجوز في الدين الإيثار به.

(٥) ح٢، ش، ب، غ، م (يخرم)، ط (يحرمه).

(٦) (لا يقطع عليك) سقطت من ق.

(٧) ح٢ (والسير).

(٨) م، غ، ح٢، ب، ط (توجهك).

(٩) ب، غ، ط (ما لا).

يستحق الإيثار، فيكون مَثَلك كمثل[1] مسافر سائر علىٰ الطريق لقيه رجل فاستوقفه، وأخذ يحدثه ويلهيه حتىٰ فاته الرفاق، وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر إلىٰ الله تعالىٰ، فإيثارهم عليه عين الغبن، وما أكثر المؤثرين علىٰ الله تعالىٰ غيره، وما أقل المؤثرين الله علىٰ غيره.

وكذلك الإيثار بما يُفسد علىٰ المؤثر وقته قبيح أيضاً، مثل أن يؤثر بقُوْتِه[2] ويتفرق[3] قلبه في طلب خلفه[4]، أو يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمه علىٰ الله فيتفرق[5] قلبه عليه بعد جمعيته ويتشتت[6] خاطره، فهذا أيضاً إيثار[7] غير محمود. وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم التي لا تتعين عليك، [8]علىٰ الفكر في العلم[9] النافع، واشتغال القلب بالله، ونظائر ذلك لا تخفىٰ، بل ذلك حال الخلق والغالب عليهم. وكل سبب يعود عليك[10]

---

(١) م (مثل).

(٢) ط (بوقته).

(٣) ط (يفرق).

(٤) غ، م، ح٢، ق (خلقه).

(٥) ط (فيفرق).

(٦) ط (يشتت).

(٧) الأصل (غير إيثار محمود) والصحيح ما أثبته من م، غ، ح٢، ب، ش، ط.

(٨) ح٢، م، ب، غ (وعلىٰ).

(٩) (في العلم) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(١٠) (عليك) سقطت من ش.

بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله، فلا تؤثر به أحداً[١] أبداً[٢] فإن[٣] آثرت به فإنما تؤثر الشيطان علىٰ الله، وأنت لا تعلم.

وتأمل أحوال أكثر الخلق في إيثارهم علىٰ الله من يضرهم إيثارهم له ولا ينفعهم وأي جهالة وسفه فوق هذا؟.

ومن هذا[٤] تكلم الفقهاء في الإيثار بالقُرَب[٥]، وقالوا: إنه مكروه أو محرم[٦]، كمن يؤثر بالصف الأول غيره[٧] ويتأخر هو، أو[٨] يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإمامة[٩]، أو يؤثره بعلم يحرمه نفسه، ويرفعه[١٠] عليه، فيفوز به دونه.

---

(١) (أحداً) سقطت من ط.

(٢) (أبداً) سقطت من غ، ب، ط.

(٣) الأصل (فإنما) والصحيح ما أثبته من ح٢، غ، ب، ق، ط.

(٤) م (هنا).

(٥) مسألة الإيثار بالقرب: تحدث عنها أهل العلم منهم المصنف في زاد المعاد ٣/ ٥٠٥، وفي الروح ١٢٩، وابن عابدين في الحاشية ١/ ٣٨٢، والعز بن عبد السلام في قواعد الأحكام ١/ ٤٤، والسيوطي في الأشباه والنظائر ١٢٩، وأكثرهم علىٰ المنع، وانظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب حول الإيثار في القراءة والمسارعة إلىٰ العلم، والمجموع للنووي ٤/ ٥٤٥-٥٤٧، حيث ذكروا كراهة الإيثار بالقرب. مسألة الإيثار بالقرب

(٦) ط (حرام).

(٧) م، غ، ح٢، ب (لغيره).

(٨) (الألف) سقطت من ب.

(٩) م، غ، ح٢، ب، ط (الإقامة).

(١٠) الأصل (يرفهه) والأقرب ما أثبته من ب، ط.

وتكلموا في إيثار عائشة - رضي الله عنها - لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عنها[١] بمدفنه[٢] عند رسول الله ﷺ في حجرتها[٣].

وأجابوا عنه بأن الميت ينقطع عمله بموته وبقربه، فلا يُتصور بحقه الإيثار بالقرب بعد الموت، إذ لا تقرُّب في حق الميت، وإنما هذا إيثار بمسكن شريف فاضل لمن هو أولىٰ به منه[٤]، فالإيثار به قربة إلىٰ الله عزّ وجلّ للمُؤثر، والله تعالىٰ[٥] أعلم.

فصل

قال: «وَلَا يُستَطَاعُ[٦] إِلاَّ بِثَلاَثَةِ أَشيَاء: بِتَعظِيمِ الحُقُوقِ، وَمَقتِ الشُّحِّ، وَالرَّغبَةِ فِي مَكَارِمِ الأَخلَاقِ»[٧].

ذكر ما يعين علىٰ «الإيثار» فيبعث عليه، وهو ثلاثة أشياء.

تعظيم[٨] الحقوق، فإن من عظمت الحقوق عنده قام بواجبها، ورعاها حق

(١) ط (عنه).

(٢) ط (بدفنه).

(٣) في البخاري. الجنائز (١/ ٤٢٨) ح(١٣٩٢).

(٤) ط (منها).

(٥) (تعالىٰ) سقطت من ط.

(٦) منازل السائرين (ويُستطاع هذا بثلاثة) ٤٥.

(٧) منازل السائرين ٤٥.

(٨) م (بتعظيم).

رعايتها، واستعظم إضاعتها، وعلم أنه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدها كما ينبغي، فيجعل إيثاره احتياطاً لأدائها.

الثاني: مقت الشح، فإنه إذا مقته وأبغضه التزم بالإيثار، فإنه يرىٰ أنه لا خلاص له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار.

الثالث: الرغبة في مكارم الأخلاق، وبحسب رغبته فيها: يكون إيثاره، لأن الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق.

فصل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: إِيثَارُ رِضَىٰ الله عَلَىٰ رِضَىٰ غَيرِهِ، وَإِن عَظُمَتْ فِيهِ المِحَنُ، وَثَقُلَتْ فِيهِ[1] المُؤَنُ، وَضَعُفَ[2] عَنهُ الطَّوْلُ والبَدَنُ»[3].

إيثار رضىٰ الله عزّ وجلّ علىٰ غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق وهذه[4] هي درجة الأنبياء، [وأعلاها الرسل][5]،[6] وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبينا محمد[7] ﷺ[8]، فإنه قاوم العالم كله، وتجرد

---

(١) المنازل (به) ٤٥.

(٢) المنازل (وضعفت) ٤٥.

(٣) منازل السائرين ٤٥.

(٤) ب (هذه)، ط (وهي).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٦) ط زيادة (عليهم الصلاة والسلام).

(٧) (محمد) سقطت من ط.

(٨) ح٢، غ، ب، م، ق، ط (عليه وعليهم).

للدعوة إلىٰ الله، واحتمل عداوة البعيد[١] والقريب في الله تعالىٰ، وآثر رضىٰ الله علىٰ[٢] الخلق من كل وجه، ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم، بل كان همُّه وعزمه وسعيه كله مقصوراً علىٰ إيثار مرضاة الله، وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلماته، وجهاد أعدائه، حتىٰ ظهر دين الله علىٰ كل دين، وقامت حجته علىٰ العالمين، وتمت نعمته علىٰ المؤمنين، فبلَّغ الرسالة، وأدّىٰ الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد[٣]، وعبد الله حتىٰ أتاه اليقين من ربه، فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما ناله[٤] صَلوات الله وسلامه عليه.

وأما قوله: «وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ المِحَنُ، وَثَقُلَتْ فِيهِ المُؤَنُ».

فإن المحنة تعظم فيه أولاً، ليتأخر من ليس من أهله، فإذا احتملها وتقدم انقلبت تلك المحنُ منحاً، وصارت تلك المؤَنُ عَوْناً، وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة، فإنه ما آثر عبد مرضاة الله عزّ وجلّ علىٰ مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته، وصبر علىٰ محنته[٥]: إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة، ومعونة بقدر ما تحمله[٦] من مرضاته، فانقلبت[٧] مخاوفه

---

(١) (البعيد) سقطت من غ، ب وفي ق (القريب والبعيد).

(٢) غ، ح٢، ق، ط زيادة (رضىٰ).

(٣) ق، غ، ب، ح٢ (جهاده).

(٤) (الهاء) سقطت من ط.

(٥) م، غ، ب (محنه).

(٦) ط (تحل).

(٧) م (وانقلبت).

أمانة، ومظان عَطَبه نجاة، وتعبه راحة، ومؤنته معونة، وبليته نعمة، و محنته منحة، وسخطه رضىٰ، فيا خيبة المتخلفين، ويا ذِلَّة المتهَيِّبين.

هذا وقد جرت[١] سنة الله - التي لا تبديل لها - أن من آثر مرضاة الخلق علىٰ مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه، ويخذله من جهته، ويجعل محنته علىٰ يديه، فيعود حامده ذاماً، ومن آثر مرضاته ساخطاً، فلا علىٰ مقصوده منهم حصل، ولا إلىٰ ثواب مرضاة ربه وصل، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضىٰ الخلق: لا مقدور، ولا مأمور[٢]، فهو مستحيل؛ بل لا بد من سخطهم عليك، فلأنْ يسخطوا عليك وتفوز برضىٰ الله عنك أحب[٣] إليك وأنفع لك من أن يسخطوا[٤] عليك والله عنك غير راضٍ[٥]، فإذا كان سخطهم لا بدّ منه - علىٰ التقديرين - فآثِرْ سخطَهم الذي تنال[٦] به رضىٰ الله، فإن هم

---

(١) ب (عرفت).

(٢) م، غ، ب، ط (مأثور) بدل (مأمور).

(٣) ب (وأحب).

(٤) ط (يسخوا).

(٥) في هذه المسألة قول رسول الله ﷺ: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس..» الحديث، الترمذي. الزهد (٤/ ٦١٠) ح(٢٤١٤)، صحيح ابن حبان (١/ ٥١٠)، ورجح الألباني المرفوع كما في الصحيحة (٥/ ٢٩٢)، ورجح ابن أبي حاتم الموقوف كما في العلل (٢/ ١٠٣، ١١١)، وله شاهد من حديث ابن عباس في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٨٦)، وقال رجاله رجال الصحيح غير يحيىٰ بن سليمان الحفري وقد وثقه الذهبي.

(٦) ط (ينال).

رضوا عنك بعد هذا، وإلا فأهون شيء رضىٰ من لا ينفعك رضاه، ولا يضرك سخطه في دينك، ولا في إيمانك، ولا في آخرتك، فإن ضرك في أمر يسير في الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم، وخاصة العقل: احتمال أدنىٰ المفسدتين لدفع أعلاهما، وتفويت أدنىٰ المصلحتين لتحصيل أعلاهما، فوازن بعقلك، ثم انظر أيَّ الأمرين خير فآثره، وأيهما شر فابعُد منه[١]، فهذا برهان قطعي ضروري في إيثار رضىٰ الله علىٰ رضىٰ الخلق.

هذا مع أنه إذا آثر رضىٰ الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه.

قال بعض السلف: لمصانعةُ وجهٍ واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة، إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها[٢].

وقال الشافعي - رضي الله عنه -: رضىٰ الناس غاية لا تدرك، فعليك بما فيه صلاح[٣] نفسك فالزمه[٤].

ومعلوم: أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضىٰ ربها ومولاها علىٰ غيره، ولقد

---

(١) بقية النسخ (عنه).

(٢) حلية الأولياء بسنده إلىٰ أبي حازم ٣/ ٢٣٩، وأوله في سير أعلام النبلاء عن أبي حازم ٦/ ١٠٠.

(٣) غ (إصلاح).

(٤) صفة الصفوة ٢/ ٢٥٤، وفي حلية الأولياء ٩/ ١٢٣ عن الشافعي، وفي حلية الأولياء ٦/ ٣٨٦ عزاه لسفيان الثوري.

أحسن أبو فراس - رحمه الله[1] - في قوله[2] إلا أنه أساء كل الإساءة[3] إذ يقول لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً:

فليتك تحلو[4] والحياة مريرة　　　وليتك ترضىٰ والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر　　　وبيني وبين العالمين خراب

إذا صحّ منك الودُّ فالكل هينٌ　　　وكل الذي فوق التراب تراب[5]

ثم ذكر الشيخ - رحمه الله - ما يُستطاع به هذا الإيثار العظيم الشأن، فقال:

«وَيُستَطَاعُ هَـذَا بِثَلاثَـةِ أَشْـيَاء : بِطِيـبِ[6] العَـوْدِ، وَحُـسْنِ الإِسْـلامِ، وَقُـوَّةِ الصَّبْرِ»[7].

من المعلوم: أن المؤثر لرضىٰ الله متصدٍ لمعاداة الخلق وأذاهم، وسعيهم في إتلافه ولا بُد، هذه سنة الله في خلقه، وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل، والذين يأمرون بالقسط من الناس، والقائمين بدين الله، الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم، فمن آثر رضىٰ الله فلا بد أن يعاديه رذالة[8] العالم وسقطهم،

---

(١) (رحمه الله) سقطت من جميع النسخ سوىٰ الأصل.

(٢) ط زيادة (في هذا المعنىٰ).

(٣) ب، س، غ، ح٢، ط (في قوله) وفي ق (إلا أنه أساء في قوله كل الإساءة).

(٤) م (تخلو).

(٥) ديوان أبي فراس (٤١) وليس فيه البيت الثالث.

(٦) الأصل (بطلب) ولعل الأقرب ما أثبته من المنازل ص٤٥، غ، ب.

(٧) منازل السائرين ٤٥.

(٨) رذالة: الرذل: الدون الخسيس، ورذال كل شيء رديئه، مختار الصحاح ٢٤٠.

وغرثهم[1][2]، وجُهّالهم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، وكل من يخالف هديه هَدْيه، فما يقدم علىٰ معاداة هؤلاء إلا طالب للرجوع[3] إلىٰ الله، عامل علىٰ سماع خطاب: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]، ومن إسلامُهُ صُلب كامل لا تُزعْزِعُه[4] الرجال، ولا تُقَلْقِلُه[5] الجبال، ومن عقد عزيمة صبره مُحْكَمٌ، لا تحلُّه المحن والشدائد والمخاوف.

قلت: وملاك ذلك أمران[6]: الزهد في الحياة والثناء، فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء، وثناء الخلق[7] عليه، ونفرته من ذمِّهم له، فإذا زهد في هذين الشيئين، تأخَّرت عنه العوارض كلها، وانغمس حينئذ في العساكر[8].

---

(١) ط (غرائهم).

(٢) الغرث: أيسر الجوع وقيل شدته، لسان العرب ٢/ ١٧٢.

(٣) غ، ح٢، م، ب، ط (الرجوع).

(٤) هامش م (تزعجه).

(٥) ش (تقلقه).

(٦) الأصل (أمرين) وما أثبته هو الصحيح لغة كما في غ، م، ح٢، س، ب، ط.

(٧) م، غ، ب، ح٢، ق، ط (الناس).

(٨) العساكر: لعله يريد بذلك أن من تخلص من تلك الشوائب فقد حَشر نفسه مع حزب الله، وانظر قريباً من ذلك في طريق الهجرتين ١/ ٣٥٣، وفي لسان العرب ٤/ ٥٦٨، عسكر بالمكان: تجمَّع، والعسكر: مجتمع الجيش.

وملاك هذين الشيئين بشيئين: صحة اليقين، وقوة المحبة.

وملاك هذين الشيئين أيضاً: بصدق اللجإ والطلب، والتصدي للأسباب الموصلة إليهما.

فإلىٰ هاهنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم، والتوفيق بعدُ بيَدِ من أزمَّةُ الأمور كلها بيديه[1] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ٣٠-٣١].

فصـــل

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : إِيثَارُ[2] إِيثَارِ الله، فَإِنَّ الخَوْضَ[3] فِي الإِيثَارِ دَعْوىٰ فِي المِلْكِ، ثُمَّ تَركُ شُهُودِ رُؤيَتِكَ إِيثَارَ الله، ثُمَّ غَيبَتُكَ عَنِ التَّركِ»[4].

معنىٰ[5] إيثار إيثار الله: أن تنسب إيثارك إلىٰ الله دون نفسك، وأنه هو الذي تفرد بالإيثار، لا أنت، فكأنك سلَّمت الإيثار إليه، فإذا آثرت غيرك بشيء فإن الذي آثره هو الحق، لا أنت، فهو المؤثر حقيقة، إذ هو المعطي حقيقة.

ثم بين الشيخ - رحمه الله -[6] السبب الذي يصح به نسبة الإيثار إلىٰ الله،

---

(١) ط (بديه).

(٢) (إيثار) سقطت من ح٢.

(٣) غ (الخواص).

(٤) منازل السائرين ٤٥.

(٥) ق، غ، م، ح٢، ب، ط (يعني بإيثار إيثار الله).

(٦) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

وترك نسبته إلىٰ نفسه[1] فقال : «[2] الخَوْضُ[3] فِي الإِيثَارِ : دَعْوَىٰ فِي المِلْكِ».

فإذا ادَّعىٰ العبد : أنه مؤثر فقد ادعىٰ ملك ما آثر به غيره، والملك[4] في الحقيقة: إنما هو لله الذي له كل شيء، فإذا خرج العبد عن دعوىٰ الملك فقد آثر إيثار الله - وهو إعطاؤه - علىٰ إيثار نفسه، وشهد أن الله وحده هو المؤثر بملكه، وأما من لا ملك له: فأي إيثار له؟.

وقوله: «ثُمَّ تَرْكُ شُهُودِ رُؤيَتِكَ إِيثَارَ اللهِ».

يعني أنك إذا آثرت إيثار الله بتسليمك معنىٰ الإيثار إليه: بقيت عليك من نفسك بقية أخرىٰ لا بد من الخروج عنها، وهو[5] أن تعرض عن شهودك و[6]رؤيتك أنك آثرت الحق بإيثارك، وأنك نسبت الإيثار إليه لا إليك، فإن في شهودك ذلك، ورؤيتك له: دعوىٰ أخرىٰ، هي أعظم من دعوىٰ الملك، وهي أنك ادّعيت أن لك شيئاً آثرت به الله وقدمته علىٰ نفسك فيه، بعد أن كان لك[7]، وهذه الدعوىٰ أصعب من الأولىٰ، فإنها تتضمن ما تضمنته الأولىٰ من الملك،

---

(١) ق، ح٢، غ، ب، ط (نفسك).

(٢) في حاشية ش (فإن).

(٣) غ (الخواص).

(٤) ح٢ (والملك إنما هو في الحقيقة لله) وفي ق (والملك والملك).

(٥) ق، م، غ، ب، ح٢، ط (وهي).

(٦) (الواو) سقطت من ق، م، غ، ح٢، ب، ط.

(٧) (لك) سقطت من ش.

وتزيد عليها برؤية الإيثار به [فالأول: مدع للملك مؤثر به، وهذا مدعٍ للملك ومدعٍ للإيثار به](١)، فإذن يجب عليه ترك شهود رؤيته لهذا الإيثار؛ فلا يعتقد أنه آثر الله بهذا الإيثار؛ بل الله هو الذي استأثر به دونك، فإن الأثرة واجبة له بإيجابه(٢) إياها لنفسه(٣)، لا بإيجاب العبد إياها له.

قوله: «ثُمَّ غَيْبَتُكَ عَنِ التَّرْكِ».

يريد: أنك إذا تركت(٤) هذا الشهود، وهذه الرؤية: بقيت عليك بقية أخرىٰ، وهي رؤيتك لهذا الترك المتضمنة(٥) لدعوىٰ ملكك(٦) للترك، وهي دعوىٰ كاذبة، إذا ليس للعبد شيء من الأمر، ولا بيده لا(٧) فعل ولا ترك، وإنما الأمر كله لله.

وقد تبين في الكشف والشهود والعلم والمعرفة(٨): أن العبد ليس له شيء أصلاً والعبد لا يملك حقيقة، إنما المالك بالحقيقة سيده، فالأثرة والإيثار

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من غ، ب.

(٢) ب (بإيثاره).

(٣) ط (بنفسه).

(٤) ط (نزلت) وكذلك في هامش ب.

(٥) ش زيادة (له).

(٦) (ملكك) سقطت من م.

(٧) (لا) سقطت من ط، ب، وفي م، غ، ح٢ (ولا بيده ولا فعل ولا ترك).

(٨) الكشف تقدم ص١٨٢٩، والشهود ص١٧٢٧، والعلم والمعرفة ص١٦٥٦.

والاستئثار كلها[1] لله ومنه وإليه ، سواء اختار العبد ذلك وعلمه، أو جهله، أم لم يختره ، فالأثرة واقعة ، كره العبد أم رضي ، فإنها استئثار المالك[2] الحق بملكه تعالىٰ، وقد فهمت من هذا معنىٰ[3] قوله: «**فَإِنَّ الأَثَرَةَ تَحْسُنُ طَوعاً، وَتَصِحُّ كَرهاً**» والله[4] أعلم[5].

* * *

(١) م (وكلها).

(٢) ح٢ (للمالك).

(٣) ش (المعنىٰ) وهي سقطت من غ ، ب.

(٤) ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

(٥) هنا انتهت مخطوطة ح٢.

فصل

منزلة الخُلُق

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «الخُلُق»[1].

قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، قال ابن عباس ومجاهد: لعلىٰ دين عظيم، لا دين أحب إليّ ولا أرضىٰ عندي منه، وهو دين الإسلام[2].

وقال الحسن - رضي الله عنه -: هو آداب القرآن[3].

وقال قتادة: هو ما كان يأتمر[4] به من أمر الله، وينتهي[5] عنه من نهىٰ الله[6]،

---

(١) الخُلُق: هو ما يرجع إليه المكلف من نعته، فخلق كل مخلوق هو ما اشتملت عليه نعوته أي صفاته، فهو صفات النفس، لذا فإن الإنسان مستور بخَلقِهِ مشهود بخُلُقه، وهو يكون مع الحق، فما يأتي من العبد فهو نقص يوجب عذراً، وما يأتي من الحق فهو جود يُوجِبُ شكراً، ويكون مع الخلق، وجماعُهُ بذل المعروف واحتمال الأذىٰ وكفه، ومنه الخلق الكامل، وهو ما استجمع العلم والجود والصبر ومنه الخلق العظيم وهو أكمل ما يمكن أن يتصف به إنسان من مكارم الأخلاق، قال الله تعالىٰ عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وإنّك لعلىٰ خلق عظيم﴾، انظر هذه التعريفات: الرسالة القشيرية ٣٥٤، لطائف الإعلام ١/ ٤٥١- ٤٥٥، معجم مصطلحات الصوفية ٩٢.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/ ١٨، والقرطبي ١٨/ ٢٢٧، تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥، ابن كثير ٤/ ٤٧٤.

(٣) تفسير الطبري ٢٨/ ١٩، زاد المسير ٨/ ٣٢٨، تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥، وفي الدر المنثور عن عطية العوفي ٨/ ٢٤٣.

(٤) ط (يأمر) وهو خلاف الأصل وما أورده البغوي عن قتادة ٤/ ٢٤٣.

(٥) ط (وينهىٰ) وهو خلاف الأصل وما أورده البغوي عن قتادة ٤/ ٣٧٥.

(٦) تفسير الطبري ٢٩/ ١٢، تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥، تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٢، وفي تفسير الطبري ٢٨/ ١٩ عن الضحاك.

والمعنىٰ: إنّك لعلىٰ الخلق الذي آثرك الله به في القرآن.

وفي الصحيحين: أن هشام بن حكيم سأل عائشة - رضي الله عنها - عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: «كان خُلُقه القرآن، فقال: لقد هممت أن أقوم ولا[1] أسأل شيئاً»[2].

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع من هذه الآية[3]، وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذا؟ قال: لا أدري حتىٰ أسأل[4]، ثم رجع إليه، فقال: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك»[5].

---

(١) الأصل (فلا) والمثبت من صحيح مسلم و أ، ب، غ، م، ط.

(٢) مسلم. صلاة المسافرين (١/ ٥١٢) ح(٧٤٦)، أحمد (٦/ ٥٤)، أبو داود. الصلاة (٢/ ٨٧) ح(١٣٤٢)، وليس في سنده هشام بن حكيم، ولعله تصحيف أو وهم حيث إن سعد ابن هشام استصحب حكيم بن أفلح إلىٰ عائشة فقد تكون العبارة (هشام وحكيم).

(٣) الطبري ١٣/ ٣٣٢، الكشاف ٢/ ١٣٨، المحرر الوجيز ٧/ ٢٨٢، وعند ابن كثير عن قتادة نحوه ٣/ ٣٤٩، الدر المنثور ٣/ ٦٢٩.

(٤) أ، ب، غ زيادة (فسأل).

(٥) السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٨٢)، وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي، ابن كثير (٣/ ٣٤٨).

ولا ريب أن للمطاع مع[1] الناس ثلاثة أحوال:

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له مُوالٍ، ومعادٍ له مُعارِض، وعليه في كل واحد من هذه الأحوال[2] واجب.

فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي[3] به صلاحهم، وصلاح شأنهم، وينهاهم[4] عن ضده.

وواجبه فيما يبذلونه له[5] من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وطوَّعت له به أنفسهم، سماحةً واختياراً، ولا يحملهم علىٰ العَنَت والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض[6] وعدم مقابلتهم[7] والانتقام منهم[8]

---

(١) ب (من).

(٢) (الأحوال) سقطت من أ، ب، غ، م، ق، ط.

(٣) (الذي) سقطت من ش.

(٤) ب (ينهرهم).

(٥) (له) سقطت من أ، ب، غ.

(٦) أ، ب، غ، م، ش، ق، ط (عنهم).

(٧) ط (بالمثل).

(٨) ش (منه).

لنفسه، (١) فقال الله(٢) لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، قال عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما -: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس(٣) وقال مجاهد: يعني(٤) خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسيس(٥) (٦)، مثل قبول الاعتذار(٧) والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش(٨) عن حقائق بواطنهم.

وقال ابن عباس - رَضي الله عنهما -: « خذ ما عفا لك من أموالهم، وهو الفضل(٩) عن العيال »(١٠)، وذلك معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

---

(١) ط (فقد قال).

(٢) ط (تعالىٰ).

(٣) تفسير الطبري ٩/ ١٥٤، ١٣/ ٣٢٧، مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٨٨ رقم ١٦٦٧٧، السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٥٣ بنفس اللفظ المثبت في الأصل.

(٤) (يعني) سقطت من ق.

(٥) غ (تخسيس).

(٦) تفسير الطبري ١٣/ ٣٢٧، وابن كثير ٢/ ٣٤٨ بلفظ « من غير تحسُّس »، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٦٢٨، وعزاه لابن عمر وعبدالله بن الزبير.

(٧) أ، ب، غ (الأعذار).

(٨) ش زيادة (والبحث).

(٩) ط (الفاضل).

(١٠) تفسير الطبري ٩/ ١٥٤، تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٨، الدر المنثور ٣/ ٦٣١، وفي الدر المنثور عن عائشة ٣/ ٦٢٩.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وهو كل معروف، وأعرفه: التوحيد، ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تُقابله بالسفه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وعلىٰ هذا(١) فليست بمنسوخة(٢)؛ بل يُعرض عنه بإقامة حق الله عليه، ولا ينتقم لنفسه.

فضل حسن الخلق ومنزلته

وهكذا(٣) كان خلقه ﷺ، قال أنس - رضي الله عنه -: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً»(٤)، وقال: «ما مَسَسْتُ ديباجاً ولا حريراً ألين من كفّ رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته:

---

(١) ب (هذان).

(٢) روي عن ابن عباس أنها منسوخة بالزكاة، وقيل نُسِخَت بالأمر بالغلظة عليهم بالقتال، وقال مجاهد إنها مُحكمة، والمراد بها الزكاة، وقال القاسم وسالم إنها مُحكمة ويُراد بها غير الزكاة، علىٰ الندب وقال عبدالله، وعروة أبناء الزبير إنها مُحكمة، ومعناها: خذ العفو من أخلاق الناس.. ورجح مكي ابن أبي طالب أنها مُحكمة، ومعناها الإعراض عن مخالطة المشركين، انظر الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخة ٢٩١ ـ ٢٩٣، وانظر تفسير الطبري ٩/ ١٥٤، ١٥٥.

(٣) م (وهذا).

(٤) البخاري الأدب (٤/ ١٢٨) ح(٦٢٠٣)، مسلم. الأدب (٣/ ١٦٩٢) ح(٢١٥٠)، أحمد (٣/ ٢١٢).

لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟» متفق عليه[١].

وأخبر[٢] ﷺ: «أن البرّ[٣] حُسنُ الخلق».

ففي[٤] صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: «البِرُّ حُسْنُ الخُلق، والإثم ما حاك في صدرك[٥]، وكرهت أن يطلع عليه الناس»[٦].

فقابَلَ البر بالإثم، وأخبر: أن البر حسن الخلق، و[٧]الإثم: حوازُّ[٨][٩] الصدور[١٠]، وهذا يدل علىٰ أن حسن الخلق: هو الدين كله، وهو حقائق

(١) البخاري. الصوم (٢/ ٥١) ح(١٩٧٣)، بلفظ «ولا مسست خزة ولا حريرة»، مسلم. الفضائل (٤/ ١٨١٤) ح(٢٣٣٠) بلفظ «ولا مسست»، أحمد (٣/ ٢٦٥)، الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٦٨) ح(٢٠١٥).

(٢) ط زيادة (رسول الله).

(٣) أ، ب، غ، م، ش، ق زيادة (هو).

(٤) أ، ب، غ، م، ط (وفي).

(٥) أ (نفسك).

(٦) مسلم. البر والصلة (٤/ ١٩٨٠) ح(٢٥٥٣)، أحمد (٤/ ١٨٢)، الترمذي. الزهد (٤/ ٥٩٧) ح(٢٣٨٩) وقال حسن صحيح، الدارمي. البر والإثم (٢/ ٢٣٠) ح(٢٧٩٢).

(٧) أ زيادة (أن).

(٨) ش (حزاز).

(٩) حَوَازُّ: الحوز: الطبيعة من خير أو شر، وهو من حاز يحوز أي يجمع القلوب أي يحوز القلب ويغلب عليه حتىٰ يركب ما لا يحب.. وقيل: هو من (حزاز) أي ما حزَّ في القلب وحك فيه، لسان العرب ٥/ ٣٤٣.

(١٠) أ، ب (الصدر).

الإيمان، وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإثم.

وفي حديث آخر: «البرُّ: ما اطمأنت إليه النَّفس، والإثم ما حاك في الصدر»[١]، وقد فُسِّر حسن الخلق بأنه البر، فدل علىٰ أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب، والإثم حواز[٢] الصدور، وما حاك فيها، واسترابت به، وهذا غير حسن الخلق وسوئه في عرف كثير من الناس، كما سيأتي في[٣] الصحيحين عنه[٤] ﷺ: «خياركم: أحاسنكم أخلاقاً»[٥].

وفي الترمذي[٦] عنه ﷺ: «ما من شيءٍ أثقل في مِيزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله تعالىٰ ليُبْغِضُ[٧] الفاحش[٨] البذيء» قال الترمذي حديث

---

(١) أحمد (٤/ ٢٢٨)، الدارمي في البيوع (٢/ ١٦١) ح(٢٥٣٥)، وأبو يعلىٰ في مسنده (٣/ ١٦١)، وضعف إسناده محققه حسن أسد، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٥١)، وقال رواه أحمد بسند حسن، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٩٤) وعزاه للطبراني وأحمد، وقال رجال أحد إسنادي الطبراني ثقات، وحسنه الألباني بلفظ «البر ما سكنت إليه النفس»، صحيح الجامع (١/ ٥٥٧) ح(٢٨٨٠).

(٢) الأصل (جواز) والأقرب ما أثبته من ق، وفي ش (جزار).

(٣) ش (وفي).

(٤) ط (عن رسول الله).

(٥) البخاري. المناقب (٢/ ٥١٨) ح(٣٥٥٩)، مسلم. الفضائل (٤/ ١٨١٠) ح(٢٣٢١)، أحمد (٢/ ١٩٣).

(٦) ط زيادة (عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي).

(٧) الأصل (يبغض) وما أثبته هو الموافق لما في الترمذي، أ، ب، غ، م، ش، ق.

(٨) الأصل (الفاجر) وما أثبته هو الموافق لما في الترمذي، أ، ب، غ، م، ش، ق.

حسن صحيح [١].

وفيه أيضاً - وصححه -[٢]: أن رسول الله ﷺ سُئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوىٰ الله، وحُسن الخلق». وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الفم والفرج»[٣].

وفيه أيضاً[٤] - وصححه -[٥] أكمل المؤمنين إيماناً: «أحْسنهم خلقاً، وخياركم: خياركم لنسائهم»[٦].

---

(١) الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٦٢) ح(٢٠٠٢) وقال حسن صحيح، أبو داود. الأدب (٥/ ١٥٠) ح(٢٧٩٩)، أحمد (٦/ ٤٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢/ ٥٦٣)، وذكر تصحيح ابن حبان له برقم (١٩٢١).

(٢) ط زيادة (عن أبي هريرة رضي الله عنه).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الإمام أحمد (٢/ ٣٩٢)، والترمذي في البر والصلة (٤/ ٣٦٣) ح(٢٠٠٤) وقال صحيح غريب، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٠)، والمزي في تهذيب الكمال (٣٢/ ١٨٦)، الترغيب والترهيب (٢/ ٣٤٧)، وحسَّنه الألباني كما في صحيح ابن ماجه (٢/ ٤١٧) ح(٣٤٢٤)، ورقمه في الصحيحة (٩٧٧).

(٤) أ، ط زيادة (عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ).

(٥) أ (ليدرك)، ط زيادة (إن من).

(٦) الترمذي. الإيمان (٥/ ٩) ح(٢٦١٢) بلفظ: «ألطفهم بأهله»، أحمد (٦/ ٤٧) بهذا اللفظ، وله شاهد عند ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ٣٣٤) ح(١٩٧٨) ورقمه في الصحيحة (٢٨٥)، وفي مسلم: «إن من خياركم أحاسنكم..» (٤/ ١٨١٠) ح(٢٣٢١).

وفي الصحيح عن عائشة(١) عنه ﷺ: «إن المؤمن ليُدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»(٢)(٣).

وفيه أيضاً عنه(٤): «أنا زعيم ببيت(٥) في رَبَض الجنة: لمن ترك المِراء وإنْ كان محقاً، وببيت(٦) في وسط الجنة: لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت(٧) في

(١) (عائشة) سقطت من ق.

(٢) ط زيادة (رواه أبو داود).

(٣) الحديث ليس في أحد الصحيحين وأخرجه من حديث عائشة: الإمام أحمد (٦/ ٩٠، ١٣٣، ١٨٧)، وأبو داود في الأدب (٥/ ١٤٩) ح(٤٧٩٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٨) وقال صحيح علىٰ شرطهما ولم يخرجاه وشاهده علىٰ شرط مسلم والمزي في تهذيب الكمال (١٣/ ٢٦)، وبألفاظ أخرىٰ عن عائشة أخرجه العقيلي (٤/ ٤٦٤) وابن عدي في الكامل (٣/ ٢٢٠)، وابن حبان في المجروحين (٣/ ١٤٤)، ومن حديث أبي أمامة أخرجه بألفاظ مختلفة الطبراني في الكبير (٨/ ١٦٩)، والرازي في الفوائد (٢/ ١٩٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٥)، وقال فيه عفير بن معدان ضعيف، ومن حديث أبي الدرداء أورده العجلوني (٢/ ٢٦٠، ٤٠٤) وعزاه للطبراني وأبو داود والترمذي، والبخاري في الأدب المفرد من طريق أبي هريرة (١١٠)، وابن عدي في الكامل (٤/ ١١)، وقال محقق شرح السنة: عن طريق عائشة صحيح بما قبله (١٣/ ١٨).

(٤) الأصل (وفيها عنه..) وفي ب، غ (وفيه عنه..) وفي أ، ق (وفيه صلىٰ الله عليه وسلم) وفي ط (وعن ابن عمر رضي الله عنهما) والأقرب ما أثبته من م.

(٥) أ (بيت).

(٦) أ (بيت).

(٧) أ (بيت).

أعلىٰ الجنة: لمن حَسُنَ خُلقه»[1] وإسناده صحيح[2].

فجعل البيت العلوي جزءاً لأعلىٰ المقامات الثلاثة: وهي حسن الخلق، والأوسط، لأوسطها وهو ترك الكذب، والأدنىٰ لأدناها، وهو ترك المماراة، وإن كان معه حق، ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل علىٰ هذا كله.

وفي الترمذي[3] عنه ﷺ: «إنَّ مِنْ أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً، وإنَّ[4] أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون» قالوا: يارسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيقهون؟ قال: «المتكبرون»[5].

---

(١) ط (رواه الطبراني).

(٢) أخرجه من حديث أبي أمامة: أبو داود. الأدب (٥/ ١٥٠) ح(٤٨٠٠)، الترغيب والترهيب (٣/ ٢٧٣)، والطبراني في الكبير (٨/ ٩٨)، تهذيب الكمال (٣/ ٤٩٨)، وابن حجر في فتح الباري (١٣/ ١٨١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٣) وقال أخرجه الطبراني وفيه محمد بن الحصين ولم أعرفه والظاهر أنه التميمي وهو ثقة وبقية رجاله ثقات، ومن حديث معاذ: أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٧٤)، الترغيب والترهيب (١/ ٧٨)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٥٧)، ونحوه من طريق أنس بن مالك: الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٥٨) ح(١٩٩٣)، وجمع طرقه وشواهده الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١٤٨) رقم(٢٧٣) وقال: وللحديث شواهد يرتقي بها إلىٰ درجة الحسن علىٰ أقل الأحوال.

(٣) ط زيادة (عن جابر رضي الله عنه).

(٤) ب، أ، ط (من).

(٥) أخرجه من حديث ثعلبة الخشني أحمد (٤/ ١٩٣، ١٩٤)، الترغيب والترهيب (٣/ ٢٧٧)، وعزاه لأحمد وقال رواته رواة الصحيح، والطبراني وابن حبان والترمذي من حديث جابر،

الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية، والمتشدق: المتكلم بملء فيه تفاصحاً وتطاولاً، وإظهاراً لفضله علىٰ غيره، وأصله: من الفَهْق[1]، وهو الامتلاء.

فصـــل

تعريف حُسن الخلق

الدين كلُّه خُلُق، فمن زاد عليك في الخلق زادَ عليك في الدين، وكذلك التصوف.

قال الكتاني[2]: التصوُّف هو الخلق[3]، فمن زاد عليك في الخلق: فقد زاد عليك في التصوف[4].

وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٣١)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (١٠/ ١٩٣)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢١)، وقال رجال أحمد رجال الصحيح، ومن حديث جابر أخرجه الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٧٠) رقم(٢٠١٨)، وقال حسن غريب، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٥٢)، ومن حديث أبي هريرة: البخاري في الأدب المفرد (٤٤٣)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٤٣٤) رقم(٧٩١)، وأطال في ذكر شواهده وطرقه التي يرتقي بها إلىٰ درجة الحسن.

(١) أ، ب، غ (الفهو).

(٢) محمد بن علي بن جعفر الكتاني، يكنىٰ أبا بكر، أصله من بغداد، صحب الجنيد وأبا سعيد الخزاز وأبا الحسين الثوري، وأقام بمكة ومات بها سنة ٣٢٢هـ/ حلية الأولياء (١٠/ ٣٥٧)، صفة الصفوة (٢/ ٢٥٧)، تاريخ بغداد (٣/ ٧٤)، طبقات الصوفية للسلمي (٣٧٣)، الرسالة القشيرية (١٠١).

(٣) أ، ب، غ، م، ش (ومنها الخلق)، و م، ق والرسالة القشيرية ٣٥٤ بلفظ «خلق».

(٤) الرسالة القشيرية ٣٤٥، إحياء علوم الدين ٣/ ٥٢ وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ٦٠٣ وعزاه لعوارف المعارف عن أبي زرعه عن أبي بكر خلف السلمي.

وقد قيل: إن حسن الخلق بذل الندىٰ، وكف الأذىٰ، واحتمال الأذىٰ(١).

وقيل: حُسن الخُلُق: بذل الجميل، وكف القبيح.

وقيل: التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل.

أركان حسن الخلق

وحسن الخلق يقوم علىٰ أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل(٢).

فالصبر: يحمله علىٰ الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذىٰ، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله علىٰ اجتناب الرذائل(٣) [والقبائح من القول والفعل، وتحمله علىٰ الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحش(٤) والبخل](٥) والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله علىٰ عزَّة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلىٰ البذل، والندىٰ الذي هو شجاعة النفس وقوتها علىٰ إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله علىٰ كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها(٦)

---

(١) المقدمة في التصوف ٦٠، إحياء علوم الدين ٣/ ٥٣.

(٢) انظر لطائف الإعلام ١/ ٤٥٣، وإتحاف السادة المتقين ٨/ ٦٠٠ ـ ٦١٠.

(٣) غ (الرذيل).

(٤) أ، ب، غ، ط (الفحشاء).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٦) ق (شجاعته).

أمسك[1] عنانها، وكبحها[2] [3] بلجامها عن التسرع[4] والبطش، كما قال النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[5]، وهذه[6] حقيقة الشجاعة، وهي ملَكةٌ يقتدر[7] بها[8] علىٰ قهر خصمه.

والعدل: يحمله علىٰ اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط فيحمله علىٰ خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين [الإمساك والإسراف والتبذير، وعلىٰ خلق الحياء الذي هو توسط بين][9] الذل والقحة[10]، وعلىٰ خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور[11]، وعلىٰ خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة[12] وسقوط النفس[13].

---

(١) ط (يمسك).

(٢) ط (ويكبحها).

(٣) كبحها: كبح الدابة إذا جذبها إليه باللجام لكي تقف، مختار الصحاح ٥٦٠.

(٤) الأصل (الرع)، وفي ط (النزغ) ولعل ما أثبته من ش أقرب للصواب.

(٥) البخاري. الأدب (٤/ ١١٣) ح(٦١١٤)، مسلم. البر والصلة (٤/ ٢٠١٤) ح(٢٦٠٩)، أحمد (٢/ ٢٣٦).

(٦) أ، ب، غ، ط (وهو).

(٧) ب (يتقيد).

(٨) ط (العبد).

(٩) ما بين المعقوفين سقط من ط.

(١٠) القحة: تقدم ١٨١٣.

(١١) التهور: الوقوع في الشيء بقلة مبالاة، مختار الصحاح ٧٠١.

(١١) المهانة: امتهن الشيء: احتقره، ورجل مهين: حقير، مختار الصحاح ٦٣٩.

(١٣) انظر إحياء علوم الدين في بيان أصول الأخلاق العالية والسافلة وأقسامها، والتوسط فيها بين الإفراط والتفريط ٣/ ٥٤.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

أركان سوء الخلق

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها علىٰ أربعة أركان: الجهل، والظلم والشهوة، والغضب[١].

فالجهل: يريه[٢] الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً، والنقص كمالاً.

والظلم: يحمله علىٰ وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضىٰ[٣]، ويعجل[٤] في موضع الأناة[٥]، ويبخل في موضع البذل[٦]، ويحجم في موضع الإقدام، و[٧]يقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحملـه علىٰ الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنَّهمة[٨]

---

(١) ولقد حصرها شيخ الإسلام بالظلم والجهل، انظر الفتاوىٰ ٢٨/ ١٤٣، ١٧٩، الاستقامة ١/ ٣٧٩، درء التعارض ٨/ ٤٠٩.

(٢) الأصل (تريه) والصحيح ما أثبته من ط.

(٣) ط زيادة (ويرضىٰ في موضع الغضب).

(٤) أ، ب، غ، ط (ويجهل).

(٥) أ، ب، غ (الأناءة).

(٦) ق، م، أ، ب، غ، ط زيادة (ويبذل في موضع البخل).

(٧) ق (أو).

(٨) النَّهمة: بلوغ الهمة في الشيء، (ومنهوم) مولع به، والنَهَم: الإفراط في الشهوة، مختار الصحاح (٦٨٣).

والجشع[١] والذل والدناءات[٢] كلها.

والغضب : يحمله علىٰ الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسفه.

ويتركب من بين كل خلقين من هذه[٣] أخلاق مذمومة.

وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضَّعف، وإفراطها في القوَّة.

يتولد من إفراطها في الضعف : المهانة والبخل، والخسة[٤] واللؤم[٥]، والذل والحرص، والشح وسفساف[٦] الأمور والأخلاق.

ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحدة، والفحش والبطش.

ويتولد من تزوج إحدىٰ[٧] الخلقين بالآخر: أولاد غِيَّة[٨] [٩]كثيرون، فإن النفس قد تجمع قوة وضعفاً، فيكون صاحبها أجبر[١٠] الناس إذا قدر، وأذلَّهم

---

(١) الجشع: أشد الحرص ، مختار الصحاح ١٧٥.

(٢) الأصل (والدناءة) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، ط.

(٣) م ، أ ، ب ، غ ، ط (الأخلاق).

(٤) الخسّة: الخسيس: الدنيء ، مختار الصحاح ١٧٥.

(٥) اللؤم: اللئيم: الدنيء الأصل ، الشحيح النفس ، مختار الصحاح ٥٨٧.

(٦) سفساف: السَّفْسَافُ: الرديء من كل شيء ، والأمر الحقير ، مختار الصحاح ٣٠٢.

(٧) م ، ب ، ش (أحد).

(٨) ق ، م ، ش (عنه) و ب (عنةٍ).

(٧) غيّة : الغي الضلالة والخيبة والغوغاء من الناس الكثير المختلطون ، مختار الصحاح ٤٨٥.

(١٠) ش (أجبن).

إذا قُهر، ظالم عسوف[١]، [٢] جبار، فإذا قُهر صار أذل من امرأة: جبان عن القوي، جريء[٣] علىٰ الضعيف.

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضاً.

كل خلق مكتنف بخلقين ذميمين

وكل خلق محمود مكتنَفٌ [٤]بخلقين ذميمين، وهو وسط بينهما، وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير، والتواضع: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة، والكبر والعلو.

فإن النفس متىٰ انحرفت عن «التوسط» انحرف إلىٰ أحد[٥] الخلقين الذميمين ولا بُد، فإذا انحرفت عن خلق «التواضع[٦]» انحرفت: إما إلىٰ كبر وعلو، وإما إلىٰ ذل ومهانة وحقارة، وإذا انحرفت عن خلق «الحياء» انحرفت: إما إلىٰ قحة وجراءة[٧] وإما إلىٰ عجز وخَور [٨] ومهانة، بحيث يُطمِع في نفسه

---

(١) أ، ب، غ، م، ط (عنوف).

(٢) عسوف: العسوف: الظلوم، مختار الصحاح ٤٣٢.

(٣) ق، أ، ب، غ (جبري).

(٤) أ زيادة (بين).

(٥) م، غ (إحدىٰ).

(٦) غ (التوضع).

(٧) ط، ش (جرأة).

(٨) الخور: الضعف، مختار الصحاح ١٩٢.

عدوه، ويفوته كثير من مصالحه، ويزعم أن الحامل له علىٰ ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز، وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خُلق «الصبر المحمود» انحرفت: إما إلىٰ جزع وهلع[1] وجشع[2] وتَسَخُّط، وإما إلىٰ غلظة كبد، وقسوة قلب، وحجرية[3] طبع[4]، كما قال بعضهم:

تبكي[5] علينا ولا نبكي علىٰ أحـد   فنحـن أغلظ أكباداً من الإبل[6]

وإذا انحرفت عن خلق «الحلم» انحرفت: إما إلىٰ الطيش والترف والحدة والخفة، وإما إلىٰ الذل والمهانة والحقارة، ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف، كما قيل[7]:

كلُّ حِلْم أتىٰ بغير اقتـدار   حجة لاجئٌ إليهـا اللِّئام[8]

---

(١) هلع: أفحش الجزع، مختار الصحاح ٦٩٧.

(٢) جشع: الجشع: أشد الحرص، مختار الصحاح ١٠٤.

(٣) ط (تحجر).

(٤) (طبع) سقطت من أ، ب، غ.

(٥) ش، ق (يبكي).

(٦) القائل: زيد الخيل، انظر الأمثال والحكم للماوردي ١٤١، وبهامشه إحالات أخرىٰ وفي بعضها (يُبكىٰ).

(٧) م (لأبي الطيب).

(٨) القائل: المتنبي، انظر ديوانه بشرح البرقوقي ٢/ ٢١٧.

وإذا انحرفت عن خلق «الأناة والرفق» انحرفت: إما إلىٰ عجلة وطيش وعنف[1]، وإما إلىٰ تفريط وإضاعة، والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «العزة» التي وهبها الله للمؤمنين، انحرفت: إما إلىٰ كبر وإما إلىٰ ذل، والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «الشجاعة» انحرفت: إما إلىٰ تهور وإقدام غير محمود، وإما إلىٰ جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق «المنافسة في المراتب العالية والغِبطة[2]» انحرفت: إما إلىٰ حَسد،وإما إلىٰ مهانة، وعجز وذل ورضىً بالدون.

وإذا انحرفت عن «القناعة» انحرفت: إما إلىٰ حِرْص وكَلَب[3]، وإما إلىٰ خِسَّة ومهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خُلق «الرحمة» انحرفت: إما إلىٰ قسوة، وإما إلىٰ ضعف قلب وجبن نفس، كمن لا يقدم علىٰ ذبح شاة، ولا إقامة حد ولا[4] تأديب ولد.

ويزعم أن الرحمة تحمله علىٰ ذلك، وقد ذبح أرحمُ الخلق بيده في

---

(١) (عنف) سقطت من ش.

(٢) الغبطة: تمنّي مثل حال المغبوط، من غير أن تريد زوالها عنه، مختار الصحاح ٤٦٨.

(٣) كَلَب: الكَلَبُ: مرض معدٍ يعرف برهبة الماء، المعجم الوسيط ٢/ ٧٩٤.

(٤) (لا) سقطت من ط.

موقف[1] واحد ثلاثاً وستين بدنة[2][3]، وقطع الأيدي من الرجال والنساء[4]، وضرب الأعناق[5]، وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتىٰ مات المرجوم[6]، وكان أرحم خلق الله علىٰ الإطلاق وأرأفهم.

وكذلك طلاقة الوجه، والبشر المحمود، فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير[7] الخد[8]، وطي البِشْر[9]عن البَشَر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يُذهِب الهيبة، ويزيل الوقار ويطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة، والنفرة في قلوب الخلق.

---

(١) أ، ب، غ، ط (موضع).

(٢) (بدنة) سقطت من ق.

(٣) كما في صحيح مسلم في حديث جابر الطويل في الحج(٢/ ٨٨٦) ح(١٢١٨)، صحيح ابن حبان(٩/ ٣٢٧).

(٤) كما في حديث عائشة في البخاري. قصة المرأة (٤/ ٢٥٠) ح(٦٨٠٠)، وقطع الرجل كما في المسند (٢/ ١٤٥)، وأبي داود (٤/ ٤٣٦) ح(٤٣٨٦)، السنن الكبرىٰ للنسائي (٤/ ٣٣٥) ح(٧٣٣٩).

(٥) كما في سنن البيهقي (٩/ ٦٨) ح(١٧٨٠٨).

(٦) كما في البخاري. الحدود (٤/ ٢٥٤) ح(٦٨٢٠).

(٧) أ، ب، غ (تعصير)، ق (تصغر).

(٨) الأصل (للخد) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط، م.

(٩) البِشْر: من بشرني فلان بوجه حسن: أي لقيني وهو حسن البِشْر أي طلق الوجه، مختار الصحاح (٥٣).

وصاحب الخلق الوسط: مهيب محبوب، عزيز جانبه، حبيب لقاؤه، وفي صِفَة النبي[١] «من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه عِشْرة أحبَّه»[٢][٣].

فصل

أثر الرياضة وسياسة النفس في تقويم الخلق

[نافع جداً][٤] عظيم النفع للسالك، يوصله عن قريب، ويسيره بأخلاقه[٥] التي لا يمكنه إزالتها، فإن أصعب ما علىٰ الطبيعة الإنسانية، تغيير الأخلاق التي طبعت[٦] عليها، وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها؛ لكن النفوس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز: كسر جيوش الرياضة وشتتها، واستولىٰ علىٰ مملكة الطبع.

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلىٰ علاجها

---

(١) أ، ب، غ، ط (نبينا).

(٢) الترمذي المناقب عن علي رضي الله عنه (٥/ ٥٩٩) ح(٣٦٣٨) وقال حسن غريب ليس إسناده بمتصل، مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٨)، شعب الإيمان (٢/ ١٥٠)، التمهيد لابن عبدالبر (٣/ ٣١)، تاريخ بغداد (١١/ ٣٠)، الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (١/ ٤١٢)، السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٤٨).

(٣) ق (والله أعلم).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب.

(٥) ب (أخلاق).

(٦) ط زيادة (النفوس).

وإزالتها، ويكون سيره أقوىٰ وأجل وأسرع من سير العامل علىٰ إزالتها.

و(١) نقدم قبل هذا مثلاً نضربه، مطابقاً لما نريده، وهو: نهر جار في صَببه ومنحدره ومنتهٍ إلىٰ تغريق أرض وعمران ودور، وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتىٰ يخرِّب دورهم، ويتلف أراضيهم وأموالهم، فانقسموا ثلاث فرق:

فرقة صرفت قواها وقوىٰ أعمالها إلىٰ سَكْره(٢) وحَبْسه وإيقافه، فلا(٣) تصنع هذه الفرقة كبير أمر، فإنه يوشك أن يجتمع ثم يحْمِل علىٰ السكر(٤)، فيكون إفساده وتخريبه أعظم.

وفرقة: رأت هذه الحالة، وعلمت أنه لا يُغني عنها شيئاً، فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوع(٥)، فرامت قطعه من أصله، فتعذر عليها ذلك غاية التعذر، وأبت الطبيعة النهرية(٦) ذلك أشد الإباء، فهم دائماً في قطع الينبوع(٧)، وكلما سدُّوه من موضع نبع من موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار.

---

(١) ق (ونقل).

(٢) ب (سده).

(٣) ق (فلم).

(٤) ب (السد).

(٥) الأصل وغيره (المنبوع) والأقرب ما أثبته من ط ، وهو الموافق للآية : ﴿حتىٰ تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ وانظر مختار الصحاح ٦٤٣.

(٦) ط زيادة (عليهم).

(٧) الأصل (المنبوع) كما سبق.

فجاءت فرقة ثالثة، خالفت رأي الفريقين، وعلموا أنهم قد ضاعت[١] عليهم كثير من مصالحهم، فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلىٰ خراب[٢] العمران، وصرفوه[٣] إلىٰ موضع ينتفعون بوصوله إليه ولا يتضررون[٤] فصرفوه إلىٰ أرض قابلة للنبات[٥] وسقوها به، فأنبتت[٦] أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هي[٧] أصوب الفرق في شأن هذا النهر.

فإذا تبين هذا المثل، فالله سبحانه[٨] اقتضت حكمته: أن ركب الإنسان - بل[٩] سائر الحيوان[١٠] - علىٰ طبيعة محمولة علىٰ قوتين: غضبية، وشهوانية، وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها، وهما مركوزتان

---

(١) ط (ضاع).

(٢) (خراب) سقطت من أ، ب، غ، ط، ش.

(٣) ط (فصرفون).

(٤) أ، ب، غ، ق، ط زيادة (به).

(٥) أ، ب، غ (النبات)، م (للبناء والغراس).

(٦) ق زيادة (لهم).

(٧) أ، ب، غ، م، ش، ق، ط (هم).

(٨) ط زيادة (قد).

(٩) ط (وسائر).

(١٠) أ، ب (الحيوانات).

في جِبِلَّة كل حيوان، فبقوة الشهوة والإرادة: يجذب[1] المنافع إلىٰ نفسه، وبقوة الغضب: يدفع المضار عنها، فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه: تولد منها الحرص، وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه، تولد منه[2] القوة والغيرة[3]، فإذا أعجزه[4] ذلك الضار: أورثه قوة الحقد، وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه ورأىٰ غيره مستبداً[5] به: أورثه الحسد، وإن[6] ظفر به: أورثته[7] شهوته وإرادته: خُلق البخل والشح، وإن[8] اشتد حرصه وشهوته علىٰ الشيء، ولم [9] يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية، فاستعملها فيه: فأورثه ذلك العدوان، والبغي والظلم، ومنه يتولد: الكبر والخيلاء والفخر[10]، فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب، وتزوج أحدهما بصاحبه.

فإذا تبين هذا: فالنهر مثال هاتين القوتين، وهو منصب في جدول[11] الطبيعة

---

(١) الأصل (تجذب) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ط.

(٢) ب (منها).

(٣) ق م، ش (العزة).

(٤) ط (عجز عن).

(٥) م، أ، ب، غ (مستبدلاً).

(٦) أ، ب، غ، ق، ط (فإن).

(٧) أ، ب، غ، ط زيادة (شدة).

(٨) (وإن) سقطت من ش.

(٩) الأصل (لم) والأقرب إثبات الواو كما في أ، ب، غ، ط.

(١٠) ق (والفخر والخيلاء).

(١١) ق، ش (حدور).

ومجراها إلىٰ دور القلب وعمرانه وحواصله، يذهبها[1] ويتلفها ولا بد، فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه، فخرَّب ديار الإيمان، وقلع آثاره، وهدم عمرانه، وأنبت موضعها كل شجرة خبيثة، من حنظل[2] وضريع[3] وشوك وزقُّوم[4]، وهو الذي يأكله أهل النار يوم المعاد[5].

وأما النفوس الزكية الفاضلة فإنها رأت ما يؤول إليه أمر هذا النهر، فافترقوا ثلاث فرق.

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخلوات والتمرينات[6]: راموا قطعه[7] من ينبوعه، فأبت[8] ذلك حكمة الله تعالىٰ، وما طبع عليه الجبلَّة البشرية، ولم تنقد له الطبيعة، فاشتد القتال، ودام الحرب، وحمي الوطيس[9]،

---

(١) ط (يخربها).

(٢) حنظل: نبت مفترش ثمرته في حجم البرتقال، المعجم الوسيط ١/ ٢٠٢.

(٣) ضريع: يبيس الشبرق وهو نبت، مختار الصحاح ٣٨٠.

(٤) زقوم: شجرة مرَّة كريهة الرائحة، المعجم الوسيط ١/ ٣٩٦.

(٥) أ، ب، غ، م، ط (يوم القيامة).

(٦) الأصل (التمزقات) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٧) ق (قلعه).

(٨) ط زيادة (عليهم).

(٩) الوطيس: حفيرة يُختبز فيها ويشوىٰ، ويقال في المعركة: حمي الوطيس: جدّت الحرب واشتدت، المعجم الوسيط ٢/ ١٠٤١.

وصارت الحرب[١] دولاً وسجالاً وهؤلاء صرفوا قواهم إلىٰ مجاهدة النفس علىٰ إزالة تلك الصفات.

وفرقة أعرضوا عنها، وشغلوا نفوسهم بالأعمال، ولم يجيبوا دواعي[٢] تلك الصفات مع تخليتهم إياها علىٰ مجراها، لكن لم يمكّنوا نهرها من إفساد عمرانهم؛ بل اشتغلوا بتحصين العمران، وإحكام بنائه وأساسه، ورأوا أن ذلك النهر لا بد أن يصل إليه، فإذا وصل[٣] إلىٰ بناء محكم لم[٤] يهدمه؛ بل يأخذ[٥] عنه يميناً وشمالاً، فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة وإحكام البناء، وأولئك صرفوها[٦] في قطع المادة الفاسدة من أصلها خوفاً من[٧] هدم البناء.

وسألت يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه المسألة، وقطع الآفات والاشتغال بتنقية الطريق وتنظيفها[٨]؟.

---

(١) غ (حرب).

(٢) الأصل (دوعي) والصحيح ما أثبته من أ، ب، غ، ق، ط.

(٣) ط (وصل) مكرر.

(٤) ط (فلم).

(٥) ط (أخذ).

(٦) (الهاء) سقطت من الأصل والصحيح إثباتها كما في أ، ب، غ، س، ق، ط.

(٧) الأصل (علىٰ) وفي ق (هذا) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٨) ط (وبتنظيفها).

فقال لي في[1] جملة كلامه: النفس مثل الباطوس - وهو جبُّ القَذَر - كلما نبشته ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبره وتجوزه، فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلىٰ قراره، وكلما نبشت شيئاً ظهر غيره.

فقلت له[2] سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ؟ فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل علىٰ تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها: انقطع، ولم يمكنه السَّفر قط، ولكن لتكن همتك المسير والإعراض عنها وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امض علىٰ سيرك.

فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جداً، وأثنىٰ علىٰ قائله.

إذ تبين هذا، فهذه الفرقة الثالثة: رأت أن هذه الصفات ما خُلقت سُدىٰ ولا عبثاً، وأنها بمنزلة ما[3] يُسقىٰ به الورد[4]، والشوك، والثمار، والحطب، وأنها صنوان[5] وأصداف لجواهر منطوية[6] عليها، وإن[7] خاف منه[8] أولئك هو نفس

---

(١) (في) سقطت من ط.
(٢) (له) سقطت من أ، ب، غ، ش، ط.
(٣) أ، ب، غ، ط (ماء).
(٤) الأصل (العدو) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ش.
(٥) أ، ب، غ، م، س، ق (صوان).
(٦) الأصل (منظومة) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، س، ق، ط.
(٧) ق، أ، ب، غ، م، س (وإنما)، ط (وأن ما).
(٨) م (منها).

سبب الفلاح والظفر، فرأوا(١) أن الكبر نهر يسقي به العلو والفخر، والبطر والظلم والعدوان، ويسقي به علو الهمة، والأنفة، والحمية والمراغمة لأعداء الله وقهرهم والعلو عليهم، وهذه درة في صدفته(٢)(٣)، فصرفوا مجراه(٤) إلىٰ هذا الغراس، واستخرجوا هذه الدرة من صدفته، وأبقوه علىٰ حاله في نفوسهم، لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع، وقد «رأىٰ النبي ﷺ أبا دُجانة يتبختر بين الصفين، فقال: إنها لمِشية يُبْغضها الله، إلا في مثل هذا الموضع»(٥).

فانظر كيف خلَّىٰ مجرىٰ هذه الصفة وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه.

وفي الحديث الآخر - وأظنه في المسند - «إنَّ منَ الخُيلاء ما يحُبها(٦) الله، ومنها ما يُبْغضها الله(٧)، فالخيلاء التي يحبها الله: اختيال الرجل في الحرب، وعند الصَّدقة»(٨).

---

(١) (فرأوا) سقطت من ب.

(٢) ب (في صدفة).

(٣) الصدفة: المحار وهو غشاء خلق في البحر وفي مثله يكون اللؤلؤ، لسان العرب (٩/ ١٨٨).

(٤) ق (مجراها).

(٥) الثقات لابن حبان (١/ ٢٢٥)، والطبراني في الكبير (٧/ ١٠٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ٦٤)، دلائل النبوة (٣/ ٢٣٤)، البداية والنهاية (٤/ ١٥)، سيرة ابن هشام (٤/ ١٣)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ٢٤٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٠٩)، وقال: فيه من لم أعرفه.

(٦) ق (ما يحبه).

(٧) (لفظ الجلالة) سقط من ق.

(٨) أخرجه من حديث جابر بن عتيك عن أبيه: أحمد (٥/ ٤٤٥)، أبو داود. الجهاد (٣/ ١٥)

[١] فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية؟ وكيف استحال القاطع موصلاً؟.

فصاحب الرياضات، والعامل علىٰ [[٢] قطع أصول[٣] هذه الصفات مجتهد علىٰ قطع مادة الخيلاء[٤] والكبر، وهذا قد أقرها في موضعها وأعدها لأقرانها وهو مصرف[٥] لها في مصرف يعينه علىٰ مطلبه[٦]، يوصله إليه وكذلك خلق الحسد [٧] فإنه لا يُذم، وهو كالصدفة[٨] لدرة الغبطة والمنافسة كما قال النبي ﷺ: **«لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه الله[٩] القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف[١٠]**

ح(٢٦٩٥)، وابن حبان في صحيحه (١١/ ٧٧)، والنسائي في المجتبىٰ (٥/ ٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٧/ ٣٠٨)، والنسائي في السنن الكبرىٰ (٢/ ٤٠).

(١) أ، ب، غ (كذا).

(٢) بداية السقط من جميع النسخ والمطبوع وهو في الأصل، ش، م، فالعبارة في النسخ التي منها سقط هكذا (فصاحب الرياضات والعامل/ بطريقة الرياضات والمجاهدات والخلوات وهيهات هيهات) وهو خمس صفحات في المطبوع، ونهايته في هذه الرسالة ص٢٢١١.

(٣) (أصول) سقطت من م.

(٤) (همزة الخيلاء) سقطت من الأصل، ش والصحيح إثباتها كما في م.

(٥) م (يتصرف).

(٦) م (ويوصله إليه مطلبه).

(٧) الحسد: المراد به هنا الغبطة، كما سيأتي في الحديث.

(٨) سبق ص٢٢٠٤.

(٩) م (آتاه قرآناً).

(١٠) (أطراف) سقطت من م.

النهار»(١).

فالحسد يوصل(٢) إلىٰ المنافسة التي يحبها الله ويأمر بها في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] فلا تعمل علىٰ إعدام هذا الخلق من نفسك بل احرفه إلىٰ الحسد المحمود الحامل علىٰ المنافسة في الرتب العالية، وتزاحم أهلها بالركب، (٣)لا تتمنىٰ زوال نعمة الله عن عبده(٤) فتزول عنك ويبقيها عليه، وكذلك خلق الحرص، فإنه من أنفع الأخلاق، وأوصلها إلىٰ كل خير وشدة الطلب بحسب قوة الحرص، فلا تعمل علىٰ قطعها ولكن علقها بما(٥) ينفع النفس في معادها ويكملها ويزكيها، كما قال ﷺ: **«احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»**(٦).

فقوة الحرص لا تُذم، وإنما يُذم صرفها إلىٰ ما يضر الحرص عليه أو(٧) لا

---

(١) الحديث أصله في البخاري. العلم (١/ ٤٣) ح(٧٣) وأطرافه (١٤٠٩، ٧١٤١، ٧٣١٦)، مسلم. صلاة المسافرين (١/ ٥٥٩) ح(٨١٦)، أحمد (١/ ٤٣٢)، من حديث ابن مسعود، وللحديث طرق وروايات أخرىٰ في السنن والمسانيد وغيرها.

(٢) م (يوصله).

(٣) م زيادة (نعم).

(٤) م (عبد).

(٥) م (علىٰ).

(٦) مسلم. القدر (٤/ ٢٠٥٢) ح(٢٦٦٤)، أحمد (٢/ ٣٦٦)، وابن ماجه في المقدمة (١/ ٣١) ح(٧٩).

(٧) الهمزة سقطت من م.

ينفع، وغيره[1] أنفع للعبد منه.

وكذلك قوة الشهوة من أنفع القوىٰ للعبد وأوصلها إلىٰ كماله وسعادته، فإنها تثمر المحبة وبحسب شهوة العبد للكمال يكون طلبه له، وبحسب قوة شهوته للذة العيش ووصال الأحبة وقرة العين يكون طلبه لذلك، في الجنة[2] وإن[3] كان مؤمناً بها، موقناً مصدقاً، فصدق الشهوة وقوتها يحملـه علىٰ بيع مشتهىٰ[4] أعلىٰ منه وأجل وأرفع.

وكذلك قوة الشح والبخل محمودة جداً نافعة للعبد، فإنها تحمله علىٰ بخله وشحه بزمانه ووقته وأنفاسه أن يضيعها ويسمح بها لمن لا يساوي، ويشح أيضاً علىٰ حظه ونصيبه من الله أن يبيعه أو يهبه لأحد من الخلق، ويشح أيضاً بماله ويبخل به كل البخل أن لا يكون في ميزانه، وأن يتركه لغيره يتنعم به ويفوته هو أجره وثوابه، فالشحيح بماله المحب له هو الذي لا يسمح به لغيره بل يأخذه من بين يديه[5] زاداً لمعاده، ومن لا يحبه ولا له قدر عنده يرىٰ أن يضيعه ويدعه للوارث أو الجائحة[6]،[7] والتلف ولا يستصحبه أمامه فهذا هو

---

(١) م، ش (أو ما غيره).

(٢) الأصل (المحبة) والأقرب ما أثبته من م، ش.

(٣) (الواو) سقطت من م.

(٤) (مشتهىٰ) سقطت من م، ش.

(٥) م (بل يأخذه بين يديه).

(٦) الأصل (الجايحة) والصحيح لغة ما أثبته من مختار الصحاح ١١٦.

(٧) **الجائحة**: جاح الشيء إذا استأصله، ومنه الجائحة وهي الشدة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة، مختار الصحاح ١١٦.

الزاهد في المال، والأول هو الراغب فيه المحب له، وكان عبدالله بن عمر - رَضي الله عنهما - إذا أعجبه شيء من ماله قدمه بين يديه(١).

وهذه قاعدة مطردة في جميع الصفات والأخلاق، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم(٢) جاؤوا بصرفها عن مجاريها المذمومة إلىٰ مجاري(٣) محمودة، وجاؤوا بصرف قوة الشهوة إلىٰ النكاح والتسري حتىٰ كان لسليمانَ - عليه السلام - مائة(٤) امرأة(٥)، ولداود - عليه السلام - تسع وتسعون(٦)، وجمع

(١) أي تصدق به، أورد الذهبي آثاراً وأفعالاً تشهد لهذا، سير أعلام النبلاء ٣/ ٢١٧ - ٢١٩.

(٢) م زيادة (أجمعين).

(٣) ش (مجار).

(٤) الأصل، ش (ماية) والصحيح لغة ما أثبته من م.

(٥) البخاري. الإيمان (٤/ ٢٣٣) ح(٦٧٢٠) بلفظ تسعين امرأة، وأكثر عدد ورد في مسلم تسعون. الإيمان (٣/ ١٢٧٦) ح(١٦٥٤)، وعدد المائة في الترمذي (٤/ ٤٠٨) ح(١٥٣٤)، النسائي في الكبرىٰ (٦/ ٣٨٥)، تفسير سورة الكهف ومصنف عبد الرزاق (١/ ١٣٦).

(٦) لعله أخذها من الآية التي جاء فيها ذكر الخصمين والترافع إلىٰ داود والكنية عن المرأة بالنعجة، والقصة في سورة ص آية ٢٣، ومن أنفس ما قرأت في هذه الآية ما قال الإمام السعدي - رحمه الله - حيث يقول: «.. وهذا الذنب الذي صدر من داود - عليه السلام - لم يذكره الله لعدم الحاجة إلىٰ ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصَّه الله علينا من لطفه وتوبته وأنّه ارتفع محله فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها..»، تفسير السعدي ٦/ ٤١٦، البخاري. كتاب الأنبياء ٢/ ٤٨٢ باب(٣٩)، وفي المستدرك قال السدي: «وكان له تسع وتسعون امرأة..» ٢/ ٦٤١.

الرسول ﷺ بين تسع (١)، وأباح للأمة أربعاً مما طاب من النساء، ومن السراري [بلا حصر، صرفاً لقوة] (٢) هذه الشهوة عن مجرىٰ الحرام إلىٰ مجرىٰ الحلال، الذي يحبه الله، وهو أحب إليه من نفل العبادة عند أكثر الفقهاء، ولذلك (٣) جاؤوا بصرف قوة الغضبية، إلىٰ جهاد أعداء الله، والغلظة عليهم والانتقام منهم، وكذلك جاؤوا بصرف قوة اللهو والركوب ونحوه إلىٰ اللهو والرمي والمسابقة علىٰ الخيل وركوبها في سبيل الله واللهو في العرس، وكذلك شهوة استماع الأصوات المطربة اللذيذة لا يذم (٤) بل يحمد (٥)، وقد وقف النبي ﷺ علىٰ أبي موسىٰ الأشعري (٦) واستمع (٧) قراءته، وقال لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود (٨)، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يأمره

---

(١) البخاري. النكاح (٣/ ٣٩٢) ح(٥٢١٥)، وفي رواية أخرىٰ أن جمع بين إحدىٰ عشرة، كما في حديث الغسل في البخاري. الوضوء (١/ ١٠٥) ح(٢٧٦) وقد جمع بين الروايتين ابن حجر عند موضع هذا الحديث في فتح الباري (٦/ ٤٦٠).

(٢) الأصل، (بلا خصوص فالقوة) والصحيح ما أثبته من م.

(٣) م (وكذلك).

(٤) ش (تذم).

(٥) ش (تحمد).

(٦) م زيادة (رضي الله عنه).

(٧) ش زيادة (إلىٰ).

(٨) البخاري مع الفتح (٨/ ٧١٠) ح(٥٠٤٨)، مسلم. صلاة المسافرين (١/ ٥٤٦) ح(٧٩٣)، أحمد (٥/ ٣٥١) (٢/ ٤٥٠).

إذا حضر عنده مع الصحابة أن يسمعهم قراءته، فيقرأ وهم يسمعون[1]، هذا كان سماع القوم فمن حرّم هذا السماع أو من[2] كرهه؟ وهل هذا الإسماع خواص الأولياء؟ فأين هذا من سماع المكاء والتصدية[3] وقرآن الشيطان[4]، وآلات[5] المعازف بنغمات الناشد[6]؟.

فلا بد للروح من سماع طيب تتغذىٰ[7] به، ولكن لا يستوي مَنْ غذاؤه[8] العسل والحلوىٰ[9] والطيبات، ومن غذاؤه[10] الرجيع[11] والميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، ويا عجباً! إن كان أُهِلَّ هذا[12] لا يرون آثاره علىٰ

---

(١) كما في المصنف لعبد الرزاق (٢/ ٨٤٦)، والدارمي في السنن (١/ ٣٣٢)، وابن حبان في صحيحه رقم(٢٢٦٤).

(٢) (من) سقطت من م.

(٣) المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق، تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٣.

(٤) قال ابن القيم: «حب الكتاب وحب ألحان الغناء في قلب عبد ليس يجتمعان» شرح النونية ٢/ ٥٢١، وانظر تعليقه علىٰ هذه المسألة في كتاب الكلام علىٰ مسألة السماع ٣٣٦.

(٥) ش (ولآيات).

(٦) الأصل، ش (الشاهد) والأقرب ما أثبته من م.

(٧) الأصل، ش (تتغدىٰ) والأقرب ما أثبته من م.

(٨) ش، م (غذاه).

(٩) الأصل، ش (الحلوا) والأصح لغة ما أثبته من م.

(١٠) ش، م (غذاه).

(١١) الرجيع: الروث، مختار الصحاح ٢٣٥.

(١٢) م زيادة (الغذاء).

شفاههم ووجوههم، أفلا يستحون من معاينة أرباب البصائر(١) ذلك عليهم.

والمقـصود أن رسـوم الطبيعـة وقواهـا لا يمكـن تعطيلهـا في دار الابـتلاء والامتحان، فالبصير العارف يستعملها في مواضعها النافعة له، التي لا تحـرم(٢) عليه ديناً ولا تقطع عليه طريقاً، ولا تفسد عليه حالـه مع الله، ولا تـسقطه مـن عينه.

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب لمن هـو معتن بهـذا الـشأن(٣)، وعامـل علىٰ صلاح قلبه وتزكية نفسه، وإنما دخل الداخل حيث ظـن أن تزكيـة الـنفس، وتهـذيب الأخـلاق يتيـسر](٤) بطريقـة الرياضـات والمجاهـدات والخلـوات. وهيهات(٥) هيهات، إنما يوقع(٦) ذلك في الآفات، والشبهات والـضلالات، فـإن تزكية النفوس مسلَّم إلىٰ الرسل، وإنما بعثهم الله لهـذه التزكيـة وولاهـم إياهـا،

---

(١) الأصل، م، ش (البصاير) والأصح الهمزة، قال تعالىٰ: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ [الإسراء:١٠٢].

(٢) الأصل (يحرم) والأقرب ما أثبته من ش، وفي م (تخرم).

(٣) هذا الكلام من جنس ما قاله أبو حامد الغزالي عن حسن تصريف هذه الصفات وقبولها للتغيير بطريقة الرياضة، انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٥٣، ٥٤، ٥٥.

(٤) هنا انتهىٰ السقط من جميع النسخ والمطبوع سوىٰ الأصل، ش، م وهو ما يقارب ٥ صفحات بداية من ص٢٢٠٥ في هذه الرسالة.

(٥) هيهات: كلمة تبعيد، مختار الصحاح (٧٠٤)، وهو بهذا يشير إلىٰ مسالك بعض الصوفية المنحرفة في تحصيل تزكية النفوس.

(٦) ط (يوقعه).

وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليماً وبياناً وإرشاداً، لا خلقاً ولا إلهاماً فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ - ١٥٢].

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل(١): فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه دون(٢) معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم(٣) وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم، والله المستعان.

فإن قلت: هل يمكن أن يكون(٤) الخلق كسبياً، أو(٥) هو أمر خارج عن الكسب؟.

---

(١) أ، ب، غ، م (الرسول).

(٢) أ، ب، غ، ط (من).

(٣) (طريقهم) سقطت من الأصل، ش والصحيح ما أثبته من بقية النسخ، ط.

(٤) ط (يقع)، وهامش ب (لعله أن يكون).

(٥) (الألف) سقطت من الأصل والأقرب إثباتها كما في أ، ب، غ، م، س، ط.

قلت: يمكن أن يقع كسبياً بالتخلق والتكلف، حتىٰ يصير له سجية وملكة، وقد قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس - رضي الله عنه -: «إن فيكَ لخلقين[١] يحبُّهما الله: الحِلْم والأناة» فقال: أخلقين تخلَّقت بهما، أم جبَلَني الله عليهما؟ فقال: «بل جبلك الله عليهما» فقال: الحمد لله الذي جبلني علىٰ خُلُقين يحبُّهما الله ورسوله[٢].

فدل علىٰ أن من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب، وكان النبي ﷺ يقول في دعاء[٣] الاستفتاح: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها[٤] لا يصرف عني سيئها إلا أنت»[٥]، فذكر الكسب والقَدَر[٦].

---

(١) ب (لخصلتين) وهي في الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٦٦) ح(٢٠١١).

(٢) مسلم. الإيمان (١/ ٨٤) ح(١٧)، أحمد (٣/ ٢٢)، أبو داود. الأدب (٥/ ٣٩٥) ح(٥٢٢٥)، الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٦٦) ح(٢٠١١) بلفظ خصلتين، وقال حسن صحيح غريب.

(٣) أ، ب، غ (دعائه).

(٤) الأصل (سيئ الأخلاق) وما أثبته من صحيح مسلم والترمذي وغيرهما وهو في أ، ب، غ، ق، ط.

(٥) مسلم. صلاة المسافرين (١/ ٥٣٥) ح (٧٧١)، أحمد (١/ ٩٤)، أبو داود (١/ ٤٨٢) ح(٧٦٠)، الترمذي. الدعوات (٥/ ٤٨٥) ح(٣٤٢١) وقال حسن صحيح، وفي النسائي (المجتبىٰ) (٢/ ١٣٠) «وقني سيئ الأعمال»، وصحح الألباني هذه الزيادة في صفة الصلاة (ص٨٦).

(٦) ط زيادة (والله أعلم).

فصـــل

قال صاحب «المنازل» - رحمه الله[١] - :

الفرق بين الخلق والتخلق

«الخُلُقُ : مَا يَرْجِعُ إِلَيهِ المُتَكَلِّفُ مِن نَعتِهِ[٢]»[٣].

أي خُلُقُ كل متكلف: فهو ما اشتملت عليه نعوته، فتكلُّفُه يرده إلىٰ خُلقه، كما قيل: إن التخلق يأتي[٤] دونه الخلق[٥].

وقال الآخر:

يراد من القلب نسيانكم   وتأبىٰ الطباع علىٰ الناقل[٦]

---

(١) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٢) ط (نعمته).

(٣) منازل السائرين ٤٥ ، ومعنىٰ (نعته) النعت: الصفة ، المعجم الوسيط ٢/ ٩٣٣ ، والنعت ما كان خاصاً بعضو ، كالأعور ، والأعرج ، والصفة للعموم ، كالعظيم والكريم ، ومن ثم قال جماعة: الله تعالىٰ يوصف ولا ينعت ، انظر معجم المناهي اللفظية للشيخ الدكتور بكر ابن عبدالله أبو زيد ٥٤١ ، الطبعة الثالثة ، الفروق للعسكري ١٨ .

(٤) م ، ش (يأبىٰ).

(٥) القائل عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان المعروف بالعرجي ، انظر ديوان العرجي ٣٣ ، وذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث رقم (٢٣٠) ولم ينسبه لأحد.

وأوله في الديوان «ارجع إلىٰ الحق إما كنت فاعله..».

وفي لآلئ الشعر ٢٦٣ أول البيت «عليك بالقصد فيما كنت فاعله».

وذكره صاحب مجمع الحكم والأمثال ١٣٧ وقال هو لسالم بن وابصة أو العرجي.

(٦) القائل: أبو الطيب المتنبي ، انظر شرح الديوان للعكبري ٣/ ٢٢ بلفظ (ويأبىٰ).

فمتكلف ما ليس من نعته ولا شيمته: يرجع إلىٰ شيمته، ونعته، وسجيّته[١] فذاك الذي يرجع إليه: هو الخلق.

علاقة التصوف بالخلق

قال: «وَاجتَمَعَت كَلِمَةُ النَّاطِقِينَ فِي هَـٰذَا العِلـمِ: أَنَّ التَّصَوُّفَ هُوَ الخُلُقُ، وَجِمَاعُ[٢] الكَلامِ فِيهِ يَدُورُ عَلىٰ قُطْبٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ بَذلُ المَعرُوفِ، وَكَفُّ الأَذَىٰ»[٣].

قلت: من الناس من يجعلها[٤] ثلاثة[٥]: كف الأذىٰ، واحتمال الأذىٰ، وإيجاد الراحة.

ومنهم من يجعلها اثنين - كما قال[٦] الشيخ رحمه الله -: بذل المعروف، وكف الأذىٰ[٧].

ومنهم من يردها إلىٰ واحد: وهو بذل المعروف، والكل صحيح[٨].

---

(١) السجية: الطبيعة والخلق، المعجم الوسيط ١/ ٤١٨.

(٢) أ، ب، غ، م، ط (جميع) وهو خلاف الأصل والمنازل.

(٣) منازل السائرين ٤٥.

(٤) ب (جعلها).

(٥) ق (ثلاث).

(٦) أ، ب (ذكر).

(٧) نسبه في الرسالة القشيرية للكرماني ٣٥٥، وانظر لطائف الإعلام ١/ ٤٥٢، بلفظ « واحتمال المؤن ».

(٨) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٥٣، ٦٠.

الأمور التي يدرك بها الخُلق

قال: «وَإِنَّمَا يُدْرَكُ إِمكَانُ ذَلِكَ فِي ثَلَاثَةِ أَشيَاء: فِي العِلمِ وَالجُودِ وَالصَّبرِ»[1].

فـ «العلم» يرشده إلىٰ مواقع بذل المعروف، والفرق بينه وبين المنكر، وترتيبه في وضعه مواضعه[2]، فلا يضع الغضب موضع الحلم[3]، [ولا بالعكس، ولا الإمساك موضع البذل، ولا بالعكس][4]؛ بل يعرف مواقع[5] الخير والشر ومراتبها، وموضع كل خلق: أين يضعه، وأين يحسن استعماله.

و «الجود» يبعثه علىٰ المسامحة بحقوق نفسه، والاستقصاء[6] منها لحقوق[7] غيره، فالجود قائد جيوش الخير.

و «الصبر» يحفظ عليه استدامة ذلك، ويحمله علىٰ الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذىٰ، وعدم المقابلة، وعلىٰ كل خير، كما تقدم، وهو أكبر

---

(١) منازل السائرين ٤٦، وفي إحياء علوم الدين: «أركان حسن الخلق الاعتدال في أربعة: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوىٰ الثلاث» ٣/ ٥٣ ثم فصلها بنحو ما ذكر ابن القيم رحمه الله.

(٢) أ (موضعه).

(٣) أ، ب، غ (البذل).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ.

(٥) أ (موقع).

(٦) أي وعدم الاستقصاء لها وإنما منها.. وممن جمع أقوالاً نفيسة في هذا الشأن ابن قتيبة في عيون الأخبار، باب الحلم والغضب ١/ ٢٨٢.

(٧) أ، ب، غ، م، ق، ط (بحقوق).

العون علىٰ نيل[١] كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة، قال[٢] تعالىٰ: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ[٣]﴾ [البقرة:١٥٣].

فهذه الثلاثة أشياء: بها يدرك التصوف[٤]، والتصوف: زاوية من زوايا السلوك الحقيقي وهو[٥] تزكية النفس وتهذيبها، لتستعد لسيرها إلىٰ صحبة[٦] الرفيق الأعلىٰ، ومعية[٧] من تحبه، فإن المرء مع من أحب، كما قال سمنون[٨]: ذهب المحبون[٩] بشرف الدنيا والآخرة، فإن المرء مع من أحب[١٠].

---

(١) (نيل) سقطت من أ، ب، غ.

(٢) ط (الله).

(٣) أ، ب، غ، ط تكملة الآية ٤٥ من سورة البقرة ﴿وإنها لكبيرة إلا علىٰ الخاشعين﴾ بدل ﴿إن الله مع الصابرين﴾.

(٤) الأصل (التصرف) والصحيح ما أثبته من أ، ب، غ، م، ش، ط.

(٥) (وهو) سقطت من ط.

(٦) (صحبة) سقطت من ق.

(٧) الأصل (وبقية) والصحيح ما أثبته من أ، ب، غ، م، ق، ط.

(٨) م (سحنون). وسمنون هو المحب بن حمزة الخواص، بصري سكن بغداد، إمام في الورع، ناسك متعبد، أخذ عن السقطي والقلانسي، توفي بنيسابور سنة ٢٩٨هـ/ طبقات الصوفية (١٩٥)، حلية الأولياء (١٠/ ٣٠٩)، تاريخ بغداد (٩/ ٢٣٤)، الكواكب الدرية (١/ ٢/ ٦٣٠).

(٩) ش (المجنوب)، ق (المحنون).

(١٠) الرسالة القشيرية ٤٤٩ وتكملته «لأن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب» فهم مع الله تعالىٰ»، والحديث في البخاري. الأدب (٤/ ١٢٣) ح(٦١٦٨)، ومسلم. البر والصلة (٤/ ٢٠٣٢) ح(٢٦٣٩).

فصـــل

درجات الخلق

الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: أَن تَعرِفَ مَقَامَ الخَلْقِ وَ(١) أَنَّهُم بِأَقْدَارِهِم مَرْبُوطُونَ، وَفِي طَاقَاتِهِم مَحْبُوسُونَ، وَعَلَىٰ الحُكمِ مَوْقُوفُونَ، فَتَستَفِيدُ بِهَذِه المَعرِفَةِ ثَلاثَةَ أَشيَاء: أَمنُ الخَلْقِ مِنكَ، حَتَّىٰ الكَلب، وَمحَبَّةُ الخَلْقِ إِيَّاكَ، وَنَجَاةُ الخَلْقِ بِكَ»(٢).

فبهذه(٣) الدرجة: يكون تحسين الخُلُق مع الخلق في معاملتهم، وكيفية مصاحبتهم.

وبالثانية: تحسين الخلق مع الله في معاملته.

وبالثالثة: درجة الفناء على(٤) أصله.

(٥)فيقال: إذا عرفت مقام الخلق، ومقاديرهم، وجريان الأحكام القدرية عليهم، وأنهم مُقيَّدون بالقدر و(٦)لا خروج لهم عنه البتة، و محسوبون في قدرتهم وطاقتهم، لا يمكنهم تجاوزها إلىٰ غيرها، وأنهم موقوفون علىٰ

(١) (الواو) سقطت من المنازل.

(٢) منازل السائرين ٤٦.

(٣) الأصل (يريد بهذه الدرجة)، م (فهذه) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٤) أ، ب، غ، م، ق، ط زيادة (قاعدته و).

(٥) ط (يقول).

(٦) (الواو) سقطت من أ، ب، غ، ش، م.

الحكم الكوني القدري، لا يتعدونه، استفدت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء:

أمن الخلق منك، وذلك: أنه إذا نظر إليهم بعين الحقيقة، يطالبهم بما لا يقدرون عليه، وامتثل فيهم[1] أمر الله[2] لنبيِّه ﷺ بأخذ العفو منهم، فأمنوا من تكليفه إياهم، وإلزامه[3] ما ليس في قواهم وقدرهم.

وأيضاً فإنهم يأمنون لائمته، فإنه في هذه الحال عاذر لهم فيما يجري عليهم من الأحكام فيما لم يأمر الشرع بإقامته فيهم؛ لأنهم إذا كانوا محبوسين في طاقتهم فينبغي مطالبتهم بما يطالب به المحبوس، وعذرهم بما يُعذر به المحبوس، وإذا بدا منهم في حقِّك تقصير أو إساءة، أو تفريط، فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم؛ بل اغفر لهم ذلك، واعذرهم نظراً إلىٰ جريان الأحكام عليهم، وأنهم آلة، وههنا ينفعك الفناء بشهود الحقيقة[4] عن شهود جنايتهم عليك، [كما قال بعض العارفين لرجل تعدىٰ عليه وظلمه، إن كنت ظالماً فالذي سلَّطك عليَّ ليس بظالم][5].

وههنا للعبد أحد عشر[6] مشهداً فيما يصيبه من أذىٰ الخلق وجنايتهم عليه.

---

(١) ق (فيها).

(٢) ط زيادة (تعالىٰ).

(٣) ط زيادة (لهم).

(٤) شهود الحقيقة تقدم ص١٧١٨.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ.

(٦) الأصل (عشرة مشهداً) و (أحد) ساقطة، وفي أ، ب، غ، م (إحدىٰ عشرة) والأقرب ما أثبته من ط.

مشاهد العبد فيما يصيبه من أذى الخلق

أحدها: المشهد الذي ذكره الشيخ ـ رحمه الله ـ وهو مشهد « القدر » وأن ما جرىٰ عليه: بمشيئة الله وقضائه وقدره، يراه[1] كالتأذي بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار، فإن الكل أوجبته مشيئة الله، فما شاء الله كان، ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده، وإذا شهد هذا: استراح، وعلم أنه كائن لا محالة، فما للجزع منه وجه، وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

[2]**المشهد الثاني**: مشهد «الصبر» فيشهده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام، فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة، وعلم أنه إن لم يصبر علىٰ هذا - وهو محمود - صبر اضطراراً علىٰ أكثر[3] منه، وهو مذموم.

فصل

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم» فإنه[4] متىٰ شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لغبش[5] في بصيرته، فإنه «ما زاد الله

---

(١) ط (فيراه).

(٢) أ، ب، غ، م، ق زيادة (فصل).

(٣) ط (أكبر).

(٤) (فإنه) سقطت من ش.

(٥) ق (الغبش)، أ، ب، غ، ط (العشىٰ).

عبداً بعفوٍ إلا عزاً»[1]، كما صح ذلك[2] عن النبي ﷺ، وعُلم بالتجربة والوجود، وما انتقم أحدٌ[3] لنفسه إلا ذل.

هذا، وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزَّتها[4] ورفعتها[5] عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

فصل

المشهد الرابع: مشهد «الرضىٰ» وهو فوق مشهد «العفو والصفح»، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت[6] به سببه القيام لله، [فإن كان ما أصيب به في الله][7]، [وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله][8] وهذا شأن كل محب صادق، يرضىٰ بما يناله في رضىٰ محبوبه من المكاره،

---

(١) مسلم. البر (٤/ ٢٠٠١) ح(٢٥٨٨)، أحمد (٢/ ٣٨٦)، الترمذي. البر (٤/ ٣٧٦) ح(٢٠٢٩) وقال حديث حسن صحيح.

(٢) (ذلك) سقطت من الأصل والأقرب إثباتها كما في أ، ب، غ، م، ش، ق، ط.

(٣) (أحد) سقطت من أ، ب، غ.

(٤) أ، ب، غ، م، ش، ط (عزها).

(٥) ب (قنعها).

(٦) أ، ب، غ، م (أصيب).

(٧) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ.

(٨) ما بين المعقوفين سقط من غ.

ومتىٰ تسخط به أو[1] تشكىٰ منه، كان ذلك دليلاً علىٰ كذبه في محبته، والواقع شاهد بذلك، والمحب الصادق كما قال[2]:

من أجلك جعلتُ خدِّي أرضاً للشَّامت والحسُود حتَّىٰ ترضَىٰ[3]

ومن لم يرضَ بما يصيبه في سبيل محبوبه، فلينزل عن درجة المحبة، وليتأخر فليس من ذا[4] الشأن.

فصل

المشهد الخامس: مشهد «الإحسان» وهو أرفع مما قبله، وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان، فيحسن إليه كلما أساء هو إليه، ويهون هذا عليه عِلْمُه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدىٰ إليه حسناته، ومحاها من صحيفته، وأثبتها في صحيفة من أساء إليه فينبغي لك أن تشكره، وتحسن إليه بما لا نسبة له إلىٰ ما أحسن به إليك.

وههنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبة ، وهذا المسكين قد وهبك حسناته، فإن كنت من أهل الكرم فأثِبْه عليها، لتثبت الهبة ، وتأمن رجوع الواهب فيها.

---

(١) (الألف) سقطت من ط.

(٢) أ، ب، غ، ط (قيل).

(٣) بيت الشعر: لم أجده.

(٤) غ زيادة (ذي).

وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم، وأهل العزائم.

ويهونُه عليك أيضاً: عِلْمُك بأن[١] الجزاء[٢] من جنس العمل، فإذا[٣] كان هذا عملك في إساءة مخلوق إليك عفوت عنه، وأحسنت إليه، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذلِّك، فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك، يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك، فهذا لا بُدَّ منه، وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأمَّلها.

فصل

المشهد السادس: مشهد «السلامة وبرد القلب» وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه، وذاق حلاوته، وهو أن لا يشغل[٤] قلبه وسره بما ناله من الأذىٰ، وطلب الوصول إلىٰ درك ثأره، وشفاء نفسه؛ بل يفرغ قلبه من ذلك، ويرىٰ أن سلامتَه وبردَه وخلوَّه منه أنفعُ له، وَألَذُّ وأطْيَبُ، وأَعْونُ علىٰ مصالحه، فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده، وخير له منه، فيكون بذلك مغبوناً، والرشيد لا يرضىٰ بذلك، ويراه[٥] من تصرفاته السيئة فأين سلامة القلب من

(١) الأصل (فإن) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ش، ق، ط.

(٢) ط (الجزء).

(٣) أ، ب، غ، ط (فإن).

(٤) أ، ب، غ، م، ق، ط (يشتغل).

(٥) أ، ب، غ، م، ق، ط (ويرىٰ أنه).

امتلائه بالغبن(١) والوسواس(٢)، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام؟.

فصل

المشهد السابع: مشهد «الأمن» فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام: أمن ما هو شر من ذلك، وإذا انتقم: واقعه الخوف ولا بد، فإن ذلك يزرع العداوة، والعاقل لا يأمن عدوه، ولو كان حقيراً، فكم من حقير أردىٰ عدوه الكبير؟ فإذا غفر، ولم ينتقم، ولم يقابل(٣): أمن من تولد العداوة، أو زيادتها، ولا بد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه، ويكف من عزمه(٤)، (٥)بعكس الانتقام، والواقع شاهد بذلك أيضاً.

فصل

المشهد الثامن: مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذىٰ الناس له من جهاده في سبيل الله، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإقامة دين الله، وإعلاء كلماته.

---

(١) ط (الغِلّ).

(٢) أ، ب، غ، م، ش، ق، ط (الوساوس).

(٣) أ (يقاوم).

(٤) الأصل (غربه) و ط (جزعه) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ق، م.

(٥) ق (عنه).

وصاحب هذا المقام: قد اشترىٰ اللهُ منه نفسَه ومالَه وعرضَه بأعظم الثمن، فإن أراد أن يُسَلَّم إليه الثمن فليُسلِّم هو السلعة ليستحق ثمنها، فلا حق له علىٰ من آذاه، ولا شيء له قِبَله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع، فإنه قد وجب أجره علىٰ الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سُكنىٰ مكة – أعزّها الله(١)– ولم يردّ علىٰ أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمِّنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

ولما عزم الصدِّيق – رضي الله عنه – تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم، قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه – بمشهد من الصحابة – رضي الله عنهم –: «تلك دماء وأموال ذهبت في الله، وأجورها علىٰ الله، ولا دية لشهيد»، فأصفق(٢) الصحابة علىٰ قول عمر، ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتىٰ أوذي في الله: حرم(٣) عليه الانتقام، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

---

(١) منع المهاجرين سكنىٰ مكة في البخاري. مناقب الأنصار (٣/ ٧٨) ح(٣٩٣٣) وأجاز ذلك جماعة من أهل العلم وذلك بعد الفتح، انظر الأقوال في فتح الباري (١٧/ ٣١٣ ـ ٣١٤)، مسلم. الحج (٢/ ٩٨٥) ح(١٣٥٢).

(٢) أصفق: الصفقة: الاجتماع علىٰ الشيء، أصفقوا علىٰ الأمر اجتمعوا عليه، أطبقوا، لسان العرب ١٠/ ٢٠١.

(٣) أ، ب، غ، ق، ط زيادة (الله).

فصـــل

المشهد التاسع: مشهد «النِّعمة» وذلك من وجوه:

أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوماً يترقب النصر، ولم يجعله ظالماً يترقب[1] المقت والأخذ، فلو خُيِّر العاقل بين الحالتين - ولا بد من إحداهما - لاختار أن يكون مظلوماً.

ومنها: أن يشهد نعمة الله عليه[2] في التكفير بذلك من خطاياه، فإنه ما أصاب المؤمن[3] من هم ولا غم ولا أذىٰ، إلا كفر الله به من خطاياه[4]، فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب، ومن رضي أن يلقىٰ الله بأدوائه كلها وأسقامه، ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء: فهو مغبون سفيه، فأذىٰ الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك، فلا تنظر إلىٰ مرارة الدواء وكراهته ومن كان علىٰ يديه، وانظر إلىٰ شفقة الطبيب الذي ركبه لك، وبعثه إليك علىٰ يدي من نفعك بمضرته.

ومنها أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها، فإنه ما من محنة إلا

---

(١) ق، ش (يرتقب).

(٢) (عليه) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(٣) ب، م (مؤمن).

(٤) الحديث: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن...» البخاري. المرضىٰ (٤/ ٢٣) ح(٥٦٤١)، مسلم. البر والصلة (٤/ ١٩٩٢) ح(٥٧٢).

وفوقها ما هو أقوىٰ منها وأمر، فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلىٰ سلامة دينه وإسلامه وتوحيده، وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين جلل(١)، وأنها في الحقيقة نعمة، والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين.

ومنها توفية أجرها يوم الفقر والفاقة، وفي بعض الآثار: أنه يتمنىٰ أناس يوم القيامة(٢) أنّ جلودهم(٣) كانت(٤) تُقْرض بالمقاريض، لما يرونه من ثواب أهل البلاء.

هذا، وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له قِبَلَ الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض، فالعاقل يَعُدّ هذا ذُخْراً ليوم الفقر والفاقة، ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئاً.

فصل

المشهد العاشر: مشهد «الأسْوة» وهو مشهد(٥) لطيف شريف(٦) جداً، فإن العاقل اللبيب يرضىٰ أن يكون له أسوة برسُل الله، وأنبيائه(٧) وأوليائه، وخاصته

(١) أ، ب، غ، م، س، ق، ط (فهينة).

(٢) ط زيادة (لو).

(٣) في حاشية ش (أبدانهم).

(٤) (كانت) سقطت من أ، ب.

(٥) (وهو مشهد) سقط من أ، غ.

(٦) ق (شريف لطيف).

(٧) أ، ب (أنبياء الله).

من خلقه، فإنهم أشدُّ الخلق امتحاناً بالناس، وأذىٰ الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور ويكفي تدبر قصص الأنبياء ـ عَليهم السلام ـ مع أممهم، وشأن نبينا ﷺ وأذىٰ أعدائه له بما لم يُؤذَ به من[1] قبله، وقد قال له ورقة بن نوفل: «لتكذّبنّ، ولتُخرجنّ، ولتؤْذَينَّ»[2]، وقال له: «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي»[3]، وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ.

أفلا يرضىٰ العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله، وخواص عباده[4]: الأمثل فالأمثل[5]؟.

ومن أحب معرفة ذلك فليقف علىٰ مِحَن العلماء، وأذىٰ الجهال لهم، وقد صنف في ذلك ابن عبد البر كتاباً أسماه «محن العلماء»[6].

---

(١) (يؤذ به من) سقطت من الأصل، وفي أ، ب، غ، ط (يؤذه من) وما أثبته من م، ق.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٢.

(٣) البخاري. بدء الوحي (١/ ١٤) ح(٣)، مسلم. الإيمان (١/ ١٤٢) ح(١٦٠).

(٤) أ، ب (خلقه).

(٥) لحديث: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل..»، الترمذي (٤/ ٦٠١) ح(٢٤٠٤) وقال حسن صحيح، الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٨٦)، وصححه، وابن حبان (٧/ ١٦٠)، وحسنه الألباني في المشكاة (١/ ٤٩٢) ح(١٥٦٢).

(٦) كتاب «محن العلماء» لابن عبد البر، ذكر ذلك ليث بن سعود بن جاسم في رسالته: ابن عبدالبر وجهوده في التاريخ، والدكتور سليمان الغصن في رسالته عقيدة ابن عبدالبر.

فصــل

المـشهد الحـادي عـشر [وهـو مـن أجـلِّ المـشاهد وأرفعهـا][(١)]: مـشهد «التوحيد»، فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرب إليه وقرة عينه[(٢)]، [وابتهج قلبه بحبه][(٣)] والأنس به، والاطمئنان إليه، وسكن إليه واشتاق إلىٰ لقائه، واتخذه ولياً دون ما[(٤)] سواه، بحيث فَوَّض إليه أموره كلها، ورضي به وبأقضيته[(٥)]، وفني بحبه وخوفه ورجائه وذكره، والتوكل عليه، عن كل ما سواه: فإنه لا يبقىٰ في قلبه متسع لشهود أذىٰ الناس له البتة، فضلاً عن أن يشغل قلبه وفكره وسرَّه بتطلب الانتقام والمقابلة، فهذا لا يكون إلا من قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه، فهو قلب جائع غير شبعان، فإذا رأىٰ أيَّ طعام رآه هفت[(٦)] إليه نوازعه، وانبعثت إليه دواعيه، وأما من امتلأ قلبه بأعلىٰ الأغذية وأشرفها: فإنه لا يلتفت إلىٰ ما دونها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) ما بين المعقوفين تأخر ذكره إلىٰ ما بعد كلمة التوحيد في أ، ب، ش، ط.

(٢) أ، ب، غ، ط (العين به)، م، ق، ش (عينه بالله).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ، ط.

(٤) ط (من).

(٥) ب (باقتضائه).

(٦) هفت: هفت النفس إلىٰ الشيء حنَّت واشتاقت، أو طربت، المعجم الوسيط ٢/ ٩٨٩.

فصل

وأما قوله: «أنه[1] يستفيد بمعرفة أقدار[2] الناس، وجريان الأحكام عليهم:[3] محبتهم له، ونجاتهم به».

فلأنه إذا عاملهم بهذه المعاملة: من إقامة أعذارهم، والعفو عنهم، وترك مقابلتهم: اشتدت[4][5] محبتهم له، وكان ذلك سبباً لنجاتهم الأخروية أيضاً، إذ يرشدهم ذلك إلىٰ القبول منه، وتلقي ما يأمرهم به، وينهاهم عنه أحسن التلقي، هذه طباع الناس.

فصل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: تَحسِينُ خُلُقِكَ مَعَ الحَقِّ، وَتَحسِينُهُ مِنكَ: أَنْ تَعلَمَ أَنَّ كُلَّ مَا يَأتِي مِنكَ يُوجِبُ عُذْراً، وَأَن كُلّ[6] مِنَ الحَقِّ يُوجِبُ شُكراً، وَأَن لَا تَرَىٰ لَهُ مِنَ الوَفَاءِ بُدّاً»[7].

---

(١) م، أ، ب، غ، ط (أن)، ق (أنا نستفيد).

(٢) أ (أقدر).

(٣) م زيادة (واو).

(٤) أ، ب، غ، ط (استوت).

(٥) ط زيادة (كراهتهم و).

(٦) المنازل (وكل ما يأتي)، غ (وإنما كلما).

(٧) منازل السائرين (٤٦).

هذه الدرجة مبنية علىٰ قاعدتين:

إحداهما: أن تعلم أنك ناقص، وكلُّ ما يأتي من الناقص ناقص[1]، فهو يوجب اعتذاره منه لا محالة، فعلىٰ العبد أن يعتذر إلىٰ ربه من كل ما يأتي به من خير وشر، أما الشر فظاهر، وأما الخير، فيعتذر من نقصانه، ولا يراه صالحاً لربه[2].

فهو - مع إحسانه - معتذر في إحسانه، ولذلك[3] مدح الله أولياءه بالوجل منه مع إحسانهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وقال النبي ﷺ: «هو الرجل يصوم، ويتصدّق، ويخاف أن لا يقبل منه»[4]، فإذا خاف فهو بالاعتذار أولىٰ.

والحامل له علىٰ هذا الاعتذار أمران.

أحدهما: شهود تقصيره ونقصانه.

والثاني: صدق محبته، فإن المحب الصادق يتقرب إلىٰ محبوبه بغاية

---

(١) (ناقص) سقطت من أ، ب.

(٢) ومن ذلك مشروعية الاستغفار بعد الصلاة.

(٣) ب (ولهذا).

(٤) أخرجه من حديث عائشة، أحمد (٦/ ١٩٥)، الترمذي في التفسير والقرآن (٥/ ٣٢٧) ح(٣١٧٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٤) ح(٤٢٠٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٧)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢/ ٤٠٨) ح(٤١٩٨).

إمكانه، وهو معتذر إليه [غاية الاعتذار][١] مستحي[٢] منه: أن يواجهه بما واجهه به،[٣] يرىٰ أن قدره فوقه وأجل منه، وهذا مشاهد في محبة المخلوقين.

القاعدة الثانية: استعظام كل ما يصدر منه سبحانه إليك، والاعتراف بأنه يوجب الشكر عليك، وأنك عاجز عن شكره، ولا يتبين هذا إلا في المحبة الصادقة، فإن المحب يستكثر من محبوبه كل ما يناله منه[٤] فإذا ذكره بشيء وأعطاه إياه[٥]: كان سروره بذكره له، وتأهيله لعطائه[٦]: أعظم عنده من سروره بذلك العطاء[٧]؛ بل يغيب بسروره[٨] بذكره له عن سروره بالعطية، وإذا[٩] كان المحب يسرُّه ذكر محبوبه له، وإن ناله بمساءة، كما قال القائل:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة فقد[١٠] سرَّني أني خطرت ببالكا[١١]

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من ط.

(٢) ش (يستحق)، ب (يستحي).

(٣) ط (وهو).

(٤) (منه) سقطت من ط.

(٥) (إياه) سقطت من أ، ب، غ.

(٦) م، ش (بعطائه).

(٧) الأصل (المعطاء) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ق، ط.

(٨) الأصل (سروره) والأقرب ما أثبته من ش، م، ط.

(٩) أ، ب، غ، ط (وإن).

(١٠) م، أ، ب، غ، ط (لقد).

(١١) القائل: عبد الصمد بن المعذِّل، انظر ديوانه ١٥٢.

فكيف إذا ناله محبوبه بمسرة - وإن دقت - فإنه لا يراها إلا جليلة خطيرة، فكيف هذا مع أن[١] الرب سبحانه[٢] وتعالىٰ[٣] لا يأتي منه[٤] أبداً إلا الخير[٥]؟ ويستحيل خلاف ذلك في حقه، كما يستحيل عليه خلاف كماله، وقد أفصح أعرف الخلق بربه عن هذا بقوله: «والشرُّ ليس إليك»[٦]، أي لا يضاف إليك، ولا ينسب إليك، ولا يصدر منك، فإن أسماءه كلها حسنىٰ، وصفاته كلها كمال، وأفعاله كلها فضل وعدل، وحكمة ورحمة ومصلحة، فبأي وجه ينسب الشر إليه سبحانه وتعالىٰ؟ فكل ما يأتي منه فله[٧] الحمد والشكر، وله فيه النعمة والفضل.

قوله: «وَأَنْ لاَ تَرَىٰ[٨] مِنَ الوَفَاءِ بُداً».

---

(١) (أن) سقطت من الأصل والأقرب إثباتها كما في م، ش.

(٢) (سبحانه) سقطت من ط.

(٣) أ، ب، غ، ط زيادة (الذي).

(٤) (منه) سقطت من ط.

(٥) ط (إلا بالخير).

(٦) مسلم. صلاة المسافرين (١/ ٥٣٥) ح(٧٧١)، أحمد (١/ ١٠٢)، أبو داود. الصلاة (١/ ٤٨٢) ح(٧٦٠)، الترمذي. الدعوات (٥/ ٤٨٦) ح(٣٤٢٢) وقال حسن صحيح، الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٥)، وقال صحيح علىٰ شرط الشيخين، وفي معنىٰ الحديث انظر شرح النووي لصحيح مسلم (٥ ـ ٦/ ٣٠٦) ح(٧٧١).

(٧) أ، ب، غ، س، م، ق، ط زيادة (عليه).

(٨) ط (يرىٰ).

يعني: أن معاملتك للحق سبحانه بمقتضىٰ الاعتذار من كل ما منك، والشكر علىٰ ما منه: عقد مع الله تعالىٰ، لازم لك أبداً، لا ترىٰ من الوفاء به لله[1] بداً، فليس ذلك بأمر عارض، وحال يحول؛ بل عقد، لازم عليك الوفاءُ به إلىٰ يوم القيامة.

فصل

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: التَّخَلُّقُ[2] بِتَصفِيَةِ الخُلُقِ، ثُمَّ الصُّعُودُ عَنْ تَفْرِقَةِ التَّخَلُّقِ، ثُمَّ التَّخَلُّقُ بِمُجَاوَزَةِ الأَخلاَقِ»[3].

هذه الدرجة[4]،[5] ثلاثة أشياء:

أحدها: تصفية الخلق بتكميل ما ذكر في الدرجتين قبله، فيصفيه من كل شائبة وقذىٰ ومشوش، فإذا فعلت ذلك صعدت من تفرقته إلىٰ جمعيتك علىٰ الله، فإن التخلق والتصوف، تهذيب واستعداد[6] للجمعية، وإنما سماه تفرقة: لأنه اشتغال بالغير، والسلوك يقتضي الإقبال بالكلية، والاشتغال بالرب وحده عما سواه.

---

(١) (لفظ الجلالة) سقط من أ، ب، غ، ط.

(٢) ش (التخلص).

(٣) منازل السائرين (٤٦).

(٤) (هذه الدرجة) سقطت من أ، ب.

(٥) ق زيادة (تتضمن).

(٦) (واستعداد) سقط من أ، ب، غ.

ثم يصعد إلىٰ ما[1] فوق ذلك، وهو مجاوزة الأخلاق كلها بأن يغيب عن الخلق والتخلق، وهذه الغيبة لها مرتبتان عندهم.

إحداهما: الاشتغال بالله عزّ وجل[2] عن كل ما سواه.

والثانية: الفناء في الفردانية التي يسمونها «حضرة الجمع»[3] وهي أعلىٰ الغايات عندهم، وهي موهبية لا كسبية؛ لكن العبد إذا تعرض وصدق في الطلب: رجي[4] له الظفر بمطلوبه، والله أعلم.

فصل

ومدار[5] حسن الخلق مع الحق، ومع الخلق: علىٰ حرفين، ذكرهما الشيخ[6] عبدالقادر الكيلاني[7] - رحمه الله -[8] فقال: كن مع الحق بلا خلق، ومع

(١) (الميم) سقطت من ش.

(٢) (عز وجل) سقطت من ق.

(٣) انظر لطائف الإعلام (٢/ ٢١٩ ـ ٢٢١)، التعاريف للمناوي (٢/ ٢٥٢).

(٤) الأصل (رجىٰ) والأقرب ما أثبته من ق.

(٥) (مدار) سقطت من أ.

(٦) (الشيخ) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(٧) في حاشية م (الجيلاني) وهو عبد القادر بن موسىٰ بن عبد الله الكيلاني أو الجيلاني، صوفي تنسب إليه الطريقة القادرية، ولد سنة ٤٧٠هـ، ودخل بغداد وتفقه بها، وتوفي سنة ٥٦١هـ/ شذرات الذهب (٤/ ١٩٨)، طبقات الأولياء (١٩٣)، باسم عبد القادر بن أبي صالح الجيلي قطب العارفين، معجم المؤلفين (٥/ ٣٠٧).

(٨) (رحمه الله) سقطت من ط.

الخلق بلا نفس[١].

فتأمل، ما أجل هاتين الكلمتين، مع اختصارهما، وما أجمعهما لقواعد السلوك، ولكل خلق جميل! وفساد الخلق إنما ينشأ من توسط الخلق بينك وبين الله[٢]، وتوسط النفس بينك وبين خلقه، فمتىٰ عزلت الخلق - حال كونك[٣] مع الله[٤] - وعزلت النفس - حال كونك مع الخلق - فقد فزت بكل ما أشار إليه القوم، وشمروا إليه، وحاموا حوله، والله المستعان.

* * *

(١) ذكره المناوي في التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ٢/ ٢٥٢ دون نسبة، ومعناه في حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٣.

(٢) ط زيادة (تعالىٰ).

(٣) ق (كونها).

(٤) ط (تعالىٰ).

فصل[1]

منزلة التواضع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : « التواضع »[2] .

وتعريفه

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أي سكينة ووقاراً متواضعين ، غير أَشِرين[3] ولا مَرِحين ولا مُتكبّرين ، قال الحسن : علماء حلماء[4] ، وقال محمد بن الحنفية[5] : أصحاب وقار وعفة لا

---

(١) في حاشية الأصل (باب التواضع).

(٢) التواضع : هو خفض الجناح وكسر الجانب ، وضبط الأحوال الاختيارية عن التفريط والإفراط والانقياد للحق بسهولة ، ومنه أن لا تعارض منقولاً بمعقول ، وترك جميع المطالب بحيث لا يريد من الحق إلا ما أراده ، وأن تنزل عند رسمك ، لتفنيه الحقيقة ، ومع الخلق انتفاء الخضوع عند الحاجة ، وانتفاء الجفاء عند الغنىٰ ، واللين مع الناس ، والزهد بما في أيديهم ، والتذلل لعلام الغيوب ، وقبول الحق من الحق للحق. انظر التعرف ١١٤ ، روضة الطالبين ٩٩ ضمن رسائل الغزالي ٢ ، لطائف الإعلام ١/ ٣٦٢ ، معجم مصطلحات الصوفية ٥١ ، إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٥٢ - ٣٦٤ ، الرسالة القشيرية ٢٣٨ - ٢٤٥.

(٣) أشرين : الأشر البطر ، مختار الصحاح ١٧.

(٤) الطبري ١٩/ ٢٢ ، ابن كثير ٣/ ٤٠٤ ، تفسير البغوي ٣/ ٣٧٥ ، الدر المنثور ٦/ ٢٧٣ وعزاه لابن عباس في ٦/ ٢٧٣ وانظر جميع الأقوال في تفسير الحسن البصري ، جمع وتوثيق ودراسة د/ محمد عبد الرحيم ٢/ ١٧١.

(٥) محمد بن علي بن أبي طالب ، ابن الحنفية ، أخو الحسن والحسين وأمه من سبي اليمامة ، وهو من كبار التابعين ، ولد في العام الذي توفي فيه أبو بكر الصديق ، توفي سنة ٨١هـ ، طبقات ابن سعد (٥/ ٩١) ، العبر (١/ ٩٣) ، البداية والنهاية (٩/ ٣٨) ، سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٠).

يسفهون ، وإن سُفه عليهم حلموا[1].

«والهون» بالفتح في اللغة : الرفق واللين ، و«الهون» بالضم : الهوان[2][3]، فالمفتوح منه صفة أهل الإيمان ، والمضموم : صفة أهل الكفران ، وجزاؤهم من الله تعالىٰ[4].

أدلته ومنزلته من الدين

وقال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة : ٥٤].

لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عدّاه بأداة «علىٰ[5]» تضميناً لمعاني هذه الأفعال ، فإنه لم يُرد به ذلَّ الهوان الذي صاحبُه ذليل ، وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول ، فالمؤمن ذلول ، كما في الحديث : «المؤمن كالجمل الذَّلول ، والمنافق والفاسق ذليل»[6] وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق : الكذاب ، والنمام ، والبخيل ، والجبار[7].

---

(١) أخرج نحو هذه الأقوال الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٤ ، وبهذا اللفظ أورده البغوي في التفسير البغوي ٣/ ٣٧٥.

(٢) (الهوان) سقطت من ق.

(٣) انظر لسان العرب (١٣/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩) .

(٤) أ ، ب ، غ ، م ، ط (النيران) بدل (تعالىٰ).

(٥) ق (إلىٰ).

(٦) لم أجده.

(٧) ق (الجبان) ، ش ، م (الجنان).

وقوله : ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هو من عزة القوة والمنعة والغلبة ، قال عطاء - رَضي الله عنه - : للمؤمنين كالولد لوالده[١] ، وعلىٰ الكافرين[٢] كالسبع علىٰ فريسته[٣].

كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح :٢٩] وهذا عكس حال من قيل فيهم :

كِبراً علينا ، وجُبناً عن[٤] عدوكم لبئست الخلّتان : الكِبر والجُبن[٥]

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار - رَضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن الله أوحىٰ إليّ: أن تواضعوا، حتىٰ لا يفخر أحدٌ علىٰ أحد ، ولا يبغي أحد علىٰ أحد**»[٦].

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود - رَضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[٧].

---

(١) ط (كالوالد لولده) وهو خلاف ما في تفسير البغوي ، وهو مردود من حيث المعنىٰ.

(٢) أ ، ب ، غ (الكافر).

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٧ ، وعزاه القرطبي لابن عباس ٦/ ٢٢٠ ، ١٦/ ٢٩٢.

(٤) ط (من).

(٥) القائل هو ابن أم صاحب كما في مجمع الحكم والأمثال ٦١ ، تاريخ الطبري ٤/ ٥٣٤ أوله «جهلاً علي وجبناً عن عدوهم».

(٦) أخرجه من حديث عياض بن حمار - رَضي الله عنه - : مسلم. الجنة وصفتها (٤/ ٢١٩٧) ح(٢٨٦٥) ، أبو داود. الأدب (٥/ ٢٠٣) ح(٤٨٩٥).

(٧) أخرجه من حديث عبدالله بن مسعود : مسلم. الإيمان (١/ ٩٢) ح(٩١) ، أبو داود. اللباس (٤/ ٣٥١) ح(٤٠٩١) ، الترمذي. البر (٤/ ٣٦١) ح(١٩٩٩) وقال حسن صحيح غريب.

وفي الصحيحين مرفوعاً «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍ جوَّاظ مستكبر»(١).

وفي حديث احتجاج الجنة والنار «أن النار قالت: ما لي لا يدخلني إلا الجبارون، والمتكبرون؟[وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطهم](٢)»(٣)، وهو في الصحيح.

وفي صحيح مسلم عن(٤) أبي هريرة - رَضي الله عنه - قال(٥): قال رسول الله ﷺ يقول الله عزَّ وجل(٦): «العزة إزاري والكبرياء ردائي(٧) فمن ينازعني(٨)(٩)عذبته»(١٠).

---

(١) أخرجه من حديث حارثة بن وهب الخزاعي: البخاري. الأدب (٤/ ١٠٤) ح(٦٠٧١)، مسلم. صفة الجنة (٤/ ٢١٩٠) ح(٢٨٥٣).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من الأصل وهو في البخاري ومسلم وأ، ب، غ، م، ط.

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة: البخاري. التفسير (٣/ ٢٩٦) ح(٤٨٥٠)، مسلم. الجنة (٤/ ٢١٨٦) ح(٢٨٤٦)، أحمد (٢/ ٥٠٧).

(٤) ط (عن أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة) وهو في مسلم أيضاً.

(٥) ط (قالا).

(٦) (يقول الله عزّ وجل) ساقطة من ط.

(٧) الأصل (العزة إزاري، والكبرياء ردائي) وما أثبته من مسلم، ط.

(٨) ط (نازعني).

(٩) الأصل (فقد) وليست في مسلم، ط.

(١٠) أخرجه من طريق أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما مسلم. البر والصلة (٤/ ٢٠٢٣) ح(٢٦٢٠)، أبو داود. اللباس (٤/ ٣٥٠) ح(٤٠٩٠) بلفظ «قال الله عزّ وجل: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار».

وفي جامع الترمذي مرفوعاً : «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتىٰ يُكتب في ديوان الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم»[1].

وكان النبي ﷺ يمر علىٰ الصبيان فيسلم عليهم»[2].

وكانت الأمَة تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت[3].

وكان إذا أكل لعق أصابعه الثلاث[4].

وكان ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله[5] ، ولم يكن ينتقم[6] لنفسه قط[7].

---

(١) أخرجه من حديث سلمة بن الأكوع عن أبيه الترمذي في البر والصلة (٤/ ٣٦٢) ح(٢٠٠٠) وقال حسن غريب ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٥٨) ، وقال ابن عدي في الكامل (٥/ ١٦) ، فيه عمر بن راشد وهو إلىٰ الضعف أقرب منه إلىٰ الصدق.

(٢) البخاري. الاستئذان (٤/ ١٤٠) ح(٦٢٤٧) ، مسلم. السلام (٤/ ١٧٠٨) ح(٢١٦٨) ، الترمذي. الاستئذان (٥/ ٥٧) ح(٢٦٩٦).

(٣) البخاري. الأدب تعليقاً (٤/ ١٠٤) ح(٦٠٧٢) ، أحمد (٣/ ٩٨) ، وصححه الألباني كما في صحيح ابن ماجه. الزهد (٢/ ٤٠٦) ح(٤١٧٧).

(٤) مسلم. الأشربة (٣/ ١٦٠٧) ح(٢٠٣٤) ، أحمد (٣/ ٣٩٠) ، الترمذي. الأشربة (٤/ ٢٥٩) ح(١٨٠٣) وقال حسن غريب ، أبو داود. الأطعمة (٤/ ١٨٣) ح(٣٨٤٥).

(٥) البخاري. الأذان (١/ ٢٢٤) ح(٦٧٦) ، أحمد (٦/ ٤٩) ، الترمذي. صفة القيامة (٤/ ٦٥٤) ح(٢٤٨٩).

(٦) الأصل (منتقم) والصحيح ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، س ، ق ، ط.

(٧) البخاري في الأدب (٢/ ٥١٨) ح(٣٥٦٠) ، مسلم. الفضائل (٤/ ١٨١٣) ح(٢٣٢٧).

وكان[1] يخصف نعله، ويرقع ثوبه [2]، ويحلب الشاة لأهله [3]، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم[4]، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم[5] في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام [6]، ويجيب دعوة من دعاه ولو إلىٰ أيسر شيء [7].

وكان ﷺ هيّن المؤنة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذلّة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب، رحيماً بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، ليّن الجانب لهم.

وقال ﷺ: «ألا[8] أخبركم بمن[9] يحرم علىٰ النار؟ - أو تحرم عليه النار -

---

(١) ط (ﷺ).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٠٦)، وابن حبان في صحيحه (١٢/ ٤٩٠)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٧/ ٤٢٢)، وصححه العراقي في تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين (٣/ ١٢٩).

(٣) ابن ماجه. الطهارة (١/ ١٦٧) ح(٥٠١)، صحيح ابن حبان (١٢/ ٤٨٩)، وقال البوصيري فيه زمعة بن صالح ضعيف، مصباح الزجاجة (١/ ٧٢).

(٤) البخاري. الأطعمة (٣/ ٤٤٧) ح(٥٤٦٠).

(٥) السنن الكبرىٰ للنسائي (١/ ٥٣١) ح(١٧٢٢)، الدارمي. التواضع (١/ ٤٨)، صحيح ابن حبان (١٤/ ٣٣٤)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٤) وقال علىٰ شرطهما وقواه الذهبي.

(٦) والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٩)، وذكره ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣٣) فيه من لم يسمَّ.

(٧) شاهده سوف يرد قريباً.

(٨) (الألف) سقطت من ب.

(٩) ق (من).

تحرم على كل قريب هيِّن ليِّن سهل» رواه الترمذي، وقال: حديث[١] حسن[٢].

وقال: «لو دُعيت إلى ذارع - أو كراع[٣] - لأجبت، ولو أهدي إليَّ ذراع - أو كراع[٤] - لقبلت» رواه البخاري[٥].

وكان[٦] يعود المريض[٧]، ويشهد الجنازة[٨]، ويركب الحمار[٩]، ويجيب دعوة العبد[١٠].

---

(١) (حديث) سقطت من الأصل، والصحيح إثباتها كما في بقية النسخ والترمذي.

(٢) الترمذي. صفة القيامة (٤/ ٦٥٤) ح(٢٤٨٨) وقال حديث حسن غريب، أحمد (١/ ٤١٥)، الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٨٥) ح(١٠٥٦٢)، مجمع الزوائد (٤/ ٧٥)، وعزاه للطبراني في الأوسط وفيه من لا يُعرف، رقمه في المشكاة (٥٠٨٤)، شرح السنة (١/ ٩٤)، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٩٣٨).

(٣) أ، ب، غ (كراع أو ذراع)، هو خلاف الأصل والبخاري.

(٤) أ، ب، غ (كراع أو ذراع)، هو خلاف الأصل والبخاري.

(٥) البخاري في الهبة (٢/ ٢٢٧) ح(٢٥٦٨)، أحمد (٢/ ٤٢٤).

(٦) ط (ﷺ).

(٧) عاد رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص كما في البخاري. النفقات (٣/ ٤٢٤) ح(٥٣٥٤)، ومسلم الوصية (٣/ ١٢٥٠) ح(١٦٢٨).

(٨) شهود الجنائز فيه حديث البراء أخرجه أبو داود في السنة (٥/ ١١٤) ح(٤٧٥٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٥٤)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٤٩).

(٩) ورد ركوبه ﷺ الحمار في البخاري. الجهاد والسير (٢/ ٣٥٥) ح(٢٩١٧)، ومسلم. الجهاد والسير (٣/ ١٤٢٢) ح(١٣٩٨).

(١٠) سوف يأتي دليله قريباً.

وكان يوم[١] قريظة علىٰ حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف[٢] من ليف»[٣].

فصل

أقوال مأثورة في التواضع

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله[٤].

وقيل: التواضع أن لا ترىٰ لنفسك قيمة، فمن رأىٰ لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

وهذا مذهب الفضيل وغيره.

وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب[٥].

---

(١) حاشية م (بني).

(٢) إكاف: الإكاف من المراكب شبه (الرِّحال) (والأقتاب) لسان العرب (٩/ ٨).

(٣) أخرجه من حديث أنس، الترمذي في الجنائز (٣/ ٣٢٨) ح(١٠١٧) وقال لا نعرفه إلا من حديث مسلم بن الأعور، ثم قال: يضعّف ومسلم بن كيسان تكلم فيه، وأخرجه ابن ماجه في الزهد (٢/ ١٣٩٨) ح(٤١٧٨)، وفيه إجابة دعوة العبد، وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٧٠).

(٤) إحياء علوم الدين مع إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٢٥٩)، الرسالة القشيرية (٢٤١)، طبقات السلمي (ص١٢).

(٥) الرسالة القشيرية (٢٤١)، التعرف (١١٤) وعزاه لعوارف المعارف.

وقال أبو يزيد[١] - رحمه الله - : هو أن لا يرىٰ لنفسه مقاماً ولا حالاً، ولا يرىٰ في الخلق شراً منه[٢].

وقال ابن عطاء - رَحمه الله[٣] - : هو قبول الحق ممن كان، والعزُّ في التواضع، فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب[٤] الماء من النار[٥].

وقال إبراهيم بن شيبان : الشرف في التواضع، والعز في التقوىٰ، والحرية في القناعة[٦].

ويذكر عن سفيان الثوري - رضي الله عنه -[٧] أنه قال : أعز الخلق خمسة أنفس : عالم زاهد وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر، وشريف سُنِّي[٨].

وقال عروة بن الزبير -رضي الله عنهما- : رأيت عمر بن الخطاب -رَضي

---

(١) ط زيادة (البسطامي).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٢)، الرسالة القشيرية (٢٤٢)، حلية الأولياء (١٠/ ٣٦) ونحوه عن الفضيل في الرسالة القشيرية ص٢٤١.

(٣) (رحمه الله) سقطت من ط.

(٤) ب (كمتطلب).

(٥) الرسالة القشيرية ٢٤٢، طبقات السلمي ٣٩٦، وفي التعرف ١٤ قبول الحق من الحق للحق.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٤٢، إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٥٥ وقال العراقي رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلاً أوله من رواية الحسن بن سمرة وقال صحيح الإسناد.

(٧) ط (رحمه الله).

(٨) الرسالة القشيرية (٢٤٢).

الله عنه ـ علىٰ عاتقه قِربة ماء[١] ، قلت[٢] : «يا أمير المؤمنين ، لا ينبغي لك هذا ، فقال : لما أتاني الوفود سامعين مطيعين ، دخلت نفسي نخوة فأحببت[٣] أن أكسرها»[٤].

وولي أبو هريرة ـ رَضي الله عنه ـ إمارةً مرة ، فكان يحمل حُزمة الحطب علىٰ ظهره وهو يقول[٥] : طرِّقوا للأمير[٦].

وركب زيد بن ثابت – رضي الله عنه –[٧] فدنا ابن عباس – رضي الله عنهما –[٨] ليأخذ بركابه ، فقال : مَهْ يا ابن عم رسول الله! فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا ، فقال زيد :[٩] أرني يدك ، فأخرجها إليه فقبلها ، وقال[١٠] : هكذا أُمرنا أن[١١] نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ[١٢].

---

(١) (ماء) سقطت من ب.

(٢) ط (فقلت).

(٣) أ ، ب ، غ ، ط (فأردت).

(٤) الرسالة القشيرية ٢٤٢ ، البداية والنهاية ٧/ ١٣٥ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٢٩.

(٥) أ ، ب ، غ ، ط (ويقول) بدل (وهو).

(٦) الرسالة القشيرية ٢٤٣ ، حلية الأولياء ٢/ ٢.

(٧) (رضي الله عنه) سقطت من ط وبدلها لفظة (مرة) في أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط.

(٨) (رضي الله عنهما) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٩) (زيد) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(١٠) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط (فقال).

(١١) (أن) سقطت من ط.

(١٢) الرسالة القشيرية ٢٤٢ ، جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٢٨.

وقسم عمر بن الخطاب بين الصحابة[١] حللاً ، فبعث إلىٰ معاذ حُلّة مثمنة[٢]، فباعها ، واشترىٰ بثمنها ستة أعبدٍ وأعتقهم[٣] ، فبلغ[٤] عمر ، [فبعث إليه بعد ذلك][٥] حلة دونها ، فعاتبه معاذ ، فقال[٦] : لأنك بعت الأولىٰ ، فقال معاذ : وما عليك؟ ادفع إلي[٧] نصيبي ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك. فقال عمر - رَضي الله عنه - : رأسي بين يديك ، وقد يرفق الشاب بالشيخ[٨].

ومر الحسن[٩] علىٰ صبيان معهم كِسر خبز ، فاستضافوه ، فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلىٰ منزله ، فأطعمهم وكساهم ، وقال اليد لهم ، لأنهم لا[١٠] يجدون شيئاً غير ما أطعموني ، ونحن نجد أكثر منه[١١].

---

(١) ط زيادة (رضي الله عنهم).

(٢) مثمنة : الشيء المثمن هو ما جعل له ، ثمانية أركان ، لسان العرب ١٣/ ٨٣ ، هذا علىٰ تشديد (مثمّنة) وإذا كانت (مثمنة) بدون تشديد ، فهو دليل علىٰ ارتفاع سعرها.

(٣) أ ، ب (فأعتقهم).

(٤) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط زيادة (ذلك).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من أ.

(٦) ط زيادة (عمر).

(٧) ط (لي).

(٨) الرسالة القشيرية ٢٤٥.

(٩) ق (بن علي بصبيان) و في الرسالة القشيرية (الحسن بن علي) ص٢٤٥.

(١٠) ق ، م (لم) بدل (لا).

(١١) الرسالة القشيرية (٢٤٥).

ويذكر أن أبا ذر - رَضي الله عنه - عيَّر بلالاً - رَضي الله عنه - بسواده ، ثم إنه[١] ندم ، فألقىٰ نفسه وحلف[٢] : لا رفعت رأسي حتىٰ يطأ بلال خدِّي بقدمه ، فلم يرفع رأسه حتىٰ فعل بلال[٣].

وقال رجاء بن حيوة[٤] : قوَّمت ثياب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه - وهو يخطب - باثني عشر درهماً ، وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة[٥].

ورأي محمد بن واسع ابناً له يمشي مشية منكرة ، فقال : تدري بكم شريت أمّك؟ بثلاثمائة درهم ، وأبوك - لا كثَّر[٦] في المسلمين مثله[٧] - أنا[٨] وأنت

---

(١) (أنه) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٢) ط (بنفسه فحلف).

(٣) الرسالة القشيرية ٢٤٥ ، أصل القصة في البخاري. الإيمان (١/ ٢٠) ح(٣٠) ، ومسلم (٣/ ١٢٨٢) ح(١٦٦١) ، وليس فيهما أنه وضع خده وأن بلالاً فعل ما طلب منه أبو ذر.

(٤) رجاء بن حيوة بن جرول ، وقيل : «جزل» ، الإمام القدوة ، أبو نصر الكندي الأزدي ، فقيه من جلّة التابعين حدّث عن معاذ وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت ، وعنه مكحول والزهري وقتادة وغيرهم، توفي سنة ١١٢هـ/ طبقات ابن سعد (٧/ ٤٥٤)، حلية الأولياء (٥/ ١٧٠)، تذكرة الحفاظ (١/ ١١١) ، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٧).

(٥) الرسالة القشيرية ٢٤٤.

(٦) الأصل (أكثر) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ط.

(٧) أ (مثلي).

(٨) الأصل (أباً) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ط.

تمشي[١] هذه المشية؟[٢].

وقال حمدون القصار : التواضع أن لا ترىٰ لأحد إلىٰ نفسك حاجة ، لا في الدين ولا في الدنيا[٣].

وقال إبراهيم بن أدهم[٤] : ما سررت في إسلامي إلا ثلاث مرات : كنت في سفينة ، وفيها رجل مِضحاك ، كان يقول : كنا في بلاد الترك فأخذ[٥] العلج[٦] هكذا - وكان يأخذ[٧] بشعر رأسي ويهزني - لأنه لم يكن في تلك السفينة أحد أحقر مني ، والأخرىٰ : كنت عليلاً في مسجد ، فدخل المؤذن ، وقال اخرج ، فلم أطق، فأخذ برجلي وجرني إلىٰ خارج، والأخرىٰ: كنت بالشام وعليَّ فرو، فنظرت فيه فلم أميز بين شعره وبين القمَّل لكثرته فسرني ذلك[٨].

---

(١) أ ، ب ، غ (نمشي).

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ ولفظه : « قيل اشتكىٰ رجل من ولد محمد بن واسع إليه فقال لولده : تستطيل علىٰ الناس وأمك اشتريتها بأربعمائة درهم وأبوك فلا كثر الله في المسلمين مثله.. » .

(٣) الرسالة القشيرية ٢٤٤.

(٤) إبراهيم بن أدهم ، من الأشراف ، روىٰ عن جماعة من التابعين ، توفي سنة ١٦٢ هـ ، وكان من المشهورين بالزهد ، له أقوال مأثورة في الورع وترك الدنيا/ صفة الصفوة (٤/ ١٣٤) ، حلية الأولياء (٧/ ٣٦٧) ، شذرات الذهب (١/ ٢٥٥).

(٥) ش (نأخذ).

(٦) العلج : الواحد من كفار العجم ، مختار الصحاح (٤٤٩).

(٧) م ، أ ، ب ، غ (آخذ) بدل (يأخذ).

(٨) الرسالة القشيرية (٢٤٥).

وفي رواية أخرىٰ[1] : كنت يوماً جالساً ، فجاء إنسان فبال عليَّ[2].

وقال بعضهم : رأيت في الطواف رجلاً بين يديه شاكرية[3] يمنعون الناس لأجله عن الطواف ، ثم رأيته بعد ذلك بمدة علىٰ جسر بغداد يسأل شيئاً ، فتعجبت منه ، فقال لي : إني تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه[4] فابتلاني الله بالذل في موضع يرتفع فيه[5] الناس[6].

وبلغ عمر بن عبد العزيز - رَضي الله عنه - : أن ابناً له اشترىٰ خاتماً بألف درهم فكتب إليه عمر : بلغني أنك اشتريت فِصّاً بألف درهم ، فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم ، وأشبع به ألف بطن ، واتخذ خاتماً بدرهمين ، واجعل فِصَّه حديداً صينياً ، واكتب رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه[7][8].

---

(١) (أخرىٰ) سقطت من أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط

(٢) الرسالة القشيرية ٢٤٥ ، هذا ليس من التواضع بل هو من المهانة وابتذال النفس وضعتها ، ولا يليق هذا المقام بالمسلم الذي كرمه الله عز وجل ، وانظر الفرق بين خلق التواضع والمهانة في كتاب الروح لابن القيم ٣١٣.

(٣) شاكرية : أطلقت علىٰ «فرقة من الجند» ظهرت في العصر العباسي كانت من عناصر الفوضىٰ السياسية في بغداد استفحل أمرها في أيام الخليفة المستعين بالله سنة ٢٥٢هـ ، انظر معجم المصطلحات التاريخية ٢٧٦ ، وكلمة «شكر» من استعمالاتها : «شاكار ، شاكر ، شاكر باه ، شاكرد» تستخدم لمعاني فيها الخدمة والتسخير ، انظر المعجم الفارسي الكبير ٢/ ١٦٨٠.

(٤) الأصل (تواضع الناس هناك) والأقرب ما أثبته من س، م، ط، و (هناك) سقطت من أ، ب، غ.

(٥) م ، ب ، ش ، ط (يترفع الناس فيه).

(٦) لم أجده.

(٧) ط زيادة (والله أعلم).

(٨) الرسالة القشيرية (٢٤٤).

فصل

أول ذنب عصيٰ الله به أبوا[1] الثقلين : الكِبر والحرص[2] ، فكان الكبر ذنب إبليس اللعين ، فآل أمره إلىٰ ما آل إليه ، وذنب آدم علىٰ نبينا وعليه السلام : كان من الحرص والشهوة ، فكان عاقبته التوبة والهداية ، وذنب إبليس حمله علىٰ الاحتجاج بالقدر والإصرار ، وذنب آدم أوجب له إضافته إلىٰ نفسه ، والاعتراف به والاستغفار. أول ذنب عُصي الله به

فأهل الكبر والإصرار ، والاحتجاج بالأقدار : مع شيخهم وقائدهم إلىٰ النار إبليس ، وأهل الشهوة : المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب ، الذين[3] لا يحتجون عليها بالقدر : مع أبيهم آدم في الجنة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : المتكبر[4] شر من المشرك[5] فإن المتكبر يتكبر[6] عن عبادة الله تعالىٰ ، والمشرك يعبد الله علاقة الشرك بالكبر

(١) (الألف) سقطت من ط.

(٢) دليل المسألة قوله تعالىٰ : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين﴾ ، وقال تعالىٰ عن حرص آدم : ﴿.. هل أدلك علىٰ شجرة الخلد وملك لا يبلىٰ﴾ ، وانظر الكبائر للذهبي ٧٧ ، وقيل الحسد كما روىٰ ذلك البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن ٥/ ٢٧٣.

(٣) (الذين) سقطت من ق.

(٤) ط (التكبر).

(٥) ط (الشرك).

(٦) ق ، م ، أ ، ب ، غ ، ش (متكبر).

وغيره[1].

قلت: ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين، كما قال تعالىٰ في[2] سورة غافر: ﴿[3] ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦] وفي سورة النحل: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩] وقال[4] في سورة تنزيل: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله علىٰ قلوبهم، فقال[5]: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[6] رواه مسلم - رحمه الله -.

[7] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١١٦] تنبيهاً[8] علىٰ

(١) انظر تقسيم شيخ الإسلام لطوائف القدرية وذكر منهم (الإبليسية)، الفتاوىٰ ٨/ ٢٥٦ - ٢٦٢.

(٢) أ، ب، غ، ط زيادة (في سورة الزمر).

(٣) ق (فادخلوا).

(٤) (قال) سقطت من ط.

(٥) ط زيادة (تعالىٰ).

(٦) مسلم (١/ ٩٣) ح(٩١)، الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٦١) ح(١٩٩٩) وقال حسن صحيح غريب، وأبو داود. البر والصلة (٤/ ٩٥) ح(٤٠٩١)

(٧) - أ، ب، غ، ق، ط زيادة حديث (وقال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمص الناس») وهو في الترمذي (٤/ ٣٩١)، وفي مسلم (غمط) (١/ ٩٣) ح (٩١).

(٨) ق (تنبيه).

أنه لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشرك، وكما أن «من تواضع لله رفعه»[(١)] فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله[(٢)] ووضعه، وصغّره وحقّره، ومن تكبر عن الانقياد للحق - ولو جاء علىٰ يد صغير، أو من يبغضه أو يعاديه - فإنما تكبره[(٣)] علىٰ الله فإن الله، هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته، ومنه وله، فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله: فإنما رد علىٰ الله، وتكبر عليه[(٤)].

---

(١) أخرجه من حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٥١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٧٦)، وفي مسند الشهاب (١/ ٢١٩)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٨٢)، وعزاه لأحمد. ولم أجده بهذا اللفظ. وقال رجاله رجال الصحيح، وقال في إسناد الطبراني سعيد بن سلام العطار كذاب، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٣٢٥) ح(١٣٥٦)، وقال: قال الخطيب غريب من حديث الثوري تفرد به سعيد بن سلام، قال أحمد سعيد كذاب، وقال البخاري يذكر بالوضع، وقال الدارقطني متروك، وأخرجه من حديث عائشة الطبراني في الأوسط (٥/ ١٣٩)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٢٥)، وقد تقدم الكلام عليه، ومن طريق ابن عباس في مسند الربيع (٢٧٣)، وقال ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٤٧) أخرجه ابن ماجه وصححه ابن حبان ولم أجده فيهما بهذا اللفظ، وأورده الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٦١) ح(٦١٦٢) وذكر الشواهد والطرق من مصادر أخرىٰ في السلسلة الصحيحة (٥/ ٤٣٢) ح(٢٣٢٨).

(٢) ق، ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٣) ق (تكبر).

(٤) ق، ط زيادة (والله أعلم).

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله -[١] :

من معاني التواضع

«التَّوَاضُعُ : أَنْ يَتَوَاضَعَ العَبْدُ لِصَولَةِ الحَقِّ»[٢].

يعني : أن يتلقىٰ سلطان الحق بالخضوع له ، والذل ، والانقياد ، والدخول تحت رِقِّه ، بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك في مملوكه ، فبهذا[٣] يحصل للعبد خُلق التواضع ولهذا فسر النبي ﷺ الكبر بضده فقال : «**الكبر بطر الحق ، وغمص**[٤] **الناس**» فبطر الحق رده وجحده ، والدفع في صدره ، كدفع الصائل ، و«غمص[٥] الناس» احتقارهم وازدراؤهم ، ومتىٰ احتقرهم وازدراهم : دفع حقوقهم ، وجحدها واستهان بها.

ولما كان لصاحب الحق مقال وصولة : كانت النفوس المتكبرة لا تُقرُّ له بالصولة علىٰ تلك الصولة التي فيها[٦] ، ولا سيما النفوس المبطلة[٧] ، فتصول علىٰ صولة الحق بكبرها وباطلها ، فكان حقيقة التواضع : خضوع العبد

---

(١) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٢) منازل السائرين ٤٦ بلفظ (يتضع).

(٣) غ (فلهذا).

(٤) ش (غمط) وهي في مسلم كما تقدم قريباً.

(٥) ش (غمط).

(٦) أي أنهم اعتادوا الصولة علىٰ الناس.

(٧) (المبطلة) سقطت من ق.

لصولة الحق ، وانقياده لها ، فلا يقابلها بصولته عليها.

درجات التواضع

الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : التَّوَاضُعُ لِلدِّينِ ، وَهُوَ أَنْ لا يُعَارِضَ بِمَعقُولٍ مَنقُولاً ، وَلا يَتَّهم للدِّينِ[1] دَلِيلاً ، وَلاَ يَرَىٰ إِلىٰ الخِلَافِ سَبِيلاً»[2].

«التَّوَاضُعُ لِلدِّينِ» هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ ، والاستسلام له ، والإذعان وذلك بثلاثة أشياء.

الأول : أن لا يعارض شيئاً مما جاء به[3] من المعارضات الأربع السارية في العالم المسماة : بالمعقول ، والقياس ، والذوق ، والسياسية[4][5].

---

(١) منازل السائرين (علىٰ الدين).

(٢) منازل السائرين ٤٧.

(٣) ط زيادة (بشيء).

(٤) هامش م (يعني قانون).

المعارضات الأربع

(٥) المعارضات الأربع : المعقول : تقديم العقل ، والقياس : هو حمل فرع علىٰ أصل في حكم جامع بينهما ، ولا بد في كل قياس من فرع وأصل وعلة وحكم ينظر في ذلك : ابن قدامة وآثاره الأصولية ٢/ ٢٧٥.

والذوق : من ألفاظ الصوفية وتقدم التعريف به ٢٠٩٨.

والسياسة : من ساس الأمر سياسة ، قام به وتولىٰ أمره وأصلحه ، لسان العرب ٦/ ١٠٨ ، وهي : المشاركة في شئون الدولة وتوجيهها وإدارة البلاد.. الموسوعة الفلسفية ٢٥٢ ، ومن نفيس كلام شيخ الإسلام في هذه المسألة قوله :[وعامة البدع والأهواء إنما تنشأ من هذين الأصلين.. أما الأول فشبه التأويل الفاسد ، أو القياس الفاسد ـ إلىٰ أن قال ـ : فالقياس والرأي

فالأول : للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين ، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة ، وقالوا : إذا تعارض العقل والنقل : قدمنا العقل ، وعزلنا النقل ، إما عزل تفويض ، وإما عزل تأويل(١).

والثاني : للمتكبرين من المنتسبين إلىٰ الفقه ، قالوا : إذا عارض(٢) القياس والرأي(٣) النصوص : قدمنا القياس علىٰ النص ، ولم نلتفت إليه.

والثالث : للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلىٰ التصوف والزهد ، فإذا(٤)

والذوق هو عامة خطأ المتكلمة والمتصوفة وطائفة ، وتأويل النصوص الصحيحة أو الضعيفة عامة خطأ طوائف المتكلمة والمحدثة ، والمقلدة ، والمتصوفة ، والمتفقهة - إلىٰ أن قال - ولهذا قال أحمد بن حنبل لبعض أصحابه : أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس] الفتاوىٰ ١٩/ ٧٤ - ٧٥.

(١) عزل التفويض هو نفي العلم بالمعنىٰ ، ويزعمون بذلك أن معاني نصوص الصفات لا يعلمها أحد ، ولقد رد عليهم وبين فساد قولهم شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٥ وما بعدها ، أما عزل التأويل فالمراد به التأويل الفاسد حيث يصرفون الكلام عن ظاهره إلىٰ غيره من غير دليل أو بدليل فاسد ، وهو أحد معاني التأويل كما ذكر ذلك شيخ الإسلام في التدمرية ، انظر التوضيحات الأثرية علىٰ متن التدمرية ١٨٤ ، ومسألة التأويل أُلِّفت فيها رسائل إضافة علىٰ كونها مبثوثة في كتب أهل العلم من تلك المؤلفات : مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات/ أحمد القاضي ، علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين/ رضا نعسان ، تبرئة السلف من تفويض الخلف/ محمد اللحيدان.

(٢) ط (تعارض).

(٣) ط زيادة (واو).

(٤) (الفاء) سقطت من أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط.

تعارض عندهم الذوق والأمر ، قدَّموا الذوق والحال ، ولم يعبأوا بالأمر[١].

والرابع : للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين ، إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة ، قدموا السياسة ، ولم يلتفتوا لحكم الشريعة[٢].

فهؤلاء الأربعة : هم أهل الكبر ، والتواضع : التخلص من ذلك كله.

الثاني : أن لا يتهم دليلاً من أدلة الدين ، بحيث يظنه فاسدَ الدلالة ، أو ناقصَ الدلالة ، أو قاصرَها ، أو أن غيره كان أولىٰ منه ، ومتىٰ عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه ، وليعلم أن الآفة منه ، والبليَّة فيه[٣] ، كما قيل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه ... علىٰ قدر القرائح والفهوم[٤]

وهكذا الواقع في الواقع[٥] حقيقة: أنه ما اتهم أحد دليلاً للدين إلا وكان هو المتهم[٦]

---

(١) تقدم ذلك عند الحديث عن الكشف ١٨٢٩ ، ومما قاله ابن عربي في ذم من يسميهم علماء الرسوم : «ما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم علىٰ أهل الله المختصين بخدمته.. » الفتوحات باب/ ٥٤ ص٣٩.

(٢) هذا حال كل من قدم حكمه ونظامه علىٰ حكم الله وشرعه ، وشواهده أظهر من أن تذكر.

(٣) ق (منه).

(٤) القائل المتنبي ، انظر ديوانه بشرح البرقوقي ٢/ ٢٤٦.

(٥) (في الواقع) سقطت من غ ، ق.

(٦) ط (المتهم هو).

الفاسد الذهن مأووف[1][2] في عقله، وذهنه، فالآفة من الذهن العليل، لا في نفس الدليل.

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك، وينبو فهمك عنه فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصىٰ عليك، وأن تحته كنزاً من كنوز العلم، و[3]لم تؤت مفتاحه بعد هذا في حق نفسك.

وأما بالنسبة إلىٰ غيرك: فاتهم آراء الرجال علىٰ نصوص الوحي، وليكن ردها أيسر شيء عليك للنصوص، فما لم تفعل ذلك فلست علىٰ شيء، ولو.. ولو.. وهذا لا خلاف فيه بين العلماء.

قال الشافعي - قدس الله روحه[4] -: وأجمع[5] المسلمون علىٰ أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يحل له أن يدعها لقول أحد[6].

الثالث: أن[7] لا يجد إلىٰ خلاف النص سبيلاً البتة، لا بباطنه، ولا بلسانه

---

(١) ط (مأفون).

(٢) مأووف: أصابته آفة، لسان العرب ٩/ ١٦ ومأفون، يقال رجل مأفون أي ضعيف العقل والرأي، لسان العرب ١٣/ ١٩.

(٣) (الواو) سقطت من ق.

(٤) ق (رضي الله عنه) بدل (قدس الله روحه).

(٥) (الواو) سقطت من ب.

(٦) الرسالة للإمام الشافعي ٤٧١، ذم الهوىٰ ٥٥، زاد المهاجر ٣٧، الروح ٢٦٤.

(٧) الأصل (أنه) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

ولا بفعله ، ولا بحاله؛ بل إذا أحس بشيء من الخلاف : فهو كخلاف المُقْدم علىٰ الزنا ، وشرب الخمر ، وقتل النفس؛ بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك ، وهو داع إلىٰ النفاق ، وهو الذي خافه الكبار ، والأئمة علىٰ نفوسهم.

واعلم أن المخالف للنص - لقول متبوعه وشيخه ومقلِّده ، أو لرأيه ومعقوله ، وذوقه ، وسياسته إن كان عند الله معذوراً ، ولا والله ما هو بمعذور - فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولىٰ بالعذر عند الله(١) ورسوله ، وملائكته ، والمؤمنين من عباده.

فواعجباً إذا اتسع بطان(٢)(٣) المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليداً ، أو تأويلاً ، أو لغير ذلك ، فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم ، وأقوال شيوخهم ، لأجل موافقة النصوص؟ وكيف نصبوا له الحبائل ، وبغوه(٤) الغوائل(٥) ، ورموه بالعظائم ، وجعلوه أسوأ حالاً من أرباب الجرائم؟ فرموه بدائهم وانسلوا منه لواذاً(٦) ، وقذفوه بمصابهم ، وجعلوا تعظيم المتبوعين

---

(١) (لفظ الجلالة) سقط من الأصل والأصح إثباته كما في ق وفي ق زيادة (وعند).

(٢) ط (بطلان).

(٣) بطان : هو ما ينسج ويشد به الرحل علىٰ البعير كالحزام للسرج ، النهاية في غريب الحديث ٥/ ١٩٨ ، القاموس المحيط ١/ ١١٠٩٣.

(٤) (الهاء) سقطت من ب.

(٥) الغوائل : المهالك ، النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٩٧.

(٦) لواذاً : لاذ به لجأ إليه وعاذ به (ولِياذاً) بالكسر ، ولاذ القوم لواذاً إذا لاذ بعضهم ببعض ، مختار الصحاح ٦٠٨.

ملاذاً لهم ومعاذاً[١].

فصل

الأمور التي تعين على التواضع

قال : «وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ[٢] إلاَّ بِأَن يُعْلَمَ : أَنَّ النَّجَاةَ فِي البَصِيرَةِ ، وَالاستِقَامَةَ بَعدَ الثِّقَةِ ، وَأَنَّ البَيِّنَةَ وَرَاءَ الحُجَّةِ»[٣].

يقول : إن ما ذكرناه من التواضع للدين بهذه الأمور الثلاثة :

الأولىٰ[٤] : علمه[٥] أن النجاة من الشقاء والضلال : إنما هي في البصيرة ، فمن لا بصيرة له : فهو من أهل الضلال في الدنيا والشقاء في الأخرىٰ[٦].

والبصيرة نور الله يجعله الله في عين القلب ، يفرق به[٧] بين الحق والباطل ، ونسبته إلىٰ القلب ، كنسبة ضوء العين إلىٰ العين.

وهذه «البصيرة» وهبية[٨] وكسبية ، فمن أدام[٩] النظر في أعلام الحق وأدلته ،

---

(١) ط زيادة (والله أعلم).

(٢) منازل السائرين زيادة (له).

(٣) منازل السائرين ٤٧ بلفظ (ولا يصح ذلك له).

(٤) ط زيادة (الأولىٰ).

(٥) ب (علم).

(٦) ش ، ط (الآخرة).

(٧) ط زيادة (العبد).

(٨) ش (موهبية).

(٩) أ ، ب ، غ ، ط (أراد).

وتجرد لله[١] عن[٢] هواه : استنارت بصيرته ، ورزق فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل[٣].

الثاني : أن يعلم أن الاستقامة [إنما تكون بعد الثقة ، أي لا يتصور حصول الاستقامة][٤] في القول والعمل والحال ، إلا بعد الثقة بصحة ما معه من العلم ، وأنه مقتبس من مشكاة النبوة ، ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة[٥].

الثالث : أن يعلم أن البينة وراء الحجة ،[٦] «البينة» مراده بها : استبانة الحق وظهوره ، وهذا إنما يكون بعد الحجة فإن الحجة[٧] إذا قامت استبان الحق وظهر واتضح.

وفيه معنىٰ آخر وهو : أن العبد إذا قبل حجة الله لمحض[٨] الإيمان والتسليم والانقياد : كان هذا القبول هو سبب تبيُّنِها له[٩] وظهورها ، وانكشافها لقلبه ،

---

(١) ط (الله).

(٢) ط (من) بدل (عن).

(٣) قال الله تعالىٰ : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً..﴾ [الأنفال :٢٩].

(٤) ما بين المعقوفين سقط من غ.

(٥) الأصل (فلا استقامة له) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط.

(٦) ط زيادة (الواو).

(٧) (فإن الحجة) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٨) غ ، م ، ب (بمحض).

(٩) (له) سقط من أ ، ب ، غ ، ط.

فلا يصير[١] علىٰ بينة من[٢] ربه إلا بعد قبول حجته.

وفيه معنىٰ آخر أيضاً وهو[٣] : أنه لا يتبين له عيب عمله من صحته إلا بعد العلم الذي هو حجة الله علىٰ العبيد ، فإذا عرف الحجة اتضح[٤] له بها ما كان مشكلاً عليه من علومه ، وما كان معيباً[٥] من أعماله.

وفيه معنىٰ آخر أيضاً : وهو أن يكون «وراء» بمعنىٰ أمام ، والمعنىٰ : أن الحجة إنما تحصل للعبد بعد تبيُّنِها ، فإذا لم تتبيَّنْ له لم تكن له حجة ، يعني فلا يقنع[٦] من الحجة بمجرد حصولها بلا تبيُّن ، فإن التبيُّنَ أمام الحجة [٧].

فصل

الدرجة الثانية قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : أَن تَرضَىٰ بِمَن[٨] رَضِيَ بِهِ الحَقُّ[٩] لِنَفسِهِ عَبداً مِن المُسلِمِينَ أَخاً ، وَأَنْ لا تَرُدَّ عَلَىٰ عَدوِّكَ حَقّاً ، [١٠]وَتَقبَلَ مِنَ المُعتَذِرِ مَعَاذِيرَهُ»[١١].

---

(١) ط (يصبر).

(٢) (من) سقطت من ط.

(٣) (وهو) ساقطة من ط.

(٤) ش (أفصح).

(٥) ق (مغيباً).

(٦) أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ط (يقنع).

(٧) ق ، ط زيادة (والله أعلم).

(٨) ط (بما).

(٩) الأصل (الحق به) والأقرب ما أثبته من أ ، و (به) ليست في المنازل.

(١٠) ط زيادة (أن).

(١١) منازل السائرين ٤٧.

يقول : إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبداً ، [١]أفلا ترضىٰ انتسابه[٢] أخاً ، فعدم رضاك به أخاً - وقد رضيه سيدُك الذي أنت عبده عبداً لنفسه - عين الكبر ، وأيُّ قبيح أقبح من تكبّر العبد علىٰ عبد مثله ، لا يرضىٰ بأخوته ، وسيدُه راضٍ بعبوديَّتِه؟.

فيجيء من هذا : أن المتكبر غير راض بعبودية سيِّده ، إذ عبوديته توجب رضاه بأخوة عبده ، وهذا شأن عبيد الملوك ، فإنهم يرون بعضهم خشداشية[٣][٤] بعض ، ومن ترفّع منهم عن ذلك ، لم يكن من عبيد أستاذهم.

قوله : «وَأَن لا تَرُدَّ عَلىٰ عَدُوِّكَ حَقّاً[٥]».

أي لا تصح[٦] لك درجة «التواضع» حتىٰ تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك ، وإذا لم ترد عليه حقَّه ، فكيف تمنعه حقاً له قبلك؟ بل حقيقة «التواضع» أنه إذا جاءك بحق[٧] قبلته منه ، وإذا كان له عليك

---

(١) أ ، ش سقطت (الألف).

(٢) م ، ط (أنت به) بدل (انتسابه).

(٣) ش (حسداسية).

(٤) خشداشية : خشداش ، فارسية معربة ، معناها الزميل في الخدمة ، ومنها اشتقت (الخشداشية) لقب الأمراء المماليك الذين نشأوا عند سيد واحد فنمت بينهم رابطة الزمالة ، انظر معجم المصطلحات التاريخية ١٦٢ ، وقال صاحب المعجم الفارسي ١/ ١٠٤٧ خشداش : تركي معرب ، وخشداشية : أتباع.

(٥) ق (حق).

(٦) الأصل (يصح) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ق ، ط.

(٧) (بحق) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

حقٌّ أديته إليه ، فلا تمنعك عداوتُه من قبول حقه ، ولا من إيفائه[١] إياه.

وأما «قَبُولُكَ مِنَ المعتَذِرِ مَعَاذِيرَهُ».

فمعناه : أن من أساء إليك ، ثم جاء يعتذر من إساءته ، فإن «التواضع» يوجب عليك قبول[٢] معذرته ، حقاً كانت أو باطلاً ، وتكِلُ سريرته إلىٰ الله تعالىٰ ، كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو ، فلما قدم جاؤوا يعتذرون إليه ، فقبل أعذارهم ، ووكل سرائرهم إلىٰ الله تعالىٰ.

وعلامة الكرم والتواضع : أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه[٣] عليه ولا تحاجّه ، وقل[٤] : يمكن أن يكون الأمر كما تقول ، ولو قضي شيء لكان ، والمقدور لا مدفع له ، ونحو ذلك.

فصل

الدرجة الثالثة

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : أَن تَتَّضِعَ[٥] لِلحَقِّ ، فَتَنـزِلَ عَن رَأيِكَ وَعَوَائِدِكَ[٦] فِي الخِدمَةِ وَرُؤيَةِ حَقِّكَ فِي الصُّحْبَةِ ، وَعَن رَسمِكَ فِي المُشَاهَدَةِ»[٧].

(١) أ ، ب ، غ ، ط (إيتائه).

(٢) (قبول) سقطت من الأصل والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ق ، ط.

(٣) ب (توافقه).

(٤) ش زيادة (وقد).

(٥) ب (تضع).

(٦) (عوائدك) ليست في منازل السائرين.

(٧) منازل السائرين ٤٧.

يقول «التواضع[1]» بأن تخدم الحق سبحانه ، وتعبده بما أمرك به ، علىٰ مقتضىٰ أمره [لأجل أنه أمرك][2] ، لا علىٰ ما تراه من رأيك ، و[3]لا يكون الباعث لك داعي العادة، كما هو باعث من لا بصيرة له، غير أنه اعتاد أمراً فجرىٰ عليه، ولو اعتاد ضده لكان كذلك.

وحاصله : أنه لا يكون باعثه علىٰ العبودية مجرد رأي ، وموافقة هوىٰ ومحبة ، ولا عادة[4]؛ بل الباعث مجرد الأمر ، والرأي والمحبة والهوىٰ والعوائد : منفذة تابعة ، لا[5] أنها مطاعة باعثة ، وهذه نكتة لا يتنبّه لها إلا أهل البصائر.

وأما «نُزُولُهُ عَن رُؤيَة حَقِّهِ في الصُّحْبَةِ».

[6] أي أن[7] لا يرىٰ لنفسه حقاً علىٰ الله لأجل عمله ، فإن صحبته مع الله بالعبودية والفقر المحض ، والذل والانكسار ، فمتىٰ رأىٰ لنفسه عليه حقاً فسدت الصحبة ، وصارت معلولة وخيف منها المقت ، ولا ينافي هذا ما أحقه

---

(١) (التواضع) سقطت من الأصل والأقرب إثباتها كما في أ ، ب ، غ ، ط.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من الأصل والأقرب إثباتها كما في جميع النسخ و ط.

(٣) (الواو) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٤) (لا) سقطت من ط.

(٥) أ ، ب ، غ زيادة (لأنها).

(٦) ط (فمعناه).

(٧) (أن) سقطت أ ، ب ، غ ، م ، ق.

الله سبحانه علىٰ نفسه [من إثابة عابديه وإكرامهم ، فإن ذلك حق أحقه علىٰ نفسه](١) بمحض(٢) كرمه وبرِّه وجوده وإحسانه ، لا باستحقاق العبيد ، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم.

فعليك بالفرقان في هذا الموضع الذي هو مفرق(٣) الطرق ، والناس فيه ثلاث فرق.

فرقة رأت أن العبد أقل وأعجز من أن يوجب علىٰ ربه حقاً ، فقالت : لا يجب علىٰ الله شيء البتة ، وأنكرت وجوب ما أوجبه(٤) علىٰ نفسه.

وفرقة رأت أنه سبحانه أوجب علىٰ نفسه أموراً لعبده ، فظنت أن العبد أوجبها عليه بأعماله ، وأن أعماله كانت سبباً لهذا(٥) الإيجاب ، والفرقتان غالطتان.

والفرقة الثالثة : أهل الهدىٰ والصواب ، قالت : لا يستوجب العبد علىٰ الله سعيه نجاة ولا فلاحاً ، ولا يدخل أحداً عمله الجنة أبداً ، ولا ينجيه من النار ، والله سبحانه(٦) تعالىٰ - بفضله وكرمه ، ومحض جوده وإحسانه - أكد إحسانه وجوده

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ.

(٢) ق (بعض) بدل (بمحض).

(٣) ط (مفترق).

(٤) (الهاء) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٥) الأصل (لهذه).

(٦) (سبحانه) سقطت من بقية النسخ.

وبره بأن أوجب لعبده عليه[1] حقاً[2] بمقتضىٰ الوعد، فإن وعد الكريم إيجاب، ولو بـ «عسىٰ، ولعل».

ولهذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما- «عسىٰ: من الله واجب»[3].

ووعد اللئيم خلف، ولو اقترن به العهد والحلف.

والمقصود: أن عدم رؤية العبد لنفسه حقاً علىٰ الله لا ينافي ما أوجب[4] الله علىٰ نفسه، وجعله حقاً لعبده، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل -رضي الله عنه-: «يا معاذ[5]، أتدري ما حق الله علىٰ العباد؟» قال[6]: الله ورسوله أعلم، قال: «حقه عليهم أن يعبدوه و[7]لا يشركوا به شيئاً، يا معاذ أتدري ما حق العباد علىٰ

---

(١) ط زيادة (سبحانه).

(٢) (حقاً) سقطت من أ، ب.

(٣) البرهان (٤/ ٢٨٨)، الدر المنثور (٤/ ٢٧٧)، تفسير القرطبي (٨/ ٩١)، فتح القدير (١/ ٢١٧) عزاه للحسن في أحكام القرآن (٣/ ٢٢٨)، وعزاه القرطبي لأبي عبيدة (٣/ ٣٩)، والشوكاني في فتح القدير (١/ ٢١٦)، وقال ابن كثير: «وكل ـ عسىٰ ـ في القرآن فهي واجبة، وقال محمد بن إسحاق بن يسار: «عسىٰ من الله حق»، انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٣)، وقال الطبري (٥/ ١٨٥)، وقد بينا فيما مضىٰ أن «عسىٰ في حق الله واجبة» وعزاه في (٢٨/ ٦٠) لابن زيد.

(٤) أ، ب، غ، ط (أوجبه).

(٥) (يا معاذ) سقطت من أ، ب، غ، ش.

(٦) ط (قلت) بدل (قال).

(٧) (الواو) سقطت من الأصل وهي في ق، وصحيح البخاري.

الله إن فعلوا ذلك؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حقُّهم عليه : أن لا يعذبهم بالنار»[١].

فالرب سبحانه ما لأحد عليه حق ، ولا يضيع لديه سعي ، كما قيل :

ما للعباد عليه حقٌّ واجبُ كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عُذِّبوا فبعدله ، أو نُعِّموا فبِفَضْله[٢] وهو الكريم الواسع[٣]

وأما قوله : «وَتَنزِل عَن رَسْمِكَ فِي المُشَاهَدةِ».

أي من جملة التواضع للحق : فناؤك عن نفسك ، فإن رسمه هي نفسه ، والنزول عنها : فناؤه عنها حين شهود[٤] الحضرة[٥] ، وهذا النزول[٦] يصح أن يقال كسبي باعتبار، وإن كان عند القوم غير كسبي، لأنه يحصل عند التجلّي[٧]، والتجلّي[٨] نور ، والنور يقهر الظلمة ويبطلها ، والرسم عند القوم ظلمة ، فهي

(١) البخاري. التوحيد (٤/ ٣٧٨) ح(٧٣٧٣) بدون (بالنار) وفي الجهاد (٢/ ٣٢٠) ح(٢٨٥٦) ، مسلم الإيمان (١/ ٥٨) ح(٣٠) ، الترمذي. الإيمان (٥/ ٢٦) ح(٢٦٤٣).

(٢) ب (فبضله).

(٣) بيتي الشعر : طريق الهجرتين ١/ ٤٧٠ ، بدائع الفوائد ٢/ ٣٩٠ ، الوابل الصيب ٩٠ ، وقال محققه أورده الخطابي في العزلة عن الخزاعي.

(٤) أ ، ب ، غ ، م ، ط (شهوده).

(٥) شهود الحضرة : تقدم في تعريف الشهود وهو شهود المجمل في المفصل .

(٦) الأصل (النازل) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، س ، ق ، ط.

(٧) التجلي : سوف يأتي الحديث عنه قريباً في منزلة البسط.

(٨) الأصل (التخلي ، والتحلي) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، س ، ط ، وفي ق (التخلي).

تنفر من النور بالذات ، فصار(١) النزول عن الرسم حين التجلي ذاتياً.

ووجه كونه كسبياً : أنه نتيجة المقامات الكسبية ، ونتيجة الكسبيّ(٢) ، وثمرته وإن حصلت ضرورة بالذات ،لم تمنع أن يطلق عليها كونها كسبية باعتبار السبب ، والله أعلم.

* * *

---

(١) أ زيادة (النور).

(٢) ط زيادة (كسبي).

فصل (١)

منزلة الفتوة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الفتوة»(٢).

هذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلىٰ الناس ، وكف الأذىٰ عنهم ، واحتمال أذاهم ، فهي استعمال حسن الخلق معهم ، فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله.

الفرق بين المروءة والفتوة

والفرق بينهما وبين المروءة أن المروءةَ أعمُّ منها ، فالفتوة نوع من أنواع المروءة ، فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد ، أو متعد إلىٰ غيره ، وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضاً به ، أو متعلق بغيره.

---

(١) في حاشية الأصل (باب التواضع).

(٢) الفتوة : لغة : فتاً ، والفتاء الشباب ، والفعل (فَتُوَ يفتو فتاء) ، لسان العرب ١٥/ ١٤٥ ، وهي عند الطائفة أن لا تشهد لنفسك فضلاً ولا ترىٰ حقاً وهي فوق التواضع ، وهي اسم جامع لمعانٍ جميلة ، وخصال حميدة ، وهذه فتوة التخلق كالسخاء والجود ، أما فتوة التحقق ، فهي أن لا تتعلق بسيرك إلىٰ ربك علىٰ الدليل ، لا من عقل ولا نقل - وهذا غاية الفساد في تعريف الفتوة - وهي في الجملة أحد مكارم الأخلاق التي يتناصحون بها ، هذا في جانب التخلق وهي : الحض علىٰ المثالية ، والنجدة والإغاثة. انظر : المقدمة في التصوف (٤٨) ، لطائف الإعلام (٢/ ١٩٥ - ١٩٧) ، معجم مصطلحات الصوفية (٢٠٤) ، منارات السائرين (ص٤٦٠) ، الرسالة القشيرية (٣٣٧) ، التعريفات للجرجاني (٢/ ٢١٢) ، الفتاوىٰ (١١/ ٨٢ ، ٩٠) ، الحركة الصوفية (١٥٧).

و«الفتوة» إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق.

فهي ثلاث منازل: منزلة التخلّق وحسن الخلق، ومنزلة الفتوة، ومنزلة المروءة، وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة ،لم تعبر عنها الشريعة باسم «الفتوة»؛ بل عبرت عنها باسم «مكارم الأخلاق» كما في حديث يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر- رضي الله عنه - عن النبي ﷺ «**إن الله بعثني بتمام**[1] **مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال**»[2].

معنى الفتوة والأقوال فيها

و[3]أصل «الفتوة» من «الفتىٰ» وهو الشاب الحديث السن، قال الله تعالىٰ

---

(١) الأصل (لتمام) وما أثبته من رواية الطبراني في الأوسط.

(٢) أخرجه من حديث جابر: الطبراني في الأوسط (٧/ ٤٧)، وفي الكبير رقم(٦٨٩١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٣١) رقم(٧٩٧٩)، وضعفه، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٨٨)، وعزاه للطبراني وقال فيه عمر بن إبراهيم القرشي ضعيف، وضعفه العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٤٥)، وقال لكن معناه صحيح، وأخرجه من رواية أبي هريرة: أحمد (٢/ ٣٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، وفي التاريخ الكبير (٧/ ١٨٨)، والطحاوي في مشكل الآثار رقم(٤٤٣٢)، وابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ٣٣٣)، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٩٢)، وأكثر الروايات بلفظ «صالح الأخلاق»، وبعضها بلفظ «مكارم»، وصححه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٣)، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣٤٣) (٩/ ١٥) رجاله رجال الصحيح وتبعه السخاوي في المقاصد الحسنة (ص١٢٢)، وقال ابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ٣٣٣) هو متصل صحيح عن أبي هريرة وغيره مرفوعاً.

(٣) (الواو) سقطت من ق.

عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ[1] ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وقال عن قوم إبراهيم: - إنهم قالوا فيه[2] - ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ[3] يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] وقال تعالىٰ عن يوسف عليه السلام[4]: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف: ٣٦] ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢].

فاسم «الفتىٰ» لا يشعر بمدح ولا ذم، كاسم الشاب والحدث، ولذلك لم يجئ اسم «الفتوة» في القرآن ولا في السنة ولا في لسان السلف، وإنما استعمله من بعدهم في مكارم الأخلاق.

وأصلها عندهم: أن يكون العبد أبداً في أمر غيره.

وأقدم من علمته تكلم في «الفتوة» جعفر بن محمد، ثم الفضيل بن عياض، والإمام أحمد، وسهل بن عبدالله، والجنيد، ثم الطائفة.

فيذكر أن جعفر بن محمد[5] سئل عن الفتوة؟ فقال للسائل: ما تقول أنت؟

---

(١) أ، ب، غ، م (قال عند قوله ﴿ فتية.. ﴾ الآية) ولم يكمل الآية.

(٢) ق (عنه).

(٣) أ، ب، غ، م (قال هنا الآية).

(٤) (عليه السلام) سقطت من بقية النسخ.

(٥) جعفر بن محمد الخلدي، أبو محمد الخواص، نشأ في بغداد وصحب الجنيد وسمنون، توفي ببغداد سنة ٣٨٤هـ، وكان مرجعاً للقوم في فهم حكاياتهم/ حلية الأولياء (١٠/ ٣٨١)، صفة الصفوة (٢/ ٢٦٤)، شذرات الذهب ٢/ ٣٧٨، الكواكب الدرية ٢/ ٥٦.

فقال : إن أُعطيت شكرت، وإن منعت صبرت، فقال : الكلاب عندنا كذلك[١] ، فقال السائل : يا ابن رسول الله ، فما الفتوة عندكم؟ فقال : إن أُعطينا آثرنا ، وإن منعنا شكرنا[٢].

وقال الفضيل بن عياض : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان[٣].

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه - في رواية ابنه عبدالله - عنه ، وقد سئل ما الفتوة[٤] ، فقال : ترك ما تهوىٰ لما تخشىٰ[٥].

ولا[٦] أعلم لأحد من الأئمة الأربعة كلاماً[٧] فيها سواه.

وسئل الجنيد عن الفتوة؟ فقال : أن[٨] لا تنافِر فقيراً ، ولا تعارض غنياً[٩].

---

(١) ب (لذلك).

(٢) الرسالة القشيرية ٣٣٩ ، وأورده أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣٧ عن إبراهيم بن أدهم حينما سأله شقيق البلخي.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٤٢ بلفظ قريب من هذا ، وفي مقدمة التصوف عن الثوري «العفو عن زلل الإخوان» ٤٨ ، في لطائف الإعلام «الفتوة التغافل عن الزلة» ٢/ ١٩٥ ، آداب الصحبة ٤٦ ، إحياء علوم الدين ٢/ ١٧٧ ، وفي طبقات الصوفية للسلمي عن عمرو المكي ٢٠٢.

(٤) ش ، ب (عن الفتوة).

(٥) الرسالة القشيرية ٣٣٨ ، وذكره شيخ الإسلام عن الإمام أحمد في الفتاوىٰ ١١/ ٨٤ ، وابن القيم في روضة المحبين ٣٣٠ ، وفي الروح ٢٧ ، وفي عدة الصابرين ٦٥.

(٦) م (فلا).

(٧) (كلاماً) سقطت من ط.

(٨) (أن) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٩) الرسالة القشيرية ٣٣٨.

وقال الحارث المحاسبي : الفتوة أن تنصف ولا تنتصف[1].

وقال عمر بن عثمان المكي : الفتوة حسن الخلق[2].

وقال محمد بن علي الترمذي[3] : الفتوة أن تكون خصماً لربك علىٰ نفسك[4].

وقيل : الفتوة أن لا ترىٰ لنفسك فضلاً علىٰ غيرك[5].

وقال الدقاق : هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ ، فإن كل أحد يقول يوم القيامة : نفسي نفسي ، وهو يقول «أمتي أمتي»[6].

وقيل : الفتوة كسر الصنم الذي بينك وبين الله تعالىٰ ، وهو نفسك ، فإن الله حكىٰ عن خليله إبراهيم - عليه السلام - : أنه جعل الأصنام جذاذاً ، فكسر

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٣٨ ، مجموعة آثار السلمي ٢/ ٢٢٥ ، في حلية الأولياء «أداء الإنصاف وترك مطالبة الإنصاف» ١٠/ ٢٣٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٣٨ وفي طبقات الأولياء عزاه لأبي عثمان الحيري ١٩١ وفي طبقات الصوفية ٥٠٦.

(٣) محمد بن علي الترمذي ، الملقب بالحكيم الترمذي ، من كبار مشايخ خراسان/ صفة الصفوة (٤/ ١٤٦) ، حلية الأولياء (١٠/ ٢٣٣) ، طبقات الشعراني (١/ ٩١).

(٤) الرسالة القشيرية ٣٣٧ ، نحوه في حلية الأولياء في وصية ذي النون ٩/ ٣٨٢.

(٥) الرسالة القشيرية ٣٣٧ ، وفي التعاريف «أن يؤثر الخلق علىٰ نفسه في الدنيا والآخرة» ٢/ ٥٥٠.

(٦) الرسالة القشيرية ٣٣٧ وحديث الشفاعة في البخاري. التفسير ٣/ ٢٥٠ ح ٤٧١٢ ، مسلم. الإيمان ١/ ١٨٣ ح ١٩٣.

الأصنام له ، فالفتىٰ من كسر صنماً واحداً في الله[١].

وقيل الفتوة أن لا تكون خصماً لأحد ، يعني في حفظ[٢] نفسك ، وأما في حق الله فالفتوة : أن تكون خصماً لكل أحد[٣] ، ولو كان الحبيبَ المصافيا.

وقال الترمذي : الفتوة أن يستوي عندكم المقيم والطارئ[٤].

وقال بعضهم : الفتوة أن لا يميز بين[٥] أن يأكل عنده ولي أو كافر[٦].

وقال الجنيد - رحمه الله[٧] - أيضاً : الفتوة كف الأذىٰ وبذل الندىٰ[٨].

وقال سهل - رحمه الله[٩] - : هي اتباع السنة[١٠] ، وقيل : هي الوفاء

(١) الرسالة القشيرية ٣٣٨ ، ذم الهوىٰ ص٢٧ ، روضة المحبين ٤٨٢.

(٢) ق (خط) ، ش (خصماً).

(٣) غ (واحد).

(٤) الرسالة القشيرية ٣٣٨ وعزاه لمحمد بن علي الترمذي.

(٥) (بين) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) الرسالة القشيرية ٣٣٨ ، وهذا ليس علىٰ إطلاقه إذ لا بد من هدف صحيح ، وإلا فإن رسول الله ﷺ قال في حديث أبي سعيد : «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي» أخرجه أبو داود في الأدب (٥/ ١٦٧) ح(٤٨٣٢) ، والترمذي. الزهد (٤/ ٦٠٠) ح(٢٣٩٥) ، وحسنه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٤٣) وقال صحيح علىٰ شرطهما ولم يخرجاه ، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣١٤).

(٧) (رحمه الله) سقطت من ط.

(٨) الرسالة القشيرية ٣٣٨ ، القرطبي في التفسير ١٠/ ٣٦٤ وزاد : وترك الشكوىٰ.

(٩) (رحمه الله) سقطت من ط.

(١٠) الرسالة القشيرية ٣٣٨.

والحفاظ[١].

وقيل[٢]: فضيلة تأتيها، ولا ترىٰ نفسك فيها[٣]. وقيل: أن لا تحتجب ممن قصدك[٤].

وقيل: أن لا تهرب إذا أقبل العافي يعني طالب المعروف. وقيل: إظهار النعمة وإسرار المحنة. وقيل: أن لا تدخر ولا تعتذر[٥].

وقيل: تزوج رجل بامرأة، فلما دخلت عليه رأىٰ بها الجدري، فقال: اشتكيت عيني، ثم قال: عميت، فبعد عشرين سنة ماتت[٦]، ولم تعلم أنه بصير، فقيل له في ذلك فقال، كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها، فقيل له: سبقت الفتيان[٧].

وقيل: ليس من الفتوة أن تربح علىٰ صديقك.

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٣٨.

(٢) م (هي).

(٣) الرسالة القشيرية ٣٣٨.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٣٩.

(٥) ذكر السلمي في مبحث الفتوة جملة من الأقوال دون نسبة تشتمل علىٰ كثير مما ذكر هنا، انظر المقدمة في التصوف ٥٠، وكذا في الرسالة القشيرية ٣٣٨-٣٤٠.

(٦) ق (مات).

(٧) الرسالة القشيرية ٣٣٩.

واستضاف رجل جماعة[1] من الفتيان ، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء علىٰ أيديهم ، فانقبض واحد منهم ، وقال : ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء علىٰ أيدي الرجال ، فقال آخر منهم : أنا منذ سنين أدخل إلىٰ هذه الدار ، ولم أعلم أن امرأة تصب الماء علىٰ أيدينا أو رجلاً[2].

وقدم جماعة فتيان لزيارة فتىٰ ، فقال الرجل : يا غلام قدم السفرة ، فلم يقدم فقالها ثانياً وثالثاً فلم يقدم[3] ، فنظر بعضهم إلىٰ بعض ، وقالوا ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل[4] من يتعاصىٰ عليه في تقديم السفرة كل هذا ، فقال الرجل : لم أبطأت السفرة؟ فقال الغلام : كان عليها نمل ، فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلىٰ الفتيان مع النمل ، ولم يكن من الفتوة إلقاء النمل وطردهم[5] عن الزاد ، فلبثت حتىٰ دب النمل ، فقالوا : مثلك يا غلام يخدم الفتيان[6].

ومن الفتوة التي لا تلحق : ما يذكر أن رجلا نام من الحاج في المدينة ، ففقد همياناً[7] فيه ألف دينار ، فقام فزعاً ، فوجد جعفر بن محمد فعلق به ،

---

(١) الأصل (بجماعة) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٤٠.

(٣) في الأصل (فلم يقدم) جاءت بعد قوله :(ثانياً) والمثبت أقرب كما في أ ، ب ، غ ، ق ، ط.

(٤) ب (رجل).

(٥) ش (طردها).

(٦) الرسالة القشيرية ٣٤١.

(٧) همياناً : الهميان : كيس النفقة يُشد علىٰ الوسط ، المعجم الوسيط ٢/ ٩٩٦ ، في النهاية غريب الحديث (هي المنطقة والتكة وهو موضع عقد الإزار) ص٥/ ٢٧٥.

وقال أخذت همياني ، فقال : أي شيء[1] كان فيه؟ قال : ألف دينار ، فأدخله داره ووزن له ألف دينار ، ثم إن الرجل وجد هميانه ، فجاء إلىٰ جعفر معتذراً بالمال ، فأبىٰ أن يقبله منه ، وقال : شيء أخرجته من يدي لا أسترده أبداً ، فقال الرجل للناس : من هذا؟ فقالوا[2] : هذا جعفر بن محمد رضي الله عنهما[3][4].

فصل

قال صاحب «المنازل» -رحمه الله[5]- :

«نُكتةُ الفُتوةِ : أَن لا تَشهَدَ لَكَ فَضلاً ، وَلا تَرىٰ لَكَ حَقّاً»[6].

يقول : قلب الفتوة ، وإنسان عينها : أن تفنىٰ بشهادة نقصك ، وعيبك عن فضلك وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم.

والناس في هذا مراتب ، فأشرفها : أهل هذه المرتبة ، وأخسها عكسهم ، وهم أهل الفناء في شهود فضائلهم عن عيوبهم ، وشهود[7] حقوقهم علىٰ

---

(١) الأصل (إيش) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط.

(٢) ب (قالوا).

(٣) غ ، أ ، م (عنه) ، ب (عنهم).

(٤) صفة الصفوة ٢/ ٢٦٠ ، وفيه أبو حازم المعلىٰ بن سعيد البغدادي ، وابن الجوزي أورده من رواية محمد بن جرير الطبري ثم ذكر القصة مرة أخرىٰ لكن عن شخص آخر ٤/ ٤٠١.

(٥) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٦) منازل السائرين ٤٧.

(٧) ق (وبشهود).

الناس عن[١] حقوق الناس عليهم.

وأوسطهم: من شهد هذا وهذا، [٢]يشهد ما فيه من العيب[٣] والكمال، ويشهد حقوق الناس عليه وحقوقه عليهم.

درجات الفتوة

قال: «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ الأُولَىٰ: تَرْكُ الخُصُومَةِ، وَالتَّغَافُلُ عَنِ الزَّلَّةِ، وَنِسْيَانُ الأَذِيَّةِ»[٤].

الدرجة الأولى

هذه الدرجة من باب الترك والتخلي، وهي أن لا يخاصم[٥] أحداً، فلا ينصب[٦] نفسه خصماً لأحد غيرها، فهي خصمه.

وهذا المنزل[٧] أيضاً ثلاث درجات، لا يخاصم بلسانه، ولا ينوي الخصومة بقلبه ولا يخطرها علىٰ باله، هذا في حق نفسه.

وأما في حق ربه: فالفتوة أن يخاصم بالله[٨]، وفي الله، ويحاكم إلىٰ الله، كما كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «وبك خاصمت، وإليك

---

(١) أ، ب، غ، ق، ط زيادة (شهود).

(٢) أ، ب، غ، ط زيادة (الفاء).

(٣) أ، ب، غ، ط (ما في).

(٤) منازل السائرين ٤٨.

(٥) الأصل (تخاصم) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٦) الأصل (تنصب) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ق، ط.

(٧) ق (وهذه المنزلة).

(٨) أ، ب، غ (في الله وبالله).

حاكمت»[١] ، وهذه درجة فتوة العلماء الدعاة[٢] إلىٰ الله تعالىٰ ، وأما التغافل عن الزلة فهو أنه إذا رأىٰ من أحد زلة يوجب عليه الشرع أخذه بها ، أظهر أنه لم يرها لئلا يعرض صاحبها للوحشة ويريحه من تحمل العذر.

وفتوة التغافل : أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية[٣].

قال أبو علي الدقاق- رحمه الله[٤] - : جاءت امرأة فسألت حاتماً عن مسألة؟ فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة ، فخجلت فقال حاتم : ارفعي صوتك ، فأوهمها أنه أصم ، فَسُرَّت المرأة بذلك ، وقالت : إنه لم يسمع الصوت ، فلقب[٥] بحاتم الأصم وهذا التغافل هو نصف الفتوة[٦].

وأما «نِسْيَانُ الأَذِيَّةِ» فهو أنك[٧] تنسىٰ أذية من نالك بأذىٰ، ليصفو قلبك[٨] ولا

---

(١) البخاري. التهجد (١/ ٣٤٩) ح(١١٢٠) ، مسلم. صلاة المسافرين (١/ ٥٣٣) ح(٧٦٩).

(٢) (التاء) سقطت من ش.

(٣) ومما قيل في موضوع التغافل ، قول عمرو بن عثمان المكي : « المروءة التغافل عن زلل الإخوان » شعب الإيمان ٦/ ٣٣٠ ، وقال سفيان : « ما زال التغافل من فعل الكرام » عون المعبود ١٠/ ١٢٩ ، وقال الإمام أحمد : « العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل » تهذيب الكمال ١٩/ ٣٧٠.

(٤) (رحمه الله) سقطت من جميع النسخ.

(٥) أ ، ب ، غ (ولقب).

(٦) تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٤.

(٧) ط (بأن) بدل (أنك).

(٨) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط زيادة (له).

تستوحش منه.

قلت : وهنا نسيان آخر أيضاً ، وهو من الفتوة ، وهو نسيان إحسانك إلىٰ من أحسنت إليه ، حتىٰ كأنه لم يصدر منك ، وهذا النسيان أكمل من الأول ، وفيه قيل[1] :

يَنسَىٰ صَنَائعَه ، واللهُ يظْهِرُها إنَّ الجَمِيلَ إذا أخْفَيتَهُ ظَهَرا[2]

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : أَنْ تُقَرِّبَ مَن يُقْصِيكَ ، وَتُكَرِّمَ مَنْ يُؤْذِيكَ ، وَتَعْتَذِرَ إِلىٰ مَنْ يَجْنِي عَلَيكَ ، سَمَاحَةً لَا كَظْماً ، وَمَوَدَّةً[3] لاَ مُصَابَرَةً[4]»[5].

هذه الدرجة أعلىٰ مما قبلها وأصعب ، فإن الأولىٰ : تتضمن ترك المقابلة والتغافل ، وهذه تتضمن الإحسان إلىٰ من أساء إليك ، ومعاملته بضد ما عاملك به ، فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خِطَّتين، فخطتك: الإحسان ، وخطته : الإساءة وفي مثلها قال القائل :

---

(١) م (كما قيل).

(٢) القائل سهل بن هارون ، انظر أدب الدنيا والدين ٢٤٧.

(٣) ط (مودة) ، المنازل (وبراحاً) ، وفي هامش طبعة رشيد رضا قال : في نسخة المتن ـ ولعله المنازل ـ (تواداً)٢/ ١٩٣.

(٤) أ (لا صبراً).

(٥) منازل السائرين (٤٨).

إذا مَرِضْنَا أَتَيناكُم نعُودُكُم وتُذْنبون ، فنأتِيكُم[١] ونَعْتذرُ[٢]

ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي ، فلينظر إلىٰ سيرة النبي ﷺ مع الناس يجدها[٣] هذه بعينها ، ولم يكن[٤] كمال هذه الدرجة لأحد سواه ، ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة ، وما رأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - وكان بعض أصحابه الأكابر يقول : وددت أني[٥] مثله لأعدائه ، وخصومه[٦].

وما رأيته يدعو علىٰ أحد منهم قط ، وكان يدعو لهم.

وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه ، وأشدّهم عداوة وأذىٰ له ، فنهرني وتنكّر لي واسترجع ، ثم قام من فوره إلىٰ بيت أهله فعزّاهم ، وقال : أنا[٧] لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلىٰ مساعدة إلا وساعدتكم فيه[٨] ،

---

(١) أ ، ب ، غ (ونأتيكم).

(٢) القائل : المؤمل بن أميل المحاربي ، معجم الشعراء (ص٣٨٥) ، ورواية البيت (فنعتذر).

(٣) الأصل (تجدها) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ط.

(٤) ق (تكن).

(٥) الأصل (أنّ) والصحيح ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ط.

(٦) ومما قال بعض خصومه : «ما رأينا مثل ابن تيمية حرّضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا».

انظر : البداية والنهاية ١٤/ ٥٣ ـ ٥٥.

(٧) ط (إني).

(٨) م (عليه).

ونحو هذا[1] الكلام ، فسروا به[2] ودعوا له ، وعظّموا هذه الحال منه[3] ، وهذا مفهوم.

إلا[4] [الاعتذار إلىٰ من يجني عليك فإنه غير مفهوم][5] في بادي الرأي ، إذ لم يصدر منك جناية توجب اعتذاراً ، وغايتك : أنك لا تؤاخذه ، فهل تعتذر إليه من تلك المؤاخذة.

ومعنىٰ هذا : أنك تنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه ، والجاني خليق بالعذر.

والذي يُشهدك هذا المشهد : أن[6] تعلم أنه إنما سُلِّط عليك بذنب ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ[7]﴾[الشورىٰ : ٣٠].

فإذا علمت أنك بدأت بالجناية فانتقم الله[8] منك علىٰ يده : كنت في الحقيقة أولىٰ بالاعتذار.

والذي يهوّن عليك هذا كله : مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدمة ،

---

(١) م ، أ ، ب ، ق زيادة (من) ، ط (هذا من).

(٢) ق (بذلك) بدل (به).

(٣) ق زيادة (فرحمه الله ورضي عنه).

(٤) أ ، ب ، غ ، م ، ط (وأما) بدل (إلا).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٦) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط (أنك).

(٧) ط زيادة (ويعفو عن كثير).

(٨) ط (بالله).

فعليك بها ، فإن فيها كنوز المعرفة والبر.

وقوله : «**سَمَاحَةً لا كَظْماً ، وَتَوَاداً[1] لا[2] مُصَابَرَةً**».

يعني : اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحة ، وطيبة نفس ، وانشراح صدر ، لا عن كظم ، وضيق ومصابرة ، فإن ذلك دليل علىٰ أن هذا ليس في خلقك ، وإنما هو تكلف يوشك أن يزول ، ويظهر حكم الخلق[3] فتفتضح ، وليس المقصود إلا إصلاح[4] الباطن والسر والقلب.

وهذا الذي قاله الشيخ لا يمكن إلا بعد العبور علىٰ جسر المصابرة والكظم فحينئذ[5] إذا تمكن فيه[6] أفضىٰ به إلىٰ هذه المنزلة بعون الله[7].

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : أَنْ لا تَتَعَلَّقَ فِي السَّيرِ بِدَلِيلٍ ، وَلا تَشُوبَ إِجَابَتَكَ بِعِوَضٍ[8] ، وَلا تَقِفَ فِي شُهُودِكَ عَلَىٰ رَسْمٍ**»[9].

---

(١) أ ، ب ، غ (موادة) ، ط (مودة).

(٢) ط زيادة (الواو) أي (ولا).

(٣) ط زيادة (صريحاً).

(٤) ش سقطت (الألف) من (صلاح).

(٥) (فحينئذ) سقطت من ط وفيها (فإذا) بدل (إذا).

(٦) أ ، ب ، غ ، ط (منه).

(٧) ق ، ط زيادة (والله أعلم).

(٨) ب (تعويض).

(٩) منازل السائرين ٤٨ .

هذه ثلاثة أمور اشتملت عليها هذه الدرجة.

فأما[١] عدم تعلقه في السير بدليل : فقد بين مراده[٢] به في آخر الباب ، إذ يقول : «وَفِي عِلمِ الخُصُوصِ : مَنْ طَلَبَ نُورَ الحَقِيقَةِ عَلىٰ قَدَمِ[٣] الاستِدلالِ[٤] لَم يَحِلَّ لَهُ دَعوَىٰ الفُتوةِ أَبَداً»[٥].

وهذا موضع عظيم يحتاج إلىٰ تبيين وتقدير[٦].

والمراد : أن السائر إلىٰ الله يسير علىٰ قدم اليقين ، وطريق البصيرة والمشاهدة فوقوفه مع الدليل[٧] ، دليل علىٰ أنه لم يَشُمّ رائحة اليقين ، والمراد بهذا : أن المعرفة عندهم[٨] ضرورية لا استدلالية ، وهذا هو الصواب ، ولهذا لم تَدْعُ الرسل قط الأمم إلىٰ الإقرار بالصانع سبحانه وتعالىٰ ، وإنما دعوهم إلىٰ عبادته وتوحيده ، وخاطبوهم خطاب من لا شبهة عنده قط في الإقرار بالله تعالىٰ ، ولا هو محتاج إلىٰ الاستدلال عليه[٩] ، ولهذا ﴿ قَالَتْ[١٠] رُسُلُهُمْ

---

(١) أ ، ب ، غ ، ط سقطت (الفاء).

(٢) ق (أموره).

(٣) ق (طلب).

(٤) أ ، ب (استخداء) و م ، غ (استحذاء) و ق (الاستخذاء).

(٥) منازل السائرين ٤٨.

(٦) ق (تقرير).

(٧) الأصل وغيرها (دليل) والأقرب ما أثبته من ط ، وطبعة رشيد رضا ٢/ ١٩٤.

(٨) حاشية م (عندك).

(٩) (عليه) سقطت من ش.

(١٠) جميع النسخ سوىٰ ط زيادة (لهم) والصحيح حذفها كما هو في القرآن الكريم.

أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] وكيف يصح الاستدلال علىٰ مدلول هو[1] أظهر من دليله؟ حتىٰ قال بعضهم: كيف أطلب الدليل علىٰ من هو دليل علىٰ كل شيء؟ فتقيد السائر بالدليل وتوقفه عليه، دليل علىٰ عدم يقينه، بلىٰ[2] إنما يتقيد بالدليل الموصل له إلىٰ المطلوب بعد معرفته به، فإنه يحتاج بعد معرفته به[3] إلىٰ دليل يوصله إليه، ويدله علىٰ طريق الوصول إليه، وهذا الدليل: هو الرسول ﷺ، فهو موقوف عليه يتقيد به، لا يخطو خطوة إلا وراءه.

وأيضاً[4] فالقوم يشيرون إلىٰ الكشف، ومشاهدة الحقيقة، وهذا لا يمكن طلبه بالدليل أصلاً، ولا يقال: ما الدليل علىٰ حصول هذا؟ وإنما يحصل بالسلوك في منازل السير، وقطعها منزلة منزلة، حتىٰ يصل إلىٰ المطلوب، فوصوله إليه بالسير لا بالاستدلال،[5] بخلاف وصول المستدل، فإنه إنما يصل إلىٰ العلم، ومطلوب القوم وراءه، والعلم منزلة من منازلهم - كما سيأتي ذكرها إن شاء الله تعالىٰ - ولهذا يُسمون أصحاب الاستدلال: أصحاب القال، وأصحاب الكشف: أصحاب الحال، والقوم عاملون علىٰ الكشف الذي

(١) أ، ب زيادة (الواو) أي (وهو).

(٢) ط (بل).

(٣) (به) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(٤) ق (فإن).

(٥) ق زيادة (لا).

يحصل بنور العيان ، لا علىٰ العلم الذي ينال بالاستدلال والبرهان[1].

وهذا موضع غلط واشتباه ، فإن الدليل في هذا المقام شرط ، و[2]كذلك العلم وهو باب لا بد من دخوله إلىٰ المطلوب ، ولا يوصل إلىٰ المطلوب إلا من بابه ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة :١٨٩].

ثم إنه يُخاف علىٰ من لا يقف مع[3] الدليل ما هو أعظم الأمور[4] ، وهو الانقطاع عن المطلوب[5] بالكُلِّية ، والوصول إلىٰ مجرد الخيال والمحال ، فمن خرج عن الدليل : ضلّ[6] سواء السبيل.

---

(١) قال شيخ الإسلام معلقاً علىٰ أحوال بعض الصوفية : «فالمخاطبات كدلالة النصوص والإشارات كدلالة القياس..» الاستقامة ١/ ٣٩٠ ، وهذا مستمد من مذهب أفلاطون والغنوصيين إذ الألفاظ عندهم ظل شاحب ، وأن المعرفة الحقة لا تدرك إلا بالتأمل الباطن العميق ، والنصوص العلمية عند الفلاسفة الصوفية حجاب يمنع الحقائق ، أما الكشف والمشاهدة فهي رافعة للشك والظن ، فحل علم القلوب التأملي الباطن محل العلم المستمد من الكتاب والسنة ، انظر في ذلك الفتوحات المكية ٤/ ٣٠٤ ، طبقات الشعراني ١/ ٥ ، انظر إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/ ٤٨٠ ، وانظر ملخص ذلك في نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها. عرفان فتاح ص٧٧ ـ ٧٩.

(٢) م (لذلك).

(٣) الأصل (علىٰ) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ق ، م ، ش ، ط.

(٤) ط زيادة (وأشدها خطراً).

(٥) أ ، ب ، غ ، ط (الطلب).

(٦) م زيادة (عن) وكذا حاشية غ و (ضل) ساقطة من ق.

فإن قيل: تعلقه في السير[1] بالدليل: يفرق عليه عزمه وقلبه، فإن الدليل يفرق والمدلول يجمع، فالسالك يقصد الجمعية علىٰ المدلول، فما له[2] ولتفرقة الدليل؟.

قيل: هذه هي البلية التي لأجلها أعرض من أعرض من السالكين عن العلم ونهىٰ عنه، وجعله[3] علة[4] في الطريق، ووقع في زمن الشيوخ القدماء العارفين فأنكروه غاية الإنكار، وتبرّؤوا منه ومن قائله، وأوصوا بالعلم، وأخبروا أن طريقهم مقيدة بالعلم، لا يفلح فيها من لم يتقيد بالعلم، والجنيد كان من أشد الناس مبالغة في الوصية بالعلم، وحثاً لأصحابه عليه[5].

والتفرق في الدليل خير من الجمعية علىٰ الوهم والخيال، فإنه لا يعرف كون الجمعية حقاً[6] إلا بالدليل والعلم، فالدليل والعلم ضروريان للصادق، لا يستغني عنهما.

نعم بيِّنتُه[7] ونورُ بصيرتِه وكشفُه: يغنيه عن كثير من الأدلة التي يتكلفها

---

(١) أ، ب، غ، ط (المسير).

(٢) ق (فما باله).

(٣) غ، ط (جعلت).

(٤) (علة) سقطت من أ، ب، غ.

(٥) نقل وصية الجنيد بالعلم شيخ الإسلام في الاستقامة ٢/ ١٤١، ولشيخ الإسلام كلام نفيس حول هذه المسألة، انظر العقيدة الأصفهانية ٢/ ١٤٧.

(٦) ق زيادة (أو باطلاً).

(٧) أ، ب، غ، م، ش، ق، ط (يقينه).

المتكلمون[1] وأرباب القال، فإنه مشغول عنها بما هو أهم منها، وهو الغاية المطلوبة.

مثاله: أن المتكلم يفني زمانه في تقرير حدوث العالم، وإثبات وجود الصانع، وذلك أمر مفروغ منه عند السالك الصادق صاحب اليقين، فالذي يطلبه هذا بالاستدلال - الذي هو عرضه الشبه، والأسئلة، والإيرادات التي لا نهاية لها - هو كشف ويقين للسالك، فتقيده في سلوكه بحال هذا المتكلم انقطاع، وخروج عن الفتوة.

وهذا حق لا ينازع فيه عارف، فترىٰ المتكلم يبحث في الزمان والمكان، والجواهر والأعراض، والأكوان، وهمته مقصورة عليها لا يعدوها ليصل[2] منها إلىٰ المكون وعبوديته، والسالك قد جاوزها إلىٰ جمع القلب علىٰ المكون وعبوديته بمقتضىٰ أسمائه وصفاته، لا يلتفت إلىٰ غيره، ولا يشتغل قلبه بسواه.

فالمتكلم متفرق[3] مشتغل في معرفة حقيقة الزمان والمكان، والعارف قد شح بالزمان أن يذهب ضائعاً في غير السير إلىٰ رب الزمان والمكان.

وبالجملة: فصاحب هذه الدرجة لا يتعلق في سيره بدليل، ولا يمكنه السير إلا خلف الدليل، وكلاهما يجتمع في حقه، فهو لا يفتقر إلىٰ دليل علىٰ

---

(١) أ، ب، غ، ط (المتكلفون).

(٢) ق، ش (ليصعد) وهي كذلك في حاشية م.

(٣) أ، ب، غ، م، ق، ط (مستغرق).

وجود المطلوب ولا يستغني طرفة عين عن دليل يوصله إلىٰ المطلوب ، فسير الصادق علىٰ البصيرة واليقين والكشف ، لا علىٰ النظر والاستدلال(١).

وأما قوله : «وَلا تَشُوبَ إِجَابَتَكَ بِعِوَضٍ».

أي تكون إجابتك لداعي الحق خالصة ، إجابة محبة ورغبة ، وطلب للمحبوب ذاته غير مشوبة بطلب من الحظوظ والأعواض ، فإنه متىٰ حصل لك حصل لك كل عوض وكل حظ(٢) وكل قسم ، كما في الأثر الإلهي : «ابن آدم، اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كلّ شيء، وإن فُتّك(٣) فاتك كل شيء ، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء»(٤).

فمن أعرض عن طلب(٥) ما سوىٰ الله ، ولم يشب طلبه له بعوض ، بل كان حُبّاً له ، وإرادة خالصة لوجهه ، فهو في الحقيقة الذي يفوز بالأعواض والأقسام والحظوظ كلها ، فإنه لما لم يجعلها غاية طلبه ، توفرت عليه في حصولها ، وهو(٦) محمود مشكور مقرب ، ولو كانت هي مطلوبة لنقصت عليه

---

(١) قوله : «علىٰ البصيرة واليقين» تدل علىٰ ضرورة اتباع الدليل فهما لا يحصلان إلا به ، ولعل نفيه النظر والدليل يكفي عنه ما سبق من تعليق ، وهو أنه لا يحتاج إلىٰ دليل في معرفة الخالق ووجوده.

(٢) ط زيادة (به).

(٣) ب (فاتك ، فاتك).

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٠٢ ، ٤/ ٢٣٩ ، جامع العلوم والحكم ٣٦٢.

(٥) ب زيادة (كل).

(٦) غ (وهي).

بحسب اشتغاله بطلبها وإرادتها عن طلب الرب تعالىٰ لِذاته وإرادته.

فهذا قلبه ممتلئ بها [والحاصل له منها : نـزر[١] يسير ، والعارف ليس قلبه متعلقاً بها وقد حصلت له كلها ، فالزهد][٢] فيها لا يُفتكَهَا ، بل هو عين حصولها ، والزهد في الله هو الذي يفيتكه ويفيتك الحظوظ ، وإذا كان لك أربعة عبيد[٣] ، أحدهم يريدك ولا يريد منك؛ بل إرادته مقصورة عليك وعلىٰ مرضاتك ، والثاني يريد منك ولا يريدك؛ بل إرادته مقصورة علىٰ حظوظه منك، والثالث يريدك ويريد منك ، والرابع لا يريدك ولا يريد منك؛ بل هو متعلق القلب ببعض عبيدك ، فله يريد ومنه يريد ، فإنّ آثَرَ العبيد عندك و[٤]أحبّهم إليك وأقربهم منك منزلة ، والمخصوص من إكرامك و[٥]عطائك بما لا يناله[٦] العبيد الثلاثة : هو الأول و[٧]هكذا نحن عند الله سواء.

وأما قوله : «وَلاَ تَقِفَ فِي شُهُودِكَ عَلَىٰ رَسْمٍ».

[٨] أي لا يكون منك نظر إلىٰ السوىٰ عند الشهود [٩] ، كما تقدم مراراً.

---

(١) ب (نزل).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٣) أ (عبيد أربعة).

(٤) (الواو) سقطت من أ ، ب.

(٥) م ، أ ، ب زيادة (الألف).

(٦) ش (تنال).

(٧) (الواو) سقطت من بقية النسخ.

(٨) ط (فيعني أن لا يكون).

(٩) موضوع الشهود والفناء عن السوىٰ تقدم (ص ١٦٦٤ ، ١٧٢٣ ، ١٧٢٧).

وهذا عند القوم غير مكتسب ، فإن الشهود إذا صحَّ محَا الرسومَ ضرورةً في نظر الشاهد ، فلا حاجة إلىٰ أن يشرط عليه عدم الوقوف عليها[١] ، والشهود الصحيح ماحٍ لها بالذات؛ لكن أوله قد لا يستغني عن الكسب ، ونهايته لا تقف علىٰ كسب.

قال : «وَاعلَمْ أَنَّ مَنْ أَحوجَ عَدُوَّهُ[٢] إلىٰ شَفَاعَةٍ ، وَلَم يَخْجَلْ مِن المَعْذِرَةِ إِلَيهِ : لَم يَشُمَّ رَائِحَةَ الفُتوةِ»[٣].

يعني أن العدو متىٰ علم أنك متألم من جهة ما نالك من الأذىٰ منه احتاج إلىٰ أن يعتذر إليك[٤] ، ويُشَفِّع إليك[٥] شافع[٦] يزيل ما في قلبك منه ، فالفتوة كل الفتوة : أن لا تحوجه إلىٰ الشفاعة ، بأن لا يظهر له منك عتب ولا تغير عما كان له منك قبل معاداته ، ولا تطوي عنه بشرك ولا بِرَّك ، وإذا لم تخجل أنت من قيامه بين يديك مقام المعتذر لم يكن لك في الفتوة نصيب.

ولا تستعظم هذا الخلق ، فإن في الفتيان[٧] ما هو أكبر[٨] منه ولا تستصعبه ،

---

(١) (عليها) سقطت من ق.

(٢) ش (عدوك).

(٣) منازل السائرين (٤٨).

(٤) الأصل (إليه) والأقرب ما أثبته من ق ونسخة رشيد رضا (ص٢/ ١٩٦).

(٥) (إليك) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) ط (شافعاً).

(٧) غ (فإن الفتيان) ، ط (فإن للفتيان).

(٨) ش (أكثر).

فإنه موجود[١] في كثير من الشطار[٢] والعشراء[٣][٤] الذين ليس لهم في حال المعرفة ولا في لسانها نصيب ، فأنت أيها العارف أولىٰ به.

قال : «وَفِي[٥] عِلْمِ الخُصُوصِ : مَنْ طَلَبَ نُورَ الحَقِيقَةِ عَلَىٰ قَدَمِ الاستِدلَالِ : لَمَ يَحِل لَهُ دَعْوَىٰ الفُتُوَّةِ أَبَداً»[٦].

كأنه يقول : إذا لم تحوج عدوك إلىٰ العذر والشفاعة ، ولم تكلِّفه[٧] طلب الاستدلال علىٰ صحة عذره ، فكيف تحوج وليك وحبيبك إلىٰ أن يقيم لك الدليل علىٰ التوحيد والمعرفة ، ولا تشير إليه حتىٰ يقيم لك دليلاً علىٰ وجوده ووحدانيته ، وقدرته ومشيئته؟ فأين هذا من درجة الفتوة؟.

وهل هذا إلا خلاف الفتوة من كل وجه؟.

ولو أن رجلاً دعاك إلىٰ داره ، فقلت للرسول : لا آتي معك حتىٰ تقيم الدليل علىٰ وجود من أرسلك ، وأنه مطاع ، وأنه أهل أن يغشىٰ بابه ، لكنت[٨]

---

(١) ب (موجب) وفي هامشها (موجود).

(٢) الشطار : الشاطر الذي أعيا أهله خُبثاً ، مختار الصحاح ٣٣٧.

(٣) (العشراء) سقطت من غ.

(٤) العشراء : اعتشر القوم ، تخالطوا وتصاحبوا ، من العشرة والمخالطة ، المعجم الوسيط ٢/ ٦٠٢.

(٥) في المنازل (ثمّ في)

(٦) منازل السائرين ٤٨.

(٧) الأصل (يكلفه) والأقرب ما أثبته من ق ونسخة رشيد رضا ٢/ ١٧٩.

(٨) ط (لسكنت).

في دعوىٰ الفتوة زنيماً[1] فكيف بمن وجوده ، ووحدانيته ، وقدرته ، وربوبيته وإلهيته : أظهر من كل دليل تطلبه؟ فما دليل يستدل به ، إلا ووحدانية الله وكماله أظهر منه ، فإقرار الفطر بالرب سبحانه خالق العالم : لم يوقفها عليه[2] موقف ، ولم تحتج فيه إلىٰ نظر واستدلال ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم : ١٠] فأبعد الناس من درجة الفتوة : طالب الدليل علىٰ ذلك.

وليس يَصحُّ في الأذهان شَيءٌ   إذا احتاج النَّهارُ إلىٰ دَلِيلِ[3] .

* * *

(١) زنيماً : الزنيم المستلحق في قوم ليس منهم ، مختار الصحاح ٢٧٦.

(٢) ط (عليها).

(٣) القائل المتنبي ، انظر ديوانه بشرح العكبري (٣/ ٩٢) ، وبشرح البرقوقي (٣/ ٢١٥) ولفظه (في الأفهام).

فصل[1]

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «المروءة»[2]. منزلة المروءة

و[3] «المروءة» فعولة من لفظ المرْء ، كالفتوة[4] من الفتىٰ ، والإنسانية من الإنسان ولهذا كان حقيقتها : اتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوان البهيم ، والشيطان الرجيم ، فإن في النفس ثلاثة[5] دواع متجاذبة : داع يدعوها إلىٰ الاتصاف بأخلاق الشيطان : من الكبر والحسد والعلو ، والبغي ، والشر ، والأذىٰ ، والفساد ، والغش.

---

(١) في حاشية الأصل (منزلة المروءة).

(٢) المروءة : قوة للنفس ، مبدأ لصدور الأفعال الجميلة عنها المستتبعة للمدح شرعاً وعقلاً وعرفاً. وقيل هي إصلاح المال ، والرزانة في المجلس والغداء والعشاء بالفناء وقيل هي مجانبة اللذة، وقيل هي العفَّة والحرفة، ومنها طلاقة الوجه والتودد للخلق وقضاء حوائجهم، وقيل الرياسة والفصاحة ، وفي لسان العرب هي كمال الرجولة ، وهذه المنزلة ذكرها ابن القيم وليست من منازل السائرين. انظر التعريفات ٢١٠ ، عيون الأخبار ١/ ٢٩٥ ، شعب الإيمان ٢/ ٢٧٥ ، ٣/ ١٨٣ ـ ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، لسان العرب ١/ ١٥٤. ومن المراجع التي جمعت جملة من المعاني/ عيون الأخبار ١/ ٢٩٥، شعب الإيمان ٢/ ٢٥٧، ٣/ ١٨٣ ، التوقيف للمناوي ٢/ ٦٥٠ ، سير أعلام النبلاء ٤/ ٩٣ ، حلية الأولياء ٢/ ٣٦ ، ٣/ ١٥٥.

(٣) (الواو) سقطت من ط.

(٤) في لسان العرب قال (المروءة) مرؤ الرجل يمرؤ مروءة فهو مريء علىٰ (فعيل) وتمرأ علىٰ (تفعّل) ١/ ١٥٥.

(٥) ب ، م (ثلاث).

وداع يدعوها إلىٰ أخلاق الحيوان ، وهو[1] داعي الشهوة.

وداع يدعوها إلىٰ أخلاق الملك : من الإحسان ، النُّصح ، البِرِّ ، والعلم ، والطاعة.

فحقيقة المروءة : بغض ذينك الداعيين ، وإجابة[2] الداعي الثالث ، وقلة المروءة وعدمها : هو الاسترسال مع ذينك الداعيين ، والتوجه لدعوتهما أين كانت.

فالإنسانية والمروءة والفتوة : كلها في عصيان الداعيين ، وإجابة الداعي الثالث ، كما قال بعض السلف : خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة ، وخلق البهائم شهوة بلا عقول ، وخلق ابن آدم ، وركَّب فيه العقل والشهوة ، فمن غلب عقله علىٰ شهوته : التحق بالملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله : التحق بالبهائم[3].

حقيقة المروءة وتعريفها

ولهذا قيل في حد المروءة : أنها غلبة العقل للشهوة.

وقال الفقهاء في حدِّها : هي استعمال ما يجمل العبد ويزينه ، وترك ما يدنِّسه ويشينه[4].

---

(١) ق (وهي).

(٢) الأصل (هذا) والأقرب حذفها كما في أ ، ب ، غ ، ط.

(٣) نحوه شعب الإيمان ١/ ١٧٩ ، عدة الصابرين ١٥ ، مفتاح دار السعادة ١/ ١٠٤.

(٤) روضة القضاة للسمناني ١/ ٢٣٩.

وقيل المروءة استعمال كل خلق حسن ، واجتناب كل خلق قبيح[١].

وحقيقة «المروءة» تجنب الدنايا[٢] والرذائل ، من الأقوال والأخلاق والأعمال.

فمروءة اللسان[٣] : حلاوته وطيبته ولينه ، واجتناء الثمار منه بسهولة ويسر.

ومروءة الخُلُق : سعته وبسطه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال : الإصابة ببذله مواقعه المحمودة عقلاً وعرفاً[٤] وشرعاً.

ومروءة الجاه[٥] : بذله لمن يحتاج إليه.

ومروءة الإحسان : تعجيله وتيسيره وتوفيره وعدم رؤيته حال وقوعه ، ونسيانه بعد وقوعه ، فهذه مروءة البذل.

وأما مروءة الترك : فكترك[٦] الخصام والمعاتبة ، والمطالبة والمماراة ، والإغضاء عن عيب ما يأخذه من حقك ، وترك الاستقصاء في طلبه ، والتغافل عن عثرات الناس، وإشعارهم أنك لا تعلم لأحد منهم عثرة، والتوقير للكبير ، وحفظ حرمة النظير ، ورعاية أدب الصغير ، وهي ثلاث درجات.

---

(١) انظر التوقيف للمناوي ٢/ ٦٥٠.

(٢) ط (للدنايا).

(٣) الأصل وغيرها (الإنسان) والأقرب ما أثبته من ط.

(٤) (عرفاً) سقطت من أ ، ب.

(٥) (الجاه) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) أ ، ب ، غ ، ط (فترك).

درجات المروءة

الدرجة الأولى

الدرجة الأولىٰ : مروءة المرء مع نفسه ، وهي أن يحملها سراً[١] علىٰ مراعاة[٢] ما يجمل[٣] ويزين ، وترك ما يدنس ويشين ، ليصير لها ملكة في العلانية ، فمن اعتاد[٤] شيئاً في سره وخلوته : ملكه في علانيته وجهره[٥] ، فلا يكشف عورته في الخلوة ، ولا يتجشَّأ بصوت مزعج ما وجد إلىٰ خلافه سبيلاً ، ولا يُخرج الرِّيح بصوت وهو يقدر علىٰ خلافه ، ولا يجشع[٦] وينهم عند أكله وحده.

وبالجملة : فلا يفعل خالياً ما يستحي من فعله في الملأ ، إلا ما لا يحظره الشرع والعقل ، ولا يكون إلا في الخلوة ، كالجماع والتخلي ونحو ذلك.

الدرجة الثانية

الدرجة الثانية : المروءة مع الخلق ، بأن يستعمل[٧] معهم شروط الأدب والحياء ، والخلق الجميل ، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه[٨] ، وليتخذ الناس مرآة لنفسه ، فكل ما كرهه ونفر عنه ، من قول أو فعل أو خلق ،

---

(١) أ ، ب ، غ ، ط (قسراً).

(٢) (مراعاة) سقطت من ط.

(٣) الأصل (يحمل) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ.

(٤) أ ، ب ، غ ، ط (أراد).

(٥) ط (جهره وعلانيته).

(٦) ب (يتجشع).

(٧) ط (يستعلم).

(٨) (لنفسه) سقطت من ش.

فليجتنبه[١]، وما أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله.

وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكل من خالطه وصاحبه من كامل وناقص، وسيئ الخلق وحسنه، وعديم المروءة وغزيرها[٢].

وكثير من الخلق[٣]: يتعلم المروءة، ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها كما روي[٤] عن[٥] بعض الأكابر: أنه[٦] كان له مملوك سيئ الخلق، فظٌّ[٧] غليظ، لا يناسبه، فسئل عن ذلك؟ فقال: أدرس عليه مكارم الأخلاق.

وهذا[٨] يكون بمعرفة مكارم الأخلاق من[٩] ضد أخلاقه، ويكون[١٠] بتمرين النفس علىٰ مصاحبته ومعاشرته، والصبر عليه.

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه، بالاستحياء من نظره إليك، الدرجة الثالثة

---

(١) أ، ب، غ، ط (فليتجنبه).

(٢) الأصل (وعزيرها) وفي ب (وعزيزها) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٣) أ، ب، غ، م، ق، ط (الناس).

(٤) ق، ش (رأىٰ).

(٥) الأصل (عند) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٦) (أنه) سقطت من ش.

(٧) فظّ: الفظّ من الرجال الغليظ، مختار الصحاح ٥٠٧.

(٨) (وهذا) سقطت من م.

(٩) أ، ب، غ، ط (في).

(١٠) ب (بكون).

واطلاعه عليك في كل لحظة ونَفَس، و(١)بإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان، فإنه قد اشتراها منك وأنت ساع في تسليم المبيع، وتقاضي الثمن، وليس من المروءة تسليمه علىٰ ما فيه من العيوب، وتقاضي الثمن كاملاً، أو رؤية شهود(٢) مننه(٣) في هذا الإصلاح، وأنه هو المتولي له، لا أنت، فيغنيك الحياء منه عن رسوم الطبيعة، والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلىٰ عيب غيرك، وشهود الحقيقة عن رؤية فعلك وصلاحك.

وكل ما تقدم في منزلة «الخلق» و«الفتوة» فإنه بعينه في هذه المنزلة(٤)، فلذلك اقتصرنا منها علىٰ هذا القدر، وصاحب المنازل - رحمه الله - استغنىٰ عنها(٥) بما ذكر في الفتوة، والله أعلم.

* * *

(١) (الباء) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(٢) (شهود) سقطت من أ، ب، غ، ط، وفي ش (رؤيتك شهود) وفي م (وبرؤية شهود).

(٣) أ، ب، غ، ق، ط (منته).

(٤) ب، غ، ط (المسألة).

(٥) (عنها) سقطت من ط.

فصل[1]

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «العزم[2]»[3]. منزلة العزم

[4] وقد ذكرنا في أول الكتاب أنه نوعان[5] :

أحدهما : عزم المريد على الدخول في الطريق ، وهو بداية.

والثاني : عزم السالك ، وهو مقام ذكره صاحب المنازل في وسط كتابه في قسم الأصول - فقال : «هُوَ تحقِيقُ القَصدِ طَوْعاً أَو كَرْهاً»[6].

أما قوله : «تحقِيقُ القَصْدِ» فهو أن يكون قصده محققاً ، لا يشوبه شيء من التردد.

---

(١) هامش ش (باب العزم).

(٢) في هامش أ ، غ كتبت هذه العبارة (قسم الأصول وهو عشرة أبواب، القصد، والعزم والإرادة ، واليقين والأنس والفقر والغنىٰ ومقام المراد) وهي من كلام الهروي في المنازل ٥٠ ، وقد ذكر ابن القيم (القصد) في أول الكتاب ١/ ١٣٣ .

(٣) العزم : تحقيق القصد وهو يعد ثاني أركان أصول الدخول في الطريق حيث إن القصد أولها كما ذكر ذلك الهروي في المنازل ، وهي قوة باعثة علىٰ السير عند الفتور والتراخي والالتفات إلىٰ الوراء ، ومن مقوياته الأدب إذ هو خوف بصورة قبض ، ورجاء بصورة بسط ، لطائف الإعلام ٢/ ١٥٢ .

(٤) غ ، ب (تقدم) بدل (وقد).

(٥) المدارج ١/ ١٣٣ .

(٦) منازل السائرين ٥١ .

وأما تقسيمه هذا التحقيق إلىٰ طوع وكره ، فصحيح ، فإن المختار : تحقيق قصده طوعاً ، وأما المكره : فتحقيق قصده كرهاً ، فإنه إذا أكره علىٰ فعل ، وعزم عليه : فقد حقق قصده كرهاً[1] لا طوعاً.

واختلف الفقهاء والأصوليون في المكره : هل يسمىٰ مختاراً ، أم لا[2].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : التحقيق أنه محمول

(١) (كرهاً) سقطت من ب.

(٢) الإكراه : هو حمل الغير علىٰ ما لا يرضاه من قول أو فعل بحيث لا يختار مباشرته لو خلّي ونفسه ، انظر : التلويح علىٰ التوضيح ٣/ ٢٢٦ وله أنواع وشروط ينظر في ذلك عند الأحناف، كشف الأسرار علىٰ البزودي ٤/ ٣٨٣ ، فتح الغفار ٣/ ١١٩ ، وعند المالكية والشافعية والحنابلة ، نزهة المشتاق ١٠٤ ، « وخلاصة الأقوال أن الإكراه ثلاثة أنواع : مسألة الإكراه

إكراه يعدم الإرادة ويسلب القدرة وليس محلاً للتكليف والمسؤولية علىٰ المكره ، وهذا هو الإكراه الملجئ عند الجمهور.

الثاني : إكراه لا يعدم الاختيار بالكلية لكنه يفسده إفساداً يؤثر في الأحكام وهذا هو الملجئ عند الحنفية وعند غيرهم غير ملجئ ؛ لأنه فيه نوع اختيار ، وإن كان اختياراً لأشد الضررين.

الثالث : إكراه غير مفسد للاختيار؛ لكنه يعدم الرضا وهذا هو غير الملجئ عند الحنفية وغيرهم » انتهىٰ ملخصاً من رفع الجروح في الشريعة الإسلامية لفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد ص٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، ومن مظان البحث في هذه المسألة لمن أراد الزيادة : المبسوط للسرخسي ٢٤/ ٤٨ ، حاشية ابن عابدين ٥/ ٨٠ ، فتح القدير لابن الهمام الحنفي ٧/ ٢٩٨ ، بدائع الصنائع للكاساني ٩/ ٤٤٧٩ ، تحفة المحتاج للشربيني ٧/ ٣٦٩ ، الأشباه والنظائر للسيوطي ص٢٠٩ ، الفروع لابن مفلح ٣/ ٣٨٤ ، فتح الباري ١٢/ ٣٨٥ ، أعلام الموقعين ٣/ ١١٨ ، ١٣٤ ، ٤/ ٣٢ ، ٤٨.

علىٰ الاختيار، فله اختيار في الفعل، وبه صح وقوعه، فإنه لولا إرادته واختياره: لما وقع الفعل، ولكنه محمول علىٰ أن[1] هذه الإرادة والاختيار ليست من قبله، فهو مختار باعتبار أن حقيقة الإرادة والاختيار منه، وغير مختار باعتبار أن غيره حمله علىٰ الاختيار، ولم يكن مختاراً من نفسه، هذا معنىٰ كلامه[2].

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: إِبَاءُ الحَالِ عَلَىٰ العِلْمِ، لِشَيْمِ[3] بَرْقِ الكَشْفِ، وَاستِدَامَةُ نُورِ الأُنسِ، والإِجَابَةُ لِإِمَاتَةِ الهَوَىٰ»[4]. درجات العزم الدرجة الأولى

يريد بـ «إبَاء الحَالِ عَلىٰ العِلْمِ» استعصاؤه[5] عليه، وأن صاحب الحال: تأبىٰ[6] عليه حاله أن ينزل منه إلىٰ درجة العلم، ويصعب عليه ذلك كل الصعوبة، وهو انحطاط في رتبته.

ولا يريد امتناع الحال عن طاعة العلم وتحكيمه، فإن هذا انحلال، وانسلاخ من الطريق بالكلية، فكل حال لا يطيع العلم ولا يحكمه فهو حال

---

(١) (أن) سقطت من الجميع وما أثبته من ط وهو الصحيح.

(٢) انظر الفتاوىٰ ٨/ ٤٨١ ـ ٥٠٢، ١٥/ ١١٥.

(٣) المنازل (بِشَيْم) ٥١.

(٤) منازل السائرين ٥١.

(٥) ب (استعصاره).

(٦) ش (يأبىٰ) والأصل (مهمل) أي بدون نقط وما أثبته من بقية النسخ.

فاسد ، مبعد عن الله؛ لكن من وصل إلىٰ حال العلم لم يجبه[1] حاله أن ينزل إلىٰ درجة العلم ، وينحطّ إليها بلا حال.

فإن كان مراده هذا المعنىٰ : فهو[2] صحيح وإن كان مراده : امتناع الحال عن طاعة العلم؛ لأن العلم يدعو إلىٰ أحكام الغيبة والحجاب ، والحال يدعو إلىٰ أنس الكشف والحضور ، فصاحب الحال لا يلتفت إلىٰ العلم : فباطل فإنَّ العلم شرط في الحال تستحيل معرفةُ صحته بدونه[3]. نعم لا ينكر حصوله بدون العلم؛ لكن صاحبه علىٰ غير بصيرة ولا وثوق به.

«وشَيْمُ[4][5] بَرْقِ[6] الكَشْفِ[7]» هو النظر إليه علىٰ بعد ، فإن صاحب الحال :

---

(١) ط (يحجبه حاله).

(٢) غ (فصحيح).

(٣) تقدمت الإشارة إلىٰ هذه المسألة وملخص ما قاله الغزالي وغيره فيها عند منزلة الفتوة عند قوله : (أصحاب الكشف أصحاب حال) ص٢٢٨٦.

(٤) م ، غ (يشم).

(٥) شيم : من شام ، مخايل الشيء تطلع نحوها ببصره منتظراً له ، وشام البرق نظر إلىٰ سحابته أين تمطر ، مختار الصحاح ٣٥٣.

(٦) البرق : هو أول ما يبدو للعبد من اللوامع النورانية ، معجم مصطلحات الصوفية ٣٤ ، وهذا يرجع إلىٰ ترتيب أرباب السلوك في عد المقامات والأحوال ، إذ كلٌّ يصف سيره وحاله وسلوكه؛ لكن اللوامع والبوارق واللوائح تعد عند أول الظهور والبُدُوّ كما يلمع البرق ويلوح عن بعد ، انظر مدارج السالكين ١/ ١٣٥.

(٧) الكشف : تقدم ص١٨٢٩.

عامل علىٰ شيم برق الكشف ، لأن شيم برق الكشف : يوجب نوراً يأنس به القلب ، فعزيمة صاحبه : علىٰ استدامته وحفظه.

وأما «الإِجَابَة لإِمَاتَةِ الهَوَىٰ».

فهو أن السالك إذا أشرف علىٰ الكشف : أحس بحالة شبيهة بالموت ، حتىٰ أن منهم من يسقط إلىٰ[1] الأرض ، ويظن ذلك موتاً ، وهذه الحال من مبادئ الفناء فتهوىٰ نفسه العود إلىٰ الحجاب ، خوفاً من الانعدام ، لما جُبِلت عليه النفس البشرية من كراهة الموت ، فإذا حصل العزم أميت هذا الهوىٰ ، ولم يلتفت إليه ، رغبة فيما يطلبه من الفناء في الفردانية ، فإن الحقيقة[2] لا تبدأ بعد فناء البشرية[3].

وهذا الذي قاله حق ، لا ينكره إلا من لم يذقه ، وإنما الكلام في مرتبته ، وأنه غاية أو توسط أو لازم ، أو عارض؟[4].

فشيخنا[5] - رحمه الله - كان يرىٰ أنه عارض من عوارض الطريق لا يعرض[6] للكمَّل[7] ، ومن السالكين من لم يعرض له البتة.

---

(١) م (علىٰ).

(٢) الحقيقة : تقدم ص١٧١٨ ، ١٨٧٣ .

(٣) فناء البشرية : يوافق هذا النوع الثاني من الفناء وهو الفناء عن شهود السوىٰ/ تقدم ص١٦٦٧ .

(٤) هذا راجع إلىٰ تقسيم الأحوال والمقامات ، وقد شرحه ابن القيم في أول المنازل ١/ ١٣٣ .

(٥) يعني به (الهروي) صاحب منازل السائرين.

(٦) أ ، ب ، غ (لا يتعرض).

(٧) ط (للكل).

ومن الناس من يراه لازماً للطريق لا بد منه.

ومن الناس من يراه غاية لا شيء فوقه.

ومنهم من يراه توسطاً، وفوقه ما هو أجل منه وأرفع، وهو حالة البقاء[١].

فصل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الاستِغرَاقُ فِي لَوَائِحِ المُشَاهَدَةِ، وَاستِنَارَةُ ضِيَاءِ الطَّرِيقِ، وَاستِجمَاعُ قُوَىٰ الاستِقَامَةِ»[٢].

هذه ثلاثة أشياء[٣].

أحدها: فقدان الإحساس بغير شهوده[٤]، لاستغراقه في مشاهدته[٥].

الثاني[٦]: «استِنَارَةُ ضِيَاءِ الطَّرِيقِ».

يعني: ظهور الجادة له ووضوحها، و[٧]اتصالها بمطلوبه، وهذا كمن هو سائر إلىٰ مدينة، فإذا شارفها ورآها: رأىٰ الطريق حينئذ واضحة إليها،

---

(١) أ، ب، غ زيادة (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

(٢) منازل السائرين ٥١.

(٣) م (أمور).

(٤) أ، ب (بغير شهوة) و ش (يعني شهوده) و ط (بغيره) وقد سقطت منها (شهوده).

(٥) ق زيادة (الناس).

(٦) (الثاني) سقطت من ق.

(٧) أ، ب، غ (إيصالها).

واستنار له ضياؤها واتصالها بالمدينة ، وكان قبل مشاهدة المدينة علىٰ علم - أو ظن - يجوز معه أن يضيع عن باب المدينة ، وأما الآن : فقد أمن من أن يضيع عن الباب ، وكذلك هذا السالك : قد انقطعت عنه الموانع ، واستبان له الطريق ، وأيقن بالوصول ، وصارت حاله حال معاين باب المدينة من حين يقع بصره عليه ، وكحال معاين الشفق الأحمر قبل طلوع الشمس حيث يتيقن[1] أن الشمس بعده.

قوله : «واسْتِجْمَاعُ قُوَىٰ الاسْتِقَامَةِ».

يعني : تستجمع[2] له قوىٰ الظاهر والباطن علىٰ قصد الوصول والعزم عليه ، لمشاهدته ما هو سائر إليه ، وهكذا عادة المسافر : أنه إذا عاين القرية التي يريد دخولها أسرع السير وبذل الجهد ، وكذلك المسابق إذا عاين الغاية : استفرغ قوىٰ جريه وسوقه ، وكذلك الصادق في آخر عمره : أقوىٰ عزماً وقصداً من أوله ، لقربه[3] من الغاية التي أجرىٰ[4] إليها[5].

---

(١) أ ، ب ، غ ، ق ، ط (تيقن).

(٢) م ، ش (يستجمع).

(٣) أ ، ط (لقرابه).

(٤) ط (يجري).

(٥) أ ، ب ، غ ، ط زيادة (والله أعلم).

فصل[1]

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: مَعْرِفَةُ عِلَّةِ العَزْمِ، ثُمَّ العَزْمُ[2] عَلىٰ التَّخَلُّصِ مِنَ العَزْمِ، ثُمَّ الخَلَاصُ مِنْ تَكَالِيفِ تَرْكِ العَزْمِ، فَإِنَّ العَزَائِمَ لَمْ تُوَرِّثْ أَرْبَابَهَا مِيرَاثاً أَكْرَمَ مِن وُقُوفِهِمْ عَلىٰ عِلَلِ العَزَائِمِ»[3].

«مَعْرِفَةُ العَزْمِ» هي نسبته إلىٰ نفسه، فإذا عرف أن العزم مجرد فضل الله وإيثاره وتوفيقه، وأنه ليس من العبد: فنسبته إياه بعد ذلك إلىٰ نفسه علة قادحة فيه، فإذا لاح له لائح الكشف، وشهد توحيد الفضل[4]، علم حينئذ علة عزمه، وهو نسبته إياه إلىٰ نفسه، ورؤيته له، فإذا عرف هذه العلة عزم علىٰ التخلص منها بالعزم علىٰ التخلص من العزم.

وهذا قد يسبق منه إلىٰ الذهن تناقض وتدافع، فكيف يتخلص من العزم بالعزم؟

ومراده: أن يعزم علىٰ التخلص من العزم المنسوب إليه بالعزم الذي هو مجرد فضل الله وموهبته، ولا[5] تناقض حينئذ، فيتخلص من العزم بالعزم،

---

(١) (فصل) سقطت من ط.

(٢) (ثم العزم) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(٣) منازل السائرين ٥١.

(٤) الأصل (الفعل) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ق، ط.

(٥) ق (فلا).

كما ينازع القدر بالقدر.

وأما «**الخَلاصُ مِن تَرْكِ تَكَالِيفِ العَزْمِ**».

فهو أنه إذا تخلص من هذا العزم وتركه : بقيت عليه بقية ، وهي رؤيته أنه قد ترك ، فعليه التخلص من رؤية هذا الترك ، فهو يطلب الآن الخلاص من رؤية ترك العزم ، كما كان يطلب ترك العزم.

قوله : «**فَإِنَّ العَزَائِمَ لَمْ تُوَرِّثْ أَرْبَابَهَا مِيرَاثاً أَكْرَمَ**[1] **مِن وُقُوفِهِم عَلَىٰ عِلَلِ العَزَائِمِ**».

مدار علل العزائم : علىٰ ثلاثة أشياء.

أحدها : فتورها وضعفها.

الثاني : عدم تجردها من الأغراض وشوائب الحظوظ.

الثالث : رؤية العزائم وشهودها ، ونسبتها إلىٰ أنفسهم.

فإذا عرف هذه الثلاثة[2] : عرف علل العزائم.

والله المستعان[3].

* * *

(١) ق (ألزم).

(٢) أ (الأمور).

(٣) أ (وهو سبحانه وتعالىٰ أعلم) ، ق (وهو أعلم).

فصـل [١][٢]

منزلة الإرادة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «الإرادة»[٣].

---

(١) هامش الأصل (منزلة الإرادة)، هامش ش (باب الإرادة).

(٢) من بداية هذه المنزلة بدأت نسخة (ح١).

(٣) الإرادة: هي نزوع النفس وميلها إلىٰ الفعل، وهي أول حركة النفس إلىٰ استكمال الفضائل، واستدامة الكد، وترك العادة والراحة، ومغايرة الشهوة. ولا تكون إلا مع صحة القصد، وصدق النية، والإقبال بالكلية علىٰ الحق، وهي بداية المحبة ولها عندهم تسعة مظاهر، ومن أقوالهم في تعريفها: أنها صفة تجلي علم الحق علىٰ حسب المقتضىٰ الذاتي. وقال ابن سينا: إنها ما يعتري المستبصر باليقين البرهاني، وهي من الحقائق السبعة الكلية الأصلية وهي: «الحياة، العلم، الإرادة، القدرة، الكلام، العدل، الأقساط» وهذه الحقائق يندرج بعضها في بعض، وهي هنا تدخل في لبس شديد إذ يلتقي تفسيرها هنا بما يقوله ابن عربي والحلاج من ذلك قول ابن عربي: «ويحول بينه وبين ما كان عليه مما يحجبه عن مقصوده». وقال أيضاً: «فليمحو إرادته في إرادته فلا يريد إلا ما يريد الحق..» وهذا هو عين القول بالحقيقة القدرية الكونية، وتقدم الكلام عليها أول البحث.

ومن عباراتهم «الانحطاط من الحقيقة إلىٰ العلم» الرسالة القشيرية ٣٩٨، وقول الحلاج:

أريدك لا أريدك للثواب ... لكني أريدك.. للعقاب

وكل مآربي قد نلت منه ... سوىٰ ملذوذ وجدي بالعذاب

فهو بهذا جعل الآلام شيئاً مقصوداً لحال تعلق الإرادة به، ومعظم التعريفات تكتمل عند تعريف المريد، إذ تنمحي إرادته بإرادته فلا يريد إلا ما يريد الحق، وقد بين شيخ الإسلام فساد هذا التصور ـ وهو انعدام الإرادة ـ في الفتاوىٰ ١٠/ ٦٣.

انظر الرسالة القشيرية ٣٠٦، لطائف الإعلام ١/ ٨٩، ١٩٠، ٤٢٩، ٢/ ٣٨، رشح الزلال ٣٧، معجم مصطلحات الصوفية ١٤، التعريفات ٣٠، التوقيف ٢/ ٩٥١، التعريفات ٢/ ٢٦٩.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال[1]: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

وقد أشكل علىٰ المتكلمين تعلق الإرادة بالله، وكون وجهه تعالىٰ مراداً.

و[2]قالوا: الإرادة لا تتعلق إلا بالحادث، وأما بالقديم[3]: فلا؛ لأن القديم لا يراد.

وأولوا «الإرادة» المتعلقة به بإرادة التقرب إليه، ثم إنه لا يتصور عندهم التقرُّب إليه، فأوَّلوا ذلك بإرادة الطاعة الموجبة لجزائه.

هذا حاصل ما عندهم، وحجابهم في هذا الباب: غليظ كثيف من أغلظ الحجب وأكثفها، ولهذا تجدهم أهل قسوة، ولا تجد عليهم روح السلوك، ولا بهجة المحبة.

والطلب والإرادة عند أرباب السلوك: هي التجرُّد عن الإرادة، فلا تصح عندهم «الإرادة» إلا لمن لا إرادة له، ولا تظن أن هذا تناقض[4]؛ بل هو محض

---

(١) زيادة (تعالىٰ) في بقية النسخ.

(٢) (الواو) سقطت من ط.

(٣) الأصل (بالتقديم) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

(٤) الأصل (تناقضاً) والصحيح لغة ما أثبته من بقية النسخ.

الحق ، واتفاق كلمة القوم عليه[١][٢].

معنى الإرادة والأقوال فيها

وقد تنوعت عبارات القوم عنها ، وغالبهم يخبر عنها بأنها ترك العادة[٣].

ومعنىٰ هذا : أن عادة الناس غالباً التعريج علىٰ أوطان الغفلة ، وإجابة داعي الشهوة ، والإخلاد إلىٰ أرض الطبيعة، والمريد منسلخ عن ذلك ، فصار خروجه عنه : أمارة ودلالة علىٰ صحة الإرادة ، فسُمِّي انسلاخه وتركه إرادة[٤].

وقيل : نهوض القلب في طلب الحق[٥].

ويقال : لوعةٌ تهوِّن كلَّ روْعة[٦].

قال : الدقاق -رحمه الله[٧]- : الإرادة لوعة في الفؤاد ، لذعة في القلب ،

---

(١) (عليه) سقطت من ق.

(٢) لكن يقال هنا من باب الاحتراز : « ألا يكون هذا علىٰ تفسيرهم المؤدي إلىٰ القول بالعمل علىٰ مقتضىٰ الحقيقة الكونية » ، فهذا يلغي الأمر والنهي وأحكام الشرع جرياً خلف هذه المقولة ، التي حقيقتها اتباع ما تهوىٰ الأنفس ، والتلبيس علىٰ الناس ، إذ من أقسام الحرية عندهم ، حرية خاصة الخاصة وهي : « التحرر عن رق الرسوم والآثار لانمحاقهم في تجلي نور الأنوار » ، التعريفات ٢/ ١١٦ .

(٣) انظر الرسالة القشيرية ٣٠٦.

(٤) هذا يصلح لتفسير قوله : «لا تصلح الإرادة إلا لمن لا إرادة له» ، وقد قال الواسطي : «أول مقام المريد : إرادة الحق سبحانه بإسقاط إرادته» ، الرسالة القشيرية ٣٠٩.

(٥) انظر رشح الزلال ٣٩.

(٦) الرسالة القشيرية ٣٠٧.

(٧) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تأجج في القلوب»[١].

وقيل: من صفات المريد: التحبب إلىٰ الله بالنوافل، والإخلاص في نصيحة الأمة، والأنس بالخلوة، والصبر علىٰ مقاساة الأحكام، والإيثار لأمره، والحياء من نظره، وبذل المجهود في محبوبه، والتعرض لكل سبب يوصل إليه، والقناعة بالخمول، وعدم قرار القلب حتىٰ يصل إلىٰ وليِّه ومعبوده»[٢].

وقال حاتم الأصم - رحمه الله[٣] - : إذا رأيت المريد يريد غير مراده، فاعلم أنه أظهر نذالته[٤].

وقيل: من حكم المريد: أن يكون نومه غلبة، وأكله فاقة، وكلامه ضرورة[٥].

وقال بعضهم: نهاية الإرادة: أن تشير إلىٰ الله، فتجده مع الإشارة، فقيل له: وأين تستوعبه الإشارة[٦]؟ فقال: أن تجد الله بلا إشارة[٧]، وهذا كلام متين،

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٠٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٠٨.

(٣) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٠٨ بلفظ (بذالته) وأشار إلىٰ خلافها في الهامش.

(٥) القائل: محمد بن علي الكتاني سير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٣٤.

(٦) الأصل (الإرادة) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، س، ح١.

(٧) الرسالة القشيرية ٣٠٨، وبالرغم من التماس ابن القيم له المحامل إلا أن فيه إبهاماً والتباساً، فهو مدخل لمن نفىٰ العلو لله تعالىٰ.

فإن المراتب ثلاث :

أعلاها : أن تكون[1] واجداً لله في كل وقت ، لا يتوقف وجوده[2] له على الإشارة[3] منه ولا من غيره.

الثاني : أن يكون له ملكة وحال وإرادة تامة ، بحيث[4] متى أشير له إلى الله وجده عند إشارة المشير.

الثالث : أن لا يكون كذلك ، ويتكلف وجدانه عند الإشارة إليه.

فالمرتبة الأولى : للمقربين السابقين ، والوسطى : للأبرار المقتصدين ، والثالثة : للغافلين[5].

وقال أبو عثمان الحيري[6] : من لم تصح إرادته ابتداءً ، فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدباراً[7].

وقال : المريد إذا سمع شيئاً من علوم القوم فعمل به : صار حكمة في قلبه إلى آخر عمره ينتفع به ، وإذا تكلم انتفع به من سمعه ، ومن سمع شيئاً من

---

(١) أ ، ب ، غ ، ط (يكون).

(٢) (الهاء) سقطت من غ.

(٣) ش (إشارة).

(٤) ط زيادة (أنه).

(٥) الأصل (للعارفين) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ.

(٦) الأصل (الحريري رحمه الله) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ والرسالة القشيرية ٣٠٩.

(٧) الرسالة القشيرية ٣٠٩.

علومهم ولم يعمل به كان حكاية يحفظها أياماً ثم ينساها[1].

وقال الواسطي -رحمه الله[2]- : أول مقام المريد : إرادة الحق بإسقاط إرادته[3].

وقال يحيىٰ بن معاذ : أشدُّ شيء علىٰ المريد : معاشرة الأضداد[4].

وسئل الجنيد -رضي الله عنه[5]- : ما[6] للمريد حظ في مجاراة الحكايات؟ فقال: الحكايات جُند من جند الله يثبّت بها قلوب المريدين، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠][7]. وقد ذكر عن الجنيد - رحمه الله -[8] كلمتان في الإرادة مجملتان تحتاج[9] إلىٰ تفسير الكلمة الواحدة، قال أبو عبد الرحمن السُّلمي : سمعت محمَّد بن

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٠٩.

(٢) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ .

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠٩ ، في حلية الأولياء ١٠/ ٣٤٩ «رؤية المقصود بإسقاط رؤية القصد أتم».

(٤) الرسالة القشيرية ٣٠٩ ، حلية الأولياء ١٠/ ٥٨ ، وفي شعب الإيمان ٧/ ٦٨ عن الروذباري : «أضيق السجون معاشرة الأضداد».

(٥) (رضي الله عنه) سقطت من بقية النسخ.

(٦) (ما) سقطت من ش.

(٧) الرسالة القشيرية (٣٠٩).

(٨) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٩) ط زيادة (كل منهما).

مخلد[1] يقول : سمعت جعفراً يقول : سمعت الجنيد يقول : المريد الصادق غنيٌّ عن علم[2] العلماء[3].

وقال جعفر[4] أيضاً : سمعت الجنيد يقول : إذا أراد الله بالمريد خيراً : أوقعه إلىٰ الصُّوفية ومنعه صحبة القرّاء[5].

قلت إذا صدق المريد ، وصح عقد صدقه مع الله : فتح الله علىٰ قلبه ببركة الصدق ، وحسن المعاملة مع الله : ما يغنيه عن العلوم التي هي نتائج أفكار الناس وآرائهم ، وعن العلوم التي هي فضلة ليست من زاد القبر ، وعن كثير من إشارات الصوفية وعلومهم ، التي أفنوا فيها أعمارهم : من معرفة النفس وآفاتها وعيوبها ، ومعرفة مفسدات الأعمال ، وأحكام السلوك ، فإن حال

---

(١) محمد بن مخلد بن حفص الإمام الحافظ الثقة ، أبو عبد الله الدوري البغدادي العطار ، ولد سنة ٢٣٣هـ ، سمع من الإمام مسلم وغيره ، وحدث عنه الدارقطني وغيره ، كان موصوفاً بالعلم والصلاح ، توفي سنة ٣٣١هـ/ تاريخ بغداد (٣/ ٣١٠) ، طبقات الحنابلة (٢/ ٧٣) ، المنتظم (٦/ ٣٣٤) ، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٥٦).

(٢) ط (من) بدل (عن) وسقطت (علم) فتكون العبارة (غني من العلماء).

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠٩ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٧٠ وهي الكلمة الأولىٰ.

(٤) أ ، ب ، غ ، س ، م ، ق ، ح١ (لجعفر) وهي ساقطة من ط.

(٥) الرسالة القشيرية (٣٠٨) وهذه الأقوال تضم إلىٰ ما روي عنه من الحث علىٰ التزام الكتاب والسنة ، فيتوجه الكلام إلىٰ أنه يريد بالقرّاء معنىٰ آخر كما سوف يوضحه ابن القيم قريباً ، أو الاقتصار علىٰ العلم دون العمل ، والاستغراق في البحث والتنقير بما يُنسىٰ المراد من العلم كأهل الكلام والجدل ، والله أعلم ، وأقواله في الحث علىٰ العلم والعمل في الرسالة القشيرية ٧٠ ـ ٧١.

صدقه ، وصحة طلبه : يريه ذلك كله بالفعل.

ومثال ذلك : رجل قاعد في البلد يدأب ليله ونهاره في علم منازل الطريق وعقباتها وأوديتها ، ومواضع المتاهات[1] فيها ، والموارد والمفاوز ، وآخر : حمله الوجد وصدق الإرادة علىٰ أن ركب[2] الطريق وسار فيها ، فصدقه يغنيه عن علم ذلك القاعد ، ويريه إياها في سلوكه عياناً.

وأما أن يغنيه صدق إرادته عن علم الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، ومعرفة العبادات وشروطها وواجباتها ومبطلاتها ، وعن علم أحكام الله ورسوله علىٰ ظاهره وباطنه ، فقد أعاذ الله من هو دون الجنيد من ذلك ، فضلاً عن سيِّد الطائفة وإمامها ، وإنما يقول ذلك قُطاع الطريق ، وزنادقة الصوفية وملاحدتهم ، الذين لا يرون اتباع الرسول شرطاً في الطريق.

وأيضاً فإن المريد الصادق يفتح الله علىٰ قلبه ، وينوّره بنورٍ من عنده ، مضاف إلىٰ ما معه من نور العلم ، يعرف كثيراً من أمر دينه[3] ، فيستغني به عن

---

(١) ق (المياه) بدل (المتاهات).

(٢) م ، غ (يركب).

(٣) قال الله تعالىٰ : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله..﴾ [البقرة :٢٨٢] ، وقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾[الأنفال :٢٩].

ذلك أن العلم بدون عمل وتقوىٰ لا تكتمل بصيرة صاحبه.. ومما يذكر هنا قول عوف بن عبدالله : «.. إن من تمام التقوىٰ أن تبتغي إلىٰ ما قد علمت منها علم ما لم تعلم..» حلية الأولياء ٤/ ٢٤٦ ، والحديث الوارد في ذلك ضعفه الألباني في الضعيفة (٤٢٢) ، الإيمان (٣٢٢).

كثير من علم الناس[١] ، فإن العلم نور ، وقلب الصادق ممتلئ بنور الصدق ، ومعه نور الإيمان ، والنور يهدي إلىٰ النور ، والجنيد ـ رحمه الله[٢] ـ أخبر بهذا عن حاله ، وهذا أمر جزئي[٣] ليس علىٰ عمومه؛ بل صدقه يغنيه عن كثير من العلم ، وأما عن جملة العلم : فكلام أبي القاسم الثابت عنه في ضرورة الصادق إلىٰ العلم ، وأنه لا يفلح من لم يكن له علم ، وأن طريق القوم مقيدة بالعلم ، وأنه لا يحل لأحد[٤] يتكلم في الطريق إلا بالعلم ، مشهور معروف قد ذكرنا فيما مضىٰ طرفاً منه[٥] كقوله : «من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدىٰ به في هذا الأمر؛ لأن علمنا مقيَّد بالكتاب والسنة»[٦].

وأيضاً فإن علم العلماء الذين أشار إليهم : هو ما فهموه واستنبطوه من القرآن[٧] والسنة.

---

(١) يفسره ما قبله من قوله : «ما يغنيه عن العلوم التي هي من نتائج أفكار الناس وآرائهم» وهذا كله ببركة الصدق مع الله.

(٢) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٣) الأصل (مروزي) وما أثبته من بقية النسخ.

(٤) ط ، وحاشية ش (أن).

(٥) أقوال الجنيد في الحث علىٰ العلم : منها ما في الرسالة القشيرية : «الطريق كلها مسدودة علىٰ الخلق إلا من اقتفىٰ أثر الرسول عليه الصلاة والسلام» ، وقال : «مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة» ، الرسالة القشيرية ٧٠ ـ ٧١.

(٦) الرسالة القشيرية ٧١.

(٧) غ (الكتاب) وفي الهامش (القرآن).

والمريد الصادق : هو الذي قرأ القرآن وحفظ السنة ، والله يرزقه ببركة صدقه ونور قلبه فهما في كتابه وسنة رسوله يغنيه عن تقليد فَهْمِ غيره[١].

وأما قوله - يعني الجنيد[٢] - : «إذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه علىٰ الصوفية ومنعه صحبة القراء»[٣].

فالقراء في لسانهم : هم أهل التنسك والتعبُّد ، سواء كانوا يقرؤون القرآن أم لا ، فالقارئ عندهم : هو الكثير التعبد والتنسك ، الذي قد قَصَر همته علىٰ ظاهر العبادة ، دون أرواح المعارف ، ودون حقائق الإيمان ، وروح المحبة ، وأعمال القلوب ، فهممهم[٤] كلها إلىٰ العبادة ، ولا خبر عندهم مما عند أهل التصوف ، وأرباب القلوب وأهل المعارف ، ولهذا قال من قال : طريقنا تفتٌّ لا تقرٍ[٥].

فسير هؤلاء بالقلوب والأرواح، وسير أولئك مجرد[٦] الأشباح والقوالب[٧]، وبين أرواح هؤلاء وقلوبهم وأرواح هؤلاء وقلوبهم : نوع تناكر وتنافر ، ولا

---

(١) وهذا يصدق علىٰ المجتهد الذي يجوز له التقليد؛ لكن بعد أن يستكمل شروط الاجتهاد ، وصفات المجتهد.

(٢) (يعني الجنيد) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح٢ ، س ، م ، ق.

(٣) هذه هي الكلمة الثانية التي تحتاج إلىٰ تفسير ، كما ذكر ابن القيم -رحمه الله-.

(٤) ط (فهمتهم).

(٥) ح١ ، أ ، ب ، غ ، ط (تقشُّر) وضبطها في ش (تقرّ) وفي ق (تقرٍ) ، ولعلها (تقرًّ).

(٦) ح١ ، ط (بمجرد).

(٧) ط (القوالب والأشباح).

يقدر أحدهم علىٰ صحبة النوع الآخر إلا علىٰ نوع إغضاء[1]، وتحميل للطبيعة ما تأباه، وهو من جنس ما بينهم وبين ظاهرية الفقهاء[2] من التنافر، ويسمونهم: أصحاب الرسوم، ويسمون أولئك القراء والطائفتان عندهم: أهل ظواهر، لا أرباب حقائق، هؤلاء رسوم العلم، وهؤلاء رسوم العبادة[3].

المفاضلة بين الصوفي والفقير

ثم إنهم - في أنفسهم - فريقان: صوفية وفقراء، وهم متنازعون في ترجيح الصوفية علىٰ الفقراء، أو بالعكس، أو هما سواء، علىٰ ثلاثة أقوال.

فطائفة رجحت الصوفي، منهم كثير من أهل العراق، وعلىٰ هذا صاحب العوارف[4] وجعلوا نهاية الفقير بداية الصوفي[5].

---

(١) غ (غض)، ح١ (تكلف).

(٢) وظاهرية الفقهاء يراد بها غمزهم لصدورهم عن الدليل، وليس مرادهم المذهب الظاهري المعروف كابن حزم ومن تبعه.

(٣) تقدم قريباً مرادهم بهذه الطائفة وهم أهل النسك والعبادة، والحكمة عندهم علمية وعملية، فالمنطوق بها علوم الشريعة، والمسكوت عنها أسرار الحقيقة، فإذا اطلع عليها علماء الرسوم أضرت بهم انظر التوقيف٢/ ٢٩٢، وقال الجرجاني في التعريفات ٢/ ١١٦: «وهي حرية خاصة الخاصة عن رق الرسوم والآثار».

(٤) كتاب (عوارف المعارف) لمؤلفه شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي، وهو مطبوع مع جملة من الملحقات في آخر كتاب (إحياء علوم الدين) دار المعرفة بيروت.

(٥) نهاية الفقير بداية الصوفي: من قارن بين الأقوال في باب الفقر وباب التصوف في الرسالة القشيرية ٣٨٨ ـ ٤٠٤ تظهر لك قوة العلاقة بينهما وانظر عوارف المعارف ٥/ ٢٥٣، وتحذيره من مجالسة الفقراء، وفي ٥/ ٦٣ بيَّن الفرق بين الصوفي والفقير.

وطائفة رجحت الفقير، وجعلوا الفقر لب التصوف وثمرته، وهم كثير من أهل خراسان.

وطائفة ثالثة قالوا: الفقر والتصوف شيء واحد، وهؤلاء هم أهل الشام[1].

ولا يستقيم الحكم بين[2] هؤلاء حتىٰ تتبين[3] حقيقة الفقر والتصوف، وحينئذ يعلم هل هما حقيقة واحدة أو حقيقتان؟ ويعلم راجحهما من مرجوحهما.

وسترىٰ ذلك مبيناً إن شاء الله تعالىٰ[4] في منزلتي «الفقر والتصوف» إن[5] انتهينا إليهما، إن ساعد الله ومنَّ بفضله وتوفيقه، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وبه المستعان، وعليه التكلان، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

والمقصود: أن[6] المراتب عندهم ثلاث: مرتبة «التقوىٰ» وهي مرتبة

---

(١) لمعرفة أقسام الصوفية خراسانيين وبغداديين وشاميين ومصريين واختلاف مناهجهم ونماذج أعلامهم انظر الفتاوىٰ ١٠/ ٣٥٩، تلبيس إبليس ٦١، دراسات في الفكر الإسلامي ٢١٦ - ٢٣٠، ٣٢٨، التصوف الثورة الروحية. علاء عفيفي ٢١٣، التصوف المنشأ والمصادر. إحسان إلهي ظهير ص٣٢- ٤١، الطرق الصوفية في مصر. د/ عامر النجار، نشأة الفلسفة الصوفية. عرفان فتاح، الصوفية نشأتها وتطورها. محمد العبدة، طارق عبد العليم، موقف متصوفة إفريقية وزهادها من الاحتلال العبيدي. أبو لبابة حسين.

(٢) ط (هؤلاء وهؤلاء).

(٣) الأصل (يتبين) وما أثبته من بقية النسخ.

(٤) (تعالىٰ) سقطت من بقية النسخ.

(٥) أ، ب، غ، ش، م، ط (إذا) وفي ح١ (إلىٰ).

(٦) (أن) سقطت من ح١.

العبادة[1] : التعبد والنسك.

ومرتبة «التصوف» وهي مرتبة التَّفَتِّي[2] بكل خلق حسن، والخروج من كلِّ خلق[3] ذميم.

ومرتبة «الفقر» وهي مرتبة التجرد، وقطع كل علاقة تحول بين القلب وبين الله تعالىٰ.

فهذه مراتب طُلاب الآخرة، ومن عداهم فمع القاعدين المتخلفين.

فأشار أبو القاسم الجنيد -رحمه الله[4]- إلىٰ أن المريد لله بصدق، إذا أراد الله به خيراً: أوقعه علىٰ طائفة الصوفية يُهذِّبون أخلاقَه، ويدلُّونَه علىٰ تزكية نفسه، وإزالة أخلاقها الذميمة والاستبدال بالأخلاق الحميدة، ويُعرِّفونه[5] منازل الطريق، ومحاراتها[6] وقواطعها، وآفاتها.

وأما القراء، فيدقونه بالعبادة من الصوم والصلاة دقاً، ولا يذيقونه شيئاً من

---

(١) (العبادة) سقطت من أ، ب، غ، ح١، م، ش.

(٢) التفتي: تقدم الحديث عنها في منزلة الفتوة ص٢٢٧٠.

(٣) (خلق) سقطت من الأصل والأقرب ما أثبته من م، ح١، أ، ب، غ، ق، ط.

(٤) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٥) ق (ويعرفون).

(٦) أ، ب، غ، ح١ (مغاراتها)، ش (مجاراتها)، م (مجازاتها)، ط (مغازاتها).

حلاوة أعمال القلوب، وتهذيب النفوس، إذ ليس ذلك طريقهم[١]، ولهذا بينهم وبين أرباب التصوف نوع تنافر[٢] كما تقدم.

والبصير الصادق: يضرب في كل غنيمة بسهم، ويعاشر كل طائفة على أحسن ما معها، ولا يتحيز إلىٰ طائفة، وينأىٰ عن الأخرىٰ[٣] بالكلية إلا أن[٤] يكون معها شيء من الحق[٥][٦]، فهذه طريقة الصادقين، ودعوىٰ الجاهلية كامنة في النفوس.

ولا أعني[٧] بذلك أصغريهم ولكني أريد به الذُّوينا[٨][٩]

و[١٠]سمع النبيّ ﷺ في بعض غزواته قائلاً يقول: «يا للمهاجرين، وآخر

---

(١) أ، ب، غ، م، ح١ (طريقتهم).

(٢) غ (تنافي).

(٣) ش (أخرىٰ).

(٤) ق، م، ش (إلا أن لا يكون)، ط (أن لا يكون).

(٥) ق (الخوف).

(٦) معنىٰ عبارة الأصل: «أي لا يجوز له الانحياز إلىٰ طائفة بقدر الحق الذي معهم فيوافقهم فيه»، والعبارة في ق، م، ش (إلا أن لا يكون) يرجع إلىٰ سبب النأي عن الأخرىٰ، وهو انتفاء الحق فيها يوجب النأي عنها.

(٧) ب (أعتني).

(٨) ش (الذويباء).

(٩) بيت الشعر: لم أجده.

(١٠) (الواو) سقطت من ط.

يقول : يا للأنصار! فقال : **ما بال دعوىٰ الجاهلية ، وأنا بين أظهركم؟**» [١].

هذا ، وهما اسمان شريفان ، سماهم الله بهما في كتابه ، فنهاهم عن ذلك ، وأرشدهم إلىٰ أن يتداعوا بـ«المسلمين» و«المؤمنين» [٢]«عباد الله» وهي الدعوىٰ الجامعة بخلاف الدعوىٰ[٣] المفرقة ، كـ«الفلانية» و «الفلانية[٤]» فالله المستعان.

وقال ﷺ [٥] لأبي ذر : «**إنك امرؤ فيك جاهليَّة** ، فقال : علىٰ[٦] كبر السن مني يا رسول الله؟ **قال : نعم**» [٧] ، فمن يأمن القراء بعدك يا شهر؟[٨].

---

(١) البخاري. الأنبياء (٣/ ٣١٠) ح(٤٩٠٥) ، مسلم. البر والصلة (٤/ ١٩٩٨) ح(٢٥٨٤) ، أحمد (٣/ ٣٣٨).

(٢) ش زيادة (الواو).

(٣) (الدعوىٰ) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٤) (الفلانية) سقطت من ش.

(٥) (ﷺ) سقطت من الأصل.

(٦) (علىٰ) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٧) البخاري. الإيمان (١/ ١٤) ، مسلم. الإيمان (٣/ ١٢٨٢) ح(١٦٦١).

(٨) مأخوذ من البيتين للقطامي الكلبي حين اتهم الخوارج شهراً بالسرقة :

لقد باع شهر دينه بخريطة — فمن يأمن القراء بعدك يا شهر

أخذت بها شيئاً طفيفاً فبعته — من ابن جرير إن هذا هو الغدر

ولقد أشار إليه في هامش م لوحة ١٠٨ وفي سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٧٥ ، والمقصود به شهر ابن حوشب الأشعري الشامي سوف يترجم له في آخر البحث ، والشاعر هو : الحصين بن جمال بن حبيب القطامي ، معجم الشعراء ١٦٦.

ولا يذوق العبد حلاوة الإيمان ، و(١)طعم الصدق واليقين ، حتىٰ تخرج الجاهلية كلها من قلبه ، و(٢)والله لو تحقق الناس في هذا الزمان ذلك في(٣) قلب رجل واحد(٤) لرموه عن قوس واحدة ، وقالوا هذا مبتدع ، ومن دعاة البدع ، فإلىٰ الله المشتكىٰ ، وهو المسؤول الصبر والثبات ، فلا بد من لقائه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه :٦١] ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء : ٢٢٧].

فصل

قال صاحب «المنازل» - رحمه الله - :

«بَابُ الإِرَادَةِ : قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]»

في تصديره الباب بهذه الآية دلالة علىٰ عظم قدره ، وجلالة محله من هذا العلم ، فإن معنىٰ الآية : كل يعمل علىٰ(٥) ما يشاكله ، ويناسبه ، ويليق به ، فالفاجر يعمل علىٰ ما يليق به ، وكذلك الكافر والمنافق ، ومريد الدنيا وجيفتها(٦) : عامل علىٰ ما يناسبه ، ولا يليق به سواه ، ومحب الصور : عامل

---

(١) (الواو) سقطت من ط.

(٢) (الواو) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٣) ط (من) بدل (في).

(٤) (واحد) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ش ، ق ، ط.

(٥) أ ، ب ، غ ، ح١ زيادة (علىٰ شاكلته).

(٦) م (وحتفها).

علىٰ ما يناسبه ويليق به.

فكلُّ امرئٍ يهفو إلىٰ ما يحبُّه ... وكلُّ امرئٍ يصبو إلىٰ ما يناسبه[١]

فالمريد الصادق المحب لله : يعمل ما هو اللائق به والمناسب له ، فهو يعمل علىٰ شاكلة إرادته ، وما هو الأليق به ، والأنسب لها.

قال : «الإِرَادَةُ : مِن بَينِ قَوَانِينِ هَـذَا العِلْمِ ، وَجَوامِعِ أَبْنِيَتِهِ ، وَهِيَ الإِجَابَةُ لِدَوَاعِي الحَقِيقَةِ ، طَوْعاً أَوْ كَرْهاً[٢]»[٣].

يريد : أن هذا العلم مبني علىٰ الإرادة ، فهي أساسه ، ومجمع بنائه ، وهو مشتمل علىٰ تفاصيل أحكام الإرادة ، وهي حركة القلب ، ولهذا سمي : «علم الباطن» كما أن علم «الفقه» يشتمل علىٰ تفاصيل أحكام الجوارح ، ولهذا سموه : «علم الظاهر».

فهاتان حركتان اختياريتان ، وللعبد حركة[٤] طبيعية اضطرارية ، فالعلم المشتمل علىٰ تفاصيلها ، وأحكامها : هو علم الطب[٥] ، فهذه العلوم الثلاثة : هي الكفيلة بمعرفة حركات النفس والقلب ، وحركات اللسان والجوارح ، وحركات الطبيعة.

---

(١) بيت الشعر : لم أجده.

(٢) جميع النسخ (أو كرهاً) وليست في منازل السائرين.

(٣) منازل السائرين ٥٢.

(٤) (وللعبد حركة) سقطت من ح١.

(٥) ح١ (الطلب).

فالطبيب: ينظر في تلك الحركات من جهة تأثر البدن عنها صحة واعتلالاً، وفي لوازم ذلك ومتعلقاته.

والفقيه : ينظر في تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشرع ، ونهيه وإذنه وكراهته ، ومتعلقات ذلك.

والصوفي : ينظر في تلك الحركات من جهة كونها موصلة له[1] إلىٰ مراده ، أو قاطعة عنه ، ومفسدة لقلبه ، أو مصححة له.

وأما قوله : «وَهِيَ الإِجَابَةُ لِدَاعِي الحَقِيقَةِ».

فـ «الإجابة» هي الانقياد ، والإذعان ، «والحقيقة»[2] عندهم : مشاهدة الربوبية ، و«الشريعة»[3] التزام العبودية ، فالشريعة : أن تعبده ، والحقيقة أن

---

(١) (له) سقطت من م.

(٢) الحقيقة تقدم ذكرها ص١٧١٨ ، ١٨٧٣ ، ومعنىٰ مشاهدة الربوبية : «بمعنىٰ أنه هو الفاعل في كل شيء والمقيم له ؛ لأن هويته قائمة بنفسها مقيمة لكل شيء سواه » لطائف الإعلام ١/ ٤٢٤ ، ٢/ ٣٧.

(٣) الشريعة : عندهم ميزان كل عادل يأتي به الخليفة الكامل من جانب حقيقته يحفظ به حكم الوحدة والعدالة ، علىٰ طرق خليقته الذي يتعلق به جانب بنوته في نفسه أولاً ، وفيمن يأخذ المدد الوجودي بواسطته ثانياً.. فهذا الميزان الكلي هو المسمىٰ «شريعة» ، ويطلقونه ويريدون به الأمر بالتزام العبودية فهي القيام بالأوامر ، والشريعة حقيقة من حيث هي واجبة بأمره أيضاً .

انظر الرسالة القشيرية ١٥٩ ، لطائف الإعلام ٢/ ٣٧ ، رشح الزلال ٤٦.

وهذا لا يعني عدم خروجهم عن حدود الشريعة في لحظات الغيبة والفناء والسكر.

تشهده، فالشريعة: قيامك بأمره، والحقيقة: شهودك[1] لوصفه، وداعي الحقيقة: هو صحة المعرفة، فإنَّ من عرف الله أحبَّه ولا بُد.

ولا بد في هذه «الإجابة» من ثلاثة أشياء: نفس مستعدة قابلة، لا تعوز[2] إلا الداعي، ودعوة مستمعة، وتخلية الطريق من المانع.

فما انقطع من انقطع إلا من جهة من هذه الجهات الثلاث.

وقوله: «طَوْعاً أَوْ كَرْهاً» يشير إلىٰ المجذوب، المختطف من نفسه، والسالك إرادة واختياراً ومجاهدة.

درجات الإرادة

الدرجة الأولى

قال: «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: ذَهَابٌ عَنِ العَادَاتِ بِصُحبَةِ العِلمِ، وَالتَّعَلُّقُ[3] بِأَنفَاسِ السَّالِكِينَ، مَعَ صِدقِ القَصدِ، وَخَلْعُ كُلِّ شَاغِلٍ مِنَ الإِخوَانِ وَمُشَتِّتٍ مِنَ الأَوطَانِ»[4].

هذا يوافق من حَدَّ «الإرادة» بأنها: مخالفة العادة، وهي ترك عوائد النفس، وشهواتها، ورعونتها وبطالاتها، ولا يمكن ذلك إلا بهذه الأشياء التي أشار إليها[5]، وهي صحبة العلم ومعانقته، فإنه النور الذي يُعرِّف العبدَ مواقعَ ما

---

(١) مسألة الشهود - تقدم الحديث عنها ص١٧١٨، ٢٠٩٩ - وقوله: «شهودك لوصفه: أي أنه الفاعل» لطائف الإعلام ١/ ٤٢٤.

(٢) هامش ب، م (لعله لا تعوز إلا للداعي).

(٣) منازل السائرين (وتعلق).

(٤) منازل السائرين ٥٢.

(٥) انظر شروط الإرادة وهي خمسة في لطائف الإعلام ١/ ١٨٩ ـ ١٩٢، ٢/ ٣٨.

ينبغي إيثار طلبه ، وما ينبغي إيثار تركه ، فمن لم يصحبه العلم : لم تصح له إرادة باتفاق كلمة الصادقين ، ولا عبرة بقطاع الطريق.

وقال بعضهم : متىٰ رأيت الصوفي الفقير يقدح في العلم ، فاتهمه علىٰ الإسلام[1].

ومنها التعلق بأنفاس السالكين ، ولا ريب أن كل من تعلق بأنفاس قوم انخرط في سلكهم[2] ، ودخل في جملتهم[3].

وقال «أَنفَاسُ السَّالِكِينَ» ولم يقل أنفاس العابدين ، فإن[4] العابدين[5] شأنهم القيام بالأعمال ، وشأن السالكين مُراعاة الأحوال.

وقوله : «مَعَ صِدْقِ القَصْدِ».

صدق القصد[6] يكون بأمرين أحدهما: توحيده ، والثاني : توحيد المقصود، فلا يقع في قصدك قسمة ، ولا في مقصودك[7][8].

---

(١) نحوه في سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢١٣ ، حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦.

(٢) ط (مسلكهم).

(٣) أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ط (جماعتهم).

(٤) أ ، ب ، غ (فالعابدون).

(٥) ط زيادة (من).

(٦) (صدق القصد) سقطت من ط.

(٧) (الكاف) سقطت من الأصل والأصح إثباتها كما في أ ، ب ، غ ، ق ، ح٢ ، م ، ط.

(٨) لعله يريد بتوحيده : إفراده بما يختص به من الأسماء والصفات والأفعال التي لا يشركه فيها

وقوله : «وَخَلْعُ كُلِّ شَاغِلٍ مِنَ الإخوَانِ ، وَمُشَتِّتٍ مِنَ الأَوطَانِ».

يشير إلىٰ ترك الموانع ، والقواطع العائقة عن السلوك : من صحبة الأغيار ، والتعلق بالأوطان ، التي ألف فيها البطالة والنذالة ، فليس علىٰ المريد الصادق أضر من عُشَرائه[1] ووطنه ، القاطعين[2] له عن سيره إلىٰ الله تعالىٰ فليتغرب[3] عنهم بجهده[4][5].

فصــل

الدرجة الثانية قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : تُقطَعُ بِصُحبَةِ الحَالِ[6] ، وَتَروِيحِ الأُنسِ[7] ، وَالسَّير بَينَ القَبْضِ وَالبَسْطِ»[8].

أحد ، وتوحيد المقصود : أي صرف العبادة له وحده دون سواه ، فيكون الأول توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، والثاني توحيد الألوهية.

(١) الأصل (عشائره) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

(٢) أ ، ب زيادة (الواو).

(٣) بقية النسخ (فليغترب).

(٤) ق زيادة (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

(٥) مسألة الاغتراب وتقليل الخلطة بالأصحاب والتخلص من العوائق والعلائق ، تحدث عنها ابن القيم في معظم كتب السلوك ، كالفوائد وغيره وهي في كتب الخلطة والعزلة أكثر تفصيلاً.

(٦) (الحال) سقطت من أ ، ب.

(٧) الأنس : سوف تفرد قريباً بمنزلة مستقلة.

(٨) منازل السائرين ٥٢ .

أي ينقطع إلىٰ صحبة الحال ، وهو الوارد الذي يرد علىٰ القلب من تأثره[1] بالمعاملة ، السالب لوصف الكسل والفتور ، الجالب له إلىٰ مرافقة الرفيق[2] الأعلىٰ[3] الذين[4] أنعم الله عليهم ، فينتقل من مقام العلم إلىٰ مقام الكشف[5] ، ومن مقام رسوم الأعمال إلىٰ مقام حقائقها[6] وأذواقها ، ومواجيدها[7] ، وأحوالها[8] ، فيرتقي من الإسلام إلىٰ الإيمان ، ومن الإيمان إلىٰ الإحسان.

وأما «تَروِيحُ الأُنسِ» الذي أشار إليه : فإن السالك في أول الأمر يجد تعب التكليف[9] ومشقة العمل ، لعدم أنس قلبه بمعبوده ، فإذا حصل للقلب روح الأنس به[10] زالت عنه تلك التكاليف والمشاق و[11]صارت قرة عين له ، وقوة

---

(١) ط (تأثيره).

(٢) (الرفيق) سقط من ش.

(٣) هناك فرق بين مرافقة الرفيق الأعلىٰ والذين أنعم الله عليهم.

(٤) الأصل ، ق (الذي) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

(٥) مقام العلم هو الدليل ومقام الكشف لا ضابط له إنما هي تجليات وخطرات لا يصار إليها وقد سبق التعليق علىٰ هذه المسألة في مصطلح الكشف والتجلي ص١٨٢٩، ٢٣٠٤.

(٦) ش (حقائقه).

(٧) ح١ (موجيدها).

(٨) موقف غلاة الصوفية من الرسوم معلوم ، فهم يرونها قيوداً تعيق الوصول بزعمهم ، فهناك صوفية عمل وصوفية علم ، انظر عوارف المعارف (ص١٥٣ ، ص١٣٥٨) ، نشأة الفلسفة الصوفية ٢٢ ـ ٢٥.

(٩) ح١ ، أ ، ب ، غ (التكلف) ، ط (التكاليف).

(١٠) (به) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(١١) ط (فصارت).

ولذة[1] فتصير الصلاة قرة عينه، بعد أن كانت[2] حملاً[3] عليه، ويستريح بها، بعد أن كان يطلب الراحة منها، فله ميراث من قوله[4] ﷺ[5]: **«أرحنا بالصَّلاة يا بلال»**[6]، **«وجعلت قرة عيني في[7] الصلاة»**[8] بحسب إرادته، و محبته، وأنسه بالله[9]، ووحشته مما سواه.

---

(١) (ولذة) سقطت من ب.

(٢) (ح١، أ، ب، غ (كان).

(٣) أ، ب، غ، ح١، ط (عملاً).

(٤) (قوله) سقطت من ش.

(٥) (ﷺ) ليست في الأصل.

(٦) أخرجه أحمد من حديث سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم (٥/ ٣٦٤)، الطبراني في الكبير (٦/ ٢٧٦) عن رجل من خزاعة، وفي (٧/ ٤) عن رجل من أسلم، والدارقطني في العلل (٤/ ١٢١) عن سالم بن أبي الجعد عن محمد بن الحنفية، وذكره صاحب كشف الخفاء (١/ ١١٧) عن محمد بن الحنفية عن علي عن بلال، وفي تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٣) عن سالم بن أبي الجعد عن محمد بن الحنفية، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٤٥) عن رجل من أسلم، وأورده صاحب المشكاة: **«أقم الصلاة يا بلال أرحنا بها»** (١/ ٣٩٣)، وصححه الألباني والحديث عند أبي داود (٤/ ٢٩٦) رقم(٤٩٨٥)، بلفظ: **«يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها»**.

(٧) غ (بالصلاة).

(٨) أخرجه من حديث أنس أحمد (٣/ ١٢٨)، والنسائي في السنن الكبرىٰ (٥/ ٢٨٠)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٤٢٠)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٧/ ١٢٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٤٧)، وقال صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه، تلخيص الحبير (٣/ ١١٦) وقال رواه النسائي وإسناده حسن.

(٩) ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

وأما «السَّيرُ بَينَ القَبْضِ وَالبَسْطِ».

فـ «القبض» و «البسط» حالتان تعرضان[1] لكل سالك و[2]يتولدان من الخوف[3] والرجاء تارة، فيقبضه الخوف، ويبسطه الرجاء.

ويتولدان من الوفاء[4]، والجفاء تارة، فوفاؤه[5] [يورثه البسط، وجفاؤه[6] يورثه القبض.

ويتولدان من التفرقة[7]، والجمعية تارة، فتفرقته تورثه القبض][8] وجمعيته تورثه البسط.

ويتولدان من أحكام الوارد تارة، فوارد يورث قبضاً، ووارد يورث بسطاً.

وقد يهجم علىٰ قلب السالك قبض لا يدري ما سببه، وبسط لا يدري ما سببه، وحكم صاحب هذا القبض أمران: [9]التوبة والاستغفار؛ لأن ذلك القبض نتيجة جناية أو[10] جفوة، لا[11] يشعر بها.

---

(١) الأصل (يعرضان) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ح١، ش، م، ق، ط.

(٢) (الواو) سقطت من أ، ب، غ، ح١، ط.

(٣) ط زيادة (تارة).

(٤) ط زيادة (تارة).

(٥) أ، ب، غ، ح١ (فوفاه).

(٦) ط (ورجاؤه).

(٧) ط زيادة (تارة).

(٨) ما بين المعقوفين سقط من ق.

(٩) ط زيادة (الأول).

(١٠) (الألف) سقطت من ط، وفي أ، ب، غ (جفوٍ).

(١١) ط زيادة (الواو) قبل (اللام).

الثاني[1] : الاستسلام حتىٰ يمضي عنه ذلك الوقت[2] ، ولا يتكلف دفعه ، ولا يستقبل وقته مغالبة وقهراً ، ولا يطلب طلوع الفجر في[3] وسط الليل ، بل يصبر حتىٰ يهجم عليه[4]، وليرقد حتىٰ يمضي عامة الليل، ويحين طلوع الفجر، وانقشاع[5] ظلمة الليل ، بل يصبر حتىٰ يهجم عليه الوقت ويزول القبض[6] فالله يقبض ويبسط ، وكذلك إذا هجم عليه وارد البسط فليحذر كل الحذر من الحركة والاهتزاز ، وليحرزه بالسكون والانكماش [والاستقرار ويلقيه بالثبات فإنه في هذا الوقت عليه خطر عظيم فليحذر مكراً خفياً][7] فالعاقل يقف علىٰ

---

(١) ط زيادة (الواو).

(٢) الوقت : حالك في زمان الحال ، لا تعلق له بالماضي ولا بالمستقبل ، ويراد به ما يهجم علىٰ العبد من غير كسبه ، فهو محكوم عليه بتعريف الله تعالىٰ له وهم يعنون بذلك أن الصوفي ابن وقته لا يهمه ماضي وقته ولا آتيه؛ بل دائماً يهمه الوقت الذي هو فيه ، فهو مشتغل بالحال دون الفائت ، مستسلم لحكم الحق من غير اختيار ولا اعتراض ، ومن عارض انتكس ، فصار صاحب (مقت) وليس (وقت) ، وعندهم إذا غلب عليه الصحو قام بالشريعة ، وإن كان وقت المحو غلبت عليه أحكام الحقيقة ، وقيل : هو بداية حال السالك ، وما يعتريه من بروق تومض ثم تخمد ، وقيل : هو ما يعتري النفس من أحوال تبلغ حد المقام ، فسمي بذلك لعدم إقامته فهو أمر وقتي ، انظر لطائف الإعلام ٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٦ ، رشح الزلال ٤٥ ، معجم مصطلحات الصوفية ٢٦٨. الوقت

(٣) (في) سقطت من غ.

(٤) (بل يصبر حتىٰ يهجم عليه) سقطت من بقية النسخ.

(٥) الأصل (انقشاط) ، والأقرب ما أثبته من بقية النسخ سوىٰ ق (انقسام).

(٦) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (الملك) بدل (القبض).

(٧) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ ، ح١.

البساط ، ويحذر من الانبساط[١] ، وهذا شأن عقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم : إذا ما ورد عليهم ما يسرهم ويبسطهم ويهيج أفراحهم ، قابلوه بالسكون والثبات والاستقرار ، حتىٰ كأنه لم يهجم عليهم[٢] ، وقال كعب بن زهير في مدح المهاجرين[٣] :

لَيسُوا مَفَاريحَ إن نالتْ رماحُهُم قوماً وليسُوا مجَازِيعاً إذا نِيلُوا[٤]

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : ذُهُول مَعَ صُحْبَةِ[٥] الاستِقَامَةِ ، وَمُلَازَمَةُ الرِّعَايَةِ عَلىٰ تَهذِيبِ الأَدَبِ»[٦].

«الذهول» هاهنا هو[٧] الغيبة في المشاهدة بالحال الغالب ، المذهل لصاحبه

الانبساط

(١) الانبساط يعنون به السير مع الجبلة بإرسال السجية ، من غير تكلف ولا تصنع وهو قسمان مع الخلق ومع الحق ، وهو مع الخلق عدم الانعزال عنهم وإيثار النفس بالخلوة ، أو الاسترسال معهم بالفضل والمواساة وأن تسعهم بخلقك ، أما مع الحق : فكما تخاف نقمته ترجو رحمته، أما الانبساط في الانبساط فهو انطواء انبساط العبد في بسط الحق بحيث لا ترىٰ لنفسه بسطاً ولا قبضاً ، لطائف الإعلام ١/ ٢٤٥ ، رشح الزلال ٤٧ .

(٢) الأصل (عليه) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ق ، م ، ح١ ، ط.

(٣)ق (والأنصار).

(٤) ديوان كعب بن زهير ٤٢ ، وروايته :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

(٥) المنازل (صحة).

(٦) منازل السائرين (٥٢).

(٧) (هو) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

عن التفاته إلىٰ غيره ، وهذا إنما ينفع إذا كان مصحوباً بالاستقامة ، وهي حفظ حدود العلم ، والوقوف معها ، وعدم إضاعتها ، وإلا فأحسن أحوال هذا الذاهل[١] أن يكون كالمجنون الذي رفع عنه القلم ، فلا يقتدىٰ به ، ولا يعاقب علىٰ ترك[٢] الاستقامة[٣].

وأما إن كان سبب الذهول المخرج عن الاستقامة ، باستدعائه وتكلفه وإرادته فهو عاصٍ مفرط ، مضيع لأمر الله ، له حكم أمثاله من المفرطين.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله وقدس الله روحه - يقول : متىٰ كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً[٤].

وقوله : «**وَمُلَازَمَةُ الرِّعَايَةِ عَلَىٰ تَهْذِيبِ الأَدَبِ**».

يريد به ملازمته رعاية حقوق الله مع التأدب بآدابه ، فلا يخرجه ذهول عن استقامته ، ولا عن رعاية حقوق سيِّده ، ولا عن الوقوف بالأدب بين يديه[٥] ، والله المستعان.

---

(١) غ (الذهل).

(٢) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (تركه).

(٣) تقدم بيان ذلك عند الكلام عن أقسام الفناء (ص١٦٦٧).

(٤) الفتاوىٰ ٢/ ٣٩٧ ، ٤٦١ ، ١٠/ ٦٠ ، ٣٥١ ، ١١/ ٥٩٩.

(٥) ب (يدي) الله بدل (يديه).

فصل

منزلة الأدب

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الأدب»[١].

قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم :٦] ، قال ابن عباس وغيره علموهم وأدبوهم[٢][٣].

وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع ، فالأدب اجتماع خصال الخير في العبد ، ومنه المأدبة ، وهو[٤] الطعام الذي يجمع[٥] عليه الناس.

---

(١) الأدب : يطلق علىٰ العلم والتهذيب وحميد الخصال وجميلها وحسن السيرة ، ويطلق علىٰ الفصاحة والبلاغة ، ويطلق علىٰ الاحتراز من جميع الأخطاء ، وحفظ الحد بين الغلو والجفاء ، ويكون مع الحق ومع النفس ، وهو عندهم يكون مع الشريعة ، وأدب الخدمة وأدب الصبيان والشيوخ وأدب الحقيقة ، والأديب هو الذي بلغ الغاية ، فهو العارف الرباني ، وهو من أهل البساط ، وأدب الشريعة يعنون به الوقوف عند رسومها ، وقيل : هو الورع عند أهل الشرع ، وعند أهل الحكمة : صيانة النفس. انظر : الرسالة القشيرية ٤٠٥ ، رشح الزلال ٤٦ ، لطائف الإعلام ١/ ١٨٢-١٨٧ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٣.

(٢) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق ، ط (أدبوهم وعلموهم).

(٣) وأخرجه الطبري في تفسيره عن علي ٢٨/ ١٦٥ ، وابن كثير ٤/ ٣٩٢ ، السيوطي في الدر المنثور ٨/ ٢٢٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣١٢ ، والشوكاني في فتح القدير ٥/ ٢٥٤ ، وعن ابن عباس بلفظ مختلف عن هذا أخرجه الطبراني في تفسيره ٢٨/ ١٦٦ ، والبغوي في التفسير ٤/ ٣١٧ ، وعن مجاهد كما في تفسير مجاهد ٢/ ٢٨٣ ، الرسالة القشيرية ٤٠٥.

(٤) ق ، أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (وهي).

(٥) ط (يجتمع).

وعلم الأدب : هو علم إصلاح اللسان والخطاب ، وإصابة مواقعه ، وتحسين ألفاظه ، وصيانته عن الخطأ والخلل ، وهو شعبة[1] من الأدب العام[2].

فصل

«والأدب» ثلاثة أنواع : أدب مع الله[3] ، وأدب مع رسوله[4] ، وشرعه[5].

أنواع الأدب

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع :

أحدها صيانة معاملته[6] : أن يشوبها بنقيصة.

الثاني : صيانة قلبك[7] : أن يلتفت إلىٰ غيره.

الثالث : صيانة إرادتك[8] أن تتعلق بما يمقتك[9] عليه.

أقوال مأثورة في الأدب

قال أبو علي الدقاق : العبد يصل بطاعة الله تعالىٰ إلىٰ الجنة ، ويصل بأدبه

---

(١) (شعبة) سقطت من م ، ق.

(٢) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط زيادة (والله أعلم).

(٣) ط (سبحانه).

(٤) ط (ﷺ).

(٥) (وشرعه) سقطت من ش.

(٦) ش (ملتنه) وبهامشها (ملته).

(٧) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط (قلبه).

(٨) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط (إرادته).

(٩) ق (يمقته).

في طاعته إلىٰ الله [١].

وقال : رأيت من أراد أن يمدَّ يده [٢] في الصلاة إلىٰ أنفه فقُبض علىٰ يده [٣].

وقال ابن عطاء : الأدب الوقوف مع [٤] المستحسنات فقيل له : وما معناه؟ فقال : أن تعامل الله [٥] بالأدب سراً وعلناً [٦] ثم أنشد :

إذا نطقت جاءت بكلِّ ملاحةٍ وإن سكتت جاءت بكل مليح [٧]

وقال أبو علي : من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلىٰ القتل [٨].

وقال يحيىٰ بن معاذ : إذا ترك العارف أدبه مع معروفه ، فقد هلك مع الهالكين [٩].

وقال أبو علي - رحمه الله [١٠] - : ترك الأدب يوجب الطرد ، فمن أساء

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٠٥.

(٢) الأصل (يديه) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ق ، ح١ ، م ، ط.

(٣) الرسالة القشيرية ٤٠٥.

(٤) ط (علىٰ) بدل (مع).

(٥) أ ، ب ، غ ، ق ، م ، ح١ ، ط (تعامله سبحانه) بدل (لفظ الجلالة).

(٦) الرسالة القشيرية ٤٠٥.

(٧) لم أجده.

(٨) الرسالة القشيرية ٤٠٦.

(٩) الرسالة القشيرية ٤٠٦

(١٠) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

الأدب علىٰ البساط رُدَّ إلىٰ الباب، ومن أساء الأدب علىٰ الباب رد إلىٰ سياسية الدواب[١].

وقال يحيىٰ بن معاذ -رحمه الله[٢]- : من تأدَّب بأدب[٣] الله صار من أهل محبة الله[٤].

وقال ابن المبارك : نحن إلىٰ قليل من الأدب أحوج منا إلىٰ كثير من العلم[٥].

وسئل الحسن البصري - رضي الله عنه -[٦] عن أنفع الأدب؟ فقال : التفقه[٧] في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عليك[٨].

وقال سهل - رحمه الله -[٩] : القوم استعانوا بالله علىٰ أمر[١٠] الله، وصبروا

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٠٦.

(٢) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٣) ش (تأدب)، ق (بآداب).

(٤) الرسالة القشيرية ٤٠٧ وانظر حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٣.

(٥) الرسالة القشيرية ٤٠٧، ونحوه في الجرح والتعديل لأبي حاتم ٤/ ٣٥٤، وعزاه في حلية الأولياء ٥/ ١٤٤ لابن محيريز بدون لفظ (قليل).

(٦) أ، ب، غ، ح١، م، ط زيادة (رحمه الله).

(٧) ب (الثقة).

(٨) الرسالة القشيرية ٤٠٧ نحوه في حلية الأولياء ٢/ ١٦٢.

(٩) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(١٠) أ، ب، غ، ح١، ط (مراد) بدل (أمر).

لله علىٰ آداب[1] الله [2].

وقال ابن المبارك ـ رحمه الله[3] ـ : طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدِّبون[4].

وقال : الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف[5].

وقال أبو حفص ـ رحمه الله[6] - لما قال له الجنيد رحمه الله[7] : لقد أدبت أصحابك أدب السلاطين - فقال : حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن ، فالأدب مع الله حسن الصحبة معه ، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة علىٰ مقتضىٰ التعظيم والإجلال والحياء ، كحال مجالس الملوك ومصاحبتهم[8] [9].

وقال أبو نصر السراج رحمه الله[10] : الناس في الأدب علىٰ ثلاث طبقات :

---

(١) غ (أدب).

(٢) الرسالة القشيرية (٤٠٧).

(٣) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٤) الرسالة القشيرية ٤٠٧ بسنده ، حلية الأولياء ٨/ ١٦٩.

(٥) الرسالة القشيرية ٤٠٧ ونسبه أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية ٢٢٥ لأبي بكر الوراق.

(٦) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٧) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٨) بقية النسخ (ومصاحبهم).

(٩) الرسالة القشيرية (٤٠٧) ، حلية الأولياء (١٠/ ٣٣٠).

(١٠) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

أما أهل الدنيا : فأكبر[1] آدابهم في الفصاحة والبلاغة، وحفظ العلوم، وأسمار الملوك، وأشعار العرب.

وأما أهل الدين : فأكبر[2] آدابهم في رياضة النفوس، وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود وترك الشهوات.

وأما أهل الخصوصية : فأكثر[3] آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلىٰ الخواطر، وحسن الأدب في مواقف الطلب، وأوقات الحضور، ومقامات القرب[4].

وقال سهل - رحمه الله[5]- : من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص[6].

وقال[7] ابن المبارك - رحمه الله[8] - : قد أكثر الناس القول في «الأدب» ونحن نقول : إنه معرفة النفس[9]، [أراد أن أصله معرفة

(١) م، ش (فأكثر).

(٢) ق، م، غ، أ، ح١، ط (أكثر).

(٣) أ، ب، غ، ح١، ط (أكبر).

(٤) الرسالة القشيرية ٤٠٨.

(٥) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٦) الرسالة القشيرية ٤٠٨.

(٧) أ، ب، غ، ح١، ط زيادة (عبدالله).

(٨) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٩) الرسالة القشيرية ٤٠٨.

النفس][1] ورعوناتها ، وتجنب تلك الرعونات.

وقال الشبلي : الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب[2].

وقال بعضهم: الحق سبحانه يقول: «من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي: ألزمته الأدب ، ومن كشفت له[3] حقيقة ذاتي : ألزمته العطب ، فاختر الأدب أو العطب»[4]. ويشهد لهذا : أنه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتدكدك ، ولم يثبت علىٰ[5] عظمة الذات.

وقال أبو عثمان – رحمه الله –[6] : إذا صحت المحبة تأكدت علىٰ المحب ملازمة الأدب[7].

وقال الثوري[8] – رحمه الله – : من لم يتأدب للوقت فوقته مقت[9].

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٢) الرسالة القشيرية ٤٠٨.

(٣) أ ، ب ، غ ، م ، س ، ح١ ، ط زيادة (عن).

(٤) الرسالة القشيرية (٤٠٨).

(٥) ب ، ح١ (عن).

(٦) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٧) الرسالة القشيرية (٤٠٩).

(٨) ط ، م (النوري). وهو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري ، خراساني الأصل ، بغدادي المولد يعرف بالبغوي ، لقي أحمد بن أبي الحواري ، وصحب سرياً السقطي وتوفي سنة ٢٩٥هـ ، ، حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٩) ، صفة الصفوة (٢/ ٢٨٣ ، ٢٩٤) ، تاريخ بغداد (٥/ ١٣٠) طبقات الصوفية للسلمي (١٦٤) ، الرسالة القشيرية (٧٥).

(٩) الرسالة القشيرية (٤٠٩).

وقال ذو النون - رحمه الله -[1] : إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء[2].

وتأمل أحوال الرسل [صلوات الله وسلامه عليهم][3] مع الله ، وخطابهم وسؤالهم ، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به.

قال المسيح[4] : ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة :١١٦] ولم يقل : لم أقله ، وفرقٌ بين الجوابين في حقيقة الأدب ، ثم أحال الأمر علىٰ علمه سبحانه بالحال وسره[5] ، فقال :﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ [المائدة :١١٦] ثم برَّأ نفسه[6] عن[7] علمه بغيب ربه وما يختص به[8] فقال: [﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] ثم أثنىٰ علىٰ ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال :][9] ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة :١١٦] ثم نفىٰ أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه[10] به

---

(١) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٢) الرسالة القشيرية (٤٠٩).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من الأصل وهو في بقية النسخ.

(٤) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط زيادة (عليه السلام).

(٥) ق (وبشره).

(٦) (ثم برَّأ نفسه) سقط من أ ، ب ، غ ، ح١.

(٧) م (من).

(٨) ق ، أ ، ب ، غ ، م زيادة (سبحانه).

(٩) ما بين المعقوفين سقط من ط.

(١٠) (ربه) سقطت من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق .

- وهو محض التوحيد - فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده(١) المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم، فقال: ﴿وَأَنتَ(٢) عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك، فإذا عذبتهم - مع كونهم عبيدك - فلولا أنهم عبيد سوء(٣) من أبخس(٤) العبيد، وأعتاهم علىٰ سيدهم، وأعصاهم له: لم تعذبهم(٥)؛ لأن مرتبة(٦) العبودية تستدعي إحسان السيد إلىٰ عبده ورحمته، فلماذا(٧) يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبيده؟ لولا فرط عتوهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

---

(١) ط زيادة (هو).

(٢) جميع النسخ (وأنه).

(٣) أ (سيئ).

(٤) أ، ب، غ، ح١ (أنجس).

(٥) أ، ب، غ، ح١، ق (يعذبهم).

(٦) أ، ب، غ، ح١، ط (قربة).

(٧) أ، ب، غ، ح١ (فماذا).

وقد تقدم قوله : ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي[١] عبادك ، وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم ، فإذا عذبتهم : عذبتهم علىٰ علم منك بما تعذبهم عليه ، فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه ، فليس في هذا استعطاف لهم ، كما يظنه الجهال ، ولا تفويض إلىٰ محض المشيئة[٢] والملك المجرد عن الحكمة[٣] ، كما تظنه القدرية ، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه[٤] بحكمته وعدله ، وكمال علمه بحالهم ، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة :١١٨] ولم يقل: «الغفور الرحيم» ، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالىٰ ، فإنه قاله[٥] في[٦] وقت غضب الرب عليهم ، والأمر بهم إلىٰ النار ، فليس[٧] مقام استعطاف ولا شفاعة؛ بل مقام براءة منهم ، فلو قال :«فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه[٨] علىٰ أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم ، فالمقام مقام موافقة

---

(١) ط ، وهامش ش زيادة (هم).

(٢) القائلون بمحض المشيئة هم الأشاعرة نفاة الحكمة والتعليل القائلين بالجبر ، وتقدم الكلام عن العلل والأسباب ص١٧٢٩ ، وانظر تفصيل المسألة في رسالة الدكتور المحمود ، موقف شيخ الإسلام من الأشاعرة ٣/ ١٣١٠ وما بعدها.

(٣) أ ، ب (القدرة) بدل (الحكمة).

(٤) ط زيادة (سبحانه).

(٥) (قاله) سقطت من الأصل وما أثبته من بقية النسخ.

(٦) (في) سقطت من ح١ ، غ.

(٧) ط زيادة (هو).

(٨) ط زيادة (ربه).

للرب في غضبه علىٰ من غضب عليهم ، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلىٰ ذكر العزة والحكمة ، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنىٰ : إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ، ليست عن عجز عن الانتقام منهم ، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم ، وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه[1] ، ولجهله بمقدار إساءته[2] إليه ، والكمال هو مغفرة القادر العالم ، وهو العزيز الحكيم ، وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب.

وفي بعض الآثار: «حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا[3] وبحمدك ، لك الحمد علىٰ حلمك بعد علمك ، واثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، لك الحمد علىٰ عفوك بعد قدرتك» [4] ، ولهذا يقترن كل

---

(١) (منه) سقطت من م.

(٢) ق (سابق) بدل (إساءته).

(٣) (ربنا) سقطت من م.

(٤) ذكره ابن كثير في التفسير وقال إسناده جيد ، وقال إنهم اليوم أربعة فإذا كانوا يوم القيامة كانوا ثمانية ، أو المقربين من حملة العرش أربعة (٤/ ٨٦) (٤/ ٤٨٩) ، وفي العظمة لأبي الشيخ (٢/ ٧٦١) ، ولفظ « حملة العرش أربعة » مخالف لنص الآية ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ [الحاقة : ١٧] : والحديث الوارد في ذلك : « حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك وبحمدك علىٰ حلمك بعد علمك ، ويقول الأربعة الآخرون : سبحانك وبحمدك علىٰ عفوك بعد قدرتك » ، أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٧) ، عن شهر بن

من هاتين الصفتين بالأخرىٰ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢] وقوله: ﴿كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا(١)﴾ [النساء: ١٤٩].

وكذلك(٢) قول إبراهيم الخليل - عليه السلام - : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٠] ولم يقل: «وإذا أمرضني» حفظاً للأدب مع الله.

وكذلك قول الخضر - عليه السلام - في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] ولم يقل: «فأراد ربك أن أعيبها» وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

وكذلك قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ(٣)﴾ ولم يقولوا(٤): «أراده ربهم»، ثم قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

وألطف من هذا قول موسىٰ - عليه السلام - : ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] ولم يقل: «أطعمني».

حوشب، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٢٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٥٤)، وابن أبي شيبة في العرش (١/ ٦٣)، وأورده ابن كثير (٤/ ٤٨٩) عن شهر بن حوشب، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٥٥).

(١) ب، م ﴿عليماً قديراً﴾ [فاطر: ٤٤].

(٢) ق (ولذالك).

(٣) ق ذكر الآية بتمامها.

(٤) الأصل، ش (يقل) وما أثبته من بقية النسخ.

وقول آدم[1] : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف :٢٣] ولم يقل : «رب قدّرت عليَّ وقضيت عليَّ».

وقول أيوب- عليه السلام- : ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء :٨٣] ، ولم يقل : «فعافني واشفني».

وقول يوسف – عليه السلام[2]– لأبيه وإخوته : ﴿هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ[3]﴾ [يوسف :١٠٠] ولم يقل : «أخرجني من الجب» حفظاً للأدب مع إخوته ، وتفتّياً عليهم : أن لا يخجلهم بما جرىٰ في الجب ، وقال :﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ ولم يقل : «رفع عنكم جهد الجوع والحاجة» أدباً معهم ، وأضاف ما جرىٰ إلىٰ السبب ولم يضفه إلىٰ المباشر الذي هو أقرب إليه منه ، فقال :﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف :١٠٠] فأعطىٰ الفتوة والكرم والأدب حقه ، ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم –.

ومن هذا أمر النبي ﷺ الرجل :«أن يستر عورته ، وإن كان خالياً لا يراه أحد»[4] ، أدباً مع الله ، علىٰ حسب القرب منه ، وتعظيمه وإجلاله ، وشدة

---

(١) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط زيادة (عليه السلام).

(٢) (عليه السلام) سقطت من بقية النسخ.

(٣) ق زيادة ﴿وجاء بكم من البدو﴾.

(٤) للحديث الذي أخرجه أحمد (٥/ ٤) ، الترمذي. الأدب (٤/ ٩٧) ح(٢٧٦٩) وقال: حديث

الحياء منه، ومعرفة وقاره.

وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهراً وباطناً، فما أساء أحدٌ الأدب في الظاهر إلا عُوقِبَ ظاهراً، وما أساء الأدب(١) باطناً إلا عوقب [باطناً(٢).

وقال عبدالله بن المبارك - رحمه الله -: من تهاون بالأدب عُوقب](٣) بحرمان السُّنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة(٤).

وقيل: الأدب في العمل علامة قبول العمل.

وحقيقة «الأدب» استعمال الخلق الجميل، ولهذا كان الأدب: استخراج ما في الطبيعة من الكمال من القوة إلىٰ الفعل.

فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد التي(٥) فيه كامنة كالنار في الزناد، فألهمه ومكّنه، وعرفه وأرشده، وأرسل إليه

حسن، وأبو داود. اللباس (٤/ ٣٠٤) ح(٤٠١٧)، وذكره الألباني في الصحيحة (٤/ ٢٨٢)، ولفظه: «احفظ عورتك إلا من زوجتك..» وفي مسلم: «ارجع إلىٰ ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة» مسلم. الحيض (١/ ٢٦٨) ح(٣٤١).

(١) غ، ق، ط زيادة (أحد).

(٢) صفة الصفوة ٤/ ١٢٥، عن عائشة بنت أبي عثمان بن إسماعيل الحيري النيسابوري.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ، ح١.

(٤) شعب الإيمان ٣/ ١٨٢.

(٥) أ، ب، غ، م، ح١، ط (جعلها).

رسله ، وأنزل(١) كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهّله بها (٢)لكماله إلىٰ الفعل ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس : ٧ - ١٠] فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة(٣) علىٰ الاعتدال والتمام ، ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوىٰ ، وأن ذلك بإلهامه(٤) امتحاناً واختباراً ، ثم خص بالفلاح من زكاها فنمّاها(٥) وعلاَّها ، ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه ، وهي التقوىٰ ، ثم حكم بالشقاء علىٰ من دسّاها ، فأخفاها وحقرها(٦) ، وصغرها وقمعها بالفجور(٧).

* * *

(١) ط زيادة (إليه).

(٢) أ ، ب ، غ سقطت (اللام).

(٣) الأصل (الدالة) وما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط.

(٤) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (نالها منه) بدل من (بإلهامه).

(٥) (فنماها) سقطت من ح١.

(٦) (وحقرها) سقطت من غ ، أ.

(٧) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط زيادة (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

فصل

صلة قوله تعالى : ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ بالأدب

وجرت عادة القوم : أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالىٰ عن نبيه ﷺ ، حين أراه ما أراه : ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم :١٧] وأبو القاسم القشيري -رحمه الله[١]- صدّر باب الأدب[٢] بهذه الآية ، وكذلك غيره[٣].

وكأنهم نظروا إلىٰ قول من قال من أهل التفسير : إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام إذ لم يلتفت جانباً ، ولا تجاوز ما رآه ، وهذا كمال الأدب[٤] ، والإخلال به : أن يلتفت الناظر عن يمينه وشماله ، أو يتطلع[٥] إلىٰ ما[٦] أمام المنظور ، فالالتفات زيغ ، والتطلع إلىٰ ما[٧] أمام المنظور : طغيان ومجاوزة ، فكمال الأدب[٨] إقبال الناظر علىٰ المنظور : أن[٩] لا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة ، ولا يتجاوزه.

---

(١) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٢) (الأدب) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١.

(٣) باب الأدب عند القشيري في الرسالة القشيرية ٤٠٥ ، وهو تصدَّر بهذه الآية.

(٤) تفسير الطبري ٩/ ٣٤ ، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٩٨.

(٥) أ ، ب ، غ ، ح١ (يطلع).

(٦) (ما) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، (إلىٰ ما) سقطت من ط.

(٧) (ما) سقطت من ش.

(٨) (الأدب) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٩) (أن) سقطت من ق.

هذا معنىٰ ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه.

و[1] في هذه الآية أسرار عجيبة، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ: تواطأ هناك بصره وبصيرته، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره، فالبصيرة مواطئة[2] له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضاً حق مشهود بالبصر، فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

ولهذا قال سبحانه[3]: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١١ - ١٢] أي ما كذَب الفؤاد ما رآه ببصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر[4] ﴿ما كذّب الفؤاد ما رأىٰ﴾[5] - بتشديد الذال - أي لم يكذِّب الفؤاد البصر؛ بل صدقه وواطأه، لصحة الفؤاد والبصر، أو استقامة البصيرة والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقاً، وقرأ الجمهور ﴿ما كذَب الفؤاد﴾ بالتخفيف، وهو متعد ﴿وما رأىٰ﴾ مفعوله: أي ما كذب قلبه ما رأته عيناه؛ بل واطأه ووافقه، فلمواطأة قلبه لقالبه[6]، وظاهره

---

(١) في بقية النسخ زيادة (الواو).

(٢) ش (مواضبة).

(٣) ط زيادة (وتعالىٰ).

(٤) أبوجعفر هو يزيد بن القعقاع المخزومي المدني أحد الأئمة العشرة في حروف القراءات، قرأ علي أبي هريرة وابن عباس وقرأ عليه نافع وغيره، وثقه ابن معين والنسائي. طبقات ابن سعد ٦/ ٣٥٢، التاريخ الكبير ١/ ٣٥٣ شذرات الذهب ١/ ١٧٦، سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٨٧.

(٥) تفسير الطبري ٩/ ٢٩، تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦، زاد المسير ٨/ ٦٨.

(٦) (لقالبه) سقطت من أ، ب، غ.

لباطنه، وبصره لبصيرته، لم يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حده فيطغىٰ ولم يمل عن المرئي[1] فيزيغ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئي، ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال علىٰ الله، والإعراض عما سواه، فإنه أقبل علىٰ الله بكليته [وأعرض عما سواه بكليته][2]، وللقلب زيغ وطغيان، [كما أن للبصر زيغاً وطغياناً][3]، وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلىٰ غيره، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه.

فإن عادة النفوس، إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلىٰ ما هو أعلىٰ[4] منه، وفوقه، ألا ترىٰ موسىٰ ﷺ لما أقيم في مقام التكليم[5] والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية؟ ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام، وفَّاه حقه، لم يلتفت بصره ولا قلبه إلىٰ غير ما أقيم[6] فيه البتة؟.

ولأجل هذا ما عاقه عائق، ولا وقف به مراد، حتىٰ جاوز السماوات السبع حتىٰ عاتب موسىٰ ربه فيه، وقال: «يقول بنو إسرائيل: إني أكرم[7] الخلق علىٰ

---

(١) الأصل (الرأي) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ، ح١، ق، ط.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ.

(٤) ق (أغلىٰ).

(٥) ش (التكلم).

(٦) ط (يقيم).

(٧) أ، ب، غ، ط (كريم).

الله ، [وهذا قد جاوزني وخلَّفني عُلواً ، فلو أنه وحده؟ ولكن معه كل أمته» وفي رواية للبخاري «فلما جاوزته بكىٰ ، قيل ما يبكيك؟ قال أبكي أن غلاماً بُعِث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي» (١) ، ثم جاوزه علواً](٢) فلم تعقه إرادة ، ولم تقف(٣) به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطَّرف ، فيضع قدمه عند منتهىٰ طرفه مشاكلاً لحال راكبه ، وبعد شأوه ، الذي سبق العالم أجمع في سيره ، فكان قدم البراق (٤) لا يتخلف(٥) عن(٦) موضع نظره ، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة(٧) (٨) كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مرتبة(٩)

---

(١) الحديث أخرجه البخاري. بدء الخلق (٢/ ٤٢٢) ح(٣٢٠٧) ، مسلم. الإيمان (١/ ١٤٩) ح(١٦٤) ، أحمد (٤/ ٢٠٧).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من الأصل ، ش وهو في بقية النسخ.

(٣) ب ، ح١ (تفنىٰ).

(٤) البراق : الدابة التي حملت رسول الله ﷺ من مكة إلىٰ بيت المقدس ، انظر : شرح النووي لصحيح مسلم (٢/ ٢١٠) ، فتح الباري (٢/ ٧٨).

(٥) أ ، ب ، غ ، م ، ط (يختلف).

(٦) أ ، ب (من).

(٧) ط (حفارة).

(٨) خفارة سبق ص١٧٨٩ .

(٩)أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (مراتب).

عبوديته له ، حتىٰ خرق حجب السماوات ، وجاوز السبع الطباق ، وجاوز[1] سدرة المنتهىٰ ، ووصل إلىٰ محل من القرب سبق به الأولين والآخرين ، فانصبت إليه[2] هناك أقسام القرب انصباباً ، وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجاباً ، وأقيم مقاماً غبطه به الأنبياء والمرسلون ، فإذا كان في المعاد أقيم مقاماً من القرب ثانياً ، يغبطه به الأولون والآخرون ، واستقام هناك علىٰ صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله ، ما زاغ البصر عنه وما طغىٰ ، فأقامه في هذا العالم علىٰ أقوم صراط من الحق والهدىٰ ، وأقسم بكلامه علىٰ ذلك في الذكر الحكيم فقال[3] : ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يس :١-٤] فإذا كان يوم المعاد أقامه علىٰ الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتىٰ يجوزه[4] إلىٰ جنات النعيم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم.

فصل

علاقة الأدب بالدين وصلته بالعمل

و«الأدب» هو الدين كله فإن ستر العورة من الأدب ، والوضوء وغسل الجنابة[5] ، والتطهر من الخبث من الأدب ، حتىٰ يقف بين يدي الله طاهراً ،

---

(١) ط (جاور).

(٢) ح١ (له) بدل (إليه).

(٣) أ ، ب ، غ ، م ، ط زيادة (تعالىٰ).

(٤) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق ، ط (يجوزونه).

(٥) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط زيادة (من الأدب).

ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله[١] - يقول: أمر الله بقدرٍ زائد علىٰ ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة[٢]، فقال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، فعلق الأمر بأخذ[٣] الزينة، لا بستر العورة، إيذاناً بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة.

وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال، وكان يلبسها وقت الصلاة، ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي.

ومعلوم: أن الله[٤] يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده[٥]، لا سيما إذا وقف بين يديه، فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهراً

---

(١) ح١ (قدس الله روحه) بدل (رحمه الله).

(٢) قول شيخ الإسلام في أخذ الزينة أشار إليه شيخ الإسلام في الفتاوىٰ (٢٢/ ١٠٩)، منهاج السنة (٥/ ٣١٥).

(٣) الأصل (باسم) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ح١، ط.

(٤) أ، ب، غ، ح١، م، ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

(٥) للحديث الوارد في ذلك وهو قوله ﷺ: «إن الله عزّ وجل إذا أنعم علىٰ عبد نعمة يحب أن يرىٰ أثر النعمة عليه..»، أخرجه الترمذي. الأدب (٥/ ١٣٣) ح(٢٨١٩) وحسنه، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٥٠) وقال رجاله رجال الصحيح ولم يخرجاه، ابن حبان (١٢/ ٢٣٥)، البيهقي في السنن الكبرىٰ (٣/ ٢٧١) ح(٥٨٨٢)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٣٣٣) وقال رجاله رجال الصحيح والألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٣١٠) ح(١٣٢٠).

وباطناً.

ومن الأدب : نهىٰ النبي ﷺ المصلي[1] أن يرفع بصره إلىٰ السماء[2].

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : هذا من كمال أدب الصلاة ، أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً ، خافضاً طرفه إلىٰ الأرض ، ولا يرفع بصره إلىٰ فوق.

قال : والجهمية - لما لم يفقهوا هذا الأدب ، ولا عرفوه - ظنوا أن هذا دليل علىٰ[3] أن الله ليس فوق سماواته ، علىٰ عرشه ، كما أخبر به عن نفسه ، واتفقت عليه رسله ، وجميع أهل السنة.

قال : وهذا من جهلهم ؛ بل هذا دليل لمن عقل عن رسول الله ﷺ علىٰ نقيض قولهم ، إذ من الأدب مع الملوك : أن الواقف بين أيديهم يُطرق إلىٰ الأرض ، ولا يرفع بصره إليهم ، فما الظن بملك الملوك سبحانه؟.

وسمعته يقول - في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود[4] - إن

---

(١) (المصلي) سقطت من ط.

(٢) البخاري. صفة الصلاة (١/ ٢٤٤) ح(٧٥٠) ، مسلم. الصلاة (١/ ٣٢١) ح(٤٢٨) ، أحمد (٢/ ٣٣٣).

(٣) (علىٰ) سقطت من غ ، ح١ ، ب ، ط.

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس مسلم (١/ ٣٤٨) ح(٤٧٩) ، أحمد (١/ ١٥٥) ، أبو داود. الصلاة (١/ ٥٤٥) ح(٨٧٦).

القرآن هو أشرف الكلام، وهو كلام الله، وحالتا(١) الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد، فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولىٰ به.

الأدب مع الله

ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة، ما ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة، وغيرهم(٢)(٣)، والصحيح: أن هذا الأدب يعم الفضاء والبنيان، كما ذكرنا في غير هذا الموضع(٤).

الأدب مع الله

ومن الأدب مع الله، في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليد اليمنىٰ علىٰ اليد اليسرىٰ حال قيام القراءة، ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد «أنّه من السنة»(٥) و«كان الناس يؤمرون به» ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء، فعظيم العظماء أحق به.

---

(١) م (حالة).

(٢) أ، م، ط زيادة (رضي الله عنهم).

(٣) لقوله ﷺ: «لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرّقوا وغرّبوا»، أخرجه البخاري. الوضوء (١/ ٦٨) ح(١٤٤)، مسلم الطهارة (١/ ٢٤٤) ح(٢٦٤)، أحمد (٥/ ٤٢١).

(٤) انظر اختيار شيخ الإسلام، وابن القيم لذلك في الاختيارات (ص٨)، تهذيب السنن (١/ ٢٢)، أعلام الموقعين (٢/ ٢٠٢) (٤/ ٢٨٠).

(٥) وضع اليد اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ حال القيام كما ورد في الموطأ، قصر الصلاة في السفر (١/ ١٥٨) ح(٤٦)، والبخاري. الصلاة (١/ ٢٤٢) ح(٧٤٠)، مسلم. الصلاة (١/ ٣٠١٨) ح(٤٠٤).

ومنها السكون في الصلاة ، وهو الدّوام الذي قال الله تعالىٰ[1] فيه : ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج :٢٣] ، قال عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة : حدثني يزيد بن أبي حبيب : أن أبا الخير أخبره قال : سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ أهم الذين يصلون دائماً؟ قال : لا ، ولكنه إذا[2] صلىٰ لم يلتفت عن يمينه ، ولا عن شماله ولا خلفه[3].

قلت : هما أمران ، الدَّوام عليها ، والمداومة عليها ، فهذا الدوام ، والمداومة في قوله[4] : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج :٣٤] ، وفُسِّر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة[5].

وأدبه في استماع القراءة : أن يُلقي السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع : أن يستوي ، ويعظم الله[6] حتىٰ لا يكون في قلبه شيء أعظم منه ، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه ، حتىٰ يكون أقل من الهباء[7].

والمقصود : أن الأدب مع الله تبارك وتعالىٰ[8] : هو القيام بدينه ، والتأدب

---

(١) (تعالىٰ) سقطت من ب.

(٢) ق زيادة (ما).

(٣) تفسير الطبري ٢٩/ ٥٠ ، تفسير البغوي ٤/ ٣٩٥.

(٤) ح١ ، ط زيادة (تعالىٰ).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٨).

(٦) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (تعالىٰ).

(٧) الهباء : الشيء المنبث ، والدقيق من التراب ، مختار الصحاح (٦٨٩).

(٨) (تعالىٰ) سقطت من الأصل و ش والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

بآدابه ظاهراً وباطناً.

ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء : معرفةً به[١] وبأسمائه وصفاته ، ومعرفةً[٢] بدينه وشرعه، وما يحب ويكره، ونفس مستعدة قابلة ليِّنة ، متهيئة لقبول الحق علماً وعملاً وحالاً ، والله المستعان.

فصل

الأدب مع الرسول ﷺ

وأما الأدب مع رسول الله[٣] ﷺ : فالقرآن مملوء به.

فرأس الأدب معه كمال التسليم له ، والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن يحمله معارضة خيال باطل ، يسميه معقولاً ، أو يحمله شبهة أو شك[٤] ، أو يقدم عليه آراء الرجال ، وزبالات أذهانهم ، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان ، كما وحَّد المرسِلَ[٥] بالعبادة والخضوع والذل[٦] ، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان ، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما : توحيد المرُسِل ،

(١) ط (معرفته بأسمائه..).

(٢) ط (معرفته).

(٣) ط (الرسول).

(٤) الجميع (شكاً) والصحيح لغة (شك).

(٥) ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

(٦) ق (الذات).

وتوحيد متابعة الرسول ، فلا يحاكم إلىٰ غيره ، ولا يرضىٰ بحكم غيره ، ولا يقف تنفيذ أمره ، وتصديق خبره علىٰ عرضه علىٰ قول شيخه وإمامه ، وذوي[١] مذهبه وطائفته ، ومن يعظمه ، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره ، وإلا فإن طلب السلامة : أعرض عن أمره وخيره وفوضه إليهم ، وإلا حرفه عن مواضعه ، وسمىٰ تحريفه : تأويلاً ، وحملاً ، فقال نؤوله ونحمله.

فلأنْ يلقىٰ العبدُ ربَّه بكل ذنب علىٰ الإطلاق - ما خلا الشرك بالله - خير له من أن يلقاه بهذه الحال.

ولقد خاطبت يوماً بعض أكابر هؤلاء ، فقلت له : سألتك بالله[٢] ، لو قُدِّر أن الرسول ﷺ حي بين أظهرنا ، وقد واجهنا بخطابه وبكلامه[٣] ، أكان فرضاً علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه علىٰ رأي غيره وكلامه ومذهبه ، أم لا نتبعه حتىٰ نعرض ما سمعناه منه علىٰ آراء الناس وعقولهم؟.

فقال : بل كان الفرض المبادرة إلىٰ الامتثال من غير التفات إلىٰ سواه.

فقلت له[٤] : فما الذي نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأيِّ شيء نُسِخ؟.

فوضع إصبعه علىٰ فيه ، وبقي باهتاً متحيراً ، وما نطق بكلمة.

---

(١) الأصل (وذي) وما أثبته من جميع النسخ ، ط.

(٢) الأصل ، ش (الله) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٣) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (بكلامه وبخطابه).

(٤) (له) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

هذا أدب الخواص معه[١]، لا مخالفة أمره والشرك به، ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم[٢]، وعزل كلامه عن اليقين، وأن يستفاد منه معرفة الله أو يتلقىٰ[٣] منه أحكامه، بل المعول في باب معرفة الله[٤]: علىٰ العقول المتهوكة[٥] المتحيرة المتناقضة[٦]، وفي الأحكام: علىٰ تقليد الرجال وآرائها، والقرآن[٧] والسنة إنما نقرؤهما تبركاً، لا أنا نتلقىٰ منهما أصول الدين ولا فروعه، ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره، واستئصال شأفته[٨] ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم

---

(١) (معه) سقطت من غ.

(٢) شاهد هذه الحال أصحاب الموالد وعنايتهم في الألفاظ والألقاب في الوقت الذي يخالفون فيه هديه ﷺ وسنته وأمره ونهيه.. والله المستعان.

(٣) ش (تتلقىٰ).

(٤) المقصود بذلك عند غلاة الصوفية والمتعصبين من أصحاب المذاهب الفقهية.

(٥) ط (المنهوكة).

(٦) م (الناقضة).

(٧) (القرآن) سقطت من الأصل، والصحيح ما أثبته من بقية النسخ، ط.

(٨) شأفته: أي إزالته من أصله، كالقرحة تستأصل بالكي، المعجم الوسيط ١/ ٤١٩.

بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون :٦٣-٧٤].

والناصح لنفسه، العامل(١) علىٰ نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها، ويتأملها حق تأملها، وينزلها علىٰ الواقع: يرىٰ(٢) العجب، ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا «فالحديث لك، واسمعي يا جارة(٣)»(٤)، والله المستعان.

ومن الأدب مع الرسول ﷺ: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف، حتىٰ يأمر(٥) هو وينهىٰ ويأذن، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات :١] وهذا باق إلىٰ يوم القيامة لم(٦) ينسخ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، (٧)لا فرق

---

(١) ط (العالم).

(٢) ط (فيرىٰ).

(٣) ب (جارتي).

(٤) من أمثال العرب: يضرب لمن يخاطب امرأ ويريد غيره وأول من قاله سهل بن مالك الفزاري، انظر مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤٩.

(٥) غ (يأمرهم).

(٦) أ، ب، غ، ط زيادة (الواو).

(٧) ط زيادة (الواو).

بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد - رضي الله عنه[١] -: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ [بشيء حتى يقضيه الله على لسانه[٢].

وقال الضحاك- رحمه الله- : لا تقضوا أمراً دون رسول الله ﷺ][٣][٤].

وقال أبو عبيدة - رحمه الله[٥] - : تقول[٦] العرب : لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب ، أي لا تعجل[٧] بالأمر والنهي دونه[٨].

وقال غيره : لا تأمروا حتى يأمروا ، ولا تنهوا حتى ينهى.

ومن الأدب معه : أن لا ترفع الأصوات فوق صوته ، فإنه سبب لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ، ونتائج الأفكار على سُنَّتِهِ وما جاء به؟ أترى ذلك موجباً لقبول الأعمال، ورفع الأصوات فوق صوته موجب لحبوطها؟.

---

(١) ط (رحمه الله).

(٢) تفسير الطبري ٢٦/ ١١٦ ، تفسير البغوي ٤/ ٢٠٩ ، ابن كثير ٤٤/ ٢٤٣.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ط.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٤٢ ، وفي الطبري عن زيد ٢٦/ ١١٧ ، والذي نقل عن الضحاك قوله : «يعني بذلك في القتال» تفسير الطبري ٢٦/ ١١٧.

(٥) (رحمه الله) سقطت من ط.

(٦) بقية النسخ (تقول).

(٧) ط (تعجلوا).

(٨) تفسير الطبري ٢٦/ ١١٦ ، تفسير البغوي ٤/ ٢٠٨.

ومن الأدب معه: أن لا تجعل[١] دعاءه[٢] كدعاء غيره، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضاً؛ بل[٣] قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، فعلىٰ هذا: المصدر مضاف إلىٰ المفعول[٤]، أي دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنىٰ لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً؛ إن شاء أجاب، وإن شاء ترك؛ بل إذا دعاكم لم يكن لكم بدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة، فعلىٰ هذا: المصدر مضاف إلىٰ الفاعل، أي دعاؤه إياكم[٥].

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه علىٰ أمر جامع - من خطبة، أو جهاد أو رباط[٦] - لم يذهب أحد منهم مذهباً في حاجته[٧] حتىٰ يستأذنه، كما قال

---

(١) أ، ب، غ، ح١، م (يجعل).

(٢) ش (دعاؤه).

(٣) (بل) سقطت من أ، ب، غ.

(٤) أ، ب، ح١ (الفعل).

(٥) تفسير الطبري ٨/ ١٧٧، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٧، لباب النقول ١٢٦.

(٦) (رباط) سقطت من م.

(٧) ش (حاجة له).

تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور :٦٢] ، فإذا كان هذا[١] مذهباً مقيداً لحاجة[٢] عارضة ،لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين : أصوله وفروعه ، دقيقه وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل :٤٣ ، الأنبياء :٧].

ومن الأدب معه : أن لا يستشكل قوله؛ بل يستشكل الآراء لقوله ، ولا يعارض نصّه بقياس؛ بل تهدر الأقيسة وتلغىٰ[٣] لنصوصه ، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال تسميه[٤] أصحابه معقولاً ، نعم هو مجهول ، وعن الصواب معزول ، ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ علىٰ موافقة أحد ، فكل هذا من قلّة الأدب معه ﷺ[٥] ، وهو عين الجراءة[٦].

فصل[٧]

الأدب مع الخلق

وأما الأدب مع الخلق : فهو معاملتهم - علىٰ اختلاف مراتبهم - بما يليق

(١) (هذا) سقطت من ش.

(٢) أ ، ب ، غ ، ح١ ، م ، ط (بحاجة).

(٣) أ ، ب ، غ ، م ، ط (تلقىٰ).

(٤) أ ، ب ، غ ، ش ، ح١ ، ط (يسميه).

(٥) (ﷺ) ليست في الأصل.

(٦) ب ، ط (الجرأة).

(٧) (فصل) سقط من ط.

بهم ، ولكل[١] مرتبة أدب ، والمراتب فيها أدب خاص ، فمع الوالدين : أدب خاص وللأب منهما أدب هو أخص به، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان: أدب يليق به ، وله مع الأقران أدب يليق بهم ، ومع الأجانب : أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه ، ومع الضيف : أدب غير أدبه مع أهل بيته ، ولكلِّ حالٍ أدب : فللأكل[٢] آداب وللشرب آداب ، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب ، وللبول آداب ، وللكلام آداب ، وللسكوت والاستماع آداب.

وأدب المرء : عنوان سعادته وفلاحه ، وقلة أدبه : عنوان شقاوته وبواره.

فما استُجْلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.

فانظر إلىٰ الأدب مع الوالدين : كيف نَجَّىٰ صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة[٣]؟ والإخلال به مع الأم -تأويلاً وإقبالاً- علىٰ الصلاة كيف امتُحن صاحبه بهدم صومعته[٤] ، وضرب الناس له ، ورميه بالفاحشة؟.

---

(١) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ق ، ط (فلكل).

(٢) (فللأكل) سقطت من ش.

(٣) قصة أصحاب الغار أخرجها : البخاري. الأدب (٤/ ٨٧) ح(٥٩٨٤) ، مسلم. الذكر (٤/ ٢٠٩٩) ح(٢٧٤٣) ، أحمد (٢/ ١١٦).

(٤) قصة جريج الراهب أخرجها : البخاري. الأنبياء (٢/ ٤٨٧) ح(٣٤٨٦) ، مسلم. البر والصلة (٤/ ١٩٧٦) ح(٢٥٥٠) ، أحمد (٢/ ٣٠٨ ، ٣٨٥ ، ٤٣٣).

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر : كيف تجد قلة الأدب [هو الذي ساقه][1] إلىٰ الحرمان؟.

وانظر قلة أدب عوف[2] مع خالد : كيف حرمه السَّلَب بعد أن بَرَد بيديه؟[3].

وانظر أدب الصديق ـ رضي الله عنه ـ وأرضاه[4] مع النبي ﷺ في الصلاة : أن يتقدَّم بين يديه ، قال[5] : «ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ»[6] ، كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده؟ فكان ذلك التأخر إلىٰ خلفه – وقد أومأ إليه أن : اثبت مكانك – جَمْزاً[7] ، وسعياً إلىٰ قدام؟ بكل خطوة إلىٰ وراء مراحل إلىٰ قدَّام ، تنقطع فيها أعناق المطي[8].

---

(١) ما بين المعقوفين في ط (هي التي ساقته).

(٢) عوف بن مالك الأشجعي الغطفاني ، أبو عبد الرحمن ، من نبلاء الصحابة ، شهد فتح مكة ، حدث عنه أبو هريرة وأبو مسلم الخولاني ، توفي سنة ٧٣هـ/ التاريخ الكبير (٧/ ٥٦) ، أسد الغابة (٤/ ٣١٢) ، الإصابة (٧/ ١٧٩) ، شذرات الذهب (١/ ٧٩) ، سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٨٧).

(٣) قصة عوف بن مالك مع خالد أخرجها : مسلم في الجهاد (٣/ ١٣٧٣) ح(١٧٥٣) ، وأحمد (٦/ ٢٨) ، أبو داود. الجهاد (٣/ ٧١) ح(٢٧١٩).

(٤) (وأرضاه) سقطت من ط.

(٥) أ ، ب ، غ ، ط (فقال).

(٦) مسلم. الصلاة (١/ ٣١٦) ح(٤٢١) ، أبو داود. الصلاة (١/ ٢٤٥) ح(٩٤٠) ، الموطأ (١/ ١٦٣).

(٧) جمزاً : الجمز ضرب من السير أشد من العَنَق ، مختار الصحاح (١٠٩).

(٨) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق ، ط زيادة (والله أعلم).

فصـــل

قال صاحب المنازل - رحمه الله[١] - :

حدّ الأدب

«**الأَدَبُ حِفظُ الحَدِّ، بَينَ الغُلُوِّ وَالجَفَاءِ، بِمَعرِفَةِ ضَرَرِ العُدوَانِ**»[٢].

هذا من أحسن الحدود، فإن الانحراف إلىٰ أحد طرفي الغلو والجفاء: هو قلّة الأدب، والأدب: الوقوف[٣] في الوسط بين الطرفين، فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها، ولا يتجاوز بها ما جعلت حدوداً له، فكلاهما عدوان، والله لا يحب المعتدين، والعدوان: هو سوء الأدب.

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه[٤].

فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوضوء، ولم يوف الصلاة آدابها التي سنّها رسول الله ﷺ وفعلها، وهي قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب.

وإضاعته بالغلو: كالوسوسة في عقد النية، ورفع الصوت بها، والجهر

---

(١) (رحمه الله) سقطت من ط.

(٢) منازل السائرين ٥٢.

(٣) م، ح١، ق (الوقف).

(٤) قال الحسن البصري، السنة بين الغالي والجافي، سنن الدارمي ١/ ٨٣ رقم(٢٢٢)، وقال يزيد بن عبدالله: «القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة» المصدر السابق، وفي الإبانة عن شريعة الديانة ١/ ٣٥٧ وما بعدها، أقوال السلف كلها في هذا المعنىٰ.

بالأذكار والدعوات التي شرعت سراً[1]، وتطويل ما السنة تخفيفه وحذفه، كالتشهد الأول والسلام الذي حذفه سنة[2]، وزيادة التطويل علىٰ ما فعله

الجهر بالذكر بعد الصلاة

(١) مسألة الجهر بالذكر بعد الصلاة المكتوبة اختلف فيها أهل العلم علىٰ أقوال: فمنهم من يرىٰ عدم الجهر في الأذكار التي تقال بعد الصلاة، والراجح والله أعلم خلاف ذلك لحديث ابن عباس: «كان رفع الصوت بالذكر بعد الصلاة المكتوبة علىٰ عهد رسول الله ﷺ..» رواه البخاري، انظر الفتح ٢/ ٣٢٤، شرح النووي لمسلم ٣/ ٩٠، الأم للشافعي ١/ ١١٠، حاشية ابن عابدين ١/ ٦٦٠، عمدة القاري للعيني ٦/ ١٢٦، المعيار المعرب ١/ ٢٨٧، وانظر مسألة الجهر بالدعاء والمشروع الإسرار به أقوال العلماء عن قوله تعالىٰ: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ تفسير الطبري ٥/ ٥١٤، أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨٤، حلية الأولياء ٦/ ٧٣، شرح النووي لمسلم ١٧/ ٢٥، فتح الباري٣٢/ ٤٤١ ،/ ٢٦٢، ٦/ ١٦٦ وانظر حول المواضع التي يستحب فيها الجهر بالذكر مع دراسة جيدة كتاب (سياحة الذكر في الجهر بالدعاء) لأبي الحسنات اللكنوي.

تخفيف التشهد الأول

(٢) سنية تخفيف التشهد الأول يدل علىٰ ذلك حديث ابن مسعود، قال: «كان النبي ﷺ إذا جلس في الركعتين الأوليين كأنه علىٰ الرضف»، أحمد ١/ ٢٨٦، الترمذي. الصلاة ٢/ ٢٠٢ رقم ٣٦٦ وحسنه، النسائي ١/ ٢٥٤ ح ٧٦٤، أبو داود ١/ ٦٠٦ح ٩٩٥، الحاكم ١/ ٢٦٩، والبغوي في شرح السنة ١/ ١٦٨ رقم٦٧٠، الشافعي في الأم ١/ ١٢١، كلهم من حديث أبي عبد الله بن عبدالله بن مسعود عن أبيه، ورجاله ثقات رجال الشيخين، إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، كما ذكر ذلك الترمذي في السنن، والدارقطني في العلل ٥/ ٣٠٨، وقال ابن حجر إنه منقطع كما في تلخيص الحبير(١/ ٤٧٤.

وتخفيف الجلوس للتشهد الأول ثبت عن أبي بكر أنه كان إذا جلس في الركعتين كأنه علىٰ الرضف كما في مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٢٩٠ وصحح إسناده ابن حجر في التلخيص الكبير، وكذلك نهوض الرسول ﷺ بعد قراءة التشهد كما في حديث ابن مسعود، أخرجه الإمام أحمد ١/ ٤٥٩، وابن خزيمة في صحيحه برقم (٧٠٢).

رسول الله ﷺ، لا علىٰ ما يظنه سرّاق الصلاة والنقارون لها ويشتهونه[1]، فإن النبي ﷺ لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه، وقد صانه الله من[2] ذلك، وكان يأمرهم بالتخفيف، ويؤمهم بالصّافات، ويأمرهم بالتخفيف، وتقام صلاة الظهر فيذهب الذاهب إلىٰ البقيع، فيقضي حاجته، ويأتي أهله ويتوضأ، ويدرك رسول الله ﷺ في الركعة الأولىٰ، فهذا هو التخفيف الذي أمر به، لا نقر الصلاة وسرقها، إن ذلك[3] اختصار؛ بل اقتصار علىٰ ما يقع عليه الاسم، ويسمىٰ به مصلياً، وهو كأكل المضطر في المخمصة ما يسد به رمقه: فليته شبع علىٰ القول الآخر، وهو كجائع قدم إليه طعام لذيذ جداً، فأكل منه لقمة

حذف السلام أما ما السنة حذفه: يعني عدم مدّه وتطويله، فهو السلام، حيث يرىٰ أكثر الفقهاء أن حذفه سنة وقال الترمذي هو الذي يستحبه أهل العلم، انظر: المغني ٢/ ٢٤٩، الفتاوىٰ الحديثة للسخاوي ١/ ٣٧٧، وحذفه: أن لا تمده، قاله ابن المبارك كما في سنن الترمذي ١/ ٣٢٩، وقال البوشنجي كما روىٰ ذلك عنه البيهقي في سننه ٢/ ٢٥٦، وقال به أحمد كما في المغني٢/ ٢٤٩ وابن الأثير كما في النهاية ١/ ٣٥٦ قال هو تخفيفه وترك الإطالة فيه، ويستدلون لهذا بحديث: «حذف السلام سنة» أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٢)، أبو داود (١/ ٦١٠) ح(١٠٠٤)، وابن خزيمة (٧٣٤)، والحاكم (١/ ٢٣١)، والبيهقي (٢/ ١٨٠)، والحديث منكر لا يصح رفعه، انظر: الجرح والتعديل (١/ ٢٦٩)، والعلل لأبي حاتم (١/ ١٣٢)، العلل للدارقطني (٩/ ٢٤٦) ورجح وقفه، وللسيوطي رسالة مطبوعة حول حذف السلام.

(١) م (يشهونه).

(٢) غ (عن).

(٣) (فإن ذلك) سقطت من الأصل، ش وما أثبته من أ، ب، غ، ح١، ق، ط وفي م (ذاك).

أو لقمتين ، فماذا يغنيان عنه؟ ولكن لو أحسَّ بجوعه لما قام عن(١) الطعام حتىٰ يشبع منه وهو يقدر علىٰ ذلك؛ لكن القلب شبعان من شيء آخر.

ومثال هذا التوسط في حق الأنبياء -عليهم السلام- : أن لا يغلو فيهم ، كما غلت النصارىٰ في المسيح ، ولا يجفو عنهم ، كما جفت اليهود ، فالنصارىٰ عبدوهم ، واليهود قتلوهم وكذبوهم ، والأمة الوسط : آمنوا بهم وعزروهم ونصروهم ، واتبعوا ما جاؤوا به.

ومثال ذلك في حقوق الخلق : أن لا يفرط في القيام بحقوقهم(٢) ، بحيث(٣) يشتغل بها عن حقوق الله ، أو عن تكميلها ، أو عن مصلحة دينه وقلبه ، وأن لا يجفو عنها حتىٰ يعطلها بالكلية ، فإن الطرفين من العدوان الضَّار ، وعلىٰ هذا الحد ، فحقيقة الأدب : هو(٤) العَدْلُ(٥).

* * *

---

(١) ط (من).

(٢) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ق ، ط زيادة (ولا يستغرق فيها).

(٣) م ، ب (حيث).

(٤) بقية النسخ (هي).

(٥) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط زيادة (والله أعلم).

فصـــل

درجات الأدب

الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: مَنْعُ الخَوْفِ: أَنْ[1] يَتَعَدَّىٰ إِلَىٰ اليَأْسِ، وَحَبْسُ الرَّجَاءِ: أَنْ يَخْرُجَ إِلَىٰ الأَمْنِ[2]، وَضَبْطُ السُّرُورِ: أَنْ يُضَاهِيَ الجَرَاءَةَ[3]»[4].

يريد: أنه لا يدع الخوف يفضي به إلىٰ حدٍّ يوقعه في القنوط، واليأس من رحمة الله، فإن هذا خوف[5] مذموم.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله[6] - يقول: حد الخوف ما حجزك عن معاصي الله، فما زاد علىٰ ذلك، فهو غير محتاج إليه.

وهذا الخوف الموقع في الإياس: إساءة الأدب علىٰ رحمة الله تعالىٰ، التي سبقت غضبه، وجهلٌ بها.

وأما «حَبْسُ الرَّجَاءِ: أَنْ يَخْرُجَ إِلَىٰ الأَمْنِ».

فهو أن لا يبلغ به الرجاء إلىٰ حد يأمن معه العقوبة، فإنه لا يأمن مكر الله إلا

---

(١) ط زيادة (لا).

(٢) (إلىٰ الأمن) سقطت من ق.

(٣) ش، ومنازل السائرين (الجرأة).

(٤) منازل السائرين ٥٣.

(٥) ط (الخوف).

(٦) أ، ب، م زيادة (تعالىٰ).

القوم الخاسرون ، وهذا انحراف[1] في الطرف الآخر.

بل حد الرجاء : ما طيَّب لك العبادة ، وحملك على السير ، فهو بمنزلة الرياح التي تسير السفينة ، فإذا انقطعت وقفت السفينة ، وإذا زادت ألقتها إلى المهالك ، وإذا كانت بقدرٍ : أوصلتها[2] إلى البغية.

وأما «**ضَبطُ السُّرُورِ : أَنْ يَخرُجَ إِلىٰ مُشَابَهَةِ الجَرَاءَةِ**[3]».

فلا يقدر عليه إلا الأقوياء أرباب العزائم ، الذين لا تستفزهم[4] السراء ، فتغلب[5] شكرهم ، ولا تضعفهم الضراء ، فتغلب صبرهم ، كما قيل :

لا تغلب السرَّاء منهم شكرهم كلا ، ولا الضرَّاء صبر الصَّابر[6]

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبته ، وتشبهه في صفاته ، ومواهب الرب تبارك وتعالى تنزل على القلب والروح ، فالنفس تسترق السمع ، فإذا نزلت على القلب تلك المواهب : وثَبَتْ لتأخذ قسطَها منها ، وتصيِّره من عدتها وحواصلها ، فالمسترسل معها ، الجاهل بها : يدعها تستوفي ذلك ، فبينا هو في موهبة للقلب[7] والروح وعدة وقوة له ، إذ صار ذلك كله من حاصل النفس

---

(١) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط (إغراق) بدل (انحراف).

(٢) ق (وصلت).

(٣) ش ، ومنازل السائرين (الجرأة).

(٤) الأصل (يستفزهم) وما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٥) الأصل (فيغلب) وما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٦) بيت الشعر : لم أجده.

(٧) ب ، ط (القلب).

وآلتها ، وعددها ، فصالت به وطغت؛ لأنها رأت غناها به ،والإنسان يطغىٰ أن رآه استغنىٰ بالمال ، فكيف بما هو أعظم خطراً ، وأجل قدراً من المال ، بما لا نسبة بينهما : من علم ، أو حال ، أو معرفة ، أو كشف؟ فإذا صار ذلك من حاصلها : انحرف العبد به - ولا بد - إلىٰ طرف مذموم من جراءة[1] أو شطح ، أو إدلال ، ونحو ذلك.

والله[2] كم ههنا من قتيل ، وسليب وجريح[3] يقول : من أين أتيت؟ ومن أين دُهِيت[4]؟ ومن أين أُصبت؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك : أن يغلق عنه باب المزيد ، ولهذا[5] العارفون وأرباب البصائر : إذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا إلىٰ طرف الذل والانكسار ، ومطالعة عيوب النفوس ، واستدعوا حارس الخوف ، وحافظوا علىٰ الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس ، ونظروا إلىٰ أقرب الخلق من الله ، وأكرمهم عليه ، وأدناهم منه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً، وقد دخل مكة يوم الفتح، وذقْنه تمسُّ قربوس[6] سرجه :

---

(١) ش (جرأة).

(٢) ط (فوالله).

(٣) الأصل (وحريب) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٤) أ ، ب ، غ (ذهبت).

(٥) ط زيادة (كان).

(٦) قربوس: اسم للسَّرج ، مختار الصحاح ٥٢٧ ، وفي المعجم الوسيط : حنو السرج (٢/ ٧٢٣).

انخفاضاً وانكساراً، وتواضعاً لربه[١] تعالىٰ في مثل ذلك[٢] الحال، التي عادة النفوس البشرية فيها: أن يملكها سرورها، وفرحها بالنصر، والظفر، والتأييد، ويرفعها إلىٰ عنان السماء.

فالرجل: من صان فتحه ونصيبه من الله، وواردَه[٣] عن استراق نفسه، وبخل عليها به، والعاجز: من جاد لها به، فيا له من جود ما أقبحه، وسماحة ما أسفه صاحبها، والله المستعان.

فصـــل

قال[٤]: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الخُرُوجُ مِنَ[٥] الخَوْفِ إِلىٰ مَيدَانِ القَبْضِ، وَالصُّعُودُ[٦] عَنِ[٧] الرَّجَاءِ إِلىٰ مَيدَانِ البَسْطِ، ثُمَّ[٨] التَّرَقِّي عَنِ[٩] السُّرُورِ إِلىٰ مَيدَانِ المُشَاهَدَةِ»[١٠]. الدرجة الثانية

(١) ب (لله).

(٢) ش، ط (تلك).

(٣) أ، ب، غ، ح١، ط (ووراه).

(٤) أ زيادة (وهو علىٰ ثلاث درجات).

(٥) ط (عن).

(٦) ق (القعود).

(٧) ط (من).

(٨) منازل السائرين (و) بدل (ثم).

(٩) ط (من).

(١٠) منازل السائرين ٥٣.

ذكر في الدرجة الأولىٰ : كيف يحفظ الحد بين المقامات ، حتىٰ لا يتعدىٰ إلىٰ غلو أو جفاء[١] ، وذلك سوء أدب.

فذكر منع[٢] الخوف : أن يخرجه إلىٰ اليأس ، و[٣]الرجاء : أن يخرجه إلىٰ الأمن و[٤]السرور : أن يخرجه إلىٰ الجراءة[٥].

ثم ذكر في هذه الدرجة: أدب الترقي من هذه الثلاثة إلىٰ ما يحفظها عليه[٦]، ولا يضيعها بالكلية ، كما أن في الدرجة الأولىٰ : لا يبالغ به[٧]؛ بل يكون خروجه من الخوف إلىٰ القبض ، يعني لا يزايل الخوف بالكلية ، (فإن قبضه)[٨] لا يؤيسه ولا يقنطه ، ولا يحمله علىٰ مخالفة ولا بطالة[٩] ، وكذلك رجاؤه لا يقعد به عن ميدان[١٠] البسط؛ بل يكون بين القبض والبسط، وهذه حالة[١١]

---

(١) (الألف) سقطت من ش.

(٢) ط (مع).

(٣) ط زيادة (ومع).

(٤) ط زيادة (ومع).

(٥) ش (الجرأة).

(٦) أ ، ب ، غ ، ط (يحفظه عليها).

(٧) (به) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ .

(٨) (فإن قبضه) سقطت من الأصل وما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق ، ط.

(٩) الأصل (يطالبه) وما أثبته من بقية النسخ و ط.

(١٠) ب (بيان).

(١١) ط (حال).

الكمال[1] ، وهي السير بين القبض والبسط.

و[2]سروره : لا يقصد[3] به عن ترقيه إلىٰ ميدان مشاهدته ، بل يرقىٰ[4] بسروره إلىٰ المشاهدة ، ويرجع من رجائه إلىٰ البسط ، ومن خوفه إلىٰ القبض.

ومقصوده : أن ينتقل من أشباح هذه الأحوال إلىٰ أرواحها ، فإن الخوف شبح ، والقبض روحه ، والرجاء شبح ، والبسط روحه ، والسرور شبح ، والمشاهدة روحه ، فيكون حظه من هذه الثلاثة : أرواحها وحقائقها ، لا صورها ورسومها.

فصل

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : مَعرِفَةُ الأَدَبِ ، ثُمَّ الفَنَاءُ[5] عَنِ التَّأَدُّبِ بِتَأدِيبِ الحَقِّ ، ثُمَّ الخَلَاصُ مِن شُهُودِ أَعبَاءِ الأَدَبِ**»[6]. الدرجة الثالثة

قوله : «**مَعْرِفَةُ الأَدَبِ**».

يعني لا بد من الاطلاع علىٰ حقيقته[7] في كل درجة ، وإنما يكون ذلك في

---

(١) ب (الكمل).

(٢) (الواو) سقطت من الأصل ، ش والأقرب إثباتها كما في بقية النسخ.

(٣) الأصل (لا يقصد) وما أثبته من أ ، ب ، غ ، ح١.

(٤) ش (يرقىٰ).

(٥) المنازل (الفنىٰ).

(٦) منازل السائرين ٥٣.

(٧) أ ، غ (حقيقة).

الدرجة الثالثة ، [فإنه يشرف منها علىٰ الأدب في الدرجتين الأوليين(١) ، فإذا عرفه وصار له حالاً](٢) ، فإنه ينبغي له أن يفنىٰ عنه ، بأن يُغلِّب عليه شهود من أقامه فيه ، فينسبه إليه تعالىٰ دون نفسه ، ويفنىٰ عن رؤية نفسه ، وقيامها بالأدب بشهود الفضل لمن أقامه(٣) فيه ومنّته ، فهذا هو الفناء عن التأدُّب بتأديب(٤) الحق.

قوله : «ثُمَّ الخَلَاصُ مِن شُهُودِ أَعْبَاءِ التَّأَدُّبِ».

يعني : أنه يفنىٰ عن مشاهدة الأدب بالكلية ، لاستغراقه في شهود الحقيقة في حضرة الجمع التي غيبته عن الأدب ، ففناؤه عن الأدب فيها(٥) : هو الأدب حقيقة ، فيستريح حينئذ(٦) من كلفة حمل أعباء الأدب وأثقاله ، لأن استغراقه في شهود الحقيقة لم يبق عليه شيئاً من أعباء الأدب(٧).

* * *

---

(١) الأصل ، ق (الأوليتين) ، ش (مهمل بدون نقط) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من أ.

(٣) ط (أقامها).

(٤) أ ، ب ، غ (بتأدب).

(٥) (فيها) سقطت من ح١ ، م ، ب.

(٦) (حينئذ) سقطت من ب.

(٧) أ ، ب ، غ ، ط زيادة (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم) و م ، ق زيادة (والله أعلم).

فصل[1]

منزلة اليقين

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «اليقين»[2].

وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، وفيه[3] تفاضل العارفون ، وفيه تنافس المتنافسون ، وإليه شمر العاملون ، وعمل القوم إنما كان عليه ، وإشارتهم كلها إليه ، وإذا تزوج الصبر باليقين : ولد بينهما حصول الإمامة في الدين ، قال[4] تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا[5] مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة : ٢٤].

---

(١) ش (باب اليقين).

(٢) اليقين : هو السكون والاطمئنان لما غاب بناءً علىٰ ما حصل من الإيمان به ، وارتفع الريب عنه ، بناءً علىٰ قوة الدليل ، فهو علم اليقين ، وإذا كان عند شهود الفعل في الوحداني في كل شيء فهو عين اليقين ، فإذا حصل شمس التجلي كان حق اليقين ، وهو ارتفاع الشك بحصول المشاهدة ، وهو علم القلوب وقلة الاهتمام للغد وزوال المعارضات ، وارتفاع الريب في مشهد الغيب ، فعين اليقين ما كان من طريق الكشوف ، وله عندهم اسم ورسم وعلم وعين وحق ، فالاسم والرسم للعوام ، والعلم للأولياء ، والعين لخواص الأولياء ، والحق للأنبياء. انظر أقوالهم في حدِّه وتعريفه في الرسالة القشيرية ٢٨١ ، التعرف ١٢١ ، عوارف المعارف آخر كتاب إحياء علوم الدين ٥/ ٢٥٠ ، قوت القلوب ١/ ١٧٣ ، كشف المحجوب ٢/ ٦٢٥ ـ ٦٢٦.

(٣) ط (به).

(٤) ط زيادة (الله).

(٥) الأصل (وجعلناهم).

وخصَّ سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين، فقال، وهو أصدق القائلين: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخصَّ أهل اليقين بالهدىٰ والفلاح من بين العالمين[١] فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٤ - ٥].

وأخبر عن أهل النار: بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

فـ «اليقين» روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصدّيقيَّة، وهو قُطْبُ رَحَىٰ[٢] هذا الشأن الذي عليه مداره.

وروىٰ خالد بن يزيد عن السفيانين عن التيمي عن خثيمة عن عبدالله[٣] عن النبي ﷺ قال: «**لا ترضين أحداً بسخط الله، ولا تحمدنَّ أحداً علىٰ فضل الله، ولا تذمنَّ أحداً علىٰ ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا يردُّه عنك كراهية كاره، وإنَّ الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في الرضىٰ واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**»[٤].

---

(١) الأصل (العاملين)، م (القائلين) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ح١، ط.

(٢) (رحىٰ) سقطت من ط.

(٣) ط زيادة (بن مسعود).

(٤) أخرجه من حديث ابن مسعود: أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ١٢١، ١٠/ ٤١، وتكلم فيه

واليقين قرين التوكل، ولهذا فسر التوكل[1] بقوة اليقين.

صلة اليقين بالتوكل

والصواب: أن التوكل ثمرته ونتيجته، ولهذا حَسُن اقتران الهدىٰ به، قال[2] تعالىٰ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] فالحق: هو اليقين وقالت رسل الله: ﴿وما لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

ومتىٰ وصل «اليقين» إلىٰ القلب امتلأ به[3] نوراً وإشراقاً، وانتفىٰ عنه كل ريب وشك وسخط وهمٍّ وغمٍ، فامتلأ محبة لله، وخوفاً منه ورضىٰ به، وشكراً له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه، فهو مادة جميع المقامات والحامل لها.

واخْتُلِف فيه: هل هو كسبي، أو موهبي؟.

تعريف اليقين والأقوال فيه

فقيل: هو العلم المستودع في القلوب يشير إلىٰ أنه غير كسبي[4].

وقال سهل - رحمه الله[5] -: اليقين من زيادة الإيمان، ولا ريب أن الإيمان كسبي[6].

الطبراني في الكبير ١٠/ ٢٦٦، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٢٢١، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧١)، فيه خالد بن يزيد العمري واتهم بالوضع.

(١) (التوكل) سقطت من أ، ب.

(٢) ق زيادة (الله).

(٣) (به) سقطت من ط.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٨٢.

(٥) (رحمه الله) في الأصل فقط.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٨٢ ولفظه (شعبة من الإيمان) وهو دون التصديق.

والتحقيق: أنه كسبي باعتبار أسبابه موهبي باعتبار نفسه وذاته.

قال سهل: ابتداؤه المكاشفة، كما قال بعض السلف: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» ثم المعاينة والمشاهدة [١].

وقال ابن خفيف [٢] -رحمه الله [٣]-: هو تحقُّق الأسرار بأحكام المغيبات [٤].

وقال أبو بكر بن طاهر: العلم تعارضه [٥][٦] الشكوك، واليقين لا شك فيه [٧].

وعند القوم: اليقين لا يساكن قلباً فيه سكون إلىٰ غير الله [٨].

وقال ذو النون - رحمه الله [٩]-: اليقين يدعو إلىٰ قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلىٰ الزهد، والزهد يورث الحكمة، وهي تورث النظر في العواقب [١٠].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٨٢، نحوه في سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٠١، حلية الأولياء ١٠/ ٢٠٣، التعرف ١٢٢، والقائل هو عامر بن عبد قيس، وقيل علي بن أبي طالب.

(٢) ق (حفيف)، وهو محمد بن خفيف ابن أسفكشاذ الضبي الشيرازي، شيخ الصوفية في وقته، صحب رويماً والجريري وأبا العباس بن عطاء، توفي سنة ٣٧١هـ/ طبقات الصوفية (٤٦٢)، حلية الأولياء (١٠/ ٣٨٥)، شذرات الذهب(٣/ ٧٦)، الرسالة القشيرية (١١٢).

(٣) (رحمه الله) في الأصل فقط.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٨٢، حلية الأولياء ١٠/ ٣٨٦.

(٥) الأصل وغيره (بعارضه) والأقرب ما أثبته من ب، ط.

(٦) في الرسالة القشيرية (العلم بمعارضة).

(٧) الرسالة القشيرية ٢٨٢.

(٨) نحوه في الرسالة القشيرية ٢٨٢ عن سهل بن عبدالله.

(٩) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(١٠) الرسالة القشيرية ٢٨٣، في شعب الإيمان (التفكر يورث الحكمة) ٥/ ١٥١.

وقال : وثلاثة من أعلام اليقين : قلة مخالطة الناس في العشرة ، وترك المدح لهم في العطية ، والتنزه عن ذمهم عند المنع ، وثلاثة من أعلامه أيضاً : النظر إلىٰ الله في كل شيء ، والرجوع إليه في كل أمر ، والاستعانة به في كل حال [1].

وقال الجنيد ـ رحمه الله[2] ـ : اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ، ولا يتغير في القلب [3].

وقال ابن عطاء – رحمه الله[4] – : علىٰ قدر قربهم من التقوىٰ أدركوا من اليقين[5].

وأصل «التقوىٰ» مباينة النهي ، وهو مباينة النفس ، فعلىٰ[6] قدر مفارقتهم[7] النفس وصلوا إلىٰ اليقين.

وقيل : اليقين هو المكاشفة[8] ، وهي[9] علىٰ ثلاثة أوجه : مكاشفة في

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٨٣ ، حلية الأولياء ٩/ ٣٦٢ ، ٩/ ٣٤١ .

(٢) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٣) الرسالة القشيرية (٢٨٣) ، مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٤).

(٤) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٥) الرسالة القشيرية (٢٨٣) ، حلية الأولياء (١٠/ ١٩٩) نسبه لسهل التستري.

(٦) ق (وعلىٰ) بدل (الفاء) (واو).

(٧) الأصل (مقاربتهم) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٨) تقدم التعريف بالمكاشفة ص١٨٢٩ .

(٩) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (وهو).

الأخبار ، ومكاشفة بإظهار القدرة ، ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان[١].

ومراد القوم بالمكاشفة : ظهور الشيء للقلب بحيث تصير[٢] نسبته إليه كنسبة المرئي إلىٰ العين ، فلا يبقىٰ معه شك ولا ريب أصلاً ، وهذا نهاية الإيمان ، وهو مقام الإحسان.

وقد يريدون بها أمراً آخر ، وهو ما يراه أحدهم في برزخ بين النوم واليقظة عند أوائل تجرُّد الروح عن البدن.

ومن أشار منهم إلىٰ غير هذين : فقد غلط ولُبِّس عليه.

وقال السري : اليقين سكونك عند جولان الموارد في صدرك ، لتيقنك أن حركتك[٣] فيها لا تنفعك ، ولا ترد عنك مقضياً[٤].

وقال أبو بكر الوراق[٥] - رحمه الله[٦] - : اليقين ملاك القلب ، وبه كمال

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٨٣ ، نحوه في حلية الأولياء ١٠/ ٢٠٣.

(٢) ط (يصير).

(٣) غ (حرتك).

(٤) الرسالة القشيرية ٢٨٤ بسنده.

(٥) أبو بكر الوراق ، محمد بن عمر الحكيم ، أصله من ترمذ وأقام ببلخ ، له كتب في أنواع الرياضات والآداب ، صحب أحمد بن خضرويه/ حلية الأولياء (١٠/ ٢٣٥) ، صفة الصفوة (٤/ ١٣٩) ، طبقات الصوفية للسلمي (٢٢١) ، الرسالة القشيرية (٨٤).

(٦) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

الإيمان، وباليقين عُرِف الله، وبالعقل عقل عن الله[1].

وقال الجنيد - رحمه الله[2] -: قد مشىٰ رجال باليقين علىٰ الماء، ومات بالعطش من هو أفضل منهم يقيناً[3].

المفاضلة بين اليقين والحضور

وقد اختلف في تفضيل «اليقين» علىٰ «الحضور»[4] أو[5] الحضور علىٰ اليقين.

فقيل: الحضور أفضل؛ لأنه وطنات، واليقين خطرات[6]، بعضهم رجح اليقين، وقال: هو غاية الإيمان، والأول: رأىٰ أن اليقين ابتداء الحضور، فكأنه جعل اليقين ابتداء، والحضور دواماً[7].

وهذا الخلاف لا يتبين، فإن اليقين لا ينفك عن الحضور، ولا الحضور

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٨٤.

(٢) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٨٤، وفي اليقين لابن أبي الدنيا ١/ ٣٦، قيل لعيسىٰ: بأي شيء تمشي علىٰ الماء، قال: بالإيمان واليقين.

(٤) الحضور: حضور القلب بالحق في تجلياته الذاتية والوصفية والفعلية عند غيبته بالحق عن الخلق أو بالخلق عن الخلق، وهو ناتج عن صفاء اليقين فهو كالحاضر عنده، وإن كان غائباً عنه، قال النوري: «إذا تغيبت بدا، وإن بدا غيبني».

انظر الرسالة القشيرية ٢٨٤، رشح الزلال ٧٨، معجم مصطلحات الصوفية ٧٨.

(٥) (الهمزة) سقطت من ح١، غ، ط.

(٦) أ، ب، غ، ح١ (خطوات).

(٧) انظر قول سهل في الرسالة القشيرية ٢٨٤: «الحضور وطنات واليقين خطرات».

عن اليقين ؛ بل[1] في اليقين من[2] زيادة الإيمان ، ومعرفة تفاصيله وشعبه ، وتنزيلها منازلها : ما ليس في الحضور ، فهو أكمل منه من هذا الوجه ، وفي الحضور من الجمعية ، وعدم التفرقة ، والدخول في الفناء : ما قد ينفك عنه اليقين ، فاليقين أخص بالمعرفة ، والحضور أخص بالإرادة ، والله أعلم.

وقال النهرجوري - رحمه الله -[3] : إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة ، والرخاء[4] عنده[5] مصيبة[6].

وقال أبو بكر الورّاق ـ رحمه الله[7] ـ : اليقين علىٰ ثلاثة أوجه : يقين خبر ، ويقين دلالة ، ويقين مشاهدة[8].

يريد بيقين الخبر : سكون القلب إلىٰ خبر المخبر ووثوقه[9] به و[10] بيقين الدلالة : ما هو فوقه ، وهو أن يقيم له - مع وثوقه بصدقه - الدلالة[11] علىٰ ما

---

(١) الأصل (بلىٰ) والأقرب ما أثبته من غ ، ب ، م ، ط.

(٢) (من) سقطت م ح١.

(٣) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٤) الأصل (الرجاء) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٥) (عنده) سقطت من ش.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٨٥ ، مفتاح دار السعادة ١/ ١٥٥.

(٧) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٨) نحوه في سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٣٣ ، الرسالة القشيرية ٢٨٥.

(٩) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (وتوثقه).

(١٠) (الباء) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١.

(١١) بقية النسخ ، ط (الأدلة الدالة علىٰ ما أخبر به).

أخبره به.

وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد في[١] القرآن ، فإنه سبحانه - مع كونه أصدق[٢] الصادقين - يقيم لعباده الأدلة والأمثال والبراهين علىٰ صدق أخباره، فيحصل لهم اليقين من الوجهين : من جهة الخبر ، ومن جهة الدليل.

فيرتفعون من ذلك إلىٰ الدرجة الثالثة ، وهي «يقين المكاشفة» بحيث يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئي لعيونهم ، فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلىٰ القلب : كنسبة المرئي إلىٰ العين ، وهذا أعلىٰ أنواع المكاشفة ، وهي التي أشار إليها عامر بن عبد[٣] قيس في قوله : «لو كُشف الغِطاء ما ازددت يقيناً»[٤] وليس هذا من كلام رسول الله ﷺ، ولا من قول علي كما يظنه من لا علم له بالمنقولات.

وقال بعضهم : رأيت الجنة والنار حقيقة ، قيل له : وكيف[٥]؟ قال : رأيتهما بعيني رسول الله ﷺ ، ورؤيتي لهما بعينيه أوثق[٦] عندي من رؤيتي لهما بعيني ، فإن بصري قد يخطئ[٧] ويزيغ ، بخلاف بصره ﷺ[٨].

---

(١) ط (واو) بدل (في).

(٢) ق زيادة (القائلين).

(٣) الأصل (بن قيس) وما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٤) تقدم قريباً.

(٥) (الواو) سقطت من ق.

(٦) ق ، غ ، أ (أوثر) ، ط (آثر).

(٧) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (يطغىٰ) ، ق (يخطي).

(٨) لم أجده.

و «اليقين» يحمل[١] علىٰ الأهوال، وركوب الأخطار، وهو يأمر بالتقدم دائماً، فإن لم يقارنه العلم: حمل علىٰ المعاطب.

و «العلم» يأمر بالتأخر والإحجام، فإن لم يصحبه «اليقين» قعد بصاحبه عن المكاسب والغنائم[٢].

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله تعالىٰ[٣] -:

«اليَقِينُ: مَركِبُ الآخِذِ فِي هَذِهِ[٤] الطَّرِيقِ، وَهُوَ غَايَةُ دَرَجَاتِ العَامَّةِ، وَقِيلَ: أَوَّلُ خُطْوَةٍ لِلخَاصَّةِ[٥]»[٦].

لما كان «اليقين» هو الذي يحمل السائر إلىٰ الله - كما قال أبو سعيد الخراز: [٧]العلم ما استعملك، واليقين ما حملك [٨]- سماه مركباً يركبه السائر إلىٰ الله،

(١) ط (يحمله).

(٢) أ، ب، غ، م، ق، ط زيادة (والله أعلم).

(٣) (تعالىٰ) سقطت من بقية النسخ.

(٤) أ، ب، غ، ح١، ط، ومنازل السائرين (هذا).

(٥) منازل السائرين (الخاصة).

(٦) منازل السائرين (٥٣).

(٧) أ زيادة (اليقين).

(٨) شعب الإيمان (٢/ ٣٠٤).

فإنه لولا «اليقين» ما سار ركب إلىٰ الله ، ولا ثبتت[١] لأحد قدم في السلوك[٢].

وإنما جعله آخر درجات العامة ، لأنهم إليه ينتهون، ثم حكىٰ[٣] قول من قال: إنه أول خطوة الخاصة[٤].

يعني : أنه ليس بمقام لهم ، وإنما هو مبدأ لسلوكهم ، فمنه يبتدئون سلوكهم وسيرهم ، وهذا لأن الخاصة عنده سائرون إلىٰ عين[٥] الفناء ، في شهود الحقيقة ، لا تقف بهم دونها همة ، ولا يعرجون دونها علىٰ رسم ، فكل ما دونها فهو عندهم[٦] من مشاهد العامة ، ومنازلهم ومقاماتهم ، حتىٰ المحبة.

وحسبك بجعل «اليقين» نهاية العامة ، وبداية لهم ، قال :

درجات اليقين

الدرجة الأولى

«وَهُوَ عَلىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : عِلمُ اليَقِين ، وَهُوَ قَبُولُ مَا ظَهَرَ مِنَ الحَقِّ ، وَقَبُولُ مَا غَابَ لِلحَقِّ ، وَالوُقُوفُ عَلىٰ[٧] مَا قَامَ بِالحَقِّ»[٨].

ذكر الشيخ -رحمه الله[٩]- في هذه الدرجة ثلاثة أشياء ، هي متعلق «اليقين»

---

(١) أ ، ب ، غ ، ح١ ، م (يثبت) ، ط (ثبت).

(٢) أ ، ب ، غ ، ح١ ، م ، ق ، ط زيادة (إلا به).

(٣) ق (حكوا).

(٤) ط (للخاصة).

(٥) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ش ، ط زيادة (الجمع و).

(٦) الأصل (عندهما) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٧) (علىٰ) سقطت من الأصل وهي في جميع النسخ وفي منازل السائرين.

(٨) منازل السائرين ٥٣.

(٩) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

وأركانه.

الأول[١] : قبول ما ظهر من الحق تعالىٰ ، والذي ظهر منه سبحانه : أوامره ونواهيه وشرعه ، ودينه الذي ظهر لنا منه علىٰ ألسنة رُسُلِه ، فنتلقَّاه بالقبول والانقياد ، والإذعان والتسليم للربوبية ، والدخول تحت رق العبودية.

الثاني «قَبُولُ مَا غَابَ لِلحَقِّ» وهو الإيمان بالغيب الذي أخبر به الحق سبحانه علىٰ لسان رُسُلِهِ من[٢] أمور المعاد وتفاصيله[٣] ، والجنة والنار ، وما قبل ذلك : من الصراط والميزان والحساب ، وما قبل ذلك : من تشقق السماء وانفطارها ، وانتثار[٤] الكواكب ، ونسف الجبال ، وطيِّ العالم ، وما قبل ذلك : من أمور البرزخ ، ونعيمه وعذابه.

فقبول هذا كله - إيماناً وتصديقاً وإيقاناً - هو اليقين بحيث لا يُخالج القلب فيه شبهة ، ولا شك ولا ريب[٥] ولا تناسٍ ، و[٦]غفلة عنه ، فإنه إن لم يستهلك[٧] بيقينه أفسده وأضعفه[٨].

---

(١) أ ، ب ، غ ، ق ، ح١ (الأولىٰ).

(٢) غ (عن) بدل (من).

(٣) ط (تفصيله).

(٤) م ، غ ، ب (انتشار).

(٥) (ولا ريب) سقطت من ط.

(٦) ط زيادة (لا).

(٧) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (إن لم يهلك يقينه).

(٨) أ (أضعفه وأفسده).

(١)الثالث : «الوُقُوفُ علىٰ مَا قَامَ بِالحَقِّ» سبحانه من أسمائه وصفاته وأفعاله.

وهو علم التوحيد ، الذي أساسه : إثبات(٢) الأسماء والصفات ، وضده التعطيل والنفي ، والتَّجهُّم ، فهذا التوحيد يقابله التعطيل.

وأما التوحيد القصدي الإرادي ، الذي هو إخلاص العمل لله ، وعبادته وحده ، فيقابله الشرك ، والتعطيل شرٌّ من الشرك ، فإن المعطل جاحد للذات أو لكمالها ، وهو جحد لحقيقة الإلهية ، فإن ذاتاً لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا ترضىٰ ، ولا تغضب ولا تفعل شيئاً ، وليست داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة ، ولا مجانبة(٣) له ، ولا مباينة له(٤) ، ولا مجاورة ولا مجاوزة ، ولا فوق العرش ، ولا تحت العرش ، ولا خلفه ولا أمامه ، ولا عن يمينه ولا عن يساره : سواء(٥) والعدم.

والمشرك مقرٌّ بالله وصفاته ؛ لكن عَبَد معه غيره ، فهو خير من المعطل للذات والصفات(٦).

---

(١) ق زيادة (الواو).

(٢) (إثبات) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٣) غ (مخاصة) ، ش (محايثة).

(٤) (له) سقطت من م ، ق.

(٥) م ، ط (هي والعدم) ، ق (هي والعدم سواء).

(٦) قال ابن القيم في النونية ٢/ ٤٥١ :

«لكن أخو التعطيل شر من أخي … الإشراك بالمعقول والبرهان
إن المعطل جاحد للذات أو … لكمالها هذان تعطيلان»

فاليقين هو الوقوف علىٰ ما قام بالحق من أسمائه وصفاته ، ونعوت كماله ، وتوحيده ، وهذه الثلاثة أشرف علوم الخلائق : علم الأمر والنهي ، وعلم الأسماء والصفات والتوحيد ، وعلم المعاد واليوم الآخر[١].

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : عَينُ اليَقينِ ، وَهُوَ المُغنِي[٢] بِالاستِدلالِ[٣] عَنْ الاستِدلَالِ ، وَعَن الخَبَرِ بِالعيَانِ ، وَخَرقُ الشُّهُودِ حِجَابَ العِلْمِ»[٤].

الفرق بين علم اليقين وعين اليقين : كالفرق بين الخبر الصادق والعيان ، وحق اليقين : فوق هذا.

وقد مثلت المراتب الثلاث بمن أخبرك : أن عنده عسلاً ، وأنت لا تشك في صدقه ، ثم أراك إياه فازددت يقيناً ، ثم ذقت منه.

فالأول : علم اليقين ، والثاني : عين اليقين ، والثالث : حق اليقين.

فعلمنا الآن بالجنة والنار : علم اليقين ، فإذا أزلفت الجنة في الموقف[٥] وشاهدها الخلائق ، وبُرِّزت الجحيم[٦] ، وعاينها الخلائق ، فذلك :

---

(١) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط (والله أعلم).

(٢) في المنازل (الغني).

(٣) في المنازل (بالاستدراك).

(٤) منازل السائرين ٥٤.

(٥) ط زيادة (للمتقين).

(٦) ط زيادة (للغاوين).

عين اليقين ، فإذا[1] أدخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ ، وأهل النارِ النارَ : فذلك حينئذ حق اليقين.

قوله : «هُوَ المُغْنِي بِالاستِدْلاَلِ عَن الاستِدْلاَلِ».

يريد بالاستدلال : الإدراك والشهود ، يعني أن[2] صاحبه قد استغنىٰ[3] به عن طلب الدليل ، فإنه إنما يطلب الدليل ليحصل له العلم بالمدلول ، فإذا كان المدلول مشاهداً[4] له - وقد أدركه بكشفه - فأي حاجة به إلىٰ الاستدلال؟.

وهذا معنىٰ «الاستِغْنَاء عَن الخَبَرِ بِالعيَانِ».

وأما قوله : «وَخَرْقُ الشُّهُودِ حِجَابَ العِلْمِ».

فيريد به : أن المعارف التي تحصل لصاحب هذه الدرجة ، هي من الشهود الخارق لحجاب العلم ، فإن العلم حجاب عن الشهود[5] ، ففي هذه الدرجة يرتفع الحجاب ، ويفضي إلىٰ المعلوم ، بحيث يكافح بصيرته[6] وقلبه مكافحة.

---

(١) ب ، م (الواو) بدل (الفاء).

(٢) (أن) سقطت من ط.

(٣) غ (يستغني).

(٤) أ ، م (شاهداً).

(٥) م (المشهود).

(٦) م ، ق (قلبه وبصيرته).

فصـــل

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: حَقُّ اليَقِينِ، وَهُوَ إِسفَارُ صُبحِ الكَشفِ، ثُمَّ الخَلاصُ مِنْ كُلْفَةِ اليَقِينِ، ثُمَّ الفَنَاءُ فِي حَقِّ اليَقِينِ»[١].

اعلم[٢] أن هذه الدرجة لا تُنال في هذا العالم إلا للرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فإن نبينا ﷺ رأىٰ بعينه الجنة والنار، وموسىٰ[٣] سمع كلام الله منه إليه بلا واسطة، وكلّمه تكليماً، وتجلىٰ للجبل وموسىٰ ينظر، فجعله دكاً هشيماً.

نعم يحصل لنا حق اليقين في[٤] مرتبة، وهي ذوق[٥] ما أخبر به الرسول ﷺ من حقائق الإيمان المتعلقة بالقلوب وأعمالها، فإن القلب إذا باشرها وذاقها صارت في حقه حق[٦] يقين.

وأما في أمور الآخرة والمعاد، ورؤية الله جهرة عياناً[٧]، وسماع كلامه

---

(١) منازل السائرين ٥٤.

(٢) ق (الحق) بدل (اعلم).

(٣) ط زيادة (عليه السلام).

(٤) ب، ط (من) بدل (في).

(٥) (ذوق) سقطت من ق.

(٦) (حق) سقطت من أ، ب، غ.

(٧) ش (عيانها).

حقيقة بلا واسطة ، فحظ المؤمن منه في هذه الدار : الإيمان و[١]علم اليقين ، وحق اليقين : يتأخر إلىٰ وقت اللقاء.

ولكن لما كان السالك عنده[٢] ينتهي إلىٰ الفناء ، ويتحقق شهود الحقيقة ، ويصل إلىٰ عين الجمع ، قال : «**حَقُّ اليَقِينِ : هُوَ إِسْفَارُ صُبحِ الكَشْفِ**».

يعني : تحققه وثبوته ، وغلبة نوره علىٰ ظلمة ليل الحجاب ، فينتقل من طور العلم إلىٰ الاستغراق في الشهود بالفناء عن الرسم بالكلية.

وقوله : «**ثُمَّ الخَلاَصُ مِن كُلْفَةِ اليَقِينِ**».

يعني : أن اليقين له حقوق يجب علىٰ صاحبه أن يؤديها ، ويقوم بها ، ويتحمل كُلَفها ومشاقها ، فإذا فني في التوحيد حصل له أمور أخرىٰ رفيعة عالية جداً ، يصير فيها محمولاً ، بعد أن كان حاملاً ، وطائراً بعد أن كان سائراً ، فتزول[٣] عنه[٤] كلفة حمل تلك الحقوق، بل يبقىٰ له كالنفَس، وكالماء للسمك، وهذا أمر التحاكم فيه إلىٰ الذّوق والإحساس ، فلا تسرع إلىٰ إنكاره[٥].

---

(١) (الواو) سقطت من ق.

(٢) قوله : (عنده) يعني به الهروي.

(٣)الأصل (فيزول) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٤) م (عند) بدل (عنه).

(٥) هذه إحالة إلىٰ شيء لا ينضبط ، والأولىٰ التحاكم إلىٰ الواضح المنضبط وهي نصوص الكتاب والسنة وفهم الصحابة وسلف الأمة ، ومن سارع إلىٰ إنكار الذوق والكشف إنما فعل الأحوط لدينه.

وتأمل حال[١] ذلك الصحابي الذي أخذ تمراته، وقعد[٢] يأكلها علىٰ حاجة[٣] وفاقة إليها، فلما عاين سُوق الشهادة قد[٤] قامت، ألقىٰ قوته من يده، وقال: «إنها لحياة طويلة، إن بقيت حتىٰ آكل هذه التمرات»[٥]، وألقاها من يده، وقاتل حتىٰ قُتل، وكذلك أحوال الصحابة -رضي الله عنهم-، كانت مطابقة لما أشار إليه.

لكن بقيت نكتة عظيمة، وهي موضع السجدة، وهي أن فناءهم لم يكن في توحيد الربوبية، وشهود الحقيقة التي يشير إليها أرباب الفناء؛ بل في توحيد الإلهية، ففنوا[٦] بحبه تعالىٰ عن حب ما سواه، وبمراده منهم عن مرادهم[٧] وحظوظهم، فلم يكونوا عاملين علىٰ فناء، ولا[٨] استغراق في الشهود، بحيث يفنون به عن مراد محبوبهم منهم؛ بل قد فنوا بمراده عن مرادهم، فهم أهل

---

(١) ط زيادة (في).

(٢) أ (جعل) بدل (قعد).

(٣) أ، ب، غ، ح١، م، ق، ط زيادة (وجوع).

(٤) (قد) سقطت من ط.

(٥) الصحابي هو عمير بن الحمام، والحديث أخرجه البخاري في المغازي. غزوة أحد (٣/ ١٠٣) ح(٤٠٤٦)، مسلم. الإمارة (٣/ ١٥٠٩) ح(١٨٩٩)، أحمد (٣/ ٣٠٨).

(٦) غ (فنوا).

(٧) (عن مرادهم) سقطت من ش.

(٨) ط زيادة (إلا) أي (ولا إلا).

بقاء في فناء[١][٢]، وفرق في جمع[٣] وكثرة في وحدة[٤]، وحقيقة كونية في حقيقة دينية[٥].

هُمُ القوم، لا قوم إلا هم ولولاهم ما اهتدينا السبيلا[٦]

فنسبة أحوال[٧] من بعدهم الصحيحة الكاملة إلىٰ أحوالهم[٨]: كنسبة ما يَرْشح من الظرف والقربة إلىٰ ما في داخلها.

وأما[٩] المنحرفة الفاسدة: فسبيل غير سبيلهم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) (في فناء) سقطت من الأصل وما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٢) بقاء في فناء: البقاء رؤية العبد قيام الله في كل شيء، وهو أحد المقامات العشرة في قسم النهايات عند أصحاب السلوك، فإذا بلغ هذه المنزلة بقي من لم يزل وفني من لم يكن، وهي منزلة تلي منزلة الفناء، وهذا معنىٰ قوله بقاء في فناء، انظر: لطائف الإعلام ١/ ٢٨٨، ٢/ ٢١٧.
وقوله بقاء في فناء أي الفناء لا ينافيه البقاء فيكون العبد فانياً عن إرادة ما سوىٰ الله وإن كان شاعراً (أي باقياً) بالله وبالسوىٰ، انظر الفتاوىٰ ١٠/ ٣٣٨.

(٣) فرق في جمع: تقدم ص١٧١٠، ١٧٢٠.

(٤) كثرة في وحدة: أن لا تلهيه ولا تفرق همَّه كثرةُ النعم من حوله والمحسوسات عن توحيد الله ورؤية قيامها بأمره، وهذا هو الشهود الصحيح، انظر الفتاوىٰ ٢/ ٣٧٠، ١٠/ ٣٣٨.

(٥) حقيقة كونية في حقيقة دينية: تقدم ص١٧١٨، ١٨٧٣.

(٦) بيت الشعر: لم أجده.

(٧) الأصل (أحوالهم إلىٰ أحوال) وما أثبته من أ، ب، غ، ح١، ط أقرب للسياق.

(٨) الأصل تقدمت هذه العبارة عند قوله: (أحوال) وما أثبته من أ، ب، غ، ح١، ط أقرب.

(٩) ق زيادة (الطرق)، ط زيادة (الطريق).

فصـــل

منزلة الأنس

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الأنس(١)»(٢).

قال صاحب «المنازل» رحمه الله :

«وَهُوَ(٣) رُوحُ القُربِ»(٤) ولهذا صدَّر منزلته بقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ(٥) أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة : ١٨٦].

فاستحضار القلب هذا البر واللطف الإحسان(٦) : يوجب قربه من

---

(١) ب ، أ ، ش ، ق زيادة (بالله تعالىٰ) ، ط (بالله).

(٢) الأنس : أثر مشاهدة جمال الحضرة في القلب ، وحصول الصحو بالحق فكل مستأنس صاحٍ، وهو روح القرب والتذاذ الروح بكمال الجمال ، وهو ضد الهيبة وقيل معها ، والأنس والهيبة عند أهل الحقيقة تعدان نقصاً لتضمنها تغير العبد ، بخلاف أهل التمكين فقد سمت أحوالهم عن التغير ، إذ لا هيبة ولا أنس ولا علم ولا حس ، ومن علامات صاحب هذه المنزلة أن لا يهتم لنازلة ولا يغتم لحادثة ؛ بل هو دائم الأنس بربه ، فهو يرىٰ الحكمة في كل شيء ، ولهذا يسمىٰ صاحبها « آنس » إذ لا يصح مع شهود الحضرة والحكمة تسخط ، فكل نقمة استبطنت نعمة ، وهو من مراتب الوصول عند أصحاب الطريق ، وهو قرين الحياء فإذا اجتمعا فهي غاية العطاء.

انظر التعرف ١٢٥ ، الرسالة القشيرية ١٢٩ ، عوارف المعارف ٥/ ٢٤٥ ، لطائف الإعلام ١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥ ، معجم مصطلحات الصوفية ٢٦.

(٣) منازل السائرين زيادة (عبارة عن..).

(٤) منازل السائرين ٥٤.

(٥) أ ، ب ، غ (قال : الآية) ولم يكملها.

(٦) ط (والإحسان واللطف).

الرب[١] تعالىٰ، وقربه منه يوجب «الأنس»، و «الأنس» ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع مستأنس، وكل عاصٍ مستوحش، كما قيل:

فإن كنتَ قد أوحشَتْك الذُّنـو ... بُ فدَعْهـا إذا شئتَ واستأنس[٢]

والقرب يوجب الأنس والهيبة والمحبة.

قال صاحب «المنازل» ـ رحمه الله ـ:

درجات الأنس

الدرجة الأولى

«وَهُـوَ عَـلىٰ ثَـلاَثِ دَرَجَـاتٍ، الدَّرَجَـةُ الأُولىٰ: الأُنـسُ بِالـشَّوَاهِدِ، وَهُـوَ استِحلَاءُ الذِّكرِ، وَالتَّغَذِّي بِالسَّمَاعِ، وَالوُقُوفُ عَلىٰ الإِشَارَاتِ»[٣].

هذه اللفظة يجرونها[٤] في كلامهم - أعني لفظة «الشواهد» - ومرادهم بها: أمران.

أحدهما: شواهد[٥] الحقيقة وهي ما يقوم[٦] بقلب العبد، حتىٰ كأنه يشاهده ويبصره لغلبته عليه، فكل ما يستولي علىٰ قلب صاحبه ذكره: فإنه شاهده، فمنهم من يكون شاهده العلم[٧]، ومنهم من يكون شاهده الذكر، ومنهم من

---

(١) أ، ب، غ، ق، ط زيادة (سبحانه و).

(٢) بيت الشعر: قال الخطابي في العزلة: أنشدني بعض أهل المعرفة ثم ذكره ٨٢.

(٣) منازل السائرين ٥٤.

(٤) ش (بحروفها).

(٥) (شواهد) سقطت من أ، ب، غ، ح١، ط.

(٦) ق (تقوم).

(٧) أ، ب، غ، ح١، ط (العمل) بدل (العلم).

يكون[1] شاهده المحبة، ومنهم من يكون[2] شاهده الخوف.

فالمريد: يأنس بشاهده[3] ويستوحش لفقده.

والثاني: شاهد الحال، وهو الأثر الذي يقوم به، ويظهر عليه من عمله، وسلوكه وحاله، فإن شاهده لا بد أن يظهر عليه.

ومراد صاحب المنازل: الشاهد الأول، الذي يأنس به المريد، وهو الحامل[4] له علىٰ استحلاء الذكر، طلباً لظفره بحصول المذكور[5]، فهو يستأنس بالذكر طلباً لاستئناسه بالمذكور، ويتغذىٰ بالسماع كما يتغذىٰ الجسم بالطعام والشراب.

فإن كان محباً صادقاً، طالباً لله، عاملاً علىٰ مرضاته: كان غذاؤه بالسماع القرآني، الذي كان غذاء سادات العارفين من هذه الأمة، وأبرَّها قلوباً، وأصحها أحوالاً، وهم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

وإن كان منحرفاً فاسد الحال، ملبوساً عليه، مغروراً مخدوعاً: كان غذاؤه بالسماع الشيطاني: الذي هو قرآن الشيطان، المشتمل علىٰ محاب النفوس[6]،

---

(١) (يكون) سقطت من أ، ب، غ، م، ش، ح١، ق.

(٢) (يكون) سقطت من أ، ب، غ، م، ش، ح١، ق.

(٣) الأصل (بمشاهده) والأقرب ما أثبته من جميع النسخ، ط.

(٤) م (الحاصل).

(٥) الأصل (الذكر) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ح١، ط.

(٦) أ، ب (النفس).

ولذاتها وحظوظها ، وأصحابه : أبعد الخلق من[1] الله ، وأغلظهم عنه حجاباً وإن كثرت إشارتهم إليه.

وهذا السماع القرآني سماع أهل المعرفة بالله ، والاستقامة[2] ، ويحصل للأذهان الصافية منه معان وإشارات ، ومعارف وعلوم ، تتغذىٰ بها القلوب المشرقة بنور[3] الأنس ، فيجد بها[4] لذة روحانية ، يصل نعيمها إلىٰ القلوب والأرواح ، وربما فاض حتىٰ وصل إلىٰ الأجسام ، فيجد من اللذة ما لم يعهد[5] مثله من اللذات الحسية.

وللتغذي بالسماع سر لطيف ، نذكره للطف[6] موقعه[7].

وهو الذي أوقع كثيراً من السالكين في إيثار سماع الأبيات ، لما رأىٰ فيه من غذاء القلب وقوته ونعيمه ، فلو جئته[8] بألف آية وألف خبر لما أعارك[9] شطراً من إصغائه ، وكان ذلك عنده أعظم من الظواهر التي يعارض بها

---

(١) أ ، ب (عن) بدل (من).

(٢) ط زيادة (علىٰ صراطه المستقيم).

(٣) أ (بروح) بدل (بنور).

(٤) ط زيادة (ولها).

(٥) أ ، ب ، غ ، ح١ (يعهده).

(٦) (للطف) سقطت من ق.

(٧) أ ، ب ، غ ، ح١ (موضعه).

(٨) ب (أجبته).

(٩) م ، ش ، ح١ ، أ ، ب ، غ ، ط (أعطاك).

الفلاسفة وأرباب الكلام.

اعلم أن الله عز وجل جعل للقلوب نوعين من الغذاء : نوعاً من الطعام والشراب الحسي ، وللقلب منه خلاصته وصفوه ، ولكل عضو منه بحسب استعداده وقبوله.

والثاني : غذاء روحاني معنوي ، خارج عن الطعام والشراب : من السرور والفرح ، والابتهاج واللذة ، والعلوم والمعارف ، وبهذا كان الغذاء سماوياً علوياً ، وبالغذاء المشترك كان أرضياً سفلياً ، وقوامه بهذين الغذاءين ، وله ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس ، وغذاءٌ يصل إليه منها.

فله ارتباط بحاسة اللمس ، ويصل إليه منها غذاء ، وكذلك حاسة الشم ، وكذلك حاسة الذوق ، وكذلك ارتباطه بحاستي السمع والبصر : أشد من ارتباطه بغيرهما ، ووصول الغذاء منهما إليه أكمل ، وأقوىٰ من سائر الحواس ، وانفعاله عنهما[1] أشد من انفعاله عن غيرهما ، ولهذا تجد في القرآن اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما ، بل[2] لا يكاد يُقرن إلا بهما ، أو بإحداهما[3].

قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ[4] وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ٧٨] ، وقال :

---

(١) ق (منهما).

(٢) ق (و) بدل (بل).

(٣) غ (بأحديهما) و أ ، ب ، م ح١ (بأحدهما).

(٤) ق (والبصر).

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ(١) وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ(٢) [إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ](٣)﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ(٤) أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالىٰ في وصفه الكفار: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وهذا كثير في القرآن جداً(٥).

لأن(٦) تأثره بما يراه ويسمعه: أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويشمه، ولأن هذه الثلاثة: هي طرق العلم(٧).

وتعلق القلب بالسمع وارتباطه به(٨): أشد من تعلقه بالبصر وارتباطه به،

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من م، ق.

(٢) ق، ح١، أ، ب، غ، م قال (الآية) ولم يكملها.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ق.

(٤) أ، ب، غ، ح١ قال (الآية) ولم يكملها.

(٥) ط (جداً في القرآن).

(٦) الأصل (لين) وما أثبته من بقية النسخ.

(٧) أ، ب، غ، م، ح١، ق زيادة (وهي السمع والبصر والعقل).

(٨) (به) سقطت من الأصل، والأقرب إثباتها كما في أ، ب، غ، ق، ح١، ط.

ولهذا يتأثر بما يسمعه من الملذوذات أعظم مما يتأثر بما يراه من المستحسنات، وكذلك في المكروهات سماعاً ورؤية ، ولهذا كان الصحيح من القولين : أن حاسة «السمع» أفضل من حاسة «البصر» لشدة[١] تعلقها بالقلب ، وعظم حاجته إليها ، وتوقف كماله عليها ، ووصول العلوم[٢] إليه بها ، وتوقف الهدىٰ علىٰ سلامتها.

ورجحت طائفة حاسة «البصر» لكمال مداركها ، وامتناع الكذب فيه ، وزوال الريب[٣] والشك به ، ولأنه عين اليقين ، ، وغاية مدرك حاسة «السمع[٤]» علم[٥] اليقين ، وعين اليقين أفضل ، وأكمل من علم اليقين ، ولأن متعلقها رؤية وجه الرب عزّ وجل في دار النعيم ، ولا شيء أعلىٰ وأجل من هذا التعلق. وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه[٦] - بين الطائفتين حكماً حسناً ، فقال : المُدرك بحاسة «السمع» أعمُّ وأشمل ، والمُدرك بحاسة «البصر» أتم وأكمل[٧] ، فللسمع العموم والشمول ، والإحاطة بالموجود والمعدوم، والحاضر والغائب، والحسي والمعنوي، وللبصر: التمام والكمال.

---

(١) الأصل (من شدة) ، ق (ولشدة) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط.

(٢) م (المعلوم).

(٣) أ (الشك والريب به).

(٤) (السمع) سقطت من أ ، غ ، ح١.

(٥) ق زيادة (الواو).

(٦) ط (رحمه الله) بدل (قدس الله روحه).

(٧) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٣٢٥ ، الرد علىٰ المنطقيين ٩٦.

وإذا عرف هذا ، فهذه الحواس الخمس لها أشباح وأرواح ، وأرواحها حظ القلب ونصيبه منها[1].

فمن الناس[2] من ليس لقلبه منها نصيب إلا كنصيب الحيوانات البهيمة منها، فهو بمنزلتها ، وبينه وبينها أول درجة الإنسانية ، ولهذا شبه الله[3] أولئك بالأنعام ، بل جعلهم أضل ، فقال تعالىٰ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : ٤٤] ، ولهذا نفىٰ الله عن الكفار السمع والبصر والعقول إما لعدم انتفاعهم بها ، فنُزِّلت منزلة المعدوم ، وإما لأن النفي توجه إلىٰ أسماع قلوبهم وأبصارها[4] ، وإدراكها ، ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور ، كقول أهل[5] السعير : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] ، ومنه في أحد التأويلين قوله تعالىٰ : ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ١٩٨] ، فإنهم كانوا ينظرون إلىٰ صورة النبي ﷺ بالحواس الظاهرة ، ولا يبصرون صورة نبوته ، ومعناها بالحاسة الباطنة ، التي هي بصر القلب[6].

---

(١) ق (فيها).

(٢) (الناس) سقطت من أ ، ب ، غ ، م ، ح١.

(٣) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق ، ط زيادة (سبحانه).

(٤) غ (وأبصارهم) بدل (وأبصارها).

(٥) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط زيادة (أصحاب).

(٦) تفسير الطبري ٧/ ٣٤٤ ، ٩/ ١٥٢ ، أحكام القرآن للجصاص ٤/ ٢١٧.

والقول الثاني : أن الضمير[١] عائد علىٰ الأصنام ، ثم فيه قولان :

أحدهما : أنه علىٰ التشبيه ، أي كأنهم ينظرون إليك ، ولا أبصار لهم يرونك بها.

والثاني : أن[٢] المراد به المقابلة ، تقول العرب : داري تنظر دارك أي تقابلها[٣].

وكذلك السمع ثابت لهم ، وبه قامت الحجة عليهم ، ومنْتَفٍ[٤] عنهم ، وهو سمع القلب ، فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك ، كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء ، ولم يسمعوه بالروح الحقيقي ، الذي هو روح حاسة السمع ، التي هي[٥] حظ[٦] القلب ، فلو سمعوه من هذه الجهة : لحصلت لهم الحياة الطيبة ، التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب ، ولزال عنهم الصمم والبكم ، ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة من عدم السمع[٧] والعقل.

---

(١) في قوله (تراهم) : انظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٢٢٣.

(٢) (أن) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ش.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٠ ، معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١٨.

(٤) أ ، ب ، غ ، ح١ (ونسب) بدل (منتف).

(٥) غ (هو) بدل (هي).

(٦) م (حفظ).

(٧) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ش (السماع).

فحصول[1] السمع الحقيقي : مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة ، التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم ، فإن بها يصلح[2] هذا القلب ويعتدل ، فتتم قوته وحياته ، وسروره ونعيمه ، وبهجته ، وإذا فقد غذاءه الصالح : احتاج إلىٰ أن يعتاض عنه بغذاء قبيح خبيث ، [وإذا فسد غذاؤه : وخبث ونقص[3] من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما فسد من غذائه ، كالبدن إذا فسد غذاؤه][4] نقص.

فلما كان تعلق السمع الظاهر الحسي بالقلب أشد ، والمسافة بينهما أقرب من المسافة بين البصر وبينه ، ولذلك[5] يؤدي آثار ما يتعلق بالسمع الظاهر إلىٰ القلب[6] أسرع مما يؤدي إليه آثار البصر الظاهر ، ولهذا ربما غشي علىٰ الإنسان إذا سمع كلاماً يسره أو يسوءه ، أو صوتاً لذيذاً طيباً مطرباً مناسباً ، ولا يكاد يحصل له ذلك من رؤية الأشياء المستحسنة بالبصر الظاهر.

وقد يكون هذا المسموع شديد التأثير في القلب ، ولا يشعر به صاحبه ، لاشتغاله بغيره ، ولمباينة ظاهره لباطنه ذلك الوقت ، فإذا حصل له نوع تجرد

---

(١) الأصل (فحضور) وما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط أقرب.

(٢) ق (يصلح غذاء) ، أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط (يحصل غذاء).

(٣) أ ، ب ، غ ، ط (خبث ونقص).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من م.

(٥) الأصل (وكذلك) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ح١ ، م ، ق ، ط.

(٦) م زيادة (الذي).

ورياضة : ظهرت قوة ذلك التأثير والتأثُّر.

فكلما تجردت الروح والقلب ، وانقطعت[1] عن علائق البدن ، كان حظهما من ذلك السماع أوفىٰ ، وتأثرهما به أقوىٰ.

فإن كان المسموع معنىٰ شريفاً بصوت لذيذ : حصل للقلب حظه ونصيبه من إدراك المعنىٰ ، وابتهج به أتم ابتهاج علىٰ حسب إدراكه له ، وللروح حظها ونصيبها من لذة الصوت ونغمته وحسنه ، فابتهجت به ، فتتضاعف[2] اللذة ، ويتم[3] الابتهاج ، ويحصل الارتياح ، حتىٰ ربما فاض علىٰ البدن[4] والجوارح ، وعلىٰ الجليس.

وهذا لا يحصل علىٰ الكمال في هذا العالم ، ولا يحصل إلا عند سماع كلام الله[5] ، فإذا تجردت الروح وكانت مستعدَّةً ، وباشر القلب روح المعنىٰ ، وأقبل بكلِّيته علىٰ المسموع ، فألقىٰ السمع وهو شهيد ، وساعده طيب[6] صوت القارئ ، كاد القلب يفارق هذا العالم ، ويلج عالماً آخر ، ويجد له لذة وحالاً[7] لا يعهدها

---

(١) ط (انقطعتا).

(٢) ب (فتضاعف).

(٣) ق (وتم).

(٤) ب زيادة (وعلىٰ).

(٥) (تعالىٰ) سقطت من بقية النسخ.

(٦) (طيب) سقطت من ق.

(٧) ط (حالة).

في شيء[1] البتة ، وذلك دقيقة[2] من حال أهل الجنة في الجنة.

فيا له من غذاء ما أصلحَه وما أنفعَه.

وحرام علىٰ قلب قد تربىٰ علىٰ غذاء السماع الشيطاني : أن يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن ؛ بل إن حصل له نوع لذة ، فهو من قبل الصوت المُشترك ، لا من قبل المعنىٰ الخاص.

وليس في نعيم أهل[3] الجنة أعلىٰ من رؤيتهم وجه[4] محبوبهم[5] عياناً[6] وسماع كلامه منه.

وذكر عبدالله ابن الإمام أحمد في كتاب السنة أثراً - لا يحضرني الآن هل هو موقوف أو مرفوع - : «إذا سمع الناس القرآن يوم القيامة من الرّحمن عزّ ، وجلّ[7] فكأنهم لم يسمعوه من قبل ذلك»[8].

---

(١) ط زيادة (غيره).

(٢) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط (رقيقة).

(٣) (أهل) سقطت من الأصل وهي في جميع النسخ ، ط.

(٤) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٥) ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

(٦) ش (عالياً).

(٧) (عزّ وجلّ) سقطت من ق.

(٨) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة عن محمد بن كعب القرظي (١/ ١٤٧) رقم(١٢٣) ، وقال محقق الكتاب د/ محمد القحطاني : إسناده ضعيف ، ولفظه : «كان الناس إذا سمعوا القرآن..» ، وأورده البرهان فورىٰ في كنز العمال (١٤/ ٤٨٠) رقم(٣٩٣٤١) وقال عن أنس

وإذا امتلأ القلب بشيء ، وارتفعت المباينة الشديدة بين الظاهر والباطن : أدت الأذن إلىٰ القلب المسموع ما يناسبه ، وإن لم يدل عليه ذلك المسموع ، ولا قصده المتكلم ، ولا يختص ذلك بالكلام الدال علىٰ معنىٰ ، بل قد يقع في الأصوات المجردة.

قال القشيري[1] - رحمه الله[2] - : سمعت أبا عبد الرحمن[3] السلمي يقول : دخلت علىٰ أبي عثمان المغربي[4] ، ورجل يستقي لنا[5] من البئر علىٰ بَكَرة[6] ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، أتدري أيش تقول هذه البكرة؟ فقلت : لا ، فقال : تقول الله الله[7].

في الإبانة للسجزي بلفظ «كأن الناس..» وبرقم(٣٩٣٤٢) عن أبي هريرة في مسند الفردوس بلفظ «كأن الخلق..».

(١) عبد الكريم بن هوازن القشيري الشافعي الصوفي المفسر ، تفقه علىٰ عدد من العلماء وألّف «لطائف الإشارات» ، و «الرسالة» ، توفي سنة ٤٦٥هـ/ سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٧).

(٢) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٣) ط (عبد الله) بدل (عبد الرحمن).

(٤) سعيد بن سلام ، أبو عثمان المغربي من ناحية القيروان ، صحب أبا علي الكاتب ، ولقي أبا يعقوب النهرجوري ، وكان من مشايخ الصوفية ، توفي سنة ٣٧٣هـ/ شذرات الذهب (٣/ ٨١) ، طبقات الصوفية للسلمي (٤٧٩) ، تاريخ بغداد (٩/ ١١٢).

(٥) ط زيادة (الماء).

(٦) ق (من البئر بكر).

(٧) هذا بحسب ما يركبه المستمع من أوزان تناسب لكل النغمات المجردة من أي معنىٰ ، وهو من التكلف ، إذ كل مستمع يستطيع أن يفتعل من الأصوات أوزاناً حسب مراده هو وإن لم تكن

ومثل ذلك كثير، كما سمع أبو سليمان الدمشقي من المنادي: يا سَعْتَرْ بَرِّي: اسْعَ ترَ بِرِّي[1].

وهذا السماع الروحاني تبع لحقيقة القلب ومادته منه، فلاتحاده[2] به يظن السامع أنه أدرك[3] المعنىٰ لا محالة من الصوت الخارجي، وسبب ذلك اتحاد السمع بالقلب.

وأكمل السماع: سماع من يسمع[4] بالله ما هو مسموع من الله وهو كلامه، وهو سماع المحبين المحبوبين، كما في الحديث الذي في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالىٰ - أنه قال: «**ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يُبصر، وبي يبطش،**

في الواقع كذلك، والصواب أن نقف عند قوله تعالىٰ: ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم..**﴾ [الإسراء: ٤٤].

(١) ذكره شيخ الإسلام في الاستقامة ١/ ٣٩٠، وقال: فإنه من هذا الباب ضل طوائف من الضالين، ونسبه لحلوان الدمشقي، وأورده القشيري في الرسالة القشيرية ٤٧٩، وقال: سمع أبو سليمان الدمشقي (طوافاً ينادي) فلما أفاق وسئل قال: حسبته يقول: «اسع تر برِّي»، وقال محقق الرسالة: «ينادي علىٰ نبات السعتر الذي يؤتىٰ به من البراري».

(٢) ق، ش، ط (فالاتحاد به يظن به).

(٣) أ، ب، غ، م، ح١، ش، ق، ط زيادة (ذلك).

(٤) غ (سميع).

وبي يمشي»[١].

والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة ، فإذا امتلأ من محبة الله ، وسمع كلام محبوبه - أي بمصاحبته[٢] وحضوره في قلبه - فله من سماعه[٣] هذا الشأن ، ولغيره آخر[٤].

فصل

والثاني علىٰ ثلاثة أقسام :

أحدها[٥] : من اتصف قلبه بصفات نفسه ، بحيث صار قلبه نفساً محضة ، فغلبت عليه آفات الشهوات ، ودواعي[٦] الهوىٰ ، فهذا حظه من السماع : كحظ البهائم ، لا يسمع إلا دعاء ونداء ، والفرق الذي بينها[٧] وبينه : غير طائل.

القسم الثاني: من اتصفت[٨] نفسه بصفات قلبه، فصارت نفسه قلباً محضاً ،

---

(١) تقدم تخريجه ص١٩٥٢.

(٢) أ ، ب ، غ (بصاحبيته) ، ح١ (بصحبيته).

(٣) غ (سماع).

(٤) أ ، ب ، غ ، ق ، ط زيادة (والله أعلم).

(٥) أ ، ب ، غ ، ح١ (أحدهم).

(٦) ط (دعوات).

(٧) م ، غ (بينهما).

(٨) ق ، ش (اتصف).

فغلبت عليه المعرفة والمحبة ، والعقل واللب ، وعشق صفات الكمال ، فاستنارت نفسه بنور القلب ، واطمأنت إلىٰ ربها ، وقرت عينها بعبوديته ، وصار نعيمها في حبه وقربه ، فهذا حظه من السماع مثل[1] - أو قريب - من حظ الملائكة ، وسماعه غذاء قلبه وروحه ، وقرة عينه ونعيمه من الدنيا ، ورياضه التي يسرح[2] فيها ، وحياته التي بها قوامه ، وإلىٰ هذا المعنىٰ قصد أرباب سماع القصائد والأبيات ، ولكن أخطأوا الطريق وأخذوا عن الدّرب شمالاً ووراء.

القسم الثالث[3] : من له منزلة بين منزلتين وقلبه باقٍ علىٰ فطرته الأولىٰ ، ولكن ما تصرف في نفسه تصرفاً أحالها إليه ، وأزال به رسومها ، وجلا عنه ظلمتها ، ولا قويت النفس علىٰ القلب بإحالته إليها ، وتصرفت فيه تصرفاً أزالت عنه نوره وصحته وفطرته[4].

[5] فبين القلب والنفس منازلات ووقائع ، والحرب بينهما دُول وسجال ، تدال النفس عليها تارة ، ويدال عليها تارة.

فهذا حظه من السماع : حظ بين الحظّين ، ونصيبه منه بين النصيبين ، فإن

(١) (مثل) سقطت من ق.

(٢) الأصل (شرح) ش (سرح) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط.

(٣) ح١ (الثاني).

(٤) أ (وفطرته وصحته).

(٥) (الفاء) سقطت من ق ، غ.

صادفه وقت دولة القلب : كان حظُّه منه قوياً ، وإن صادفه وقت دولة النفس : كان ضعيفاً ، ومن ههنا يقع التفاوت بين الناس(١) في الفقه عن الله، والفهم عنه، والابتهاج والنعيم بسماع كلامه.

وصاحب هذه الحال - في حال سماعه - يشتغل القلب بالحرب بينه وبين النفس ، فيفوته من روح المسموع ونعيمه(٢) ولذته بحسب اشتغاله عنه بالمحاربة ، ولا سبيل له(٣) إلىٰ حصول ذلك بتمامه ، حتىٰ تضع الحرب أوزارها ، وربما صادفه في(٤) حال السماع وارد حق ، أو الظفر بمعنىٰ بديع لا يقدر فكره علىٰ صيده كل وقت ، فغاب به واستغرق(٥) فيه عما يأتي بعده ، فيعجز عن صيد تلك المعاني ، ويدهشه ازدحامها فيبقىٰ قلبه باهتاً ، كما يحكىٰ أن بعض العرب : أرسل صائداً له علىٰ صيد ، فخرج الصيد عليه من أمامه وخلفه ، وعن يمنيه وعن يساره(٦) ، فوقف باهتاً ينظر يميناً وشمالاً ، ولم يصطد شيئاً فقال :

---

(١) (بين الناس) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٢) ش (ونعمه).

(٣) (له) سقطت من ق.

(٤) ح١ (من) بدل (في).

(٥) ط (فيغيب به ويستغرق) ، (به) سقطت من م.

(٦) ط (شماله) .

تكاثرت[١] الظباء علىٰ خراش[٢] فما[٣] يدري خراش[٤] ما يصيد[٥]

فوظيفته في مثل هذا الحال : أن يفنىٰ عن وارده ، ويعلق قلبه بالمتكلم ، وكأنه يسمع كلامه منه ، ويجعل قلبه نهراً لجريان معانيه ، ويفرغه من سوىٰ فهم المراد ، وينصبُّ إليه انصباباً يتلقىٰ فيه معانيه ، كتلقي المحب للأحباب القادمين عليه ، لا يشغله حبيب منهم عن حبيب ؛ بل يعطي كل قادم حقَّه ، وكتلقي الضيوف والزوار ، وهذا إنما يكون مع سعة القلب ، وقوة الاستعداد ، وكمال الحضور.

فإذا سمع خطاب الترغيب والتشويق ، واللطف والإحسان : لا يفنىٰ به عما يجيء بعده من خطاب التخويف والترهيب والعدل ؛ بل يتلقىٰ[٦] الخطاب الثاني مستصحباً لحكم الخطاب الأول ، ويمزج هذا بهذا ، ويسير[٧] بهما[٨]

---

(١) ش (تفرقت).

(٢) ق (حراشة).

(٣) أ ، ب ، غ (فلم).

(٤) ق (حرس).

(٥) معجم الأبيات الشهيرة ٧٧، وعزاه لأبي خراش الهذلي، وأورده الطبري في تفسيره ٤/ ٢٧٦، بلفظ : « تفرقت الظباء علىٰ خداش » .

(٦) ط (يسمع) بدل (يتلقىٰ).

(٧) الأصل ، ش (ويشير) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٨) ط (ومعهما).

جميعاً ، عاكفاً بقلبه علىٰ المتكلم وصفاته سبحانه[١].

وهذا سير في الله ، وهو نوع آخر أرفع وأعلىٰ[٢] من مجرد المسير إليه ، ولا ينقطع بذلك سيره إليه ؛ بل يدرج سيره ، فإن سير القلب في معاني أسمائه وصفاته وتوحيده ومعرفته.

ومتىٰ بقيت للقلب في ذلك ملكة ، واشتد تعلقه به : لم تحجبه معاني المسموع وصفات المتكلم بعضها عن بعض ، ولكن في الابتداء يعسر عليه ذلك ، وفي التوسط يهون عليه ، ولا انتهاء[٣] ههنا البتة ، والله المستعان.

[٤] فهذه[٥] كلمات تشير إلىٰ معاني سماع أهل المعرفة والإيمان ، والأحوال المستقيمة.

وأما السماع الشيطاني : فبالضد من ذلك ، وهو مشتمل علىٰ أكثر من مائة مفسدة ولولا[٦] الإطالة لسقناها مفصلة.

وسنفرد لها مصنفاً مستقلاً[٧] إن شاء الله تعالىٰ[٨].

---

(١) (سبحانه) سقطت من ق.

(٢) ق ، ط (أعلىٰ وأرفع).

(٣) ب ، م (والانتهاء).

(٤) ق زيادة (فصل).

(٥) (فهذه) سقطت من ق.

(٦) جميع النسخ ، ط زيادة (خوف).

(٧) ألف ابن القيم كتاباً سماه (الكلام علىٰ مسألة السماع) ، طبع سنة ١٤٠٩هـ ، دار العاصمة/ الرياض .

(٨) (تعالىٰ) سقطت من بقية النسخ.

فهذا ما يتعلق بقوله : «إِنَّ مِنَ الأُنسِ بِالشَّوَاهِدِ : التَّغَذِّي بِالسَّمَاعِ».

وقوله : «وَالوُقُوفُ عَلَىٰ الإِشَارَاتِ».

«الإشارات[1]» هي المعاني التي تشير إلىٰ الحقيقة من بعد ، ومن[2] وراء حجاب.

وهي تارة تكون من مسموع ، وتارة تكون من معقول ، وتارة تكون من مرئي[3] وقد تكون من الحواس كلها.

فالإشارات[4] : من جنس الأدلة والأعلام ، وسببها ، صفاء يحصل[5] بالجمعية ، فيلطف به الحس والذهن ، فيستيقظ لإدراك أمور لطيفة ، يكثف[6] حس غيره وفهمه عن إدراكها.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الصحيح منها:

---

(١) الإشارات : هي الإخبار من غير الاستعانة إلىٰ التعبير باللسان ، وقيل ما يخفىٰ عن المتكلم الإشارات كشفه بالعبارة للطافة معناه وتكون مع القرب ومع حضور الغيب، وتكون مع البعد، وإذا قيل : فلان صاحب إشارة إذا اشتمل كلامه علىٰ لطائف وإشارات ، انظر معجم مصطلحات الصوفية ١٦ ـ ١٧.

(٢) (من) سقطت من ش.

(٣) ط (وتارة تكون من معقول) وردت بعد قوله (مرئي..).

(٤) ح١ ، ش (فالإشارة).

(٥) ح١ (يحصر).

(٦) ط (لا يكشف) بدل (يكثف).

ما يدل عليه اللفظ بإشارته من باب قياس الأولىٰ.

قلت : مثاله قوله تعالىٰ : ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة : ٧٩].

قال والصحيح(١) في الآية، أن(٢) المراد به(٣) : الصحف التي بأيدي الملائكة ، لوجوه عديدة :

منها : أنه وصفه بأنه «مكنون» و «المكنون» المستور عن العيون ، وهذا إنما هو في الصحف التي بأيدي الملائكة.

ومنها : أنه قال : ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ وهم الملائكة ، ولو أراد المتوضئين لقال : لا يمسه إلا المتطهرون(٤) كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢]، فالملائكة مطهرون ، والمؤمنون متطهرون.

---

(١) مسألة مس المحدث للمصحف فيها خلاف بين أهل العلم ، بسط القول فيها فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ورجح ما ذهب إليه جمهور العلماء ومنهم أئمة المذاهب الأربعة وهو القول بأنه لا يمس المصحف إلا طاهر من الحدث الأصغر والأكبر ، انظر الشرح الممتع ١/ ٢٦٠ - ٢٦٦ ، والأقوال في المسألة ينظر فيها أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤١٦ ، أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٨ ، أحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ٢٢٥ ، المحلىٰ ١/ ٨٧ ، المجموع ٢/ ٦٧ ، مجموع الفتاوىٰ ٢١/ ٢٦٦ ، أعلام الموقعين ١/ ٢٢٥ ، نيل الأوطار ١/ ٢٠٧. مسألة مس المحدِث للمصحف

(٢) (أن) سقطت من أ.

(٣) (به) سقطت من ش.

(٤) ق (المطهرون).

ومنها : [أن هذا إخبار ، ولو كان نهياً لقال : لا يمسسه[1] بالجزم ، والأصل في الخبر أن يكون خبراً صورة ومعنىٰ][2].

ومنها : أن هذا رد علىٰ من قال : إن الشيطان جاء بهذا القرآن، فأخبر تعالىٰ: أنه في كتاب مكنون لا تناله الشياطين ، ولا وصول لها إليه ، كما قال تعالىٰ في آية الشعراء : ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء : ٢١٠-٢١١] ، وإنما تناله الأرواح المطهرة وهم الملائكة.

ومنها : أن هذه[3] نظير الآية التي في سورة عبس ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس : ١٢-١٦].

قال مالك - رضي الله عنه -[4] في موطئه: أحسن ما سمعت في تفسير قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أنها مثل هذه الآية التي في سورة عبس[5].

ومنها : أن الآية مكية في[6] سورة مكية ، تتضمن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد ، وإثبات الصانع ، والرد علىٰ الكفار ، وهذا المعنىٰ أليق[7] بالمقصود

---

(١) ق (لا يمسه).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٣) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (هذا).

(٤) (رضي الله عنه) ثبتت في الأصل فقط.

(٥) الموطأ كتاب القرآن. باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن (١/ ١٩٩).

(٦) ط (من) بدل (في).

(٧) ب ، ح١ (لتوالي المقصود) ، غ (التوالي).

من فرع عملي ، وهو حكم مس المحدث المصحف.

ومنها أنه لو أريد به الكتاب الذي بأيدي الناس : لم يكن في الإقسام علىٰ ذلك بهذا القسم العظيم كثير(١) فائدة ، إذ من المعلوم : أن كل كتاب فهو قابل لأَنْ يكون كتاباً حقاً أو باطلاً ، بخلاف ما إذا وقع القسم علىٰ أنه كتاب مصون ، مستور عن العيون عند الله ، لا يصل إليه شيطان ، ولا ينال منه ، ولا يمسه إلا الأرواح الطاهرة الزكية ، فهذا المعنىٰ أليق وأَجلُّ وأخلق بالآية وأولىٰ بلا شك.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : لكن تدل الآية بإشارتها علىٰ أنه لا يمسُّ المصحف إلا طاهر ، لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسها إلا المطهرون ، لكرامتها علىٰ الله ، فهذه الصحف ينبغي أن لا يمسها إلا طاهر(٢).

وسمعته يقول في قول النبي ﷺ : «لا تدخل(٣) الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة»(٤) ، إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت ، فكيف تلج معرفة الله(٥) ، ومحبته وحلاوة ذكره ، والأنس بقربه ، في

---

(١) م ، أ ، ش (كبير).

(٢) الفتاوىٰ ١٣/ ٢٤٢ ، ٢١/ ٢٦٦ ، ونحوه في ٢٦/ ١٨٤ ، بغية المرتاد ٢/ ٢١٢ ، ٢١٦.

(٣) الأصل (يدخل).

(٤) البخاري. اللباس باب التصاوير (٤/ ٨١) ح (٥٩٤٩) ، مسلم. اللباس (٣/ ١٦٦٥) ح (٢١٠٦) ، أحمد (٤/ ٢٨-٢٩ ، ٣٠).

(٥) ط زيادة (عزَّ وجل).

قلب[1] ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها؟ فهذا من إشارة اللفظ الصحيحة[2][3].

ومن هذا : أن طهارة الثوب الظاهر[4] والبدن إذا كانت شرطاً في صحة الصلاة والاعتداد بها ، فإذا أخل بها كانت فاسدة ، فكيف إذا كان القلب نجساً، ولم يطهره صاحبه؟ فكيف يُعْتدُّ له بصلاته ، وإن أسقطت[5] القضاء؟ وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن؟.

ومن هذا : أن استقبال القبلة في الصلاة شرط لصحتها ، وهي بيت الرب ، فتوجه المصلي إليها ببدنه وقالبه شرط ، فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلىٰ رب القبلة والبدن؟ بل وجه بدنه إلىٰ البيت ، ووجه قلبه إلىٰ غير رب البيت.

و[6]أمثال ذلك من الإشارات الصحيحة التي لا تنال إلا بصفاء الباطن ، وصحة البصيرة ، وحُسن التأمل[7].

---

(١) الأصل (بيت) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٢) أ ، ب ، غ ، ح١ (الصحيح).

(٣) الفتاوىٰ ٤/ ١٢٧ ، ٥/ ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ١٣/ ٢٤٢.

(٤) الأصل (الطاهر) والأقرب ما أثبته من ح١ ، ش.

(٥) م (عنه).

(٦) (الألف) سقطت من ب ، أ.

(٧) ق ، ط زيادة (والله أعلم).

فصل

الدرجة الثانية قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الأُنسُ بِنُورِ الكَشفِ ، وَهُوَ أُنسٌ شَاخِصٌ عَنِ الأُنسِ الأَوَّلِ ، تَشُوبُهُ صَولَةُ الهَيَمانِ ، وَيَضرِبُهُ مَوْجُ الفَنَاءِ ، وَهُوَ[1] الَّذِي غَلَبَ قَوماً عَلَىٰ عُقُولِهِمْ ، وَسَلَبَ قَوماً طَاقَةَ الاصطِبَارِ ، وَحَلَّ عَنهُم قُيُوْدَ العِلمِ ، وَفِي هَذَا وَرَدَ الخَبَرُ بِهَذَا الدُّعَاءِ : (أَسأَلُكَ شَوقاً إِلىٰ لِقَائِكَ ، مِن غَيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ، وَلا فِتنَةٍ مُضِلَّةٍ)»[2].

يجوز أن تكون[3] الباء في قوله : «بنور الكشف» باء السببية ، أو باء الإلصاق.

فإن كانت باء السببية ، كان المعنىٰ : الأنس[4] الحاصل بسبب نور الكشف.

وإن كانت باء الإلصاق ، كان المعنىٰ : الأنس المتلبس بنور الكشف.

فإن قلت : ما الفرق بين الأنس ، ونور الكشف ، حتىٰ يكون أحدهما سبباً للآخر ، أو متلبساً به؟.

قلت : الفرق بينهما أن نور الكشف من باب المعارف ، وانكشاف الحقيقة

---

(١) منازل السائرين (وهذا).

(٢) منازل السائرين ٥٥ وآخره إشارة إلىٰ الحديث «اللهم بعلمك الغيب.. » ، سبق تخريجه ص١٨٩٢.

(٣) الأصل (يكون) وما أثبته من جميع النسخ ، ط.

(٤) (الأنس) سقطت من م ، ق.

للقلب ، وأما الأنس ، فمن باب القرب والدنوّ ، والسكون إلىٰ من يأنس به ، والطمأنينة إليه فضده : الوحشة ، وضد نور الكشف : ظلمة الحجاب.

وقوله : «شَاخِصٌ عَنِ الأُنْسِ الأَوَّلِ».

أي مرتفع عنه وأعلىٰ منه.

وقوله : «تَشُوبُهُ صَوْلَةُ الهَيَمَانِ».

وذلك لأن هذا الأنس المذكور(١) يكون مبدؤه(٢) الكشف عن أسماء الصفات(٣) التي يحصل عنها الأنس ، ويتعلق(٤) بها ، كاسم «الجميل ، والبر ، واللطيف ، والودود ، والحليم ، والرَّحيم»(٥) ونحوها ، ثم يقوىٰ التعلق بها إلىٰ أن يستغرق العقل ، فيمازجه نوع من الأسماء ، فيقهر(٦) العقل بصولته.

---

(١) ش زيادة (قد).

(٢) ق (مبدأ).

(٣) أسماء الصفات : سبق ص١٧٦٧.

(٤) ق (تعلق) ، ط (يعلق).

(٥) اسم «الجميل» دليله قوله ﷺ : «إن الله جميل يحب الجمال» أخرجه مسلم. الإيمان (١/ ٩٣) ح(٩١) ، أحمد (٤/ ١٣٣) ، واسم «البر» دليله قوله تعالىٰ : ﴿إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾ [الطور : ٢٨] ، واسم «اللطيف» دليله قوله تعالىٰ : ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ [الأنعام : ١٠٣] واسم «الودود» دليله قوله تعالىٰ: ﴿وهو الغفور الودود﴾ [البروج: ١٤] ، واسم «الحليم» دليله قوله تعالىٰ : ﴿وإن الله لعليم حليم﴾ [الحج : ٥٩] ، واسم «الرحيم» دليله قوله تعالىٰ : ﴿الرحمن الرحيم﴾ [الفاتحة : ٣].

(٦) م (فيعه) بدل (فيقهر).

و «الهَيَمَانُ[١]» هو الحركة إلىٰ كل جهة بسبب الحيرة والدهشة، وذلك إنما يكون مع[٢] نوع عدم تمييز أو مع[٣] قوة إرادة قاهرة لا يملك صاحبها ضبطها.

وقوله: «وَيَضرِبُهُ مَوجُ الفَنَاءِ»

أي أن صاحب هذا الأنس: يطالع مبادئ الفناء محيطة به، فهي تقلبه كما يقلب الموجُ الغريقَ، وهذا قبل استيلاء سلطان الفناء علىٰ وجوده.

وقوله[٤]: «وَهُوَ الَّذِي غَلَبَ قَوماً عَلىٰ عُقُولهِم».

أي سلبهم إياها، لأنهم شاهدوا شيئاً فوق مدارك العقول، وفوق كل مدرك بالحواس الظاهرة والباطنة، ولا إِلْفَ لهم به، فأوجبت قوة المشاهدة والوارد، وضعف المحل والحامل: غلبته علىٰ العقل، والكامل من القوم يثبت لذلك ولا يتحرّك، بل يبقىٰ[٥] كأنه جبل.

وتلا الجنيد - رحمه الله -[٦] في مثل هذه الحال - وقد قيل له أما يغيرك ما

---

(١) الهيمان: هام خرج علىٰ وجهه في الأرض لا يدري أين يتوجه، وهام في الأمر تحير فيه واضطرب، وذهب كل مذهب، ومنه شدة العطش وشدة الحب والوجد/ المعجم الوسيط (٢/ ١٠٠٤).

(٢) ق (من) بدل (مع).

(٣) أ، ب، غ، ح١، ط زيادة (أو).

(٤) (وقوله) سقطت من م.

(٥) أ، ب، ش، م، ق (يلقىٰ).

(٦) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

تسمع ؟ - قوله : ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل : ٨٨].

وبعضهم تلا في مثل ذلك قوله تعالىٰ[1] : ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف : ١٨].

وقوم أقوىٰ تمكيناً من هؤلاء : لم يغلبهم علىٰ عقولهم ؛ بل سلبهم طاقة صبرهم ، فبدا منهم ما ينافي الصبر.

وأما قوله : «وَحَلَّ عَنهُم قُيُودَ العِلْمِ».

فكلام لا بد من تأويله ، وتكلف وجه يصححه[2].

وأحسن ما يحمل عليه : أن العلم يقيد صاحبه[3] ، والمعرفة تطلقه ، وتوسع بطانه ، وتريه حقائق الأشياء ، فتزول[4] عنه التقيدات التي كانت حاصلة بسبب خفاء نور المعرفة وكشفها عليه.

فإن العارف صاحب ضياء الكشف أوسع بطاناً وقلباً ، وأعظم إطلاقاً بلا شك من صاحب العلم ، ونسبته إليه كنسبة صاحب العلم إلىٰ الجاهل ، فكما

---

(١) (قوله تعالىٰ) سقطت من بقية النسخ سوىٰ الأصل ، ق.

(٢) تأويل ابن القيم لكلام الهروي يدل علىٰ عدم موافقته له فيما يدل عليه كلامه ، وهو ما يكثر عند القوم من الزهد بالعلم والاستغناء عنه بالكشف والذوق ونحوهما كما سبق ص١٨٢٩ ، ٢٠٩٨.

(٣) (صاحبه) سقطت من ش.

(٤) الأصل (فيزول) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

أن العالم أوسع بطاناً من الجاهل ، وله إطلاق بحسب علمه فالعارف - بما معه من روح العلم ، وضياء الكشف ونوره - هو أكثر إطلاقاً وأوسع بطاناً من صاحب العلم ، فيتقيد العالم بظواهر العلم وأحكامه ، والعارف لا يراها قيوداً.

ومن ثم[1] تزندق من تزندق ، وظن أنه إذا لاحت له حقائقها ، وبواطنها : خلع قيود ظواهرها ورسومها ، اشتغالاً بالمقصود عن الوسيلة ، وبالحقيقة عن الرسم ، فهؤلاء هم المقطوعون عن الله ، القطاع لطريق الله ، وهم معاطبُ الطريق وآفاتُها.

واتفق أن[2] العارفين تكلموا في الحقائق ، وأمروا بالانتقال من الرسوم والظواهر إليها ، وأن لا يوقف[3] عندها ، فظن هؤلاء الزنادقة : أنهم جوَّزوا خلعها ، والانحلال منها.

ولا ريب أن من جوَّز ذلك : فهو مثل هؤلاء ، والله يركم الخبيث بعضه علىٰ بعض ، فيجعله في جهنم ، أولئك هم الخاسرون.

فصاحب «المنازل» -رحمه الله[4]- أشار إلىٰ المعنىٰ الحق الصحيح ، كما أشار إليه شيوخ القوم.

---

(١) بقية النسخ ، ط (ههنا) بدل (ثم).

(٢) (أن) سقطت من ط.

(٣) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (يقف).

(٤) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

وأما استدلاله بقول النبي ﷺ : «**أسألك الشوق إلىٰ لقائك في غير ضرّاء مضرة ولا فتنة مضلة**».

فليس بمطابق[1] لما ذكره في هذه الدرجة.

فأين طلب الشوق إلىٰ لقائه، الباعث علىٰ كمال الاستعداد، وعلىٰ خفة أعباء السير، والمزيل لكل فتور، والحامل علىٰ كل صدق، وإخلاص وإنابة[2]، وصحة معاملة، إلىٰ أمر مشوب بصولة الهيمان، تضربه أمواج الفناء، بحيث غلب قوماً علىٰ عقولهم، وسلب قوماً صبرهم بحيث صيّرهم في عالم الفناء؟.

ورسول الله ﷺ : لم يكن ليسأل حالة الفناء قط، وإنما سأل[3] شوقاً موجباً للبقاء، مصاحباً له، موجباً له[4] طيب الحياة، وقرة العين، ولذة القلب، وبهجة الروح.

وصاحب المنازل - رحمه الله[5] - : كأنه فهم منه اشتياقه إلىٰ المشاهدة من غير غلبة علىٰ عقل، ولا فقد لاصطبار، ولهذا قال : «من غير ضرّاء مضرة» وهي الغلبة علىٰ العقل، «ولا فتنة مضلة» وهي مفارقة أحكام العلم.

---

(١) أ، ب، غ، ح١، ط (مطابقاً).

(٢) عند قوله وإنابة انتهت نسخة (ش) وهي (تشستربتي).

(٣) م (سئل).

(٤) (موجباً له) سقطت من ق.

(٥) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

وهذا غايته: أن يؤخذ من إشارة الحديث علىٰ عادة القوم، وأما أن يكون هو نفس المراد: فلا.

وإنما المسؤول: أن[1] يهب له شوقاً إلىٰ لقائه، مصاحباً للعافية، والهداية، فلا تصحبه فتنة ولا محنة، وهذا من أجلِّ العطاء والمواهب، فإن كثيراً ممن يحصل له هذا لا يناله إلا بعد امتحان واختبار: هل يصلح أم لا؟ ومن لم يمتحن ولم يختبر فأكثرهم لم يؤهل لهذا.

فتضمن هذا الدعاء: حصول ذلك، والتأهيل له، مع كمال العافية بلا محنة[2]، والهداية بلا فتنة، وبالله التوفيق، والله أعلم[3].

فصل

الدرجة الثالثة

قال[4]: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: أُنْسُ اضْمِحْلَالٍ فِي شُهُودِ الحَضْرَةِ، لا يُعبِّرُ عَن عَينِهِ[5]، وَلا يُشَارُ إِلىٰ حَدِّهِ، وَلا يُوقَفُ عَلىٰ كُنهِهِ»[6].

«الاضمحلال» الانعدام، و «شهود الحضرة» هو مشاهدة الحقيقة، والفناء

---

(١) (أن) سقطت من أ، ب، غ، ح١.

(٢) عند قوله (بلا محنة) انتهت النسخة (ح١) وهي نسخة المعهد العلمي (بحائل).

(٣) ق (وهو) بدل (لفظ الجلالة).

(٤) (قال) سقطت من ق.

(٥) أ، ب، غ، ط (غيبة) وهو خلاف ما في المنازل وبقية النسخ.

(٦) منازل السائرين ٥٥.

في ذلك المشهود[1].

قوله : «لا[2] يُعْبَّرُ عَن عَينهِ[3]» إلىٰ آخره.

حاصله : أن هذا أمر وراء العبارة ، لا تناله العبارة ، ولا يحاط به عيناً ، ولا حداً ، ولا كنهاً و[4]حقيقة ، فإن حقيقته : تستغرق العبارة ، والإشارة ، والدلالة، وفي وصفه يقول قائلهم :

فَأَلقَوا حبال مراسيهم　　　فغطّاهمُ البحرُ ثم انطبق[5]

وههنا إنما حوالة القوم علىٰ الذوق ، وإشارتهم إلىٰ الفناء الذي يصطلم المشير وإشارته ، والمعبر[6] وعبارته ، مع ظهور سلطان الحقيقة التي هي فوق الإشارة ، والعبارة والدلالة ، والله أعلم[7][8] .

* * *

(١) أ ، ب ، غ ، م ، ط (الشهود).

(٢) ط زيادة (الواو).

(٣) ط (غيبه).

(٤) ط زيادة (ولا).

(٥) لم أجده.

(٦) الأصل ، م (والمعز وعبادته) ، ط (المغبر) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ق.

(٧) ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

(٨) عند هذه الكلمة انتهىٰ ما خصص لي من التحقيق ، ويليه بداية « منزلة الذكر » ، وهي بداية ما خصص للشيخ خالد بن عبدالعزيز الغنيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونتوب إليه ، وأصلي وأسلم علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحابته ومن والاه ، أما بعد :

فقد استغرق العمل في هذا البحث [تحقيق جزء من مدارج السالكين مع دراسة بعض المنازل] ثلاث سنوات وثمانية أشهر واختلفت أوقات البحث وتعددت قراءته مرات ، وفي كل قراءة يتضح مزيد من مضمون الكتاب ، ولعل أبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث ما يلي :

١ ـ أن عدداً من كتب التراث الإسلامي تم إخراجها مطبوعة بشكل لا يفي بجميع ما يتطلبه التحقيق والتخريج ، ولكنه بحسب ما كان متاحاً في الزمن السابق ، وكانت خطوة مهدت لإعادة قراءته من جديد وخدمته تحقيقاً وتعليقاً واستخراجاً لبعض الفوائد ، وتصويباً لما يقع فيه بعض النساخ من تصحيف أو اجتهاد في تغيير يخالف الصواب ويوقع في لبس وانغلاق لعدم التخصص من معظم المشتغلين بذلك .

٢ ـ أن المنازل والمقامات لم تبن علىٰ منهج واضح وإنما المرجع لها التجربة الشخصية والمواقف الفردية لذا جاءت مختلفة العدد متداخلة التعريف ويظهر فيها التكلف .

٣ ـ أن معظم المصطلحات الصوفية تعتمد الرمز والإشارة بحيث لا يستطيع

القارئ معرفة مرادهم بيسر، وقد تبين مرادهم من ألفاظهم بالرجوع إلىٰ كتبهم وشروح المنازل التي ألفها أشخاص لهم ميل أو تأثر بالصوفية أو انغماس في شطحاتهم .

٤ ـ اجتهاد ابن القيم في تفسير كلام الهروي بما يعرفه من حاله وعمله دون علمه وكلامه ، ويستثنىٰ من ذلك ما لا يحتمل المقام تفسيره ، إما لغموض مراده أو لكونه محتملاً الباطل علىٰ كل المحامل .

٥ ـ تضمن الكتاب بحوثاً في العقيدة والمذاهب الفكرية والطوائف والملل إضافة إلىٰ التركيز علىٰ السلوك ومعالجة أمراض القلوب وعلل الأعمال .

٦ ـ الإشارة العابرة لشرح المخالفين ممن شرحوا منازل السائرين ، وتفنيد ما ذهبوا إليه ، وهو دليل علىٰ اطلاع ابن القيم علىٰ الشروح الأخرىٰ التي قام بها من لديهم نزعة أو انتماء صوفي .

٧ ـ محاولة ابن القيم في مقدمة مدارج السالكين وضع قواعد وأسس للسلوك الصحيح مبيناً ذلك حين أشار إلىٰ أنه يشرح ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ، ومقامات المتعبدين ، وليس شارحاً لمنازل السائرين ، ثم دخل دخولاً تدريجياً اتضح في ثنايا الكتاب أنه يشرح منازل السائرين مع مخالفته له في التقديم والتأخير والتسمية ، بل والزيادة علىٰ ما في المنازل من مقامات ، وهذا يؤكد انتماء المدارج للمنازل كشرح لمتن .

٨ ـ التشابه القوي بين الصوفية والأشاعرة من حيث القول بالجبر ونفي الحسن والقبح ، ومن طوىٰ الأسباب والعلل عطّل الأمر والنهي .

٩ ـ أن أكثر آفات الناس من الألفاظ المجملة والمشتبهة والألغاز الموهمة التي دخل منها الملحد وتعذر فهم المراد منها علىٰ الموحد ، فوقع الخلاف بين من يريد تبرأتهم ومن يريد تخطئتهم .

١٠ ـ تأثر الصوفية في معظم مصطلحاتهم بالمدارس الأخرىٰ كالغنوصية والهرمسية والفلاسفة ، وإن اختلف اللفظ فإن المعنىٰ المراد عند الجميع واحد .

١١ ـ أن هناك ألفاظاً ومصطلحات لا يعرف المراد منها إلا بمعرفة من يطلقها إذ لها علاقة بالقائل .

انتهيت من هذا البحث

في ١٨/ شوال/ ١٤٢١هـ

مدارج السالكين

بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين

للإمام ابن قيم الجوزية

محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

مكتبة المسجد النبوي الشريف
رقم الكتاب ١٢١٧٦٦
تاريخ التسجيل ١/٣/١٤٢٣هـ

دراسة وتحقيق

د. خالد بن عبد العزيز الغنيم

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة

بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية

الجزء الرابع

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ ـ ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض ـ شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (بن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – كلية أصول الدين – بالرياض

تمت مناقشة الأطروحة بتاريخ : ٢٤/ ٨/ ١٤٢٣هـ

وقد حصل الباحث علىٰ درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الثانية

المقدمة

وتشمل :

١- خطة البحث .

٢- النسخ الخطية ورموزها .

٣- منهج التحقيق .

مقدمة الجـزء الرابع

الحمد لله ، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعد :

فهذا الجزء الرابع من دراسة وتحقيق كتاب : «مدارج السالكين» لابن القيم - رحمه الله - ، والذي يبدأ من أول منزلة : الذكر ، إلىٰ آخر منزلة : التمكُّن ، وهذه مقدمة مختصرة لنصيبي في التحقيق أقتصر فيها علىٰ ذكر ما يتعلق بعملي من : خطة البحث ، وموضوعات الدراسة ، وعدد النسخ الخطية ، ورموزها التي اعتمدتها في التحقيق ، ومنهج التحقيق الذي سرت عليه.

*** خطة البحث :**

المقدمة : وتشمل علىٰ بيان :

أ - خطة البحث ومنهجي فيه.

ب - النسخ الخطية ، وذكر رموزها.

ج - منهجي في التحقيق.

القسم الأول : الدراسة. وتتضمن :

معارضات الإمام ابن القيم للهروي في كتاب منازل السائرين. جمع وعرض.

القسم الثاني : التحقيق. ويتضمن :

* تحقيق الكتاب ويشمل :

١- المقابلة بين النسخ الأصلية.

٢- عزو الآيات القرآنية.

٣- تخريج الأحاديث النبوية.

٤- عزو الآثار.

٥- عزو النقول إلىٰ مصادرها.

٦- بيان معاني الكلمات الغريبة.

٧- التعريف بالبلدان.

٨- الترجمة للأعلام غير المشهورين.

٩- التعريف بالملل والطوائف.

١٠- التعليق علىٰ المسائل التي تحتاج إلىٰ تعليق.

١١- الخاتمة.

* وصف النسخ الخطية :

تم تحقيق هذا الجزء من كتاب مدارج السالكين لابن القيم - رحمه الله تعالىٰ - من قوله : منزلة الذكر إلىٰ قوله : باب المكاشفة. من تسع نسخ خطية، وهي متفاوتة في تاريخ كتابتها ، وعدد أوراقها وتمامها وجودتها وإليك بيان ذلك :

النسخة الأولىٰ : نسخة (تشستربتي) بدبلن عاصمة إيرلندا؛ وهي مصورة علىٰ فلم في جامعة الإمام برقم [٣٦٢٧] ، وقد رمزت لها بالحرف [ش].

وهذه النسخة هي التي اخترتها أصلاً لأسباب منها :

١- قدم كتابتها.

٢- أنه كتب عليها أنها قوبلت علىٰ الأصل.

٣- تمامها وعدم خرمها إلا كلمات يسيرة.

٤- جودة كتابتها ووضوح خطها.

٥- وجود التعليقات وبيان المبهمات غالباً ووضع العناوين للمنازل.

٦- جودتها في تخليص المعنىٰ المراد عند اختلاف النسخ وموافقتها للنص الصحيح عند الإشكال غالباً.

٧- موافقتها غالباً في سياق المنازل لمتن كتاب : «سوريا» التي اعتمد عليها الزملاء الثلاثة السابقين فيها نقص كبير؛ لذا جعلت هذه هي الأصل الذي قابلت عليها جميع النسخ.

النسخة الثانية : نسخة سوريا ، في معهد التراث العربي في حلب كتبت سنة ٧٤١ هـ- فلم رقم ٤٨ ، ٤٩ ونسختها الأصلية في المكتبة العثمانية بحلب أيضاً تصوف رقم ٦٩٦ ، وقد رمزت لها بالرمز (س).

النسخة الثالثة : نسخة دار الكتب المصرية رقم [٨٧٤] تصوف؛ وهي مصورة عن النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب القومية ، وقد رمزت لها

بالرمز (أ).

النسخة الرابعة : نسخة دار الكتب المصرية رقم [٢٠٥٣١]؛ وقد رمزت لها بالرمز (ب).

النسخة الخامسة : نسخة دار الكتب المصرية رقم [١٠٣] تصوف قولة؛ ورمزت لها بالحرف [ق].

النسخة السادسة : نسخة أصلية في جامعة الإمام في مجلدين رقمهما [٨٧٨٧ ، ٨٧٨٨]؛ وهي التي رمزت لها بالرمز (ج).

النسخة السابعة : نسخة مصورة في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وأصلها من مكتبة أحمد الراشد في الغاط ، وأرقامها : [١٠٨٧٣ ، ١٠٨٧٤ ، ١٠٨٧٥] ، وهي التي رمزت لها بالرمز (غ).

النسخة الثامنة : نسخة المعهد العلمي بمدينة حائل تحت رقم [٨] ، وهي التي رمزت لها بالرمز (ح).

النسخة التاسعة : وهي المجلد الأول في المعهد العلمي بحائل علماً أنه لا صلة بين المجلد الأول والثاني ، وهي في المعهد العلمي رقمت بنفس الرقم للمخطوطة السابقة أي رقم [٨] ، وقد رمزت لها بالرمز (م).

علماً أنني قد أضفت رمزاً عاشراً وهو رمز (ط) ، وأعني بذلك المطبوعة؛ وهي طبعة دار الكتاب العربي بتحقيق الشيخ / محمد حامد الفقي ، رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر رحمه الله تعالىٰ.

لما في ذلك من الفائدة ، حتىٰ يطلع القارئ ، وتتضح له الفروق بين المخطوط والمطبوع ، حيث يوجد فيها أخطاء مطبعية ، وتصحيف لبعض الكلمات ، وسقط جمل؛ بل أحياناً أكثر من سطر.

وبعد هذا الوصف فإنه يمكن القول علىٰ سبيل الإجمال أن هذه الرموز يمكن تقسيمها إلىٰ قسمين من حيث كثرة الاتفاق وقلة الاختلاف :

فالقسم الأول : ويشمل س ، ش ، م ، ج ، ق حيث تتفق كثيراً.

والقسم الثاني : ويشمل ط ، أ ، ب ، غ ، ح حيث تتفق غالباً. وبالنظر في التحقيق فيما سيأتي يتبين ما سبق ذكره وأكثر.

*** منهجي في التحقيق :**

فقد قمت بالمقابلة بين النسخ التي حصلت عليها ، وأثبت النص الصحيح متبعاً في ذلك منهجاً ألخصه بما يلي :

١- اعتمدت نسخة (شستربتي) أصلاً.

٢- لا أغير نصها إلا إذا غلب علىٰ الظن أن غيرها أصح منها وثبت ذلك عندي - بعد التأمل - فأثبته مع الإشارة بالهامش إلىٰ ذلك ، وإذا كان فيها نقص فإني أضعه في الأصل بين معكوفين هكذا [ ] مع الإشارة إلىٰ ذلك في الهامش.

٣- أثبتُّ الفروق بين النسخ في الهامش مع فروق المطبوعة والتي رمزت

لها بـ (ط).

٤- بالنسبة للأخطاء في الآيات فإني أذكرها صحيحة في الأصل دون الإشارة إليه في الهامش.

٥- قمتُ بعزو الآيات التي مواضعها (اسم السورة ورقم الآية) وأجعل ذلك في أصل الكتاب بعد الآية أو الآيات مباشرة بين المعكوفين والآيات التي يتكرر ورودها في مواضع متقاربة فقد أغفل العزو إليها في المواضع اللاحقة القريبة لعدم الحاجة لذلك.

٦- قمتُ بتخريج الأحاديث والآثار من كتب السنة فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما ، فإني أكتفي بهما غالباً وأعزوه إلىٰ موضع واحد من مواضع وروده ، وربما أخرجه غيرهما أحياناً ، وإن لم يكن في الصحيحين أو في أحدهما فإني أخرجه من كتب السنة الأخرىٰ ما أمكن مع ذكري لبعض من حكم عليه بصحة أو حسن أو ضعف.

٧- قمتُ بالتعليق علىٰ ما يحتاج إلىٰ تعليق.

٨- وأما الزيادات التي تسبق النصوص أو تلي الأعلام مثل : سبحانه، تعالىٰ، رضي الله عنه ، ونحوها من الفروق التي لا تغير المعنىٰ فإني أثبت ما في المخطوطة الأصل ولا أضيف عليها ما كان في النسخ الأخرىٰ ولا أشير إليها في الهامش لكثرة الاختلاف فيها مع كونها لا تضر بالمعنىٰ.

٩- قمت بتوثيق النصوص التي ينقلها المؤلف إلىٰ مصادرها ما أمكن ذلك.

١٠- قمت بالتعريف بما يلزم التعريف به كالأعلام والأمكنة والفرق والمصطلحات والكلمات الغريبة ويكون التعريف بذلك في أول وروده غالباً. وقد أترك ذلك قصداً ؛ لأن المؤلف سيذكره فيما بعد ويبسط الحديث عنه ، فأرىٰ تأخيره. وهذا قليل.

١١- في ذكر المراجع في الهامش قد أذكر المرجع مختصراً فأقول مثلاً (الاقتضاء) وأقصد (اقتضاء الصراط المستقيم) أو أذكره بوصف لا يلتبس بغيره فأقول مثلاً تفسير ابن كثير. وإذا قلت انظر : كتاب (الطبقات) فالمقصود (الطبقات الكبرىٰ) للشعراني، وإذا قلت (الرسالة) فالمقصود (الرسالة القشيرية).

١٢- قمت بوضع مسمىٰ لكل منزلة قبل الحديث عنها بين معكوفين. علماً أن مخطوطات الكتاب يوجد فيها هذا العنوان ، ولكن علىٰ جانب المخطوطة ، كما أنه يوجد اختلاف بينها فتارة بلفظ منزلة وأخرىٰ بلفظ باب ، وقد يوجد هذا الاختلاف في المخطوطة الواحدة فوضعته بلفظ واحد وهو (منزلة) لأجل مناسبة التسمية في متن : (منازل السائرين).

١٣- قمت بوضع عناوين جانبية لمحتوىٰ النص.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

د. خالد بن عبدالعزيز الغنيم

القصيم - بريدة

القسم الأول

الدراســـة

وتتضمن :

معارضات الإمام ابن القيم للهروي في كتاب منازل السائرين (جمع وعرض) .

تمهيد

قبل الحديث عن معارضات ابن القيم للهروي لعلي أقدم بمقدمة موجزة حول التعريف بالهروي رحمه الله، وأنقل بعض ما قيل عنه، وذلك ليعلم أن الإمام ابن القيم - رحمه الله - لم يكن متحاملاً عليه فيما عارضه به؛ بل كان منصفاً؛ بل إنه يذكر لكلامه عدة احتمالات معتذراً له في بعض الأحيان.

الإمام الهروي:

*** نسبه ومولده ووفاته:**

الإمام الهروي نسبه ومولده ووفاته

هو الإمام الحافظ أبو إسماعيل عبدالله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن علي بن جعفر بن منصور بن متَّ الأنصاري الهروي الملقب بشيخ الإسلام. ولد في شعبان سنة ٣٩٦هـ وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٨١ هـ في مدينة هراة وهي المدينة التي ولد فيها (١).

*** بعض ما قيل عنه:**

تكلم كثير من العلماء عن الإمام الهروي - رحمه الله - وأثنوا على جهوده في نصرته للسنة، والرد على أهل البدع، وبينوا ما جرى له بسبب ذلك من

---

(١) انظر: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٥٠ -٦٧، وشذرات الذهب ٣/ ٣٦٥-٣٦٦، وشيخ الإسلام عبدالله الأنصاري ص١٣-٩٣، والمنهج الأحمد ٢/ ١٥٧.

محن عظيمة ، ومن ذلك قوله المشهور : «عرضت علىٰ السيف خمس مرات ، لا يقال لي : ارجع عن مذهبك ، ولكن يقال لي : اسكت عمن خالفك ، فأقول لا أسكت» (١). وغير ذلك من النقول التي تبين إمامته ومنزلته.

وليس القصد هنا بيان ذلك ، وإنما أريد الوقوف علىٰ بعض ما قيل عن أخطائه وزلاته وذلك حتىٰ يعذر ابن القيم - رحمه الله - فيما سأذكره عنه فيما بعد فإليك شيئاً من ذلك :

قال في تذكرة الحفاظ : «قلت : تخرج به خلق كثير ، وفسر القرآن مدة وفضائله كثيرة ، ورأيت أهل الاتحاد يضمون كلامه في منازل السائرين ، ويدعون أنه موافقهم ، ذائق لوجدهم ، ورامز لتصوفهم الفلسفي ، وأنىٰ ذلك وهو من دعاة السنة وعصبة آثار السلف ، ولا ريب أن في منازل السائرين أشياء من محط المحو والفناء ، وإنما مراده بذلك الفناء : الغيبة عن شهود السوىٰ ولم يرد عدم السوىٰ في الخارج. وفي الجملة هذا الكتاب لون آخر غير الإنموذج الذي أصفق (٢) عليه صوفية التابعين ، ودرج عليه نساك المحدثين والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم» (٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : «وأما أبو إسماعيل الأنصاري

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨٤.

(٢) أصفق : أي اجتمعوا عليه. انظر : لسان العرب ٢/ ٤٥٢.

(٣) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨٤ و ١١٨٥.

صاحب (منازل السائرين) فليس من كلامه شيء من الحلول العام؛ لكن في كلامه شيء من الحلول الخاص في حق العبد العارف الواصل إلىٰ ما سماه هو: (مقام التوحيد)» .

وقال في موضع آخر: «وقد وقع في ذلك طائفة من الصوفية حتىٰ صاحب (منازل السائرين) في توحيده المذكور في آخر المنازل في مثل هذا الحلول»(١).

وقال في منهاج السنة: «وقد ذكر في كتابه (منازل السائرين) أشياء حسنة نافعة، وأشياء باطلة. ولكن هو فيه ينتهي إلىٰ الفناء في توحيد الربوبية، ثم إلىٰ التوحيد الذي هو حقيقة الاتحاد»(٢).

ولعله من المناسب بعد هذا أن نختم الحديث بما قاله الإمام ابن القيم عن الهروي من الثناء عليه، فمما قاله فيه - رحمه الله - بعد حديثه عن أهل وحدة الوجود: «لكن صاحب المنازل بريء من هؤلاء وطريقتهم، وهو مكفّر لهم؛ بل مخرج لهم من جملة الأديان، ولكن ذكرنا ذلك؛ لأنهم يحملون كلامه عليه، ويظنونه منهم»(٣).

وقال أيضاً في الدفاع عنه: «وصاحب المنازل - رحمه الله - كان شديد الإثبات للأسماء والصفات، مضاداً للجهمية من كل وجه، وله كتاب

(١) الفتاوى ٥/ ٤٨٥ و ٥/ ٢٣٠.

(٢) منهاج السنة النبوية ٥/ ٣٤٢.

(٣) المدارج ١/ ٢٢٩.

(الفاروق) استوعب فيه أحاديث الصفات وآثارها لم يسبق إلىٰ مثله، وكتاب (ذم الكلام وأهله) طريقته فيه أحسن طريقة. وكتاب لطيف في أصول الدين يسلك فيه طريقة أهل الإثبات ويقررها. وله مع الجهمية المقامات المشهودة، وسعوا بقتله إلىٰ السلطان مراراً عديدة، والله يعصمه منهم، ورموه بالتشبيه والتجسيم، علىٰ عادة بَهْت الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث، الذين لم يتحيزوا إلىٰ مقالة غير ما دل عليه الكتاب والسنة»(١).

وقال أيضاً في الرد علىٰ من حمل كلامه علىٰ غير مراده وبعد بيانه للمعنىٰ الحق: «وهذا المعنىٰ حق. وهو أولىٰ بهذا الإمام العظيم القدر مما يظنه به طائفة الاتحادية والحلولية وإن كانت كلماته المجملة شبهة لهم، فسنته المفصلة مبطلة لظنهم»(٢).

ومن خلال ما تقدم من النقول يتبين لنا أنّ سبب دفاع ابن القيم عن الهروي وهو تبيان مراده الصحيح، وذكر الاحتمالات لكلامه ما وجد لذلك سبيلاً، حيث إن أهل الباطل حاولوا جاهدين في ضم الإمام الهروي إلىٰ صفهم، وجعلوه ناطقاً بلسانهم، ومعبراً عن معتقداتهم، وأنه يقول بالاتحاد.

ويدافع ابن القيم ضد ذلك، بعد وقوفه علىٰ بعض شروحهم لكتابه المنازل(٣)،

---

(١) المدارج ١/ ٢٦٣ و ٢٦٤.

(٢) المدارج ٣/ ٥٢٠.

(٣) انظر: المدارج ١/ ٢٦٤ و ٢٦٥.

ولما عرفه ويعرفه عن الإمام الهروي - رحمه الله - حيث يقول : «والله يشكر لشيخ الإسلام سعيه ، ويعلي درجته ، ويجزيه أفضل جزائه ، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته ، فلو وجد مريده سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه ، واعتراض كلامه لما فعل ، كيف وقد نفعه الله بكلامه؟ وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه ، وهو أحد من كان علىٰ يديه فتحة يقظة ومناماً؟»[1].

* الدافع من ذكر هذه المعارضات :

١ - إن المتصفح لكتاب مدارج السالكين يجد هذه المعارضات كثيرة جداً وهي متفاوتة في موضوعها ، وموزعة في الكتاب قد يتعذر جمعها في وقت يسير ، فكان هذا دافعاً من الدوافع علىٰ جمعها وترتيبها ومعرفتها والاطلاع عليها.

٢ - كثرة وتناقض الأقوال حول شخصية الهروي بين مادح وذام ومتوسط ، وإخراج مثل هذا العمل بمنهجية علمية يزيل الإيهام ويكشف الالتباس ويساهم في تبني العدل والصدق في الحكم علىٰ المقالات والأشخاص.

٣ - أن المتحدث عن الهروي ذو معرفة وبصيرة بالهروي نفسه ، أضف إلىٰ ذلك ما عرف عن ابن القيم من علم وتقوىٰ وعدل وإنصاف ، كما أنه من أبرز وأجود من تحدث عن التصوف وأخطائه وشطحاته والحكم عليه.

---

(١) المدارج ١/ ٥٢ ، وانظر مزيداً من الثناء عليه والاعتذار له في المدارج ١/ ١٩٨ و ٢/ ١٣٧ و٢٤٩ و ١/ ٢٥٩ و ٤٩ و ٥٠ و ٣/ ٢٣٤ و ٢٣٥.

ويتضح من عرض هذه الأسباب أن المقصود من ذكر هذه المعارضات ليس الطعن والتحقير للإمام الهروي ، وإنما كما أسلفت لبيان وجه الصواب ، والحذر من الزلل ، والاستفادة من أقوال ابن القيم وتصويباته ، والوقوف عليها مجتمعة ومرتبة في موضع واحد.

* معارضات ابن القيم للهروي :

بالنظر إلىٰ مجموعة معارضات ابن القيم للهروي فإننا نجد أنها كلها ترجع إلىٰ أن تكون معارضات صريحة لا يذكر ابن القيم - رحمه الله - للهروي أي احتمال لكلامه ، أو معارضات مشفوعة بذكر ما قد يحتمله. وهذه المعارضات علىٰ أقسام وهي : معارضات ابن القيم للهروي

أولاً : معارضات عامة علىٰ الهروي.

ثانياً : معارضات علىٰ المنازل.

ثالثاً : معارضات في التفريق والتقسيم والتعبير.

رابعاً : معارضات في مباحث متعددة.

وقبل البدء بعرض هذه المعارضات أحب أن أنبه أن هذا التقسيم لا يلزم منه عدم التداخل بين هذه الأقسام المذكورة ، فقد تكون واحدةً من المعارضات لها صلة بأكثر من قسم ، ولا يعني ذلك عدم ذكرها في الأقسام الأخرىٰ بل قد ترد المعارضة في أكثر من قسم وذلك نظراً لتنوع النقد

والمعارضة علىٰ كلمة واحدة [١] إلا أن هذا ليس بالكثير.

أولاً: معارضات عامة على الهروي

أولاً: معارضات عامة علىٰ الهروي:

وأنبه في هذا الموضوع أنني أذكر هذه المعارضات مكتفياً بها وقلّما أعقب أو أعلق، وربما اكتفيت أحياناً بقولي: قد لا يوافق ابن القيم فيما ذكره عن الهروي، وذلك إشارة إلىٰ أن الأمر لا يحتمل فيه الاعتذار للهروي.

قال ابن القيم عن الهروي: «فرحمة الله علىٰ أبي إسماعيل. فتح للزنادقة باب الكفر والإلحاد، فدخلوا منه وأقسموا بالله جهد أيمانهم: إنه لمنهم. وما هو منهم. وغرّه سراب الفناء، فظن أنه لجُة بحر المعرفة، وغاية العارفين، وبالغ في تحقيقه وإثباته، فقاده قَسْراً إلىٰ ما ترىٰ..» إلىٰ أن قال: «وحاشا شيخ الإسلام من إلحاد أهل الاتحاد، وإن كانت عبارته موهمة؛ بل مفهمة ذلك، وإنما أراد بالجحد: في الشهود، لا في الوجود أي يجحده أن يكون مشهوداً، فيجحد وجوده الشهودي العلمي، لا وجوده العيني الخارجي...» [٢].

وقال - رحمه الله - علىٰ قول الهروي في اللطيفة الثالثة من لطائف أسرار التوبة: «هذا الكلام - إن أخذ علىٰ ظاهره - فهو من أبطل الباطل، الذي لولا إحسان الظن بصاحبه وقائله، ومعرفة قدره من الإمامة والعلم والدين، لنُسب

---

(١) انظر: المدارج ٣/ ٣٩٢ - ٤١٠، في معارضته على باب التلبيس.

(٢) المدارج ١/ ١٤٨ و ١٤٩، وانظر: كلام المؤلف عن الفناء وأقسامه والممدوح منه والمذموم ١/ ١٥٤.

إلىٰ لازم هـذا الكـلام. ولكـن مـن عـدا المعـصوم ﷺ فمـأخوذ مـن قولـه ومتروك...»[١].

وقال أيضاً بعد ثنائه عليه : « ولكنه - رحمه الله - كانت طريقته في السلوك مضادة لطريقته في الأسماء والصفات : فإنه لا يقدم علىٰ الفناء شيئاً. ويراه الغاية التي يشمّر إليها السالكون ، والعَلَم الذي يؤمُّه السائرون. واستولىٰ عليه ذوق الفناء ، وشهود الجمع ، وعظم موقعه عنده. واتسعت إشاراته إليه ، وتنوعت به الطرق الموصلة إليه ، علماً وحالاً وذوقاً ، فتضمن ذلك تعطيلاً من العبودية ، بادياً علىٰ صفحات كلامه. وزان تعطيل الجهمية لما اقتضته أصولهم من نفي الصفات»[٢].

وقال في تقديره لشيخ الإسلام (الهروي) ، وتقديم الحق عليه : «شيخ الإسلام حبيب إلينا ، والحق أحب إلينا منه ، وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك ، ونحن نحمل كلامه علىٰ أحسن محامله ثم نبين ما فيه» .

إلىٰ أن قال : « والذي أوجب للشيخ هذا القدر : الاسترسال في القدر ، والفناء في شهود الحقيقة الكونية، فإنه من الراسخين فيه الذين لا تأخذهم فيه لومة لائم، وهو شديد في إنكار الأسباب ، وهذا موضع زلت فيه أقدام أئمة

---

(١) المدارج ١/ ٢٢٧.

(٢) المدارج ١/ ٢٦٤ ، وانظر ١/ ٤٦٤.

أعلام ، ولولا أن حَقَّ الحقِّ أوجب من حقِّ الخلق لكان في الإمساك فسحة ومتسع»(١).

ثانياً : معارضات علىٰ المنازل :

ثانياً : معارضات على المنازل

تحدث ابن القيم - رحمه الله - عن المنازل ، وبيَّن الأولىٰ والأحسن في ترتيبها وأن الناس متفاوتون في حصرها؛ بل وفي الكلام عليها ، كما بين أن بعض المقامات يكون جامعاً لمقامين أو أكثر... إلىٰ آخر ما ذكره - رحمه الله -.

ولكن له كلام خاص ، ومعارضات صريحة حول هذا الموضوع معترضاً بها علىٰ الهروي في كتابه منازل السائرين وإليك أمثلة علىٰ ذلك :

١ - معارضات في العدد :

معارضات في العدد

تحدث الهروي في أول كتابه منازل السائرين وبيّن أنه جعله مائة مقام مقسومة إلىٰ عشرة أقسام(٢).

وعلىٰ هذا وأمثاله قال ابن القيم في كتابه المدارج : « ولأرباب السلوك اختلاف كثير في عدد المقامات وترتيبها ، كلٌ يصف منازل سيره وحال توكله»(٣).

---

(١) المدارج ٢/ ٣٧ و ٤٤ ، وانظر : ٣/ ٣٩٤ و ٤٠٠.

(٢) انظر : منازل السائرين ٥.

(٣) المدارج ١/ ١٣٥.

وقال أيضاً : «فالأولىٰ الكلام في هذه المقامات علىٰ طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلاماً مطلقاً في كل مقام مقام... فكلام أئمة الطريق علىٰ هذا المنهاج...» إلىٰ أن قال : «فإنهم تكلموا علىٰ أعمال القلوب ، وعلىٰ الأحوال كلاماً مفصلاً جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب ولا حصر للمقامات بعدد معلوم»[1].

كونها منزلة أو ليست منزلة

٢ - كونها منزلة أو ليست منزلة :

اعترض ابن القيم علىٰ الهروي في عدة مواضع من كتابه بسبب وصف الهروي للمنزلة بأنها من منازل السائرين. ومخالفة ابن القيم له بنفي ذلك ، أو أنها ليست من المنازل المطلوبة المرغوبة ، ومن الأمثلة علىٰ ذلك ما يلي :

* اعتراض علىٰ كونها منزلة :

لما قال الهروي في المنازل : «ومن منازل : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ منزلة الحزن».

قال ابن القيم معترضاً : «وليست من المنازل المطلوبة : ولا المأمور بنزولها، وإن كان لا بد للسالك من نزولها. ولم يأت (الحزن) في القرآن إلا منهياً عنه أو منفياً...» إلىٰ أن قال : «فالحزن ليس بمطلوب ، ولا مقصود ، ولا فيه

(١) المدارج ١/ ١٣٨ و ١٣٩ ، وانظر أيضاً ١/ ٤٣٣.

فائدة...»[١].

وقال عن منزلة الهيمان: «وليس ذلك من مقامات السير، ولا منازل الطريق المقصودة بالنزول فيها للمسافرين، خلافاً لصاحب المنازل حيث عدَّ ذلك من أعلىٰ المنازل وغاياتها، وعبر عنه بمنزلة «الهيمان» ولهذا ليس له ذكر في القرآن، ولا في السنة، ولا في لسان سلف القوم....»[٢].

وفي منزلة (المراد) قال: «وفي الحقيقة فكل مريد مراد... إلىٰ أن قال: وإن منهم من اكتفىٰ عن ذكر مقام المراد بمنزلة الإرادة؛ لأن صاحبها مريد ومراد»[٣].

- وقال عن منزلة الدهش: «وليست من منازل السلوك خلافاً لأبي إسماعيل الأنصاري حيث جعلها من المنازل: بل من غاياتها»[٤].

وقال عن باب التلبيس: «لعمر الله لقد كان في غنية عن هذا الباب، وعن هذه التسمية، ولقد أفسد الكتاب بذلك...»[٥].

*** اعتراض علىٰ كونها ليست بمنزلة:**

وهذا النوع لم أجد له إلا مثالين فقط:

---

(١) المدارج ١/ ٥٠٥ و ٥٠٦، وانظر: منازل السائرين ٢٥.

(٢) المدارج ٣/ ٧٩، ومنازل السائرين ٩٦.

(٣) المدارج ٢٤٥٢ و ٢٤٥٣، ومنازل السائرين ٧٣.

(٤) المدارج ٣/ ٧٥، منازل السائرين ٩٥.

(٥) المدارج ٣/ ٤٠٠، منازل السائرين ١٣٠.

أحدهما : يوافق فيه الهروي من وجه ويخالفه من وجه آخر حيث يعلق علىٰ قول الهروي في حديثه عن النوع الأول من أنواع النفَس «وهي الظلمة التي قالوا : إنها مقام».

فقال ابن القيم - رحمه الله - : «والشيخ كأنه لا يرىٰ ذلك مقاماً...» إلىٰ أن قال : «والتحقيق في ذلك : أن له وجهين : هو من أحدهما : ظلمة ووحشة. ومن الثاني : مقام. فهو باعتبار الحال وباعتبار نفسه ليس مقاماً. وباعتبار المآل وما يترتب عليه وما فيه من تلك الحكم والفوائد المذكورة فهو مقام. وبالله التوفيق»[1].

المثال الثاني : ذكره لمنزلة لم يتحدث عنها الهروي ولم يعدها منزلة من منازل السائرين - في كتابه المنازل - وهي منزلة (المروءة) وابن القيم ذكرها من منازل السائرين وتكلم عنها بعد منزلة الفتوة وقبل منزلة الانبساط[2].

* * *

٣ - معارضات في الاستدلال والتفسير :

معارضات في الاستدلال والتفسير

ومما يتصل بالمعارضات علىٰ المنازل، معارضاته في الاستدلال والتفسير، فتجده يقول تعليقاً علىٰ استدلال الهروي : وما أبعد الآية من استشهاده ، أو

---

(١) المدارج ٣/ ١٩٠ ، ومنازل السائرين ١٧٠.

(٢) المدارج ٢/ ٣٥١ - ٣٥٤ ، وانظر : منازل السائرين ٦٢.

يقول : ليته لم يستشهد بهذه الآية. ونحو ذلك .

* ومن الأمثلة علىٰ ذلك ما يلي :

- قال في منزلة الهيمان : «وقد تكلف له صاحب المنازل الاستشهاد بقوله تعالىٰ :﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [سورة الأعراف : ١٤٣] وما أبعد الآية من استشهاده. وكأنه ظن أن موسىٰ ذهب عن تماسكه لما ورد عليه في حالة الخطاب والتكليم الإلهي ، فأورثه ذلك هيماناً صعق منه ، وليس كما ظنه ، وإنما صعق موسىٰ عند تجلّي الرب تعالىٰ للجبل واضمحلاله وتدكدكه من تجلي الرب تعالىٰ...» (١).

- وقال في منزلة الذكر حينما قال الهروي : «قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [سورة الكهف : ٢٤] يعني : إذا نسيت غيره ، ونسيت نفسك في ذكرك ، ثم نسيت ذكرك في ذكره ، ثم نسيت في ذكر الحق إياك كل ذكر».

قال تعليقاً علىٰ ذلك : «ليته - قدس الله روحه - لم يقل (٢) ، فلا والله ما عنىٰ الله هذا المعنىٰ ، ولا هو مراد الآية ، ولا تفسيرها عند أحد من السلف ولا من الخلف.

وتفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء: افعل كذا وكذا حتىٰ

---

(١) المدارج ٣/ ٧٩ ، منازل السائرين ٩٦.

(٢) ما زال الكلام لابن القيم ويقصد لم يقل كلامه السابق من أن ذلك هو المعنى.

تقول : إن شاء الله ، فإذا نسيت أن تقولها فقلها متىٰ ذكرتها ، وهذا هو الاستثناء المتراخي، الذي جوزه ابن عباس، وتأول عليه الآية . وهو الصواب»[1].

– وقال في (باب السكر) قال الله تعالىٰ حاكياً عن موسىٰ كليمه : ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وبعد بيان مراد الهروي من الآية قال : «وهذا المعنىٰ لم يعبر عنه في القرآن ولا في السنة ، ولا العارفون من السلف بالسكر أصلاً. وإنما ذلك في اصطلاح المتأخرين ، وهو بئس الاصطلاح ، فإن لفظ السكر والمسكر من الألفاظ المذمومة شرعاً وعقلاً ، وعامة ما يستعمل : في السكر المذموم الذي يمقته الله ورسوله» إلىٰ أن قال : «فلا يليق استعماله في أشرف الأحوال والمقامات ، ولا سيما في قسم الحقائق ، ولا يطلق علىٰ كليم الرحمن اسم السكر في تلك الحال ، والاصطلاحات لا مشاحة فيها. إذا لم تتضمن مفسده...»[2].

– وقال في منزلة الانبساط : «وقد غلط صاحب المنازل حيث صدرها بقوله تعالىٰ : ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وكأنه فهم من هذا الخطاب : انبساطاً بين موسىٰ وبين الله تعالىٰ. حمله علىٰ أن قال : ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾.... وكل هذا وهم ، وفهم خلاف المقصود. فالفتنة ههنا : هي الامتحان والاختبار...

(١) المدارج ٢/ ٤٣١ ، منازل السائرين ٧٠.

(٢) المدارج ٣/ ٣٠٥ و ٣٠٦ ، منازل السائرين ١٢.

والمعنىٰ: أن هذه الفتنة اختبار منك لعبدك، وامتحان تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء، فأي تعلق لهذا بالانبساط؟ وهل هذا إلا توحيد، وشهود للحكمة، وسؤال للعصمة والمغفرة؟ وليس للعارف في هذه المنزلة حظ مع الله. وإنما هي متعلقة بالخلق»[١].

- وقال في منزلة القلق عن صاحب المنازل: «واستشهد عليه بقوله تعالىٰ حاكياً عن كليمه موسىٰ ﷺ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] فكأنه فهم إنما حمله عليها القلق، وهو تجريد الشوق للقائه وميعاده.

وظاهر الآية: أن الحامل لموسىٰ علىٰ عجله: هو طلب رضىٰ ربه، وأن رضاه في المبادرة إلىٰ أوامره والعجلة إليها...»[٢].

- وقال صاحب المنازل في باب الاتصال: «قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [سورة النجم: ٨ و ٩] آيس العقول فقطع البحث بقوله ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾» ثم قال ابن القيم - رحمه الله -: «كأن الشيخ فهم من الآية: أن الذي دنىٰ فتدلىٰ، فكان - من محمد ﷺ -قاب قوسين أو أدنى هو الله عز وجل. وهذا - وإن قاله جماعة من المفسرين - فالصحيح أن ذلك هو جبريل - عليه السلام -» ثم ذكر ستة عشر وجهاً في الدلالة علىٰ أن المقصود به جبريل - عليه السلام -، ثم قال تعليقاً علىٰ قوله (آيس العقول)

---

(١) المدارج ٢/ ٤٥٣ و ٣٥٥، منازل السائرين ٦٢.

(٢) المدارج ٣/ ٥٩، ومنازل السائرين ٩٢ و ٩٣.

والتي ذكرها بعد قوله تعالىٰ ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ : «يعني : أن العقول لا تقدر أن تثبت علىٰ معرفة اتصال هو أدنىٰ من قاب قوسين. وهذا بناء علىٰ ما فهمه من الآية ، وإلا فالعقول غير آيسة من دنو رسوله الملكي من رسوله البشري ، حتىٰ صار في القرب منه قاب قوسين أو أدنىٰ من قوسين. فإنه دنو عبد من عبد ، ومخلوق من مخلوق»(١).

وقد تكرر الاعتراض عليه في الاستدلال والتفسير في عدة منازل ، يعلق فيها ابن القيم فيقول : إن هذا سببه تعلق صاحب المنازل بإشارة الآية لا بالمراد منها ، أو يقول : جعل ذلك بلسان الاعتبار لا بلسان التفسير ، ونحو ذلك من العبارات. ومن هذه المنازل التي خالف فيها ابن القيم للهروي «منزلة الرضىٰ ، والشوق ، والعطش ، والأنس ، والذوق ، والمعاينة ، والقبض ، والفناء ، والبقاء ، والوجود ، والجمع»(٢).

* * *

معارضات في ترتيب المنازل

٤ - معارضات في ترتيب المنازل :

تقدم قبل قليل عند الحديث علىٰ المعارضات في عدد المنازل اختيار ابن القيم - رحمه الله - : أن الأولىٰ الحديث عن هذه المنازل واحدة واحدة من

(١) المدارج ٣/ ٣١٩ - ٣٢٢ ، ومنازل السائرين ١٢٢.

(٢) انظر : الإحالة على ما سبق حسب ترتيبها ٢/ ١٧٨ ، ٣/ ٥٥ ، ٦١ ، ٢/ ٤٢١ ، ٣/ ٨٩ ، ٢٤٥ ، ٢٩٢ - ٢٩٣ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٨٤ ، ٤١٠ ، ٤١١.

غير تقييد بعدد أو ترتيب.

ولكن لما كان الهروي - رحمه الله - قد تحدث عن هذه المنازل مرتباً لها ومقدماً بعضها علىٰ بعض علىٰ حسب ما يراه، كان ذلك سبباً في الاعتراض عليه وتبيين وجه الصواب في ذلك: فقد عارضه ابن القيم - رحمه الله - في تقديمه للتوبة علىٰ المحاسبة وبين أن المحاسبة قبل التوبة؛ بل إنها بين محاسبتين، محاسبة قبلها تقتضي وجوبها، ومحاسبة بعدها تقتضي حفظها[1].

وكذلك عارضه بقوله: إن الجمع والفناء غاية مقام السالكين. وبين أن الصواب أن التوبة هي الغاية[2].

كما تكرر معارضته للهروي في تقريره أن الفناء أعلىٰ المقامات، في حديثه عن الشهود والبقاء، وأنه أعلىٰ من الفناء، وأن المكاشفة فوق المشاهدة[3]. وكذا في حديثه عن الرضا وأنه فوق الفناء خلافاً للهروي؛ بل خالفه في ترتيب درجات الرضا، وبين أن الدرجة الأولىٰ وهي الرضا بالله رباً أعلىٰ شأناً وأرفع قدراً من الدرجة الثانية وهي الرضا عن الله[4].

ومثل هذه المخالفة ذكرها في درجات الصبر؛ بل وعارضه في قوله: إن

---

(١) المدارج ١/ ١٣٣، منازل السائرين ١٣ - ١٦.

(٢) انظر: المدارج ٣/ ٢١٢ و ٢١٣ و ٤٣٤ و ٤٣٥، منازل السائرين ص١٢٨ و١٣٤.

(٣) انظر: المدارج ٣/ ١٨٣ - ١٨٥ و ٢٣٢ - ٢٣٤، منازل السائرين ص١٢٨ و١٢٩.

(٤) انظر: المدارج ٢/ ١٨٠ و ١٨٣، منازل السائرين ص٥١ و ٥٢.

الصبر من أصعب المنازل علىٰ العامة. حيث قال في الرد عليه : «بل الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة وألزمها للمحبين ، وهم أحوج إلىٰ منزلته من كل منزلة ، وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبينها ، وحاجة المحب إليه ضرورية» (١).

وتحدث عن التوكل ، وبين أنه أعلىٰ وأرفع من التفويض ، وأنه قبل الإنابة ، ونقد الهروي بقوله : إنه أوهىٰ السبل عند العامة. حيث قال : «بل هو أجل السبل عندهم وأفضلها وأعظمها قدراً» (٢).

وتحدث عن العلم والمعرفة ، وبين أن العلم مقدم علىٰ المعرفة خلافاً للهروي ، وقد تكرر ذلك مراراً (٣).

وقد يطول بنا الحديث لو تتبعنا هذه المعارضات بضرب الأمثلة والاستشهاد ولعلي باختصار أشير إلىٰ البقية إشارات سريعة فأقول ، ومنها :

- تحدث عن التوحيد وبين أنه أولىٰ المقامات أن يبدأ به (٤).

- نقد قوله : الذوق أبقىٰ من الوجد (٥).

---

(١) انظر : المدارج ٢/ ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٨ و ١٦٩ ، منازل السائرين ص٤٩ و ٥٠.

(٢) انظر : المدارج ٢/ ١٢٧ ، وانظر : ١/ ١٣٤ و ٢/ ١٣٩ ، منازل السائرين ص٤٣ - ٤٥.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٢٣٧ و ٣٣٤ و ٣٣٥ و ٤١٧ - ٤٢١.

(٤) انظر : المدارج ١/ ١٣٤ ، وذكره صاحب المنازل في آخر كتابه.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٩٠ ، منازل السائرين ٩٩.

- بَيَّن أن المحبة أعلىٰ من الفناء [١].

- خالفه في منزلة الحياة. في الحياة الثالثة وأنفاسها حيث جعل الأول هو الأعلىٰ [٢].

- بيّن أن القصد والعزم متقدم علىٰ كل المنازل [٣].

- نقد قوله : الإلهام فوق مقام الفراسة ، وبين أن خاص كل منهما فوق عام الآخر ، وأن الفرق الصحيح أن الفراسة تتعلق بنوع كسب وتحصيل ، وأما الإلهام فموهبة مجردة لا تنال بكسب ألبتة [٤].

- نقد قوله : إن الرجاء أضعف منازل المريدين [٥].

- رد علىٰ قوله : إن الشكر من أضعف السبل [٦].

* * *

معارضات في علل المنازل

٥ - معارضات في علل المنازل :

الحديث عن علل المنازل حديث طويل ، إذا أردنا تتبع المنازل والوقوف علىٰ معارضات ابن القيم للهروي في هذا الموضوع تفصيلاً ، وهذا ليس هو

(١) انظر : المدارج ٣/ ٣٤ - ٤٠ ، ومنازل السائرين ص١٢٧ و ١٢٨.
(٢) انظر : المدارج ٣/ ٢٩٠ و ٢٩٢ منازل السائرين ص١١٧.
(٣) انظر : المدارج ١/ ١٣٤ ، منازل السائرين ص٦٤ و ٦٥.
(٤) انظر : المدارج ١/ ٤٥ ، منازل السائرين ٨٢.
(٥) انظر : المدارج ٢/ ٤١ ، منازل السائرين ٣٣.
(٦) انظر : المدارج ٢/ ٢٤٩ ، منازل السائرين ٥٣.

المقصود هنا ، وإنما المقصود بيان المعارضات علىٰ علل المنازل إجمالاً ، وأما التفصيل فقد تقدم البعض منها ، وسيأتي بقيتها في أثناء عرض بقية المعارضات. وما أكثر معارضة ابن القيم للهروي عند قوله : «وهي من منازل العامة» أو قوله : «وهي من أوهىٰ السبل» أو قوله : «وهي من أصعب المنازل» ونحو ذلك من المعارضات التي مبناها علىٰ أن هذه المنزلة معلولة. ولابن القيم - رحمه الله - كلاماً جامعاً بيّن فيه أن المنازل عللها ثلاث ، وضرب مثالاً لوجود هذه العلل في حديثه عن التوكل. وهذه العلل هي :

الأولىٰ : أن يترك ما أمر به من الأسباب استغناءً بالتوكل عنها. وقال : فهذا توكل عجز وتفريط وإضاعة لا توكل عبودية وتوحيد.

العلة الثانية : أن يتوكل في حظوظه وشهواته دون حقوق ربه.

العلة الثالثة : أن يرىٰ توكله منه ، ويغيب بذلك عن مطالعة المنة وشهود الفضل ، وإقامة الله له في مقام التوكل[١].

وقد صنّف الهروي كتاباً في علل المقامات[٢] بيّن فيه العلل التي تلحق أغلب المنازل[٣].

---

(١) انظر : المدارج ٣/ ٤٧٧ - ٤٨٠.

(٢) طبع هذا الكتاب ضمن كتاب شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري ص٢٩١ - ٢٩٥ ، وطبع قبل ذلك في دمشق سنة ١٩٥٦م انظر المرجع السابق ١٠٧.

(٣) ولابن القيم : رد على ابن العريف الذي تأثر بكلام الهروي في علل المقامات ، انظر : طريق الهجرتين ص٣٨٠ - ٥١٣.

وقد اطلع ابن القيم علىٰ هذا الكتاب وسجل رداً مجملاً عليه ، حيث قال بعد بيانه لهذه العلل الثلاث : «فهذه العلل الثلاث هي التي تعرض في مقام التوكل وغيره من المقامات ، وهي التي يعمل العارفون بالله وأمره علىٰ قطعها. وهكذا الكلام في سائر علل المقامات وإنما ذكرنا هذا مثالاً لما يذكر من عللها، وقد أفرد لها صاحب المنازل مصنفاً لطيفاً ، وجعل غالبها معلولاً ، والصواب : أن عللها هذه الثلاثة المذكورة : أن يترك بها ما هو أعلىٰ منها ، وأن يعلقها بحظه ، والانقطاع عن المقصود. وأن لا يراها من عين المنة و محض الجود. وبالله التوفيق»(1).

* * *

(١) المدارج ٣/ ٤٨٠.

معارضات في التفريق والتقسيم والتعبير

ثالثاً : معارضات في التفريق والتقسيم والتعبير :

شرح ابن القيم - رحمه الله - المنازل وفي أثناء شرحه يأتي بكلمات صريحة تبين عدم رضاه عما ذكر الهروي في كلامه ، سواء في لفظ هذه الكلمات وما فيها من سوء تعبير ، أو إطلاقها علىٰ عمومها من دون تقييد ، أو تقسيمه وحصره لهذه الأقسام ، والواقع أن هناك أقساماً أخرىٰ لم يذكرها أو ضد ذلك ، كأن يقسم والأمر واحد لا ينقسم ، أو يذكر تعريفاً ثم يعارضه بأن هذا ليس بحد كامل يحصل به التفريق. ونحو ذلك : وكل هذه المعارضات يجمعها الخطأ في التفريق والتقسيم والتعبير ، وقد تكررت هذه المعارضات بأنواعها وإليك المثال عليها :

معارضات في التفريق

١ - معارضات في التفريق :

تكرر الخلاف وتنوع بين الهروي وابن القيم - رحمهما الله تعالىٰ - في التفريق بين شيئين ، والخلاف في وضع حد وتعريف لمصطلح من المصطلحات ومن ذلك ما يلي :

- خالف ابن القيم الهروي في التفريق بين التحديث والإلهام ، وبيّن أن التحديث أخص من الإلهام . وأما الهروي فيقول : « الإلهام هو مقام المحدثين » [1].

---

(١) المدارج ١/ ٤٤ و ٤٥ ومنازل السائرين ٨٢.

- وخالفه في أسرار التوبة حينما قال: «أولها أن ينظر الجناية والقضية»(١).

فقال ابن القيم: «فإنما الذي يشهده عند قيام الحجة عليه: ملاحظة الأمر لا ملاحظة القدر. فجعلُ صاحب المنازل هذه اللطيفة من ملاحظة الجناية والقضية ليس بالبيّن؛ بل هو من ملاحظة الجناية والأمر»(٢).

- وخالفه في حد الاعتصام به. حيث قال: «الاعتصام به الترقي عن كل موهوم» أي الترقي من شهود ما سوىٰ الله بالنفع والضر ونحوهما إلىٰ الله تعالىٰ.

وقال ابن القيم في حده: «وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه والامتناع به والاحتماء به وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه»(٣).

- وخالفه في حد اليقظة، فقال صاحب المنازل: «هي القومة لله وهي اليقظة من سنة الغفلة، والنهوض عن ورطة الفترة».

وقد عرفها ابن القيم بقوله: «انزعاج القلب لروعة الانتباه» وأجاب عما ذكره الهروي بقوله: «وهذا الذي ذكره هو موجب اليقظة وأثرها، فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستنارة قلبه برؤية نور التنبه. أوجب له ملاحظة نعم

---

(١) المدارج ١/ ٢٠٤، ومنازل السائرين ١٤.

(٢) المدارج ١/ ٢١٨، ومنازل السائرين ٢٠.

(٣) المدارج ١/ ٤٦٢ - ٤٦٤.

الله الباطنة والظاهرة»[١].

- وخالفه في التفريق بين التوكل والتفويض إذ قال صاحب المنازل عن التفويض : «وهو ألطف إشارة وأوسع معنىٰ من التوكل ، فإن التوكل بعد وقوع السبب والتفويض قبل وقوعه وبعده. وهو عين الاستسلام والتوكل شعبة منه».

فرد عليه بقوله : «وما قد ختم به في التوكل يرد عليكم نظيره في التفويض سواء ، فإنك كيف تفوض شيئاً لا تملكه البتة إلىٰ مالكه؟ وهل يصح أن يفوض واحداً من آحاد الرعية الملك إلىٰ ملك زمانه». إلىٰ أن قال : «فالذي نذهب إليه : أن التوكل أوسع من التفويض وأعلىٰ وأرفع»[٢].

- وخالفه في تعريفه للرضىٰ فقال : «هذا المعنىٰ الذي ذكره الشيخ فرد من أفراد الرضىٰ ، وهو الرضىٰ بالأقسام والأحكام الكونية التي لم يؤمر بمدافعتها»[٣].

- وخالفه في التفريق بين السكينة والطمأنينة حيث قال بعد ذكره للفرقين الذين ذكرهما الهروي. فقال : «والذي يظهر لي في الفرق بينهما أمران سوىٰ ما ذكر»[٤]. ومفادهما : الأول : أن الطمأنينة أقوىٰ، والثاني : أن الطمأنينة أعم.

---

(١) المدارج ١/ ١٤٠ و ١٤١ ، ومنازل السائرين ١١.

(٢) المدارج ٢/ ١٣٧ - ١٣٩ ، ومنازل السائرين ٤٥.

(٣) المدارج ٢/ ١٨٠ ، ومنازل السائرين ٥١.

(٤) المدارج ٢/ ٥١٥ ، ومنازل السائرين ٨٥.

- وخالفه في معنىٰ الخشوع بقول صاحب المنازل : «الخشوع : خمود النفس ، وهمود الطبائع لمتعاظم ، أو مفزع» .

فقال : «والحق أن الخشوع معنىٰ يلتئم من التعظيم ، والمحبة ، والذل ، والانكسار» (١).

- وبين مقصود الهروي في التفريق بين الرغبة والرجاء وأن الرغبة سلوك وطلب والرجاء طمع في مغيب عنه يحتاج إلىٰ تحقيق. ثم قال : «هذا معنىٰ كلامه وفيه نظر. فإن الرغبة أيضاً طلب مغيب ، هو علىٰ شك من حصوله ، فإن المؤمن يرغب في الجنة وليس بجازم بدخولها. فالفرق الصحيح : أن الرجاء : طمع. والرغبة : طلب فإذا قوي الطمع صار طلباً» (٢).

- فرَّق الهروي بين الفرح والسرور وقدَّم السرور علىٰ الفرح. وتتبعه ابن القيم بأمثلة مضادة لما ذكر حتىٰ قال : «فقد رأيت ورود كل واحد من الفرح والسرور في القرآن بالنسبة إلىٰ أحوال الدنيا وأحوال الآخرة. فلا يظهر ما ذكره من الترجيح» (٣).

- وحصل الخلاف بينهما أيضاً في تعريف المكاشفة حيث يقول الهروي : «المكاشفة : مهاداة السر بين متباطنين ، وهي في هذا الباب بلوغ ما وراء

---

(١) المدارج ١/ ٥٢٢ ، ومنازل السائرين ٢٨.

(٢) المدارج ٢/ ٥٦ ، ومنازل السائرين ٣٥.

(٣) المدارج ٢/ ١٦٠ ، ١٦١ ، ومنازل السائرين ١٠٤.

الحجاب وجوداً».

ويقول ابن القيم في تعريفها : المكاشفة الصحيحة : علوم يحدثها الرب سبحانه وتعالىٰ في قلب العبد. ويطلعه بها علىٰ أمور تخفىٰ علىٰ غيره»(١).

– وقال الهروي في تعريفه للبقاء : «اسم لما بقي قائماً بعد فناء الشواهد وسقوطها» .

وقال ابن القيم : «والبقاء : أوضح من هذا الحد الذي ذكره. ولكن لما كان مراده. البقاء الذي هو صفة العبد ومقامه قال : هو اسم لما بقي بعد فناء الشواهد. وهذا عام في سائر أنواع ما بقي العبد متصفاً به بعد فناء الأدلة والآثار التي دلت علىٰ الحقيقة»(٢).

– وخالفه في حد التفريد حينما قال : «التفريد : اسم لتخليص الإشارة إلىٰ الحق ثم بالحق ، ثم عن الحق» ، فبيَّن أن هذا الحد هو للتجريد وبيَّن الفرق بينهما بقوله : «والفرق بينهما أن التجريد انقطاع عن الأغيار ، والتفريد : إفراد الحق بالإيثار ، فالتفريد متعلق بالمعبود ، والتجريد متعلق بالعبودية»(٣).

واعترض عليه في حد الجمع حيث قال الهروي : «الجمع : ما أسقط التفرقة» .

---

(١) المدارج ٣/ ٢٢١ – ٢٢٣ ، ومنازل السائرين ١١٣.

(٢) المدارج ٣/ ٣٨٤ ، ومنازل السائرين ١٢٩.

(٣) المدارج ٣/ ٤٢١ ، ومنازل السائرين ص١٣٢ و ١٣٣.

فقال ابن القيم: «هذا حدٌّ غير محصل للفرق بين ما يحمد وما يذم من الجمع والتفرقة» إلىٰ أن قال: «ويراد بالجمع: الجمع بين الإرادة والطلب علىٰ المراد المطلوب وحده.. وهذا هو الجمع الصحيح...وأما جمع يزيل التفرقة بين الرب والعبد والخالق والمخلوق، والقديم والمحدث، فأبطل الباطل...» [1].

* * *

معارضات في التقسيم

٢ - معارضات في التقسيم:

من المعروف عن ابن القيم - رحمه الله - إبداعه في التأليف وجودة طريقته في التبويب والتقسيم وذكر الأوجه والقيود، والتفصيل في ذلك. فمن الطبيعي إذن حصول المخالفة بينه وبين الهروي، بل قد تكون المخالفة سببها الاختلاف في المعنىٰ زيادة علىٰ التقسيم والتقييد فمن ذلك ما يلي:

- قال صاحب المنازل في باب التفكر: «وهو ثلاثة أنواع: فكرة في عين التوحيد، وفكرة في لطائف الصنعة، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال».

وقال ابن القيم: «قلت الفكرة فكرتان: فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة» [2].

---

(١) المدارج ٣/ ٤٢٧، ومنازل السائرين ١٣٤.

(٢) المدارج ١/ ١٤٦ ومنازل السائرين ١٧.

- وقد خالف ابن القيم الهروي في عدة مواضع حول تقرير الهروي : تجريد المعاملة لله بعدم أخذ المعاوضة وطلب المثوبة وبين ابن القيم أن هذا يكثر في كلام أهل التصوف وبيّن أن هناك طائفة : تمدحهم علىٰ ذلك حيث أن هذا أعلىٰ درجات العبودية. وطائفة أخرىٰ : تجعل هذا الكلام من شطحاتهم وتحتج بأحوال الأنبياء والصديقين ودعائهم وسؤالهم الجنة والنجاة من النار.

ثم حقق في ذلك وقال : «الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه... فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل ، ومن أعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر إلىٰ وجه الله الكريم... وهذا هو العَلَم الذي شمر إليه المحبون... وكذلك النار أعاذنا الله منها فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته وغضبه وسخطه ، والبعد عنه : أعظم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم...» إلىٰ أن قال عن كلام أهل التصوف : «وهذا لا ينكر علىٰ الإطلاق ، ولا يقبل علىٰ الإطلاق ، وهو موضع تفصيل وتمييز» ثم أحال علىٰ ما ذكره في أول كتابه في بيان طرق الخلق وطريق أهل الاستقامة (١).

ثم ذكر أقسام الناس وأنهم أربعة أقسام :

١ - من لا يريد ربه ، ولا يريد ثوابه ، وهم أعداؤه.

٢ - من يريده ويريد ثوابه ، وهم خواص خلقه.

---

(١) انظر : المدارج ١/ ٧٨ - ٩٧.

٣ – من يريد من الله ولا يريد الله ، وهو حال الجاهل بربه.

٤ – أن يريد الله ولا يريد منه ، (وهو محال) ، وهذا هو الذي يزعم بعض المتصوفة أنه مطلوبهم[١].

– وعارض قول الهروي في باب حرمات الله : «ولا مشاهداً لأحد. فيكون متزيناً بالمراءاة» فبين أن المشاهدة في العمل لغير الله نوعان :

مشاهدة لا تبعث عليه ولا تعين الباعث؛ بل لا فرق عنده بين وجودها وعدمها ، كمشاهدة المريض ، أو مشرف علىٰ هلكة يخاف وقوعه فيها ، أو مشاهدة عدو كالحال في صلاة الخوف ، أو مشاهدة ناظر إليك يريد أن يتعلم؛ فهذا رياء محمود.

والرياء المذموم : أن يكون الباعث قصد التعظيم والمدح والرغبة فيما عند من ترائيه أو الرهبة منه[٢].

– قال الهروي في باب اللحظ : «الدرجة الثالثة : ملاحظة عين الجمع ، وهي توقظ لاستهانة المجاهدات ، وتخلص من رعونة المعارضات ، وتفيد مطالعة البدايات» وقال في باب الصحو : «والصحو: مقام صاعد عن الانتظار، مغن عن الطلب...» وابن القيم – رحمه الله – علق علىٰ هذا ، وأبان أن الطلب

(١) هذا خلاصة كلام ابن القيم ، وانظر كلامه في : المدارج ١/ ٤٧٩ و ٤٨٠ و ٢/ ٧٥ – ٨٤ و٣/ ٥٧ – ٤٠٧.

(٢) انظر : المدارج ٢/ ٨٤ و ٨٥ ، وانظر : منازل السائرين ٤٠.

لا يفارق العبد ما دامت الحياة ، وأن العبد لو أتىٰ بأعمال الثقلين جميعها لم تفارقه حقيقة السير إلىٰ الله. وقال : «وتقسيم السائرين إلىٰ الله : إلىٰ طالب ، وسائر ، وواصل ، أو مريد ومراد : تقسيم فيه مساهلة لا تقسيم حقيقي ، فإن الطلب والسلوك والإرادة لو فارق العبد : لانقطع عن الله بالكلية»(١).

– وعندما تكلم الهروي عن الرغبة قائلاً : «وتمنع صاحبها من الرجوع إلىٰ غثاثة الرخص» عارضه ابن القيم قائلاً : «وهذا موضع يحتاج إلىٰ تفصيل ليس علىٰ إطلاقه ، فإن الله عز وجل يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» إلىٰ أن قال : «الرخصة نوعان :

أحدهما : الرخصة المستقرة المعلومة من الشرع نصاً ، كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، عند الضرورة...» ثم قال : «ففعل هذه الرخصة أرجح وأفضل من تركها.

النوع الثاني : رخص التأويلات واختلاف المذاهب ، فهذه تتبعها حرام ينقص الرغبة ، ويوهن الطلب ، ويرجع بالمترخص إلىٰ غثاثة الرخص»(٢).

– وذكر للرجاء عدة فوائد بعد قول الهروي عنه : «وإنما نطق به التنزيل لفائدة. وهي كونه يبرد حرارة الخوف» فقال ابن القيم : «بل لفوائد كثيرة أُخر مشاهده فعدَّ منها إظهار العبودية وأن الله يحب ذلك من عباده وأن الخوف

---

(١) المدارج ٣/ ١١٧ ، وانظر : ٣/ ٣١٦ ، ومنازل السائرين ١٠١.

(٢) المدارج ٢/ ٥٧ و ٥٨ ، ومنازل السائرين ٣٥.

مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف... وغير ذلك»[١].

- وفي منزلة الثقة عارضه علىٰ قوله: «الدرجة الثالثة: معاينة أزلية الحق، ليتخلص من محن القصود، وتكاليف الحمايات، والتعريج علىٰ مدارج الوسائل» فقال: «وهذا ليس علىٰ إطلاقه، فإن مدارج الوسائل قسمان: وسائل موصلة إلىٰ عين الرضىٰ، فالتعريج علىٰ مدارجها - معرفة وعملاً وحالاً وإيثاراً - هو محض العبودية ولكن لا يحمل تعريجه كله علىٰ مدارجها، بحيث ينسىٰ بها الغاية التي هي وسائل إليها»[٢].

- وعارضه بقوله: «الدرجة الثانية: الانبساط مع الحق. وهو أن لا يحبسك خوف، ولا يحجبك رجاء، ولا يحول بينك وبينه آدم ولا حواء».

فقال ابن القيم - رحمه الله - علىٰ هذا معترضاً: «ولم يكن لأحد من البشر في منزلة القرب والكرامة والحظوة والجاه، ما لرسول الله ﷺ من ربه - تبارك وتعالىٰ -، وكان أشد الخلق لله خشية وتعظيماً، وحاله كلها مع الله تشهد بتكميل العبودية، وأين درجة الانبساط من المخلوق من التراب إلىٰ الانبساط مع رب الأرباب؟ نعم لا يُنكر فرح القلب بالرب تعالىٰ وسروره به، وابتهاجه وقرة عينه، ونعيمه بحبه، والشوق إلىٰ لقائه: إلا كثيف الحجاب، حجري

(١) انظر: المدارج ٢/ ٥٠ - ٥٢، ومنازل السائرين ٣٤.

(٢) انظر البقية في: المدارج ٢/ ١٤٥ و ١٤٦، وانظر: منازل السائرين ٤٧.

الطباع. فلا بهذا الميَعَان ، ولا بذاك الجمود والقسوة»[١].

* * *

٣ - معارضات في التعبير :

معارضات في التعبير

اعترض ابن القيم - رحمه الله - علىٰ كثير من الكلمات التي أطلقها الهروي فوصفها ابن القيم بالتعقيد، أو أنها باللغز أشبه من البيان ، أو بالعجمة، أو بسوء التعبير؛ بل أحياناً يتمنىٰ أنه لم يتكلم بها ، أو لم يسم هذه التسمية ونحو ذلك :

- قال ابن القيم في منزلة الاعتصام : «وأما قوله : بعدم الاستحذاء له تعظيماً» فالشيخ لكثرة لهجه بالاستعارات عبّر عن معنىٰ لطيف عظيم بلفظه «الاستحذاء»» إلىٰ أن قال : «فعبر الشيخ عن طلب القرب منه ، ورفض الوسائط الحائلة بينه وبين القرب المطلوب الذي لا تقر عيون عابديه وأوليائه إلا به : بالاستحذاء وحقيقته : موافاة العبد علىٰ حضرته وقدّامه» ثم قال : «وأحسن ما يعبر عنه بالعبارة النبوية المحمدية»[٢]. ومثله قال في منزلة الذوق : «وأحسن من التعبير بالاتصال : التعبير بالقرب. فإنها العبارة السديدة التي ارتضاها الله ورسوله في هذا المقام ».

- وقال في منزلة الصبر علىٰ قول الهروي : «الدرجة الأولىٰ : الصبر عن

---

(١) المدارج ٢/ ٣٥٧ - ٣٥٩ ، ومنازل السائرين ٦٣.

(٢) المدارج ١/ ٤٦٦ و ٤٦٧ ، وانظر : ٣/ ٩٧ ، ومنازل السائرين ٢١.

المعصية بمطالعة الوعيد : إبقاء علىٰ الإيمان ، وحذراً من الحرام ، وأحسن منها : الصبر عن المعصية حياء» فقال ابن القيم : «وأحسن من ذلك : أن يكون الباعث عليه وازع الحب ، فيترك معصيته محبة له...» (١).

- وعلّق علىٰ قوله في منزلة الشكر : «وهو أيضاً من سُبل العامة» بقوله : «يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل ، إذ جعل نصف الإسلام والإيمان من أضعف السبل» (٢).

- وعارضه علىٰ قوله : « وذوق المسامرة» بأن قال بعد بيان مراده من هذه الكلمة : «لكن الأولىٰ العدول عن لفظ المسامرة إلىٰ المناجاة فإنه اللفظ الذي اختاره رسول الله في هذا... إلىٰ أن قال : فلا تعدل عن ألفاظه ﷺ ، فإنها معصومة ، وصادرة عن معصوم ، والإجمال والإشكال في اصطلاحات القوم وأوضاعهم. وبالله التوفيق»(٣).

- وقال عن قوله في منزلة الصفاء «ويطوىٰ خسة التكليف» : «في هذا اللفظ قلق وسوء تعبير ، يجبره حسن حال صاحبه وصدقه ، وتعظيمه لله ورسوله ، ولكن أبىٰ الله أن يكون الكمال إلا له» .

ثم قال أيضاً : «ليت الشيخ عبر عن هذه اللفظة بغيرها. فوالله إنها لأقبح من

---

(١) المدارج ٢/ ١٦٤ ، ومنازل السائرين ٥٠.

(٢) المدارج ٢/ ٢٤٩ ، ومنازل السائرين ٥٣.

(٣) المدارج ٣/ ٩٩ ، وانظر : ٣/ ١٤ ، ومنازل السائرين ٩٩.

شوكة في العين ، وشجىً في الحلق ، وحاشا التكاليف أن توصف بخسّة أو تلحقها خسة ، وإنما هي قرة عين ، وسرور قلب ، وحياة روح ، صدر التكليف بها عن حكيم حميد ، فهي أشرف ما وصل إلىٰ العبد من ربه وثوابه عليها أشرف ما أعطاه الله للعبد»[1].

- وأطلق نحواً مما تقدم في منزلة السرور حيث قال : «وفكّ رق التكليف» فقال ابن القيم - رحمه الله - : «قوله : (وفك رق التكليف) عبارة قلقة ، غير سديدة ، ورق التكليف : لا يفك إلىٰ الممات ، وكلما تقدم العبد منزلاً شاهد من رق تكليفه ما لم يكن شاهده من قبل. فرق التكليف : أمر لازم للمكلف ما بقي في هذا العالم»[2].

- وقال الهروي في باب الانفصال : «ووجوهه ثلاثة أحدها : انفصال هو شرط الاتصال ، وهو الانفصال عن الكونين بانفصال نظرك إليهما وانفصال توقفك عليهما ، وانفصال مبالاتك بهما» فقال ابن القيم علىٰ هذا : «وهذه العبارة التي ذكرها الشيخ - في بادي الرأي - لا تخلو عن إنكار حتىٰ يبين معناها والمراد بها ، فإن (الكونين) عبارة عن جميع ما خلقه الله في الدنيا والآخرة. ويعبر عنهما بعالم الغيب وعالم الشهادة ، وفيها الرسل والأنبياء ، والملائكة والأولياء ، فكيف ينفصل عنهم ، ولا ينظر إليهم ، ولا يقف بقلبه

---

(١) المدارج ٣/ ١٥٠ و ١٥٤ ، ومنازل السائرين ١٠٣.

(٢) المدارج ٣/ ١٦٥ ، ومنازل السائرين ١٠٤.

عليهم، ولا يبالي بهم؟» (١).

- وعلق على قوله في باب الجمع: «والتنافي من الإحساس بالاعتلال» فقال: «ولا يخفى ما في هذه العبارة من العجم والتعقيد» وكذلك قوله: «والتنافي من شهود شهودها» (٢).

- وعارضه أيضاً في منزلة السكر وبين أن هذا المعنى لم يعبر عنه في القرآن، ولا في السنة (٣).

- وقال عن باب التلبيس: «ليته لم يسم هذا الباب (بالتلبيس) واختار له اسماً أحسن منه موقعاً»، وقال أيضاً: «وقد أخطأ في هذا الباب لفظاً ومعنى.

أما اللفظ: فتسميته فعل الله، الذي هو حق وصواب وحكمة ورحمة وحُكمُه الذي هو عدل وإحسان. وأمره الذي هو دينه وشرعه (تلبيساً) فمعاذ الله، ثم معاذ الله، من هذه التسمية، ومعاذ الله من الرضى بها، والإقرار عليها، والذب عنها والانتصار لها، ونحن نشهد بالله أن هذا تلبيس على شيخ الإسلام، فالتلبيس وقع عليه، ولا نقول: وقع منه، ولكنه صادق لبس عليه» (٤).

---

(١) المدارج ٣/ ٣٣٠، ومنازل السائرين ١٢٣.

(٢) المدارج ٣/ ٤٣٠، ومنازل السائرين ١٣٤.

(٣) انظر: المدارج ٣/ ٣٠٥، ومنازل السائرين ١٢٠.

(٤) المدارج ٣/ ٣٩٢ و ٣٩٤، ومنازل السائرين ١٣٠، وسيأتي مزيد لذلك في الحديث عن الأسباب.

- وقال عن النوع الثالث من التلبيس «تلبيس أهل التمكين علىٰ العالم» : وهذا أيضاً من النمط الأول ، مما ينكر لفظه وإطلاقه غاية الإنكار ، ويجب علىٰ أهل الإيمان محو هذا اللفظ القبيح ، وإطلاقه في حق الأنبياء ، وكيف تتسع مسامع المؤمن ليسمع أن الأنبياء لبسوا علىٰ الناس بأي اعتبار كان؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! بل الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - كشفوا عن الناس التلبيس الذي لبسوه علىٰ أنفسهم ، ولبسه عليهم طواغيتهم ، فجاؤوا بالبيان والبرهان...»[1].

- وقال عن النوع الأول من التوحيد بعد قول الهروي : «ويوجد تبصير الحق» قال : «ومراده التبصير التام الذي لا تختلف عنه الهداية ، وإلا فقد يبصر العبد الحق ولا توجد منه الهداية «إلىٰ أن قال : «فلو قال الشيخ : ويوجد بتوفيق الله بعد تبصيره لكان أحسن»[2].

- وعلق علىٰ قوله في باب الوجود : «والثالث : وجود مقام اضمحلال رسم الوجود فيه بالاستغراق في الأولية» فقال - رحمه الله - : «وهذا كلام فيه قلق وتعقيد ، وهو باللغز أشبه منه بالبيان»[3].

---

(١) المدارج ٣/ ٤٠٦ ، ومنازل السائرين ١٣١ .

(٢) المدارج ٣/ ٤٩٢ و ٤٩٤ ، ومنازل السائرين ١٣٦ .

(٣) المدارج ٣/ ٤١٧ ، ومنازل السائرين ١٣٢ .

رابعاً: معارضات في مباحث متعددة

رابعاً: معارضات في مباحث متعددة:

ترجع هذه المعارضات المتعددة إلىٰ أصلين كما ذكر ذلك ابن القيم - رحمه الله -، وهما إنكار الأسباب وجعل الفناء في توحيد الربوبية هو الغاية، حيث يقول: «والشيخ ممن يبالغ في إنكار الأسباب، ولا يرىٰ وراء الفناء في توحيد الربوبية غاية، وكلامه في الدرجة الثالثة في معظم الأبواب: يرجع إلىٰ هذين الأصلين. وقد عرفت ما فيهما، وأن الصواب خلافهما، وهو إثبات الأسباب والقوىٰ. وأن الفناء في توحيد الربوبية ليس هو غاية الطريق؛ بل فوقه ما هو أجل منه وأعلىٰ وأشرف.

ومن هاتين القاعدتين عرض في كتابه من الأمور التي أنكرت عليه ما عرض»[1].

وإذا كانت هذه المعارضات ترجع في الحقيقة إلىٰ أصلين، فلا يمنع ذلك من تقسيمها إلىٰ مباحث متعددة، فإن تكرار الاعتراض والخلاف، وتنوع المباحث سبب يدعو إلىٰ تقسيم هذه المعارضات تقسيماً آخر لتتميز عن غيرها وإليك بيان ذلك والتمثيل له.

معارضات في الفناء والجمع

١ - معارضات في الفناء والجمع:

قبل البدء في الحديث عن الفناء والجمع يحسن بنا أن نتعرف علىٰ معاني

---

(١) المدارج ١/ ٥٢٠.

الجمع والفناء ، حتىٰ نتمكن من معرفة مقصود الهروي في كلامه عنهما ، وبالتالي نعرف مقصود ابن القيم في اعتراضه علىٰ الهروي في كلامه حولهما. ولعل من الأنسب أن يكون الحديث لابن القيم نفسه حيث عرف بهما فقال عن الفناء : «فاعلم أن الفناء مصدر فني يفنىٰ فناءً إذا اضمحل وتلاشىٰ وعُدم»[(١)].

وذكر أقسامه فقال : وهذا الاسم يطلق علىٰ ثلاثة معان : أحدها : الفناء عن وجود السوىٰ : وهو فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ما ثمَّ غير الله. الثاني : الفناء عن شهود السوىٰ : وهو الفناء الذي يشير إليه أكثر الصوفية المتأخرين ، ويعدونه غاية ، وهو الذي بنىٰ عليه أبو إسماعيل الأنصاري كتابه ، وجعله الدرجة الثالثة في كل باب من أبوابه.

وليس مرادهم فناء وجود ما سوىٰ الله في الخارج؛ بل فناؤه عن شهودهم وحسهم[(٢)].

وهذا النوع من الفناء ينتهي إلىٰ الجمع وعدم التفرقة[(٣)].

قال ابن القيم عمن غاب بمعبوده عن عبادته ، وبمشهوده عن شهوده : «وقد يسمىٰ حال مثل هذا سكراً واصطلاماً ومحواً وجمعاً ، وقد يفرقون بين معاني

---

(١) المدارج ١/ ١٥٤.

(٢) المدارج ١/ ١٥٣ – ١٥٥ بتصرف.

(٣) انظر : المدارج ١/ ١٥٨ و ١٥٩.

هذه الأسماء»(١).

الثالث من معاني الفناء : الفناء عن إرادة السوىٰ ، وهو الفناء المحمود ، وهو الفناء بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به ، والطلب منه، عن حب ما سواه ، وخوفه ورجائه والتوكل عليه(٢).

وأما عن الجمع فقد عرفه بقوله : «الجمع في اللغة : الضم ، والاجتماع الانضمام ، والتفريق ضده. وأما في اصطلاح القوم : فهو شخوص البصيرة إلىٰ من صدرت عنه المتفرقات كلها. وهو ثلاثة أنواع : **جمع وجود** وهو جمع الزنادقة من أهل الاتحاد ، **وجمع شهود** ، **وجمع قصور**»(٣).

وقد بيّن ابن القيم - رحمه الله - صلة الجمع بالفناء عند حديثه علىٰ جمع الشهود وأن أصله الاستغراق في توحيد الربوبية وهو رؤية تفرد الله بأفعاله مع عدم مشاهدة التفرق في المحبة والبغض والأمر والنهي والموالاة والمعادات فلا يشهد التفرقة في الجمع(٤).

---

(١) المدارج ١/ ١٥٥.

(٢) المدارج ١/ ١٦٦ و ١٦٧.

(٣) المدارج ٣/ ٥٠٧ ، وانظر مزيداً عن الفناء والجمع في منزلة الفناء والجمع والوجود والتوحيد وانظر أيضاً : الاستقامة لابن تيمية ٢/ ١٤٢ و ١٤٣ ، ومجموع الفتاوى ١٠/ ٣٧٧ - ٣٤٣ ، ومعجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص٦٧ و ٣٦٥.

(٤) انظر : المدارج ١/ ١٥٨ و ١٥٩.

- وقد عارض الهرويَّ حول تقريره للفناء فقال : «لم يَرِدْ في الكتاب ، ولا في السنة ، ولا في كلام الصحابة والتابعين. مدح لفظ الفناء ولا ذمه ، ولا استعملوا لفظه في هذا المعنىٰ المشار إليه البتة ، ولا ذكره مشايخ الطريق المتقدمون. ولا جعلوه غاية ولا مقاماً. وقد كان القوم أحق بكل كمال ، وأسبق إلىٰ كل غاية محمودة ، ونحن لا ننكر هذا اللفظ مطلقاً ، ولا نقبله مطلقاً» (١).

- وعارضه بوصفه للمحبة بأنها عقبة فقال : «ولما كانت منازل المحو والفناء غاية عند صاحب المنازل جعل المحبة عقبة ينحدر منها إليها.

وأما من جعل المحبة غاية : فمنازل المحو عنده أودية يصعد منها إلىٰ روح المحبة ، وليس بعد المحبة الصحيحة إلا منازل البقاء ، وأما الفناء والمحو : فعقبات وأودية في طريقها عند هؤلاء. والله أعلم» (٢).

- وعارضه في الدرجة الثالثة منها عند قوله: «وهي قطب هذا الشأن» فقال: «وصاحب هذه المحبة الثالثة : قد ارتقىٰ عن هاتين الدرجتين ، وأُخذ منه ، وغُيِّبَ عنه وهذا مبني علىٰ أصله في كون الفناء غاية وقد عرفته» (٣).

وكثيراً ما يؤكد ابن القيم - رحمه الله - مع معارضته للهروي علىٰ أن قصده

---

(١) المدارج ٣/ ٣٧٧ و ٣٧٨ ، وانظر : منازل السائرين ١٢٧ و ١٢٨.

(٢) المدارج ٣/ ٣٤ ، ومنازل السائرين ٨٨.

(٣) المدارج ٣/ ٤١ ، ومنازل السائرين ٩٠.

الفناء في الشهود لا في الوجود، ومع هذا يحذّر من هذا الفناء، ويبين أن البقاء أكمل منه، وأنه لا يعطي كمالاً، ولا فيه معرفة ولا عبودية»(١).

- ويصف الهرويَّ بأنه يدندن حول بحر الفناء، فقال تعليقاً علىٰ قول الهروي في باب الاتصال: «الدرجة الثالثة: اتصال الوجود» عارضه فقال: «وبعدُ فالشيخ يدندن حول بحر الفناء، وكأنه يقول: صاحب هذا الاتصال قد فني في الوجود بحيث صار نقطة انحل تعينها، واضمحل تكوينها، ورجع عودها علىٰ بدئها ففني من لم يكن، وبقي من لم يزل، فهناك طاحت الإشارات، وذهبت العبارات، وفنيت الرسوم»(٢).

وعارضه في منزلة الرضىٰ في الدرجة الثالثة منها عند قوله: «الرضىٰ برضىٰ الله فلا يرىٰ العبد لنفسه سخطاً ولا رضىٰ... وإسقاط التمييز ولو أدخل النار» فقال بعد بيان مراده من هذا الكلام: «إن هذا حال يعرض لا مقام يطلب ويشمّر إليه» إلىٰ أن قال: «والكمال وراء ذلك، وهو أن يكون فانياً عن إرادته بإرادة ربه منه، فيكون باقياً بوجود آخر غير وجوده الطبيعي، وهو موجود مطهر كائن بالله ولله ومع الله»(٣).

ويصف الهروي بأنه لا تأخذه في الفناء لومة لائم، فقال في منزلة الذكر

---

(١) المدارج ٣/ ٣٩٢ و ٤٣٠ و ١/ ١٤٩ و ١٥٠ و ٤٦٦ و ٤٧٥.

(٢) المدارج ٣/ ٣٢٦ و ٣٢٧، ومنازل السائرين ١٢٣.

(٣) المدارج ٢/ ٢٤٠ و ٢٤١، وانظر ٢/ ٢٨٨ و ١٣٥، ومنازل السائرين ٥٢.

بعد قول الهروي» ومعرفة افتراء الذاكر في بقائه مع الذكر «قال : «فيقال سبحان الله! أي افتراء في هذا؟ وهل هذا إلا شهود الحقائق علىٰ ما هي عليه؟ فإنه إذا شهد نفسه ذاكراً بجعل الله له ذاكراً وتأهيله له ، وتقدم ذكره للعبد علىٰ ذكر العبد له فاجتمع في شهوده الأمران. فأي افتراء هٰهنا؟ وهل هذا إلا عين الحق ، وشهود الحقائق علىٰ ما هي عليه؟.

نعم الافتراء : أن يشهد ذلك به وبحوله وقوته لا بالله وحده. لكن الشيخ لا تأخذه في الفناء لومة لائم ، ولا يصغىٰ فيه إلىٰ عاذل. والذي لا ريب فيه : أن البقاء في الذكر أكمل من الفناء فيه والغيبة به» (١).

- وقال بعد ذكره لجمع أهل وحدة الوجود وجمع الموحد : «وشيخ الإسلام مراده بالجمع الجاذب إلىٰ عين الجمع : أمر آخر بين هذا وبين جمع أهل الوحدة وعين جمعهم. لا هو هذا ولا هو هذا ، فهو دائر علىٰ الفناء لا تأخذه فيه لومة لائم ، وهو الجمع الذي يدندن حوله...» (٢).

- وعارضه في منزلة الرغبة عند قوله في الدرجة الثالثة : «رغبة أهل الشهود...» فقال : «يشير الشيخ بذلك إلىٰ حالة الفناء التي يحمله عليها همة نقية من أدناس الالتفات إلىٰ ما سوىٰ الحق ، بحيث لا يبقىٰ معه بقية من

---

(١) المدارج ٢/ ٤٣٦ و ٤٣٧ ، ومنازل السائرين ٧١.

(٢) المدارج ٣/ ٢٤٣ ، وانظر: ٣/ ١٨٣ و ٤٦٤ و٢/ ٤٤ و ٤٣٧ ، وانظر : منازل السائرين ١٣٤ و ١٣٥.

تفرقة؛ بل قد اجتمع شاهده كله وانحصر في مشهوده ، وأراد بالشهود ههنا شهود الحقيقة» [1].

- وعلق علىٰ قوله في منزلة الشكر في الدرجة الثالثة بقوله: «القسم الثالث: أن يشهده تفريداً ، فإنه لا يشهد معه نعمة ولا شدة» إلىٰ أن قال : «وذلك مقام الجمع عندهم... وحقيقته : اصطلام يرفع إحساس صاحبه برسمه ، فضلاً عن رسم غيره ، لاستغراقه في مشهوده وغيبته به عما سواه ، وهذا هو مطلوب القوم.

وقد عرفت أن فوقه مقاماً أعلىٰ منه ، وأرفع وأجل ، وهو أن يصطلم بمراده عن غيره ، فيكون في حال مشاهدته واستغراقه : منفذاً لمراسيمه ومراده ، ملاحظاً لما يلاحظ محبوبه من المرادات والأوامر» [2].

فغالب كلام ابن القيم - رحمه الله - حول الإشارة إلىٰ الفناء الذي يقصده الهروي - وأنه لا يقصد فناء الوجود - كما يقرر أن هذا الفناء ليس هو الغاية ، وأن هناك ما هو أعلىٰ وأرفع منه ، وهو أن يكون فانياً عن إرادته بإرادة ربه منه. ومن مجمل كلامه - رحمه الله - حول حديثه عن الفناء ما نختم به الحديث عن الفناء وهو قوله : «وكيف يكون ذلك أعلىٰ مقامات السالكين ، وغاية مطلب المقربين ، ولم يأت له ذكر في القرآن ولا في السنة ، ولا يعرفه إلا

---

(١) المدارج ٢/ ٥٩ ، ومنازل السائرين ٣٦.

(٢) المدارج ٢/ ٢٥٦ ، وانظر : ٢/ ١٥١ و٥١٨ ، ومنازل السائرين ٥٤.

النادر من الناس ، ولا يتصوره أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة ، ولو سمعه أكثر الخلق لما فهموه ولا عرفوا المراد منه إلا بترجمة...» إلىٰ أن قال : «فصار المتأخرون – أرباب هذه الاصطلاحات الحادثة بالألفاظ المجملة والمعاني المتشابهة – أعرف بمقامات السالكين ومنازل السائرين ، وغاياتها من أعلم الخلق بالله بعد رسله؟»[1].

٢ - معارضات في المشاهدة والمعاينة :

معارضات في المشاهدة والمعاينة

ساق الهروي عبارات متنوعة وكثيرة ، تفيد بظاهرها أن السالك ينتهي إلىٰ الفناء والمشاهدة والمعاينة لله تعالىٰ ، وابن القيم - رحمه الله - يبين ويؤكد أن هذا غير ممكن في هذه الحياة الدنيا ، ويحاول في نفس الوقت صرف كلام الهروي إلىٰ معنىٰ آخر وهو الترقي إلىٰ مقام الإحسان، مع جزمه - رحمه الله - أن المشاهدة من مقاصد القوم؛ بل ولا يأخذهم في ذلك لومة لائم.

- قال في منزلة اليقين : «الدرجة الثالثة حق اليقين.... ثم الفناء في حق اليقين».

- وعلق ابن القيم علىٰ ذلك فقال : اعلم أن هذه الدرجة لا تنال في هذا العالم إلا للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -، فإن نبينا محمد ﷺ

---

(١) المدارج ٣/ ٤٣٦ ، وانظر مزيداً من مفاسد الفناء في المدارج ١/ ١٥٦ -١٥٨ و ٣/ ٤٣٩ و١٨٣.

رأىٰ بعينه الجنة والنار، وموسىٰ - عليه السلام - سمع كلام الله منه بلا واسطة وكلمه تكليماً، وتجلىٰ للجبل وموسىٰ ينظر فجعله دكاً هشيماً. ثم قال: نعم يحصل لنا حق اليقين من مرتبة، وهي ذوق ما أخبر به الرسول ﷺ من حقائق الإيمان، المتعلقة بالقلوب وأعمالها... إلىٰ أن قال: وأما في أمور الآخرة والمعاد، ورؤية الله جهرة عياناً، وسماع كلامه حقيقة بلا واسطة، فحظ المؤمن منه في هذه الدار: الإيمان. وعلم اليقين وحق اليقين: يتأخر إلىٰ وقت اللقاء»[1].

وقال: «وإياك وترهات القوم، وخيالاتهم ورعوناتهم، وإن سموك محجوباً. فقل: اللهم زدني من هذا الحجاب الذي ما وراءه إلا الخيالات والترهات والشطحات...»[2].

- وعلق علىٰ قوله في منزلة الفناء: «الدرجة الثالثة: الفناء عن شهود الفناء وهو الفناء حقاً شائماً برق العين...» فقال: «قوله: «شائماً برق العين» الشائم الناظر من بُعد. وبرق العين: نور الحقيقة. وقد تقدم التنبيه علىٰ استحالة تعلق هذا النور الخارجي. وإنما هو أنوار القرب والمراقبة والحضور مع الله»[3].

- وقال في منزلة الشوق تعليقاً علىٰ قوله: «ومذهب هذه الطائفة إنما قام

---

(١) المدارج ٢/ ٤٠٤، ومنازل السائرين ٦٩.

(٢) المدارج ٢/ ٥١٩.

(٣) المدارج ٣/ ٣٧٧، ومنازل السائرين ١٢٨.

علىٰ المشاهدة..» قال : «وقوله فإن مذهب هذه الطائفة – الذي هو الفناء– يريد أن الفناء إنما قام علىٰ المشاهدة فإن بدايته – كما قرره هو المحبة التي هي نهاية مقامات المريدين والفناء : إنما يكون مع المشاهدة ، ومع المشاهدة لا عمل للشوق.

فيقال : هذا باطل من وجوه... ثم ذكر هذه الوجوه ومنها – الثالث : أنه لا سبيل في الدنيا إلىٰ مشاهدة تزيل الشوق ألبته ، ومن ادعىٰ هذا فقد كذب وافترىٰ ، فإنه لم يحصل هذا لموسىٰ بن عمران ، كليم الرحمن عز وجل فضلاً عمن دونه ، فما هذه المشاهدة التي مبنىٰ مذهب هذه الطائفة عليها ، بحيث لا يكون معها شوق؟ أهي كمال المشاهدة عياناً وجهرة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم» (١).

– وقال الهروي في منزلة العطش : «الدرجة الثالثة : عطش المحب إلىٰ جلوة ما دونها سحاب علة ، ولا يغطيها حجاب تفرقة ، ولا يعرج دونها علىٰ انتظار» فقال في أثناء شرحه :«... وأما الحجاب الذي بين الله وبين خلقه – وهو حجاب النور – فلا سبيل علىٰ كشفه في هذا العالم ألبتة ، ولا يطمع في ذلك بشر» إلىٰ أن قال علىٰ قوله : «ولا يعرج دونها علىٰ انتظار» «.. وهذا عندي وهم بيّن ، فإنه لا غاية لجمال المحبوب ، وكمال صفاته بحيث يصل

---

(١) المدارج ٣/ ٥٥ و ٥٦ ، ومنازل السائرين ٩١.

المشاهد لها إلىٰ حالة لا ينتظر معها شيئاً آخر...»[١].

- وعلق علىٰ قوله في الدرجة الثالثة من منزلة الدهش: «صولة شوق العيان علىٰ شوق الخبر» قال: «فمرداه بها أن المريد في أول الأمر سالك علىٰ شوق الخبر في مقام الإيمان، فإذا ترقىٰ عنه إلىٰ مقام الإحسان، وتمكن منه بقي شوقه بشوق العيان، فصال هذا الشوق علىٰ الشوق الأول.

فإذا كان هذا مراده، وإلا فالعيان في الدنيا لا سبيل للبشر إليه ألبته. ومن زعم خلاف ذلك فأحسن أحواله: أن يكون ملبوساً عليه، وليس فوق الإحسان للصديقين مرتبة إلا بقاؤهم فيه، فإن سمىٰ ذلك عياناً فالتسمية الشرعية المخلصة التي لا لبس فيها: أولىٰ وأحرىٰ...»[٢].

- وقال في الدرجة الثالثة من منزلة الهيمان عند قوله: «بحر الكشف»: «وأما (بحر الكشف) الذي أشار إليه: فهو انكشاف الحقيقة لعين القلب، ولا تعتقد أن للسالك وراء مقام الإحسان شيئاً أعلىٰ منه، بل الإحسان مراتب وأما الكشف الحقيقي للحقيقة فلا سبيل إليه في الدنيا ألبتة. والقوم يلوح لأحدهم أنوار هي ثمرات الإيمان... فيظنونها نور الحقيقة ولا يأخذهم في ذلك لومة لائم...»[٣].

---

(١) المدارج ٣/ ٦٥ و٦٦، ومنازل السائرين ٩٤.

(٢) المدارج ٣/ ٧٨، ومنازل السائرين ٩٦.

(٣) المدارج ٣/ ٨١، ومنازل السائرين ٩٧.

- وعارض قول الهروي : «مشاهدة معاينة» في الدرجة الثانية من منزلة المشاهدة. فقال : «فهذه المشاهدة عنده فوق مشاهدة المعرفة؛ لأن تلك من لوائح نور الوجود ، وهذه مشاهدة الوجود نفسه ، لا بوارق نوره ، فهي أعلىٰ؛ لأنها مشاهدة عيان ، والعيان والمعاينة أن تقع العين في العين. وقد عرفت أن هذا مستحيل في الدنيا ، ومن جوزه فقد أخطأ أقبح الخطأ ، وتعدىٰ مقام الرسل....»(١).

- وعارضه في منزلة المعاينة فقال : «فقوله في الدرجة الثانية :«إنها معاينة عين القلب ، وهي معرفة الشيء علىٰ نعته» لا يريد به معرفة علىٰ نعته الذي هو عليه في الخارج من كل وجه ، فإن هذا ممتنع علىٰ معرفة ما في الآخرة من المخلوقات... فكيف بمعرفة رب الأرض والسماء؟...» إلىٰ أن قال : «قوله : «والمعاينة الثالثة : عين الروح. وهي التي تعاين الحق عياناً محضاً» إن أراد بالحق : ضد الباطل – أي تعاين ما هو حق ، بحيث ينكشف لها كما ينكشف المرئي للبصر – فصحيح. وإن أراد بالحق : الرب تبارك وتعالىٰ فإن لم يحمل كلامه علىٰ قوة اليقين ، ومزيد الإيمان ، ونزول الروح في مقام الإحسان وإلا فهو باطل ، فإن الرب – تبارك وتعالىٰ – لا يعاينه في هذا الدار بصر ولا روح»(٢).

(١) المدارج ٣/ ٢٩٩ ، ومنازل السائرين ١١٥ .

(٢) المدارج ٣/ ٢٥٦ ، ومنازل السائرين ١١٦ .

وأكد علىٰ هذا المعنىٰ مراراً وبين أنه لا تأخذه في ذلك لومة لائم، كما أن أرباب الفناء والشهود والمعاينة لا تأخذهم في تقريره لومة لائم، فقال - رحمه الله - في منزلة الفناء: «... كما تقدم تقريره مراراً، ونحن لا تأخذنا في ذلك لومة لائم، وهم لا تأخذهم في كون ذلك في العيان لومة لائم»[1].

معارضات في التوبة

٣- معارضات في التوبة:

تقدم الحديث عن التوبة من حيث الترتيب، وتقديم الهروي للفناء علىٰ التوبة، وهنا سيكون الحديث عن مفهوم التوبة، وما تعرض له الهروي من خطأ وبيان وجه الصواب من خلال كلام ابن القيم حيث يقول في تعليقه علىٰ حقائق التوبة التي ذكرها الهروي ومنها «طلب أعذار الخليقة» فقال: «وأما طلب أعذار الخليقة، فهذا له وجهان، وجه محمود، ووجه مذموم حرام. فالمذموم: أن تطلب أعذارهم نظراً إلىٰ الحكم القدري، وجريانه عليهم، شاؤوا أم أبوا، فتعذرهم بالقدر - وقال: أظن هذا مراد صاحب المنازل - وهذا القدر ينتهي إليه كثير من السالكين، الناظرين إلىٰ القدر، الفاني في شهوده».

إلىٰ أن قال: «وهذا الشهود شهود ناقص مذموم، إن طرده صاحبه. فعذر أعداء الله وأهل مخالفته ومخالفة رسله، وطلب أعذارهم... وليست هذه

(١) المدارج ٣/ ٣٨١.

موافقة لله؛ بل موافقته لوم هذا. واعتقاد أنه لا عذر له عند الله...»[1].

ثم بين المعنىٰ الثاني وقال : «المعنىٰ الثاني : أن يكون مراده : إقامة أعذارهم في إساءتهم إليك ، وجنايتهم عليك ، والنظر إلىٰ الأقدار ، وأن أفعالهم بمنزلة حركات الأشجار ، فتعذرهم بالقدر في حقك لا في حق ربك فهذا حق... ».

ثم قال في مخالفته : «فهذا المعنىٰ الثاني – وإن كان حقاً – لكن ليس هو من شرائط التوبة ولا من أركانها ، ولا له تعلق بها ، فإنه لو لم يُقم أعذارهم في إساءتهم إليه لما نقص ذلك شيئاً من توبته ، فما أراد – أي : الهروي – إلا المعنىٰ الأول ، وقد عرفت ما فيه...»[2].

– ونقد قوله في سرائر حقيقة التوبة حينما قال : «ونسيان الجناية» فقال : «والصواب : التفصيل في هذه المسألة. وهو أن يقال : إذا أحس العبد من نفسه... رقيقة من العجب ونسيان المنة... فذكر الذنب أنفع له. وإن كان في حال مشاهدته مِنّة الله عليه ، وكمال افتقاره إليه... وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه... فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب أَوْلىٰ به وأنفع...»[3].

– وكذلك قوله : «التوبة من التوبة» فقال : «فإن التوبة من أعظم الحسنات

---

(١) المدارج ١/ ١٨٨ ، ومنازل السائرين ١٣.

(٢) المدارج ١/ ١٩٦ و ١٩٧.

(٣) المدارج ١/ ٢٠١ و ٢٠٢ ، ومنازل السائرين ١٤.

والتوبة من الحسنات من أعظم السيئات ، وأقبح الجنايات؛ بل هي كفر ، إن أخذت علىٰ ظاهرها ، ولا فرق بين التوبة من التوبة ، والتوبة من الإسلام «ثم بين مرادهم بذلك فقال : «ولكن مرادهم : أن يتوب من رؤية التوبة ، فإنها إنما حصلت له بمنّة الله ومشيئة...» إلىٰ أن قال : ولكن هذه الرؤية والغفلة ليست هي التوبة ولا جزءاً منها ولا شرطاً لها؛ بل هي جناية أخرىٰ عرضت له بعد التوبة ، فيتوب من هذه الجناية كما تاب من الجناية الأولىٰ».

وقال أيضاً : «هذا كلام غير معقول ، ولا هو صحيح في نفسه ، بل قد يكون في التوبة علة ونقص ، وآفة تمنع كمالها ، وقد يشعر صاحبها بذلك وقد لا يشعر به ، فيتوب من نقصان التوبة ، وعدم توفيتها حقها...» [١].

وقال في موضع آخر : «ثم إن هذا غير ممكن ألبتة ، فإنكم إذا جعلتم رؤيته لثبوته علة يتوب منها ، فإن رؤيته لتلك الرؤية أيضاً علة توجب عليه توبة وهلم جرا. فلا ينتهي الأمر إلا بسقوط التمييز جملة ، والسكر والطمس المنافي للعبودية ، فضلاً عن أن يكون غاية للعبودية...» [٢].

معارضات في العلم والحال

٤ - معارضات في العلم والحال :

تتركز معارضته في العلم والحال ، علىٰ رفض تقريره أن العلم يُشغل عن

---

(١) المدارج ١/ ٢٠٣ ، ومنازل السائرين ١٥.

(٢) المدارج ١/ ٢٧١.

السلوك ، وأن لا يتعلق في السير بدليل ، وأن الحال حاكم علىٰ العلم ، وما يتصل بهذا من كلمات مجملة تحتمل أكثر من معنىٰ.

- قال تعليقاً علىٰ قوله : «والصعود عن منازعات العقول ، وعن التعلق بالشواهد» : «قوله : «وعن التعلق بالشواهد» كلام فيه إجمال ، فالشواهد : هي الأدلة والآيات ، فترك التعلق بها انسلاخ عن العلم ، والإيمان بالكلية ، والتعلق بها وحدها دون من نصبها شواهد وأدلة : انقطاع عن الله ، وشرك في التوحيد ، والتعلق بها استدلالاً ، ونظراً في آيات الرب ، ليصل بها إلىٰ الله هو التوحيد والإيمان...» [1].

- وحذّر ابن القيم - رحمه الله - من تهوين أمر العلم والاستدلال حينما قال في تعليقه علىٰ قول الهروي في منزلة (الفتوة) «أن لا تتعلق في السير بدليل» فقال : «والقوم عاملون علىٰ الكشف الذي يحصل بنور العيان ، لا علىٰ العلم الذي ينال بالاستدلال والبرهان ، وهذا موضع غلط واشتباه ، فإن الدليل في هذا المقام شرط وكذلك العلم».

إلىٰ أن قال : «ثم إنه يخاف علىٰ من لا يقف مع الدليل ما هو أعظم الأمور وأشدها خطراً وهو الإنقطاع عن الطلب بالكلية ، والوصول إلىٰ مجرد الخيال والمحال ، فمن خرج عن الدليل ضل سواء السبيل» [2].

---

(١) المدارج ٣/ ٥٠٢ ، ومنازل السائرين ١٣٧.

(٢) المدارج ٢/ ٣٤٧ و ٣٤٨ ، ومنازل السائرين ٦٢.

- ونبه علىٰ أن العلم لا يشغل عن السلوك بل يعين عليه ، في أثناء شرحه لقول الهروي في منزلة الوقت «فالعلم يشغله في حين ، والحال يحمله في حين» فقال : «... وهذا هو المعهود من طريقة المتأخرين : أن العلم عندهم يشغل عن السلوك ، ولهذا يعدون السالك من سلك علىٰ الحال ملتفتاً عن العلم. وأما علىٰ ما قررناه ، من أن العلم يعين علىٰ السلوك ، ويحمل عليه ويكون صاحبه سالكاً به وفيه ، فلا يشغله العلم عن سلوكه...»(١).

- وعارض الهروي في باب الجمع عند قوله : «فأما جمع العلم : فهو تلاشي علوم الشواهد في العلم اللدني صرفاً...» فبين أن العلم القائم علىٰ الشواهد والأدلة هو العلم الحقيقي فقال : «ونحن نقول : إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة هو العلم الحقيقي ، وأما ما يدعىٰ حصوله بغير شاهد ولا دليل : فلا وثوق به ، وليس بعلم...» وقال : «وأما دعوىٰ وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال : فليس بصحيح» إلىٰ أن قال : «فالعلم اللدني : ما قام الدليل الصحيح عليه : أنه جاء من عند الله علىٰ لسان رسله وما عداه فلدني من لدن نفس الإنسان ، منه بدأ وإليه يعود ، وقد انبثق سد العلم اللدني ، ورخص سعره حتىٰ ادعت كل فرقة أن علمهم لدني...»(٢).

- وقال في باب التجريد عند قوله : «تجريد عين الجمع عن درك العلم»

---

(١) المدارج ٣/ ١٣٥ ، ومنازل السائرين ١٠٢.

(٢) المدارج ٣/ ٤٣١ و ٤٣٢ ، وانظر أيضاً : ٣/ ٤١٦ و٤٧٦ ، ومنازل السائرين ١٣٤.

قال : «ولعمر الله إن ذلك ليس بكمال ، وهو أصل من أصول الانحلال ، فإنه إذا تجرد من العلم وما يوجبه ، فقد خرج من النور الذي يكشف له الحقائق ويميز له بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، فالكشف وشهود الحقيقة إذا تجرد عن العلم : فقد ينسلخ صاحبه عن أصل الإيمان وهو لا يشعر»(١).

- وحذّر رحمه الله من تقديم الحال علىٰ العلم فقال تعليقاً علىٰ قوله في باب التهذيب : «الدرجة الثانية : تهذيب الحال وهو أن لا يجنح الحال إلىٰ علم» فقال «أما جنوح الحال إلىٰ العلم فهو نوعان : ممدوح ومذموم ، فالممدوح : التفاته إليه ، وإصغاؤه إلىٰ ما يأمر به ، وتحكيمه عليه ، فمتىٰ لم يجنح إليه هذا الجنوح كان حالاً مذموماً ، ناقصاً مبعداً عن الله ، فإن كل حال لا يصحبه علم : يخاف عليه أن يكون من خدع الشيطان» إلىٰ أن قال : «واعلم أن المعرفة الصحيحة : هي روح العلم ، والحال الصحيح : هو روح العمل المستقيم ، فكل حال لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقاً للعلم : فهو بمنزلة الروح الخبيثة الفاجرة... فمتىٰ عارض الحال حكم من أحكام العلم ، فذلك الحال : إما فاسد وإما ناقص ، ولا يكون مستقيماً أبداً. فالعلم الصحيح ، والعمل المستقيم : هما ميزان المعرفة الصحيحة ، والحال الصحيح ، وهما كالبدنين لروحيهما»(٢).

---

(١) المدارج ٣/ ٤٢٠ ، وانظر : ٢/ ٤٢٠ ، ومنازل السائرين ١٣٣.

(٢) المدارج ٢/ ٩٩ و ١٠٠ ، ومنازل السائرين ٤٢.

- وقال في منزلة الدهش عند قوله : «الأولىٰ دهشة المريد عند صولة الحال علىٰ علمه...» : «يعني أن علمه يقتضي شيئاً ، وحاله يصول عليه بخلافه، فهذا غايته : أن يكون معذوراً إن لم يكن مفرطاً ، فإن الحال لا يصول علىٰ العلم إلا وأحدهما فاسد ، إما الصائل أو المصول عليه ، فإذا اقتضىٰ العلم سكوناً ، فصال عليه الحال بحركته : فهي حركة فاسدة. غاية صاحبها : أن يكون معذوراً لا مشكوراً. وإذا اقتضىٰ العلم حركة ، فصال الحال عليه بسكونه: فهو سكون فاسد» [1].

٥ - معارضات في التوحيد :

معارضات في التوحيد

المخالفات في التوحيد لها ارتباط وثيق في المخالفات في مسائل الفناء. ولكن كما أسلفت : لكثرة الخلاف فيها وتنوعه وأهميته ، فصلتها عن الفناء وجعلتها قسماً مستقلاً.

وقد أكد ابن القيم - رحمه الله - هذه الصلة مع الفناء بقوله :

«وقد خبط صاحب المنازل في هذا الموضع ، وجاء بما يرغب عنه الكمّل من سادات السالكين والواصلين إلىٰ الله. فقال : « الفكرة في عين التوحيد : اقتحام بحر الجحود».

وهذا بناء علىٰ أصله الذي أصّله ، وانتهىٰ إليه كتابه في أمر الفناء ، فإنه لما

---

(١) المدارج ٣/ ٧٥ و ٧٦ ، وانظر : أيضاً ٢/ ٢٨٨ و ٣٦١ ، ومنازل السائرين ٩٥.

رأىٰ أن الفكرة في عين التوحيد تُبعِدُ العبد من التوحيد الصحيح عنده؛ لأن التوحيد الصحيح عنده : لا يكون إلا بعد فناء الفكر والتفكر». وقال أيضاً : «والفكرة تدل علىٰ بقاء رسم ، لاستلزامها مفكراً ، وفعلاً قائماً به. والتوحيد التام عنده. لا يكون مع بقاء رسم أصلاً. كانت الفكرة عنده علامة الجحود واقتحاماً لبحره ، وقد صرح بهذا في أبياته في آخر الكتاب...» (١).

- قال الهروي في حد التوحيد : «التوحيد : تنزيه الله تعالىٰ عن الحدث» فقال ابن القيم : «هذا الحد لا يدل علىٰ التوحيد الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وينجو به العبد من النار ، ويدخل به الجنة ، ويخرج من الشرك، فإنه مشترك بين جميع الفرق ، وكل من أقر بوجود الخالق سبحانه أقربه...»(٢) إلىٰ أن قال : «وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ، ونزلت به كتبه : فوراء ذلك كله وهو نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات ، وتوحيد في الطلب والقصد» (٣).

- وقد بين الهروي أنواع التوحيد عنده فقال : «والتوحيد علىٰ ثلاثة أوجه : الوجه الأول : توحيد العامة ، الذي يصح بالشواهد. والوجه الثاني : توحيد الخاصة. وهو الذي يثبت بالحقائق. والوجه الثالث : توحيد قائم بالقدم. وهو

---

(١) المدارج ١/ ١٤٧ ، وانظر : منازل السائرين ١٨.

(٢) المدارج ٣/ ٤٤٤ ، ومنازل السائرين ١٣٥.

(٣) المدارج ٣/ ٤٤٩.

توحيد خاصة الخاصة»[١].

وقد عارضه ابن القيم بذلك كما تقدم قبل قليل بذكر أقسام التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وتكلم هنا بعد كلام الهروي السابق، وبين أن أكمل الناس توحيداً هم الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم - ثم قال: «فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه... فهذا هو توحيد خاصة الخاصة، الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣١]»[٢].

وقال عن التوحيد الأول: « قوله: «وهذا توحيد العامة، الذي يصح بالشواهد» قد تبين أن هذا توحيد خاصة الخاصة، الذي لا شيء فوقه، ولا أخلص منه، وأن الخليلين أكمل الناس فيه توحيداً، فليهْنَ العامةَ نصيبهم منه»[٣].

- وأما عن قول الهروي: «يصح بالشواهد» فقال ابن القيم - رحمه الله -: «أي بالأدلة والآيات والبراهين، وهذا مما يدل علىٰ كماله وشرفه: أن قامت

---

(١) منازل السائرين ص١٣٥، وانظر: المدارج ٣/ ٤٨٠.

(٢) المدارج ٣/ ٤٨١ و ٤٨٢.

(٣) المدارج ٣/ ٤٨٥، ومنازل السائرين ١٣٥.

عليه الأدلة ، ونادت عليه الشواهد ، وأوضحته الآيات والبراهين ، وما عداه فدعاوىٰ مجردة ، لا يقوم عليها دليل ، ولا تصح بشاهد....» (١).

- ونقد قوله : «ويجب بالسمع» فقال : «والحق : أن وجوبه ثابت بالعقل والسمع والقرآن علىٰ هذا يدل ، فإنه يذكر الأدلة والبراهين العقلية علىٰ التوحيد ، ويبين حسنه وقبح الشرك عقلاً وفطرة ، ويأمر بالتوحيد وينهىٰ عن الشرك ، ولهذا ضرب الله سبحانه الأمثال ، وهي الأدلة العقلية. وخاطب العباد بذلك خطاب من استقر في عقولهم وفطرهم حسن التوحيد ووجوبه ، وقبح الشرك وذمه...» (٢).

- ونقد قوله : «ويوجد بتبصير الحق» وقد تقدم الحديث عنه في المعارضات في التعبير.

- وعارضه بقوله : «وينمو علىٰ مشاهدة الشواهد» فقال : «وهذا أيضاً يحتاج إلىٰ أمر آخر ، وهو الإجابة لداعي الحق ، فلا يكفي مجرد مشاهدة الشواهد في نموه» إلىٰ أن قال : «وقد تضمن كلام الشيخ ما دلت عليه النصوص ، واتفق عليه الصحابة والتابعون : أن الإيمان والتوحيد ينموان ويتزايدان ، وهذا من أعظم أصول أهل السنة الذي فارقوا به الجهمية والمرجئة» (٣).

---

(١) المدارج ٣/ ٤٨٥ ، ومنازل السائرين ١٣٦.

(٢) المدارج ٣/ ٤٨٨ وانظر : ٣/ ٤٩٠ ، ومنازل السائرين ١٣٦.

(٣) المدارج ٣/ ٤٩٤ ، ومنازل السائرين ١٣٦.

التوحيد الثاني عند الهروي

* التوحيد الثاني عند الهروي :

قال الهروي في المنازل : «وأما التوحيد الثاني الذي يثبت بالحقائق فهو توحيد الخاصة وهو إسقاط الأسباب الظاهرة، والصعود عن منازعات العقول، وعن التعلق بالشواهد وهو أن لا تشهد في التوحيد دليلاً ، ولا في التوكل سبباً ، ولا للنجاة وسيلة....»[1].

وكان لابن القيم - رحمه الله - من هذا الكلام وقفات ومعارضات فمن ذلك :

- عارض قوله : «وهو إسقاط الأسباب الظاهرة» وسيأتي الحديث عنه في معارضاته في الأسباب قريباً إن شاء الله.

- وقوله أيضاً : «وعن التعلق بالشواهد» وقد تقدم الحديث عنها في معارضاته في العلم والحال.

-ونقد قوله : «وهو أن لا يشهد في التوحيد دليلاً» فقال : «ليس بصحيح بل الواجب : أن يشهد الأمر كما أشهده الله إياه ، فإن الله سبحانه نصب الأدلة علىٰ التوحيد ، وأقام البراهين وأظهر الآيات ، وأمرنا أن نشهد الأدلة والآيات ، وننظر فيها ونستدل بها...» إلىٰ أن قال : «فكيف لا يشهدها دليلاً عليه؟ هذا من أبطل الباطل؛ بل التوحيد -كل التوحيد- أن يشهد كل شيء دليلاً عليه ،

---

(١) ومنازل السائرين ص١٦ و ١٣٧.

مرشداً إليه ، ومعلوم أن الرسل أدلة للتوحيد ، فكيف لا يشهدهم كذلك؟ وكيف يجتمع الإيمان بهم وعدم شهودهم أدلة للتوحيد» [١].

- وله معارضة علىٰ قوله : «ولا في التوكل سبباً ولا للنجاة وسيلة... إلىٰ أن قال : وتسلك إسقاط الحدث» وسيأتي الحديث عنه في معارضاته في الأسباب.

* التوحيد الثالث عند الهروي :

التوحيد الثالث عند الهروي

قال : «وأما التوحيد الثالث فهو توحيد اختصه الحق لنفسه واستحقه بقدره، وألاح منه لائحاً إلىٰ أسرار طائفة من صفوته ، وأخرسهم عن نعته ، وأعجزهم عن بثه...» [٢].

- قال ابن القيم - رحمه الله - علىٰ قوله : «وأخرسهم عن نعته ، وأعجزهم عن بثه » «فيقال : أفضل صفوة الرب تعالىٰ : الأنبياء ، وأفضلهم : الرسل ، وأفضلهم : أولوا العزم ، وأفضلهم : الخليلان - عليهما الصلاة والسلام - ، وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين. والذي ألاحه الله إلىٰ أسرارهم من ذلك : هو أكمل توحيد عرفه العباد ، ولا أكمل منه وليس وراءه إلا الشطح والدعاوىٰ والوساوس وهم - صلوات الله وسلامه عليهم - قد تكلموا بالتوحيد ، ونعتوه

---

(١) المدارج ٣/ ٥٠٢ ، ومنازل السائرين ١٣٧ .

(٢) منازل السائرين ١٣٧ .

وبينوه وأوضحوه وقرروه، بحيث صار في حيز التجلي والظهور والبيان – إلىٰ أن قال: – وكيف يقال: إن أعرف الخلق، وأفصحهم وأنصحهم: عاجز أن يبين ما عرَّفه الله من توحيده، وأنه عاجز عن بثه؟ فما هذا التوحيد الذي عجزت الأنبياء والرسل عن بثه، ومنعوا من النطق به. وعرفه غيرهم؟ هذا كله إن أريد بهذا[1] التوحيد القائم بذات الحق تعالىٰ لنفسه» ثم قال: «فأما إن أريد به التوحيد، الذي هو صفة العبد وفعله... فصفة العبد وفعله لا يعجز عن بثها، ولا يخرس عن النطق بها. وكل ما قام بالعبد فإنه يمكنه التعبير عنه وكشفه وبيانه»[2].

– وقال أيضاً عن الكلام السابق وعن قوله: «ما وحد الواحد من واحد» «إن أريد به ظاهره... فهذا قول النصارىٰ بعينه؛ بل هو شر منه... بل عند الاتحادية: الموحِّد والموحَّد واحد وما ثم تعدد في الحقيقة» «وإن أريد به: هو الذي وفقهم لتوحيده، وألهمهم إياه، وجعلهم يوحدونه فهو الموحد لنفسه، بما عرَّفهم به من توحيده، وبما ألقاه في قلوبهم وأجراه علىٰ ألسنتهم: فهذا المعنىٰ صحيح. ولكن لا يصح نفي أفعالهم عنهم».

ثم بين ذلك فقال: «فلا يقال: إن الله هو الموحد لنفسه. لا أن عبده يوحده. هذا باطل شرعاً وعقلاً وحساً: بل الحق أن الله سبحانه وحد نفسه بتوحيد قام

(١) هكذا في تحقيق الزميل د. محمد الخضيري وفي المطبوعة (إن أريد به كلهم التوحيد).

(٢) المدارج ٣/ ٥١٢ و ٥١٣.

به. ووحده عبيده بتوحيد قام بهم بإذنه ومشيئته وتوفيقه ، فهو الموحد لنفسه بنفسه ، وهم الموحِّدون له بتوفيقه ومعونته وإذنه..» [١] .

- وعارضه علىٰ قوله : «إسقاط الحدث وإثبات القدم» فقال : «وقوله : «والذي يشار إليه علىٰ ألسنة المشيرين : أنه إسقاط الحدث وإثبات القدم» فإن أريد : إسقاطه من الوجود : فمكابرة للعيان ، وإن أريد : إسقاطه من الشهود : فليس ذلك بمأمور به ، ولا هو كمال. فضلاً عن أن يكون هو توحيد خاصة الخاصة. فما هذا الإسقاط للحدث الذي هو نهاية التوحيد ، وأعلىٰ مقاماته؟ وهل الكمال إلا أن يشهد الأشياء علىٰ ما هي عليه ، كما هي في شهادة الحق سبحانه؟ «إلىٰ أن قال : «فهذا الكلام لا يرضىٰ به الموحد ولا الملحد. ولا أشار إليه القرآن الذي تضمن أعلىٰ مراتب التوحيد؛ بل القرآن – من أوله إلىٰ آخره – يدل علىٰ خلافة» [٢].

- وعارضه عند كلامه عن النوع الثالث من التوحيد: «ثم لم ينطق عنه لسان، ولم تشر إليه عبارة». فقال : «يا لله العجب! ما هذا السر الذي ما تكلم الله به ، ولا أشار إليه رسوله ، ولا نالته إشارة ، ولا قامت به عبارة ، ولا أشار إليه مكون ، ولا تعاطاه حين ، ولا أقله سبب؟!! فهذه العقول حاضرة. وهذه المعارف. وهذا كلام الله ورسوله؛ بل سائر كتب الله ، وكلام سادات العارفين

---

(١) المدارج ٣/ ٥١٥.

(٢) المدارج ٣/ ٥١٦ ، ومنازل السائرين ١٣٨.

من الأمة ، فما هذا الحق المحال به؟ وعلىٰ من وقعت هذه الحوالة؟ فإنكم أحلتم بما لا ينطق عنه لسان. ولم تشر إليه عبارة. ولا تعاطاه حين ، ولا أقله سبب» وقال أيضاً : «فعلىٰ من أحلتم بهذا الحق المجهول الذي لا سبيل إلىٰ العلم به ، ولا التعبير عنه ، ولا الإشارة إليه؟!! وأين قوله : «ما وحد الواحد من واحد» من قوله تعالىٰ : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عمران :١٨] (١) .

- وقال أيضاً في الرد علىٰ التوحيد الثالث عند الهروي : «ثم يقال : فهذا الذي ذكرته - في هذه الدرجة - هل هو توحيد ، ووصف للتوحيد : أم ليس بتوحيد؟ فإن لم يكن توحيداً فهو باطل. وإن كان توحيداً فقد وحدت الواحد».

وقال في ختام كلامه عن هذا التوحيد : «وأيضاً فإذا كان توحيده لنفسه هو التوحيد ، وما عداه فليس بتوحيد. فمعلوم : أن توحيده لنفسه هو الذي أرسل به رسله... وهذا عندك هو توحيد العامة فأين هذا التوحيد الذي وحد به نفسه ، ولم ينطق به لسان ولم تعبر عنه عبارة ولم يقله سبب» (٢).

وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - الأبيات الثلاثة المنسوبة للهروي والمذكورة في آخر كتابه المنازل ، وبين ابن القيم مراد الهروي منها في أكثر

(١) المدارج ٣/ ٥١٧ و ٥١٨ ، ومنازل السائرين ١٣٨.
(٢) المدارج ٣/ ٥١٨.

من موضع في كتابه المدارج[١] ، وقد تقدم في أول الحديث عن معارضاته في التوحيد الإشارة إلىٰ هذه الأبيات وهو قوله : «وهذا بناء علىٰ أصله الذي أصلّه، وانتهىٰ إليه كتابه في أمر الفناء... إلىٰ أن قال : وقد صرح بهذا في أبياته في آخر الكتاب :

مـا وحَّـدَ الوَاحـدَ مـن واحـد ... إذْ كـلُّ مـن وحَّـده جاحـدُ
توحيـدُ مـن ينطـق عـن نعتـه ... عاريـة أبطلهـا الواحـدُ
توحيـدُه إيَّـاه توحيـدُه ... ونعـت مـن ينعتُـه لاحِـدُ»[٢]

وقال أيضاً : «في هذا الكلام من الإجمال والحق والإلحاد ما لا يخفىٰ»[٣] .

وقال : «وأيضاً فإن هذا الكلام الذي اشتملت عليه هذه الأبيات : لا يستقيم علىٰ مذهب الملحدين ، ولا علىٰ مذهب الموحدين. أما الموحدون ، فهم يقولون : إن الرسل والأنبياء والملائكة والمؤمنين يوحدون الله حق توحيده ، الذي يقدرون عليه ، وأما الملحدون ، فيقولون : ما ثَمَّ غير في الحقيقة. فالله — عندهم — هو الوجود المطلق الساري في الموجودات. فهو الموحِّد والموحَّد. وكل ما يقال فيه فهو عندهم حق وتوحيد» [٤].

---

(١) المدارج ١/ ١٤٧ و ٣/ ٥١٣ و ٥١٤.

(٢) المدارج ١/ ١٤٧ ، ومنازل السائرين ١٣٩ .

(٣) المدارج ٣/ ٥١٥.

(٤) المدارج ٣/ ٥١٩.

وقد أثنىٰ ابن القيم علىٰ الهروي ومن ذلك ما ذكره في هذا الموضوع بعد ذكره لهذه الأبيات، وبيان المراد منها، وحمل كلام الهروي علىٰ أحسن معنىٰ محتمل فقال: «وهذا المعنىٰ حق وهو أولىٰ بهذا الإمام العظيم القدر مما يظنه به طائفة الاتحادية والحلولية، وإن كانت كلماته المجملة شبهة لهم، فسنته المفصلة مبطلة لظنهم»(١). وأثنىٰ عليه بكلام آخر تقدم ذكره في ترجمة الهروي في أول هذه المعارضات.

بل إنه قال في مجمل اعتذاره للهروي: «علىٰ أنه لو أراد الإلحاد الذي هو باطل وضلال: لكان له وجه صحيح، وهو أن نعت المخلوقين له من عند أنفسهم إلحاد، والتوحيد الحق: هو ما نعت الله به نفسه علىٰ ألسنة رسله، فهم لم ينعتوه من تلقاء أنفسهم، وإنما نعتوه بما أذن لهم في نعته به، وقد صرح سبحانه بهذا المعنىٰ، في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٥٩ - ١٦٠] فنزه نفسه عما يصفه به العباد إلا المرسلين فإنهم لم يصفوه من عند أنفسهم...»(٢).

معارضات في الأسباب

٦ - معارضات في الأسباب:

هذه المعارضات والتي تدور حول موضوع الأسباب ونفيها، تضم مباحث كثيرة، ومهمة، ودقيقة، حيث إنها تتطرق للحديث عن التوكل، وبيان أن

---

(١) المدارج ٣/ ٥٢٠.

(٢) المدارج ٣/ ٥٢١ و ٥٢٢.

التوكل لا يمنع من الأخذ بالأسباب؛ بل هو من الأسباب ، وكذلك تتعرض للحديث عن القضاء والقدر ، وبيان أن الأمر إذا كان قد قدره الله فإن ذلك أيضاً لا يمنع من الأخذ بالأسباب. فليس ذلك مسوغاً لترك الأسباب وتعطيلها ، وغير ذلك من المسائل المهمة التي تحدث عنها الإمام ابن القيم - رحمه الله ، وأطال الحديث عنها.

وقبل أن نخوض في هذه المعارضات ، يحسن أن أنقل كلاماً جامعاً لابن القيم يبين فيه الحق نحو الأسباب والعمل بها وعدم تعطيلها ، وذلك لأهميته والحاجة إليه. حيث يقول معلقاً علىٰ قول من قال : «الالتفات إلىٰ الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب - أن تكون أسباباً - تغيير في وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية : قدح في الشرع ، والتوكل معنىً يلتئم من معنىٰ التوحيد والعقل والشرع» (١).

فقال - رحمه الله - : «وهذا الكلام يحتاج إلىٰ شرح وتقييد ، فالالتفات إلىٰ الأسباب ضربان. أحدهما : شرك. والآخر : عبودية وتوحيد. فالشرك : أن يعتمد عليها ، ويطمئن إليها ، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود. فهو مُعرِض عن المسبِّب لها. ويجعل نظره والتفاته مقصوراً عليها» ثم بيَّن الضرب الثاني من الالتفات إلىٰ الأسباب بقوله : «وأما إن التفت إليها التفات امتثال

---

(١) المدارج ٣/ ٤٩٩.

وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها ، وإنزالها منازلها : فهذا الالتفات عبودية وتوحيد ، إذ لم يشغله عن الالتفات إلىٰ المسبب.

وأما محوها أن تكون أسباباً : فقدح في العقل والحس والفطرة ، فإن أعرض عنها بالكلية : كان ذلك قدحاً في الشرع وإبطالاً له»[١].

ثم بيَّن حقيقة التوكل عند الموحد فقال : «فالموحد المتوكل : لا يلتفت إلىٰ الأسباب بمعنىٰ أنه لا يطمئن إليها ، ولا يرجوها ولا يخافها فلا يركن إليها. ولا يلتفت إليها – بمعنىٰ أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها – بل يكون قائماً بها ، ملتفتاً إليها ، ناظراً إلىٰ مسببها سبحانه ومجريها»[٢].

ثم أكد – رحمه الله – علىٰ عدم تعطيل الأسباب فقال : «وما سبق به علم الله وحكمه حق ، وهو لا ينافي إثبات الأسباب ، ولا يقتضي إسقاطها».

ثم قال ردّاً علىٰ من خالف : «فمن نظر إلىٰ الحدوث بغير الأسباب : لم يكن نظره وشهوده مطابقاً للحق؛ بل كان شهوده غيبة ، ونظره عمىٰ ، فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها ، فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ما هي عليه في علمه وحكمه وخلقه وأمره»[٣].

– ثم بين العلل التي تتقىٰ في الأسباب فقال : «والعلل التي تتقىٰ في

(١) المدارج ٣/ ٤٩٩.

(٢) المدارج ٣/ ٥٠٠.

(٣) المدارج ٣/ ٥٠٠.

الأسباب نوعان :

أحدهما : الاعتماد عليها ، والتوكل عليها ، والثقة بها ، ورجاؤها وخوفها. فهذا شرك يرق ويغلظ وبين ذلك.

الثاني : ترك ما أمر الله به من الأسباب ، وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً وبين ذلك»[1] ، ثم ختم كلامه ببيان ما يجب علىٰ العبد فقال : «بل علىٰ العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر ، ويتوكل علىٰ الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله... فيأتي بالأسباب إتيان من لا يرىٰ النجاة والفلاح والوصول إلا بها. ويتوكل علىٰ الله توكل من يرىٰ أنها لا تنجيه ، ولا تُحصِّل له فلاحاً ، ولا توصله إلىٰ المقصود. فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً ، ويفرّغ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها تجريداً للتوكل ، واعتماداً علىٰ الله وحده»[2].

وهذا الكلام لابن القيم - رحمه الله - هو في الحقيقة معارضة للهروي في حديثه عن الأسباب والتوكل ، ويتبين هذا من خلال تتبع كلام الهروي عبر هذه المعارضات.

- وأولها تسميته الأسباب تلبيساً حيث قال ابن القيم علىٰ هذا : «قد عرفت أن هذا الباب مبناه علىٰ محو الأسباب ، وعدم الالتفات إليها والوقوف معها ، ولهذا سمىٰ المصنف نصبها تلبيساً» ثم قال : «ونحن نقول : إن الدين هو

---

(١) المدارج ٣/ ٥٠٠ و ٥٠١.

(٢) المدارج ٣/ ٥٠١.

إثبات الأسباب ، والوقوف معها ، والنظر إليها والالتفات إليها ، وإنه لا دين إلا بذلك ، كما لا حقيقة إلا به ، فالحقيقة والشريعة : مبناها علىٰ إثباتها ، لا علىٰ محوها ، ولا ننكر الوقوف معها. فإن الوقوف معها فرض علىٰ كل مسلم لا يتم إسلامه وإيمانه إلا بذلك ، والله تعالىٰ أمرنا بالوقوف معها» ثم بين هذا الوقف بقوله : «بمعنىٰ أنا نثبت الحكم إذا وجدت ، وننفيه إذا عدمت ، ونستدل بها علىٰ حكمه الكوني. فوقوفنا معها - بهذا الاعتبار - هو مقتضىٰ الحقيقة والشريعة» إلىٰ أن قال : «فقف مع الأسباب حيث أمرت بالوقوف معها ، وفارقها حيث أمرت بمفارقتها»(١).

- وعارضه في بيان المقصود من الأسباب عند قوله في باب التوكل : «ومعاطاة السبب علىٰ نية شغل النفس بالسبب مخافة ، ونفع الخلق ، وترك الدعوىٰ» فقال : «فيقال : إذا كانت الأسباب مأموراً بها ففيها فائدة أجل من هذه الثلاث ، وهي المقصودة بالقصد الأول ، وهذه مقصودة قصد الوسائل - فبينها وقال - وهي القيام بالعبودية والأمر الذي خلق له العبد وأرسلت به الرسل ، وأنزلت لأجله الكتب ، وبه قامت السموات والأرض وله وجدت الجنة والنار»(٢).

---

(١) المدارج ٣/ ٤٠٧ و٤٠٨ و٤٠٩ ، وانظر : ٣/ ٣٩٤ و٣٩٨ و٤٠٢ ، ومنازل السائرين ١٣٠ و١٣١.

(٢) المدارج ٣/ ١٣٠ ، ومنازل السائرين ٤٤.

– وعارضه عند قوله في اللطيفة الثالثة من أسرار التوبة : «أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة» فقال : «هذا الكلام – إن أخذ علىٰ ظاهره – فهو من أبطل الباطل...» ثم حمل كلام الهروي علىٰ أحسن المحامل معتذراً له فيقول : «علىٰ أن له محملاً آخر مبنياً علىٰ أصول فاسدة ، وهي أن إرادة الرب تعالىٰ هي عين محبته ورضاه ، فكل ما شاءه فقد أحبه ورضيه ، وكل ما لم يشأه فهو مسخوط مبغوض ، فالمبغوض المسخوط هو ما لم يشأه والمحبوب المرضي هو ما شاءه»(١).

ثم تكلم بكلام طويل حول كلام الهروي السابق، فتحدث عن أفعال العباد، ومسألة التحسين والتقبيح ، وأقسام الناس في الأسباب والقوىٰ والطبائع ، وبيَّن اختلاف أرباب السلوك في هذا ، وفرق بين المحبة والمشيئة ، وتكلم عن الرضا بالقدر ، وأنه ليس علىٰ إطلاقه مع ذكره لأقوال المخالفين في ذلك والرد عليهم»(٢).

– وعارضه في باب التوحيد عند قوله : «لأن الموحد قد رفض الأسباب كلها» فقال : «يقال له : هذا الرفض لا يخرج عن الكفر تارة ، والفسق تارة ، والتقصير تارة ، فإن الله أمر بالقيام بالأسباب. فمن رفض ما أمره الله أن يقوم به

---

(١) المدارج ١/ ٢٢٧ و ٢٢٨ ، ومنازل السائرين ١٤.

(٢) المدارج ١/ ٢٢٧ – ٢٥٧ و ٢/ ١٤٦.

فقد ضادّ الله في أمره ، وكيف يحل لمسلم أن يرفض الأسباب كلها»(١) .

- وعارضه بقوله عن التوحيد الثاني : «وهو إسقاط الأسباب الظاهرة» بعد أن ذكر لكلامه احتمالين قال : «وعلىٰ التقديرين : فهو غير مخلص ، فإذا أريد بالإسقاط : التعطيل والإهمال : فمن أبطل الباطل ، وإن أريد العزل عن ولاية الاقتضاء ، وإسناد الحكم إلىٰ مشيئة الرب وحده : فلا فرق بين الأسباب الظاهرة والباطنة ، وإن أريد : الأسباب التي لم يؤمر بها العبد. فليس إسقاطها من توحيد الله في شيء ، ولا في القيام بها مبطلاً له ولا منقصاً»(٢).

وقال أيضاً : «وبالجملة فليس إسقاط الأسباب من التوحيد؛ بل القيام بها واعتبارها وإنزالها في منازلها التي أنزلها الله فيها : هو محض التوحيد والعبودية ، والقول بإسقاط الأسباب هو توحيد القدرية الجبرية» (٣).

- وبمثل هذا الكلام رد علىٰ قوله : «فيكون شاهداً سبق الحق بعلمه وحكمه...» فقال : «فأي وسيلة يشهد هناك؟ وأي سبب؟ وأي دليل هذا الذي يدندن الشيخ حوله» (٤).

---

(١) المدارج ٣/ ٤٧٨ ، وانظر : ٣/ ٤٩٩ و٥٠٠ ، وانظر : علل المقامات المطبوع ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٩٢.

(٢) المدارج ٣/ ٣٩٥ ، ومنازل السائرين ١٣٧.

(٣) المدارج ٣/ ٤٩٥.

(٤) المدارج ٣/ ٥٠٤ ، ومنازل السائرين ١٣٧.

- ومثله أيضاً علىٰ قوله : «ويسلك سبيل إسقاط الحدث» حيث قال : «فإن أراد بإسقاط الحدث : أنه يعتقد نفي حدوث شيء ، فهذا مكابرة للحس والشهود ، وإن أراد : إسقاط الحدث من قلبه ، فلا يشهد حادثاً ومحدثاً – وهذا مراده – فهذا خلاف ما أمر الله ورسوله به ، وخلاف الحق»(١).

- وعارضه في منزلة الصدق عند قوله : «وإن كان العبد كُسي ثوباً معاراً ، فأحسن أعماله : ذنب ، وأصدق أحوال : زور ، وأصفىٰ قصوده : قعود».

فقال : إن هذا الكلام يراد به أمران ، فذكر الأمر الأول منهما ثم قال : «هذا معنىٰ صحيح : ما أظن الشيخ قصده ، وإنما أظنه قصد معنىٰ آخر»(٢).

ثم ذكر هذا المعنىٰ الثاني وهو أن يتيقن العبد : أن وجوده ثوب معار؛ بل كل ما نسب إليه فهو عارية من الله ، فإذا اعتقد العبد أنه هو الفاعل فهذا ذنب؛ لأن الفاعل في الحقيقة هو الله وحده. فقال ابن القيم – رحمه الله – علىٰ هذا المعنىٰ : «والصواب : أن هذا ليس بذنب ، ولا هو مقدور للعبد ولا مأمور به ، والكمال في حقه : أن يشهد الأمر كما هو عليه ، وأنه فاعل حقيقة ، كما أضاف الله إليه الفعل في كتابه كله ، والله هو الذي جعله فاعلاً ، فإذا شهد نفسه فاعلاً حقيقة ، وشهد فاعليته بالله ، ومن الله لا من نفسه : فلا ذنب في هذا الشهود ولا زور بحمد الله» . وقال أيضاً : «وهو نظر بمجموع عينيه إلىٰ السبب ،

---

(١) المدارج ٣/ ٥٠٥ ، ومنازل السائرين ١٣٧.

(٢) المدارج ٢/ ٢٨٤ ، ومنازل السائرين ص٥٦ و ٥٧.

والمسبب ، والشرع والقدر ، والخلق والأمر ، وأنه متىٰ شهد نفسه عاصياً مخالفاً مذنباً : كان عاصياً بهذا الشهود؛ لأن الفاعل فيه غيره. وهذا مناف للعبودية أشد منافاة ، وهو من سير القوم إلىٰ شهود الحقيقة الكونية ، واعتقادهم أنه غاية السالكين» (١).

- وعارضه عند قوله عن حقائق التوبة : «وطلب أعذار الخليفة» فقال : «وأما طلب أعذار الخليقة ، فهذا له وجهان ، وجه محمود ووجه مذموم حرام فالمذموم : أن تطلب أعذارهم ، نظراً إلىٰ الحكم القدري ، وجريانه عليهم ، شاؤوا أم أبوا ، فتعذرهم بالقدر وهذا القدر ينتهي إليه كثير من السالكين ، الناظرين إلىٰ القدر الفانين في شهوده ، وهو - كما تقدم - درب خطر جداً ، قليل المنفعة لا ينجي وحده» ثم قال : «وأظن هذا مراد صاحب المنازل؛ لأنه قال بعد ذلك :«مشاهدة العبد الحكم لم يدع له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة ، لصعوده من جميع المعاني إلىٰ معنىٰ الحكم».

ثم قال أيضاً : «وهذا الشهود شهود ناقص مذموم إن طرده صاحبه ، فعذر أعداء الله ، وأهل مخالفة رسله ، وطلب أعذارهم : كان مضاداً لله في أمره ، عاذراً من لم يعذره الله ، طالباً عذر من لامه الله وأمر بلومه ، وليست هذه موافقة لله؛ بل موافقته لوم هذا واعتقاد أنه لا عذر له عند الله» (٢).

---

(١) المدارج ٢/ ٢٨٥.

(٢) المدارج ١/ ١٨٤ و ١٨٨ ، ومنازل السائرين ١٣.

وبيّن الوجه المحمود بقوله : «المعنىٰ الثاني : أن يكون مراده : إقامة أعذارهم في إساءتهم إليك ، وجنايتهم عليك والنظر في ذلك إلىٰ الأقدار... فتعذرهم بالقدر في حقك لا في حق ربك فهذا حق»(١).

- وقال في منزلة الرجاء عند قوله : «لأنه معارضه من وجه واعتراض من وجه آخر» فقال : «... وأما حديث المعارضة والاعتراض فباطل ، فإن الراجي ليس معارضاً ، ولا معترضاً ؛ بل راغباً ، راهباً ، مؤمِّلاً لفضل ربه ، حسن الظن به ، متعلق الأمل ببره وجوده...».

وقال أيضاً : «والرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه؛ بل هو من أقوىٰ الأسباب...» إلىٰ أن قال : «فالراجي علق رجاءه بتصرفه المحبوب له ، المرضي له ، فلم يوجب رجاؤه خروجه عن تصرفه في ملكه؛ بل اقتضىٰ عبوديته ، وحصول أحب التصرفين إليه ، وهو سبحانه وتعالىٰ لا ينتفع باستيفاء حقه وعقوبة عبده ، حتىٰ يكون رجاؤه مبطلاً لذلك» ثم قال أيضاً : «وأما كون الرجاء اعتراضاً علىٰ ما سبق به الحكم : فليس كذلك؛ بل تعلقاً بما سبق به الحكم ، فإنه إنما يرجو فضلاً وإحساناً ، ورحمة سبق بها القضاء والقدر ، وجعل الرجاء أحد اسباب حصولها ، فليس الرجاء اعتراضاً علىٰ القدر ولا معارضة للقدر؛ بل طلباً لما سبق به القدر»(٢).

---

(١) المدارج ١/ ١٩٦.

(٢) المدارج ٢/ ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٦ ، ومنازل السائرين ٣٤.

- وعارضه بقوله : «إن التوكل في طريق الخاصة عمىً عن التوحيد ورجوع إلىٰ الأسباب» فقال : «فقوله : إن التوكل في طريق....» خطأ محض؛ بل التوكل : حقيقة التوحيد ، ولا يتم التوحيد إلا به ، وقد تقدم في باب التوكل بيان ذلك»(١).

- وعارضه عند قوله : «المتوكل - وإن رفض الأسباب - واقف مع توكله» فقال: «فيقال : إن وقف مع توكله امتثالاً لأمر الله ، وأداءً لحق عبوديته معتقداً : أن الله هو الذي مَنَّ عليه بالتوكل ، وأقامه فيه ، وجعله سبباً موصلاً له إلىٰ مطلوبه ، فنعم الوقوف وقف وما أحسنه من وقوف.

وإن وقف معه اعتقاداً أن بنفس توكله وعمله يصل ، مع قطع النظر عن فضل ربه وإعانته ، ومَنّه عليه بالتوكل : فهو وقوف منقطع عن الله» (٢).

- وعارضه أيضاً عند قوله : «إن التوكل بدل من الأسباب التي رفضها ، فالمتوكل متنقل من سبب إلىٰ سبب» فقال : «يقال له : إن كانت الأسباب التي رفضها غير مأمور بها. فالتوكل المجرد خير منها. وإن كانت مأموراً بها ، فرفضه لها إلىٰ التوكل معصية وخروج عن الأمر» (٣).

---

(١) المدارج ٣/ ٤٧٨ ، وانظر : علل المقامات ٢٩٢.

(٢) المدارج ٣/ ٤٧٩ ، وانظر : علل المقامات ٢٩٢.

(٣) المدارج ٣/ ٤٧٩ ، وانظر : الإحالة السابقة على علل المقامات ، وانظر أيضاً : قول ابن العريف والرد عليه في كتاب التحفة العراقية ٣٣٦ ، وطريق الهجرتين ص٣٨٥- ٣٩٨.

- وعارضه عند قوله : «ولا في التوكل سبباً» فقال : «يريد : أنك تجرد التوكل عن الأسباب ، فإن أراد تجريده عن القيام بها : فباطل كما تقدم. وإن أراد تجريده عن الركون إليها ، والوقوف معها والوثوق بها : فهو حق. وإن أراد تجريده عن شهودها : فشهودها علىٰ ما هي عليه أكمل ، ولا يقدح في التوحيد بوجه ما»(١).

- وعارضه في باب التوكل عند قوله : «وغض العين عن التسبب ، اجتهاداً في تصحيح التوكل» فقال بعد بيان معنىٰ كلامه : «وهذا الذي أشار إليه : مذهب قوم من العباد والسالكين ، وكثير منهم كان يدخل البادية بلا زاد... فدرجتهم ناقصة عن العارفين ، ومع هذا فلا يمكن بشراً ألبتة ترك الأسباب جملة... فالتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً»(٢).

- وعارضه في باب التوكل أيضاً عند قوله : «لأن الحق قد وكل الأمور إلىٰ نفسه ، وأيأس العالم من ملك شيء منها» فقال : «جوابه : إن الذي تولىٰ ذلك أسند إلىٰ عباده كسباً وفعلاً وإقداراً ، واختياراً ، وأمراً ، ونهياً ، استعبدهم به ، وامتحن من يطيعه ممن يعصيه ، ومن يؤثره ممن يؤثر عليه وأمر بتوكلهم عليه... وأخبر :أنه يحب المتوكلين... وأخبر أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه ، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه... فانظر إلىٰ هذا الجزاء الذي حصل

---

(١) المدارج ٣/ ٥٠٣ ، ومنازل السائرين ١٣٧.

(٢) المدارج ٢/ ١٣٣ و ١٣٤ ، وانظر: ٢/ ١٨ - ١٢٠ ، ومنازل السائرين ٤٤.

للمتوكل ، ولم يجعله لغيره ، وهذا يدل علىٰ أن التوكل أقوىٰ السبل عنده وأوجبها إليه ، وليس كونه وكل الأمور إلىٰ نفسه بمناف لتوكل العبد عليه؛ بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلىٰ نفسه «ثم بين ذلك بقوله : «لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة : صارت حاله التوكل قطعاً علىٰ من هذا شأنه ، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه ، وأن العبد لا يملك شيئاً منها. فهو لا يجد بداً من اعتماده عليه ، وتفويضه إليه ، وثقته به من الوجهين : من جهة فقره ، وعدم ملكه شيئاً ألبتة. ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه ، والتوكل ينشأ من هذين العلمين»[1].

* * *

(١) المدارج ٢/ ١٢٨ و ١٢٩ ، وانظر : ٢/ ١٣٦ و ١٣٧ ، ومنازل السائرين ٤٤.

خاتم هذه المعارضات

* ختام هذه المعارضات :

تبين مما تقدم أن ابن القيم - رحمه الله - مع حبه للهروي وتقديره له ، إلا أنه لا يقدم علىٰ الحق شيئاً ، فمع اعتذاره للهروي في مواضع كثيرة ، وثنائه عليه يقول : «شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه ، وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك ، ونحن نحمل كلامه علىٰ أحسن محامله ، ثم نبين ما فيه» (١).

ومع هذا كله فإنه لا يدّعي العصمة لنفسه من الخطأ؛ بل يدعو من اطلع علىٰ كلامه ممن عنده علم أن يرشده ويبين الحقّ.

وحول هذا سيكون ختام هذه المعارضات حيث يقول ابن القيم - رحمه الله - في ختام أحد ردوده علىٰ الهروي : «وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضوع ، فمن كان عنده فضل علم فليجُدْ به أو فليعذر ، ولا يبادر إلىٰ الإنكار» (٢).

وقال بعد ثناء علىٰ الهروي ومعارضة : «ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه ، ومن رأىٰ في كلامنا زيغاً ، أو نقصاً وخطأ ، فلْيُهْدِ إلينا الصواب ، نشكر له سعيه ، ونقابله بالقبول والإذعان والإنقياد والتسليم، والله أعلم وهو الموفق(٣).

---

(١) المدارج ٢/ ٣٧.

(٢) المدارج ٢/ ٥٢.

(٣) المدارج ٢/ ١٣٧.

وقال في ختام كتابه المدارج : «فيا أيها القارئ له ، لـك غنمه وعلىٰ مؤلفه غرمه ، لك ثمرته وعليه تبعته ، فما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله ، ولا تلتفت إلىٰ قائله؛ بل انظر إلىٰ ما قال لا إلىٰ من قال... »[1].

* * *

(١) المدارج ٣/ ٥٢٢.

القسم الثاني

تحقيق كتاب مدارج السالكين

من أول منزلة الذكر إلى آخر منزلة التمكن

فصل

[منزلة الذكر]

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «الذكر»[١]. منزلة الذكر

وهي منزلة القوم الكبرىٰ، التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائماً يترددون.

والذكر منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم، الذي[٢] متىٰ فارقها صارت الأجساد[٣] لها قبوراً. وعمارة ديارهم، فمتىٰ[٤] تعطلت عنه صارت بوراً. وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق[٥]، ودواء أسقامهم، الذي متىٰ فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت[٦] بينهم وبين علام الغيوب.

---

(١) الذكر: يجيء لمعانٍ كثيرة منها التلفظ باللسان ومنها الصلوات، ومنها الشكر، وغيرها.
ويقصد به عند السالكين: الخلاص من النسيان بدوام حضور القلب مع الحق.
انظر: معجم اصطلاحات الصوفية ٢٧٧، وكشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ١٥٣ و ١٥٤.

(٢) في ج ح ق: «التي».

(٣) سقط من ح ب م إلى قوله: «بورا».

(٤) في الجميع عدا م: «التي إذا».

(٥) في ط: «الطريق».

(٦) «كانت» ساقطة من م.

إذا مرضْنَا تَدَاوينا بذكرِكُمُ فنتركُ الذِّكرَ أحياناً فننتكِسُ[١]

من فوائد الذكر

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به[٢] المصيبات. إذا أظلهم البلاء، فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم. فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتّجرون. يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً. ويوصل الذاكر إلىٰ المذكور؛ بل يعيد[٣] الذاكر مذكوراً.

وعلىٰ[٤] كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة؛ بل هم مأمورون[٥] بذكر معبودهم و محبوبهم في كل حال قياماً، وقعوداً، وعلىٰ جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها فكذلك القلوب بور خراب، وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً: ازداد[٦] لمذكوره محبته[٧] وإلىٰ

(١) لم أجده وذكره ابن القيم في كتابه الوابل الصيب ١٥٤.

(٢) «به» ساقطة من ق وفي م: «المصائب».

(٣) في الجميع عدا م ش: «يدع».

(٤) في ط: «وفي».

(٥) في ط ب ح أ: «يأمرون».

(٦) في أ: «لمذكور» وفي البقية عدا ق: «المذكور».

(٧) في البقية عدا أ م: «محبة إلى».

لقائه(١) اشتياقاً، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه: نسي في جنب ذكره كل شيء، [وحفظ الله عليه كل شيء](٢). وكان له عوضاً من كل شيء. به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار زين الله به ألسنة الذاكرين. كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري(٣) - رحمه الله -(٤): «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، و(٥)الذكر، وقراءة القرآن. فإن وجدتم، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق».

وبالذكر يصرع العبد الشيطان، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

---

(١) في ط زيادة «واو».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري، واسم أبيه يسار من أهل بيسان فسبي، فهو مولى الأنصار، ولد الحسن في خلافة عمر وحنكه عمر بيده، كان - رحمه الله - كثير العلم والعمل. توفي سنة ١١٠هـ. انظر: البداية والنهاية ٩/ ٢٦٦ و ٢٦٧، وصفة الصفوة ٣/ ٢٣٣-٢٣٧، وحلية الأولياء ٢/ ١٣١-١٦١.

(٤) في ق: «ففقدوا الحلاوة» وفي ج: «تفقد الحلاوة». وانظر هذا القول في الرسالة القشيرية ٢٢٤.

(٥) في ط زيادة: «في».

قال بعض السلف : إذا تمكن الذكر من القلب ، فإن دنا منه الشيطان صُرِع(١) - كما يُصرع(٢) الإنسان إذا دنا منه الشيطان - فيجتمع عليه الشياطين فيقولون : ما لهذا؟ فيقال : قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن(٣) الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه.

فصل

الذكر في القرآن على عشرة أوجه

وهو في القرآن علىٰ عشرة أوجه :

الأول : الأمر به مطلقاً ومقيداً.

الثاني : النهي عن ضده من الغفلة والنسيان(٤).

الثالث : تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع : الثناء علىٰ أهله ، والإخبار بما أعدَّ [الله](٥) لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس : الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

---

(١) في ط : «صرعه» وانظر هذا القول في الرسالة القشيرية ص٢٢٥ ، وانظر الوابل الصيب ص١٨٥ و١٨٦ ، وآكام المرجان في أحكام الجان ٢٤٣.

(٢) في ق ج زيادة : «الشيطان» ثم سقط من ج قوله : «إذا دنا منه الشيطان».

(٣) في أ : «عنه».

(٤) في أ زيادة : «النهي لا ضده من الغفلة» وهي غير ملائمة.

(٥) الزيادة من أ ب ط.

السادس : أنه [1] جعل ذكره سبحانه لهم [2] جزاء لذكرهم له.

السابع : الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن : أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع : الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنهم أولوا الألباب دون غيرهم.

العاشر : أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها، فمتىٰ عدمته كانت كالجسد بلا روح.

فصل [3]

الاستدلال والتفصيل على أن الذكر يأتي على عشرة أوجه

في تفصيل ذلك :

أما الأول [4] : فقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ۝٤٣ ﴾ [الأحزاب : ٤١-٤٣]، وقوله : ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥]. وفيه قولان [5] :

---

(١) «جعل ذكره» ساقطة من ق.

(٢) «لهم» ساقطة من ج.

(٣) «فصل» ساقطة من أ. وفي ش كتب في الهامش : «بلغ والحمد لله».

(٤) في س : «قوله» وط : «فكقوله».

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٠٢.

أحدهما : في سرِّك وقلبك.

والثاني : بلسانك بحيث تسمع نفسك.

وأما النهي عن ضده(١) فكقوله : ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(٢) [الحشر :١٩]. وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه. فكقوله : ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال : ٤٥].

وأما الثناء على أهله ، وحسن جزائهم. فكقوله : ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ – إلىٰ قوله – ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٣٥].

وأما خسران من لها عنه فكقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون : ٩].

وأما جعل(٣) ذكره لهم جزاء لذكرهم(٤) [له] فكقوله : ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة : ١٥٢].

---

(١) في س : «فلقوله».

(٢) في ط زيادة : «وقوله».

(٣) في ق : «الذكر».

(٤) الزيادة من م وهي في ط.

وأما الإخبار [عنه][1] بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالىٰ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وفيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات؛ لأن[2] المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره، فهو سرُّ الطاعات وروحُها.

الثاني: أن المعنىٰ: أنكم إذا ذكرتموه ذَكَرَكُم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له، فعلىٰ هذا: المصدر مضاف إلىٰ الفاعل، وعلىٰ الأول مضاف إلىٰ المذكور.

من فوائد الصلاة

الثالث: أن المعنىٰ: ولذكر الله أكبر من أن تبقىٰ[3] معه فاحشة ومنكر؛ بل إذا تم الذكر: محق كل[4] معصية وكل خطيئة؛ هذا ما ذكره المفسرون[5] وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -[6] يقول: معنىٰ الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين:

---

(١) الزيادة من أ غ ح ج وهي في ط.

(٢) «لأن المقصود بالطاعات» ساقطة من غ أ ب.

(٣) في البقية عدا س «يبقى».

(٤) في ط أ غ ج ب: «كل خطيئة ومعصية».

(٥) انظر مثالاً لذلك في زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ١٣٩ و ١٤٠.

(٦) في ط: «في قوله» وانظر قوله في: مجموع الفتاوى ١٠/ ٧٥٣. وهذا هو القول الرابع كما ذكره المفسرون.

إحداهما : نهيها عن المنكر.

والثانية : اشتمالها علىٰ ذكر الله ، وتضمنها له ، ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به : فكما ختم به عمل الصيام بقوله : ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة : ١٨٥]. وختم به الحج بقوله : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة : ٢٠٠].

وختم به الصلاة كقوله : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء :١٠٣] وختم به الجمعة كقوله : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة : ١٠] ولهذا(١) إذا كان خاتمة الحياة الدنيا ، و[إذا كان](٢) آخر كلام العبد أدخله [الله](٣) الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته ، وهم أولوا الألباب والعقول ، فكقوله : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران :

---

(١) سقط من أ ب غ م ط قوله : «إذا».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س.

(٣) الزيادة من ح أ غ ب ق.

١٩٠-١٩١]. وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقترانه بها، وأنه روحها، فإنه سبحانه قرنه بالصلاة، كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤] وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه؛ بل هو روح الحج، ولُبّه ومقصوده، كما قال [النبي][1] ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار: لإقامة ذكر الله»[2]. وقرنه بالجهاد وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] وفي أثر إلهي يقول الله تعالىٰ: «إن عبدي - كل عبدي - الذي[3] يذكرني وهو ملاق[4] قِرْنه»[5] سمعت[6] شيخ

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س م.

(٢) رواه أحمد في مسنده عن عائشة -رضي الله عنها- ٦/ ٦٤، وأبو داود في السنن، كتاب المناسك، باب في الرمل رقم (ح١٨٨٨) ٢/ ٤٤٧، والترمذي في كتاب الحج، باب ما جاء كيف ترمي الجمار حديث (٩٠٢) وقال حسن صحيح ٣/ ٢٤٦، والحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي المستدرك وبذيله التلخيص للذهبي ١/ ٤٥٩.

(٣) في س: «للذي».

(٤) في س ش: «ملاقي».

(٥) الحديث رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب رقم (١١٩) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ليس إسناده بالقوي، ولا نعرف لعمارة بن زعكرة عن النبي ﷺ إلا هذا الحديث الواحد. ومعنى قوله: وهو ملاق قرنه، إنما يعني عند القتال، يعني أن يذكر الله في تلك الساعة». سنن الترمذي ٥/ ٥٧٠ (ح٣٥٨٠).

(٦) في م ج: «وسمعت» والأنسب ما أثبت.

الإسلام[١] ابن تيمية - رحمه الله - يستشهد به ، وسمعته يقول : المحبون يفتخرون بذكر من يحبونه في هذه الحال ، كما قال عنترة[٢] :

ولقد ذكرتك والرماح كأنها ... أشطان بئر[٣] في لبان الأدهم[٤]

وقال الآخر :

ذكرتك والخطِّيُّ يخطر بيننا ... وقد نهلت منا المثقفة[٥] السمر[٦]

وقال الآخر[٧] :

---

(١) هو شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني ، ولد بحران سنة ٦٦١هـ ثم انتقل به والده إلى الشام سنة ٦٦٧ وتوفي - رحمه الله - في قلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ. انظر : الأعلام ١/ ١٤٠ ، والبداية والنهاية ١٤/ ١٣٥-١٤٠ ، وكتاب حياة شيخ الإسلام ابن تيمية لمؤلفه محمد بهجت البيطار.

(٢) هو عنترة بن شداد بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك العبسي ، من الشعراء المشهورين ، ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية ، توفي قبل الهجرة. انظر : الأعلام ٥/ ٢٦٩ ، والبداية والنهاية ٢/ ٢٢٠.

(٣) في س : «تبر».

(٤) اللبان : الصدر ، والأشطان : جمع شطن وهو حبل البئر. ويقصد أن الرماح في صدر فرسه كأنها الحبال الطويلة. انظر: البيت في شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي ١٨٢.

(٥) في س : «المثقفة» ومعنى المثقفة أي الرماح. والخطِّي : الرمّح. انظر مختار الصحاح ص١٨٠.

(٦) البيت ذكره المؤلف في كتابه روضة المحبين ٢٧٢ ، وذكره صاحب كتاب مغني اللبيب وقال في هامشه ص٥٥٧ البيت لأبي عطاء السندي أفلح بن يسار.

(٧) في س ط : «قال آخر».

ولقد ذكرتك والرماح شواجر نحوي وبيض الهند تقطر من دمي[١]

وهذا كثير في أشعارهم، وهو مما يدل علىٰ قوة المحبة؛ فإن ذكر المحب محبوبه في تلك الحال - التي لا يهم المرء غير نفسه - يدل علىٰ أنه عنده بمنزلة نفسه أو أعز منها، وهذا دليل [علىٰ][٢] صدق المحبة والله أعلم[٣].

فصل

الذاكرون هم أهل السبق

والذاكرون: هم أهل السبق، كما روىٰ[٤] مسلم في صحيحه من حديث العلاء[٥] عن أبيه[٦] عن أبي هريرة[٧] - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ

(١) شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي ١٩١ وفيه نواهل بدلاً من شواجر، ومني بدلاً من نحوي، وجمهرة أشعار العرب ٢١٩.

(٢) الزيادة من أ ب غ ح.

(٣) سقط من س: «والله أعلم».

(٤) هو الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ولد عام ٢٠٤ وقيل ٢٠٦هـ، وهو صاحب الصحيح المشهور بصحيح مسلم، توفي - رحمه الله - سنة ٢٦١هـ. انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ٣٣-٣٥.

(٥) أبو نصر العلاء بن زياد بن مطر العدوي البصري، روى عن أبيه زياد وأبي هريرة وعمران بن حصين وغيرهم، وروى عنه قتادة ومطر الوراق وحماد بن زيد وغيرهم، انظر: تهذيب التهذيب ٨/ ١٦١، والتاريخ الكبير ٦/ ٥٠٧.

(٦) هو زياد بن مطر العدوي سمع عمر وروى عنه ابنه العلاء وحميد بن هلال. انظر: التاريخ الكبير ٣/ ٣٧١، والجرح والتعديل ٣/ ٥٤٣.

(٧) هو الصحابي الجليل عبدالرحمن بن صخر الدوسي، وقد اختلفوا في اسمه وهو من أكثر

يسير في طريق مكة[1] فمر على جبل[2] يقال له[3] : جُمدان[4] فقال : « سيروا هذا جُمدان سبق المفردون » . قالوا : وما المفردون يا رسول الله؟ قال : «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[5].

والمفردون : إما الموحدون ، وإما الآحاد الفرادى[6].

وفي المسند مرفوعاً من حديث[7] أبي الدرداء - رضي الله عنه - : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها[8] في درجاتكم ، وخير

الصحابة رواية للحديث عن النبي ﷺ ، توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ٥٩هـ وقيل غير ذلك. انظر : البداية والنهاية ٨/ ١٠٣-١١٥ ، والإصابة ٤/ ١٦٣ (٥١٣٢).

(١) سقط من ج : «فمر».

(٢) في أ س غ ط ح : «جبال».

(٣) جمدان : جبل بالحجاز بين قديد وعسفان من منازل بني سليم. معجم ما استعجم للأندلسي ٢/ ٣٩١.

(٤) في ج : «وقال».

(٥) رواه مسلم في صحيحه كتاب الذكر ، باب الحث على ذكر الله تعالى ٤/ ٢٠٦٢ رقم (٢٦٧٦).

(٦) في ح : «الأفراد» وفي ش : «الفراده» ولعل الصواب ما أثبت ، وفي هامش ش : «قال ابن الأعرابي بشدّه إذا تفقه واعتزل الذاكر وخلا وحده مراعياً أمر الله ونهيه...» ثم كلام غير واضح ثم قال : «وقيل غيره» ، وانظر هذا المعنى في: شرح النووي على صحيح مسلم ٥/ ٣٥٣.

(٧) هو الصحابي عويمر بن عامر - على خلاف في اسمه واسم أبيه - ابن قيس الأنصاري الخزرجي ، أسلم يوم بدر ، وقد اختلفوا في وفاته والأصح أنه مات في خلافة عثمان ـ رضي الله عنهما ـ. انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ٥/ ٤٦.

(٨) سقط من م : «وأرفعها في درجاتكم».

لكم من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟» قالوا[1]: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله [عز وجل]»[2][3].

وروى[4] شعبة عن[5] أبي إسحاق قال: سمعت[6] الأغر قال: أشهد على أبي هريرة[7] وأبي سعيد - رضي الله عنهما -، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ

---

(١) الواو ساقطة من ب.

(٢) الزيادة من أ ب ح س وهي في المسند لأحمد.

(٣) رواه أحمد في المسند ٦/ ٤٤٧ بلفظ: «ألا أخبركم»، والترمذي في السنن كتاب الدعاء الباب السادس من فضل الذكر حديث رقم (٣٣٧٧) ٥/ ٤٥٩، وابن ماجه في السنن، كتاب الأدب باب فضل الذكر حديث (٣٧٩٠) ٢/ ١٢٤٥، وقال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٤٩٦، وصححه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ١٧٢ و ١٧٣ (ح٢٨٨٦)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن، مجمع الزوائد ١٠/ ٧٦.

(٤) أبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد الأزدي العتكي الواسطي وهو أول من جرّح وعدّل توفي سنة ١٦٠هـ. سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٠٢ - ٢٢٨ (٨٠).

(٥) أبو إسحاق إبراهيم بن مسلم العبري الكوفي المعروف بالهجري، روى عن عبدالله بن أبي أوفى وأبي الأحوص وغيرهم، قال ابن حجر وأكثر ما يجيء هذا في الروايات بكنيته أبو إسحاق الهجري. تهذيب التهذيب ١/ ١٤٣ و١٤٤، والجرح والتعديل ٢/ ١٣١ و ١٣٢.

(٦) الأغر هو أبو مسلم سمع أبا هريرة وأبا سعيد وروى عنه أبو إسحاق الهمداني، قال عنه ابن حجر في التقريب: الأغر أبو مسلم المديني نزيل الكوفة ثقة من الثالثة وهو غير سلمان الأغر. انظر: التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٤٤، وتقريب التهذيب ١/ ٨٢.

(٧) هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل من فقهاء الصحابة، شهد

قال[1]: لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[2]. وهو في صحيح مسلم.

من فوائد الذكر وشرفه

ويكفي في شرف[3] الذكر أن الله يباهي ملائكته بأهله، كما[4] في الصحيح عن[5] معاوية: «أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه[6] فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنَّ علينا، قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟» قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: «أما[7] إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل - عليه السلام - فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة»[8].

مع الرسول ﷺ ثنتي عشرة غزوة، وروى عنه أحاديث كثيرة، مات سنة ٤٤هـ وقيل ٦٤هـ. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٨٥ و ٨٦، والبداية والنهاية ٩/ ٣ و ٤.

(١) في ق: «فقال».

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر حديث رقم (٢٧٠٠) ٣/ ٢٠٧٤.

(٣) في ق: «الذاكر».

(٤) في ق: «وفي».

(٥) هو الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي، أسلم عام الفتح، وروى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، توفي - رضي الله عنه - سنة ٦٠ من الهجرة. انظر: البداية والنهاية ٨/ ١١٧-١٤٣.

(٦) «الباء» ساقطة من أ غ ح ب.

(٧) في ق: «أما أنا».

(٨) رواه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر رقم (٢٧٠١) ٣/ ٢٠٧٥.

وسأل أعرابي رسول الله ﷺ : «أي الأعمال أفضل؟» فقال : « أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله»(١).

وقال له رجل : إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ ، فمرني بشيء(٢) ، أتشبث(٣) به ، فقال : « لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» (٤).

وفي المسند وغيره من حديث جابر(٥) ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، فقال : «يا أيها الناس ارتعوا (٦) في رياض الجنة » ، قلنا : يا رسول الله ، وما

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - بلفظ : «أي الأعمال أحب» صحيح ابن حبان ٢/ ٩٣ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٧٧ وقال رواه الطبراني بأسانيد وفي هذه الطريق خالد بن يزيد بن عبدالرحمن بن مالك وضعفه جماعة ، ووثقه أبوزرعة الدمشقي وغيره ، وبقية رجاله ثقات ، ورواه البزار من غير طريقه إلا أنه قال : «أخبرني بأفضل الأعمال وأقربه إلى الله» وإسناده حسن وقد صححه الألباني ، انظر : مشكاة المصابيح ٢/ ٧٠٢ (ح٢٢٧٠).

(٢) في ط س م غ ب أ : «بأمر».

(٣) « به» ساقطة من ق.

(٤) رواه أحمد في المسند ٤/ ١٨٨ ، وابن حبان في صحيحه ٢/ ٩٢ ، والحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي صحيح ، المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٤٩٥.

(٥) هو جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري ثم السلمي صحابي ابن صحابي غزا تسع عشرة عزوة، ومات بالمدينة بعد السبعين وهو ابن أربع وتسعين. تقريب التهذيب ١/ ١٢٢ والإصابة ١/ ٢٢٢ و ٢٢٣.

(٦) الرتع : جاء مفسراً في رواية الترمذي : «قلت : وما الرتع يا رسول الله؟ قال : سبحان الله

رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»[1].

وقال[2]: «اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله[3] فلينظر[4] كيف منزلة الله عنده؟ فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه»[5].

وروى النبي ﷺ عن أبيه إبراهيم ﷺ[6] أنه قال [له][7]: «اقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن

والحمد ولا إله إلا الله والله أكبر ٥/٥٣٢ (٣٥١٠).

وقال ابن الأثير: أراد برياض الجنة ذكر الله وشبه الخوض فيه بالرتع في الخصب. النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٩٤.

(١) الحديث رواه الحاكم في المستدرك وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه مستدرك الحاكم ١/ ٦٧١، وابن حبان في صحيحه ٣/ ٩٨، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٩٨، وعبد بن حميد في مسنده. انظر: المنتخب من مسند عبد بن حميد ص٣٣٣ رقم(١١٠٨) وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص١٢١ والحديث عن جابر فيه عمرو بن عبدالله مولى عفرة بنت رباح منهم من وثقه ومنهم من تكلم فيه. انظر: المجروحين لابن حبان ٢/ ٨١، ومجمع الزوائد ١٠/ ٨.ورواه الترمذي عن أبي هريرة وأنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ مقارب وقال: هذا حديث حسن غريب ٥/ ٥٣٢(ح٣٥٠٩) و(٣٥١٠).

(٢) الواو ساقة من م ق.

(٣) «عند الله» ساقطة من أ ب.

(٤) «كيف» ساقطة من ج.

(٥) هو إكمال الحديث المتقدم.

(٦) في ط زيادة: «ليلة الإسراء».

(٧) الزيادة من أ ح ج ب.

غراسها : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر»(١).

رواه الترمذي(٢) ، وأحمد(٣) وغيرهما.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ - رضي الله عنه - ، عن النبي ﷺ : «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت»(٤). ولفظ مسلم :

---

(١) رواه الترمذي في السنن كتاب الدعوات ، الباب التاسع والخمسون رقم الحديث (٣٤٦٢) ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود ، سنن الترمذي ٥/ ٥١٠ ، وأحمد في المسند ٥/ ٤١٨ ، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ١٧٣ رقم (١٠٣٦٣). وقال الهيثمي رواه الترمذي باختصار «لاحول ولا قوة إلا بالله» ورواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عبدالرحمن بن إسحاق أبو شيبة الكوفي وهو ضعيف ١٠/ ٩٤ ، وأورده الهيثمي بلفظ مقارب ثم قال : رواه أحمد والطبراني ثم أورد رواية أخرى بنحو ما ذكر وقال : ورجال أحمد رجال الصحيح غير عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عمر بن الخطاب وهو ثقة لم يتكلم فيه أحمد ووثقه ابن حبان : مجمع الزوائد ١٠/ ١٠٠.

(٢) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي أحد أئمة الحديث وهو صاحب السنن المعروفة ولد سنة ٢٠٩ وقيل ٢١٠هـ وتوفي عام ٢٧٩هـ.
انظر: البداية والنهاية ١١/ ٦٦ و ٦٧، والأعلام ٧/ ٢١٣، ومعجم المؤلفين ١١/ ١٠٤ و١٠٥.

(٣) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أحد الأئمة ثقة حافظ فقيه مات سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة. انظر : تقريب التهذيب لابن حجر ١/ ٢٤ ، وصفة الصفوة ٢/ ٣٣٦-٣٥٩.

(٤) رواه البخاري في كتاب الدعوات ، باب فضل ذكر الله عزّ وجلّ ٧/ ١٦٨ ، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد ١/ ٥٣٩ (٧٧٩).

«مثل البيت الذي يذكر الله فيه ، والبيت الذي لايذكر الله فيه مثل الحي والميت». فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي ، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت وهو القبر.

وفي اللفظ الأول : جعل الذاكر بمنزلة الحي ، والغافل بمنزلة الميت. فتضمن اللفظان : أن القلب الذاكر كالحي في بيوت الأحياء ، والغافل كالميت في بيوت الأموات.

ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم ، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور ، كما قيل :

فنسيانُ ذكرِ الله موتُ قلوبِهِمْ　　وأجسامُهمْ قبلَ القُبورِ قُبورُ
وأرواحُهم في وحشة من　　وليس لهم حتّىٰ النُّشورِ نُشورُ[1]

وكما قيل :

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم　　وأجسامهم قبل القبور الدوارس[2]
وأرواحهم في وحشة من حبيبهم　　ولكنها عند الحبيب[3] أوانس[4]

وفي أثر إلهي : [يقول الله تعالىٰ][5] : «إذا كان الغالب علىٰ عبدي ذكري

---

(١) النشور : هو البعث والحياة بعد الموت. انظر : النهاية في غريب الحديث ٥/ ٥٤.

(٢) قال في لسان العرب : «درسته الريح تدرسه درساً أي : محته» ٦/ ٧٩.

(٣) في ج : «الحبيب».

(٤) لم أجدها.

(٥) الزيادة من الجميع عدا ق.

أحبني وأحببته»[1]. وفي آخر: «فبي فافرحوا، وبذكري فتنعموا»[2].

وفي آخر: «ابن آدم، ما أنصفتني، أذكرك وتنساني، وأدعوك وتهرب[3] إلىٰ غيري، وأُذهِبُ عنك البلايا، وأنت معتكف علىٰ الخطايا، يا ابن آدم ما تقول غداً إذا جئتني»[4].

وفي آخر: «ابن آدم، اذكرني[5] حين تغضب، أذكرك حين أغضب وارض بنصرتي لك، فإنَّ نُصرتي لك خير من نصرتك لنفسك»[6].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية عن الحسن بلفظ: «إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي» ثم قال هذا الحديث خارج من جملة الأحاديث المراسيل المقبولة عن الحسن لمكان محمد بن الفضل وعبدالواحد، وما يرجعان إليه من الضعف. حلية الأولياء ٦/ ١٦٥.

(٢) ذكره أبو نعيم في الحلية عن محمد بن النضر الحارثي قال: قرأت في بعض الكتب ايها الصديقون بي فافرحوا وبذكري فتنعموا. حلية الأولياء ٨/ ٢١٧، وذكره أيضاً في موضع آخر وفيه سمعت صالح بن عبدالجليل يقول فذكره بلفظ وبقربي فتنعموا. حلية الأولياء ٩/ ٢٥٥.

(٣) في ب: «فتهرب».

(٤) ورد بلفظ: «أخلقك وأرزقك وتعبد غيري» ذكره أبو يعلى في كتاب الإرشاد في معرفة علماء الحديث لأبي يعلى ٣/ ٩٥٠. والحديث في إسناده نوفل بن سليمان الهنايء قال عنه ابن حجر ضعيف الحديث. انظر: لسان الميزان لابن حجر ٦/ ١٧٥ (٦١٩). وقد ذكره المؤلف في كتابه روضة المحبين ٤٤٠، وزاد المعاد ٢/ ٤٠٩ و٤١٠.

(٥) في غ م كرر: «ابن آدم اذكرني».

(٦) ذكره أبو نعيم في الحلية بسنده عن طلق بن حبيب قال: مكتوب في الإنجيل ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب ولا أمحقك فيمن أمحق... » ٣/ ٦٥.

وفي الصحيح: في الأثر الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربه تبارك وتعالىٰ: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»(١).

وقد ذكرنا في الذكر نحو مائة فائدة في كتاب: الوابل الصيب(٢) ورافع الكلم(٣) الطيب [وذكرنا هناك أسرار الذكر، وعظيم(٤)نفعه، وطيب ثمرته، وذكرنا فيه](٥) أن الذكر ثلاثة أنواع:

- ذكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء علىٰ الله بها، وتوحيد الله بها.
- وذكر الأمر والنهي، والحلال والحرام.
- وذكر الآلاء والنعماء والإحسان والأيادي.

ومثله عن أبي إدريس عائذ الله ٥/ ١٢٤. وذكره عن خالد بن معدان وأوله قال الله تعالى: «يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي» الحلية ٥/ ٢١٥.

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾، وقوله جل ذكره: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ ٨/ ١٧١، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى ٣/ ٢٠٦١ (٢٦٧٥).

(٢) «كتاب» ساقطة من أ غ ح ب. وانظر: الوابل الصيب ص٩١ وما بعدها.

(٣) في ب: «العلم».

(٤) في ط: «وعظم».

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من: أ.

وأنه ثلاثة أنواع أيضاً[١] :

ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان ، وهو أعلاها.

وذكر بالقلب وحده ، وهو في الدرجة الثانية.

وذكر باللسان المجرد ، وهو في الدرجة الثالثة[٢].

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله -[٣] : «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف : ٢٤] يَعني : إِذَا نَسِيتَ غَيرَهُ ، وَنَسِيتَ نَفسَكَ فِي ذِكرِكَ ، ثُمَّ نَسِيتَ ذِكرَكَ فِي ذِكرِكَ[٤] ، ثُمَّ نَسِيتَ ذِكرَ الحَقِّ إِيَّاكَ كلَّ ذِكرٍ».

ليته - قدس الله روحه - لم يقل : يعني[٥] فلا والله ما عنىٰ الله هـذا المعنىٰ ولا هو مراد الآية ، ولا تفسيرها عند أحد من السلف والخلف[٦].

وتفسير الآية ، عند جماعة المفسرين : أنك[٧] لا تقل لشيء أفعل كذا وكذا

(١) «أيضاً» ساقطة من أ غ ح ب.

(٢) انظر الوابل الصيب ص١٨٧-١٩٠.

(٣) انظر منازل السائرين ٧٠.

(٤) «ذكرك» ساقطة من م والبقية «ذكره» والمثبت كما في ش وقد وافقت كتاب المنازل.

(٥) «يعني» ساقطة من أ غ س ط ح وفي ق : «لم يقله» والمثبت أصح.

(٦) في ط : «ولا من».

(٧) « لا » ساقطة من ق.

تفسير قوله: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾

حتىٰ تقول : إن شاء الله. فإذا نسيت أن تقولها ، فقلها متىٰ ذكرتها. وهذا هو الاستثناء المتراخي، الذي جوَّزه ابن عباس[1]، وتأوَّل عليه الآية ، وهو الصواب.

فغلط عليه من لم يفهم كلامه ، ونقل عنه : أن الرجل إذا قال لامرأته أنت طالق ثلاثاً ، أو قال : نسائي الأربع طوالق ، ثم بعد سنة يقول : إلا واحدة ، أو إلا زينب ، أن هذا الاستثناء ينفعه.

وقد صان الله عن هذا من هو دون غلمان ابن عباس بكثير ، فضلاً عن البحر حَبْر الأمة وعالمها ، الذي فقهه الله[2] في الدين وعلمه التأويل وما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة ، عن العلماء بالأفهام القاصرة. ولو ذهبنا نذكر ذلك لطال جداً ، وإن ساعد الله أفردنا[3] له كتاباً.

والذي أجمع عليه المفسرون : أن أهل مكة سألوا [النبي ﷺ][4] عن الروح، وعن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، فقال : «أخبركم غداً»

---

(١) هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ، ابن عم رسول الله ﷺ ، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث وقيل: خمس توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ٦٥هـ وقيل سبع وقيل ثمان وهو الصحيح. الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٩٠-٩٤.

وقوله بجواز الاستثناء ولو بعد عام إذا نسي ، ذكره ابن كثير في تفسيره ٣/ ٨٤ ، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٧٧.

(٢) «الله» ساقطة من م.

(٣) في أ ب : «عليه كتاباً» وفي ق : «ساعدنا الله».

(٤) الزيادة من الجميع عدا م .

ولم يقل : إن شاء الله[1] فلبث الوحي أياماً . ثم نزلت هذه الآية. قال ابن عباس ومجاهد[2] والحسن[3] وغيرهم : معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ويجوز الاستثناء إلىٰ سنة.

[4] وقال عكرمة[5] - رحمه الله - : واذكر ربك إذا غضبت.

وقال الضحاك[6] والسدي[7] : هذا في الصلاة.

---

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره وفيه : «ولم يستثن» بدلاً من : « ولم يقل» ١٥/ ١٩٢ ، ودلائل النبوة للأصبهاني ٢/ ٢١٦.
وقال روى ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ثم ذكره. وذكره ابن حجر في الفتح ٢/ ٧١٠ ، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٧٦ و ٣٧٧.

(٢) أبو الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي ثقة إمام في التفسير وفي العلم مات سنة ١٠٤هـ ، وقيل غير ذلك وله ثلاث وثمانون سنة. تقريب التهذيب ٢/ ٢٢٩ (٩٢٢).

(٣) هو الحسن البصري وتقدمت ترجمته ص٢٥٣١.

(٤) الواو ساقطة من ق.

(٥) أبو عبد الله عكرمة بن عبدالله البربري المدني مولى ابن عباس أصله من البربر من علماء التابعين ، وثقه سائر أئمة الحديث ، مات سنة ١٠٧هـ. انظر : تقريب التهذيب ٢/ ٣٠ (٢٧٧) ، وتهذيب التهذيب ٧/ ٢٦٣ - ٢٧٣ (٤٧٥).

(٦) هو أبو القاسم ، ويقال: أبو محمد الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني ، حملت أمه به سنتين ووضعته وله أسنان ، وكان - رحمه الله - إماماً في التفسير ، مات سنة خمس وقيل: ست ومائة. انظر : البداية والنهاية ٩/ ٢٢٣ ، وتقريب التهذيب ١/ ٣٧٣.

(٧) هو المفسر أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة الحجازي ثم الكوفي ، أخرج

أي[1] : إذا نسيت الصلاة فصلها متىٰ ذكرتها.

وأما كلام صاحب المنازل : فيحمل علىٰ الإشارة ، لا علىٰ التفسير ، فذكر - رحمه الله - أربع مراتب :

أحدها[2] : أن ينسىٰ غير الله ، ولا ينسىٰ نفسه؛ لأنه ناسٍ لغيره ، ولا يكون ناسياً إلا ونفسه باقية ، يعلم[3] أنه ناس بها لما سوىٰ المذكور.

الثانية : نسيان نفسه في ذكره ، وهي التي عبر عنها بقوله : «وَنَسِيتَ نَفسَكَ[4] فِي ذِكرِكَ».

وفي هذه المرتبة : ذكره معه لم ينسه.

فقال في المرتبة الثالثة : «ثُمَّ نَسِيتَ ذِكرَكَ فِي ذِكرِهِ» وهي مرتبة الفناء[5] ثم

له مسلم وأصحاب السنن ولقب بالسدي لأنه كان يقعد في سدة باب الجامع توفي سنة ١٢٧هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٤-٢٦٥ (١٢٤).

(١) «أي» ساقطة من غ ، وانظر الأقوال السابقة في الدر المنثور ٥/ ٣٧٧ و ٣٧٨ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ٨٤.

(٢) في ط : «إحداها».

(٣) في م : «تعلم».

(٤) في ش : «ونسيت في نفسك ذكرك» والمثبت كما في البقية والمنازل.

(٥) الفناء في اللغة : الهلاك والزوال. انظر : مختار الصحاح ٥١٣ ، والمصباح المنير ٤٨٢.

والفناء في اصطلاح الصوفية : يأتي على ثلاثة أنواع كما ذكرها ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهي :

الأول : الفناء عن عبادة ما سوى الله .

قال في المرتبة الرابعة : «ثُمَّ نَسِيتَ فِي ذِكرِ الحَقِّ إيَّاكَ كُلَّ ذِكرٍ». وهذا الفناء بذكر الحق عبده [1] عن ذكر العبد ربه.

فأما المرتبة الأولىٰ : فهي أول درجات الذكر.

وهي : أن تنسىٰ غير المذكور ، ولا تنسىٰ نفسك في الذكر.

وفي هذه المرتبة : لم يذكره [2] بتمام الذكر ، إذ لتمامه مرتبتان فوقه.

إحداهما : نسيان نفسه ، وهي المرتبة الثانية ، فيغيب بذكره عن نفسه ، فيعدم إدراكها بوجدان المذكور.

الثانية : نسيان ذكره [في ذكره] [3] كما سئل ذو النون - رحمه الله - [4] عن الذكر؟ فقال : غيبة الذاكر عن الذكر ، ثم أنشد :

والثاني : الفناء عن شهود ما سوى الله .

والثالث : وهو جعل وجود الأشياء هو عين وجود الحق.

انظر : الاستقامة ٢/ ١٤٢ و١٤٣ ، ومجموع الفتاوى ١٠/ ٣٣٧-٣٤٣. وانظر : مزيداً عن ذلك في معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ٣٦٥ و٣٦٦ ، واللمع للطوسي ٥٤٣ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٤٧٩ و٤٨٠.

(١) في م ق : «عنده».

(٢) في ح : «لم يذكر» و م : «تذكره».

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الملقب بذي النون المصري ، أسند أحاديث كثيرة ، وقد توفي بالجيزة في يوم الإثنين سنة خمس وقيل: ٢٤٦هـ. انظر : صفة الصفوة ٤/ ٣١٥ - ٣٢١ (٨٣٩) ، والطبقات الكبرى للشعراني ص١٠٢-١٠٤.

لا لأنِّي أنْساك أُكثِرُ ذكراكَ ولكنْ بذاكَ يجْرِي لِسَاني[١]

وهذه هي المرتبة الثالثة.

ففي الأولىٰ[٢]: فني عما سوىٰ المذكور، ولم يَفْنَ عن نفسه.

وفي الثانية: فني عن نفسه دون ذكره.

وبقي بعد هذا مرتبة رابعة، وهو[٣] أن يفنىٰ بذكر الحق سبحانه له عن كل ذكر، فإنه ما ذكر الله إلا بعد ذكر الله له. فذكر الله للعبد سابق علىٰ ذكر العبد للرب، ففي هذه المرتبة الرابعة يشهد[٤] صفات المذكور سبحانه، وذكره لعبده، فيفنىٰ بذلك عن شهودها من العبد.

وهذا الذي يسمُّونه[٥] وجدانَ المذكور في الذِّكر والذاكر، فإن الذاكر وذكره والمذكور ثلاثة أشياء[٦]، فالذاكر وذكره قد اضمحلاً وفَنِيا، ولم يبق غير

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ٢٢٤، وكتاب الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين ٤٠٤.

(٢) في ق: «ففي الأول والثاني».

(٣) في ط م: «وهي».

(٤) في م: «تشهد».

(٥) قالوا عن الوجود: هو إدراك حقيقة الشيء، وهو أصفى مراتب الشهود، فالوجود: وجدان الحق ذاته بذاته، ولهذا تسمى حضرة الجمع حضرة الوجود.

انظر: معجم اصطلاحات الصوفية ٧٤ و ٣٧١. وانظر معاني الكشف في الدرجة الثانية من منزلة الطمأنينة.

(٦) «ثلاثة أشياء» سقطت من م.

المذكور وحده، ولا شيء معه سواه. فهو الذاكر لنفسه بنفسه، من غير حلول ولا اتحاد[1]؛ بل الذكر منه بدأ وإليه يعود.

وذكر العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له: ذكر قبله به صار العبد[2] ذاكراً له، وذكر بعده به[3] صار العبد[4] مذكوراً كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال فيما يروي عنه نبيه[5] ﷺ: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»[6].

والذكر الذي[7] ذكره الله به، بعد ذكره له: نوع غير الذكر الذي ذكره [به][8]

---

(١) **الحلول نوعان**: الأول حلول خاص وهو أن اللاهوت حل في الناسوت. والثاني: حلول عام: وهو أن الله بذاته في كل مكان، والاتحاد نوعان: الأول: اتحاد خاص: وهو أن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا وصارا شيئاً واحداً. والثاني: اتحاد عام وهو أنه عين وجود الكائنات تعالى الله عن ذلك. انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/ ١٧١ و ١٧٢، وانظر المدارج ٣/ ٤٤٥، والمعجم الفلسفي ٧٦ و ٢١٢.

(٢) سقطت من م إلى قوله: «مذكوراً».

(٣) «به» ساقطة من ج، ح.

(٤) «العبد» ساقطة من ق.

(٥) في م: «نبينا».

(٦) الحديث تقدم تخريجه ص٢٥٤٨.

(٧) «الذي» ساقطة من أ.

(٨) الزيادة من الجميع.

قبل ذكره له ، ومن كَثُف[1] فهمه عن هذا فليجاوزه إلىٰ غيره. فقد قيل :

إذا لم تَستطِعْ شيئاً فَدَعْه وجَاوِزْه إلىٰ ما تستطيعُ[2]

وسألت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يوماً[3] فقلت له[4] : إذا كان الرب سبحانه يرضىٰ بطاعة العبد ، ويفرح بتوبته ، ويغضب من مخالفته ، فهل يجوز أن يؤثر المحدث في القديم حباً وبغضاً وفرحاً وغير ذلك فقال لي[5] : الرب سبحانه هو الذي خلق أسباب الرضىٰ والغضب والفرح ، وإنما كانت بمشيئته وخلقه ، فلم يكن ذلك التأثر[6] من غيره؛ بل من نفسه بنفسه ، والممتنع أن يؤثر غيره فيه ، فهذا محال.

وأما أن يخلق هو أسباباً ويشاؤها ، ويقدرها تقتضي رضاه و محبته وفرحه وغضبه[7] ، فهذا ليس بمحال ، فإن[8] ذلك منه بدأ وإليه يعود.

---

(١) معنى كثف في اللغة أي: غلظ. انظر : النهاية في غريب الحديث ٤/ ١٥٢ ، ومختار الصحاح ٥٦٤.

(٢) القائل هو عمرو بن معدى كرب. انظر: شعر عمرو بن معدى كرب تحقيق مطاع الطرابيشي ١٤٨.

(٣) «يوماً» ساقطة من ق.

(٤) «له» ساقطة من م.

(٥) «لي» ساقطة من أ غ ح م.

(٦) في ج : «التأثير».

(٧) في م : «وغضبه وفرحه».

(٨) في م سقط : «فإن ذلك» وفيها : «فإنه منه».

فصـــل

الفرق بين الغفلـة والنسيـان

قال : «وَالذِّكرُ : هُوَ التَّخَلُّصُ مِنَ الغَفلَةِ والنِّسيَان»(١).

والفرق بين الغفلة والنسيان ، أن الغفلة : ترك باختيار الغافل(٢). والنسيان : ترك بغير اختياره ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] ولم يقل ولا تكن من الناسين ، فإن النسيان لا يدخل تحت التكليف(٣) فلا ينهىٰ عنه.

درجات الذكر : الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : الذِّكْرُ الظَّاهِرُ مِن(٤) ثَنَاءٍ أَو دُعَاءٍ أَو رِعَايَةٍ» يريد(٥) بالظاهر : الجاري علىٰ اللسان ، المطابق للقلب. لا مجرد الذكر اللساني ، فإن القوم لا يعتدون به.

فأما ذكر الثناء فنحو : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده (٦) ، ونظائر ذلك.

وأما ذكر الدعاء فنحو : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

---

(١) منازل السائرين ٧١.

(٢) في ج : «العاقل».

(٣) في س «التكلف» وفي ج : «التكليف ولا ».

(٤) «من»ساقطة من ط أ ب ح غ.

(٥) في ح : «يريد الظاهر» .

(٦) «سبحان الله وبحمده ونظائر ذلك»ساقطة من الجميع عدا س.

ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣]. و «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»(١) ونحو ذلك.

وأما ذكر الرعاية فمثل قول الذاكر : الله معي ، الله ناظر إليَّ ، الله(٢) شاهدي ، ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله ، وفيه رعاية لمصلحة القلب ، ولحفظ الأدب مع الله ، والتحرز من الغفلة ، والاعتصام من الشيطان والنفس.

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة ، فإنها متضمنة للثناء علىٰ الله والتعرض للدعاء والسؤال(٣) أو التصريح به.

كما في الحديث : «أفضل الدعاء الحمد لله»(٤) قيل لسفيان

---

(١) الحديث رواه الترمذي في السنن الكبرى ، كتاب الدعوات ، باب ٩٢ ، حديث رقم (٣٥٢٤) وقال : هذا حديث غريب ، وقد روى هذا الحديث عن أنس من غير وجه ، سنن الترمذي ٥/ ٥٣٩ و٥٤٠ ، والحاكم في المستدرك وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي قلت : عبدالرحمن لم يسمع من أبيه ، وعبدالرحمن ومن بعده ليسوا بحجة. المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٥٠٩.

(٢) «الله» ساقطة من ج.

(٣) في البقية عدا س : «والتصريح».

(٤) الحديث أوله: «أفضل الذكر» رواه الترمذي في السنن ، كتاب الدعاء ، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة. وقال : هذا حديث حسن غريب إلا من حديث موسى بن إبراهيم ٥/ ٤٦٢ (٣٣٨٣) ، والحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٤٩٨ ، وابن ماجه في كتاب الأدب ، باب فضل الحامدين ٢/ ١٢٤٩ (٣٨٠٠).

بن عيينة[١] كيف جعلها دعاء؟[٢]، قال: أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت[٣] لعبدالله بن جُدعان[٤] يرجو نائلة:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك؟ إن شيمتَك الحباءُ
إذا أثنىٰ عليك المرءُ يوماً كَفَاه من تعرضه الثناء[٥]

فهذا مخلوق [و][٦] اكتفىٰ من مخلوق بالثناء عليه[٧] من سؤاله، فكيف برب العالمين[٨].

(١) أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي مولى هلال الكوفي، سكن مكة، وكانت ولادته سنة ١٠٧هـ، وروى عن الزهري وعمرو بن دينار، وروى عنه ابن المبارك ووكيع وأبو نعيم، مات سنة ١٧٨هـ. انظر: الجرح والتعديل ٤/ ٢٢٥-٢٢٧، والتاريخ الكبير ٤/ ٩٤و٩٥، وحلية الأولياء ٧/ ٢٧٠-٣١٨.

(٢) «دعاء» ساقطة من ج.

(٣) هو أمية بن أبي الصلت عبدالله بن أبي ربيعة الثقفي شاعر جاهلي أدرك النبي ﷺ ولم يؤمن به، مات بالطائف بعد أن رثى قتلى بدر سنة ٣ من الهجرة.
البداية والنهاية ٢/ ٢٢٠-٢٢٩، ومعجم الشعراء في لسان العرب ٦٧.

(٤) هو عبدالله بن جدعان التيمي قرشي مشهور، يجتمع مع أبي بكر الصديق في عمرو بن كعب، مات قبل الإسلام. انظر: الإصابة ٤/ ٤٧، البداية والنهاية ٢/ ٢١٧و ٢١٨.

(٥) انظر: مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ١٤١، وبهجة المجالس ٢/ ٥٩٤. وفتح الباري ١١/ ١٤٧.

(٦) الزيادة من الجميع عدا س وفي هامش ش زيادة غير واضحة ومنها: : «كريم لا يغيره صاحبه عن الخلق الجميل».

(٧) «عليه» ساقطة من ج.

(٨) في ط زيادة: «والأذكار النبوية».

ومتضمنه أيضاً لكمال الرعاية، ومصلحة القلب، والتحرز من الغفلات والاعتصام من الوساوس والشيطان [والله أعلم][1].

فصل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الذِّكْرُ الخَفِيُّ[2]، وَهُوَ الخَلَاصُ مِنَ القُيُودِ، وَالبَقَاءُ مَعَ الشُّهُودِ، وَلُزُومُ المُسَامَرَةِ»[3].

يريد بالخفي ههنا: الذكر بمجرد القلب بما يعرض له من الواردات، وهذا ثمرة الذكر الأول.

ويريد بالخلاص من القيود: التخلص[4] من الغفلة والنسيان، والحجب الحائلة بين القلب وبين الرب سبحانه.

والبقاء مع الشهود: ملازمة الحضور مع المذكور ومشاهدة القلب له حتىٰ كأنه يراه.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س وم.

(٢) في أ زيادة: «الحقيقي وهو شهود ذكر الحق إياك والتخلص من شهود ذكرك له ومعرفة افتراء الذاكر في بقائه مع الذكر» وهو ليس من كلام الهروي.

(٣) انظر كلامه في: منازل السائرين ٧١ وفيه: «وهو الخلاص من الفتور» بدل من القيود.

(٤) في ح: «والتخلص».

ولزوم المسامرة [وهي](١) لزوم مناجاة القلب لربه، تملقاً(٢) تارة، وتضرعاً تارة، وثناء تارة واستعطافاً تارة(٣)، وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسر والقلب. وهذا(٤) شأن كل محب وحبيبه.

كما قيل:

إذا ما خَلَونَا والرَّقيبَ بمجلس فنحن سُكوتٌ والهوىٰ يتكلَّمُ(٥)

فصل

الدرجة الثالثة قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: الذِّكرُ الحَقِيقِيُّ. وَهُوَ شُهُودُ ذِكرِ الحَقِّ إِيَّاكَ، وَالتَّخَلُّصُ مِن شُهُودِ ذِكرِكَ، وَمَعرِفَةِ افتِرَاءِ الذَّاكِرِ فِي بَقَائِهِ مَعَ الذِّكرِ»(٦).

---

(١) الزيادة من ج ق، وفي ط أ غ ب: «هي».

والمسامرة في اللغة: هي الحديث بالليل. مختار الصحاح ٣١٢، وعند الصوفية: هي عتاب الأسرار عند خفي التذكار، كتاب اللمع ٤٢٦. وقال الكاشاني: «محادثة الحق للعبد في سره». معجم اصطلاحات الصوفية ١٠٢.

(٢) التملق: التودد إليه والتلطف له. انظر: مختار الصحاح ٦٣٢.

(٣) في الجميع عدا س ج م: «واستعظاماً».

(٤) في س ج ق: «وهذه».

(٥) في هامش ج كتب: «بلغ». القائل هي جارية الرشيد التي اشتراها من المدينة وشطره الأول كذا:

تكلم منا في الوجوه عيوننا

انظر: البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٠.

(٦) منازل السائرين وفيه: «مع ذكره».

إنما سمي هذا (الذكر) في هذه الدرجة حقيقياً؛ لأنه منسوب إلىٰ الرب تعالىٰ، وأما نسبة الذكر للعبد فليست حقيقية[1]، فذكر الله لعبده هو الذكر الحقيقي، وهو شهود ذكر الحق عبده وأنه ذكره فيمن اختصه وأهّله للقرب منه ولذكره.

فجعله[2] ذاكراً له، ففي الحقيقة: هو الذاكر لنفسه، بأن جعل عبده ذاكراً له، وأهّله لذكره[3]، وهذا المعنىٰ هو الذي[4] أشار إليه في باب التوحيد بقوله:

توحيدُه إيّاه توحيــدُه ونعتُ مــن ينعتُه لاحد[5]

أي هو الذي وحد[6] نفسه في الحقيقة، فتوحيد العبد منسوب إليه حقيقة ونسبته إلىٰ العبد غير حقيقة[7] [له][8] إذْ ذلك[9] لم يكن به[10] ولا منه وإنما هو مجعول فيه، فإن سمي (موحداً ذاكراً) فلكونه مجرىٰ ومحلا لما أجرىٰ فيه،

---

(١) في أ ج: «حقيقة».

(٢) سقط من م إلى قوله: «وهذا المعنى».

(٣) في ق: «اذكره».

(٤) «الذي» ساقطة من م.

(٥) المنازل ١٣٩.

(٦) في ق: «وحده».

(٧) في ط س ب: «حقيقية».

(٨) الزيادة من ج.

(٩) في البقية عدا س م ق: «إذ ذاك».

(١٠) في أ: «له» بدلاً من: «به».

كما يسمىٰ أبيض وأسود ، وطويل وقصير ، لكونه محلاً لهذه الصفات لا صنع له فيها ، ولم توجبها[1] مشيئته ولا حوله ولا قوته.

هذا مع ما يتصل بذلك من استيلاء القرب[2] والفناء عن الرسم[3] ، والغيبة بالمشهود عن الشهود وقوة الوارد ، فيتركب من ذلك ذوق خاص : أنه ما وحد الله إلا الله ، وما ذكر الله إلا الله وما أحب الله إلا الله[4]. فهذا حقيقة ما عند القوم فالعارفون[5] منهم أرباب البصائر أعطوا – مع ذلك – العبودية حقها ، والعلم حقه ، وعرفوا أن العبد عبد حقيقة من كل وجه ، والربُّ ربٌ حقيقة من كل وجه ، وقاموا[6] بحق العبودية بالله لا بأنفسهم ، ولله لا لحظوظهم[7] ، وفنوا بمشاهدة معاني أسمائه وصفاته عما سواه ، وبما لَهُ محبةً ورضىٰ عما به كوناً ومشيئة : فإن الكون كله به ، والذي له هو محبوبه ومرضيه فهو له وبه[8].

---

(١) في ط : «توجيهاً».

(٢) «القرب» ساقطة من ق.

(٣) قال في مختار الصحاح ٢٤٣ : الرسم الأثر ورسم الدار ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض.
وقال الكاشاني : الرَسم هو الخلق وصفاته لأن الرسوم هي الآثار ، وكل ما سوى الله آثاره الناشئة من أفعاله. معجم اصطلاحات الصوفية ١٦٧ .

(٤) سقط من م : «وما أحب الله إلا الله».

(٥) «فالعارفون» ساقطة من ق وفيها : «فإن».

(٦) في س : «أقاموا».

(٧) في ق : «لا لحظوظ».

(٨) في غ ج بدون : «الواو».

والمنحرفون فنوا بما(١) به عما له، فوالوا أعداءه وعطلوا دينه، وسووا بين محابه ومساخطه، ومواقع رضاه وغضبه، والله المستعان.

قوله: «وَ(٢)التَّخَلُّصُ مِن شُهُودِ ذِكرِكَ».

يعني بفناء شهود ذكره [لك](٣) عن شهود ذكرك له، وهذا الشهود يريح العبد من رؤية النفس، وملاحظة العمل. ويميته ويحييه: يميته عن نفسه، ويوصله بربه، ويفنيه ويبقيه(٤)، ويقتطعه من نفسه ويوصله بربه، وهذا عين الظفر بالنفس.

قال بعض العارفين: انتهىٰ سفر الطالبين(٥) إلىٰ الظفر بنفوسهم.

قوله: «وَمَعرِفَةِ افتِرَاءِ الذَّاكِرِ فِي بَقَائِهِ مَعَ الذِّكرِ»(٦).

يعني أن الباقي مع الذكر يشهد علىٰ نفسه أنه ذاكر، وذلك افتراء منه. فإنه لا فعل له، ولا يزول عنه هذا الافتراء إلا إذا فني عن ذكره، فإن شهود ذكره وبقائه معه افتراء يتضمن نسبة الذكر إليه، وهي في الحقيقة ليست له.

---

(١) «بما» ساقطة من أ.

(٢) «الواو» ساقطة من ط أ ح ب.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) «ويبقيه» ساقطة من ط وفي ش: «ويبقيه ويقنطه» ولعل المثبت أولى لتناسب القطع مع الوصل المذكور بعدها.

(٥) في أ: «النفس الطالبين».

(٦) قوله في منازل السائرين ٧١ وفيه: «مع ذكره».

فيقال : سبحان الله ، أي افتراء في هذا؟ وهل هذا إلا شهود الحقائق علىٰ ما هي عليه؛ فإنه إذا شهد نفسه ذاكراً بجعل الله له ذاكراً وتأهيله له[1] ، وتقدم ذكره للعبد علىٰ ذكر العبد [له][2] فاجتمع في شهوده الأمران.

اعتراض ابن القيم على الهروي في الفناء

فأي افتراء ههنا؟ وهل هذا إلا عين الحق ، وشهود الحقائق علىٰ ما هي عليه؟ نعم الافتراء : أن[3] يشهد ذلك به ، وبحوله ، وقوته ، لا بالله وحده؛ لكن الشيخ - رحمه الله - لا[4] تأخذه في الفناء لومة لائم ، ولا يصغىٰ فيه إلىٰ عاذل[5].

والذي لا ريب فيه : أن البقاء في الذكر أكمل من الفناء فيه والغيبة به[6]؛ لما في البقاء من التفضيل[7] والمعارف وشهود الحقائق علىٰ ما هي عليه ، والتمييز بين الرب[8] والعبد ، وما قام بالعبد ، وما قام بالرب تعالىٰ ، وشهود العبودية والمعبود ، وليس في الفناء شيء من ذلك.

---

(١) «له» ساقطة من أ غ ح ب.

(٢) الزيادة من الجميع عدا م س.

(٣) «أن» ساقطة من ق.

(٤) في س و ش : «لا يأخذه».

(٥) **العذل** : اللوم. انظر : مختار الصحاح ٤٢١ ، والمصباح المنير ٣٩٩.

(٦) «به» ساقطة من غ أ ح ب.

(٧) في الجميع : «التفصيل».

(٨) في م س : «بين العبد وربه».

والفناء كاسمه (الفناء) والبقاء (بقاء) كاسمه[1].

والفناء مطلوب لغيره، والبقاء مطلوب لنفسه.

والفناء وصف العبد، والبقاء وصف الرب.

والفناء عدم، والبقاء وجود.

والفناء نفي، والبقاء إثبات.

والسلوك علىٰ درب الفناء مخطر، وكم به من مفازة ومهلكة، والسلوك علىٰ درب البقاء آمن، فإنه دَرَبَ عليه الأعلام والهداة والأدلة والخفراء[2]. ولكن أصحاب الفناء يزعمون أنه طويل، ولايشكّون في سلامته وإيصاله إلىٰ المطلوب[3] ويزعمون أن درب الفناء أقرب وراكبه طائر، وراكب درب[4] البقاء سائر.

والكُمَّلُ من السائرين[5] يرون الفناء منزلة من منازل الطريق، وليس نزولها عاماً لكل سائر؛ بل منهم من لا يراها ولا يمر بها، وأن[6] الدرب الأعظم

---

(١) «كاسمه» ساقطة من م.

(٢) «الأدلة» ساقطة من ط. ومعنى خفرت الرجل: أجرته وحفظته. وخفرته إذا كنت له حفيراً أي حامياً وكفيلاً. النهاية في غريب الحديث ٢/ ٥٢، وانظر: المصباح المنير ١٧٥.

(٣) في ط زيادة: «ولكنهم».

(٤) «درب» ساقطة من م.

(٥) في م: «الناس» بدلاً من «السائرين».

(٦) في ط ج ق: «وإنما».

والطريق الأقوم: هو (١) درب البقاء، ويحتجون علىٰ صاحب الفناء بالانتقال إليه من الفناء، وإلا فهو عندهم علىٰ خطر. والله المستعان (٢) [وهو سبحانه أعلم].

* * *

(١) «هو» ساقطة من ج.

(٢) الزيادة من ج ق، وفي أ ب غ ح: «والله سبحانه أعلم».

فصـــل

[منزلة الفقر]

منزلة الفقر

ومن منازل « **إياك نعبد وإياك نستعين** » منزلة : « الفقر »[١].

هذه المنزلة من[٢] أشرف منازل الطريق عند القوم[٣] وأعلاها وأرفعها ؛ بل هي روح كل منزلة وسرُّها ولبُّها وغايتُها.

ورود الفقر في القرآن

وهذا إنما يعرف بمعرفة حقيقة (الفقر) والذي تريد[٤] به هذه الطائفة أخص من معناه[٥] الأصلي ، فإن لفظ الفقر وقع في القرآن في ثلاث مواضع.

أحدها : قوله تعالىٰ : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة : ٢٧٣] أي الصدقات لهؤلاء ، و[٦] كان فقراء المهاجرين نحو[٧] أربع مائة ، لم يكن لهم

---

(١) في هامش الأصل ش كتب : «الفقر» وكتب أيضاً : «بلغ والحمد لله».

(٢) «من» ساقطة من ط.

(٣) « عند القوم» ساقطة من ب م.

(٤) في ق : «يريد».

(٥) في أ غ ح : «مما معناه».

(٦) في ط أ ب غ ح بدون الواو.

(٧) «نحو» ساقطة من ق.

مساكن بالمدينة[1] ولا عشائر ، وكانوا قد حبسوا أنفسهم علىٰ الجهاد في سبيل الله ، فكانوا وقفاً علىٰ كل[2] سرية يبعثها رسول الله ﷺ ، وهم أهل الصفة[3].

هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.

وقيل : هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله ، وقيل : حَبَسهم الفقر والعُدْم عن الجهاد في سبيل الله ، وقيل : لما عَادَوا أعداءَ الله وجاهدوهم في الله أحصروا عن الضرب في الأرض لطلب المعاش فلا[4] يستطيعون ضرباً في الأرض[5].

والصحيح أنهم[6] لفقرهم وعجزهم وضعفهم لا يستطيعون ضرباً في الأرض ، ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم أغنياء.

والموضع الثاني : قوله : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ...﴾ [التوبة الآية : ٦٠].

---

(١) في ط أ ب غ ح : «في المدينة».

(٢) «كل» ساقطة من م. والسرية : قال ابن الأثير : «هي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربع مائة تبعث إلىٰ العدو». النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٦٣.

(٣) سموا بذلك نسبة إلىٰ الصفة التي في مؤخرة مسجد الرسول ﷺ لتي كان يأوي إليها الفقراء. انظر : مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٣٨ و ٣٩.

(٤) في م : «ولا».

(٥) في ج زيادة : «ولكمال عفتهم وصيانتهم» وهذه الزيادة تأتي بعد سطر تقريباً.

(٦) في ق : «أنه» . انظر : الدر المنثور ٢/ ٨٨-٩٠ ، وتفسير الطبري ٤/ ٢١-٢٦ و٥/ ٥٩٠-٥٩٢.

والموضع الثالث: قوله تعالى[1]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥].

بيان المراد بالفقر

فالصنف الأول: خواص الفقراء. والثاني: فقراء المسلمين: خاصهم وعامهم. والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم.

فالفقراء الموصوفون في الآية الأولىٰ: يقابلهم أصحاب الجِدَة، ومن ليس محصراً في سبيل الله، ولا يكتم فقره تعفُّفاً، فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني.

والصنف الثاني: يقابلهم الأغنياء أهل الجِدَة، ويدخل فيهم المتعفف وغيره والمحصر في سبيل الله وغيره.

والصنف الثالث: لا مقابل لهم، بل الله وحده الغني، وكل ما سواه فقير إليه. ومراد القوم بالفقر[2]

---

(١) «قوله تعالىٰ» ساقطة من ج ق.

وقد ذكر الفقر في القرآن في أكثر من ثلاث مواضع منها علىٰ سبيل المثال - غير ما ذكر المؤلف - في سورة البقرة الآية ٢٦٨: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ وآية: ٢٧١ وفي الحشر آية: ٨ وفي محمد آية: ٣٨ وغيرها.

(٢) قال الجرجاني في التعريفات ٢١٦: «الفقر: عبارة عن فقد ما يحتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمىٰ فقراً» وقال ابن تيمية - رحمه الله -: «ولفظ الفقر في الشرع يراد به: الفقر من المال، ويراد به: فقر المخلوق إلىٰ خالقه». الفتاوىٰ ١١/ ١٩٦.

[شيء][1] أخص من هذا كله، وهو تحقيق العبودية إلىٰ الله تعالىٰ في كل حالة.

وهذا المعنىٰ أجل من أن يسمىٰ فقراً؛ بل هو[2] حقيقة العبودية، ولبها وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

وسئل عنه يحيىٰ بن معاذ[3] - رضي الله عنه - فقال: حقيقته أن لا يستغني[4] إلا بالله. ورسمه عدم الأسباب كلها[5].

يقول: عدم الوقوف بها والوقوف معها[6]، وهو[7] كما قال بعض المشايخ: [شيء][8] لا يضعه الله إلا عند من يحبه، ويسوقه إلىٰ من يريده[9].

وسيذكر ابن القيم - رحمه الله - شيئاً من أقوالهم. وانظر: زيادة علىٰ ذلك الرسالة القشيرية ص٢٧١-٢٧٩ وكتاب اللمع لأبي نصر السراج ص٧٤ و ٧٥ وإحياء علوم الدين ٤/ ٢٩٤-٣٢٩.

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في غ: «بل» ساقطة.

(٣) أبو زكريا يحيىٰ بن معاذ الرازي الواعظ، خرج إلىٰ بلخ وأقام فيها مدة ثم رجع إلىٰ نيسابور، توفي سنة ٢٥٨هـ. انظر: الرسالة القشيرية ٤١٤، وحلية الأولياء ١٠/ ٥١-٧٠.

(٤) في س: «تستغني».

(٥) انظر: حلية الأولياء ١٠/ ٦٧، والرسالة القشيرية ٢٧٢. وقد تقدم معنىٰ الرسم ص٢٥٦٣.

(٦) في ب: «الوقوف معها والوثوق بها».

(٧) «وهو» ساقطة من ق.

(٨) الزيادة من الجميع.

(٩) في س ش ق ج: «يريد» والأنسب ما أثبت.

وسئل رويم[1] عن الفقر فقال : إرسال النفس في أحكام الله.

وهذا إنما يحمد في إرسالها في أحكامه[2] الدينية والقدرية التي لم يؤمر[3] بمدافعتها والتحرز منها.

وسئل أبو حفص[4] : بم يقدم الفقير علىٰ ربه ، فقال : وما للفقير أن[5] يقدم به علىٰ ربه سوىٰ فقره.

وحقيقة الفقر وكماله ، كما قال بعضهم[6] وقد سئل : متىٰ يستحق الفقير اسم الفقر؟ فقال : إذا لم يبق عليه بقية منه ، فقيل له : وكيف ذاك؟ فقال : إذا كان له فليس له ، وإذا لم يكن له فهو له.

وهذه من أحسن العبارات عن معنىٰ الفقر الذي يسير إليه القوم ، وهو أن

---

(١) أبو الحسن رويم بن أحمد ويقال ابن محمد بن رويم بن يزيد من بني شيبان توفي ببغداد سنة ٣٠٣هـ. انظر : صفة الصفوة ٢/ ٤٤٢ و ٤٤٣ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٩٦ – ٣٠٢ ، وانظر : قوله في الرسالة القشيرية ٢٧٣.

(٢) في البقية عدا س ج : «الأحكام».

(٣) في البقية عدا س : «لا يؤمر».

(٤) هو أبو حفص النيسابوري واسمه عمرو بن سليم وقيل: بن سلمة من أهل قرية كورة أباذ ، توفي سنة ٢٧٠هـ ، وقيل غير ذلك. انظر : صفة الصفوة ٤/ ١١٨-١٢١ ، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ١١٩. وانظر قوله في : الرسالة القشيرية ٢٧٤.

(٥) في الجميع : «شيء يقدم» والمثبت كما في الأصل والرسالة القشيرية.

(٦) القائل هو أحمد بن الجلاء. انظر قوله في : الرسالة القشيرية ٢٧٥.

يصير كله لله ، ولا يبقىٰ عليه بقية من نفسه وحظه وهواه ، فمتىٰ بقي عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول.

ثم فسر ذلك بقوله : إذا كان له فليس له. أي: إذا كان لنفسه فليس لله وإذا لم يكن لنفسه[1] فهو لله.

فحقيقة الفقر إذاً[2] أن لا تكون لنفسك ، ولا يكون[3] لها منك شيء بحيث يكون[4] كلك لله ، وإذا كنت لنفسك فثم مُلك واستغناء مناف للفقر وهذا الفقر الذي يشيرون[5] إليه : لا تنافيه[6] الجِدَة ، ولا الأملاك فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جدتهم ، وملكهم ، كإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ، كان أبا الضيفان ، كانت له الأموال[7] والمواشي وكذلك كان سليمان[8] وداود [عليهما السلام][9] ، وكذلك [كان][10] نبينا ﷺ

---

(١) في أ «فليس هو».

(٢) «إذاً» ساقطة من أ ح ط ب غ.

(٣) في البقية : «ولا يكون».

(٤) في البقية عدا س : «تكون».

(٥) في م «يشير».

(٦) في ج س : «ينافيه».

(٧) في ش : «أموال» والمثبت أولىٰ.

(٨) في ج : «داود وسليمان».

(٩) الزيادة من الجميع عدا ج م س.

(١٠) الزيادة من الجميع عدا م ق.

كان][1] كما قال الله[2] تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٨] فكانوا أغنياء في فقرهم، فقراء في غناهم.

فالفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلىٰ الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة، فاقة تامة إلىٰ الله تعالىٰ من كل وجه. فالفقر ذاتي للعبد، وإنما يتجدد[3] له بشهوده[4] ووجوده حالاً، وإلا فهو حقيقة.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً ... كما الغنىٰ أبداً وصف له ذاتي[5]

وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم إليها كقول بعضهم: الفقير لا تسبق همته خطوته[6].

يريد: أنه ابن حاله ووقته، فهمَّته مقصورة علىٰ وقته ولا تتعداه. وقيل: أركان الفقر أربعة: علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س.

(٢) «الله» ساقطة من م ق.

(٣) في س: «يتحدد» وفي م: «يتجرد».

(٤) في س ش ج: «مشهودة» وفي ط: «لشهوده» وفي البقية كما أثبت، وهو الأنسب.

(٥) في بصائر ذوي التمييز: قال بعض المشايخ ثم ذكر هذا البيت. انظر: ٤/ ٢٠٦.

(٦) في ط: «خطواته» والقائل هو عبدالله المرتعش. انظر: الرسالة القشيرية ٢٧٥.

وقال الشبلي ـ رحمه الله ـ[1] : حقيقة الفقر أن لا يستغني بشيء دون الله[2].

وسئل سهل بن عبدالله ـ رحمه الله ـ[3] : متىٰ يستريح الفقير؟ فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه[4].

وقال أبو حفص ـ رضي الله عنه ـ : أحسن ما يتوسل به العبد إلىٰ الله : دوام الافتقار إليه علىٰ جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال[5].

وقيل : من حكم الفقير[6] : أن لا تكون[7] له رغبة[8] فإن كان ولا بد فلا تجاوز رغبته كفايته.

---

(١) هو دلف بن جحدر الشبلي ولد سنة ٢٤٧هـ وهو بغدادي المولد والمنشأ، وأصله من خراسان، صحب الجنيد ومن في عصره، وتوفي سنة ٣٣٤هـ. انظر : الرسالة القشيرية ص٤١٩ و ٤٢٠، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ص٢٢٦-٢٣٠.

(٢) انظر : الرسالة القشيرية ٢٧٦.

(٣) هو سهل بن عبدالله بن يونس التستري أسند عن خاله حمد بن سوار ولقي ذا النون وتوفي سنة ٢٨٣هـ وقيل غير ذلك. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٨٢-١٨٤، وصفة الصفوة ٤/ ٦٥-٦٦، وحلية الأولياء ١٠/ ١٨٩-٢١٢.

(٤) انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٢٠٠، والرسالة القشيرية ٢٧٨.

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ٢٧٥.

(٦) في الجميع عدا ق : «الفقر».

(٧) في س ج ح : «أن يكون».

(٨) في ط : «فإذا» وانظر هذا القول في الرسالة القشيرية ٢٧٨.

وقيل : الفقير من لا يَملك ولا يُملك ، وأتم من هذا : من يملك ولا يملكه ما ملك [١].

وقيل : من أراد الفقر لشرف الفقر مات فقيراً ، ومن أراده لئلا يشتغل عن الله [٢] بغيره مات غنياً.

والفقر له بداية ونهاية ، وظاهر وباطن ، فبدايته : الذل ، ونهايته : العز ، وظاهره : العُدم ، وباطنه : الغنىٰ ، كما قال رجل [٣] لآخر : فقر وذل؟ فقال : لا ؛ بل فقر وعز [٤] فقال : فقر وثراء؟ [٥] فقال : لا ؛ بل فقر وعرش ، وكلاهما مصيب.

واتفقت كلمة القوم علىٰ أن دوام الافتقار إلىٰ الله ، مع التخليط ، خير من دوام الصفا مع رؤية النفس [٦] والعجب ، مع أنه لا صفاء معهما. وإذا عرفت معنىٰ الفقر عرفت [٧] أنه عين الغنىٰ بالله ، فلا معنىٰ لسؤال من سأل : أي

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية ٢٧٧.

(٢) في البقية عدا س ج م : «بشيء» ، وانظر هذا القول في: الرسالة القشيرية ٢٧٦.

(٣) «رجل» ساقطة من ق ، وهو كما في الرسالة القشيرية ٢٧٦ : «يقول منصور بن خلف المغربي قال لي أبو سهل الخشاب الكبير الفقر فقر وذل ...».

(٤) في ق : «وغناء».

(٥) في ج : «وشر» وبعدها في الجميع عدا ق س ج : «قال».

(٦) في أ زيادة : «الشمس» وهو خطأ.

(٧) في ط : «علمت».

الحالين أكمل ، الافتقار إلىٰ الله ، أم الاستغناء به؟

فهذه مسألة غير صحيحة ، فإن الاستغناء[١] به هو عين الافتقار إليه.

وسئل عن ذلك محمد بن عبدالله الفرغاني - رحمه الله - [٢] فقال : إذا صح الافتقار إلىٰ الله فقد صح الاستغناء بالله ، وإذا صح الاستغناء بالله كمل[٣] الغنىٰ به.

فلا[٤] يقال أيهما أتم[٥] : الافتقار أم الاستغناء[٦]؟ لأنهما حالتان لا تتم[٧] إحداهما إلا بالأخرىٰ[٨].

المفاضلة بين الفقر والغنى

وأما كلامهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر وترجيح أحدهما علىٰ صاحبه فعند أهل التحقيق والمعرفة : أن التفضيل لا يرجع إلىٰ ذات الفقر والغنىٰ. وإنما يرجع إلىٰ الأعمال والأحوال والحقائق.

---

(١) في ح : «فالاستغناء».

(٢) أبو جعفر محمد بن عبدالله الفرغاني ، نزل بغداد ولزم الجنيد واشتهر بصحبته.
انظر : تاريخ بغداد ٥/ ٤٥٠ و ٤٥١ (٣٩٨٢). ولم أجد ما ذكر المؤلف منسوباً إليه فلعله يقصد محمد بن موسىٰ الفرغاني المشهور بأبي بكر الواسطي، وانظر قوله في: الرسالة القشيرية ٣١٣.

(٣) في ق : «الاستغناء به».

(٤) في م : «فقال يقال».

(٥) في الجميع عدا س م ج : «أفضل».

(٦) في م س ج ش : «الفنا» والمثبت أولىٰ لموافقة ما قبله.

(٧) في ج : «يتم».

(٨) في م : «الآخر» ، وهذا القول نسب إلىٰ الجنيد ، انظر: الرسالة القشيرية ٢٧٣.

فالمسألة أيضاً[١] فاسدة في نفسها. فإن التفضيل عند الله بالتقوىٰ، وحقائق الإيمان، لا بفقر وغنىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ولم يقل أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ[٢]: «الفقر والغنىٰ ابتلاء من الله لعبده كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي ليس كل من[٣] أعطيتُه ووسعتُ عليه أكون قد أكرمتُه، ولا كل من ضيقت عليه وقتَّرت: [أكون][٤] قد أهنته، فالإكرام[٥] أن يكرم[٦] العبد بطاعته والإيمان به[٧] و محبته ومعرفته، والإهانة أن يسلبه ذلك.

قال[٨]: ولا يقع التفاضل[٩] بالغنىٰ والفقر؛ بل بالتقوىٰ، فإذا استويا في

---

(١) في م: «إذاً» بدل: «أيضاً».

(٢) في الجميع عدا الأصل بزيادة «واو» والأولىٰ عدمها.

(٣) في ط أ ب غ ح: «من وسعت عليه وأعطيته».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في: «والإكرام».

(٦) في ط زيادة: «الله».

(٧) «محبته» ساقطة من م، وانظر قوله في: مجموع الفتاوىٰ ١٦/ ٥٣.

(٨) في أ ب م ط غ زيادة: «يعني ابن تيمية» والأولىٰ عدم إثباتها؛ لأن الناقل هو ابن القيم، وهذا تفسير لكلامه؛ فهي زيادة من غيره.

(٩) في م: «بالفقر والغنىٰ».

التقوىٰ، استويا في الدرجة. سمعته يقول ذلك(١).

وتذاكروا هذه المسألة عند يحيىٰ بن معاذ ـ رحمه الله ـ فقال: لا يوزن غداً الفقر ولا الغنىٰ، وإنما يوزن الصبر والشكر(٢).

وقال غيره(٣): هذه المسألة محال من وجه آخر، وهو أن كلاً من الغني والفقير، لا بد له من صبر وشكر، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر؛ بل قد يكون(٤) قسط الغني من الصبر أوفر؛ لأنه يصبر عن(٥) قدرةٍ، فصبره أتم من صبر من يصبر عن عجز.

ويكون شكر الفقير [أتم؛ لأن الشكر](٦) هو استفراغ الوسع في طاعة الله، والفقير أعظم فراغاً للشكر من الغني، فكلاهما لا تقوم(٧) قائمة إيمانه إلا علىٰ ساقي الصبر والشكر.

نعم الذي يحكي(٨) الناس من هذه المسألة: فرعاً من الشكر، وفرعاً من

---

(١) هنا زيادة تكرار من س وهي قوله: «ولا يقع التفاضل بالغنىٰ والفقر؛ بل بالتقوىٰ فإذا استويا» وانظر قول ابن تيمية في: مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٢١.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية ٢٧٧.

(٣) «غيره» ساقطة من ح.

(٤) في ط: «يكون نصيب الغنىٰ وقسطه».

(٥) في ب ق: «علىٰ».

(٦) الزيادة من الجميع.

(٧) في س ج م: «لا يقوم» ق بعدها: «مقامه إيمانه».

(٨) في م: «يخل».

الصبر وأخذوا في الترجيح بينهما، فجردوا غنياً منفقاً متصدقاً، باذلاً ماله في وجوه القرب شاكراً لله عليه [1]، وفقيراً متفرغاً لطاعة الله [2] ولأوراد العبادات [من الطاعات] [3] صابراً على فقره، فهل هو أكمل من ذلك [4] الغني أم الغني أكمل منه؟ فالصواب في مثل هذا: أن أكملهما أطوعهما، فإن تساوت [5] طاعتهما تساوت درجاتهما. والله أعلم.

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ: «الفَقرُ اسمٌ للبَرَاءةِ مِنَ المِلْكَةِ» [6].

عدل الشيخ عن لفظ عدم الملكة إلى قوله: البراءة من الملكة؛ لأن عدم الملكة ثابت في نفس الأمر لكل أحد سوى الله تعالى [7]، فالله هو المالك حقيقة. فعدم الملكة: أمر ثابت لكل ما سواه لذاته، والكلام في الفقر الذي يمدح فيه صاحبه، وهو [8] فقر الاختيار، وهو أخص من مطلق الفقر، وهو

---

(١) «الواو» ساقطة من ج.

(٢) في ق: «ولأوراده» وسقطت «العبادات».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س ج م.

(٤) «ذلك» ساقطة من س.

(٥) في أ غ ح: «درجاتهما تساوت طاعتهما».

(٦) منازل السائرين ٧١.

(٧) في أ ب: «فإن الله».

(٨) في ط: «هو».

براءة العبد من دعوىٰ الملك بحيث لا ينازع مالكه الحق (١).

ولما كانت نفس الإنسان ليست له ، وإنما هي ملك لله ، فما لم يخرج عنها ويسلمها لمالكها ومولاها(٢) الحق ، لم يثبت له في الفقر قدم ، فلذلك كان أول قدم الفقر : الخروج عن النفس ، وتسليمها لمالكها ومولاها ، فلا يخاصم لها(٣) ، ولا يتوكل لها ، ولا يحتاج (٤) عنها ، ولا ينتصر لها ؛ بل يفوض(٥) ذلك لمالكها وسيدها.

قال بندار بن الحسين ـ رحمه الله ـ(٦) : لا تخاصم لنفسك ، فإنها ليست لك دعها لمالكها يفعل بها ما يريد(٧).

وقد أجمعت هذه الطائفة [علىٰ](٨) أنه لا وصول إلىٰ الله إلا من طريق الفقر ،

---

(١) في ج : «فكلما».

(٢) «ومولاها» ساقطة من الجميع عدا ش ج ، ثم سقط من ج إلىٰ قوله : «فلا يخاصم لها».

(٣) سقط من م : «ولا يتوكل لها».

(٤) في : «ولا يحاجج».

(٥) في الأصل : «تفويض» ولعل المثبت أولىٰ لموافقة ما قبله.

(٦) أبو الحسن بندار بن الحسن – هكذا كما في الحلية – بن محمد بن المهلب الشيرازي ، شيرازي المولد ، صحب دلف الشبلي ، وحضر مجلسه أبو زرعة الطبري توفي سنة ٣٥٣هـ. انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٣٨٤ و ٣٨٥ ، والرسالة القشيرية ٤٢٠ ، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ص١٧٣ و ١٧٤.

(٧) انظر قوله هذا في كل المراجع السابقة في ترجمته.

(٨) الزيادة من الجميع عدا س م.

ولا دخول عليه إلا من بابه. [والله أعلم][1].

فصل

درجات الفقر

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: فَقرُ الزُّهَّادِ، وَهُوَ قَبْضُ اليَدِ عَنِ الدُّنيَا ضَبطاً أَو طَلَباً، وَإِسكَاتُ اللِّسَانِ عَنهَا مَدحاً أَو ذَمّاً، وَالسَّلَامَةُ مِنهَا طَلَباً أَو تَركاً، وَهَذَا هُوَ الفَقرُ الَّذِي تَكَلَّمُوا فِي شَرَفِهِ»[2].

الدرجة الأولى

تعريف الدنيا

الدنيا عند القوم: ما سوىٰ الله، من المال والجاه والصور والمراتب، واختلف المتكلمون فيها علىٰ قولين، حكاهما أبو الحسن الأشعري ـ رحمه الله ـ[3] في مقالاته[4].

أحدهما[5]: أنها اسم لمدة بقاء هذا العالم.

الثاني: أنها اسم لما بين السماء والأرض، فما فوق السماء ليس من الدنيا،

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س م.

(٢) انظر: منازل السائرين ص٧١ و ٧٢ وفيه: «نفض اليدين» بدلاً «من قبض اليد» وتقديم الذم علىٰ المدح.

(٣) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري، ولد سنة ٣٢٤هـ وقيل غير ذلك. انظر: البداية والنهاية ١١/ ١٨٧، وشذرات الذهب ٢/ ٣٠٣ - ٣٠٥.

(٤) انظر: مقالات الإسلاميين ٤٤٣، وما ذكره المؤلف هنا بأحدهما أي الأول وهو يوافق الثاني الذي ذكره الأشعري حيث قال في آخره: «قبل مجيء الآخرة وورودها» والثاني هنا يوافق الأول الذي ذكره الأشعري حيث قال: «فقال قائلون: هي الهواء والجو».

(٥) في هامش ق: «قف علىٰ القولين - ثم كلمة غير واضحة - في الدنيا».

وما تحت الأرض ليس منها.

فعلىٰ الأول: تكون الدنيا زماناً. وعلىٰ الثاني: تكون مكاناً.

طلب الدنيا وتركها

ولما كان لها تعلق بالجوارح والقلب واللسان، كان حقيقة الفقر: تعطيل هذه الثلاثة عن تعلقها بها، وسلبها منها، فلهذا(١) قال: «قَبْضُ اليَدِ عَنِ الدُّنْيَا ضَبْطاً أَوْ طَلَباً» يعني يقبض يده عن إمساكها إذا حصلت له. فإذا قبض يده عن الإمساك جاد بها، وإن كانت غير حاصلة له كفَّ يده عن طلبها، فلا يطلب معدومها، ولا يبخل بموجودها.

وأما تعطيلها عن اللسان فإنه(٢) لا يمدحها ولا يذمها، فإن اشتغاله بمدحها أو ذمها دليل [علىٰ](٣) محبتها ورغبته فيها، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، وإنما اشتغل بذمها حيث فاتته، كمن طلب العنقود فلم يصل إليه، فقال: هو حامض.

ولا يتصدىٰ لذم الدنيا، إلا راغب محب مفارق(٤)، فالواصل مادح، والمفارق ذام.

وأما تعطيل القلب منها فبالسلامة من آفات طلبها وتركها، فإن(٥) لطلبها

---

(١) في ط: «فلذلك».

(٢) في م س: «فإن»، ط والبقية: «فهو أن».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س م.

(٤) في ق: «فالمواصل».

(٥) في البقية عدا س م: «فإن لتركها آفات ولطلبها آفات».

آفات، ولتركها آفات، والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك بحيث[1] لا تحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة لا في طلبها وأخذها ولا في تركها والرغبة عنها.

فإن قلت: عرفت الآفة في أخذها وطلبها، فما وجه الآفة في تركها والرغبة[2] عنها.

قلت: من وجوه شتىٰ:

أحدها[3]: أنه إذا تركها - وهو بشر لا مَلَك - تعلق قلبه بما يقيمه ويقيته[4] ويعيشه، وما هو محتاج إليه، فيبقىٰ في مجاهدة شديدة مع نفسه لترك معلومها وحظها من الدنيا، وهذه قلة فقه في الطريق؛ بل الفقيه العارف: يَرُدها عنه بلقمة، كما يرد الكلب إذا نبح عليه بكسرة، ولا يقطع زمانه بمجاهدته[5] ومدافعته؛ بل أعطها حظَّها، وطلبها بما عليها من الحق.

هذه طريقة الرسل - صلىٰ الله عليهم وسلم -، وهي طريقة العارفين من أرباب السلوك[6] كما قال النبي ﷺ: «**إن لنفسك عليك حقاً [ولربك عليك**

---

(١) في البقية عدا س: «لا يحجبه».

(٢) في ج: «ورغبته».

(٣) «أنه» ساقطة من ح ب.

(٤) في س: «ويعينه».

(٥) في أ: «لمجاهدته».

(٦) قال التهانوي: «السلوك: بضم السين: عند السالكين عبارة عن تهذيب الأخلاق ليستعد

حقـاً][1] ، ولزوجـك عليـك حقـاً ، ولـضيفك عليـك حقـاً ، فـأعط كـل ذي حـق حقه»[2].

والعارف البـصير ، يجعـل عـوض مجاهدتـه لنفسه في تـرك شـهوة مباحـة : مجاهدته لأعداء الله من شياطين الإنس والجن ، وقطاع الطريـق علىٰ القلـوب - كأهـل[3] البـدع مـن بنـي العلـم ، وبنـي الإرادة - ويـستفرغ قـواه في حـربهم ومجاهـدتهم ، ويتقـوىٰ عـلىٰ حـربهم بإعطـاء الـنفس حقهـا مـن المبـاح ، ولا يشتغل بها.

ومن آفات الترك : تطلعه إلىٰ ما في أيـدي النـاس إذا مـسته الحاجـة إلىٰ مـا

للوصول. أي السلوك أن يطهر العبد نفسه عـن الأخـلاق الذميمـة مثـل حـب الـدنيا والجـاه ، ومثـل الحقـد والحسد... ونحوهـا مـن المعـاصي ويـتصف بـالأخلاق الحميـدة مثـل العلـم والحلم والحياء والرضا والعدالة ونحوها» كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٤٠٠ ، والـسالك في اللغة هو السائر. انظر : المصباح المنير ٣١٠ ، وقد قسم ابـن تيميـة ـ رحمـه الله ـ الـسلوك إلىٰ قسمين : سلوك الأبرار أهل اليمين ، وسلوك المقربين السابقين. انظر : مجموع الفتـاوىٰ ١٠/ ٤٦٣ و ٤٦٤.

(١) الزيادة من ح أ ب غ.

(٢) الحديث ذكره المؤلف هنا بمعناه ، وقد رواه البخاري في صحيحه في كتاب الصوم ، باب من أقسم علىٰ أخيه ليفطر في التطوع وأوله : «إن لربك عليك حقاً...» ١/ ٢٤٣.

وروىٰ مسلم أجزاءً من هذا الحديث منها هـذا اللفـظ ، ومنهـا : «لعينـك حـق ولنفـسك حـق ولأهلك حق». صحيح مسلم كتاب الصوم ، باب النهي عن صوم الـدهر رقـم ١٨٢ و١٨٦ ، ١/ ٨١٣ و ٨١٤ و٨١٥.

(٣) في م : «كأهل العلم من أبناء العلم وأبناء الإرادة».

تركه فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك.

ومن آفات تركها وعدم أخذها : ما يداخله من الكبر والعجب والزهو. وهذا يقابل الزهد فيها وتركها[1] ، كما أن[2] كَسْرة الآخذ وذلّته وتواضعه : يقابل الآخذ [التارك][3] ، ففي الأخذ آفات ، وفي الترك آفات.

فالفقر الصحيح : السلامة من آفات الأخذ والترك ، وهذا لا يحصل إلا بفقه في الفقر.

قوله : «فَهَـذَا هُوَ الفَقْرُ الَّـذِي تَكَلَّمُوا في شَرَفِهِ» يعني تكلم فيه[4] أرباب السلوك ، وفضَّلوه ومَدَحُوه.

فصـــل[5]

الدرجة الثانية قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الرُّجُوعُ إِلَىٰ السَّبقِ بِمُطَالَعَةِ الفَضلِ ، وَهُوَ يُورِثُ الخَلاَصَ مِن رُؤيَةِ الأَعمَالِ ، وَيَقطَعُ شُهُودَ[6] الأَحوَالِ ، وَيُمَحِّصُ[7] مِن أَدنَاسِ

(١) في م : «وأخذها».

(٢) في س : «كثرة».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س ج م.

(٤) «فيه» ساقطة من ج.

(٥) في ج كتب بالهامش «بلغ» ، وسقط قوله : «فصل قال» من ج م ق.

(٦) في م : «شهودها».

(٧) في «ق» : «ويمحض».

مُطَالَعَةِ المقَامَاتِ»[١].

يريد بالرجوع إلىٰ السبق : الالتفات إلىٰ ما سبقت به السابقة ، من الله بمطالعه فضله ومنته وجوده ، وأن العبد وكُلَّ[٢] ما فيه من خير فهو محض جود الله وإحسانه ، وليس للعبد من ذاته سوىٰ العُدْم.

وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله له[٣] ، فإذا شهد هذا وأحضره قلبه ، وتحقق به : خلصه من رؤية أعماله ، فإنه لا يراها إلا من الله وبالله ، وليست منه ولا به.

واتفقت كلمة الطائفة علىٰ أن رؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله ويخلصه[٤] منها : شهود السبق ومطالعة الفضل.

وقوله : «وَيَقطَعُ شُهُودَ الأَحوَالِ».

لأنه إذا طالع سبق فضل الله : علم أن كل ما حصل[٥] له من حال أو غيره ، فهو محض جوده ، فلا يشهد له حالاً مع الله ولا مقاماً ، كما لم يشهد له عملاً ، فقد جعل عدته[٦] للقاء ربه : فقره من أعماله وأحواله ، فهو لا يقدم عليه إلا

---

(١) منازل السائرين ٧٢.

(٢) في ج : «الكل».

(٣) «له» ساقطة من ج ق ، وفي أ ب غ ح : «به»وط : « عليه ».

(٤) في س : «وتخلصه».

(٥) في س : «جعل».

(٦) في ج : «عدله».

بالفقر المحض، وهو[١] العلاقة التي بينه وبين ربه، والنسبة التي ينتسب بها إليه، والباب الذي يدخل منه عليه.

وكذلك قوله: «يُمَحِّصُ[٢] مِن أَدنَاسِ مُطَالَعَةِ المَقَامَاتِ». هو من جنس التخلص من رؤية الأعمال، والانقطاع عن رؤية شهود الأحوال.

ومطالعة المقامات: دنس عند هذه الطائفة، فمطالعة الفضل يمحص[٣] من هذا الدنس.

الفرق بين الحال والمقام

والفرق بين الحال والمقام: أن الحال معنىً يرد علىٰ القلب من غير اجتلاب له ولا اكتساب[٤]، ولا تعمد. والمقام يتوصل إليه بنوع كسب وطلب. فالأحوال عندهم مواهب[٥]، والمقامات مكاسب، المقام يحصل ببذل المجهود، وأما الحال: فمن عين الوجود[٦].

---

(١) في ط: «فالفقر خير العلاقة» وفي أ ح «فهو» وفي م: «وهي».

(٢) في ج م: «تمحص».

(٣) في ج م: «تمحص».

(٤) في م: «وانكشاف».

(٥) «مواهب» ساقطة من م.

(٦) ما ذكره المؤلف هنا في التفريق بين الحال والمقام ذكره الجرجاني في كتابه التعريفات مع اختلاف يسير، انظر ص١١٤، وأصله في كتاب معجم اصطلاحات الصوفية. انظر ص٨١ في تعريف الحال و١٠٧ في تعريف المقام وزيادة، انظر: كتاب اللمع للطوسي ص٦٥-٦٧، و٤١١.

ولما دخل الواسطي[١] نيسابور[٢] سأل أصحاب أبي عثمان[٣] ـ رحمه الله ـ بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا : كان يأمرنا[٤] بالتزام الطاعات ، ورؤية التقصير فيها. فقال : أمركم بالمجوسية[٥] المحضة. هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية مُنشِئِها ومُجرِيها؟

قلت : لم يأمرهم أبو عثمان ـ رحمه الله ـ إلا[٦] بالحنيفية المحضة ، وهي القيام بالأمر ومطالعة التقصير فيه ، وليس في هذا من رائحة المجوسية شيء ، فإنه إذا[٧] بذل الطاعة لله وبالله صانه ذلك عن الاتحاد والشرك ، وإذا شهد

---

(١) هو أبو بكر محمد بن موسىٰ الواسطي خراساني الأصل من فرغانه وأقام بمرو صحب الجنيد والنوري ، توفي سنة ٣٣١. انظر : الرسالة القشيرية ص٤٣٩ و ٤٤٠ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٤٩ ، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/ ٢١٩.

(٢) هي مدينة كبيرة من مدن خراسان ، قيل سبب تسميتها بذلك أن الملك سابور مر بها وقال يصلح أن يكون هنا مدينة فسميت بنيسابور ، وقيل غير ذلك وقد فتحها المسلمون عام ٣١هـ وقيل قبل ذلك. انظر : معجم البلدان ٥/ ٣٣١-٣٣٣ و ٢/ ٣٥٠.

(٣) هو سعيد بن إسماعيل الحيري نسبة إلىٰ الحيرة إلا أنه خرج إلىٰ نيسابور فتوطن ومات بها سنة ٢٩٨هـ. انظر : صفة الصفوة ٤/ ١٠٣ - ١٠٧ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤-٢٤٦.

(٤) في س أ غ ط : «يأمر».

(٥) المجوس : هم الذين يقولون بإلهين اثنين هما النور والظلمة إلا أن النور أفضل عندهم من الظلمة ؛ بل هو أزلي ، والظلمة محدثة. انظر : الملل والنحل ١/ ١٣٢-١٣٣ ، ومقالات الإسلاميين ٣٠٨.

(٦) في ج : «أو».

(٧) «إذا» ساقطة من ق.

تقصيره فيها صانه عن الإعجاب ، فيكون قائماً بإياك نعبد وإياك نستعين.

وأما ما أشار إليه الواسطي ـ رحمه الله ـ : فمشهد الفناء ، ولا ريب أن مشهد البقاء أكمل منه[١] فإن من غاب عن طاعاته : لم يشهد تقصيره فيها. ومن تمام العبودية : شهود التقصير ، فمشهد أبي عثمان ـ رحمه الله ـ أتم من مشهد الواسطي[٢].

وأبو عثمان هذا : هو سعيد بن إسماعيل النيسابوري من جلة شيوخ القوم وعارفيهم ، وكان يقال في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم : أبو عثمان [النيسابوري][٣] بنيسابور ، والجنيد[٤] ببغداد[٥] ، وأبو عبدالله بن الجلاء[٦] بالشام[٧] ، وله كلام

---

(١) «منه» ساقطة من ط.

(٢) في ج زيادة : «في مشهد الفناء ولا ريب أن مشهد البقاء أكمل منه» وهي غير ملائمة.

(٣) الزيادة من غ أ ح ، وانظر ما قاله ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الرسالة القشيرية ٤٠٧.

(٤) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز ، أصل أبيه من نهاوند ، توفي ببغداد سنة ٢٧٩ وقيل ٢٩٨هـ. انظر : طبقات الصوفية ص٣٦-٣٨ ، الطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/ ٧٢-٧٤ ، وفيات الأعيان ١/ ٣٧٣ - ٣٧٥ (١٤٤) ، طبقات الشافعية ٢/ ٢٦٠ - ٢٧٥ ، شذرات الذهب ٢/ ٢٢٨-٢٣٠.

(٥) بغداد : بلدة بالقرب من دجلة والفرات ، وأصلها للأعاجم ، وقيل معنىٰ بغداد بستان رجل ، وقيل الصنم أعطاني ، وقيل غير ذلك. انظر : معجم البلدان ١/ ٤٥٦-٤٦٧.

(٦) هو أحمد بن يحيىٰ أبو عبدالله بن الجلاء من أهل بغداد ، سكن الشام وصحب ذا النون المصري وأبا تراب وقد توفي في يوم السبت من شهر رجب سنة ٣٠٦هـ. انظر : صفة الصفوة ٢/ ٤٤٣ و ٤٤٤ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٣١٤و ٣١٥.

(٧) الشام : سميت بذلك لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات وقيل غير ذلك

رفيع عال في التصوف والمعرفة ، وكان شديد الوصية باتباع السنة وتحكيمها ولزومها ، ولما حضرته الوفاة مزق ابنه قميصاً علىٰ نفسه ، ففتح أبو عثمان عينيه ، وهو في السياق فقال[1] : يا بني خلاف السنة[2] علامة في الظاهر رياء في الباطن.

فصل

الدرجة الثالثة قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : صِحَّةُ[3] الاضطِرَارِ ، وَالوُقُوعُ في يَدِ التَّقَطُّعِ الوجدَانيِّ[4] ، وَالاحتِبَاسُ فِي بَيدَاءِ قَيدِ التَّجرِيدِ ، وَهَذَا فَقرُ الصُّوفِيَّةِ»[5].

وحدها من الفرات إلىٰ العريش ومن جبل طي إلىٰ بحر الروم. انظر : معجم البلدان ٣/ ٣١١-٣١٥.

(١) في م : «وقال».

(٢) في البقية عدا س م : «وفي الظاهر علامة رياء في الباطن» وفي صفة الصفوة ٤/ ١٠٦ هكذا : «خلاف السنة في الظاهر من رياء في باطن القلب».

(٣) «صحة» ساقطة من الجميع.

(٤) في ط : «أو».

(٥) منازل السائرين ٧٢.

والصوفية : سموا بذلك نسبة إلىٰ لبس الصوف ، وقيل إلىٰ الصفا والوفاء ، وقيل غير ذلك ، والأقرب الأول ، ومبدأ الصوفية كان محموداً ثم كثر عند المتأخرين الشطح والغلو بالمشايخ ، ووصفهم بما لا يستحقه المخلوق ، وابتدعوا تعظيم القبور وأهلها ، كما ابتدعوا الرقص والغنا باسم الذكر والدعاء وغير ذلك مما يطول ذكره. انظر : حلية الأولياء ١/ ١٧ و١٨ ، ومجموع الفتاوىٰ لابن تيمية ١١/ ٥-٢٤.

الاضطرار : شهود كمال الضرورة ، والفاقة علماً وحالاً.

ويريد بالوقوع في يد التقطع الوجداني : حضرة الجمع التي ليس عندها أغيار. فهي منقعة عن الأغبار ، وحدانية بنفسها[١] ، والوقوع في يدها : الاستسلام والإذعان لها ، والدخول في رقِّها.

وقد تقدم أن حضرة الجمع عندهم : هي شهود الحقيقة الكونية ، ورؤيتها بنور الكشف ، حيث يشهدها منشأ جميع الكائنات ، والكائنات عدم بالنسبة إليها.

وأما[٢] الاحتباس في بيداء قيد التجريد : فهو تجريد الفردانية أن يشهد[٣] معها غيرها ، وهو الفناء عن شهود السوىٰ ، وسمىٰ ذلك احتباساً : لأنه منع نفسه عن شهود الأغيار ، وجعل للتجريد قيداً ، وهو[٤] التقيد بشهود الحقيقة.

وجعل للقيد[٥] بيداء لوجهين :

أحدهما : أن الأغيار تبيد فيه وتنعدم ، ولا يكون معه سواه.

والثاني : لسعته وفضائه ، فصاحب مشهده : في بيداء واسعة ، وإن احتبس

---

(١) في الجميع عدا س ج : «في نفسها».

(٢) «أما» ساقطة من أ ب.

(٣) في س م : «تشهد».

(٤) في م : «من التقيد».

(٥) في الجميع عدا س : «القيد».

في قيد شهوده.

وقوله : «وَهَذَا فَقرُ الصُّوفِيَّةِ» قد يفهم منه : أن التصوف أعلىٰ [1] عنده من الفقر ، فإن هذه الدرجة الثالثة التي [2] هي أعلىٰ درجات الفقر عنده [3] ، وهي من بعض مقامات الصوفية وطائفة تنازعه في ذلك ، وتقول : التصوف دون هذا المقام بكثير. والتصوف وسيلة إلىٰ هذا الفقر ، فإن التصوف خُلُقٌ ، وهذا الفقر حقيقة وغاية لا غاية وراءها.

وقد تقدم [4] ذكر الخلاف بين القوم في هذه المسألة ، وحكينا فيها ثلاثة أقوال هذين ، والثالث : أنه لا يفضل أحدهما علىٰ الآخر ، فإن كل واحد منهما لا تتم حقيقته إلا بالآخر ، وهذا قول الشاميين والله أعلم.

* * *

---

(١) في م : «عنده أعلىٰ».

(٢) «التي» ساقطة من ح.

(٣) في أ : «هي عنده».

(٤) انظر : قوله المتقدم في المدارج ، تحقيق الفقي ٢/ ٣٦٨ و٣٦٩. وفي آخر الفصل الأول من منزلة الإرادة.

فصـــل

[منزلة الغنىٰ]

منزلة الغنى

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «الغنىٰ(١) العالي».

وهو نوعان : غنىٰ بالله ، وغنىٰ عن غير الله. وهما حقيقة الفقر. ولكن أرباب الطريق أفردوا للغنىٰ منزلة.

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ : «**بَابُ الغِنَىٰ**(٢). **قَالَ**(٣) **اللهُ تَعَالَىٰ** : ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحىٰ : ٨].

وفي الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه أغناه من المال بعد فقره : وهذا قول أكثر المفسرين ؛ لأنه قابله

---

(١) الغنىٰ في اللغة : الاكتفاء بشيء عن آخر.

انظر : المصباح المنير ٤٥٥ ، مختار الصحاح ٤٨٣.

وعندهم كما قال الكاشاني : الملك التام ، فالغنيّ بالذات ، ليس إلا الحق إذ له ذات كل شيء. والغني من العباد : من استغنىٰ بالحق عن كل ما سواه ؛ لأنه إذا فاز بوجوده ، فاز بكل شيء ؛ بل لا يرىٰ لشيء وجوداً ولا تأثيراً ، وظفر بالمطلوب واستبشر بشهود المحبوب. معجم اصطلاحات الصوفية ١٨٥.

(٢) «باب الغنىٰ» ساقطة من أ.

(٣) في ب : «قال قال» وفي م : «قال تعالىٰ».

بقوله : «عائلاً» والعائل : هو المحتاج. ليس ذا العيلة. فأغناه [من المال] (١).

والثاني : أنه رضاه (٢) بما أعطاه. وأغناه به عن سواه. فهو غنىٰ قلب ونفس ، لا غنىٰ مال. وهو حقيقة الغنىٰ.

والثالث - وهو الصحيح - : أنه يعم [النوعين] (٣) نوعي الغنىٰ، فأغنىٰ قلبه (٤) وأغناه من المال.

ثم قال : «الغِنَىٰ اسمٌ لِلمِلْكِ التَّامِّ» يعني أن من كان مالكاً من وجه دون وجه فليس بغني. وعلىٰ هذا : فلا يستحق اسم «الغنىٰ» بالحقيقة إلا الله. وكل ما سواه فقير إليه بالذات.

درجات الغنى
الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : غِنَىٰ القَلْبِ. وَهُوَ سَلاَمَتُهُ مِنَ السَّبَبِ ، وَمُسَالمتُهُ لِلْحُكْمِ. وَخَلاَصُهُ مِنَ الخُصُومَةِ» (٥).

حقيقة غنى القلب

حقيقة غنىٰ القلب : تعلقه بالله تعالىٰ. وحقيقة فقره المذموم : تعلقه بغيره. فإذا تعلق بالله حصلت له هذه الثلاث التي ذكرها.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٢) في ط : «أرضاه».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س.

(٤) في ط زيادة «به».

(٥) في ح «الحكومة» وانظر قوله في منازل السائرين ص٧٢ و ٧٣ وفيه «ومسالمته الحكم» بدلاً من «للحكم».

سلامته من السبب [أي](١) من التعلق به، لا من القيام به. والغنىٰ عند أهل الغفلة بالسبب. ولذلك قلوبهم متعلقة(٢) به، وعند العارفين بالمسبِّب. وكذلك الصناعة والقوة. فهذه الثلاثة: هي جهات الغنىٰ عند الناس. وهي التي أشار إليها النبي ﷺ في قوله(٣): «إن الصدقة لا تحل لغني [ولا لذي(٤) مِرَّة سَوِي» وفي رواية](٥): «ولا لقوي مكتسب»(٦) وهو غنيّ بالشيء. فصاحبها غني بها. إذا سكنت نفسه إليها(٧). وإن كان سكونه إنما هو(٨) إلىٰ ربه: فهو غني به. وكل ما

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في ط: «معلقه».

(٣) «في قوله» ساقطة من ق.

(٤) قوله: «ولا لذي مِرَّةُ سوي» قال ابن الأثير: المِرَّةُ: القوة والشدة. والسوي: الصحيح الأعضاء. النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣١٦.

(٥) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٦) الحديث رواه الترمذي في سننه كتاب الزكاة، باب ما جاء من لا تحل له الصدقة. وقال عنه حديث حسن ٣/ ٤٢ (٦٥٢)، وأبو داود في كتاب الزكاة، باب من يعطىٰ من الصدقة وحد الغنىٰ ٢/ ٢٨٥ و ٢٨٦ (١٦٣٤)، وابن ماجه في كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنىٰ ١/ ٥٨٩ (١٨٣٩)، والنسائي في كتاب الزكاة، باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها ٥/ ٩، ٩٩، وأحمد في المسند ٢/ ١٦٤، والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الذهبي: علىٰ شرطهما. انظر: المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٤٠٧. وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح ابن ماجه ١/ ٣٠٨ (١٤٨٩).

(٧) في ج: «فإن».

(٨) في أ، ب، غ، ح سقط: «إنما هو».

سكنت النفس إليه فهي فقيرة إليه.

وأما «مُسَالمةُ الحُكمِ» فعلىٰ نوعين :

أحدهما : مسالمة [1] الحكم الديني الأمري. وهي معانقته وموافقته. ضد محاربته.

والثاني : [2] الحكم الكوني القدري ، الذي يجري عليه بغير اختياره ، ولا قدرة له علىٰ دفعه ، وهو غير مأمور بدفعه.

وفي مسالمة الحكم نكتة لابد منها. وهي تجريد إضافته ونسبته إلىٰ من صدر عنه ، بحيث لا ينسبه إلىٰ غيره.

وهذا يتضمن توحيد الربوبية في مسالمة الحكم الكوني. وتوحيد [3] الإلهية في مسالمة الحكم الديني . وهما حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [4].

وأما «الخَلاَصُ مِن الخُصُومَةِ» فإنما يحمد منه : الخلاص من الخصومة بنفسه لنفسه. وأما إذا خاصم بالله ولله : فهذا من كمال العبودية. وكان النبي ﷺ يقول في استفتاحه : «اللهم لك أسلمت. وبك آمنت. وعليك

(١) سقط من م س : «الحكم الديني» ثم قال بعدها : «الأمر وهي».

(٢) في ط زيادة : «مسالمة».

(٣) في ق : «فتوحيد».

(٤) في هامش ج : «بلغ».

توكلت. وإليك أنبت. وبك خاصمت. وإليك حاكمت»[١].

الدرجة الثانية [٢] قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: غِنَىٰ النَّفسِ. وَهُوَ استِقَامَتُهَا عَلَىٰ المَرغُوبِ، وَسَلاَمَتُهَا مِن الحُظُوظِ، وَبَرَاءَتهَا مِن المُرَاءَاةِ».

جعل الشيخ - رحمه الله -[٣]: غنىٰ النفس فوق القلب.

ومعلوم: أن أمور القلب أكمل وأقوىٰ من أمور النفس؛ لكن في هذا الترتيب نكتة لطيفة. وهي أن النفس من جند القلب ورعيّته؛ وهي من أشد جنده خلافاً عليه، وشقاقاً له. ومن قِبَلها[٤] تشوش عليه المملكة. ويدخل عليه الداخل. فإذا حصل له كمال بالغنىٰ: لم يتم له إلا بغناها أيضاً. فإنها متىٰ كانت فقيرة[٥] عاد حكم فقرها عليه. وتشوش عليه غناه، وكان[٦] غناها تماماً لغناه وكمالاً[٧].

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق﴾ ٣/ ١٦٧، ومسلم كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٣/ ٢٠٨٦ (٢٧١٧).

(٢) في ط زيادة: «فصل».

(٣) «رحمه الله» ساقطة من ط.

(٤) في ط دح: «تتشوش».

(٥) في ق: «فعاد».

(٦) في البقية عدا س، ج، ق: «فكان».

(٧) في ط زيادة «له».

وغناه أصلاً بغناها[١]. فمنه يصل الغني إليها. ومنها يصل الفقر والضرر[٢] والعنت إليه.

إذا عرف هذا، فالشيخ ـ رحمه الله ـ[٣] جعل غناها بثلاثة أشياء:

«اسْتِقَامَتُهَا عَلَىٰ المرغُوبِ» وهو الحق تعالىٰ. واستقامتها عليه: استدامة طلبه. وقطع المنازل بالسير إليه[٤].

الثاني: «سَلاَمَتُهَا مِنَ الحُظُوظِ» وهي تعلقاتها[٥] الظاهرة والباطنة[٦] بما سوىٰ الله.

الثالث: «بَرَاءَتُهَا مِنَ المُرَاءاة» وهي إرادة غير الله بشيء من أعمالها وأقوالها[٧].

فمراءاتها دليل علىٰ شدة فقرها. وتعلقها بالحظوظ من فقرها أيضاً.

وعدم استقامتها علىٰ مطلوبها الحق أيضاً: من فقرها. وذلك يدل علىٰ أنها غير واجدة لله. إذ لو وجدته لاستقامت علىٰ السير إليه. ولقطعت تعلقاتها

---

(١) في ق: «لغناها».

(٢) في م: «الضرورة».

(٣) «رحمه الله» ساقطة من ط.

(٤) في س «بالسير السير الثاني» وفي ق: «بالسير إليها».

(٥) في ج زيادة: «إليه» والأولىٰ عدمها.

(٦) في م: «الباطنة والظاهرة».

(٧) في م: «أقوالها وأعمالها».

بحظوظها[1]. ولما أرادت بعملها غيره ، فلا تستقيم هذه الثلاثة إلا لمن قد ظفر بنفسه ، ووجد مطلوبه ، ومن[2] لم يجد ربه تعالىٰ فلا استقامة لـه ، ولا سلامة[3] من الحظوظ ، ولا براءة[4] من الرياء.

فصـــل

الدرجة الثالثة قـال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : الغِنَىٰ بِالحَقِّ. وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ مَرَاتِب. المَرتَبَةُ الأُولَىٰ : شُهُودُ ذِكرِهِ إِيَّاكَ. وَالثَّانِيَةُ[5] : دَوَامُ مُطَالَعَةِ أَوَّلِيَّتِهِ. وَالثَّالِثَةُ[6] : الفَوزُ بِوُجُودِهِ»[7].

أما «شُهُودُ ذِكرِهِ إِيَّاكَ» فقد تقدم قريباً[8]. وأما «مُطَالَعَةُ أَوَّلِيَّتِهِ» فهو سبقه للأشياء جميعاً. فهو الأول الذي ليس قبله شيء.

قال بعضهم : ما رأيت شيئاً إلا وقد رأيت الله قبله.

---

(١) في ط زيادة : «من غيره» وفي ق : «وحظوظها».

(٢) المثبت كما في م. وفي البقية «وما لم».

(٣) في ط زيادة : «لها».

(٤) في ط زيادة «لها».

(٥) المثبت كما في س ، ط والبقية : «الثاني».

(٦) في الأصل ، د ، ج ، ح : «الثالث». والمثبت كما في البقية وهو الأنسب.

(٧) منازل السائرين ، ٧٣.

(٨) انظر : الدرجة الثالثة من منزلة الذكر.

فإن قلت[1] : وأي غنىٰ يحصل للقلب من مطالعة أولية[2] الرب ، وسبقه لكل شيء؟ ومعلوم أن هذا حاصل لكل أحد ، من غني و[3] فقير. فما[4] وجه الغني [الحاصل] به[5]؟

قلت : إذا شهد القلب سبقه للأسباب[6] ، وأنها كانت في حيز العدم. وهو الذي كساها حُلَّة الوجود. فهي معدومة بالذات. فقيرة إليه بالذات. وهو الموجود بذاته[7]. والغنىٰ بذاته لا بغيره. فليس الغنىٰ في الحقيقة إلا به ، كما أنه ليس في الحقيقة إلا له[8]. فالغنىٰ[9] بغيره عين الفقر. فإنه غنىٰ بمعدوم فقير ، والفقير[10] كيف يستغنىٰ بفقير مثله؟

وأما «الفَوزُ بِوُجُودِهِ» فإشارة القوم كلهم إلىٰ هذا المعنىٰ. وهو نهاية سفرهم. وفي الأثر الإلهي : «ابن آدم ، اطلبني تجدني ، فإن

---

(١) في ج : «فأي».

(٢) في الأصل و س : «أزلية» والمثبت كما في البقية وهو الصواب.

(٣) في البقية عدا س ، ق ، ج : «أو».

(٤) في س : «لما».

(٥) الزيادة من الجميع ، وفي ج : «به» ساقطة.

(٦) في م : «للأشياء».

(٧) في أ : «لا بغيره فإذا الغني الحاصل فليس... » و «الغني بذاته» ساقطة من غ ، ب ، ح.

(٨) في م : «في الحقيقة ليس الإله».

(٩) في ج : «والغني».

(١٠) في ط : «وفقير».

وجدتني وجدت كل شيء. وإن فتك فاتك كل شيء. وأنا أحب إليك من كل شيء»(١).

ومن لم يفهم(٢) معنىٰ وجوده(٣) لله، والفوز به فليحث علىٰ رأسه الرماد(٤)، وليبك علىٰ نفسه، [والله أعلم](٥).

* * *

(١) الحديث أورده ابن كثير في تفسيره، ٢/ ٣٠٢، وذكره المؤلف في كتابه روضة المحبين وأوله: «خلقتك لنفسك فلا تلعب ...» روضة المحبين ٣١٠.

(٢) في ط، أ، ب، غ، ح: «ومن لم يعلم».

(٣) في ج: «وجود الله».

(٤) في م، ح: «التراب».

(٥) الزيادة من الجميع عدا م.

فصــل

[منزلـة المـراد][1]

منزلة المراد

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «المراد».

أفردها القوم بالـذكر[2]. وفي الحقيقـة: فكـل مريـد[3] مـراد؛ بـل لم يـصر مريـداً [إلا][4] بعد أن كان مراداً؛ لكن القوم خصوا «المريد» بالمبتدىء، و«المراد» بالمنتهىٰ.

قال[5] أبو علي الدقاق[6] - رحمه الله -: «المريد محتمل، والمراد محمـول»، وقال[7]: «كان موسىٰ مريداً، إذ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، ونبينا

---

(١) في هامش الأصل: «باب مقام المراد» وق: «المراد» وب: «قف منزلة المراد» وج: «بلغ».

(٢) في أ زيادة: «هي» والأولىٰ عدمها.

(٣) قال أبو نصر السراج في كتابه اللمع ص٤١٧ و٤١٨ عن المريد والمراد: «المريـد: الـذي صح له الابتداء، وقد دخل في جملة المنقطعين إلىٰ الله تعالىٰ بالاسم، وشهد له قلوب الصادقين بصحة إرادته ولم يترسم بعدُ بحال ولا مقام، فهو في السير مع إرادته.
والمراد: العارف الذي لم يبق له إرادة، وقد وصل إلىٰ النهايات، وعبر الأحوال والمقامات والمقاصد والإرادات، فهو مراد أُريد به ما أُريد، ولا يريد إلا ما يريد».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في ج: «وقال».

(٦) أبو علي الحسن بن علي الدقاق النيسابوري شيخ الصوفية، توفي سنة ٤٠٦هـ.
انظر: شذرات الذهب ٣/ ١٨٠-١٨١، وتذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٦٤.

(٧) في البقية عدا الأصل، س، م، ق: «وقد».

ﷺ[1] مراداً، إذ قيل له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]»[2].

وسئل الجنيد ـ رحمه الله ـ عن المريد والمراد؟ فقال: المريد يتولاه[3] سياسة العلم. والمراد: يتولاه رعاية[4] الحق؛ لأن المريد يسير، والمراد يطير. فمتىٰ يلحق السائرُ الطائرَ؟[5].

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ:

«بَابُ المُرَادِ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، أَكْثَرُ المتَكَلِّمِينَ فِي هَذَا العِلْمِ جَعَلُوا المُرِيدَ وَالمُرَادَ اثْنَينِ، وَجَعَلُوا مَقَامَ «المُرَادِ» فَوقَ مَقَامِ «المُرِيدِ»، وَإِنَّمَا أَشَارُوا بِاسمِ «المُرَادِ» إِلَىٰ الضَّنَائِنِ الذِينَ وَرَدَ فِيهِم الخَبَرُ»[6].

---

(١) في ط زيادة: «كان».

(٢) الرسالة القشيرية ٢٠٤، قلت: والأولىٰ ترك هذا الكلام خاصة بين الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وقد يفهم منه التنقص لموسىٰ ـ عليه السلام ـ، والمفاضلة بين الأنبياء فيها كلام مشهور لأهل العلم. انظر: في ذلك: تفسير ابن كثير ١/ ٣١١، وشرح العقيدة الطحاوية ١٥٨ وما بعدها، ولوامع الأنوار ٢/ ٢٩٨ وما بعدها.

(٣) في ط، ب، أ، غ، ق: «يتولىٰ سياسته العلم والمراد يتولىٰ».

(٤) في ط: «رعايته».

(٥) الرسالة القشيرية ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٦) منازل السائرين، ص٧٢-٧٤.

قلت : وجه استدلاله بالآية[١] : أن الله سبحانه ألقىٰ إلىٰ رسوله كتابه ، وخصه بكرامته. وأهلَّه لرسالته ونبوته. من غير أن يكون ذلك منه علىٰ رجاء أو ناله بكسب ، أو توسل إليه بعمل ؛ بل هو أمر أريد به. فهو المراد علىٰ الحقيقة[٢].

وقوله : «إِنَّ أَكثَرَهُم جَعَلُوا المرِيدَ وَالمرَادَ اثنيَن» فهو تعرض إلىٰ أن منهم من اكتفىٰ عن ذكر مقام[٣] «المراد» بمنزلة «الإرادة» ؛ لأن صاحبها مريد مراداً[٤].

وأما «إِشَارَتهُم إِلىَٰ الضَّنَائِنِ».

فالمراد به : حديث يروىٰ به[٥] مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ : «إن لله ضنائن من خلقه[٦]. يحييهم في عافية ، [ويميتهم في عافية] [٧]»[٨].

---

(١) في البقية : «استشهاده».

(٢) في ط : «المراد حقيقه».

(٣) «مقام» ساقطة من ج.

(٤) في ج : «يراد».

(٥) «به» ساقطة من الجميع.

(٦) في أ كرر : «من خلقه».

(٧) الزيادة من الجميع.

(٨) الحديث رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٦ ، وقال عنه الهيثمي في كتابه مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٨ و ٢٦٩ : «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه مسلم بن عبدالله الحمصي ولم أعرفه وقد جهله الذهبي وبقية رجاله وثقوه» ، وابن أبي الدنيا في كتابه الأولياء ص٢٩ ، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٣٨٥ (١٣٤٢٥) ، والأوسط ٦/ ٢٦٥ (٦٣٦٩) وقال : «لم يرو هذا

و«الضنائن»[(١)] الخصائص. يقال ضنتي من بين الناس - بكسر الضاد - أي الذي اختص[(٢)] به. وأضن بجودته[(٣)]، أي أبخل بها أن أضيعها[(٤)].

المؤلف يضرب مثالاً لبيان معنى المريد المراد

وقد[(٥)] مثل المريد[(٦)] والمراد بقوم بعث إليهم سلطانهم يستدعيهم إلىٰ حضرته من بلاد نائية، وأرسل إليهم بالأدلة والأموال، والمراكب وأنواع الزاد. وأمرهم بأن يتجشموا[(٧)] إليه قطع السبل والمفاوز. و[(٨)] يجتهدوا في المسير حتىٰ يلحقوا به. وبعث خيلاً له ومماليك إلىٰ طائفة منهم، فقال: احملوهم علىٰ هذه الخيل التي تسبق الركاب. واخدموهم في طريقهم. ولا تدعوهم يعانون مؤنة الشد والربط؛ بل إذا نزلوا فأريحوهم. ثم احملوهم حتىٰ

الحديث عن نافع إلا مسلم بن عبدالله الحمصي تفرد به إسماعيل، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ١٥٢، وقال: «مسلم بن عبدالله عن نافع مجهول بالنقل، حديثه غير محفوظ»، والحديث ضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣/ ٣٨٨ و ٣٨٩ (١٢٣٩).

(١) قال في التعريفات ١٨٠: الضنائن: هم الخصائص من أهل الله الذين يضن بهم لنفاستهم، وانظر: معجم مصطلحات الصوفية ١٨٣. والنهاية في غريب الحديث ٣/ ١٠٤.

(٢) في ج: «أخص».

(٣) في ب: «بحاجته» وفي ج: «بمودته».

(٤) في ب: «يضعها».

(٥) سقط من ب، ح: «مثل المريد والمراد بقوم».

(٦) في ط: «للمريد».

(٧) تجشمه: أي تكلفه علىٰ مشقة. مختار الصحاح ١٠٤.

(٨) في ب، م، ح، ج، ق: «ويجتهد» وفي ط زيادة: «أن».

تقدموهم عليّ.

فلم يجد هؤلاء من مجاهدة السير، ومكابدته، ووعثاء [1] السفر ما وجده غيرهم، ومن الناس من يقول «المريد» [2] ينتقل من منزلة «الإرادة» إلىٰ أن يصير «مراداً» فكان محباً. فصار محبوباً. فكل مريد صادق نهاية أمره: أن يكون مراداً. وأكثرهم علىٰ هذا.

وصاحب المنازل كأن عنده «المراد» هو المجذوب [3]، و«المريد» [4] السالك علىٰ طريق الجادة.

---

(١) وعثاء السفر: الوعث رمل رقيق تغيب فيه الأقدام، ثم استعير لكل أمر شاق والمقصود شدة التعب والنصب. انظر: المصباح المنير ص٦٦٤.

(٢) ومن هؤلاء أبو نصر السراج الطوسي حيث قال في كتاب اللمع ص٤١٧، ٤١٨ في التفريق بين المريد والمراد: «والمريد الذي صح له الابتداء وقد دخل في جملة المنقطعين إلىٰ الله تعالىٰ بالاسم، وشهد له قلوب الصادقين بصحة إرادته، ولم يترسم بعدُ بحال ولا مقام فهو في السير مع إرادته.

المراد: العارف الذي لم يبق له إرادة وقد وصل إلىٰ النهايات وعبر الأحوال والمقامات والمقاصد والإرادات فهو مراد أُريد به ما أُريد، ولا يريد إلا ما يريد».

(٣) المجذوب: يقصدون به علىٰ حد تعبيرهم من جذبه الله إليه ووفقه للقيام بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة وسعي منه. انظر: اللمع ٤٤٥، معجم اصطلاحات الصوفية ٩٦، كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٦٥، ٢٥٥، وقد يراد به المراد والواصل والعارف كما هو واضح في الهامش السابق.

(٤) في زيادة: «هو».

فصـــل

درجات المراد الدرجة الأولى

قال : «وَللمُرَادِ ثَلاَثُ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ[١] الأُولَىٰ : أَن يَعصِمَ العَبدَ. وَهُوَ يَستَشرِفُ[٢] لِلجَفَاءِ ، اضطِرَاراً بِتَنغِيصِ الشَّهَوَاتِ ، وَتَعوِيقِ المَلاَذِّ ، وَسَدِّ مَسَالِكِ المَعَاطِبِ عَلَيه إِكرَاهاً». يعني : أن العبد إذا استشرفت[٣] نفسه للجفاء بينه وبين سيده – بموافقة شهواته – عصمه سيده اضطراراً ، بأن ينغص عليه الشهوات. فلا تصفو له ألبتة ؛ بل لا ينال[٤] ما ينال منها إلا مشوباً بأنواع التنغيص ، الذي ربما أربىٰ علىٰ لذتها[٥] واستهلكها ، بحيث تكون[٦] اللذة في جنب التنغيص كالخِلسة[٧] والغفوة[٨]. وكذلك يعوق[٩] الملاذ عليه بأن يحول بينه وبينها ، حتىٰ لا يركن إليها ، و[١٠]يطمئن [إليها][١١] ويساكنها. فيحول بينه

---

(١) «الدرجة» ساقطة من الجميع عدا س ، م ، ج ، ق.

(٢) في البقية عدا الأصل ، س ، ج ، ق : «مستشرق» والمثبت كما في المنازل ٨٤.

(٣) في ق : «استشرق».

(٤) في ب زيادة : «منها» وعدمها أولىٰ .

(٥) في ق : «لذاتها».

(٦) في س : «يكون».

(٧) الخلسة: الاختطاف بسرعة علىٰ غفلة. المصباح المنير ٧٧ ، وانظر: تفسير غريب الحديث ٨٥.

(٨) الغفوة : النوم الخفيف. انظر : تفسير غريب الحديث ١٧٨ ، ومختار الصحاح ٤٧٧ .

(٩) في س ، ج : «تعوق».

(١٠) في ط زيادة : «لا».

(١١) الزيادة في الجميع.

وبين أسبابها. فإن هُيِّئت له قيض له مدافع يحول بينه وبين استيفائها. فيقول: من أين دُهيت؟ وإنما هي عين العناية والحمية والصيانة. وكذلك يسد[1] عنه طرق المعاصي. فإنها طرق المعاطب. وإن كان كارهاً عناية به[2]، وصيانة له[3].

فصل

الدرجة الثانية

[4]«الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ يَضَعَ عَنِ العَبدِ عَوَارِضَ النَّقصِ، ويُعَافِيَهُ مِن سِمَةِ اللَّائِمَةِ، وَيُملِّكَهُ عَواقِبَ الهَفَوَاتِ. كَمَا فَعَلَ بِسُليمَانَ ـ عَلَيهِ السَّلَامُ ـ[5] حِينَ قَتَلَ الخَيلَ، فَحَمَلَهُ عَلَىٰ الرِّيحِ الرُّخَاءِ، فَأَغنَاهُ عَنِ الخَيلِ. وَفَعَلَ بِمُوسَىٰ ـ عَلَيهِ السَّلَامُ ـ حِينَ أَلقَىٰ الأَلوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأسِ أَخِيهِ. وَلَم يَعتَبْ عَلَيهِ كَمَا عَتَبَ عَلَىٰ آدَمَ ـ عَلَيهِ السَّلَامُ ـ[6]، وَدَاودَ، وَيُونُسَ ـ عَلَيهِمُ السَّلَامُ ـ».

الفرق بين[7] هذه الدرجة والتي قبلها: أن في التي قبلها منعاً من مواقعة أسباب الجفاء اضطراراً. وفي هذه: إذا عرضت له أسباب النقيصة، التي

---

(١) في س، ج: «تسد».

(٢) «به» ساقطة من س.

(٣) «له» ساقطة من ق.

(٤) في ط زيادة: «قال».

(٥) في منازل السائرين ٧٤: «في قتل الخيل حمله علىٰ الريح الرخاء والعاصف فأغنا».

(٦) في ط زيادة: «ونوح».

(٧) في ط زيادة واو وكلمة: «الفرق بين» ساقطة من أ.

يستحق عليها اللائمة ، لم يعتبه عليها ولم يَلُمْه[١]. وهذا نوع من الدَّلال. وصاحبه من ضنائن الله وأحبابه. فإن الحبيب يسامح بما لا يسامح[٢] به سواه ؛ لأن المحبة أكبر شفعائه. وإذا هفا هفوة ملَّكه عاقبتها ، بأن جعلها سبباً لرفعته ، وعلوِّ درجته. فيجعل تلك الهفوة سبباً لتوبة نصوح ، وذل خاص ، وانكسار بين يديه ، وأعمال صالحة تزيد في قربه منه أضعاف ما كان عليه قبل الهفوة. فتكون تلك الهفوة أنفع له من حسنات كثيرة. وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد ، وكونه من أحبابه وحزبه.

وقد استشهد الشيخ - رحمه الله - بقصة سليمان ـ عليه السلام ـ حين ألهته الخيل عن صلاة العصر. فأخذته الغضبة لله والحمية ، وحملته[٣] علىٰ أن[٤] مسح عراقيبها[٥] وأعناقها بالسيف[٦] ، وأتلف مالاً شغله عن الله في الله. فعوضه

(١) في ح : «يكلمه».

(٢) في ق : «بما يسامح».

(٣) في البقية عدا س ، ج : «فحملته».

(٤) «أن» ساقطة من ق.

(٥) في أ ، ب : «أعناقها وعراقيبها».

(٦) وهو كما ورد في سورة ص الآية ٣١-٣٣ قال تعالىٰ : ﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتىٰ توارت بالحجاب * ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ وقد اختلف بالمسح هنا فقيل العقر ، وقيل القتل ، وقيل المسح باليد عليها وإمرارها ، فمن المفسرين من رجح المسح باليد وقال : لأن القول بالقتل فيه إهلاك مال بدون سبب وعقوبة حيوان بدون ذنب. وقد رجح ابن كثير وغيره القول بأن

الله منه : أن حمله علىٰ متن الريح. فملّكه الله تعالىٰ عاقبة هذه الهفوة ، وجعلها سبباً لنيل [تلك][1] المنزلة الرفيعة.

واستشهد بقصة موسىٰ ـ عليه السلام ـ[2] ، حين ألقىٰ الألواح – وفيها كلام الله – عن رأسه وكسرها ، وجر بلحية أخيه. وهو نبي مثله ، ولم يعاتبه[3] الله علىٰ ذلك ؛ كما عتب علىٰ آدم ـ عليه السلام ـ[4] في أكل لقمة من الشجرة ،

معنىٰ المسح هو القتل والقطع بالسيف ، وقالوا بأن هذا القول هو الذي يتناسب مع سياق الآيات ومعانيها.

وأما مسألة الإتلاف فأجابوا أنه قد يكون في شرعهم جواز هذا ، وأيضاً فإن إفساد المال المنهي عنه هو مجرد إضاعته لغير غرض صحيح ، وأما إذا كان لغرض صحيح فجائز كما فعل الرسول ﷺ من إكفاء القدور التي طبخت من الغنيمة قبل القسمة ، وما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكر.

انظر : تفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٦ ، وتفسير ابن كثير ٤/ ٣٧ ، وفتح القدير ٤/ ٤٣١ ، ٤٣٢.

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) كما جاء في سورة الأعراف الآية ١٥٠ قال تعالىٰ : ﴿ **وألقىٰ الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه** ﴾ الآية.

(٣) في ب ، ج ، ق : «يعتبه» و «الله» ساقطة من م ، ج.

(٤) كما جاء في سورة الأعراف الآية ٢٢ ، قال تعالىٰ : ﴿ **فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين** ﴾.

وقد ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ هذا فيما سبق عند حديثه علىٰ الكبائر في فصل ذكر فيه أن الصغائر قد تلحق بالكبائر. انظر : المدارج ١/ ٣٣٣.

وعلىٰ نوح[1] حين[2] سأل ربه في ابنه أن ينجيه. وعلىٰ داود[3] في شأن امرأة أوريا وعلىٰ يونس في شأن[4] المغاضبة.

---

(١) في البقية عدا س، ق، ج: «في ابنه حين سأل ربه أن ينجيه».

(٢) كما جاء في سورة هود الآيات ٤٥، ٤٦ قال تعالىٰ: ﴿ونادىٰ نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾.

(٣) ذكر بعض المفسرين هذه القصة عند شرحهم للآيات رقم ٢١-٢٥ من سورة ص عند قوله تعالىٰ: ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ﴾. وهذه القصة رواها الطبري في تفسيره لهذه الآيات، وكذلك السيوطي في الدر المنثور وابن كثير وغيرهم، وعلىٰ كثرة الروايات التي جاءت فيها فهي لا تليق بواحد من الصالحين، فكيف بواحد من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وجميع رواياتها لا تصح حيث لا تخلو واحدة منها من الانقطاع، أو وجود راو متكلم فيه إما بضعف أو نحو ذلك. قال ابن كثير - رحمه الله -: «قد ذكر المفسرون هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣.

وقال القاضي عياض - رحمه الله -: «وأما قصة داود - عليه السلام - فلا يجب أن يلتفت إلىٰ ما سطره فيها الإخباريون عن أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين، ولم ينص الله علىٰ شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح ... إلىٰ أن قال: وقيل إن الخصمين اللذين اختصما إليه رجلان في نتاج غنم علىٰ ظاهر الآية. الشفاء ٢/ ٣٧١-٣٧٣.

وانظر هذه الروايات في الدر المنثور ٧/ ١٥٥-١٦٨، وقد ذكر المؤلف هذه القصة في آخر كتابه الجواب الكافي وقد أحسن المعلق علىٰ هذا صنعاً حيث تتبع روايات هذه القصة ودرس أسانيدها وبين عللها وتحدث عن عصمة الأنبياء فليراجع. انظر: الجواب الكافي ص٢٠٧-٢١٦.

(٤) كما جاء في سورة الأنبياء، آية ٨٧، ٨٨ قال تعالىٰ: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – يقول[1] : وكذلك لطم[2] عين ملك الموت ـ عليه السلام ـ ففقأها. ولم يعتب عليه ربه. وفي ليلة الإسراء عاتب – عليه الصلاة والسلام – ربه في النبي ﷺ. إذ رفع[3] فوقه، ورفع صوته بذلك. ولم يعتبه الله علىٰ ذلك. قال : لأن موسىٰ – عليه الصلاة والسلام – قام تلك المقامات العظيمة التي أوجبت له هذا الدلال. فإنه قاوم أكبر أعداء الله تعالىٰ فرعون وتصدىٰ له ولقومه. وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة. وجاهد في الله أعداء الله أشد الجهاد. وكان شديد الغضب لربه[4]، فاحتمل له ما لم يحتمله [لغيره][5].

نقدر عليه فنادىٰ في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾.

وقد تقدم ذكر ذلك عند حديث المؤلف عن الكبائر في فصل قال فيه : فإن قيل قد ذكرتم أن المحب يسامح ... إلخ. انظر : المدارج ١/ ٣٣٣.

(١) «يقول» ساقطة من ج.

(٢) في ط زيادة : «موسىٰ» وقد تقدم كلام المؤلف علىٰ هذا عند حديثه علىٰ الكبائر في فصل ذكر فيه أن الكبيرة قد تلحق بالصغائر، والصغيرة قد تلحق بالكبائر علىٰ حسب ما يقوم بقلب العبد. انظر : المدارج ١/ ٣٢٨.

(٣) في الأصل، ق : «إذا» والمثبت أولىٰ، وفي ط : «رفعه» وقد تقدم أيضاً كلام المؤلف في هذا عند حديثه علىٰ منزلة الأدب في الفصل الثاني منها وقد ذكر هناك روايتين الأولىٰ : «يقول بني إسرائيل إني كريم» والثانية «فلما جاوزته بكىٰ ...». انظر : المدارج ١/ ٣٢٨، ٢/ ٣٨٣.

(٤) «لربه فاحتمل» ساقطة من ج.

(٥) الزيادة من الجميع.

وذو النون لما لم يكن في هذا[١] المقام : سجنه في بطن الحوت من غضبه[٢]. وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

فصل

الدرجة الثالثة قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : اجتِبَاءُ الحَقِّ عَبدَهُ ، واستِخلاَصُهُ إِيَّاهُ بِخَالِصَتِهِ[٣]. كَمَا ابتَدَأَ مُوسَىٰ ، وَقَد خَرَجَ يَقتَبِسُ نَاراً ، فَاصطَنَعَهُ[٤] لِنَفسِهِ. وَأَبقَىٰ مِنهُ رَسماً مُعَاراً»[٥].

[قلت][٦] : «الاجتباء»[٧] الاصطفاء ، والإيثار ، والتخصيص. وهو افتعال من جَبَيْت الشيء : إذا حُزته[٨] إليك. كجباية المال وغيره.

و «الاصطناع» أيضاً الاصطفاء ، والاختيار. يعني أنه اصطفىٰ موسىٰ ـ عليه

---

(١) «هذا» ساقطة من ق.

(٢) في م : «الغضبه».

(٣) في م : «لخالصته».

(٤) في م ، ح : «فاصطفاه».

(٥) منازل السائرين ٧٤.

(٦) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٧) انظر : مختار الصحاح ص٩٢ و ٣٦٦ ، ومعجم اصطلاحات الصوفية ٢٨٤ ، وكتاب اللمع ٤٤٧.

(٨) في ط زيادة : «وأحرزته».

السلام - واستخلصه لنفسه. وجعله له(١) خالصاً من غير سبب كان من موسىٰ ولا وسيلة(٢)، فإنه خرج ليقتبس النار، فرجع(٣) وهو كليم الواحد(٤) القهار. وأكرم الخلق عليه، ابتداءً منه سبحانه من غير سابقة استحقاق، ولا تقدم وسيلة. وفي مثل هذا قيل:

أيُّها العبدُ، كُنْ لما لسْتَ ترجُو ... من صَلاحٍ أرْجَىٰ لما أنت رَاجِي
إنَّ مُوسَىٰ أتىٰ ليقبسَ نَاراً ... من ضِيَاءٍ رَآه والليلُ دَاجِي
فانْثَنَىٰ رَاجِعاً، وقد كلَّمَه اللهُ ... ونَاجَاه وهو خيرُ مُنَاجِي

وقوله: «وَأَبْقَىٰ منه رَسْماً مُعَاراً».

يحتمل أن يريد بالرسم: البقية التي تقدمه بها(٥) محمد ﷺ. ورفع فوقه بدرجات لأجل بقائها معه.

ويحتمل - وهو الأظهر -(٦) أنه أخذه من نفسه، واصطنعه لنفسه. واختاره من بين العالمين. وخصه بكلامه، ولم يبق له من نفسه إلا رسماً مجرداً يصحب به الخلق، وتجري(٧) عليه فيه أحكام البشرية. إتماماً لحكمته،

---

(١) في ط: «وجعله خالصاً له» وفي م: «له» ساقطة.
(٢) في ج: «مسألة».
(٣) في م: «فخرج».
(٤) «الواحد» ساقطة من م.
(٥) في ط: «تقدم بها عليه».
(٦) في البقية عدا س: «الأظهر».
(٧) في ج: «ويجري».

وإظهاراً لقدرته. فهو عارية معه. فإذا قضىٰ ما عليه استرد منه[١] ذلك الرسم. وجعله من ماله. فتكملت إذ ذاك مرتبة الاجتباء. ظاهراً وباطناً، حقيقة ورسماً، ورجعت العارية إلىٰ مالكها الحق الذي[٢] يرجع إليه الأمر كله. فكما ابتدأت منه عادت إليه.

وموسىٰ - عليه السلام - كان من مظهر الجلال. ولهذا كانت شريعته شريعة[٣] جلال وقهر. أمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم الشحوم، وذوات الظفر وغيرها من الطيبات، وحرمت عليهم الغنائم، وعجلت[٤] لهم من العقوبات ما عجل، وحملوا من الآصار[٥] والأغلال، ما لم يحمله غيرهم.

وكان موسىٰ ﷺ من أعظم خلق الله هيبة ووقاراً. وأشدهم بأساً وغضباً لله[٦]، وبطشاً بأعداء الله، وكان لا يستطاع النظر إليه.

وعيسىٰ ﷺ: كان في[٧] مظهر الجمال، وكانت شريعته شريعة فضل

---

(١) «منه» ساقطة من ط.

(٢) في ح، ج، ق: «إليه يرجع».

(٣) «شريعة» ساقطة من أ، ب، م، ح.

(٤) في ط: «وعجل».

(٥) الإصر: هو الذنب والثقل والعهد، والغل بالضم هي القيود. انظر: مختار الصحاح ص١٨، ٤٧٩، والمصباح المنير ص٤٥١ و ٤٥٢، وانظر: تفصيلاً لما ذكر المؤلف في تفسير أبي السعود ٣/ ٢٧٩ و ٢٨٠.

(٦) في س: «وغضباً وبطشاً لله».

(٧) «في» ساقطة من ج.

وإحسان، وكان لا يقاتل، ولا يحارب، وليس [١] في شريعته قتال ألبتة. والنصارىٰ [٢] يحرم عليهم دينهم [٣] القتال. وهم به عصاة لشرعه. فإن الإنجيل يأمرهم [٤] فيه: أن «من لطمك علىٰ خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر. ومن نازعك ثوبك. فأعطه رداءك. ومن سخرك ميلاً. فامش معه ميلين» [٥] ونحو هذا. وليس في شريعتهم مشقة، ولا آصار، ولا أغلال، وإنما النصارىٰ ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم، ولم تكتب عليهم.

وأما نبينا ﷺ: فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في الله، وهذا[٦] اللين والرأفة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال، وأمته أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات؛ ولذلك[٧] تأتي شريعته بالعدل إيجاباً له

(١) في ج: «فليس».

(٢) سموا بذلك قيل: لتناصرهم فيما بينهم، وقيل: لأنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة وهم أمة عيسىٰ - عليه السلام -، وقد اختلفوا فيه اختلافاً عظيماً قالوا: هو ابن الله، وقالوا: هو الله، وقالوا: ثالث ثلاثة، وخالفوا الحق في كثير من الأمور. انظر: الملل والنحل ١/ ٢٢٠-٢٢٨، هداية الحيارىٰ ص٤٦-٥١، تفسير ابن كثير ١/ ١٠٦.

(٣) في ح، ج، ق: «في دينهم».

(٤) في الأصل، س، م، ق: «يأمر» والمثبت كما في البقية وهو الأولىٰ.

(٥) انظر: الكتاب المقدس: العهد الجديد وفيه إنجيل متىٰ الإصحاح الخامس ٩.

(٦) «وهذا» ساقطة من م.

(٧) في ج: «وكذلك».

وفرضاً ، وبالفضل ندباً إليه واستحباباً ، وبالشدة في موضع الشدة ، وباللين في موضع اللين. ووضع السيف موضعه ، ووضع[1] الندىٰ موضعه ، فيذكر الظلم ويحرمه ، والعدل ويوجبه ، والفضل ويندب إليه في بعض آيات، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورىٰ : ٤٠] فهذا عدل. ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ : ٤٠] فهذا فضل.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورىٰ : ٤٠] فهذا تحريم للظلم. وقوله : ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل : ١٢٦][2] ، فهذا إيجاب للعدل وتحريم للظلم. ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل : ١٢٦] ندب إلىٰ الفضل.

وقوله : ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ هذا عدل[3] ﴿لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٧٩] تحريم الظلم.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ﴾ عدل ، ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٨٠] فضل.

---

(١) الندىٰ : يراد به في اللغة عدة معاني منها السخاء والجود وكثرة الخير.

انظر : مختار الصحاح ٦٥٣ ، وقد تكلم المؤلف عليه في غير هذا الموضع ويقصد به الإحسان ، وبالسيف العقوبة ، وقد يراد به الخير. انظر : مدارج السالكين ٢/ ٣٠٧ ، وطريق الهجرتين ١٧١.

(٢) في ق : «هذا».

(٣) «هذا عدل» ساقطة من ط.

وكذلك تحريم ما حرم علىٰ الأمة [1] صيانة وحمية، وحرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة، وعلىٰ من قبلهم لم يخل من عقوبة. وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم. ووهب لهم من علمه وحلمه. وجعلهم [2] خير أمة أخرجت للناس. وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم [3]. كما كمل لنبيهم [4] ﷺ من المحاسن ما فرقه [5] في الأنبياء قبله. وكمل في كتابه من المحاسن ما [6] فرقها في الكتب قبله.

وكذلك في شريعته.

فهؤلاء هم[7] «الضنائن»، وهم المُجْتبَون [الأخيار][8]. كما قال لهم[9] إلههم: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وجعلهم شهداء علىٰ الناس. فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين علىٰ أممهم.

---

(١) في الجميع عدا ش، م: «علىٰ أمته».

(٢) سقط من م إلىٰ قوله: «شهداء علىٰ الناس».

(٣) في س: «من الأمة».

(٤) في ط: «بينهم».

(٥) في ط: «بما فرقة».

(٦) في ط «بما».

(٧) في ق: «وهؤلاء» و «هم» ساقطة من ط.

(٨) الزيادة من الجميع عدا س.

(٩) في البقية عدا س: «تعالىٰ» بدل: «لهم إلههم».

وتفصيل تفضيل هذه الأمة وخصائصها[1] يستدعي سفراً ؛ بل أسفاراً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم.

* * *

---

(١) «خصائصها» ساقطة من م.

فصـل

[منزلة الإحسـان][1] .

منزلة الإحسان

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «الإحسان»[2].

وهي لبُّ الإيمان ، وروحه وكماله. وهـذه المنزلـة تجمع جميع المنازل. فجميعها منطوية فيها. وكل ما قيل من أول الكتاب إلىٰ ههنا فهو من الإحسان.

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ : «وقد استشهد علىٰ هـذه المنزلـة بقولـه تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] :

«فَالإِحسَانُ[3] : جَامِعٌ لجَمِيعِ أَبْوابِ الحَقَائِقِ. وَهُوَ أَنْ تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ». معنى الإحسان

فأما[4] الآية : فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والمفسرون : هل جزاء من قال

---

(١) في هامش الأصل ، ج ، ح «بلغ» وفي ج : «باب الإحسان» وفي ق : «بداية الجزء الخامس».

(٢) الإحسان : هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وقيل : أراد بالإحسان الإخلاص ، وقيل : أراد به الإشارة إلىٰ المراقبة وحسن الطاعة.

وعبر عنه أهل التصوف بقولهم : تهذيب القصد بعلم الشريعة والطريق ، وقيل : وهو التحقق بالعبودية علىٰ مشاهدة حضرة الربوبية.

انظر : النهاية في غريب الحديث ١/ ٣٨٧ ، التعريفات ٣٣ ، معجم اصطلاحات الصوفية ص٥٢ ، ٢٨٦.

(٣) «فالإحسان» ساقطة من م.

(٤) في البقية عدا م ، ق : «أما».

«لا إله إلا الله» وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة[1].

وقد روىٰ عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ ثم قال: «هل تدرون ما[2] قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: يقول: «هل[3] جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟»[4].

وأما الحديث: فإشارة إلىٰ كمال الحضور مع الله [عز وجل][5]، ومراقبته الجامعة[6] لخشيته، ومحبته ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان.

درجات الإحسان: الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: الإِحسَانُ فِي القَصدِ بِتَهذِيبِهِ عِلماً، وَإِبرَامِهِ عَزماً[7]، وَتَصفِيَتِهِ حَالاً[8]».

يعني إحسان القصد[9] بثلاثة أشياء.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٧١٤.

(٢) في البقية عدا س، م: «ماذا».

(٣) «هل» ساقطة من أ، غ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٧١٤، وقال: وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والبغوي في تفسيره، والديلمي في مسند الفردوس، وابن النجار في تاريخه عن أنس ثم ذكره، وانظر حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا ١٠٣.

(٥) الزيادة من البقية عدا س، م، ج، ق.

(٦) في الأصل، س، ق: «الجامع»، والمثبت كما في البقية وهو الأنسب.

(٧) في م: «وإبرازه»، وفي ح، ب: «وإبرامه عرفاً».

(٨) منازل السائرين ص٧٥، ٧٦.

(٩) في ط زيادة: «يكون».

أحدها : تهذيبه علماً ، بأن يُجعل [1] تابعاً للعلم علىٰ مقتضاه مهذباً به. منقىٰ من شوائب الحظوظ. فلا يقصد إلا ما يجوز في العلم. و «العلم» هو اتباع [2] الأمر والشرع.

والثاني : إبرامه عزماً. و «الإبرام» الإحكام والقوة[3]. أي يقارنه عزم يمضيه، ولا يصحبه فتور وتوان يضعفه ويوهنه.

الثالث : تصفيته حالاً. أي يكون حال صاحبه صافياً من الأكدار والشوائب، التي تدل علىٰ كدر قصده. فإن الحال مظهر القصد وثمرتُه. وهو أيضاً مادتُه وباعثُه. فكل منهما ينفعل عن الآخر. فصفاؤه وتخليصُه من تمام صفاء الآخر وتخليصِه.

[فصل][4]

[قال][5] : «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الإحسَانُ فِي الأَحوَالِ. وَهُوَ أَن يُرَاعِيَهَا[6] غيرَةً ، ويستُرَهَا[7] تَظَرُّفاً ، وَيُصَحِّحَهَا[8] تَحقِيقاً**»[9]. الدرجة الثانية

(١) في البقية عدا س وق : «يجعله».

(٢) في أ ، غ : «الاتباع».

(٣) انظر : المصباح المنير ٤٥ .

(٤) الزيادة من الجميع عدا م ، ج ، ق ، س.

(٥) الزيادة من الجميع عدا م ، ق ، س ، ج.

(٦) في ط : «تراعيها» وم : «وهي أن يراعيها».

(٧) في ط : «تسترها».

(٨) في ط : «تصححها».

(٩) في ج : «تخففا» وانظر منازل السائرين ٧٦.

يريد بمراعاتها حفظها وصونها، غيرة عليها أن تحول[1]، فإنها تمرُّ مرَّ السحاب. فإن لم يرع[2] حقوقها حالت. ومراعاتها: بدوام الوفاء[3]، وتجنب الجفاء[4]، ويراعيها[5] أيضاً بإكرام نزلها. فإنها ضيف. والضيف إن لم يكرم[6] نزله ارتحل.

ويراعيها أيضاً بضبطها ملكه. وشدَّ يده عليها، وأن لا يسمحَ بها لقاطع[7] ولا ناهب.

ويراعيها[8] أيضاً: بالانقياد إلىٰ حكمها[9]، والإذعان لسلطانها إذا وافق الأمر.

ويراعيها[10] أيضاً: بسترها تظرفاً[11]، وهو أن يسترها عن الناس ما أمكنه؛

---

(١) في س: «أن يجول» وفي م: «تجول».

(٢) في س، م، ب: «ترع».

(٣) في الأصل: «الوقا» والمثبت كما في البقية لمناسبة المعنىٰ.

(٤) في م: «الغدر».

(٥) في س: «وتراعيها» والواو ساقطة من غ.

(٦) في ط، ب، أ، غ: «تكرم».

(٧) في ط زيادة: «طريق».

(٨) في س: «وتراعيها».

(٩) في م «بحكمها».

(١٠) في س: «وتراعيها».

(١١) «تظرفاً» ساقطة من م.

لئلا يعلموا بها. ولا يظهرها إلا لحجة، أو حاجة، أو مصلحة راجحة. فإن في إظهارها بدون ذلك آفات عديدة. مع تعريضها للصوص والسراق والمغيرين.

وإظهار الحال للناس عند الصادقين: حمق وعجز. وهو من حظوظ النفس والشيطان[1]. وأهل الصدق والعزم لها أستر، وأكتم من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم. حتىٰ إن منهم من يظهر أضدادها نفياً وجحداً، وهم أصحاب الملامة[2]، ولهم طريقة معروفة، وكان شيخ هذه الطائفة عبدالله[3] ابن منازل. واتفقت الطائفة علىٰ أن من اطلع الناس علىٰ حاله مع الله: فقد دنس طريقته، إلا لحجة أو حاجة أو ضرورة.

وقوله: «وَتَصحِيحُهَا[4] تحَقِيقاً».

---

(١) في ح زيادة «عند» وهي غير ملائمة.

(٢) في ط، غ، م، ب: «الملامية» وأصحاب الملامة هم طائفة من الصوفية يظهرون عيوبهم، ويكتمون محاسنهم فيلومهم الخلق علىٰ ظواهرهم ويسمون الملامية والأمناء.
انظر: معجم اصطلاحات الصوفية ٥٦، والتعريفات ص٢٨٥، ٢٨٦، ومجموع الفتاوىٰ ٣/ ١٦٤.

(٣) في الأصل، س، م، ج، ق زيادة «أبو» وهي خطأ.
وعبدالله بن منازل هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن منازل النيسابوري والكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ٢/ ١٥٦، وشذرات الذهب ٢/ ٣٣٠، شيخ الملامية صحب حمدون القصار وله اهتمام بالحديث، توفي بنيسابور سنة ٣٢٩هـ. انظر: الطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/ ٢٣٣ و ٢٣٤، والرسالة القشيرية ص٤٣٥.

(٤) في غ بدون: «الواو» وفي م: «يصحبها».

أي يجتهد في تحقيق أحواله [1]، وتصحيحها وتخليصها. فإن الحال قد يمتزج [2] بحق وباطل، ولا يميزه إلا أولو البصائر والعلم.

الفوارق بين الوارد الملكي والوارد الشيطاني

وأهل هذه الطريقة [3] يقولون: إن الوارد الذي يبتدئ العبد من جانبه الأيمن والهواتف والخطاب: يكون في الغالب حقاً. والذي يبتدئ من الجانب الأيسر: يكون [في] [4] الغالب باطلاً وكذباً. فإن أهل اليمين: هم أهل الحق. وبأيمانهم يأخذون كتبهم. ونورهم الظاهر على الصراط يكون [5] بأيمانهم. وكان [6] رسول الله ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله، وطهوره [7] وشأنه كله، [8] [والله] [9] وملائكته يصلون على ميامن الصفوف [10]. وأخبر أن

---

(١) في م: «تحقيقها وتخليصها».

(٢) في م: «تمتزج».

(٣) في البقية عدا غ: «الطريق».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) «يكون» ساقطة من ط.

(٦) «كان» ساقطة من م هنا وذكرت بعد «وسلم».

(٧) في ق: «وظهوره».

(٨) في ط: «وشأته»، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل ١/ ٥٠، ومسلم في كتاب الطهارة، باب التيمن في الطهور وغيره ١/ ٢٢٦ (٢٦٨).

(٩) الزيادة من الجميع عدا م.

(١٠) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب من يستحب أن يلي الإمام وكراهية التأخر ١/ ٤٣٧ (٦٧٦)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب فضل ميمنة الصف ١/ ٣٢١

الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله[1]. وحظه من ابن آدم جهة الشمال. ولهذا تكون[2] اليد الشمال للاستجمار[3]، وإزالة النجاسة والأذىٰ ويبدأ بها[4] عند دخول الأذىٰ[5].

ومن الفرقان[6] أيضاً أن[7] كل وارد يبقىٰ الإنسان بعد انفصاله نشيطاً مسروراً نشواناً[8]: فإنه وارد ملكي، وكل وارد يبقىٰ[9] بعد انفصاله خبيث النفس كسلان، ثقيل الأعضاء والروح، يجنح إلىٰ فتور: فهو[10] وارد شيطاني.

(١٠٠٥)، والبيهقي كتاب جماع أبواب موقف الإمام والمأموم، باب ما جاء في فضل ميمنة الصف ٣/ ١٠٣ (٤٩٨٠) وابن حبان في صحيحه ٥/ ٥٣٣ والحديث حسنه الحافظ في الفتح ٢/ ٢١٣ وقال الألباني حسن. مشكاة المصابيح ١/ ٣٤٢ (١٠٩٦).

(١) كما جاء في الحديث: «لا يأكلن أحد منكم بشماله ولا يشربن بها فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها» صحيح مسلم كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها ٢/ ١٥٩٨ و ١٥٩٩ (٢٠٢٠).

(٢) في غ: «تكن»، ج: «يكون».

(٣) في س: «للاستنجاء».

(٤) في ط: «بالرجل الشمال».

(٥) في الجميع عدا م: «الخلاء».

(٦) في ط: «الفرفان»، ق: «في الفرقان».

(٧) «أن» ساقطة من ج.

(٨) «نشواناً» ساقطة من م.

(٩) في ط زيادة: «الإنسان».

(١٠) «فهو» ساقطة من م.

ومن الفرقان أيضاً: أن كل وارد أعقب[1] في القلب: معرفة بالله[2] ومحبة له، وأنساً به، وطمأنينة بذكره، وسكوناً إليه فهو ملكي إلهي. وخلافه بخلافه.

ومن الفرقان أيضاً: أن كل وارد أعقب صاحبه تقدماً إلىٰ الله والدار الآخرة، و[3]حضوراً فيها، حتىٰ كأنه يشاهد الجنة قد أزلفت، والجحيم قد سعرت: فهو إلهي ملكي، وخلافه شيطاني نفساني.

ومن الفرقان [أيضاً][4]: أن كل وارد[5] كان سببه النصيحة في امتثال الأمر والإخلاص والصدق فيه: فهو إلهي ملكي. وإلا فهو شيطاني.

ومن الفرقان أيضاً: أن كل[6] وارد استنار به القلب، وانشرح له الصدر، وقوي به القلب فهو[7] إلهي [ملكي][8]، وإلا فهو شيطاني.

ومن الفرقان أيضاً: أن كل وارد جمعك علىٰ الله فهو منه، وكل وارد فرقك عنه، وأخذك منه[9]: فمن الشيطان.

---

(١) في ق: «عقب» وفي أ بعدها زيادة: «صاحبه تقدماً إلىٰ الله تعالىٰ» وهي غير ملائمة.

(٢) في م: «الله».

(٣) في ج: «الواو» ساقطة.

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في ق زيادة «أعقب» وهي غير ملائمة.

(٦) سقط من م إلىٰ قوله: «وارد جمعك علىٰ الله».

(٧) «فهو» ساقطة من ط.

(٨) الزيادة من الجميع عدا س.

(٩) في ط: «عنه» وبعدها في م: «فهو من».

ومن الفرقان أيضاً : أن الوارد الإلهي لا يصرف إلا في قربة وطاعة ، ولا يكون سببه إلا قربة وطاعة ، فمُستَخْرِجُه الأمر ومصروفه[١] الأمر ، والشيطاني بخلافه.

ومن الفرقان أيضاً [أن][٢] الوارد الرحماني لا يتناقض ، ولا يتفاوت ولا يختلف ؛ بل يصدق بعضه بعضاً ، والشيطاني[٣] بخلافه يكذب بعضه بعضاً [والله سبحانه أعلم][٤].

فصــل

قال[٥] : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : الإِحسَانُ فِي الوَقتِ. وَهُوَ أَن لاَ تُزَايِلَ[٦] المشَاهَدَةَ [أَبداً][٧] ، وَلاَ تخلِطَ بِهِمَّتِكَ أَحَداً ، وَتجعَلَ هِجرَتَكَ إِلَىٰ الحَقِّ سَرْمَداً»[٨]. الدرجة الثالثة

أي[٩] لا تفارق حال الشهود.

---

(١) في الجميع عدا أ ، ب ، س : «ومصرفه».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في غ : «والشيطان» .

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٥) «قال» ساقطة من ج.

(٦) في الأصل ، س : «بالياء» والمثبت كما في البقية ومنازل السائرين.

(٧) الزيادة من الجميع عدا س.

(٨) منازل السائرين ٧٦.

(٩) «أي» ساقطة من ق وفي م : «لا يفارق».

وهذا إنما يقدر عليه أهل التمكين[١] الذين ظفروا بنفوسهم، وقطعوا المسافات التي بين النفس وبين القلب، والمسافات التي بين القلب وبين الله، بمجاهدة القطاع التي على تلك المسافات.

و[٢]قوله: «وَلاَ تخلِطَ[٣] بِهِمَّتِكَ أَحَداً».

يعني: أن تعلِّقَ همتك بالحق وحده. ولا تعلق [همتك][٤] بأحد غيره. فإن ذلك شرك في طريق الصادقين.

وقوله[٥] «وَأَن تجعَلَ هِجرَتَكَ إِلىٰ الحَقِّ سَرمَداً». يعني: أن كل متجه إلى الله بالصدق والإخلاص، فإنه من الهاجرين إليه. فلا ينبغي أن يتخلف عن هذه الهجرة؛ بل[٦] يصحبها سرمداً. حتىٰ يلحق الله.

فما هي إلا ساعةٌ ثم تنقَضِي ويحمدُ غب[٧] السير من هو سائر[٨]

---

(١) في ط: «التمكن».

(٢) المثبت كما في الأصل، س، م، وفي البقية بدون «الواو».

(٣) في س، ج: «وأن لا تخلط».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٥) في البقية عدا س، م، ج الواو ساقطة.

(٦) في ط زيادات: «ينبغي أن».

(٧) في م: «عقبىٰ».

(٨) البيت ذكره ابن القيم بشطره الأول في بدائع الفوائد ٢/ ٤٠٦، وأكمل بشطر آخر نصه: ويذهب هذا كله ويزول، ومثله في روضة المحبين ٥، ومثله في زاد المعاد ٣/ ٧٥ إلا أن الشطر الأخير نصه: ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا.

ولله علىٰ كل قلب هجرتان. وهما فرض لازم له[1] علىٰ الأنفاس :

هجرة إلىٰ إلهه[2] بالتوحيد والإخلاص ، والإنابة والحب ، والخوف والرجاء والعبودية.

وهجرة إلىٰ رسوله[3] بالتحكيم له والتسليم والتفويض ، والانقياد لحكمه ، وتلقىٰ أحكام الظاهر والباطن من مشكاته. فيكون تقيده[4] به أعظم من تقيد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل ، ومتاهات[5] الطرق[6].

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث علىٰ رأسه الرماد. وليراجع الإيمان من أصله. فيرجع وراءه يقتبس[7] نوراً ، قبل أن يحال بينه وبينه ، ويقال له ذلك علىٰ الصراط من وراء السور. والله المستعان.

* * *

---

(١) «له» ساقطة من ق.

(٢) المثبت كما في الأصل ، ق وفي البقية : «الله».

(٣) في م : «رسول».

(٤) في البقية عدا م : «تعبده به أعظم من تعبد».

(٥) في ج : «تناهات».

(٦) في ط ، ح ، ج : «الطريق».

(٧) في ط ، م : «ليقتبس».

فصل

[منزلة العلم] [١]

منزلة العلم

ومن منازل : « **إياك نعبد وإياك نستعين** » منزلة : « **العلم** »[٢].

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من[٣] أول قدم يضعه في الطريق إلىٰ آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه علىٰ غير طريق. وهو مقطوع عليه طريق الوصول ، مسدود عليه سبل الهدىٰ والفلاح ، مُغلَقةٌ عنه أبوابُها. وهذا إجماع من الشيوخ العارفين[٤]. ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم[٥] ، ونواب إبليس وشرطه.

الحث على العلم والعمل به

قال سيد الطائفة وشيخهم[٦] الجنيد [بن محمد][٧] ـ رحمه الله ـ : الطرق كلها مسدودة علىٰ الخلق إلا علىٰ[٨] من اقتفىٰ آثار الرسول ﷺ .

---

(١) في هامش الأصل ، ج : «باب العلم» و ق : «العلم».

(٢) العلم : ضد الجهل وهو زوال الخفاء عن المعلوم ، وقيل : إدراك الشيء علىٰ ما هو به ، وقيل: هو مستغن عن التعريف. انظر التعريفات ٢٠٠.

(٣) في أ ، ب : «فما أول».

(٤) في ج : «والعارفين».

(٥) «منهم» ساقطة من م.

(٦) «شيخهم» ساقطة من م.

(٧) الزيادة من الجميع.

(٨) «علىٰ» ساقطة من أ ، غ ، ب ، ج. وانظر : قوله في الرسالة القشيرية ٤٣٠ ، وحلية الأولياء ٢٥٧/١٠.

وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث، لا يقتدىٰ به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة[١].

وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول[٢] الكتاب والسنة.

وقال: أبو حفص ـ رحمه الله ـ: من لم يزن أفعاله[٣] وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره. فلا يعد في ديوان الرجال.

وقال أبو سليمان[٤] الداراني ـ رحمه الله ـ: ربما يقع في قلبي النكتةُ من نكت القوم أياماً. فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسنة[٥].

وقال سهل بن عبدالله ـ رحمه الله ـ: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء - طاعة كان[٦] أو معصية - فهو عيش النفس. وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء: فهو عذاب علىٰ النفس.

وقال السري[٧]: التصوف اسم لثلاثة معان: لا يطفىٰء نور معرفته نور ورعه،

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية ٤٣١، والحلية ١٠/ ٢٥٥.

(٢) «بأصول» ساقطة من م، وفي ق «بالأصوال»، وانظر: قوله في الحلية ١٠/ ٢٥٥.

(٣) في ق: «أحواله وأفعاله»، وانظر قوله في صفة الصفوة ٤/ ١٢٠.

(٤) أبو سليمان عبدالرحمن بن أحمد بن عطية العنسي الداراني نسبة لداريا قرية من قرىٰ دمشق توفي سنة ٢٠٥هـ وقيل ٢١٥هـ. انظر: البداية والنهاية ١١/ ٢٥٥-٢٥٩، وصفة الصفوة ٤/ ٢٢٣ - ٢٣٤، والطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/ ١٧٩ و ١٨٠.

(٥) الرسالة القشيرية ٤١١.

(٦) «كان» ساقطة من أ، غ، ب، م، ج، وقوله في الرسالة القشيرية ٤٠١.

(٧) أبو الحسن السري بن المغلس السقطي وقيل الحسين خال الجنيد وأستاذه، صحب معروفاً

ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله الكرامات علىٰ هتك أستار محارم الله.

وقال أبو يزيد [1] ـ رحمه الله ـ: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئاً أشد علي من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت [2]، واختلاف العلماء رحمة، إلا في تجريد التوحيد.

وخرج [3] مرة لزيارة بعض الزهاد، فرآه قد دخل المسجد ورمىٰ ببصاقة نحو القبلة، فرجع ولم يسلم عليه. وقال: هذا غير مأمون علىٰ أدب من آداب رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأموناً علىٰ ما يدعيه [4]؟

وقال: لقد هممت أن أسأل الله تعالىٰ أن يكفيني مئونة النساء [5].

الكرخي، ومات ببغداد سنة ٢٥١هـ. انظر: حلية الأولياء ١٠/ ١١٦ - ١٢٨، والطبقات الكبرىٰ ١/ ١٦٩-١٧١، والرسالة القشيرية ٤١٧-٤١٩، وانظر قوله في الطبقات ١/ ١٦٩، والرسالة القشيرية ٤١٨ وفيها «المتصوف».

(١) هو طيفور بن عيسىٰ البسطامي كان جده مجوسياً فأسلم وهو صوفي شهير وله شطحات، ولد سنة ١٨٨ وتوفي سنة ٢٦١. انظر: الرسالة القشيرية ص٣٩٥ - ٣٩٧، حلية الأولياء ١٠/ ٣٣-٤٢، ميزان الاعتدال ٢/ ٣٤٦ - ٣٤٧ (٤٠٣٥)، الأعلام ٣/ ٣٣٩، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٩٦.

(٢) في م: «لتفتت».

(٣) في البقية عدا س، م: «وقال مرة لخادمه: قم بنا إلىٰ هذا الرجل الذي شهر نفسه بالصلاح لنزوره فلما دخل تنخع، ثم رمي بها نحو القبلة». الرسالة القشيرية ٣٩٦.

(٤) في م: «علىٰ ما وراءه».

(٥) المئونة: ترد بمعنىٰ القوت والطلب والمشقة والتعب والعلامة. انظر: لسان العرب

ثم [١] قلت: كيف يجوز لي أن أسال الله[٢] هذا. ولم يسأله رسول الله ﷺ ؟ ولم أسأله. ثم إن الله كفاني مئونة النساء، حتىٰ لا أبالي استقبلتني امرأة أو حائط. وقال: لو نظرتم [٣] إلىٰ رجل أُعطِيَ من الكرامات [إلىٰ][٤] أن يُرفع [٥] في الهواء، فلا تغتروا به، حتىٰ تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة.

وقال أحمد بن أبي الخواري[٦]: من عمل عملاً بلا اتباع سنة، فباطل عمله[٧].

وقال أبو عثمان النيسابوري - رحمه الله -: الصحبة مع الله: بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة. والصحبة مع الرسول ﷺ: باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم. ومع أولياء الله: بالاحترام والخدمة. ومع الأهل: بحسن

١٣/ ٣٩٥-٣٩٨، والتعريفات ص٢٤٨ و ٢٤٩.

(١) «ثم» ساقطة من من ب، م، وفي م: «فقلت».

(٢) «الله» ساقطة من م، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٩٦.

(٣) في غ: «لو نظرت».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في ط: «يرتفع»، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٩٧.

(٦) في البقية: «الحواري» وهو أبو الحسن أحمد بن أبي الخواري واسم أبي الخواري ميمون من أهل الشام صحب أبا سليمان الداراني وسفيان بن عيينة وغيرهما، مات سنة ٢٣٠هـ.
انظر: صفة الصفوة ٤/ ٢٣٧ و ٢٣٨، والحلية ١٠/ ٥-٣٣، والطبقات الكبرىٰ ١/ ١٨٤.

(٧) انظر: قوله في شذرات الذهب ٢/ ١١٠، والرسالة القشيرية ٤١٠.

الخلق[١]. ومع الإخوان: بدوام البشر. ما لم[٢] يكن إثماً. ومع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة.

زاد غيره: ومع الحافظين: بإكرامهما واحترامهما، وإملائهما[٣] ما يحمدانك عليه. ومع النفس: بالمخالفة. ومع الشيطان: بالعداوة.

وقال أبو عثمان أيضاً: من أمَّر السنة علىٰ نفسه قولاً وفعلاً: نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوىٰ علىٰ نفسه قولاً وفعلاً: نطق بالبدعة. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤][٤].

وقال أبو الحسين النوري[٥] ـ رحمه الله ـ: من رأيتموه يدعىٰ مع الله حاله تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربوا منه.

وقال محمد بن الفضل البلخي[٦] من مشايخ القوم الكبار: ذهاب الإسلام

---

(١) في الأصل: «الخلوة» والمثبت كما في البقية وهو كما ورد في الرسالة القشيرية. انظر: ص٤٠٧، ٤٠٨.

(٢) في ق: «ولم».

(٣) «ما» ساقطة من ق، وفي ط زيادة: «ما» وفي ب: «ما يحمدونك».

(٤) انظر: قوله في الرسالة القشيرية ٤٠٨.

(٥) في ط: «النووي» وهو أحمد بن محمد المعروف بالنوري ولد ونشأ ببغداد، بغوي الأصل، صحب السري وابن أبي الخواري وكان من أقران الجنيد، توفي سنة ٢٩٥.
انظر: الرسالة القشيرية ص٢٣٨ و ٤٢٩، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٤٩-٢٥٥، والطبقات الكبرىٰ ١/ ١٩٤و١٩٥، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٤٣٩.

(٦) في البقية عدا س: «الباجي» وهو أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخي، بلخي الأصل سكن

من أربعة : لا يعملون بما يعلمون ويعملون بـما لا يعلمـون ، ولا[1] يتعلمـون مـا [لا][2] يعلمون ويمنعون الناس عن[3] التعلم أو[4] التعليم.

وقال عمرو[5] بن عثمان المكي ـ رحمه الله ـ : العلـم قائـد. والخـوف سـائق. والنفس حرون[6] بين ذلك ، جموح خداعة رواغة.

فاحذرها[7] ، وراعها بـسياسة العلـم ، وسـقها بتهديـد الخـوف : يـتم لـك مـا تريد[8].

سـمرقند وصـحب أحمـد بـن خـضرويه وغـيره ، تـوفي سـنة ٣١٩هـ. انظـر : حليـة الأوليـاء ١٠/ ٢٣٢ و٢٣٣ ، والرسالة القشيرية ص٣٩٨ و ٣٩٩ ، والطبقات الكبرىٰ ١/ ١٩٧ ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٩٩ .

(١) سقط من أ ، غ ، ب ، ح : «ولا يتعلمون ما لا يعلمون».

(٢) الزيادة من ق.

(٣) في البقية عدا س ، ج : «من».

(٤) في البقية عدا ، س ، ج ، ق بالواو .

(٥) هو عمرو بن عثمان المكي ، كان شيخ القوم في وقته وكان ينتسب إلىٰ الجنيـد في الـصحبة ، لقي أبا عبدالله الناجي وأبا سعيد الخراز ، توفي ببغداد سنة ٢٩١هـ.
انظر : الطبقات الكبرىٰ للشعراني ١/ ١٩٨ ، والرسالة القشيرية ص٤٣٤ و ٤٣٥.

(٦) حرون : أي واقفة لا تنقاد. والجماح : الانفلات والعصيان. والخداع إرادة المكروه من دون عمل. والرواغ : هو الذهاب يميناً وشمالاً في سرعة وخفية خديعة وهو الميل والحيـاد سراً.
انظر : مختار الصحاح ص١٣٣ و ١٧١ و ١٠٩ و٢٦٤ ، والمصباح المنير ١٠٧ و ٢٤٦.

(٧) في ج : «فاحذروها».

(٨) «يتم لك ما تريد» ساقطة من م ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٤٣٥.

وقال أبوسعيد[1] الخراز ـ رحمه الله ـ : كل باطن يخالفه الظاهر فهو باطل.

وقال ابن عطاء[2] ـ رحمه الله ـ : من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة. ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه.

وقال : كل ما سألت عنه فاطلبه في مفازة العلم. فإن لم تجده ففي ميدان الحكمة. فإن لم تجده فزنه بالتوحيد. فإن لم تجده في هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان[3].

وأُلقِيَ بنان[4] الحمال بين يدي السبع. فجعل السبع يشمه ولا يضره. فلما أخرج قيل له : ما الذي كان في قلبك حين شمك السبع[5]؟ قال : كنت أتفكر

---

(١) هو أحمد بن عيسىٰ الخراز من أهل بغداد، صحب ذا النون المصري وبشر بن الحارث وغيرهما، توفي سنة ٢٧٧هـ، انظر الرسالة القشيرية ص٤٠٩، وصفة الصفوة ٢/ ٤٣٥- ٤٣٨ وقوله هذا في الرسالة القشيرية ص٤٠٩.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآمدي صحب الجنيد وإبراهيم المارستاني توفي سنة تسع أو إحدىٰ عشرة وثلاث مائة. انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٢- ٣٠٥، وطبقات الشعراني ١/ ٢١٠- ٢١٤، وانظر قوله في الحلية ١/ ٣٠٢.

(٣) انظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٩١.

(٤) هو بنان بن محمد بن حمدان الحمال يكنىٰ أبا الحسن أصله من واسط ونشأ وأقام ببغداد ثم انتقل إلىٰ مصر فمات بها في رمضان سنة ٣١٦.

انظر : صفة الصفوة ٢/ ٤٤٨- ٤٥٠، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٢٤ و ٣٢٥، وانظر ما نسب إليه في صفة الصفوة ٢/ ٤٤٩.

(٥) «السبع» ساقطة من م.

في اختلاف [العلماء][1] في سؤر السباع.

وقال أبو حمزة[2] البغدادي - من أكابر الشيوخ. وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يقول له في المسائل : ما تقول يا صوفي؟ - : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه. ولا دليل علىٰ الطريق إلىٰ الله إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأفعاله وأقواله[3].

ومر الشيخ أبو بكر محمد بن موسىٰ الواسطي يوم الجمعة إلىٰ الجامع. فانقطع شسع نعله[4]. فأصلحه له رجل صيدلاني[5]. فقال : أتدري[6] لم انقطع شسع نعلي؟ فقلت : لا. فقال : لأني ما اغتسلت للجمعة. فقال : ههنا حمام تدخله؟ فقال : نعم. فدخل واغتسل.

---

(١) الزيادة من الجميع ، وفي م : «خلاف العلماء».

(٢) هو محمد بن إبراهيم البغدادي البزار صحب السري وحسن المسوحي وجالس الإمام أحمد ابن حنبل وبشر بن الحارث ، وكان مولىٰ عيسىٰ بن أبان القاضي ، توفي سنة ٢٨٩هـ.
انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٣٢٠ - ٣٢٢ ، والطبقات الكبرىٰ ١/ ٢١٨ و ٢١٩ ، وانظر قوله في الطبقات في الموضع السابق.

(٣) في ط : «وأقواله وأفعاله».

(٤) الشسع : هو أحد سيور النعل وهو الذي يدخل بين الأصبعين. تفسير غريب الحديث لابن حجر ١٣٣.

(٥) في الرسالة القشيرية «حانوتي» ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٤٤٠.

(٦) المثبت كما في ق والرسالة القشيرية وفي البقية : «تدري».

وقال أبو إسحاق [1] الرقي، من أقران الجنيد ـ رحمهما الله ـ: علامة محبة الله: إيثار طاعته، ومتابعة نبيه [2] ﷺ.

وقال أبو يعقوب [3] النهر جوري: أفضل الأحوال: ما قارن[4] العلم.

وقال أبو القاسم[5] النصراباذي - شيخ خراسان [6] في وقته -: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة. وترك الأهواء والبدع. وتعظيم كرامات[7]

---

(١) في ط: «أبو سحق» وهو إبراهيم بن داود الرقي من أقران الجنيد وابن الجلاء، من كبار مشايخ الشام في وقته، توفي سنة ٣٢٦هـ. انظر: الرسالة القشيرية ٤١٥، والطبقات الكبرىٰ ١/ ٢٢٣ و ٢٢٤، وحلية الأولياء ١٠/ ٥٤، وقوله في الحلية والرسالة القشيرية في المواضع السابقة.

(٢) في ط: «رسوله».

(٣) أبو يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري صحب أبا عمرو المكي والجنيد وغيرهما، توفي بمكة سنة ٣٣٠. انظر: الطبقات الكبرىٰ ١/ ٢٤٠، والرسالة القشيرية ٤٣٨، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٥٦.

(٤) «ما قارن» ساقطة من غ، أ، ب، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٤٣٨.

(٥) هو إبراهيم بن محمد بن أحمد النيسابوري ويسمىٰ النصراباذي نسبة إلىٰ نصراباذ محلة بنيسابور، وهو شيخ خراسان في وقته صحب دلف الشبلي والمرتعش وغيرهما توفي بمكة سنة ٣٦٩ وقيل ٣٦٧هـ. انظر: شذرات الذهب ٣/ ٥٧ و ٥٨، والرسالة القشيرية ص٤٣٧ و ٤٣٨، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٤٣٨.

(٦) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند، وتشتمل علىٰ عدد من أمهات البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وغيرها. انظر: معجم البلدان ٢/ ٣٥٠ - ٣٥٤.

(٧) الكرامة: هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص معروف بالإيمان والعمل الصالح.

المشايخ، ورؤية[1] أعذار الخلق. والمداومة علىٰ الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.

وقال أبو بكر[2] الطمستاني - من كبار شيوخ الطائفة -: الطريق واضح. والكتاب والسنة قائم بين أظهرنا. وفضل الصحابة معلوم، لسبقهم إلىٰ الهجرة ولصحبتهم، فمن صحب الكتاب والسنة، وتغرب عن نفسه وعن الخلق، وهاجر بقلبه إلىٰ الله: فهو الصادق المصيب.

وقال أبو عمرو[3] بن نجيد - رحمه الله -: كل حال لا يكون عن نتيجة علم فإن ضرره علىٰ صاحبه أكثر من نفعه.

وقال: التصوف الصبر تحت الأوامر والنواهي.

وكان بعض أكابر[4] الشيوخ المتقدمين يقول: يا معشر الصوفية، لا تفارقوا

انظر: التعريفات ٢٣٤، ومجموع الفتاوىٰ ١١/ ٢٨٧.

(١) أي قبولها. انظر: الرسالة القشيرية ٤٣٨.

(٢) في ج: «الطسناني» يعرف بأبي بكر الطمستاني قدم أصبهان وخرج منها إلىٰ نيسابور، صحب إبراهيم الدباغ وغيره، توفي سنة ٣٤٠هـ. انظر: الطبقات الكبرىٰ ١٧٤، والرسالة القشيرية ٤٢٣، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٨٢، وانظر قوله في الحلية في نفس الموضع.

(٣) أبو عمرو إسماعيل بن نجيد السلمي النيسابوري جد أبي عبدالرحمن السلمي، صحب أبا عثمان الحيري ولقي الجنيد، توفي بمكة سنة ٣٦٦هـ وقيل ٣٦٥هـ وكان عمره تسعون سنة. انظر: الرسالة القشيرية ص٤٣٥ و ٤٣٦ وشذرات الذهب ٣/ ٥٠، وانظر قوله فيما تقدم.

(٤) «أكابر» ساقطة من ق والقائل هو سهل بن عبدالله ولفظه: احفظوا السواد علىٰ البياض. انظر: تلبيس إبليس ٣٩٥.

السواد في البياض تهلكوا.

الرد على من زهّد في العلم

وأما الكلمات التي تروىٰ عن بعضهم: من التزهيد في العلم، والاستغناء عنه كقول من قال[١] «نحن نأخذ علمنا عن[٢] الحي الذي لا يموت، وأنتم[٣] تأخذونه عن[٤] حي يموت».

وقول الآخر[٥] - وقد قيل له: ألا ترحل حتىٰ تسمع من عبدالرزاق؟ - فقال: ما يصنع بالسماع من عبدالرزاق، من يسمع من الخلاّق؟

وقول الآخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل.

وقال آخر[٦]: إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ: «أخبرنا» و «حدثنا» فاغسل يدك منه.

وقول الآخر: لنا علم الخرق[٧] ولكم علم الورق.

---

(١) القائل هو أبو يزيد البسطامي. انظر: تلبيس إبليس ٣٩٢، و «نحن» ساقطة من ق.

(٢) في البقية عدا س، م: «من».

(٣) سقط من ق إلىٰ قوله: «وقول الآخر».

(٤) في البقية عدا س، م: «من».

(٥) في ب، س: «وقول آخر» وما بعدها من الأقوال كذلك. وانظر هذه الأقوال وغيرها كثير في تلبيس إبليس ص٣٨٩ - ٤٥٥، واللمع ص٤٥٣ - ٥١٥.

(٦) في ط: «وقول الآخر» وأ، غ: «وقال الآخر».

(٧) في البقية عدا س، ح، ج: «الحرف» وفي م: «الحروف» ولعله يقصد خرقة التصوف وهي ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إرادته الخ. انظر معجم اصطلاحات الصوفية ١٧٨. وانظر نبذة عن علم الحروف في كتاب مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٢٨.

ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أحوال قائلها : أن يكون [١] جاهلاً يعذر بجهله ، أو شاطحاً معترفاً بشطحه [٢] ، وإلا فلولا عبدالرزاق وأمثاله ، ولولا «أخبرنا» و «حدثنا» لما وصل إلىٰ هذا وأمثاله شيء من الإسلام. ومن أحالك علىٰ غير «أخبرنا» و «حدثنا» [٣] فقد أحالك : إما علىٰ خيالٍ صوفي ، أو قياسٍ فلسفي [٤]. أو رأيٍ نفسي. فليس بعد القرآن و «أخبرنا» و«حدثنا» إلا شبهات المتكلمين [٥]. وآراء المتخرصين [٦] وخيالات المتصوفين، وقياسات [٧]

(١) «أن يكون» ساقطة من ق.

(٢) يقصد بالشطحات ما يصدر من كلمات وأفعال منكرة كما مثل المؤلف هنا. وفي اصطلاح الصوفية : فهي عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة وغلبة شهود الحق عليهم بحيث لا يشعرون بغير الحق كقول بعضهم : «أنا الحق» و «ليس في الجبة إلا الله» ونحو ذلك والشطحات كلمة عامية استعملت في اصطلاح التصوف. انظر: تاج العروس ٢/ ١٧٣، التعريفات ١٦٦ ، واللمع ٤٥٣ و٤٥٤ ، ومعجم اصطلاحات الفنون ٢/ ٤٦٦.

(٣) سقط من م إلىٰ قوله : «صوفي».

(٤) يقصد بالفلسفة محبة الحكمة ومذهب الفلاسفة أن العالم قديم ، ومنهم من ينكر علم الله والنبوات وحشر الأجساد. انظر : الملل والنحل ٢/ ٥٨-٢٣١ ، المعجم الفلسفي ص١٣٨ -١٤٠.

(٥) يقصد بالمتكلمين : علماء الكلام الذين يتكلمون بمسائل العقائد والأمور الغيبية بالأدلة العقلية والمناهج الجدلية. انظر : التعريفات ٢٣٦ ، وللسلف أقوال مشهورة في ذم الكلام وأهله انظر : شرح الطحاوية ١/ ١٧ - ١٩ ، وذم الكلام للهروي ٣/ ٢٣٩ إلىٰ آخر الكتاب.

(٦) في البقية عدا س : «المنحرفين».

(٧) في ط : «وقياس».

المتفلسفين. ومن فارق الدليل، ضل عن سواء السبيل. ولا دليل إلىٰ الله والجنة، سوىٰ الكتاب والسنة. وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم، والشيطان [الرجيم](١).

و «العلم» ما قام عليه الدليل، والنافع [منه](٢): ما جاء به الرسول. و«العلم» خير من «الحال»: «العلم» حاكم، و «الحال»(٣) محكوم عليه. و(٤)«العلم» هاد. و«الحال» تابع. و(٥) «العلم» آمِرٌ نَاهٍ و«الحال» منفذ قابل، و«الحال» سيف، إن لم يصحبه «علم»(٦) فهو مخراق(٧) في يد لاعب. «الحال» مركوب(٨) لا يجارىٰ. فإن لم يصحبه «علم» ألقىٰ صاحبه في المهالك(٩) والمتالف(١٠).

---

(١) الزيادة من البقية عدا س، ج، ق.

(٢) الزيادة من الجميع عدا س.

(٣) في ط: «ومحكوم».

(٤) «الواو» ساقطة من ح، ج.

(٥) «الواو» ساقطة من ح، ج.

(٦) في ط: «العلم».

(٧) المخراق: هو المنديل يلف ليضرب به. مختار الصحاح ١٧٣.

(٨) في البقية عدا س، ج: «مركب».

(٩) في ط: «الممالك».

(١٠) في البقية عدا س، م قدم قوله: «الحال كالمال يؤتاه البر والفاجر، فإن لم يصحبه نور العلم كان وبالاً علىٰ صاحبه» وهذه الجملة تأتي بعد قوله لا سائس لها.

الحال بلا علم كالسلطان الذي لا يزعه عن[1] سطوته وازع.

الحال بلا علم كالنار التي لا سائس[2] لها[3]. الحال كالمال يؤتاه البر والفاجر، فإن لم يصحبه نور «العلم» كان وبالاً علىٰ صاحبه.

نفع الحال لا يتعدىٰ صاحبه. ونفع العلم كالغيث يقع علىٰ الظِراب[4] والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر.

دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة. ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبة. وربما ضاقت عنه.

العلم هاد والحال الصحيح مهتد به. وهو تركه الأنبياء وتراثهم. وأهله عصبتهم ووراثهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين[5]، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن[6] الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغيِّ والرشاد، والهدىٰ

---

(١) في ق: «من» وقوله لا يزعه: من الوازع وهو الكف كما قيل لابد للناس من وازع أي من سلطان يكفهم. مختار الصحاح ٧١٩.

(٢) في ج: «لا سناء بين لها».

(٣) في البقية عدا س، م، ج: «والحال».

(٤) أي الجبال والروابي. انظر: تفسير غريب الحديث ص١٨، ١٥٦.

(٥) في الأصل و س: «المستوحش» والمثبت كما في البقية وهو الأولىٰ لموافقة ما قبله وما بعده.

(٦) في ق: «توزن به».

والضلال.

به يُعرف الله ويُعبد، ويُذكر ويُوحَّد، ويحُمد ويُمجَّد.

وبه اهتدىٰ إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون.

ومن بابه دخل عليه القاصدون. به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلالُ من الحرام.

وبه توصَلُ الأرحام، وبه تُعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوص(1) إليه من قريب.

وهو إمام، والعمل مأموم. و[هو](2) قائد، والعمل تابع. وهو الصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغني الذي لا فقر علىٰ من ظفر بكنزه، والكنف(3) الذي لا ضيعة علىٰ من آوىٰ إلىٰ حرزه(4).

مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربه، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلىٰ الشراب والطعام.

---

(١) في س، ج: «توصل».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س، ج، ق.

(٣) الكنف: هو الجانب والساتر. انظر: المصباح المنير ٥٤٢.

(٤) أي حفظه. انظر: المصباح المنير ١٢٩.

قال الإمام أحمد[1] - رضي الله عنه - : الناس إلىٰ[2] العلم أحوج منهم إلىٰ الطعام والشراب ؛ لأن الرجل يحتاج إلىٰ الطعام[3] والشراب في اليوم مرة أو مرتين. وحاجته إلىٰ العلم بعدد أنفاسه.

وروينا عن الشافعي[4] - رضي الله عنه - أنه قال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

ونص علىٰ ذلك أبو حنيفة[5] - رحمه الله - .

---

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبدالله ، أحد الأئمة ، ثقة حافظ فقيه حجة ، مات سنة ٢٤١هـ ، وله ٧٧ سنة.
انظر : تقريب التهذيب ١/ ٢٤ ، وصفة الصفوة ٢/ ٣٣٦ - ٣٥٩ ، ومختصر مناقب إمام أهل السنة لأبي الفرج ابن الجوزي اختصار عبدالمحسن بن عبيد بن عبدالمحسن. وانظر قوله في الكتاب الأخير ٨٩ ، ونسب هذا القول لابن مهدي وإلىٰ سفيان الثوري. انظر : حلية الأولياء ٧/ ٦٥ و ٩/ ٤.

(٢) في أ : «أحوج إلىٰ العلم».

(٣) «والشراب» ساقطة من غ.

(٤) هو أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي أحد الأئمة الأربعة وإليه تنسب الشافعية ، ولد في غزة سنة ١٥٠هـ ، وتوفي بمصر سنة ٢٠٤هـ. انظر : حلية الأولياء ٩/ ٦٣-١٦١ (٤٥١) ، والأعلام ٦/ ٢٤٩ و ٢٥٠ ، وانظر قوله في حلية الأولياء ٩/ ١١٩ ، ومسند الشافعي ٢/ ٢٤٩ ، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٣ ، وجامع بيان العلم وفضله ٢٥.

(٥) هو النعمان بن ثابت التيمي الكوفي الإمام الفقيه أحد الأئمة الأربعة ثقة عالم زاهد ورع ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٥٠هـ. انظر: البداية والنهاية ١٠/ ١٠٧ - ١٠٨ ، الأعلام ٩/ ٤ و ٥، وشذرات الذهب ١/ ٢٢٧-٢٢٩.

وقال ابن وهب[١] - رحمه الله -: كنت بين يدي مالك - رضي الله عنه -، فوضعت ألواحي وقمت أصلي. فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه.

ذكره ابن عبدالبر[٢] وغيره.

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم علىٰ أجل مشهود به وهو «التوحيد»، وقرن[٣] شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته. وفي ضمن ذلك تعديلهم. فإنه لا يستشهد بمجروح.

ومن ههنا - والله أعلم - يؤخذ الحديث المعروف «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المبطلين»[٤].

---

(١) أبو محمد عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي الفقيه صحب مالك ودرس عليه، ولد سنة ١٢٥هـ، وتوفي سنة ١٩٧هـ، انظر: تهذيب التهذيب ٦/ ٦٥-٦٧ (١٤٠)، والطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٧/ ٥١٨.

(٢) أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النميري القرطبي المالكي ولد بقرطبة سنة ٣٦٨هـ، وتوفي بشاطبة سنة ٤٦٣هـ. انظر: مقدمة التمهيد، وتذكرة الحفاظ ٣/ ١١٢٨ - ١١٣٢ (١٠١٣)، والأعلام ٩/ ٣١٦ و ٣١٧، وانظر: قول ابن وهب في كتابه جامع بيان العلم وفضله ٢٥.

(٣) كما قال تعالىٰ: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم... ﴾ [آل عمران: ١٨].

(٤) في سند هذا الحديث إبراهيم بن عبدالرحمن العذري، من العلماء من قال بأن له صحبة ومنهم من قال بأنه تابعي. وفيه أيضاً معان بن رفاعة السلامي منهم من وثقه وهم قليل وأكثرهم قال بتضعيفه؛ بل منهم من قال لا نعرفه ألبتة. قال ابن حجر: وقد أورد ابن عدي هذا الحديث من طرق كثيرة كلها ضعيفة. وقال السيوطي: الحديث مرسل أو معضل.

وهو حجة الله في أرضه ، ونوره بين عباده ، وقائدهم ودليلهم إلىٰ جنته ومُدْنِيهم من كرامته.

ويكفي في شرفه : أن فضل أهله علىٰ العباد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب. وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها ، وتظلهم بها ، وأن(١) العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتىٰ الحيتان في البحر ، حتىٰ النمل في(٢) جحرها ، وأن الله وملائكته يصلون علىٰ معلمي الناس الخير.

ولقد رحل كليم الرحمن(٣) موسىٰ بن عمران - عليه السلام - في طلب العلم هو وفتاه ، حتىٰ مسَّهُما(٤) النصبُ في سفرهما في طلب العلم. حتىٰ ظفر بثلاث(٥)

وقال أيضاً عن طرق هذا الحديث المرفوعة نقلاً عن العراقي قال : وكلها ضعيفة لا يثبت منها شيء وليس فيها شيء يقوي المرسل. انظر ما تقدم وزيادة في الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ١٢١ ، تدريب الراوي للسيوطي ١/ ٣٠٢ و ٣٠٣ ، ولسان الميزان ١/ ٧٧ ، ومجمع الزوائد ١/ ١٤٥ ، والتمهيد ١/ ٥٩ ، والجرح والتعديل ١/ ٣٤١ ، الضعفاء للعقيلي ١/ ٩ و ١٠ ، تكملة الإكمال لمحمد عبدالغني ٤/ ٢٨٠ ، الكامل في ضعفاء الرجال ٣/ ٣١ ، مشكاة المصابيح تحقيق الألباني ١/ ٨٢ و ٨٣.

(١) في ج : «فإن».

(٢) «في» ساقطة من م.

(٣) في س ، م : «الله».

(٤) في الأصل ، س : «حتىٰ مسهم النصب في سفرهم» والمثبت كما في البقية لموافقته العدد.

(٥) لعله يقصد قتل الغلام وخرق السفينة وإقامة الجدار كما جاء في سورة الكهف من الآية [٧٠ - ٨٢].

مسائل. وهو [من] (١) أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وحرم الله صيد الجوارح الجاهلة، وإنما (٢) أباح للأمة صيد الجوارح العالمة. فهكذا جوارح الإنسان الجاهل (٣) لا يجدي عليه صيدها من الأعمال شيئاً. [والله سبحانه وتعالى أعلم] (٤).

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ: «**العِلمُ مَا قَامَ (٥) بِدَلِيلٍ، وَرَفَعَ الجَهلَ**».

يريد: أن العلم له (٦) علامة قبله، وعلامة بعده. فعلامته قبله: ما قام به الدليل. وعلامته بعده: رفع الجهل.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س، ج، ق.

(٢) كما قال تعالى في سورة المائدة الآية [٤]: ﴿قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح﴾ وقوله «إنما» ساقطة من ج.

(٣) «الجاهل» ساقطة من م.

(٤) الزيادة من الجميع عدا س، م، وانظر: فضل العلم في كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر، وقد تكلم المؤلف ـ رحمه الله ـ بكلام طويل حول فضل العلم في كتابه مفتاح دار السعادة حيث ذكر أكثر من (١٥٢) وجهاً في فضل العلم ١/ ٤٨ - ١٨٧.

(٥) في م: «عليه به دليل رفع الجهل» وانظر قوله في منازل السائرين ٧٦.

(٦) في البقية عدا س، م: «أن للعلم علامة».

درجات العلم

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: عِلْمٌ جَلِيٌّ. وَبِهِ يَقَعُ العَيَانُ، أَو استِفَاضَةٌ[1] صَحِيحَةٌ، أَوْ صِحَّةُ تجَرِبَةٍ قَدِيمَةٍ».

الدرجة الأولى

يريد بالجلي: الظاهر، والذي لا خفاء به. وجعله[2] ثلاثة أنواع.

أحدها: ما وقع عن عيان. وهو البصر.

والثاني: ما استند إلىٰ السمع. وهو علم الاستفاضة.

[3]**والثالث**: ما استند إلىٰ العقل. وهو علم التجربة.

فهذه الطرق الثلاثة - وهي السمع، والبصر، والعقل - وهي طرق العلم وأبوابه، ولا تنحصر[4] طرق العلم فيما ذكره. فإن سائر الحواس توجب العلم.

وكذا ما يدرك بالباطن. وهي الوجدانيات[5].

وكذا ما يدرك بخبر المخبر الصادق، وإن كان واحداً.

وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط. وإن لم يكن[6] تجربة.

فالعلم لا يتوقف علىٰ هذه الثلاثة التي ذكرها فقط.

---

(١) في البقية عدا س، ح، ج: «واستفاضة».

(٢) في ق: «وجوارحه».

(٣) في ب: «بدون» الواو.

(٤) في أ، غ، ح، ج، ب: «ولا ينحصر».

(٥) الوجدانيات: ما يكون مدركه بالحواس الباطنة. التعريفات ٣٠٥.

(٦) في ط زيادة: «عن».

الفرق بين العلم والمعرفة

والفرق بينه وبين المعرفة من وجوه ثلاثة.

أحدها : أن «المعرفةَ» لبُّ العلم ، ونسبة العلم إليها كنسبة الإيمان إلىٰ الإحسان. وهي علم خاص ، متعلقها[1] أخفىٰ من متعلق العلم وأدقُّ.

والثاني : أن «المعرفة» هي العلم الذي يراعيه صاحبه بموجبه ومقتضاه. فهو[2] علم تتصل[3] به الرعاية.

والثالث : أن المعرفة شاهدة[4] لنفسها ، وهي بمنزلة الأمور الوجدانية ، التي لا يمكن صاحبها أن يشك فيها ، ولا ينتقل عنها. وكشف «المعرفة» أتم من كشف العلم. [والله سبحانه وتعالىٰ أعلم][5].

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : عِلْمٌ خَفِيٌّ. يَنبُتُ[6] فِي الأَسرَارِ الطَّاهِرَةِ[7]»،

---

(١) في م : «متعلقه ومقتضاه فهو علم».

(٢) في ط : «فهي».

(٣) في ج : «يتصل».

(٤) في البقية عدا س ، م ، ج : «شاهد».

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م ، وسيأتي كلام المؤلف في التفريق بين العلم والمعرفة ، عند حديثه علىٰ منزلة المعرفة ، وسيذكر هناك خمسة من الفروق بين العلم والمعرفة. انظر : مدارج السالكين ٣/ ٣٣٥ - ٣٤٥.

(٦) في م : «يثبت».

(٧) في الأصل ، م ، ق ، ب : «الظاهرة» والمثبت كما في البقية ومنازل السائرين.

مِن[1] الأَبْدَانِ الزَّاكِيَةِ ، بِمَاءِ الرِّيَاضَةِ الخَالِصَةِ. وَيَظهَرُ فِي الأَنفَاسِ الصَّادِقَةِ ، لِأَهلِ الهِمَّةِ العَالِيَةِ ، فِي الأَحَايِينِ الخَالِيَةِ ، فِي[2] الأَسمَاعِ الصَّاحِيَةِ[3]. وَهُوَ عِلمٌ يُظهِرُ الغَائِبَ ، وَيُغيبُ الشَّاهِدَ ، وَيُشِيرُ إِلَىٰ الجَمعِ»[4].

يعني : أن هذا العلم خفي علىٰ أهل الدرجة الأولىٰ ، وهو المسمىٰ بالمعرفة عند هذه الطائفة[5].

قوله : «يَنبُتُ[6] فِي الأَسْرَارِ الطَّاهِرَةِ».

لفظ «السر» يطلق في لسانهم ويراد به أمور :

أحدها[7] : اللطيفة المودعة في هذا[8] القالب ، التي بها حصل له[9] الإدراك والمحبة والإرادة والعلم. وذلك هو الروح.

---

(١) في ج : «في».

(٢) في البقية عدس ، ج ، م : «والأسماع».

(٣) في ط ، ج : «الصاخية».

(٤) منازل السائرين ٧٧.

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ص٣١١-٣١٧ ، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٦٣ و ٦٤.

(٦) في م : «يثبت».

(٧) انظر هذه الأقوال الثلاثة في الرسالة القشيرية ص٨٨ ، وانظر اللمع ٧٣٠ ، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٣٣٣ و ٣٣٤.

(٨) في م : «القلب» ثم سقط إلىٰ المحبة.

(٩) «بها» ساقطة من أ ، غ ، ح وفي البقية عدا س ، ج : «التي حصل بها الإدراك».

الثاني: معنىٰ قائم بالروح. نِسبتُه إلىٰ الروح كنسبة الروح إلىٰ البدن. وغالب ما يريدون به: هذا المعنىٰ.

وعندهم: أن القلبَ أشرفُ ما في البدن، والروحُ أشرف من القلب. والسِّر ألطف[1] من الروح.

وعندهم: للسر سِرٌّ آخر. لا يطّلع عليه غير الحق سبحانه. وصاحبه لا يطلع عليه، وإن اطلع علىٰ سره فيقولون: «السر» مالك عليه[2] إشراف، و«سرُّ السرِّ» ما لا اطلاع عليه لغير الحق سبحانه.

والمعنىٰ الثالث: يراد به ما يكون مصوناً مكتوماً بين العبد وبين ربه، من الأحوال والمقامات. كما قال بعضهم: أسرارنا بكر. لم يفتضها وهم واهم.

ويقول: قائلهم[3]: لو عرف زري سري لطرحته.

والمقصود[4] قوله: «**يَنبُتُ فِي الأَسْرَارِ الطَّاهِرَةِ**[5]».

---

(١) **اللطف**: يأتي بمعنىٰ الصغر، وبمعنىٰ الرقة، وبمعنىٰ الترفق. انظر: مختار الصحاح ٥٩٨، وهي عندهم كل إشارة دقيقة المعنىٰ يلوح منها في الفهم معنىٰ لا تسعه العبارة. معجم اصطلاحات الصوفية ٩١.

(٢) «عليه» ساقطة من غ.

(٣) في م: «بعضهم».

(٤) في ب زيادة «من» والأولىٰ عدمها؛ لأن الحديث تقدم عنها وهذا إكماله.

(٥) في ق: «الظاهرة».

يعني الطاهرة[١] من كدر[٢] الدنيا والاشتغال بها، وعلائقها التي تعوق الأرواح عن ديار الأفراح. فإن هذه أكدار وتنفسات في [وجه][٣] مرآة القلب والروح. فلا تتجلىٰ[٤] فيها صور[٥] الحقائق كما ينبغي. والنفس تتنفس[٦] فيها[٧] دائماً بالرغبة في الدنيا[٨] والرهبة من فوتها. فإذا جليت المرآة بإذهاب هذه الأكدار صفت. فظهرت[٩] فيها الحقائق والمعارف.

وأما «**الأَبدَانُ الزَّاكِيَة**»[١٠].

فهي التي زكت بطاعة الله، ونبتت علىٰ أكل الحلال. فمتىٰ خلصت الأبدان من[١١] الحرام، وأدناس البشرية، التي ينهىٰ عنها العقل والدين والمروءة، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا: زكت أرض القلب. فقبلت بذر العلوم

---

(١) «يعني الظاهرة» ساقطة من ج.

(٢) في م زيادة «أمر» والأولىٰ عدمها لعدم تناسبها مع الضمير بعدها.

(٣) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٤) في الأصل: «يتجلىٰ» والمثبت كما في س، ب، ق، م، وفي البقية: «تنجلي».

(٥) في ب: «صورة».

(٦) في البقية عدا ج، ق، س: «تنفس» و «النفس» ساقطة من ج.

(٧) في ق: «فيها بالرغبة دائماً والرهب من فوتها».

(٨) في ب زيادة: «والآخرة» وهي غير ملائمة.

(٩) في البقية عدا س، م، ج: «وظهرت» وفي ق: «وظهر».

(١٠) في ط: «الزكية».

(١١) في م زيادة: «أكل» وبدونها التعبير أشمل.

والمعارف.

فإن سقيت(١) - بعد ذلك - بماء الرياض الشرعية النبوية المحمدية - وهي(٢) لا تخرج عن علم، ولا تبعد عن واجب. ولا تعطل(٣) سنة - أنبتت من كل زوج كريم، من علم وحكمة وفائدة وتعرف(٤). فاجتنىٰ منها صاحبها ومن جالسه أنواع الطرف والفوائد، والثمار [المختلفة الألوان، والأذواق](٥)، كما قال بعض السلف: إذا عقدت القلوب علىٰ ترك المعاصي: جالت في الملكوت. ثم رجعت إلىٰ أصحابها بأنواع التحف والفوائد(٦).

قوله: «**وَيَظْهَرُ(٧) فِي الأَنفَاسِ الصَّادِقَةِ**» يريد بالأنفاس أمرين:

أحدهما: أنفاس الذكر والمعرفة.

والثاني: أنفاس المحبة والإرادة. وهي ما(٨) يتعلق بالمعروف المذكور. وبالمحبوب المراد من(٩) الذاكر والمحب.

---

(١) في م: «سبقت».

(٢) في ط زيادة: «التي».

(٣) في ح: «ولا تعطيل».

(٤) «وتعرف» ساقطة من م.

(٥) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٦) انظر: حلية الأولياء ١٠/ ١٤، والقائل هو أبو سليمان الداراني.

(٧) المثبت كما في ج، م، ق، وكتاب المنازل وفي البقية: «وتظهر».

(٨) «هي» ساقطة من ط.

(٩) في غ: «منه» وفي ج: «من الذكر».

و «صدقها» خلوصها[١] من شوائب الأغيار والحظوظ.

وقوله: «**لِأَهلِ الهِمَمِ العَالِيَةِ**»[٢] فهي[٣] التي لا تقف دون الله عز وجل. ولا تعرج في سفرها علىٰ شيء سواه. وأعلىٰ الهمم: ما تعلق بالعلي الأعلىٰ. وأوسعها: ما تعلق بصلاح العباد. وهي همم الرسل وورثتهم.

وقوله: «**فِي الأَحَايِينِ الخَالِيَةِ**».

يريد بها: ساعات الصفاء مع الله تعالىٰ، وأوقات النفحات الإلهية، التي من تعرض لها يوشك أن لا يحرمها. ومن أعرض عنها فهي عنه[٤] أشد إعراضاً.

وقوله: «**فِي الأَسمَاعِ الصَّاحِيَةِ**»[٥].

وهي[٦] التي صحت[٧] من تعلقها بالباطل واللغو، وأصاخت لدعوة الحق، ومنادي الإيمان. فإن الباطل واللغو خمر الأسماع والعقول. فصحوها بتجنبه والإصغاء إلىٰ دعوة الحق.

---

(١) في م: «خصوصاً».

(٢) في ب: «الهمة».

(٣) «فهي» ساقطة من م.

(٤) «عنه» ساقطة من غ، ح.

(٥) في ط، ج، أ، ق: «الصاخية» وفي المنازل: «الصاحية».

(٦) في ط: «فهي».

(٧) في ج: «صخت».

قوله: «وَهُوَ عِلمٌ يُظْهِرُ الغَائِبَ» أي يكشف ما كان غائباً عن العارف.

قوله: «وَيُغيبُ الشَّاهِدَ» أي يغيبه عن شهود [١] ما سوىٰ مشهوده الحق.

«وَيُشِيرُ إِلَىٰ الجَمْعِ» وهو مقام الفردانية، واضمحلال الرسوم، حتىٰ [٢] رسم الشاهد نفسه [٣].

فصل

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: عِلمٌ لَدُنِيٌّ. إِسنَادُه وُجُودُه، وَإِدرَاكُه عيَانُهُ، وَنَعتُهُ حُكمُهُ. لَيسَ بَينَهُ وَبَينَ الغَيبِ حِجَابٌ» [٤].

يشير القوم بالعلم «اللدني» إلىٰ [٥] ما يحصل للعبد من غير واسطة، بل بإلهام [٦] من الله، وتعريف منه لعبده، كما حصل للخضر - عليه السلام - بغير

---

(١) «شهود» ساقطة من م.

(٢) في ج زيادة: «من» وهي غير مناسبة؛ لأن المعنىٰ: «حتىٰ يضمحل».

(٣) في ط: «تفسه».

(٤) منازل السائرين ٧٧.

(٥) «التي» ساقطة من ج، ب.

(٦) في م، ب «إلهام: والإلهام كما في التعريفات: ما يلقىٰ في الروع بطريق الفيض وقيل الإلهام ما دفع في القلب من علم وهو يدعو إلىٰ العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة. وهو ليس بحجة عند العلماء إلا عند الصوفيين. التعريفات ٥٧.

وانظر: المدارج ١/ ٤٤ و ٤٥ حيث فرق بين التحديث والإلهام وقال التحديث إلهام خاص.

العلم اللدني

واسطة موسىٰ قال [الله][1] تعالىٰ : ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف : ٦٥].

وفرق[2] بين الرحمة والعلم. وجعلهما «من عنده» و «من لدنه» إذ لم ينلهما علىٰ يد بشر، وكان «ما [3] لدنه» أخص وأقرب مما[4] «عنده» ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء : ٨٠] ، فالسلطان النصير الذي من لدنه سبحانه : أخصُّ من الذي عنده وأقرب[5] ؛ [ولهذا][6] قال تعالىٰ : ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ وهو نصره[7] الذي أيَّده به. والذي من عنده : نصره بالمؤمنين [كما][8] قال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال : ٦٢].

و«العلم اللدني» ثمرة العبودية والمتابعة ، والصدق مع الله ، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله [9] من كتابه وسنة رسوله ،

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س.

(٢) في م : «وقرن».

(٣) في البقية عدا م ، س ، ج : «من لدنه».

(٤) في ط : «من».

(٥) في البقية عدا م ، س ، ق : «أخص وأقرب مما عنده».

(٦) الزيادة من الجميع عدا س ، م ، ق.

(٧) «نصره» ساقطة من ط وقبلها : «وهو» ساقطة من م.

(٨) الزيادة من الجميع عدا س ، ج ، ح ، غ.

(٩) «من كتابه وسنة رسوله» ساقطة من ط ، م.

وكمال الانقياد له. فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي[١] بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقد سئل «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا. والذي فلق[٢] الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه»[٣]، فهذا هو العلم اللدني الحقيقي.

وأما علم[٤] من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم[٥] يتقيد بهما: فهو من لدن النفس[٦]، والشيطان، فهو لدني؛ لكن مِن لدن مَنْ؟ وإنما يعرف كون العلم لدنياً رحمانياً: بموافقته[٧] لما جاء به الرسول عن ربه عز وجل؟

فالعلم[٨] اللدني نوعان: لدني رحماني، ولدني شيطاني بطناوي.

---

(١) أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، أول الناس إسلاماً علىٰ قول الأكثر، ولد قبل البعثة بعشر سنين، شهد مع الرسول ﷺ المشاهد إلا غزوة تبوك، وتزوج بابنته فاطمة - رضي الله عنها - وهو رابع الخلفاء، قتل - رضي الله عنه - سنة ٤٠هـ. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٢٦٩ - ٢٧١، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٦ - ١٨٧.

(٢) في غ: «خلق» والفلق هو الشق، والفلقة الكسرة. وبرأ النسمة: أي خلق النفس أو الإنسان. انظر: مختار الصحاح ص٤٥ و ٥١١ و ٦٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الديات، باب العاقلة ٨/ ٤٥ وغيره، وانظر: أيضاً خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للنسائي ٢/ ١١٨.

(٤) «علم» ساقطة من م.

(٥) «الواو» ساقطة من ج، في م: «يتقبل منهما».

(٦) في ط زيادة: «والهوىٰ».

(٧) في ب، ق: «لموافقته» وفي م بعدها: «بما».

(٨) «فالعلم» ساقطة من ق.

والمحك : هو الوحي. ولا وحي بعد الرسول ﷺ .

(١) وأما قصة موسىٰ مع الخضر ـ عليهما السلام ـ : فالتعليق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد ، وكفر مخرج عن الإسلام ، موجب لإراقة الدم.

والفرق : أن موسىٰ ـ عليه السلام ـ لم يكن مبعوثاً إلىٰ الخضر. ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته. ولو كان مأموراً بها لوجب عليه أن يهاجر(٢) إلىٰ موسىٰ ويكون معه.

ولهذا قال له : «أنت موسىٰ (٣) بني إسرائيل؟ قال (٤) : نعم و محمد ﷺ مبعوث إلىٰ جميع الثقلين (٥). فرسالته عامة للجن والإنس ، في كل زمان ، ولو كان موسىٰ وعيسىٰ حيَّين لكانا (٦) من أتباعه. وإذا نزل عيسىٰ بن مريم ـ عليهما السلام ـ. فإنما يحكم بشريعة محمد ﷺ .

---

(١) في هامش ب : «قصة موسىٰ مع الخضر عليهما السلام».

(٢) في أ ، ب : «أن يتبع موسىٰ».

(٣) في البقية عدا س ، م ، ق زيادة : «نبي» وهي خطأ لعدم وجودها في البخاري ومسلم.

(٤) في م زيادة «له» والقصة أخرجها البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن ، باب قوله : ﴿فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ ٥/ ٢٣٤ و٢٣٥ وغيره. ومسلم في كتاب الفضائل ، باب فضل الخضر عليه السلام ، حديث رقم (٢٣٨٠) ٢/ ١٨٤٧ – ١٨٥٠ بغير هذا اللفظ.

(٥) «جميع» ساقطة من م.

(٦) في م : «كانا».

فمن ادعىٰ أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسىٰ. أو جوز ذلك لأحد من الأمة : فليجدد إسلامه ، وليتشهد شهادة الحق. فإنه [1] مفارق لدين الإسلام بالكلية. فضلاً عن أن يكون من خاصة أولياء الله. وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوّابه.

وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة[2] القوم، وبين أهل الاستقامة منهم، فحرِّك ترىٰ [3].

قوله : «إِسنَادُهُ وُجُودُهُ».

يعني : أن طريق هذا العلم هو[4] وجدانه ، كما أن طريق غيره : هو الإسناد.

و«إِدرَاكُه عيَانُهُ» أي إن هذا العلم لا يؤخذ بالفكر ، والاستنباط ، وإنما يؤخذ عياناً وشهوداً.

«وَنَعتُهُ حُكمُهُ» يعني : أن نعوته لا يوصل إليها إلا به ، فهي قاصرة عنه ،

---

(١) في ط زيادة : «بذلك».

(٢) الزنادقة : ومنهم الإسماعيلية والقرامطة والنصيرية ، وهم الذين اتخذوا النفاق باسم التشيع مسلكاً وطريقاً لإفساد الإسلام وتحقيق أغراضهم بنشر الكفر والإلحاد ، والقول بإبطال حدوث العالم ومحدثه ، وتكذيب ملائكته ورسله ، وجحد المعاد والثواب والعقاب.

انظر : منهاج السنة ٨/ ٤٣٥ و ٤٧٩ - ٤٨٦ ، ومختار الصحاح ٢٨٦ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ٣٠٢ و ٣٠٣ ، ولسان العرب ١٠/ ١٤٧.

(٣) في ط : «تره».

(٤) «هو» ساقطة من الجميع عدا س ، م ، ج.

يعني أن شاهدَه منه، ودليلَه وجودُه. وإنِّيَّته لمِّيَّتُه، فبرهان الإنِّ فيه. هو برهان اللَّمِّ[1]، فهو الدليل. وهو المدلول. ولذلك لم يكن بينه وبين الغيب[2] حجاب. بخلاف[3] ما دونه من العلوم. فإن بينه وبين العلوم[4] حجاباً.

والذي يشير إليه القوم: هو نور من جناب[5] المشهود. يمحو[6] قوىٰ الحواس وأحكامها. ويقوم لصاحبها مقامها فيرىٰ[7] المشهود[8] بنوره، ويفنىٰ ما سواه بظهوره، وهذا عندهم معنىٰ الأثر الإلهي «فإذا أحببته كنت سمعه

(١) في أ، غ، ح، ب «اللمم» وفي ج: «الكم» وفي هامش المدارج ٢/ ٤٧٧، هذا التعليق للفقي قال: المراد بالإنِّية والبرهان الإنِّي: الاستدلال بالمعلول علىٰ العلة، وهو منسوب إلىٰ «إن» التوكيدية. وبالبرهان اللمِّي: الاستدلال بالعلة علىٰ المعلول وهو منسوب إلىٰ «لم» الاستفهامية، والمراد أن العلة والمعلول في هذا العلم، أحدهما عين الآخر. انتهىٰ.
وقال في التعريفات الإنية: تحقق الوجود العيني من حيث مرتبته الذاتية. التعريفات ٦١. وفي معجم اصطلاحات الصوفية ٥٨ كما ذكر في التعريفات، وفي كشاف اصطلاحات الفنون: الأنينية عبارة عن أن تكون حقيقتك وباطنك غير الحق ونفي الأنينية هي عين معنىٰ (لا إله) ثم إثبات الحق سبحانه في باطنك. ثانياً عين معنىٰ «إلا الله»، كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ١٣٢، وسيأتي كلام المؤلف حول هذا كما في المدارج ٣/ ٢٠٨.

(٢) في البقية عدا س، م: «الغيوب» وفي ج: «الغيبة».

(٣) في م: «خلاف».

(٤) «العلوم» هكذا في جميع النسخ، وفي هامش الأصل كتب لعله «الغيوب».

(٥) في أ، غ، م، ب «جنات».

(٦) في م: «المحو».

(٧) في ط: «فهو».

(٨) في ج زيادة: «الغيوب» وهي غير ملائمة لما بعدها.

الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به. فبي يسمع. وبي يبصر»[١].

والعلم اللدني الرحماني[٢]: هو ثمرة هذه الموافقة، والمحبة التي أوجبها التقرب بالنوافل بعد الفرائض.

واللدني الشيطاني: ثمرة[٣] الإعراض عن الوحي، وتحكيم الهوىٰ والشيطان[٤]. والله المستعان.

* * *

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب التواضع ٧/ ١٩٠ دون قوله «فبي يسمع...».

(٢) «الرحماني» ساقطة من م.

(٣) في ب: «ثمرته».

(٤) «والشيطان» ساقطة من س، ح، ج، ب، م.

فصـــل

[منزلة الحكمة]

منزلة الحكمة

ومن منازل : « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «الحكمة» .

قال [الله][1] تعالىٰ : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة : ٢٦٩] وقال تعالىٰ : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء : ١١٣] ، وقال عن المسيح ـ عليه السلام ـ : ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران : ٤٨].

الحكمة في كتاب الله نوعان

«الحكمة» في كتاب الله نوعان : مفردة. ومقرونة[2] بالكتاب. فالمفردة : فسرت بالنبوة ، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : «هي علم القرآن : ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه. ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه. وأمثاله»[3].

وقال الضحاك : [هي][4] القرآن والفهم فيه.

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في الجميع عدا الأصل [ومقترنة] وسيأتي في جميع النسخ بعد أسطر «المقرونة».

(٣) انظر : هذا القول وما بعده مما قيل في الحكمة في تفسير الطبري ٣/ ٨٧ و ٥/ ٥٧٦ - ٥٧٨ ، والدر المنثور ٢/ ٦٦ - ٧١.

(٤) الزيادة من أ ، غ ، ط.

وقال مجاهد : هي[1] القرآن والعلم والفقه. وفي رواية أخرىٰ عنه : هي الإصابة في القول والفعل.

وقال النخعي[2] : هي معاني الأشياء وفهمها.

وقال الحسن : الورع في دين الله. كأنه فسرها[3] بثمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب : فهي السنة. كذلك قال الشافعي[4] وغيره من الأئمة.

وقيل : هي القضاء بالوحي. وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحكمة : قول مجاهد، ومالك : إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه، في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان.

و «الحكمة» حكمتان : علمية، وعملية. فالعلمية : الاطلاع علىٰ بواطن

---

(١) سقط من ج إلىٰ قوله : «هي معاني الأشياء».

(٢) هو إبراهيم بن يزيد بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن سعد بن مالك بن النخع، توفي ـ رحمه الله ـ سنة ٩٦هـ. انظر : طبقات ابن سعد ٦/ ٢٧٠ - ٢٨٤، وتقريب التهذيب ١/ ٤٦ (٣٠١).

(٣) في ب : «فسره».

(٤) انظر : الرسالة للشافعي ٧٨ فقرة رقم (٢٥٢).

الأشياء ، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها [١] ، خلقاً وأمراً. قدراً وشرعاً.

و«العملية»[٢]كما قال صاحب المنازل[٣] : وهي وضع الشيء في موضعه[٤].

درجات الحكمة

قال «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ[٥]: أَنْ تُعطِيَ[٦] كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ، وَلاَ تُعدِّيَهِ[٧] حَدَّه ، وَلاَ تُعَجِّلَه عَن وَقتِهِ ، وَلاَ تُؤَخِّرَهُ عَنهُ» [٨].

الدرجة الأولى

لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق ، تقتضيها شرعاً وقدراً. ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها [٩]. ولها أوقات لا تتقدم [١٠] عنها ولا تتأخر - كانت «الحكمة» مراعاة هذه الجهات الثلاثة بأن يُعطي[١١] المرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره ، ولا يتعدىٰ [١٢] بها حدها ؛ فيكون[١٣] متعدياً مخالفاً

(١) في أ ، غ ، ح ، ب : «لمسبباتها».

(٢) في ط : «العلمية» وهو خطأ.

(٣) الواو ساقطة من ج ، ح ، م ، ب.

(٤) في ح ، ج : «مواضعه».

(٥) «الدرجة» ساقطة من ب.

(٦) في أ ، غ ، ج ، ح ، ب ، ق : «يعطي».

(٧) في أ ، غ ، ح ، ج : «ولا يعديه وحده» والأفعال التي بعدها أيضاً فيها بالياء.

(٨) منازل السائرين ٧٨ ، وقوله : «ولا تؤخره عنه» غير موجودة في النسخة التي معي.

(٩) في غ : «تعدها».

(١٠) في ق : «لا يتقدم».

(١١) في ط ، غ ، م ، ق : «تعطي كل مرتبة حقها» وفي ح ج : «بأن يعطي كل مرتبة حقها».

(١٢) في ط : «تتعدىٰ».

(١٣) في ط : «فتكون » وفي س : «فيكون معتدياً».

للحكمة ، ولا يطلب[١] تعجيلها عن وقتها فيخالف[٢] الحكمة ، ولا يؤخرها[٣] عنه فيفوتها[٤].

وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً. فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض.

وتعدي الحق : كسقيها[٥] فوق حاجتها بحيث يغرق[٦] البذر والزرع ، ويفسد.

وتعجيلها عن وقتها : كحصاده قبل إدراكه وكماله.

وكذلك ترك الغذاء والشراب واللباس : إخلال بالحكمة .

وتعدي الحد المحتاج إليه : خروج عنها أيضاً[٧] ،.

وتعجيل ذلك قبل وقته : إخلال بها ، أو[٨] تأخيره عن وقته.

---

(١) في ط : «ولا تطلب».

(٢) في ط : «فتخالف».

(٣) في ط : « ولا تؤخرها» والأصل : «ولا تأخيرها» والمثبت كما في البقية وهو الأنسب.

(٤) في ط : «فتفوتها».

(٥) في م : «بسقيها».

(٦) في م : «تفرق».

(٧) «أيضاً» ساقطة من م.

(٨) في البقية عدا س ، م : «وتأخيره عن وقته إخلال بها».

فالحكمة إذاً(١) : فعل ما ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي. والله تعالىٰ أورث الحكمة آدم وبنيه ؛ فالرجل [الكامل](٢) : من له إرث كامل من أبيه ، ونصف الرجل - كالمرأة - له نصف ميراث. والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالىٰ.

وأكمل الخلق في هذا هم(٣) الرسل ، وأكملهم أولو العزم ، وأكملهم محمد ﷺ . ولهذا امتنَّ [الله](٤) سبحانه عليه ، وعلىٰ أمته بما آتاهم من الحكمة. كما قال [تعالىٰ](٥) : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ [النساء : ١١٣] ، وقال تعالىٰ : ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة : ١٥١].

فكل(٦) نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة. وكل خلل في الوجود ، وفي العبد فسببه : الإخلال بها. فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيباً. وأنقصهم وأبعدهم عن(٧)

---

(١) وانظر : أيضاً في تعريف الحكمة. التعريفات ١٢٤ .

(٢) الزيادة من الجميع عدا س.

(٣) هم ساقطة من ط ، أ ، غ.

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، ج ، ق.

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٦) في ج : «وكل».

(٧) في ج : «من».

الكمال : أقلهم منها ميراثاً.

ولها ثلاثة أركان : العلم ، والحلم ، والأناة.

وآفاتها[١] وأضدادها : الجهل ، والطيش ، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل ، ولا طائش ، ولا عجول.

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : أَن[٢] تَشهَدَ نَظَرَ الله فِي وَعِيدِهِ[٣] ، وَتَعرِفَ عَدلَهُ فِي حُكمِهِ[٤] ، وَتَلحَظَ بِرَّهُ فِي مَنعِهِ»[٥].

أي يعرف[٦] (الحكمة) في الوعد والوعيد ، ويشهد[٧] حكمه في قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [سورة النساء : ٤٠].

فيشهد[٨] عدله في وعيده ، وإحسانه في وعده. وكل قائم بحكمته.

---

(١) «الواو» ساقطة من غ ، أ ، ج.

(٢) في الأصل ، ج ، م : «يشهد» ، «يعرف» ، «يلحظ» والمثبت كما في البقية والمنازل.

(٣) في ط : «وعده».

(٤) في م : «أحكامه».

(٥) منازل السائرين ٧٨.

(٦) في ج ، ح ، م «يعرف» في البقية عدا ح ، ج ، م (تعرف).

(٧) في م ، س ، ج ، ح ، «ويشهد» في البقية عدا م ، س ، ج ، ح «وتشهد».

(٨) في ط : «فتشهد».

وكـذلك تعـرف[1] عدلـه في أحكامـه الـشرعية ، و[2] الكونيـة الجاريـة عـلىٰ الخلائـق. فإنـه لا ظلـم فيهـا ، ولا حيـف ولا جـور. وإن أجراهـا عـلىٰ أيـدي الظلمة. فهو أعدل العادلين. ومن جرت علىٰ يديه هو الظالم.

وكذلك «يَعرِفُ[3] بِرَّهُ فِي مَنعِهِ».

فإنه سبحانه هو الجواد الذي لا يُنقِص[4] خزائنَه الإنفاقُ ، ولا يغـيض مـا في يمينه سعة عطائه. فما مَنعَ من مَنعَه فضلَه إلا لحكمة[5] كاملة في ذلـك. فإنـه الجواد الحكيم[6].

وحكمتُه لا تناقض جودَه. فهو[7] لا يضع بِرَّه[8] وفضله إلا في موضعه ووقته. بقدر ما تقتضيه[9] حكمته. ولو بسط الله[10] الرزق لعباده لفسدوا وهلكوا[11]. ولـو حكمة الله والأقـوال فيهـا

(١) في ط : «تعرف».

(٢) في ج بدون «الواو».

(٣) في ط : «تعرف».

(٤) في ج : «لا تنقص».

(٥) في أ ، غ ، ب : «بحكمه».

(٦) في ب : «والحكيم» و ق : «حكمته» ساقطة.

(٧) «فهو» ساقطة من أ.

(٨) «بره» ساقطة من ق.

(٩) في الأصل : «يقتضيه» والمثبت كما في البقية لمناسبة ما بعده ، م : «بقدرته نعمته تقتضيه».

(١٠) «الله» ساقطة من ج.

(١١) في س : «أو هلكوا».

علم في الكفار خيراً وقبولاً لنعمة الإيمان(١)، وشكراً له عليها، ومحبة له واعترافاً [بها](٢) لهداهم إلىٰ الإيمان. ولهذا لما قالوا للمؤمنين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ أجابهم بقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول(٣): الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان، ويشكرون الله عليها.

فهو(٤) سبحانه ما أعطىٰ إلا بحكمته. ولا منع إلا لحكمته(٥)، ولا أضل إلا لحكمته. وإذا تأمَّل البصيرُ أحوالَ العالم وما فيه من النقص: رآه عين الحكمة. وما عمرت الدنيا والآخرة والجنة والنار إلا لحكمته(٦).

وفي الحكمة ثلاثة أقوال [للناس](٧):

أحدها: أنها مطابقة علمه(٨) لمعلومه، وإرادته ومشيئته(٩) لمراده

---

(١) في م: «الإيمان والهداية» ثم سقط إلىٰ قوله: «لما قالوا للمؤمنين».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) «يقول» ساقطة من م، في ط زيادة: «هم».

(٤) في س: «فالله».

(٥) في الجميع عدا س: «بحكمته ولا أضل إلا بحكمته» وفي م سقط من قوله: «ولا أضل» إلىٰ قوله: «وإذا تأمل».

(٦) في ط، ب: «بحكمته».

(٧) الزيادة من الجميع.

(٨) في م: «العمل».

(٩) في ق: «ولمشيئته لمراده» و م: «مراده».

[و][1] هـذا تفـسير الجبريـة[2]. وهـو في الحقيقـة نفـي للحكمـة[3]. إذ مطابقـة[4] المعلوم والمراد : أعـم مـن أن يكـون « حكمـه » أو خلافهـا ، فـإن السفيه مـن العباد: يطابق علمه وإرادته لمعلومه ومراده. مع كونه[5] سفيهاً.

الثاني[6] - مذهب القدرية النفـاة - : أنهـا مـصالح العباد ومنـافعهم العائـدة عليهم. وهو إنكار لوصفه تعالىٰ بالحكمة. وردوها إلىٰ مخلوق من مخلوقاته.

الثالث - قول أهل الإثبات والسنة - : أنها الغايات المحمودة[7] المطلوبة له سبحانه بخلقه وأمره ، التي أمر لأجلهـا ، وقـدَّر[8] وخلـق لأجلهـا. وهـي صفته

---

(١) الزيادة من س ، ح ، م.

(٢) الجبرية : هم الـذين ينفـون الفعـل عـن العبـد ، ويـضيفونه إلىٰ الـرب تعـالىٰ ، وهـم أصـناف : فمنهم الجبرية الخالصة وهي التي تثبت للعبد فعلاً ولا قـدرة علىٰ الفعـل ، ومـنهم الجبريـة المتوسطة وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة. انظر : الملل والنحل ١/ ٨٥ ، ٨٦.

(٣) في البقية عدا س ، م : «حكمته».

(٤) في غ : «مطابقته».

(٥) في غ : «بكونه».

(٦) في ق : «والثاني». والقدرية : هـم ضـد الجبريـة وسـموا بـذلك نـسبة لقـولهم ومخـالفتهم في القدر ، وهـم الـذين يزعمـون أن العبـد هـو الـذي يخلـق فعلـه ، فجعلـوا مـع الله خالقـاً آخـر ، ولذلك سموا مجوس هذه الأمة لقولهم بخالقين ، وهـم طوائـف عـدة علىٰ حـسب تفـاوت أقوالهم.

انظر الملل والنحل ١/ ٤٣ - ٤٦.

(٧) في م : «المحبوبة».

(٨) سقط من ح إلىٰ قوله : «وهي صفته».

القائمة به كسائر صفاته : من سمعه وبصره ، وقدرته وإرادته ، وعلمه وحياته وكلامه.

وللرد[١] علىٰ طائفتي الجبرية والقدرية موضع آخر[٢] غير هذا. [والله أعلم][٣].

فصــل

الدرجة الثالثة قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : أَن تَبلُغَ فِي استِدلاَلِكَ البَصِيرَةَ ، وَفِي إِرشَادِكَ الحَقِيقَةَ ، وَفِي إِشَارَتِكَ[٤] الغَايَةَ».

يريد[٥] أن تصل باستدلالك إلىٰ أعلىٰ[٦] درجات العلم. وهي البصيرة التي تكون[٧] نسبة العلوم فيها إلىٰ القلب كنسبة المرئي إلىٰ البصر[٨]. وهذه هي الخصيصة التي اختصّ بها الصحابة عن سائر الأمة. وهي أعلىٰ درجات العلم.

---

(١) في أ ، غ ، ب : «والرد».

(٢) «آخر» ساقطة من الجميع عدا س ، م ، ق.

(٣) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٤) في غ : «إرادتك» وقوله في المنازل ٧٨.

(٥) «يريد» ساقطة من أ ، «أن» ساقطة من ب.

(٦) في ج ، ق : «أقصىٰ».

(٧) في ب : «يكون» ، ق : «كون».

(٨) في غ : «البصيرة».

قال [الله] (١) تعالىٰ : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [سورة يوسف : ١٠٨] أي أنا وأتباعي علىٰ بصيرة.

وقيل : ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطف علىٰ المرفوع بـ ﴿أَدْعُوٓا۟﴾ أي أنا أدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة. ومن اتبعني كذلك يدعو(٢) إلىٰ الله علىٰ بصيرة.

وعلىٰ القولين فالآية تدل علىٰ(٣) أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون(٤) إلىٰ الله علىٰ(٥) بصيرة. فمن ليس منهم فليس من أتباعه علىٰ الحقيقة والموافقة. وإن كان من أتباعه علىٰ الانتساب والدعوىٰ.

وقوله : «وَ(٦) فِي إِرْشَادِكَ الحَقِيقَةَ».

إما أن يريد : أنك إذا أرشدت غيرك تبلغ في إرشاده إلىٰ(٧) الحقيقة ، أو تبلغ في إرشاد غيرك لك(٨) إلىٰ الحقيقة ، ولا تقف دونها.

فعلىٰ الأول: المصدر مضاف إلىٰ الفاعل . وعلىٰ الثاني: إلىٰ المفعول.

---

(١) الزيادة من س ، ح ، م.

(٢) في ج : «ندعوا» وانظر : تفسير ابن كثير ٢/ ٥٣٤ ، وتفسير أبي السعود ٤/ ٣١٠.

(٣) «علىٰ» ساقطة من ط.

(٤) في البقية : «الداعين».

(٥) سقط من ب : «علىٰ بصيرة».

(٦) «الواو» ساقطة من غ.

(٧) «إلىٰ» ساقطة من غ.

(٨) في الأصل ، ج : «في إرشاد غيره ذلك» وفي ج : «لكن» والمثبت كما في البقية.

والمعنىٰ : أنك تكون من أهل الوجود الذين إذا أشاروا لم يشيروا إلا إلىٰ الغاية المطلوبة التي ليس وراءها مرمىٰ.

والقوم يسمون أخبارهم عن المعارف وعن المطلوب «إشارات» ؛ لأن المعروف والمطلوب أجل من أن يفصح عنه بعبارة مطلقة ، وشأنه فوق ذلك. فالكامل مَنْ إشارته إلىٰ الغاية. ولا يكون ذلك إلا لمن فَنَىٰ رسمه وهواه وحظه. وبقي بربه ومراده الديني الأمري. وكل أحد فإشارته[1] بحسب معرفته وهمّه. ومعارف القوم وهممهم[2] تؤخذ من إشاراتهم. والله المستعان.

* * *

(١) في ق : «فأشارة لك» وقال في اللمع ٤١٤ : «الإشارة ما يخفىٰ عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه».

(٢) في غ : «وهممهم».

فصل

[منزلة الفراسة]

منزلة الفراسة

ومن منازل: «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: الفراسة[١].

قال [الله][٢] تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر: ٧٥]. قال مجاهد[٣] ـ رحمه الله ـ: المتفرسين[٤]: وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: للناظرين. وقال قتادة[٥]: للمعتبرين. وقال مقاتل[٦]: للمتفكرين[٧].

---

(١) الفراسة: قال ابن الأثير بعد إيراده حديث: «اتقوا فراسة المؤمن» يقال بمعنيين:
أحدهما: ما دل ظاهر هذا الحديث عليه، وهو ما يوقعه الله تعالىٰ في قلوب أوليائه، فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس.
والثاني: نوع يُتكلم بالدلائل والتجارب والخلْق والأخلاق، فتعرف به أحوال الناس.
النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤٢٨، وانظر: التعريفات ٢١٣.

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) انظر: تفسير مجاهد ١/ ٣٤٢، وتفسير ابن كثير ٢/ ٦٠١.

(٤) في البقية عدا س، ج، ق: «المتفرسين».

(٥) أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن عزيز السدوسي البصري من بكر بن وائل أحد علماء التابعين. توفي سنة ١١٧هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩ - ٢٨٣ (١٣٢)، التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ١٨٥ - ١٨٧ (٨٢٧)، طبقات ابن سعد ٧/ ٢٢٩.

(٦) أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي الخراساني أصله من بلخ وانتقل إلىٰ البصرة وبغداد، وكان عالماً وإماماً بالتفسير إلا أنه متروك الحديث. توفي بالبصرة سنة ١٥٠هـ. انظر: طبقات ابن سعد ٧/ ٣٧٣، شذرات الذهب ١/ ٢٢٧، تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٤.

(٧) في أ، غ: «المتفكرين» وهي ساقطة من ق.

ولا تنافي بين هذه الأقوال. فإن الناظر متىٰ نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم. وما آل إليه أمرهم: أورثه [١] فراسة وعبرة وفكرة. وقال تعالىٰ في حق المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠] فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: علَّق معرفته إياهم بالنظر علىٰ [٢] المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم علىٰ شرط؛ بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم. فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ وهو تعريض [٣] الخطاب، وفحوىٰ الكلام ومغزاه.

أنواع اللحن

و «اللحن» ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة. ومنه [٤]: «ولعل بعضكم [٥] أن يكون ألحن بحجته من بعض».

---

(١) ق: «أورث».

(٢) ق: «إلىٰ».

(٣) في أ، غ: «تعريف».

(٤) في ط زيادة: «الحديث».

(٥) في الأصل و س: «بعضهم» والمثبت كما في البقية وهو نص الحديث وقد أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الحيل الباب العاشر ٨/ ٦٢ وغيره. ومسلم في كتاب الأقضية - باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ٢/ ١٣٣٧ (١٧١٣).

والثاني : التعريض والإشارة. وهو قريب[1] من الكناية. ومنه قول الشاعر :

وحديث ألذه وهو مما يشتهىٰ السامعون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن[2] أحيا ناً وخير الحديث ما كان لحناً

والثالث : فساد [المنطق في][3] الإعراب. وحقيقته : تغيير الكلام عن وجهه: إما إلىٰ خطأ به[4] وإما إلىٰ معنىٰ خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود : أنه سبحانه أقسم علىٰ معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه[5] : أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه. فإن دلالة الكلام علىٰ قصد قائله وضميره أظهر من دلالة[6] السيما المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر[7] والسماع.

---

(١) التعريض : إمالة الكلام عن معناه الوضعي الحقيقي إلىٰ معنىٰ آخر مراد ، كقولك للبخيل : ما أقبح البخل. والكناية : هي لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة هذا المعنىٰ نفسه ، وهي ثلاثة أقسام : ١ - كناية الصفة. ٢ - كناية الموصوف. ٣ - كناية النسبة. للاستزادة انظر : قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ص١٣٦ و ٣٢٨ و ٣٢٩.

(٢) في ب : «بالنون» ، وفي تاريخ بغداد : «ويلحن» وهما لمالك بن أسماء. انظر : البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٤٧ ، وتاريخ بغداد ١٢/ ٢١٤.

(٣) الزيادة من الجميع عدا س ، م ، وفي س سقط : «فساد» أيضاً ، وقوله الثالث يقصد به لحن الخطأ.

(٤) «به» ساقطة من الجميع عدا س ، م.

(٥) «من كلامه» ساقطة من م.

(٦) «دلالة» ساقطة من ط.

(٧) في غ : «النظر».

وفي الترمذي[1] من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن[2] النبي ﷺ قال: «**اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله. ثم قرأ[3] قوله تعالىٰ**: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر: ٧٥].

فصل

أنواع الفراسة وسببها

و«الفراسة» ثلاثة أنواع: إيمانية. وهي المتكلم فيها[4] في هذه المنزلة.

وسببها: نور يقذفه الله في قلب عبده[5]. يفرق به بين الحق والباطل،

---

(١) هو أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سورة الترمذي أحد أئمة الحديث، وهو صاحب السنن المعروفة، ولد سنة ٢١٠هـ وقيل ٢٠٩هـ وتوفي سنة ٢٧٩هـ. انظر: البداية والنهاية ١١/ ٦٦ و ٦٧، الأعلام ٧/ ٢١٣، معجم المؤلفين ١١/ ١٠٤ و ١٠٥.

(٢) في ط كرر: «عن» وفي غ: «أن النبي».

(٣) في ط: «تلا» والحديث رواه الترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة الحجر وقال: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه وقد روي عن بعض أهل العلم. سنن الترمذي ٥/ ٢٩٨ ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٥/ ٩٩ وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١١٨ والحديث تكلم عليه العلماء فمنهم من حسنه، ومنهم من ضعفه، ومنهم من أورده في الموضوعات. انظر: الموضوعات لابن الجوزي ٣/ ١٤٥-١٤٨ ومجمع الزوائد ١٠/ ٢٧١، والحديث قد جمع طرقه الألباني ـ رحمه الله ـ وتكلم عنها وأجاد ثم حكم عليه بالضعف وقال: «وجملة القول أن الحديث ضعيف لا حسن ولا موضوع وإليه مال الحافظ السخاوي في المقاصد والله أعلم» ورد علىٰ من قال بأن الحديث حسن صحيح بمجموع طرقه. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة ٤/ ٢٩٩- ٣٠٢ رقم (١٨٢١).

(٤) «المتكلم فيها» ساقطة من أ، غ، ب.

(٥) في ب: «ويفرق».

والحالي[1] والعاطل، والصادق والكاذب.

بيان الفراسة الإيمانية

وحقيقتها: أنها خاطر يهجم على القلب ينفى ما يضاده. يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة. لكن[2] الفريسة فعيلة بمعنى مفعولة. وبناء «الفراسة» كبناء الولاية والإمارة والسياسة.

وهذه «الفراسة» على حسب قوة الإيمان. فمن كان أقوى إيماناً فهو أحد فراسة.

قال أبو سعيد الخراز: من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق[3]، وتكون[4] مواد علمه من[5] الحق بلا سهو ولا غفلة؛ بل حكم حق جرى على لسان عبده.

وقال الواسطي ـ رحمه الله ـ: الفراسة سواطع[6] أنوار لمعت في القلوب،

---

(١) الحالي: من الحلية والتحلي بها، وتطلق الحلية على الصفة، وهو ضد العاطل. قال في مختار الصحاح: عطِلَت المرأة من باب طَرِب، وتعطّلت إذا خلا جيدها من القلائد فهي عُطُل بضمتين. وعاطلٌ، ومعطال، وقد ويستعمل العَطَل في الخلو من الشيء وإن كان أصل في الحلي يقال: عَطَل الرجل من المال والأدب فهو عُطل.

مختار الصحاح ص٤٤٠، ١٥٣، وانظر: النهاية في غريب الحديث ١/ ٤٣٥.

(٢) «لكن الفريسة» ساقطة من ج، وفي أ، غ: «الفراسة».

(٣) في أ زيادة: «القلب» وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢٣١.

(٤) في س بالياء.

(٥) في البقية عدا ج، س، ق: «مع».

(٦) في البقية عدا ج، س، ق: «شعاشع» وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢٣١.

وتمكين[1] معرفة حملة السرائر في الغيوب من غيب إلىٰ غيب ، حتىٰ يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق إياها ، فيتكلم عن ضمير الخلق[2].

وقال الداراني - رحمه الله - : الفراسة مكاشفة النفس ، ومعاينة الغيب ، وهي من[3] مقامات الإيمان.

وسئل بعضهم عن الفراسة؟ فقال : أرواح تتقلب في الملكوت[4]. فتشرف علىٰ معاني الغيوب ، فتنطق عن أسرار الخلق ، نطق مشاهدة لا نطق ظن وحسبان.

وقال أبو[5] عمرو بن نجيد : كان شاه[6] الكرماني

---

(١) في البقية عدا ج ، س ، م «تمكن» وفي ط بعدها : «معرفة جملت» وفي ج : «حكمة علىٰ».

(٢) في ق ، م : «الحق» وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢٣١ .

(٣) «من» ساقطة من ج وهذا القول ليس للداراني وإنما هو للكتاني. انظر : الرسالة القشيرية ٢٣٢.

(٤) قال في مختار الصحاح ص٦٣٣ : «والملكوت : من الملك كالرهبوت من الرهبة يقال : له ملكوت العراق وهو الملك والعز». وانظر : النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣٥٩ ، وقال في التعريفات ٢٨٣ : «الملكوت : عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس». وقال في معجم اصطلاحات الصوفية ١٠٨ ، عن الملكوت هو عالم الغيب. وانظر ما نقله المؤلف في الرسالة القشيرية ٢٣٣.

(٥) في البقية عدا س ، م سقط «أبو».

(٦) هو أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني من أهل كرمان بلدة مشهورة من بلاد فارس ، وكان من أبناء الملوك فتزهد ، صحب أبا تراب النخشبي وأبا عبيد البسري وغيرهما مات بعد

حاد[1] الفراسة لا يخطيء. ويقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بدوام[2] المراقبة وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال: لم تخطئ فراسته.

وقال أبو جعفر[3] الحداد: الفراسة أول خاطر بلا معارض، فإن عارضه معارض[4] من جنسه. فهو خاطر وحديث نفس.

وقال أبو حفص النيسابوري: ليس لأحد أن يدعي الفراسة. ولكن يتقي الفراسة من الغير؛ لأن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن[5]»، ولم [يقل][6]: تفرسوا. وكيف يصح[7] دعوىٰ الفراسة لمن هو في محل اتقاء[8] الفراسة؟

السبعين والمائتين وقبل الثلاثمائة. انظر: صفة الصفوة ٤/ ٦٧، ٦٨، وقوله فيها ص٦٧، والرسالة القشيرية ٤٢٨، وانظر قوله ٢٣٤، وانظر: الطبقات ص١٢٩ و١٣٠.

(١) في ح: «صادق» وفي ج: «حاد الفراسة لا تخطيء».

(٢) «بدوام» ساقطة من البقية عدا س، ج.

(٣) في ج: «أبو حفص» وهو أبو جعفر الحداد صحب أبا تراب وله أقوال مشهورة في التصوف والزهد. انظر: حلية الأولياء ١٠/ ٣٣٩ و٣٤٠ (٦١٢)، وتاريخ بغداد ١٤/ ٤١٢، وانظر: قوله في الحلية ١٠/ ٣٤٠، والرسالة القشيرية ٢٣٥.

(٤) في البقية عدا س، ج، ق زيادة «آخر» وهي غير موجودة في قوله.

(٥) في البقية عدا س، م زيادة: «فإنه ينظر بنور الله» وهي غير موجودة في كلام أبي حفص النيسابوري. وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢٣٥. وتقدم تخريج الحديث ص٢٦٨٠.

(٦) الزيادة من الجميع.

(٧) في الأصل، ج، م: «بالتاء» والمثبت كما في البقية والرسالة القشيرية.

(٨) في أ: «إتقان».

وقال أحمد[١] بن عاصم الأنطاكي : إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق. فإنهم جواسيس القلوب ، يدخلون في قلوبكم ويخرجون من حيث لا تحتسبون.

وكان الجنيد - رحمه الله - يوماً يتكلم علىٰ الناس. فوقف عليه شاب نصراني متنكراً. فقال : أيها الشيخ ما معنىٰ قول الرسول[٢] ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» فأطرق الجنيد ، ثم رفع إليه[٣] رأسه. وقال : أسلم. فقد حان وقت إسلامك. فأسلم الغلام.

ويقال في بعض الكتب القديمة : إن الصِّدِّيق لا تخطئ فراسته[٤].

وقال ابن مسعود[٥] - رضي الله عنه - : «أفرس الناس ثلاثة : العزيز

---

(١) أبو علي أحمد بن عاصم الأنطاكي من أقران بشر بن الحارث ، والحارث المحاسبي كان صاحب فراسة ، وكان أبو سليمان الداراني يسميه (جاسوس القلوب) لحدة فراسته ، ولم يذكر من ترجم له عن ولادته ووفاته شيئاً فيما رجعت إليه من مراجع. انظر : حلية الأولياء ٩/ ٢٨٠-٢٩٧ ، صفة الصفوة ٤/ ٢٧٧-٢٧٩ ، الرسالة ص٣٩٤ و ٣٩٥ ، والطبقات للشعراني ١٢٠ ، وانظر قوله فيما تقدم والرسالة القشيرية ٢٣٥.

(٢) في البقية عدا س ، م : «النبي» والحديث تقدم تخريجه قريباً.

(٣) في البقيه : «رأسه إليه» و «إليه» ساقطة من س ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢٤١.

(٤) أوردها القشيري في فراسة إبراهيم الخواص حينما قال لرجل : إنك يهودي فأسلم الرجل ، وقال : إننا نجد في كتبنا إن الصديق لا تخطئ فراسته. الرسالة القشيرية ٢٣٩.

(٥) أبو عبدالرحمن عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي أسلم وهاجر الهجرتين وروىٰ العديد من الأحاديث ، مات بالمدينة وقيل بالكوفة سنة ٣٢هـ وقيل ٣٣هـ. انظر : الإصابة

في يوسف، حيث[1] قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [يوسف: ٢١]، وابنة شعيب[2] حين قالت لأبيها في موسىٰ: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر في عمر، حيث[3] استخلفه. وفي رواية أخرىٰ: وامرأة فرعون حين قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]».

وكان الصديق - رضي الله عنه - أعظم الناس فراسة. وبعده عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -. ووقائع فراسته مشهورة. فإنه ما قال لشيء: «أظنه كذا» إلا كان كما قال. ويكفي في فراسته: موافقته ربه في المواضع المعروفة[4].

ومر به سواد بن قارب[5]، ولم يكن يعرفه. فقال: «لقد أخطأ ظني، أو أن

٤/ ١٢٩ و ١٣٠ (٤٩٤٥)، الجرح والتعديل ٥/ ١٤٩، وانظر قوله في: البداية والنهاية ١/ ٢٠٢ و ٢٤٤، تاريخ الخلفاء للسيوطي ٨٣، الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٣/ ٢٧٣، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٢.

(١) في م: «حين».

(٢) «وابنة شعيب» ساقطة من ق، وفي م: «حين» بدل حيث.

(٣) في م: «حين».

(٤) وهي في اتخاذ مقام إبرهيم مصلىٰ وآية الحجاب وقصة الغيرة وقوله: ﴿عسىٰ ربه إن طلقكن﴾ وقوله في أسارىٰ بدر. انظر: تاريخ الخلفاء.ص١٢٢.

(٥) هو سواد بن قارب الدوسي أو السدوسي قيل له صحبة وهو من أهل السراة من جبال البلقاء وقيل كان من أشراف أهل اليمن. انظر القول وترجمة قائله في: البداية والنهاية ٢/ ٣٣٢ - ٣٣٧، والإصابة ٣/ ١٤٨ و ١٤٩، وقول عمر في المستدرك ٣/ ٧٠٥، ومجمع الزوائد ٨/ ٢٤٩، والمعجم الكبير للطبراني ٧/ ٩٣ و ٩٤، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٦٤.

هذا كاهن ، أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية» فلما جلس بين يديه قال له : ذلك عمر. فقال : «سبحان الله ، يا أمير المؤمنين ، ما استقبلت أحداً من جلسائك بمثل [١] ما استقبلتني به [٢]. فقال له عمر - رضي الله عنه - : ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك. ولكن أخبرني عما سألتك عنه [٣]. فقال : صدقت يا أمير المؤمنين. [٤] كنت كاهناً [٥] في الجاهلية. ثم ذكر القصة».

وكذلك عثمان بن عفان - رضي الله عنه - كان [٦] صادق الفراسة.

وقال أنس [٧] بن مالك - رضي الله عنه - : «دخلت علىٰ عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ، وكنت رأيت في الطريق [٨] امرأة تأملت محاسنها. فقال عثمان رضي

---

(١) «بمثل» ساقطة من م.

(٢) «به» ساقطة من ج.

(٣) في ط زيادة : «عنه».

(٤) في أ زيادة : «قال» ، وهي موجودة فيما سبق فهذا تكرار.

(٥) **الكهانة** : هي الأخبار عن الكائنات في مستقبل الزمان وادعاء معرفة الأسرار. انظر : تفسير غريب الحديث لابن حجر ٢١٢ ، والتعريفات ٢٣٣، والنهاية في غريب الحديث ٤/ ٢١٤، وانظر : أخبار الكهان في مروج الذهب للمسعودي ٢/ ١٧٢ - ١٩٣.

(٦) «كان» ساقطة من ط.

(٧) أبو حمزة أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي خادم النبي ﷺ توفي سنة ٩٣هـ ، وقيل غير ذلك ، وقد عاش مائة عام إلا سنة. انظر : أسد الغابة ١/ ٧١ - ٧٣ ، والتاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٢٨ (١٥٧٩).

(٨) في ط ، ج ، أ ، غ : «امرأة في الطريق».

الله عنه : يدخل عليَّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر في عينيه. فقلت : أوحي بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : لا [١] ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة[٢].

وفراسة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أصدق فراسة.

وأصل هذا النوع من الفراسة : من الحياة والنور اللذين يهبهما الله لمن يشاء من عباده ، فيحيا القلب بذلك ويستنير ، فلا تكاد فراسته تخطئ. قال تعالىٰ : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام : ١٢٢]. كان ميتاً بالكفر والجهل ، فأحياه [الله][٣] بالإيمان والعلم. وجعل له بالقرآن والإيمان نوراً يستضيء به في الناس

(١) «لا» ساقطة من ط.

(٢) ذكر المؤلف هذه القصة في كتابه الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ٤٣ ، ولم أجد من ذكرها غير السلمي في الرسالة القشيرية ٢٣٨ وهذه الرواية لعلها غير ثابتة ؛ لأن الفراسة الصادقة هي استدلال بما يظهر للمتفرس كما ساق المؤلف نفسه قصصاً كثيرة في كتابه الطرق الحكمية ، وبين أن هذا المتفرس قال قوله هذا عن استدلال كما ذكر عن القاضي إياس في الأربع نسوة حينما قال أن واحدة حامل والأخرىٰ مرضع والثالثة ثيب والرابعة بكر فبين أسباباً حسية تدل علىٰ ما ذكر. انظر : الطرق الحكمية ٣٦ ، وهذه الرواية التي ساقها المؤلف فيها طعن بخادم رسول الله ﷺ كما أن فيها ادعاء معرفة أمور غيبية لا دليل عليها كما أن المتفرس لا يقطع قطعاً جازماً ما لم يكن عنده دليل علىٰ ذلك ، ولذلك قال عمر كما تقدم عنه : «لقد أخطأ ظني» ولم يطمئن لظنه حيث سأله وأجابه عن ذلك بموافقة ظنه. والله أعلم بالصواب.

(٣) الزيادة من الجميع عدا س ، وق وفيهما : «بالعلم والإيمان».

علىٰ قصد السبيل ، ويمشي به في الظلم. [والله أعلم][1].

فصل [2]

النوع الثاني

الفراسة الثانية : فراسة الرياضة والجوع ، والسهر والتخلي. فإن النفس إذا تجردت عن العوائق[3] صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها. وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر. ولا تدل علىٰ إيمان[4] ولا علىٰ ولاية. وكثير من الجهال يغتر بها. وللرهبان[5] فيها وقائع معلومة. وهي فراسة لا تكشف[6] عن حق نافع ، ولا عن[7] طريق مستقيم[8] ؛ بل كشفها جزئي من جنس فراسة الولاة[9]. وأصحاب عبارة الرؤيا والأطباء ونحوهم.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٢) «فصل» ساقطة من م.

(٣) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه الفوائد ١٥٤ : «وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها ، فإنها تعوق القلب عن سيره إلىٰ الله ، وتقطع عليه طريقه وهي ثلاثة أمور : شرك وبدعة ومعصية..».

(٤) في غ : «الإيمان».

(٥) الرهبان : جمع راهب وهو العابد. والحبر : العالم. انظر : المصباح المنير ص١١٧ و ٢٤١ ، والتعريفات ١٤٥.

(٦) ق : «لا يكشف».

(٧) في ج : «ولا علىٰ».

(٨) في ق : «مستقيمة».

(٩) في أ ، غ : «الولادة».

وللأطباء فراسة معروفة من حذقهم في صناعتهم. ومن أحب الوقوف عليها فليطالع تواريخهم(١) وأخبارهم. وقريب من نصف الطب: فراسة صادقة، يقترن(٢) بها تجربة، [والله سبحانه أعلم](٣).

فصل

النوع الثالث

الفراسة الثالثة: [الفراسة](٤) الخلقية. وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم. واستدلوا بالخلق علىٰ الخُلُق لما بينهما من الارتباط الذي(٥) اقتضته حكمة الله. كالاستدلال بصغر الرأس الخارج(٦) عن العادة عن صغر العقل. وبكبره علىٰ كبره(٧)، وبسعة الصدر، وبُعد ما بين جانبيه: علىٰ سعة خُلق صاحبه. واحتماله وبسطته. وبضيقه علىٰ ضيقه. وبخمود(٨) العين وكلال(٩) نظرها علىٰ بلادة(١٠) صاحبها، وضعف حرارة قلبه. وبشدة بياضها مع

الاستدلال بالخَلق على الخُلق

(١) في ط: «تاريخهم».

(٢) في ق: «تقترن».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في ق: «التي».

(٦) في غ: «الخارجة».

(٧) «علىٰ كبره» ساقطة من ط.

(٨) في م، ج: «بجمود».

(٩) أي عدم حدتها. انظر: مختار الصحاح ٥٧٦، والمصباح المنير ٥٣٩.

(١٠) أي غير ذكي ولا فطن. المصباح المنير ٦٠.

إشـرابه[١] بحمرة - وهو الشكل[٢] - علىٰ شجاعته وإقدامه وفطنته. وبتدويرها مع[٣] حمرتها وكثرة تقلبها علىٰ خيانته ومكره وخداعه.

ومعظم تعلق الفراسة بالعين. فإنها مرآة القلب وعنوان ما فيه. ثم باللسان. فإنه رسوله وترجمانه. وبالاستدلال[٤] بزرقتها مع شقرة صاحبها علىٰ رداءته. وبالوحشة التي ترىٰ عليها علىٰ سوء داخلته[٥] وفساد طويته.

وكالاستدلال بإفراط الشعر في السبوطة[٦] علىٰ البلادة. وبإفراطه[٧] في الجعودة علىٰ الشعر. وباعتداله علىٰ اعتدال[٨] صاحبه.

وأصل هذه الفراسة: أن اعتدال الخلقة والصورة: هو من اعتدال المزاج والروح. وعن اعتدالها يكون اعتدال الأخلاق والأفعال. وبحسب انحراف الخلقة والصورة عن الاعتدال: يقع الانحراف في الأخلاق والأعمال.

هذا إذا خُلِّيت النفس وطبيعتها.

---

(١) في أ، غ، ب: «اشترابه».

(٢) «وهو الشكل» ساقطة من م.

(٣) في الأصل: «علىٰ» والصواب ما أثبت وهو كما في البقية.

(٤) في ب: «الاستدلال».

(٥) في ط: «داخله».

(٦) قال في مختار الصحاح ٣٨٣: «شعر سبط - بفتح الباء وكسرها - أي مسترسل غير جعد».

(٧) س: «وأفراطه».

(٨) في الأصل: «اعتدلال» وهو خطأ.

ولكن صاحب الصورة والخلقة المعتدلة يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاق من يقارنه ويعاشره. ولو أنه من الحيوان البهيم. فيصير من أخبث الناس أخلاقاً وأفعالاً، وتعود [١] له تلك طباعاً، ويتعذر - أو يتعسر [٢] - عليه الانتقال عنها.

وكذلك صاحب الخلقة والصورة المنحرفة عن الاعتدال يكتسب بصحبة الكاملين وخلطتهم [٣] أخلاقاً وأفعالاً شريفة. تصير له كالطبيعة. فإن العوائد[٤] والمزاولات تعطي الملكات والأخلاق.

فليتأمل هذا الموضع ولا يعجل بالقضاء [٥] بالفراسة دونه. فإن القاضي حينئذ يكون خطؤه كثيراً. فإن هذه العلامات [٦] أسباب لا موجبة. وقد تتخلف [٧] عنها أحكامها لفوات شرط أو وجود[٨] مانع.

---

(١) في ح : «ويعود».

(٢) في غ : «ويتعسر».

(٣) في ط : «بخلطتهم».

(٤) في م : «الطبيعة».

(٥) في الأصل : «فالقضاء» والمثبت كما في البقية. ويكون المعنىٰ لايعجل القاضي بالقضاء بالفراسة وذلك بالنظر بخلقة الإنسان دون النظر إلىٰ من يخالط ويقارن فإن الطبيعة أو الطبائع قد تتغير بالمقارنة. فإذا حكم القاضي بالفراسة دون النظر إلىٰ ذلك فإن خطؤه يكون كثيراً.

(٦) في ب : «المعاملات».

(٧) في ق : «تحلف» و م : «يتخلف».

(٨) في ط : «لوجود».

الفراسة تتعلق بثلاثة أشياء

وفراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء : بعينه. وأذنه. وقلبه.

فعينه : للسيماء والعلامات. وأذنه : للكلام وتصريحه وتعريضه ، ومنطوقه ومفهومه ، وفحواه[١] ، وإشارته[٢] ، ولحنه[٣] وإيمائه[٤] ، ونحو ذلك. وقلبه : للعبور والاستدلال من المنظور والمسموع إلىٰ باطنه وخفيه. فيعبر[٥] إلىٰ ما وراء ظاهره ، كعبور النقاد من ظاهر النقش[٦] والسكة[٧] إلىٰ باطن النقد[٨] والاطلاع عليه : هل هو صحيح ، أو زغل[٩]؟ وكذلك عبور المتفرس من ظاهر الهيئة والدَّل[١٠] ، إلىٰ باطن الروح والقلب. فنسبة نقده للأرواح من الأشباح

---

(١) فحوىٰ القول : معناه. مختار الصحاح ٤٩٢.

(٢) إشارة الكلام : هو إيماء المتكلم إلىٰ معاني شتىٰ بلفظ وجيز. قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ٥٣.

(٣) اللحن : يأتي علىٰ عدة معاني. انظر : مختار الصحاح ٥٩٤ ، وقد تكلم المؤلف عنه. انظر : بداية حديثه عن منزلة الفراسة.

(٤) الإيماء : هو أحد أساليب الكناية ويكون في تحميل المكنىٰ به إشارة غير خفية إلىٰ المكنىٰ عنه. قاموس المصطلحات ٨٩.

(٥) في م : «فيصير».

(٦) في الأصل : «الدال» بدل «النقش» ولعل الصواب ما أثبت وهو كما في البقية لقوله بعدها : «هل هو صحيح أو زغل».

(٧) السكة : قال في مختار الصحاح ٣٠٧ : «والسكة أيضاً الزقاق. وسكة الدراهم هي المنقوشة».

(٨) قال في لسان العرب ٣/ ٤٢٥ : «النقد والتناقد : تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها».

(٩) الزغل : هو الغش. انظر : تاج العروس ٧/ ٣٥٧.

(١٠) في ج : «والدال» ومعنىٰ الدَّل : هو قريب المعنىٰ من الهدي وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك. المصباح المنير ٢٠٩.

كنسبة نقد الصيرفي [1] [ينظر] [2] للجوهر من ظاهر السكة والنقد.

وكذلك نقد أهل الحديث. فإنه يمر بهم [3] بإسناد ظاهر كالشمس علىٰ متن مكذوب. فيخرجه نقدهم [4]، كما يخرج الصيرفي الزغل [5] تحت الظاهر من الفضة.

وكذلك فراسة التمييز بين الصادق والكاذب في أقواله وأفعاله وأحواله.

وللفراسة سببان:

أسباب صحة الفراسة

أحدهما [6]: جودة ذهن المتفرس، وحدة قلبه، وحسن فطنته.

والثاني: ظهور العلامات والأدلة علىٰ المتفرَّس فيه. فإذا اجتمع السببان لم تكد [7] تخطئ للعبد فراسة. وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة. وإذا قوىٰ أحدهما وضعف الآخر: كانت فراسته بين بين.

---

(١) قال في المصباح المنير ٣٣٨: «قال ابن فارس الصرف فضل الدراهم في الجودة علىٰ الدراهم ومنه اشتقاق الصيرفي».

(٢) الزيادة من البقية عدا س، ج، م، ق.

(٣) «بهم» ساقطة من ط.

(٤) في ط: «ناقدهم».

(٥) في ط زيادة: «من».

(٦) في ج: «أحدها».

(٧) في الأصل، س، ج، م: «بالياء» والمثبت كما في البقية لموافقة ما بعده.

وكان إياس[1] بن معاوية من أعظم الناس فراسة. وله الوقائع المشهودة.

وكذلك الشافعي ـ رحمه الله ـ: وقيل: إن له فيها تآليف.

حكاية ابن القيم لفراسة ابن تيمية

ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية أموراً عجيبة. وما لم أشاهده منها[2] أعظم وأعظم. ووقائع فراسته تستدعي سفراً ضخماً.

و[3] أخبر أصحابه بدخول التتار[4] الشام سنة تسع وتسعين وستمائة، وأن جيوش المسلمين[5] تُكْسَر، وأن دمشق[6] لا يكون بها قتل عام ولا سبىٰ عام،

---

(١) هو إياس بن معاوية بن قرة المزني يكنىٰ أبا واثلة كان قاضياً علىٰ البصرة سمع إياس من أبيه وأنس بن مالك وابن المسيب وغيرهم وكان يضرب به المثل بذكائه وفراسته. توفي بواسط سنة ١٢٢هـ وكانت ولادته سنة ٤٦هـ. انظر: حلية الأولياء ٣/ ١٢٣ - ١٢٥، وصفة الصفوة ٣/ ٢٦٣، ٢٦٤، والأعلام ١/ ٣٧٦ و ٣٧٧.

(٢) «منها» ساقطة من ج.

(٣) «الواو» ساقطة من ط.

(٤) التتار: أصلهم من أطراف بلاد الصين ممن يعبدون الشمس ولا يحرمون شيئاً، أشهر ملوكهم جنكيز خان، وفي سنة ٦١٧هـ زحفوا علىٰ بلاد المسلمين بأعداد هائلة فقتلوا وسلبوا وأفسدوا وحرقوا وعاثوا في الأرض فساداً، وبعد سنة ٧٣٦هـ لم يقم لهم قائمة بعد موت آخر ملوكهم.

انظر: البداية والنهاية ١٣/ ٨٦ - ٨٨ و ١٤/ ١٧٣، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص٤٧٦ - ٤٨٦.

(٥) في م: «الإسلام».

(٦) دمشق: من بلدان الشام المشهورة قيل سميت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا، وقيل غير ذلك. للمزيد انظر: معجم البلدان ٢/ ٤٦٣-٤٧٠، وكتاب منادمة الأطلال.

وأن كَلَب [1] الجيش وحدته في الأموال : هذا [2] قبل أن يهمَّ [3] التتار بالحركة.

ثم أخبر الناس والأمراء سنة اثنتين وسبعمائة لما تحرك التتار وقصدوا الشام : أن الدائرة عليهم والهزيمة [4]. وأن الظفر والنصر للمسلمين. وأقسم علىٰ ذلك أكثر من سبعين يميناً. فيقال له : قل إن شاء الله. فيقول : إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. سمعته [5] يقول ذلك. قال : فلما أكثروا علي. قلت : لا تكثروا. كتب الله تعالىٰ في اللوح المحفوظ : أنهم مهزومون في هذه الكرة. وأن النصر لجيوش الإسلام [6]. قال : وأطعمت بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلىٰ لقاء [7] العدو.

وكانت فراسته الجزئية في خلال هاتين الوقعتين [8] مثل المطر.

ولما طلب إلىٰ الديار المصرية [9] وأريد قتله - بعد

---

(١) كَلَب الجيش : قيادته وعدوانه. انظر : المصباح المنير ٥٣٧.

(٢) في ط : «وهذا».

(٣) في س، ج، ق : «تهم».

(٤) في ط : «أن الدائرة والهزيمة عليهم» و «أن» بعدها ساقطة من ج، ج، ق.

(٥) في البقية عدا س زيادة : «واو».

(٦) في ح : «المسلمين».

(٧) «لقاء» ساقطة من أ، ب، غ.

(٨) في البقية عدا س، ق : «الواقعتين».

(٩) مصر سميت بذلك نسبة لمصر بن مصرايم بن حام بن نوح ـ عليه السلام ـ وقيل غير ذلك.

أن [١] أنضجت له القدور، وقُلِّبت له الأمور - اجتمع [٢] أصحابه لوداعه. وقالوا: قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون علىٰ قتلك. فقال: والله لا يصلون إلىٰ ذلك أبداً. قالوا: أفتحبس؟ قال: نعم. ويطول حبسي. ثم أخرج وأتكلم بالسنة علىٰ رؤوس المنابر [٣]. سمعته يقول ذلك.

ولما تولىٰ عدوه الملقب بالمظفر [٤] الجاشنكير الملك أخبروه [٥] بذلك. وقالوا [٦]: الآن بلغ مراده منك. فسجد لله شكراً وأطال. فقيل له: ما سبب هذه السجدة؟ فقال: هذه بداية ذُلِّه ومفارقة [٧] عزِّه من الآن، وقرب زوال أمره. فقيل له [٨]: متىٰ هذا؟ فقال: لا تربط خيول الجند علىٰ

وكانت منازل الفراعنة، وهي من فتوح عمرو بن العاص في أيام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ. انظر: معجم البلدان ٥/ ١٣٧-١٤٣، وكتاب الخطط المقريزية ١/ ١٨ - ٢٣.

(١) في البقية عدا س، ق: «بعدما أنضجت».

(٢) في س: «أجمع».

(٣) في البقية عدا س، م: «الناس».

(٤) «بالمظفر» ساقطة من ط. وهو بيبرس الجاشنكير وهو أحد الأمراء في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يتكلم في نصر المنبجي وينسبه إلىٰ اعتقاد ابن عربي وهو شيخ للأمير بيبرس الجاشنكير، فلهذا أصبح الجاشنكير عدواً لابن تيمية وقد قتل سنة ٧٠٩هـ. انظر: البداية والنهاية ١٤/ ٣٦ و ٣٧ و ٥٥ و ٥٦.

(٥) في م: «أخبر».

(٦) في ق: «وقال».

(٧) في البقية عدا س: «ومفارقة».

(٨) «له» ساقطة من الجميع عدا س، ج.

القرط(١) حتىٰ تُغلب(٢) دولته. فوقع الأمر مثل ما أخبر به. سمعت ذلك منه وعنه(٣).

وقال مرة : يدخل عليَّ أصحابي وغيرهم. فأرىٰ في وجوههم وأعينهم أموراً لا أذكرها لهم. فقلت له - أو غيري - : لو أخبرتهم؟ فقال : أتريدون أن أكون معرّفاً كمعرف الولاة؟.

وقلت له يوماً : لو عاملتنا بذلك لكان أدعىٰ إلىٰ الاستقامة والصلاح. فقال: لا تعبرون معي علىٰ ذلك جمعة ، أو قال : شهراً.

وأخبرني غير مرة بأمور(٤) باطنة تختص بي مما عزمت عليه ، ولم ينطق به لساني.

---

(١) أي وضع اللجام وراء أذنيه أو طرح اللجام في رأسه. انظر : لسان العرب ٧/ ٣٧٤ و٣٧٥.

(٢) في البقية عدا س ، ج : «تغلب».

(٣) «وعنه» ساقطة من الجميع عدا س. وما ذكره ابن القيم ويذكره عن شيخه هنا محمول علىٰ ثقة ابن تيمية - رحمه الله - بربه سبحانه وتعالىٰ ، وأنه ينصر أولياءه إضافة إلىٰ استدلاله بالواقع من ضعف العدو أو قوته ، والاستدلال بالأمور المحسوسة ونحو ذلك. وكلام ابن القيم هنا لا يسلم من النقد ؛ بل هو محتاج إلىٰ إيضاح وتحرز ولهذا علق عليه محمد الفقي - رحمه الله - في هامش طبعته قائلاً : «وهل اطلع علىٰ ما في اللوح المحفوظ» ، وقال أيضاً : «مفتاح الغيب عند الله لا يعلمها إلا هو سبحانه ، وغفر الله لنا وله فأين هذا من الفراسة وإنما هلك من هلك بالغلو في شيوخهم عفا الله عنه» المدارج ٢/ ٤٨٩ ، ٤٩٠.

(٤) في م : «بأمور مما تختص به باطنه».

وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل. ولم يعين أوقاتها. وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيّتها. وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته. [والله أعلم](١).

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

«**الفِرَاسَةُ : استِئنَاسُ حُكمِ غَيبٍ**»(٢).

والاستئناس : (٣) استفعال من آنست كذا ، إذا رأيته (٤). فإن أدركت بهذا الاستئناس (٥) حكم غيب : كان فراسة. وإن كان بالعين : كان رؤية. وإن كان بغيرها من المدارك : فبحسبها.

و (٦) قوله : «**مِن غَيرِ استِدلاَلٍ بِشَاهِدِهِ** (٧)».

[هذا] (٨) الاستدلال بالشاهد على الغائب : أمر مشترك بين البر والفاجر.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٢) في منازل السائرين ٨٠ : «التوسم التفرس وهو استئناس حكم غيب».

(٣) في ج : «من استفعال».

(٤) في أ ، غ : «إذا أراهم».

(٥) في أ ، غ زيادة : «من» وهي غير ملائمة.

(٦) «الواو» ساقطة من الجميع عدا س ، م.

(٧) في أ ، غ ، ح ، ب : «يتعاهد» وقوله في المنازل ٨٠.

(٨) الزيادة من الجميع عدا س ، ق.

والمؤمن والكافر [1]، كالاستدلال بالبروق والرعود علىٰ الأمطار، وكاستدلال رؤساء البحر بالكدَر[2] الذي يبدو لهم في جانب الأفق علىٰ ريح عاصف، ونحو ذلك، وكاستدلال الطبيب بالسِّحْنة [3] والتفسرة[4] علىٰ حال المريض.

ويدق ذلك[5] حتىٰ يبلغ إلىٰ حد تعجز[6] عنه أكثر الأذهان. وكما يستدل بسيرة الرجل وسيره علىٰ عاقبة أمره في الدنيا من خير أو شر. فيطابق، أو يكاد.

فهذا خارج عن الفراسة التي تتكلم[7] فيها هذه الطائفة. وهو نوع فراسة؛ لكنها غير فراستهم. وكذلك ما علم بالتجربة من مسائل الطب والصناعات والفلاحة وغيرها. [والله أعلم][8].

---

(١) في أ: «والفاجر».

(٢) الكدر: ضد الصفو. مختار الصحاح ٥٦٤.

(٣) في ب، م، ح: «بالسخنة» وهو خطأ والسحنة: هي الهيئة. مختار الصحاح ٢٨٩.

(٤) في ج: «والنفس» وهو خطأ والفسر: نظر الطبيب إلىٰ الماء. والتفسرة: البول الذي يُستدل به علىٰ المرضىٰ وينظر فيه الأطباء يستدلون بلونه علىٰ علة العليل. لسان العرب ٥/ ٥٥.

(٥) «ذلك» ساقطة من أ، غ، ح، ب، وفي م: «حتىٰ يصل» وفي ق: «حين يبلغ».

(٦) في البقية: «يعجز».

(٧) في س: «متكلم» وفي ب، ج، ح «يتكلم»

(٨) الزيادة من الجميع عدا س، م.

فصل

درجات الفراسة الدرجة الأولى

قال: «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. [الدَّرَجَةُ](١) الأُولَىٰ: فِرَاسَةٌ طَارِئَةٌ نَادِرَةٌ. تَسقطُ عَلَىٰ لِسَانٍ وَحشِيٍّ فِي العُمرِ مَرَّةً، لِحَاجَةِ سَمعِ مُرِيدٍ صَادِقٍ إِلَيهَا، لاَ يُوقَفُ(٢) عَلَىٰ مخرَجِهَا، وَلاَ يُؤبَه لِصَاحِبِهَا. وَهَذَا شَيءٌ لاَ يَخْلُصُ مِن الكَهَانَةِ(٣) وَمَا ضَاهَأَهَا؛ لأَنَّهَا لَم تُشِرْ عَن عَينٍ، وَلَم تَصدُر عَن عِلمٍ، وَلَم تُسْبَقْ بِوُجُودٍ(٤)».

يريد(٥) بهذا النوع: فراسة تجرىٰ علىٰ ألسنة الغافلين، الذين ليست لهم يقظة أرباب القلوب. فلذلك قال: «طَارِئَةٌ نَادِرَةٌ تَسقُطُ عَلَىٰ لِسَانٍ وَحشِيٍ» واللسان الوحشي(٦) الذي لم يأنس بذكر الله. ولا اطمأن إليه قلب صاحبه. فيسقط علىٰ لسانه مكاشفة في العمر مرة. وذلك نادر(٧) ورمية من غير رام.

وقوله: «لِحَاجَةِ مُرِيدٍ صَادِقٍ».

---

(١) الزيادة من غ.

(٢) في ج: «لا تتوقف» والبقية عدا س: «لا يتوقف».

(٣) في أ، غ، ح: «كهانة».

(٤) في أ، غ، ح، ج، ق: «موجود»، وانظر: قوله ص٨٠.

(٥) في س: «تريد».

(٦) «واللسان الوحشي» ساقطة من الجميع عدا س، ج، م، ق ثم سقط من ق إلىٰ قوله: «مكاشفة».

(٧) في غ: «نادرة».

يشير إلىٰ حكمة إجرائها علىٰ لسانه. وهي حاجة المريد الصادق إليها. فإذا سمعها علىٰ لسان غيره كان أشد تنبّهاً له. وكانت عنده أعظم موقعاً.

وقوله: «لاَ يُوقَفُ(1) عَلَىٰ مخرَجِهَا».

يعني لا يعلم الشخص الذي وصلت إليه. واتصلت به: ما سبب مخرج ذلك الكلام؟ وإنما سمعه مقتطعاً مما قبله ومما هيجه.

«وَلاَ يُؤبَه لِصَاحِبِهَا» لأنه ليس هناك قلب(2).

الفأل والطيرة

وهذا من جنس الفأل. وكان رسول الله ﷺ يحب الفأل(3) ويعجبه(4). والطيرة من هذا. ولكن المؤمن لا يتطير. فإن الطيرة(5) شرك. ولا يصده ما سمع عن مقصده وحاجته؛ بل(6) يتوكل علىٰ الله ويثق به. ويدفع شر التطير عنه بالتوكل.

---

(١) في أ، ب: «لا يتوقف».

(٢) هكذا في الأصل وج، ق، م، س ويؤيده كلام المؤلف في بداية هذا الفصل. وفي بقية النسخ «قلت».

(٣) **الفأل**: مهموز وقد لا يهمز. قال أهل المعاني الفأل فيما يحسن وفيما يسوء والطيرة فما يسوء فقط. وقال بعضهم: الفأل فيما يحسن فقط والفأل ما وقع من غير قصد بخلاف الطيرة. والطيرة: هو ما يتشاءم به من الفأل الردي. تفسير غريب الحديث ١٨٢، ومختار الصحاح ٤٠٢.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الطب باب الفأل ٧/ ٢٧، ومسلم في كتاب السلام باب الطيرة، والفأل وما يكون فيه من الشؤم ٢/ ١٧٤٦ (٢٢٢٤).

(٥) في ط: «التطير».

(٦) في ق: «ويتوكل».

وفي الصحيح[1] عن ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «**الطيرة شرك، وما منا إلا. ولكن الله يذهبه بالتوكل**»[2].

وهذه الزيادة - وهي قوله: «وما منا إلا - يعني[3] من يعتريه - ولكن الله يذهبه[4] بالتوكل» مدرجة في الحديث من قول ابن مسعود. وجاء ذلك مبيناً.

ومن له يقظة يرىٰ ويسمع من ذلك عجائب. وهي من إلقاء الملك تارة علىٰ لسان الناطق[5]. وتارة من إلقاء الشيطان.

فالإلقاء الملكي: تبشير وتحذير وإنذار. والإلقاء الشيطاني: تحزين وتخويف وشرك. وصد عن المطالب.

---

(١) في ط: «وفي الصحيحين».

(٢) الحديث رواه أحمد في المسند ١/ ٣٨٩ و٤٣٨ و٤٤٠، والترمذي في السير باب ما جاء في الطيرة ٤/ ١٦٠ و١٦١ (١٦١٤) وقال هذا حديث صحيح لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن كهيل. ونص علىٰ زيادة ابن مسعود. وأبو داود في الطب باب في الطيرة ٤/ ٢٣٠ (٣٩١٠) وابن ماجه في الطب باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة ٢/ ١١٧٠ (٣٥٣٨) والحاكم ١/ ١٨ وقال: هذا حديث صحيح سنده، ثقات رواته. ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في الأحاديث الصحيحة ١/ ٧١٦ (٤٢٩) وقال: لا حجة هنا في الإدراج فالحديث صحيح بكامله.

(٣) في ج: «بالتاء».

(٤) في ط: «يذهبها» وفي أ، ب: «يدفعها بالتوبة» وفي البقية: «يدفعها بالتوكل».

(٥) في ق: «الناظر».

وصاحب الهمة والعزيمة : لا يتقيد بذلك. ولا يصرف إليه همته [١]. وإذا سمع ما يسره استبشر ، وقوي[٢] رجاؤه وحسن [٣] ظنه. وحمد الله. وسأله إتمامه، واستعان[٤] به على حصوله. وإذا سمع ما يسوؤه : استعاذ بالله ووثق به. وتوكل عليه. [ولجأ إليه] [٥] ، والتجأ إلى التوحيد. وقال : «اللهم لا طير إلا طيرك. ولا خير إلا خيرك. ولا إله غيرك. اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت. ولا يذهب [٦] بالسيئات إلا أنت. ولا حول ولا قوة إلا بك» [٧].

ومن جعل هذا نُصب قلبه ، وعلق به همته : كان ضرره به أكثر من نفعه.

قوله : «**وَهَذَا شَيْءٌ لاَ يَخلصُ مِن الكَهَانَةِ**».

أحوال الكهانة

يعني : أنه من جنس الكهانة. وأحوال الكهان معلومة قديماً وحديثاً في إخبارهم عن نوع من المغيبات بواسطة إخوانهم من الشياطين الذين يلقون

---

(١) في ج : «همته إليها».

(٢) في ج : «ويقوى».

(٣) في ط : «وحسنه».

(٤) «واستعان» ساقطة من أ ، غ ، ح ، ب.

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، ج ، ق. و «إليه» ساقطة من أ ، غ ، ب ، م.

(٦) «ولا يذهب» ساقطة من ق.

(٧) الحديث رواه أحمد في المسند ٢/ ٢٢٠ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١٠٨ ، رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات. قال الألباني قلت : الضعف الذي في حديث ابن لهيعة إنما هو في غير رواية العبادلة عنه وإلا فحديثهم عنه صحيح ، كما حققه أهل العلم في ترجمته سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٥٤ (١٠٦٥).

إليهم السمع ، ولم يزل هؤلاء في الوجود. ويكثرون في الأزمنة والأمكنة التي يخفىٰ فيها نور النبوة. ولذلك (١) كانوا أكثر ما (٢) كانوا في زمن الجاهلية ، [وكل زمان جاهلية] (٣) ، وبلدة جاهلية وطائفة جاهلية ، فلهم نصيب منها بحسب اقتران الشياطين بهم (٤) وطاعتهم لهم (٥) ، وعبادتهم إياهم.

و(٦) قوله : «**وَمَا ضَاهَأَهَا**» أي و(٧) ما شابهها من جنس الخط بالرمل ، وضرب الحصا (٨) ، وزجر الطير ، الذي يسمونه السانح (٩) والبارح ، والقرعة الشركية لا الشرعية ، والاستقسام بالأزلام(١٠) ، وغير ذلك مما تتعلق به النفوس

---

(١) في ج : «وكذلك».

(٢) في ق : «مما».

(٣) الزيادة من الجميع وبعدها في الجميع : «بلد».

(٤) «بهم» ساقطة من أ ، غ ، ب.

(٥) في ق : «وطلبهم لهم» وانظر : الكهان وأخبارهم في كتاب مروج الذهب للمسعودي ٢/ ١٧٢ - ١٩٣.

(٦) «الواو» ساقطة من ج.

(٧) «الواو» ساقطة من أ ، غ ، ج ، ح ، ب ، م.

(٨) في ط زيادة : «والودع».

(٩) **البارح** : ضد السانح والعرب كانت تتيامن بالطير الذي يأتي من اليمين ويذهب إلىٰ اليسار. انظر : المصباح المنير ٢٩١ ، والنهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٠٧.

(١٠) **الأزلام** : جمع زلم وهي القداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها أفعل أو لا تفعل توضع في وعاء فيدخل الرجل يده ويأخذ واحداً منها ويعمل بمقتضاه. انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣١١.

الجاهلية المشركة التي عاقبة أمرها خُسراً وبوار.

وقوله: «لأنهَا لَم تُشِر[١] عَن عَينٍ».

أي عن عين الحقيقة التي[٢] لا يصدر عنها إلا حق. يعني هي[٣] غير متصلة بالله عز وجل [و][٤] قوله: «وَلَم تَصدُر[٥] عَن عِلمٍ».

يعني أنها عن[٦] ظن وحسبان، لا عن علم ويقين. وصاحبها دائماً في شك. ليس علىٰ بصيرة من أمره.

و[٧] قوله: «وَلَم تُسبَق بِوُجُودٍ».

أي لم يسبقها وجود الحقيقة لصاحبها؛ بل هو فارغ بَوٌّ[٨] غير واجد؛ بل فاقد من غير أهل الشهود[٩]، [والله أعلم][١٠].

---

(١) في ب: «تستر» و م: «تنتشر».

(٢) في ق: «الذي».

(٣) «هي» ساقطة من البقية عدا س، ج، م، ب، أ.

(٤) الزيادة من الجميع عدا س.

(٥) في س، ج «بالياء».

(٦) «عن» ساقطة من البقية عدا س، م، ج، ق.

(٧) «الواو» ساقطة من أ، غ، ح، ج، ق.

(٨) في س: «نو».

(٩) في البقية عدا س، ج، ق، م: «الوجود».

(١٠) الزيادة من الجميع عدا س، م، ق.

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : فِرَاسَةٌ تجُنَىٰ مِن غَرسِ الإِيمَانِ ، وَتَطلُعُ مِن صِحَّةِ الحَالِ ، وَتَلمَعُ مِن نُورِ الكَشفِ»(١).

(٢)هذا النوع من الفراسة : مختص بأهل الإيمان. ولذلك قال : «تجنىٰ من غرس الإيمان» (٣) وشبه الإيمان بالغرس ؛ لأنه يزداد وينمو ، ويزكو علىٰ السقي. ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه. وأصله ثابت في الأرض. وفروعه(٤) في السماء. فمن غَرسَ الإيمانَ في أرضِ قلبِه الطيبة الزاكية ، وسقىٰ ذلك الغراس بماء الإخلاص والصدق والمتابعة : كان من بعض ثمره هذه الفراسة.

قوله : «فَتَطلُعُ(٥) مِن صِحَّةِ الحَالِ».

يعني : أن صدق الفراسة من صدق الحال. فكلما كان الحال أصدق وأصح فالفراسة كذلك.

قوله : «وَتَلمَعُ مِن نُورِ الكَشفِ».

---

(١) منازل السائرين ، ٨٠.

(٢) «هذا النوع» ساقطة من أ.

(٣) «الإيمان» ساقطة من ب ، ق.

(٤) في ق : «وفرعه».

(٥) في ج : «فتسطع» و ط : «وتطلع».

يعني [١] أن نور الكشف من جملة ما يولد الفراسة ؛ بل أصلها نور الكشف.

وقوة الفراسة : بحسب قوة هذا النور وضعفه. وقوته وضعفه بحسب قوة مادته وضعفها [والله أعلم] [٢].

فصل

الدرجة الثالثة قال «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : فِرَاسَةٌ سريةٌ ، لَمْ تَجْتَلِبْهَا [٣] رَوِيَّةٌ [٤]. عَلَىٰ لِسَانِ مُصطَنَعٍ [٥] تَصرِيحاً أَو رَمزاً» [٦].

يحتمل [٧] لفظ «السرية» وجهين :

أحدهما: الشرف. أي فراسة شريفة. فإن الرجل السري هو الرجل الشريف ، وجمعه سراة ، ومنه - في أحد التأويلين - قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم : ٢٤] أي سيداً مطاعاً. وهو [٨] المسيح. وعلىٰ هذا يكون «سرية » بوزن شريفة.

---

(١) «يعني» ساقطة من غ ، وسقط من ق : «يعني أن نور الكشف».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٣) في م : «تخليها».

(٤) في م ، ب : «رؤية».

(٥) في م : «متصنع».

(٦) منازل السائرين ص ٨٠ و ٨١.

(٧) في ق : «ويحتمل» وهو بداية كلام فعدم الواو أولىٰ.

(٨) انظر : الدر المنثور ٥/ ٥٠٢ و ٥٠٣.

والثاني : أن يكون من السر[١] ، أي فراسة متعلقة بالأسرار. لا بالظواهر ، فتكون سرية بوزن شريبة ومكيثة.

قوله : «لَمْ تَجتَلِبْهَا رَوِيَّةٌ» أي لا تكون عن[٢] فكرة ؛ بل تهجم علىٰ القلب هجوماً لا يعرف سببه.

قوله : «عَلَىٰ لِسَانٍ مُصطَنَعٍ» أي مختار مصطفىٰ علىٰ غيره.

« تَصرِيحاً أَو رَمزاً». يعني أن هذا المختار يخبر بهذه الفراسة العالية عن أمور مغيبة ، تارة بالتصريح. وتارة بالتلويح ، إما ستراً لحاله ، وإما صيانة لما أخبر به عن الابتذال[٣] ، ووصوله إلىٰ غير أهله. وإما لغير ذلك من الأسباب. والله أعلم.

* * *

(١) في ق : «من السراي فراسة».

(٢) في م ، ب : «علىٰ».

(٣) الابتذال : أي الامتهان. مختار الصحاح ٤٥.

فصـــل

[منزلة التعظيم]

منزلة التعظيم

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «التعظيم».

وهذه(١) المنزلة تابعة للمعرفة. فعلىٰ قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالىٰ في القلب. وأعرف الناس به(٢) : أشدهم له تعظيماً وإجلالاً. وقد ذم الله من لم يعظمه حق عظمته. ولا عرفوه(٣) حق معرفته، ولا وصفوه حق صفته. وأقوالهم تدور علىٰ هذا وقال(٤) تعالىٰ : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح : ١٣] قال ابن عباس(٥) ومجاهد : لاترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير(٦) : ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته؟

وقال الكلبي(٧) : لا تخافون لله عظمة.

---

(١) «الواو» ساقطة من ق.

(٢) في ق «واو» وهي غير مناسبة.

(٣) في البقية عدا س : «عرفه ولا وصفه».

(٤) في ط : «فقال».

(٥) من هنا إلىٰ قوله: «وروح العبادة» نقله المؤلف من تفسير البغوي. انظر تفسير البغوي ٨/ ٢٣١.

(٦) هو سعيد بن جبير الأسدي الكوفي ثقة ثبت فقيه قتل بين يدي الحجاج سنة ٩٥هـ ولم يكمل الخمسين. انظر : تقريب التهذيب ١/ ٢٩٢ (١٣٣) ، وصفة الصفوة ٣/ ٧٧ (٤١١).

(٧) هو أحمد بن محمد بن هانئ الطائي ، ويقال الكلبي الأثرم الاسكافي من أصحاب الإمام

قال البغوي(١) ـ رحمه الله ـ: و«الرجاء» بمعنىٰ الخوف(٢). و«الوقار» العظمة. اسم من التوقير. وهو التعظيم. وقال الحسن: لا تعرفون(٣) لله حقاً، ولا تشكرون له نعمة.

وقال ابن كيسان(٤) ـ رحمه الله ـ: لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم علىٰ توقيركم إياه خيراً.

وروح العبادة هو الإجلال والمحبة. فإذا خلىٰ(٥) أحدهما عن الآخر فَسَدتْ العبودية(٦)، فإذا اقترن بهذين الثناء علىٰ المحبوب المعظَّم. فذلك حقيقة الحمد. [والله سبحانه أعلم](٧).

أحمد وكان عالماً حافظاً ثقة، توفي سنة ٢٧٣هـ. انظر: طبقات الحنابلة ١/ ٦٦ - ٧٤ (٥٧)، وتقريب التهذيب ١/ ٢٥ (١١٧).

(١) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي ولد سنة ٢٧٣هـ.
انظر: مقدمة تفسيره ١/ ١٥-٢٢، التفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٢٣٤، الأعلام ٢/ ٢٥٩ شذرات الذهب ٤/ ٤٨-٤٩.

(٢) في ط: «الخوف».

(٣) في الأصل، س، م: «بالياء» والمثبت كما في البقية وتفسير البغوي.

(٤) هو محمد بن أحمد بن كيسان البغدادي النحوي صاحب التصانيف في القراءات والغريب والنحو توفي سنة ٢٩٩ هـ. انظر: الأعلام ٦/ ٩٩، وشذرات الذهب ٢/ ٢٣٢.

(٥) في ط: «تخلىٰ».

(٦) «العبودية» ساقطة من ط.

(٧) الزيادة من الجميع عدا س، م.

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

درجات التعظيم

«التَّعظِيمُ : مَعرِفَةُ العَظَمَةِ مَعَ التَّذَلُّلِ لهَا ، وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ.

الدرجة الأولى

الأُولَىٰ : تَعظِيمُ الأَمرِ وَالنَّهيِ ، وَهُوَ أَن لاَ يُعَارَضَا[1] بِتَرَخُّصٍ جَافٍ ، ولا يُعَرَّضا[2] لِتَشَدُّدٍ غَالٍ ، وَلاَ يُحمَلَا عَلَىٰ عِلَّةٍ تُوهِنُ الانقِيَادَ»[3].

الأمور التي تنافي التعظيم

هذه[4] ثلاث أشياء ، تنافي تعظيم الأمر والنهي.

أحدها : الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.

والثاني : الغلو الذي يتجاوز به صاحبه[5] حدود الأمر والنهي.

فالأول تفريط. والثاني إفراط.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان : إما إلىٰ تفريط وإضاعة ، وإما إلىٰ إفراط وغلو. ودين الله وسط[6] بين الجافي عنه والغالي فيه. كالوادي[7] بين

---

(١) في س : «تعارضا».

(٢) في ج ، ق : «لشديد».

(٣) منازل السائرين ٨١.

(٤) في البقية عدا س ، م ، ج ، ق : «ههنا».

(٥) في ط : «يتجاوز بصاحبه».

(٦) «وسط» ساقطة من س ، م.

(٧) في الأصل ، س ، ج ، م : «والوادي» والمثبت كما في البقية.

جبلين. والهدي بين ضلالتين. والوسط بين طرفين ذميمين. وكما أن الجافي عن الأمر. مضيِّع له، فالغالي فيه: مضيِّع له. هذا بتقصيره عن الحد. وهذا بتجاوزه [عن] (١) الحد.

وقد نهىٰ الله عن الغلو بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

أنواع الغلو

و«الغلو» نوعان: نوع يخرجه عن كونه مطيعاً. كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمىٰ الجمار (٢) بالصخرات الكبار التي يرمي بها في المنجنيق (٣)، أو سعىٰ بين الصفا والمروة عشراً (٤)، ونحو ذلك عمداً.

وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار (٥). كقيام الليل كله. وسرد الصيام الدهر أجمع، بدون صوم (٦) أيام النهي. والجور علىٰ النفوس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي ﷺ: «**إن الدين** (٧) **يسر، ولن يشادَّ الدين أحد إلا**

(١) الزيادة من ب.

(٢) في البقية: «الجمارات».

(٣) المنجنيق: بفتح الميم وكسرها، والمنجنوق: القذاف التي ترمىٰ بها الحجارة، دخيل أعجمي معرب، وأصلها بالفارسية: من جي نيك، أي ما أجودني. لسان العرب ١٠/ ٣٣٨.

(٤) في ط، ج، م: «أو».

(٥) «الاستحسار» الإعياء. مختار الصحاح ١٣٥.

(٦) أ، ب: «صيام».

(٧) في ط زيادة: «هذا».

غلبه. فسددوا وقاربوا وأبشروا[1]. واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة»[2] يعني استعينوا علىٰ طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة. فإن المسافر يستعين علىٰ قطع مسافة السفر بالسير فيها.

وقال ﷺ: «ليصل أحدكم نشاطه. فإذا فتر فليرقد»[3] رواهما البخاري.

وفي صحيح مسلم[4] عنه: «هلك المتنطعون - قالها ثلاثاً» وهم المتعمقون المتشددون[5].

وفي صحيح البخاري عنه: «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتىٰ تملوا»[6].

---

(١) في البقية عدا س: «ويسروا».

(٢) الدلجة: قيل سير الليل كله، وقيل آخر الليل. انظر: تفسير غريب الحديث ٩٢.

والحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين يسر ١/ ١٥، وغيره.

(٣) رواه البخاري في كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة ٢/ ٤٨، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتىٰ يذهب عنه ذلك ١/ ٥٤٢ (٧٨٤).

(٤) هو الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ولد عام ٢٠٤ وقيل ٢٠٦هـ، وهو صاحب الصحيح المشهور توفي - رحمه الله - سنة ٢٦١هـ. انظر: البداية والنهاية ١١/ ٣٣-٣٥.

والحديث أخرجه مسلم في كتاب العلم باب هلك المتنطعون ٤/ ٢٠٥٥ (٢٦٧٠).

(٥) في ط، ج، ق: «المتشددون» وفي البقية كما أثبت وقال ابن حجر: المتنطعون: جمع متنطع وهو: المبالغ في الأمر قولاً وفعلاً، وتنطع في الكلام أي بالغ فيه. تفسير غريب الحديث ٢٤٠.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة ٢/ ٤٨، ومسلم في

وفي السنن عنه: «إن هذا الدين متين. فأوغل فيه برفق. ولا تبغض إلىٰ نفسك عبادة الله» (١) أو كما قال.

العلل التي توهن الانقياد

وأما (٢) قوله: «وَلاَ يُحْمَلَا عَلَىٰ عِلَّةٍ تُوهِنُ الانقِيَادَ».

يريد: أن لا يتأول في الأمر والنهي علة تعود عليه (٣) بالإبطال، كما تأول بعضهم تحريم الخمر بأنه معلل بإيقاع العداوة والبغضاء، والتعرض للفساد. فإذا أمن [من] (٤) هذا المحذور منه جاز شربه. كما قيل:

أَدِرْهَا فَمَا التحريمُ فيها لِذَاتِها ... ولكنْ لِأَسبابٍ تضمَّنَها السُّكْرُ
إذا لم يكنْ سُكرٌ يُضِلُّ عن الهُدَىٰ ... فَسِيَّان مَاءُ في الزُّجَاجةِ أَمْ خَمرُ (٥)

كتاب صلاة المسافرين باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتىٰ يذهب عنه ذلك ١/ ٥٤٢ (٧٨٥).

(١) الحديث ذكره أحمد في المسند ٣/ ١٩٩ إلىٰ قوله (برفق) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٦٧: رواه أحمد ورجاله موثوقون إلا أن خلف بن مهران لم يدرك أنساً والله أعلم. وأما الزيادة علىٰ ما رواه أحمد فقد جاءت في رواية عائشة وجابر وعبدالله بن عمرو بن العاص، واختلف في وصل الحديث وإرساله وتكلم في بعض رجاله. انظر: كتاب الزهد لابن المبارك ٤١٥، وشعب الإيمان للبيهقي ٣/ ٤٠٢، معرفة علوم الحديث للحاكم ٦٥، وفوائد العراقيين للنقاش ٧٥، وسلسلة الأحاديث الضعيفة ١/ ٢١ حديث (٨).

(٢) في ط: «وقوله».

(٣) في ط: «عليهما».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في البقية عدا ج: «أو».

وقد بلغ هذا بأقوام إلىٰ الانسلاخ من الدين جملة. وقد حمل طائفة من العلماء أن جعلوا تحريم ما عدا شراب[١] العنب معللاً بالإسكار فله أن يشرب منه[٢]، ما لم يسكر.

ومن العلل التي توهن الانقياد: أن يعلل الحكم بعلة ضعيفة، لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر. فيضعف انقياده[٣] إذا قام عنده أن هذه هي[٤] علة الحكم. ولهذا[٥] طريقة القوم عدم التعرض لعلل التكاليف خشية هذا المحذور.

وفي بعض الآثار القديمة «يا بني إسرئيل. لا تقولوا: لم أمر ربنا؟ ولكن قولوا: بِمَ أمر ربنا؟»[٦].

وأيضاً فإنه إذا لم يمتثل الأمر حتىٰ تظهر علته، لم يكن منقاداً للأمر، وأقل درجاته أن يضعف انقياده له.

وأيضاً فإنه إذا نظر إلىٰ حكمة[٧] العبادات والتكاليف مثلاً، وجعل العلة فيها

---

(١) في ط زيادة: «خمر».

(٢) في ط زيادة: «ما شاء».

(٣) في ط: «انقياد العبد».

(٤) «هي» ساقطة من ق، ج.

(٥) في ط زيادة «كانت».

(٦) هو في الإنجيل كما ذكره المؤلف. انظر: الصواعق المرسلة ٤/ ١٥٦١.

(٧) في البقية عدا س، ق: «حكم».

هي جمعية القلب ، والإقبال به على الله فقال : أنا أشتغل بالمقصود عن الوسيلة.

فاشتغل بجمعيته وخلوته عن أوراد[١] العبادات فعطلها ، وترك الانقياد بحمله الأمر[٢] على العلة التي أوهنت[٣] انقياده.

وكل هذا من ترك تعظيم الأمر والنهي. وقد دخل من هذا الفساد على كثير من الطوائف ما لا يعلمه إلا الله. فما يدري ما أوهنت العلل الفاسدة من الانقياد إلا الله ، وكم[٤] عطلت لله من أمر ، وأباحت من نهي ، وحرمت من مباح؟!

وهي التي اتفقت كلمة السلف على ذمّها.

فصل

الدرجة الثانية

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : تَعظِيمُ الحُكمِ : أَن يُبغَىٰ[٥] لَهُ عِوجٌ ، أو يُدَافَعَ بِعِلمٍ ، أَو يُرضَىٰ بِعِوَضٍ**».

الدرجة الأولىٰ : تتضمن تعظيم الحكم الديني الشرعي. وهذه الدرجة

(١) في ح : «وارد».

(٢) في س : «للأمر».

(٣) في البقية عدا س ، م : «أذهبت».

(٤) في ط : «فكم».

(٥) في غ : «أن ينبغي له عوج أيدافع ، وم ، ب ، ج : » «أن لا ينبغي» ، وانظر قوله في منازل السائرين ٨١.

تتضمن تعظيم[1] الحكم الكوني القدري. وهو الذي يخصه المصنف باسم «الحكم» وكما يجب على العبد [أن][2] يرعى حكم الله الديني بالتعظيم. فكذلك يرعى حكمه الكوني به. فذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء.

أحدها «أَنْ لَا يُبْغَى[3] لَهُ عِوَجٌ» أي يطلب له عوج، أو يرى فيه عوج بل يرى[4] كله مستقيماً. لأنه صادر عن عين الحكمة. فلا عوج فيه. وهذا[5] موضع أشكل على الناس جداً.

المخالفون في القدر

فقالت[6] نفاة القدر: ما في خلق الرحمن من تفاوت ولا عوج. والكفر والمعاصي مشتملة على أعظم التفاوت والعوج. فليست بخلقه ولا مشيئته ولا قدره.

وقالت فرقة تقابلهم: بل هي من خلق الرحمن وقدره. فلا عوج فيها[7] وكل ما في الوجود مستقيم.

والطائفتان ضالتان، منحرفتان عن الهدى. وهذه الثانية أشد انحرافاً؛ لأنها

---

(١) «تعظيم» ساقطة من ج.

(٢) الزيادة من الجميع عدا س، وفي ج: «يراعي» وكذلك «يراعي الأخرى».

(٣) في ج: «يبتغي له عوج أو».

(٤) في ط: «يراه».

(٥) في ب: «وهو».

(٦) في ط: «فقال».

(٧) في م: «ولا عوج».

جعلت الكفر والمعاصي[١] مستقيماً لا عوج فيه. وعدم تفريق الطائفتين بين القضاء والمقضي، والحكم والمحكوم به: هو الذي أوقعهم فيما أوقعهم فيه.

وقول سلف الأمة وجمهورها: إن القضاء غير المقضي. فالقضاء[٢] فعله ومشيئته وما قام به[٣]. والمقضي مفعوله المباين له المنفصل عنه. وهو المشتمل علىٰ الخير والشر، والعوج والاستقامة.

فقضاؤه كل حق. والمقضي: منه حق، ومنه باطل. وقضاؤه كله عدل. والمقضي: منه عدل، و[منه][٤] جور. وقضاؤه كله مرضي. والمقضي[٥]: منه مرضي، ومنه مسخوط. وقضاؤه [كله][٦] مسالم. المقضي منه ما يسالم، ومنه ما يحارب. وهذا أصل عظيم تجب مراعاته. وهو موضع مزلة أقدام كما رأيت. والمنحرف[٧] عنه: إما جاحد[٨] للحكمة، أو للقدرة[٩]، أو للأمر والشرع ولا

---

(١) في ط زيادة: «مستقيماً».

(٢) في ج: «والقضاء».

(٣) سقط من ق إلىٰ قوله: «كله حق».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س، ج.

(٥) «والمقضي منه مرضي» ساقط من ج.

(٦) الزيادة من الجميع عدا س.

(٧) في ج: «المنحرفة».

(٨) في ط: «جاهل».

(٩) في البقية عدا س، م: «القدرة».

بدّ. وعلىٰ هذا يحمل كلام صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ : «أَن[1] لاَ يُبتغَىٰ لِلحُكمِ عِوَجٌ».

وأما[2] قوله : «أَو يُدفَعَ بِعِلْمٍ».

فأشكل من الأول : فإن العلم مقدم علىٰ القدر ، وحاكم عليه. ولا يجوز دفع العلم بالحكم.

فأحسن ما يحمل عليه كلامه ، أن يقال : قضاء الله وقدره وحكمه الكوني ، لا يناقض دينه وشرعه وحكمه الديني. بحيث تقع المدافعة بينهما ؛ لأن هذا مشيئته الكونية، وهذا إرادته الدينية. وإن كان المرادان قد يتدافعان ويتعارضان؛ لكن من تعظيم كل منهما : أن لا يدافع بالآخر و[لا][3] يعارض. فإنهما وصفان للرب تعالىٰ. وأوصافه لا يدافع[4] بعضها ببعض. وإن استعيذ ببعضها من بعض. فالكل منه سبحانه. وهو المعيذ من نفسه بنفسه ، كما قال أعلم الخلق به «أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك»[5]

---

(١) في الأصل ، س ، م ، ج : «أي» والمثبت كما في البقية والمنازل.

(٢) «الواو» ساقطة من ب «وأما» ساقطة من أ.

(٣) الزيادة من ج.

(٤) في الأصل «بالتاء» ، وفي أ ، غ ، ب : «يدفع» والمثبت كما في البقية لموافقة ما قبله.

(٥) الحديث رواه مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/ ٣٥٢ (٤٨٦).

فرضاه - وإن أعاذ من سخطه - فإنه لا يبطله ولا يدفعه[1]. وإنما يدفع تعلقه بالمستعيذ، وتعلقه بأعدائه باق غير زائل. فهكذا أمره وقدره سواء، فإن أمره لا يبطل قدره، ولا قدره يبطل أمره، ولكن يدفع ما قضاه وقدره بما أمر به وأحبه[2]، وهو أيضاً من قضائه. فما دفع قضاؤه إلا بقضائه وأمره، فلم يدفع العلم الحكم بل المحكوم به، والعلم والحكم دفعا المحكوم به الذي قدّر دفعه وأمر به.

فتأمل هذا، فإنه محض العبودية والمعرفة، والإيمان بالقدر، والاستسلام له والقيام بالأمر، والتنفيذ له بالقدر، فما نفذ المطيع أمر الله إلا بقدر الله، ولا دفع مقدور الله[3] إلا بقدر الله وأمره.

وأما قوله: «وَلاَ يُرضَىٰ بِعِوَضٍ».

أي إن صاحب «مشهد الحكم»[4] قد وصل إلىٰ حد لا يتطلب[5] معه عوضاً. ولا يكون ممن يعبد الله بالعوض، فإنه يشاهد جريان حكم الله عليه، وعدم تصرفه في نفسه، وأن المتصرف فيه حقاً[6] مالكه الحق. فهو الذي يقيمه

(١) «لا» ساقطة من س، ح، ج، ب.

(٢) في ج: «وأوجبه».

(٣) «إلا» ساقطة من ط.

(٤) «مشهد» ساقطة من ط.

(٥) في البقية عدا س، م: «يطلب».

(٦) في ط زيادة: «هو».

ويقعده، ويقلبه ذات اليمين وذات الشمال. وإنما يطلب العوض من غاب عن الحكم وذهل عنه، وذلك مناف لتعظيمه، فمن تعظيمه أن لا يرضىٰ العبد بعوض يطلبه بعمله؛ لأن مشاهدة الحكم وتعظيمه يمنعه(١) أن يرىٰ لنفسه ما يعاوض عليه، فهذا الذي يمكن حمل كلامه عليه من غير خروج عن حقيقة الأمر. والله أعلم.

فصل

قال: «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: تَعظِيمُ الحَقِّ سُبحَانَهُ**(٢)، **وَهُوَ أَن**(٣) **لاَ تجعَلَ دُونَهُ سَبَباً، وَلاَ تَرَىٰ عَلَيهِ حَقاً، أَو تُنَازِعَ لَهُ اختِيَاراً**». الدرجة الثالثة

هذه الدرجة تتضمن تعظيم الحاكم سبحانه، صاحب الخلق والأمر، والذي(٤) قبلها تتضمن تعظيم قضائه لا مقضيه، والأولىٰ: تتضمن تعظيم أمره.

وذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء.

أحدها: «**أَنْ لاَ تجعَلَ** [**دُونَهُ سَبَباً**».

أي لا تجعل](٥) للوصلة إليه سبباً غيره؛ بل هو الذي يوصل إليه

---

(١) في ج: «بالتاء».

(٢) في غ: «الرب».

(٣) في الأصل «أنه» والمثبت كما في البقية والمنازل، كما أن الأفعال في أ، ج، ق، ط: «بالتاء» والمثبت كما في البقية والمنازل وقوله في ص ٨١ و ٨٢.

(٤) هكذا في الجميع وفي ط: «التي».

(٥) الزيادة من الجميع.

عبدَه[1]، فلا يوصل إلىٰ الله إلا الله، ولا يقرب إليه سواه، [ولا أدنىٰ[2] إليه غيره]، ولا يتوصل إلىٰ رضاه إلا به. فما دل علىٰ الله إلا الله، ولا هدىٰ إليه سواه. ولا أدنىٰ إليه غيره. فإنه سبحانه هو الذي جعل السبب سبباً، فالسبب وسببيته وإيصاله: كله خلقه وفعله.

الثاني: «أَنْ لاَ تَرَىٰ[3] عَلَيهِ حَقّاً».

أي [أن][4] لاترىٰ لأحد من الخلق[5] - لا لك ولا لغيرك - حقاً علىٰ الله؛ بل الحق له[6] علىٰ خلقه، وفي أثر إسرائيلي: أن داود - عليه السلام - قال: «يا رب بحق آبائي عليك. فأوحىٰ الله إليه: يا داود وأي حق لآبائك عليَّ؟ ألست أنا[7] الذي هديتهم ومننت عليهم واصطفيتهم. ولي الحق عليهم؟».

---

(١) في البقية عدا س، ح، ج، س، ق: «عبده إليه».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س، م، وفي ط: «يدني».

(٣) في ج: «أنه لا يرىٰ».

(٤) الزيادة من س، وفيها والأصل بالياء، والمثبت كما في البقية لموافقة السياق.

(٥) «من» ساقطة من ج.

(٦) في البقية عدا س، م «الله».

(٧) «أنا» ساقطة من ج والأثر ذكره القرطبي في التفسير علىٰ أن القائل هو يوسف - عليه السلام -. انظر: تفسير القرطبي ٩/ ١٥٩ وما ذكره المؤلف أورده الهيثمي عن النبي ﷺ أن داود قال فذكره ثم قال: رواه البزار من رواية أبي سعيد عن علي بن زيد وأبو سعيد لم أعرفه، وعلي ابن زيد ضعيف وقد وثق. مجمع الزوائد ٨/ ٢٠٢.

وأما حقوق العبيد[1] على الله : من إثابته لمطيعهم ، وتوبته على تائبهم ، وإجابته لسائلهم : فتلك حقوق أحقَّها هو على نفسه ، بحكم وعده وإحسانه ، لا أنها حقوق أحقُّوها هم عليه. فالحق في الحقيقة لله على عبده ، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه وعدُه[2] وبرُّه ، وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه. هذا قول أهل التوفيق والبصائر. وهو وسط بين قولين منحرفين. قد تقدم ذكرهما مراراً[3]. والله أعلم.

وأما قوله : «وَلاَ يُنَازِعَ لَهُ اخْتِيَاراً»[4].

أي إذا رأيت الله قد اختار لك أو لغيرك شيئاً - إما بأمره ودينه ، وإما بقضائه وقدره - فلا تنازع اختياره ؛ بل ارض باختيار ما اختاره[5] ، فإن ذلك من تعظيمه سبحانه.

ولا يرد عليه ما قدره[6] عليه من المعاصي. فإنه سبحانه - وإن قدرها - لكنه لم يخترها له ، فمنازعتها غير اختياره من عبده. وذلك من تمام تعظيم العبد له. والله أعلم.

---

(١) في ج : «العباد».

(٢) في البقية عدا س ، ج ، ق : «جوده».

(٣) وأقرب ذلك ما ذكره في هذه المنزلة في الدرجة الثانية منها.

(٤) في ح ، ب ، غ «بالتاء» وفي ط «أو لا نهازع».

(٥) في ط زيادة «لك».

(٦) في ط : «عليه قدره من» ، ب : «ما قدره باختياره من».

فصـــل

منزلة الإلهام ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الإلهام ، والإفهام، والوحي، والتحديث والرؤيا الصادقة».

وقد تقدمت في أول الكتاب عند الكلام علىٰ مراتب الهداية[1] ، وذكرنا كلام صاحب المنازل هناك .

فصـــل

[منزلة السكينة]

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «السكينة»[2].

منزلة السكينة هذه المنزلة[3] من منازل المواهب. لا من منازل المكاسب. وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» في كتابه في ستة مواضع.

---

(١) انظر المدارج ١/ ٣٧-٥٢.

(٢) قال الكاشاني عن السكينة : هي سكون إلى الله بروح السر عند إلقاء الحكمة على قلب المحدث ، وكشف الشبه له ، وإنطاق لسانه بالحق. معجم اصطلاحات الصوفية ٣٠٠.

وفي التعريفات ١٥٩ قال : السكينة ما يجده القلب من الطمأنينة عند تنزل الغيب ، وهي نور في القلب يسكن إلى شاهده ويطمئن ، وهو مبادىء عين الحق.

وسيذكر المؤلف معنى السكينة فيما يأتي.

(٣) في ق : «منزلة».

الأول : قوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة : ٢٤٨].

مواضع ورود السكينة في القرآن

الثاني : قوله : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : ٢٥، ٢٦].

الثالث : قوله تعالىٰ : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : ٤٠].

الرابع : قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح : ٤].

الخامس : قوله تعالىٰ : ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الفتح : ٢٦].

قرأ قراءة ابن تيمية وابن القيم لآيات السكينة عند اضطراب القلب

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إذا اشتدت عليه الأمور : قرأ آيات السكينة.

وسمعته يقول في واقعة عظيمة[1] جرت له في مرضه، تعجز القوىٰ[2] عن

---

(١) «عظيمة» ساقطة أ، ب.

(٢) في ط، غ : «العقول».

حملها – من محاربة أرواح شيطانية ، ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة – قال فلما اشتد عليَّ الأمر ، قلت لأقاربي ومن حولي : اقرءوا آيات السكينة ، قال : ثم أقلع عني ذلك الحال ، وجلست وما بي قَلَبَة [١].

وقد جربت أنا أيضاً [٢] قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب مما[٣] يرد عليه. فرأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته.

وأصل «السكينة» هي الطمأنينة والوقار ، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده ، عند اضطرابه من شدة المخاوف. فلا ينزعج بعد ذلك [لما يرد][٤] عليه ، ويوجب له زيادة الإيمان ، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها علىٰ رسوله ﷺ وعلىٰ المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب. كيوم الهجرة ، [إذ][٥] هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رؤوسهم. لو نظر أحدهم إلىٰ ما تحت قدميه لرآهما ، وكيوم حنين[٦]، [حين][٧]

---

(١) أي داء. انظر : تفسير غريب الحديث ٢٠٢.

(٢) «أيضاً» ساقطة من س ، ق ، ج.

(٣) في البقية عدا س ، أ : «بما».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) الزيادة من الجميع عدا م ، س.

(٦) حنين : هو واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً ، وهو الموضع الذي قاتل فيه الرسول ﷺ هوازن. انظر : معجم ما استعجم ٢/ ٤٧١ و ٤٧٢.

(٧) الزيادة من م.

وَلُّوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوي[1] أحد [منهم][2] علىٰ أحد. وكيوم الحديبية[3] حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس، وحسبك بضعف عمر عن حملها – وهو عمر – حتىٰ ثبَّته الله بالصديق.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة، إلا التي في سورة البقرة[4].

وفي الصحيحين عن البراء[5] بن عازب ﷺ قال: «رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق، حتىٰ وارىٰ التراب جلد[6] بطنه، وهو يرتجز[7] بكلمة عبدالله بن

---

(١) أي لا يتعطفوا عليه. انظر: تفسير غريب الحديث ٢١٩.

(٢) الزيادة من الجميع عدا ج، س، ق.

(٣) الحديبية: هي قرية بينها وبين مكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، وبعض الحديبية بالحل وبعضها بالحرم، قيل أصلها بئر، وقيل سميت بالحديبية نسبة إلى شجرة حدباء كانت في ذلك الموضع. انظر: معجم البلدان ٢/ ٢٢٩ و ٢٣٠.

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٢٦٤. والآية هي: ﴿إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم﴾ [البقرة: ٢٤٨]

(٥) هو البراء بن عازب بن الحارث بن عدي الأنصاري الأوسي صحابي ابن صحابي روى عن أبيه وأبي بكر وعمر وغيرهم، توفي سنة ٧٢هـ. انظر: تقريب التهذيب ١/ ٩٤ (١٦)، الإصابة ١/ ١٤٧ (٦١٥).

(٦) في البقية عدا س، ق: «جلدة» وفي الصحيحين بياض، ورواية أخرى شعر صدره.

(٧) الرجز: هو نظم الشعر على بحر الرجز أحد الأبحر الشعرية. انظر: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ٢١٣.

رواحة(١) ﷺ :

اللهمَّ(٢) لولا أنتَ ما اهتدَيْنَا ولا تصدَّقْنَا ولا صَلَّيناَ
فأَنزِلَنْ سكينةً عَلَينا وثبِّت الأَقدام إنْ لاقَينَا
إنَّ الأُولىٰ قد بَغَوا عَلَينا وَإنْ أَرادُوا فِتنةً أَبَينَا

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة(٣) : «إني باعث نبياً أمياً(٤) ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخَّاب(٥) في الأسواق ، ولا متزين بالفحش ، ولا قوَّال للخنا(٦). أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلقٍ كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره ، والتقوىٰ ضميره ، والحكمة معقوله ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدىٰ إمامه ، والإسلام ملَّته ، وأحمد اسمه»(٧).

(١) هو عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس الخزرجي الأنصاري الشاعر أحد السابقين وأحد النقباء الاثنى عشر استشهد ـ رضي الله عنه ـ بمؤتة. انظر : تقريب التهذيب ٢/ ٤١٥ (٣٠٢) ، صفة الصفوة ١/ ٤٨١- ٤٨٥.

(٢) في ط : «لا هم» والحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير ، باب حفر الخندق ٣/ ٢١٣ ، ومسلم كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق ٢/ ١٤٣٠ (١٨٠٣).

(٣) في ج : «القديمة».

(٤) «أميا» ساقطة من ج ، وفي م : «أمينا».

(٥) الصخب : الضجة واضطراب الأصوات للخصام. النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٤.

(٦) الخنا : الفحش. مختار الصحاح ١٩٢ ، تفسير غريب الحديث ٨٧.

(٧) روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال : قرأت في التوراة

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

«السَّكِينَةُ اسمٌ لِثَلاثَةِ أَشياءَ. أَوَّلُها : سَكِينَةُ بَنِي إِسرَائِيلَ الَّتِي أُعطُوهَا فِي التَّابُوتِ. قَالَ أَهلُ التَّفسِيرِ : هِيَ رِيحٌ هَفَّافَةٌ، وَذَكَرُوا صِفَتَهَا»[1]. المعنى الأول للسكينة

قلت : اختلفوا هل هي عين قائمة بنفسها، أو معنىً؟ علىٰ قولين : أحدهما : أنها عين، ثم اختلف أصحاب[2] هذا القول في صفتها، فرُوِيَ عن علي[3] بن أبي طالب ﷺ «أنها ريح هفافة. لها رأسان ووجه كوجه الإنسان» ويروىٰ عن مجاهد علىٰ [إنها][4] صورة هرة لها جناحان، وعينان لهما شعاع، وجناحاها[5] من زمرد وزبرجد، فإذا سمعوا صوتها أيقنوا بالنصر.

صفة الرسول ﷺ وذكر نحوه. انظر البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق ٣/ ٢١، وذكر نحوه ابن الأثير وقال عن كعب.

انظر : النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٤.

(١) منازل السائرين ٨٣.

(٢) في م : «أهل».

(٣) «عن» ساقطة من م، و«ابن أبي طالب» ساقطة من ح، وانظر جميع ما يذكره المؤلف هنا من أقوال في تفسير الطبري ٥/ ٣٢٦- ٣٣٠، والدر المنثور ١/ ٧٥٧ و ٧٥٨، وتفسير البغوي ١/ ٢٩٩.

(٤) في البقية عدا م، س، ق، زيادة «أنها» وسقط منها «على» عدا ج.

(٥) في ط : «وجناحان».

وعن ابن عباس : هي طست (١) من ذهب من الجنة ، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء.

وعن وهب (٢) : هي روح من روح الله تتكلم إذا اختلفوا في شيء أخبرتهم (٣) ببيان ما يريدون.

والثاني : أنها معنىٰ. ويكون معنىٰ قوله : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٤٨] أي في (٤) مجيئه إليكم : سكينة لكم وطمأنينة.

وعلىٰ الأول : يكون المعنىٰ : إن السكينة في نفس التابوت. ويؤيده عطف قوله : ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾ قال عطاء (٥) بن أبي رباح ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ ﴾ هي ما تعرفون من الآيات. فتسكنون إليها. وقال قتادة والكلبي : هي من السكون ، أي طمأنينة من ربكم. ففي أي مكان كان

---

(١) في غ ، ب : «طشت».

(٢) في ط زيادة «بن منبه» وهو أبو عبدالله وهب بن منبه بن كامل اليماني الأنباري ولد في زمن عثمان ـ رضي الله عنه ـ سنة ٣٤هـ. قال عنه ابن حجر : وقد امتحن ـ رحمه الله ـ وحبس وضرب حتى مات تقريب التهذيب ٢/ ٣٣٩ ، حلية الأولياء ٤/ ٢٣ - ٨١ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٤ - ٥٥٧.

(٣) في الأصل وس : «أخبرهم» والمثبت كما في البقية لموافقة الضمير.

(٤) في ط : «بالواو» ، ج ، ق : «أن في».

(٥) أبو محمد عطاء بن أبي رباح مولى آل أبي خثيم القرشي ، واسم أبي رباح أسلم سمع من أبي هريرة ، وابن عباس وغيرهما ، مات سنة ١١٤هـ أو ١١٥ هـ انظر : التاريخ الكبير ٦/ ٤٦٣ و ٤٦٥ ، وحلية الأولياء ٣/ ٣١٠ - ٣٢٥.

التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا.

قال(١) : «**وَفِيهَا ثَلاثَةُ أَشيَاءَ : لِلأَنبِيَاءِ مُعجِزَةٌ ، وَلمِلُوكِهِم كَرَامَةٌ. وَهِيَ آيَةُ النُّصرَةِ**(٢) ، **تخَلعُ قُلُوبَ الأَعدَاءِ بِصَوتِهَا رُعباً إِذَا التَقَىٰ الصَّفَّانِ لِلقِتَالِ**».

وكرامات(٣) **الأولياء** : هي من معجزات(٤) الأنبياء ؛ لأنهم إنما نالوها علىٰ أيديهم ، وبسبب(٥) اتباعهم. فهي لهم كرامات. وللأنبياء دلالات. فكرامات الأولياء لا تعارض معجزات الأنبياء. حتىٰ يطلب الفرقان بينها؟ لأنها من أدلتهم ، وشواهد صدقهم.

نعم : الفرق [بين](٦) ما للأنبياء وما للأولياء من وجوه كثيرة جداً. ليس هذا موضع ذكرها. وغير هذا الكتاب أليق بها.

---

(١) في ط زيادة «فصل».

(٢) في البقية عدا ج ، س : «النصر» وهو كما في المنازل انظر ٨٣.

(٣) «الواو» ساقطة من س.

(٤) المعجزة : أمر خارق للعادة داعية إلى الخير والسعادة قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله. التعريفات ٢٧٣ ، وانظر كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٢٣٦ ، ومجموع الفتاوى ١١/ ٣١٣ - ٣١٨.

(٥) في ح ، ب ، م ، ق : «وسبب».

(٦) الزيادة من س ، ط وفي ط قبلها : «الفرقان» وفي غ : «الفرقان بينهما».

فصـــل

المعنى الثاني للسكينة

قال(١) «السَّكِينَةُ الثَّانِيَةُ : هِيَ الَّتِي تُنطَقُ عَلَىٰ أَلسِنَةِ(٢) المحَدَّثِينَ. لَيسَت هِيَ شَيئاً يُملَكُ. إِنَّمَا هِيَ شَيءٌ مِن لَطَائِفِ صُنعِ الحَقِّ. يُلقِي عَلَىٰ لِسَانِ المحَدَّثِ الحِكمَةَ كَمَا يُلقِي الملَكُ الوَحيَ عَلَىٰ قُلُوبِ الأَنبِيَاءِ ، وَتُنطِقُ المحدَّثِينَ(٣) بِنُكَتِ الحَقَائِقِ مَعَ تَروِيحِ الأَسرَارِ ، وَكَشفِ الشُّبَهِ».

«السكينة» إذا نزلت في(٤) القلب اطمأن بها. وسكنت إليها الجوارح وخشعت ، واكتسبت الوقار ، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة ، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش ، واللغو والهجر ، وكل باطل. قال ابن عباس(٥) - رضي الله عنهما - : «كنا نتحدث أن السكينة تنطق علىٰ لسان عمر وقلبه».

وكثير ما ينطق صاحب «السكينة» بكلام لم يكن عن (٦) فكرة منه ، ولا روية

---

(١) «قال» ساقطة من ق.

(٢) في البقية «لسان» والمنازل : «السن».

(٣) «المحدثين» ساقطة من ط ، وانظر قوله في المنازل ص٨٣ و ٨٤.

(٤) في ط : «على القلب».

(٥) نسبه المؤلف إلى ابن عباس وعزاه مرة أخرى لابن مسعود كما سيأتي في ص ٣١٥٤ والذي وقفت عليه أنه لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ انظر الحلية ١/ ٤٢ ، وشذرات الذهب ١/ ٣٣ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٢٠.

(٦) «عن ساقطة» من أ ، غ ، ب.

ولا هيئة [١] ، ويستغربه هو من نفسه. كما يستغرب السامع له [٢] ، وربما لم يعلم بعد انقضائه بما صدر منه.

وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة ، وصدق الرغبة من السائل ، والمجالس ، وصدق الرغبة منه : هو إلىٰ الله ، والإسراع بقلبه إلىٰ بين يديه ، وحضرته ، مع تجرده من الهوىٰ [٣] ، وتجريده النصيحة لله ورسوله [٤] ، وعباده [المؤمنين] [٥] وإزالة نفسه من البَيْن [٦].

ومن جرّب هذا عرف قدر منفْعته وعظمها. وساء ظنه بما يحسن به الغافلون ظنونهم من كثير من كلام الناس.

قوله : «لَيسَت شَيئاً تُمْلَكُ» [٧].

يعني هي موهبة من الله تعالىٰ ليست بسببية ولا كسبيّة. وليست كالسكينة

(١) في ج : «تهيأه» ، ح : «بهيه» ، ط «هبه» ، والبقية عدا م ، س : «هيه».

والهيئة : هي الحالة الظاهرة الحسنة أو التهيؤ للشيء والاستعداد له.

انظر : المصباح المنير ٦٤٥ ، مختار الصحاح ٧٠٣.

(٢) «له» ساقطة من ق ، وفي ط بعدها : «وربما لا يعلم».

(٣) في البقية عدا س ، م ، ج ، ق : «الأهواء».

(٤) في ط : «لله ولرسوله ولعباده».

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٦) البين : هو الوصل أو الفراق فهو من الأضداد. انظر : تفسير غريب الحديث ٤٢ ، ومختار الصحاح ٧٢.

(٧) في ط : «وليست شيئاً يملك».

التي كانت في التابوت تنقل معهم كيف شاؤوا.

وقوله : «تُلقِي عَلَىٰ لِسَانِ المحَدَّثِ الحِكمَةَ» أي تُجري الصواب علىٰ لسانه.

وقوله : «كَمَا يُلقِي المَلَكُ الوَحيَ عَلَىٰ قُلُوبِ الأَنبِيَاءِ» ـ عليهم السلام ـ.

يعني : أنها بواسطة الملائكة [1] ، بحيث تتلقىٰ [2] قلوبُ أربابها الحكمةَ عنهم. والطمأنينة والصواب ، كما أن الأنبياء تتلقىٰ الوحيَ عن الله بواسطة الملائكة ؛ ولكن ما للأنبياء مختص بهم [3] ، ولا يشاركهم فيه غيرهم ، وهو نوع آخر.

وقوله : «تُنطِقُ المحدَّثِينَ بِنُكَتِ الحَقَائِقِ ، مَعَ تَروِيحِ الأَسرَارِ ، وَكَشفِ الشُّبَهِ».

قد تقدم في أول الكتاب : ذكر مرتبة المحدَّث[4] ، وأن هذا التحديث من مراتب الهداية العشرة ، وأن المحدَّث هو الذي يحدَّث في سره بالشيء ،

---

(١) سقط من م إلى قوله : «ولكن ما للأنبياء».

(٢) في ط : «بحيث تلقى في قلوب».

(٣) في البقية عدا ج ، س ، ق زيادة «واو».

(٤) المحدَّث : بالفتح هو الرجل الصادق الظن ، وهو من أُلقي في روعه شيء من قبل الملأ الأعلى فيكون كالذي حدثه غيره به. وقيل : من يجري الصواب على لسانه من غير قصد. وقيل غير ذلك. فتح الباري ٧/ ٥٠ ، وانظر : كلام المؤلف عن المحدث كما أشار إليه في مراتب الهداية من هذا الكتاب ١/ ٣٩ و ٤٠.

فيكون كما يحدِّث به. و«الحقائق» هي حقائق الإيمان والسلوك. و«نكتها» عيونها ومواضع الإشارات منها (١). ولاريب أن تلك توجب للأسرار رُوحاً(٢) ورَوحاً تحيا به وتتنعَّمُ. وتكشف عنها شبهات لا يكشفها المتكلمون(٣) ولا الأصوليون. فتسكن الأرواح والقلوب إليها، ولذا (٤) سميت «سكينة» ومن لم يفز من الله بذلك. لم تنكشف عنه شبهاته. و(٥) لايكشفها إلا سكينة الإيمان واليقين. [والله سبحانه أعلم](٦).

---

(١) «منها» ساقطة من م.

(٢) في البقية عدا س، م، ج، ق: «للأسرار روحاً تحيا به».

والرَّوح: بفتح الراء لها معاني منها الراحة والاستراحة، وروح الله: رحمته ورجاؤه وقيل غير ذلك والرُّوح: بالضم كقوله ﴿ روحاً من أمرنا ﴾. قال ابن عباس: القرآن وكل ما كان فيه حياة للنفوس بالإرشاد، وقيل: جبريل. قال ابن حجر: وفي الروح أقوال منتشرة. انظر: غريب الحديث ١٠٨.

(٣) المتكلمون: نسبة إلى علم الكلام وسمي بذلك قيل: لأن أبوابه عُنوِنَتْ أولاً بالكلام في كذا، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه، وقيل: لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات. انظر: كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٣٠ - ٣٣، والمواقف للأيجي ٧، والتعريفات ٢٣٦.

والأصوليون: نسبة للأصول قال التهانوي عن علم أصول الفقه: وله تعريفات أحدهما: باعتبار الإضافة، وثانيهما باعتبار اللقب أي باعتبار أنه لقب لعلم مخصوص. والأصل يطلق ويراد به عدة معاني منها ما يُبنى عليه غيره، وقيل الأدلة انظر: كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٣٨ - ٤١ و ١١٤، وشرح مختصر الروضة للطوفي ١/ ١١٤ - ١٣٩.

(٤) في البقية عدا س «ولهذا».

(٥) في ط: «فإنها».

(٦) الزيادة في أ، غ، ج، ح، ب.

فصل

المعنى الثالث للسكينة

قال «السَّكِينَةُ الثَّالِثَةُ : هِيَ الَّتِي أُنزِلَت[١] فِي قَلبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقُلُوبِ المؤمِنِينَ. وَهِيَ شَيءٌ يَجمَعُ نُوراً[٢] وَقُوَّةً وَروحاً ، يَسكُنُ إِلَيهِ الخَائِفُ ، وَيَتَسَلَّىٰ بِهِ الحَزِينُ وَالضَّجِرُ ، وَيَستَكِينُ[٣] إِلَيهِ العَصِيُّ وَالجَرِيءُ وَالأَبِيُّ».

هذا من عيون كلامه وغرره الذي تثنىٰ عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب، ونطقه[٤] به عن ذوق تام لا عن علم[٥] مجرد.

فذكر : أن هذا الشيء الذي أنزله الله في قلب رسوله ، وقلوب عباده المؤمنين يشتمل علىٰ ثلاثة معان : النور ، والقوة ، والروح.

وذكر له ثلاث ثمرات : سكون الخائف إليه ، وتسلي الحزين والضجر به ، واستكانة صاحب المعصية والجرأة علىٰ المخالفة والإباء إليه.

فبالروح الذي فيها : حياة القلب. وبالنور الذي فيها : استنارته ، وضياؤه وإشراقه. وبالقوة : ثباته[٦] وعزمه ونشاطه.

---

(١) في ط : «نزلت على قلب».

(٢) «نوراً و» ساقطة من ط.

(٣) في البقية عدا س : «ويسكن» وهو كما في المنازل ٨٤.

(٤) في البقية عدا س : «وتظفر».

(٥) «علم» ساقطة من ط.

(٦) في الأصل «بيانه» والمثبت كما في البقية لمناسبة القوة.

فالنور : يكشف له[1] عن دلائل الإيمان ، وحقائق اليقين. ويميز له بين الحق والباطل ، والهدىٰ والضلال ، والغيِّ والرشاد[2] ، والشك واليقين.

والحياة : توجب كمال يقظته وفطنته ، وحضوره وانتباهه من سنة الغفلة. وتأهبه للقاء[3].

والقوة : توجب له الصدق ، وصحة المعرفة ، وقهر داعي الغيِّ والعنت ، وضبط النفس عن جزعها وهلعها ، واسترسالها في النقائص والعيوب ، ولذلك[4] ازداد بالسكينة إيماناً مع إيمانه.

والإيمان : يثمر له النور ، والحياة والقوة. وهذه الثلاثة تثمره أيضاً. وتوجب زيادته. فهو محفوف بها قبلها وبعدها.

فبالنور[5] : يكشف دلائل الإيمان. وبالحياة : يتنبه[6] من سنة الغفلة. ويصير يقظاناً. وبالقوة : يقهر الهوىٰ[7] والنفس ، والشيطان [كما قيل][8].

---

(١) «له» ساقطة من م.

(٢) في ط : «والرشد».

(٣) في ج : «وتأهله» ، وط : «وتأهبه للقائه».

(٤) في ج ، م : «وكذلك».

(٥) في أ ، غ ، ح ، ب : «فالنور».

(٦) في أ ، غ ، ح ، ب : «ينتبه».

(٧) في ب : «القوى» ، و م : «النفس والهوى».

(٨) الزيادة من الجميع عدا س ، م. انظر : بصائر ذوي التمييز ٣/ ٢٤١ بدون نسبة القائل.

وتلك مواهبُ الرحمن ليست تحُصَّل باجتهاد، أو بكسب
ولكن لا غنىٰ عن بَذلِ جُهدٍ بإخلاصٍ وجدٍّ، لا بلعب
وفضلُ الله مبذولٌ ولكن بحكمته، وعن ذا النصُّ يُنبي
فما من حكمة الرحمن وضع الـ ـكواكب بين أحجار وتُرْب
فشكراً للذي أعطاك منه فلو قَبِلَ المحلُّ لزادَ ربِّي

فصل

فإذا حصلت هذه الثلاثة بالسكينة - وهي النور، والحياة، والروح - سكن إليها العصيّ. وهو الذي سكونه إلىٰ المعصية والمخالفة. لعدم سكينة الإيمان في قلبه فلما سكنت[1] سكينة الإيمان في قلبه صار سكونه إليها عوض[2] سكونه إلىٰ الشهوات، والمخالفات. فإنه قد وجد فيها مطلوبه. وهو اللذة التي كان يطلبها من المعصية. ولم يكن له ما يعيضه عنها. فمنذ أنزلت[3] عليه السكينة اعتاض بلذتها وروحها، ونعيمها عن لذة المعصية. فاستراحت بها نفسه. وهاج إليها قلبه. ووجد فيها من الروح والراحة واللذة ما لا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية. فصارت لذاته روحانية قلبية. بعد أن كانت

(١) سقط من ط: «فلما سكنت سكينة الإيمان في قلبه».

(٢) «عوض» ساقطة من ح.

(٣) في م «فلما» والبقية عدا س: «فإذا».

جسمانية [١] فأسلته عنها وخلصته، فإذا تألقت بروقها قال:

تألق البرقُ نجدياً فقلت لـه ... يا أيها البرق إني عنك مشغول[٢]

وإذا طرقته طيوفها[٣] الخيالية [في ظلام ليل الشهوات، نادىٰ لسان حاله][٤]، وتمثل بمثل قوله:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيـارة فارجعي بسلام[٥]

فإذا ودعته وعزمت علىٰ الرحيل، ووعدته بالموافاة تمثل[٦] بقول الآخر[٧]:

قالت وقد عزمت علىٰ ترحالهـا ... ماذا تريد؟ فقلت: أن لا ترجعي

فإذا باشرت هذه السكينة قلبه سكنت خوفه. وهو قوله: «يَسكُنُ إِليَهَا

---

(١) في البقية عدا س، ج، ق، م: «فانسلب منها وحبس عنها وخلصت».

(٢) القائل هو أحد الخوارج أراد قتله عبد الملك بن مروان في يوم غيم ومطر ورعد وبرق فأنشأ يقول هذه الأبيات انظر: معجم البلدان ٥/ ٢٦٤، وذكر هذا البيت المؤلف في كتابه بدائع الفوائد ١/ ١٠٩.

(٣) الطيف: هو ما أطاف بالإنسان وألم به لمم من الجن أو الأنس أو الخيال. انظر: تفسير غريب الحديث ١٥٦، المصباح المنير ٣٨٣، مختار الصحاح ٤٠٣، النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٥٣.

(٤) الزيادة من الجميع عدا م، س.

(٥) القائل هو جرير. انظر: شرح ديوان جرير لمحمد الصاوي ١/ ٥٥١.

(٦) «تمثل» ساقطة من ط.

(٧) في س: «القائل» وهذا الشاعر يقصد بهذا البيت «الحمى» وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا في كتابه زاد المعاد ٤/ ٣١.

الخَائِفُ» وسلت حزنه. فإنها لا حزن معها. فهي سلوة المحزون، ومذهبة الهموم والغموم، وكذلك تذهب عنه (١) وخم ضجره، وتبعث نشوة العزم.

وحالت بينه وبين الجرأة علىٰ مخالفته الأمر، وبين إباء النفس للانقياد (٢) إليه. [والله أعلم] (٣).

فصل

درجات السكينة الدرجة الأولى

قال (٤): «وَأَمَّا سَكِينَةُ الوَقَارِ، الَّتِي نَزَّلَهَا (٥) نعتاً لِأَربَابِهَا: فَإِنَّهَا ضِيَاءُ تِلْكَ السَّكِينَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي ذَكَرنَاهَا. وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الأُولَىٰ: سَكِينَةُ الخُشُوعِ عِندَ القِيَامِ لِلخِدمَةِ: رِعَايَةً، وَتَعظِيماً، وَحُضُوراً».

فـ «سَكِينَةُ الوَقَارِ» (٦) هي نوع من السكينة، ولكن لما كانت موجبة للوقار سماها الشيخ ـ رحمه الله ـ «سكينة الوقار».

وقوله: «نَزَّلَهَا نَعتاً» يعني نزلها الله في قلوب أهلها، ونعتهم بها.

---

(١) «عنه» ساقطة من ق.

(٢) في ط: «والانقياد».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٤) «قال» ساقطة من ق.

(٥) في الجميع «نزلها» وانظر قوله في المنازل ٨٤، وفيه «بالخدمة» بدل «للخدمة» و «تراها» بدل «نزلها».

(٦) في البقية عدا س، ج: «سكينة».

وقوله : «فَإِنَّهَا ضِيَاءُ تِلكَ السَّكِينَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي ذَكَرنَاهَا».

أي نتيجتها وثمرتها ، وعنها نشأت [١] ، كما أن الضياء عن الشمس حصل.

ولما كان النور والحياة والقوة - الذي ذكرنا [٢]- مما تثمر الوقار : جعل «سكينة الوقار» كالضياء لتلك السكينة. إذ هو علامة حصولها ، ودليل عليها ، كدلالة الضياء علىٰ حامله.

قوله : «الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : سَكِينَةُ الخُشُوعِ عِندَ القِيَامِ لِلخِدمَةِ».

يريد به الوقار والخشوع الذي يحصل لصاحب مقام الإحسان [٣] ، وهو من يعبد الله كأنه يراه فإنه لا محالة يقوم بوقار الخدمة ، وخشوعها ، فعدم الخشوع والوقار يدل علىٰ أنه أجنبيٌّ من مقام الإحسان ، ولما كان الإيمانُ موجباً للخشوع ، وداعياً إليه. قال [الله] [٤] تعالىٰ : ﴿ ۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الحديد : ١٦] دعاهم من مقام الإيمان إلىٰ مقام الإحسان. يعني : أما آن لهم أن يصلوا [إلىٰ] [٥] الإحسان بالإيمان؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكر الذي أنزله إليهم؟

قوله : «رِعَايَةً ، وَتَعظِيماً ، وَحُضُوراً» هذه ثلاثة أمور.

---

(١) في م : «نتجت».

(٢) في ط : ذكرناها».

(٣) سقط من ط ، أ ، ب ، غ من هنا إلى قوله «مقام الإحسان».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س.

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م ، وفي م سقط : «وتحقيق» بعد «بالإيمان».

تحقق الخشوع في الخدمة ، وهي رعاية حقوقها الظاهرة والباطنة ، فليس يضيعها خشوعٌ ولا وقارٌ.

الثاني : تعظيم الخدمة وإجلالها. وذلك تبع لتعظيم المعبود وإجلاله(١) ، فعلىٰ قدر (٢) تعظيمه في قلب العبد وإجلاله ووقاره : يكون تعظيمه لخدمته(٣) ، وإجلاله لها ورعايته لها.

والثالث : الحضور. وهو إحضار القلب فيها مشاهدة للمبعود (٤) كأنه يراه.

فهذه الثلاثة تثمر له «سكينة الوقار». [والله سبحانه أعلم] (٥).

فصـــل

الدرجة الثانيـة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : السَّكِينَةُ عِندَ المُعَامَلَةِ بِمُحَاسَبَةِ النَّفسِ(٦) ، وَمُلَاطَفَةِ الخَلقِ ، وَمُرَاقَبَةِ الحَقِّ».

هذه الدرجة [هي](٧) التي يحوم عليها أهل التصوف، والعلم الذي يشمرون

(١) في ط زيادة «ووقاره».

(٢) في م : «تقرير تعظيمه» ثم سقط منها إلى قوله «لخدمته».

(٣) في ج : «لحرمته» ، وفي ط : «لها» بعد «إجلاله» ساقطة.

(٤) في البقية : «المعبود».

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٦) في البقية عدا ق ، س ، م «النفوس» وهو كما في المنازل ص٨٤ و ٨٥.

(٧) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

إليه ، وهي سكينة(١) المعاملة التي بينهم وبين الله ، وبينهم وبين خلقه(٢) بثلاثة أشياء :

أحدها : محاسبة النفس ، حتىٰ تعرف ما لها وما عليها ، ولا يدعها تسترسل في الحقوق استرسالاً ، فيضيعها ويهملها.

وأيضاً فإن زكاها (٣) وطهارتها موقوف علىٰ محاسبتها ، فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح البتة إلا بمحاسبتها.

قال الحسن ﷺ إن المؤمن – والله – لا تراه إلا قائماً علىٰ نفسه : [ما أردت بكلمة كذا؟ وما أردت بأكلة كذا (٤) ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا؟] (٥) ما أردت بهذا؟ [ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلىٰ هذا](٦) ونحو هذا الكلام.

فبمحاسبتها يطلع علىٰ عيوبها ونقائصها ، فيمكنه السعيُ في إصلاحها.

الثاني: ملاطفة الخلق. وهي معاملتهم بما يجب أن يعاملوه به(٧) من

---

(١) في البقية عدا س ، ق ، م ، ح ، ج : «إليه للمعاملة التي».

(٢) في ط زيادة : «وتحصل» وهو هكذا في جميع النسخ.

(٣) في البقية عدا س «زكاتها».

(٤) الزيادة من الجميع عدا م ، س.

(٥) «كذا» ساقطة من ط.

(٦) الزيادة من الجميع عدا س ، م ، وانظر قوله في كتاب صفة الصفوة ٣/ ٢٣٤ و ٢٣٥ ، و محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص٣١ و ٣٢.

(٧) «به» ساقطة من م.

اللطف، ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة ، فإن ذلك ينفّرُهم عنه ، ويغريهم به ، ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته [1] ، فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف ، فإن معاملة [الناس] [2] بذلك : إما أجنبي فيكسب مودته ومحبته، وإما صاحب وحبيب فيستديم [3] صحبته ومحبته، وإما عدو [4] ومبغض ، فتطفئ بلطفك جمرته، وتستكفي شرَّه، ويكون احتمالك لمضض [5] لطفك به، دون احتمالك لضرر [6] ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

الثالث : مراقبة الحق سبحانه ، وهي الموجبة لكل صلاح وخير عاجل وآجل ، ولا تصح الدرجتان الأولتان إلا بهذه ، وهي المقصود لذاته ، وما قبله وسيلة إليه ، وعون عليه ، فمراقبة الحق سبحانه : توجب إصلاح النفس ، واللطف بالخلق.

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : السَّكِينَةُ** [7] **الَّتِي تثبتُ الرِّضَىٰ بِالقَسمِ ، وَتمَنَعُ مِن**

(١) «الواو» ساقطة من ج وفي م : «وقبله».

(٢) الزيادة من الجميع عدا م ، س.

(٣) في ط : «فتستديم صحبته ومودته».

(٤) «الواو» ساقطة من ح ، ج.

(٥) المضض : وجع المصيبة. مختار الصحاح ٦٢٦.

(٦) في ج : «ضرر».

(٧) «السكينة» ساقطة من م.

الشَّطحِ الفَاحِشِ ، وَتقِفُ صَاحِبَهَا عَلَىٰ حَدِّ الرُّتبَةِ ، وَالسَّكِينَةُ لاَ تَنزِلُ [١] إِلاَّ فِي قَلبِ نَبِيٍّ ، أَو وَلِيٍّ».

هذه الدرجة الثالثة: كأنها عند الشيخ ـ رحمه الله ـ لأهل الصحو بعد السكر، ولمن شام بوارق الحقيقة.

فقوله : «تثبتُ الرِّضَىٰ»[٢].

أي توجب لصاحبها أن يرضىٰ بالمقسوم له[٣] ، ولا تتطلع نفسه إلىٰ غيره.

«وَتمَنَعُ مِنَ الشَّطحِ الفَاحِشِ».

يعني مثل ما نقل عن أبي يزيد ـ رحمه الله ـ ونحوه ، بخلاف الجنيد وسهل أمثالهما ، فإنهم لما كانت لهم هذه السكينة لم تصدر [٤] منهم الشطحات ، ولا ريب أن الشطح سببه عدم السكينة ، فإنها إذا استقرت في القلب منعته من الشطح وأسبابه.

قوله : «وَتَقِفُ[٥] صَاحِبَهَا عَلَىٰ حَدِّ الرُّتْبَةِ».

أي توجب لصاحبها الوقوف عند حده من[٦] رتبة العبودية ، فلا يتعدىٰ مرتبة

---

(١) في ق : «إلا على قلب» وفي منازل السائرين ٨٥ «لا تنزل قط إلا».

(٢) في ط زيادة «بالقسم».

(٣) «له» ساقطة من ط ، وفي ق : «به»

(٤) في ج : «يصدر»

(٥) في ط : «وتوقف»

(٦) سقط من م : «رتبة العبودية فلا يتعدى».

العبودية وحدَّها.

قوله : «وَالسَّكِينَةُ لاَ تَنزِلُ إلاَّ عَلَىٰ قَلبِ نَبِيٍّ أَو وَلِيٍّ».

وذلك لأنها من أعظم مواهب الحق سبحانه ومنحه ، ومن أجلِّ عطاياه. ولهذا لم يجعلها القرآن إلا لرسوله وللمؤمنين. كما تقدم[1] ، فمن أعطيها فقد خلعت عليه خلعة[2] الولاية ، وأعطىٰ منشورها.

والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا به[3].

* * *

(١) في أول هذه المنزلة ص ٢٧٢٥.

(٢) في البقية عدا س ، م : « خلع » .

(٣) في البقية عدا س «إلا الله».

فصل

[منزلة الطمأنينة]

منزلة الطمأنينة

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة : الطمأنينة.

قال الله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨] ، وقال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر : ٢٧ — ٣٠].

«الطمأنينة»[1] سكون القلب إلىٰ الشيء ، وعدم اضطرابه وقلقه ، ومنه الأثر المعروف «الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة»[2] أي الصدق يطمئنُّ إليه قلبُ السامع ، ويجد عنده سكوناً إليه ، والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً ، ومنه

---

(١) قال الكاشاني : الطمأنينة سكون يقويه أمن ناشىء من تعين قريب إلى العيان مقرون بدوام روح الأنس. معجم اصطلاحات الصوفية ٣٠٢. وسيأتي كلام المؤلف عن الطمأنينة في الفصل التالي ص ٢٩٤.

(٢) هذا جزء من حديث أوله «دع ما يريبك» والحديث أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب رقم (٦٠) ٤/ ٦٦٨ (٢٥١٨) ، وقال هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد في المسند ١/ ٢٠٠ ، والحاكم في المستدرك ومعه التلخيص ولفظه : «فإن الخير طمأنينة والشر ريبة» ٢/ ١٣ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، ومثله في صحيح ابن حبان ٢/ ٥٢ (٧٢٠) والحديث صححه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٢٥٦ (٤٢١١) والألباني في إرواء الغليل ٧/ ١٥٥ و ١٥٦ (٢٠٧٤).

قوله[1] ﷺ : «البر ما اطمأن إليه القلب»[2] أي سكن إليه[3] وزال عنه اضطرابه وقلقه.

المقصود بذكر الله

وفي «ذكر الله» هاهنا قولان.

أحدهما[4] : أنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوىٰ ذكر الله.

ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه.

فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين، إذا حلف المؤمن علىٰ شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنت، ويروىٰ هذا[5] عن ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) في غ: «قول النبي».

(٢) لم يرد الحديث بهذه الصيغة وإنما جاء بلفظ: «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب» وقد رواه أحمد في المسند ٤/ ١٩٤ و ٢٢٨، ورواه الطبراني في مسند الشاميين ١/ ٤٤٤، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٣٥١ وقال رواه أحمد بإسناد جيد، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٠، قال الهيثمي رواه الطبراني وأحمد باختصار عنه ورجال أحد إسنادي الطبراني ثقات وقال أيضاً رواه أحمد والطبراني وفي الصحيح طرف من أوله ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ١/ ١٨٠ و ١٨١ و١٠/ ٢٩٧، والحديث حسنه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ١٩٢ (٣١٩٨).

(٣) «إليه» ساقطة من ح.

(٤) «أنه» ساقطة من م.

(٥) ذكره البغوي في تفسيره عن ابن عباس ٤/ ٣١٥، وذكره السيوطي في الدر المنثور عن السدي ٤/ ٦٤٢.

ومنهم من قال : بل هو ذكر العبد [ربه] (١) بينه وبينه ، يسكن إليه قلبه ويطمئن.

القول الثاني : أن ذكر الله ههنا القرآن ، وهو ذكره الذي أنزله علىٰ رسوله. وبه طمأنينة قلوب المؤمنين. فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين ، ولا سبيل إلىٰ حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن ، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه (٢) ، واضطرابه وقلقه من شكِّه ، والقرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك والظنون والأوهام. فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به ، وهذا القول هو المختار.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : ٣٦].

والصحيح (٣) : أنه ذكره الذي أنزله علىٰ رسوله – وهو كتابه – من أعرض عنه : قيض له شيطاناً يضله ويصده عن السبيل ، وهو يحسب أنه علىٰ هدىً.

وكذلك القولان [أيضاً] (٤) في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤].

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في س : «من نفسه».

(٣) في ط : «أن».

(٤) الزيادة من الجميع.

والصحيح أنه ذكره الذي أنزله [علىٰ رسوله] (١) – وهو كتابه – ولهذا يقول المعرض عنه : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه : ١٢٥ و ١٢٦].

وأما (٢) تأويل من تأوله علىٰ الحلف : ففي غاية البعد عن المقصود ، فإن ذكر الله بالحلف (٣) يجري علىٰ لسان الصادق والكاذب ، والبر والفاجر ، والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلىٰ الصادق (٤) ولو لم يحلف ، ولا تطمئن قلوبهم إلىٰ من يرتابون به (٥) ولو حلف.

وجعل (٦) الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم ، وجعل الغبطة (٧) والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة ، فطوبىٰ لهم وحسن مآب.

وفي قوله : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ دليل علىٰ أنها لا

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٢) في أ زيادة «كذلك» وهو خطأ.

(٣) في ق : «به» بدل «يجري».

(٤) في ق : «ولا يحلف».

(٥) في غ ، أ ، ب ، ح «منه : وفي ط «فيه».

(٦) «الله» ساقطة من ج ، م ، س.

(٧) الغبطة : تمني مثل ما لأخيك المسلم من غير تمني زوالها عنه. انظر : تفسير غريب الحديث ١٧٥ ، والمصباح المنير ٤٤٢.

ترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة ، فهناك ترجع إليه وتدخل في عبادة ، وتدخل جنته ، وكان من دعاء بعض السلف (١) : «اللهم هب لي نفساً مطمئنة إليك»(٢).

فصل

تفريق الهروي بين السكينة والطمأنينة

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ : «الطُّمَأْنِينَةُ : سُكُونٌ يُقَوِّيهِ أَمنٌ صَحِيحٌ ، شَبِيهٌ بِالعيَانِ ، وَبَينَهَا(٣) وَبَيْنَ السَّكِينَةِ فرقَانِ.

أَحَدُهُمَا : أَنَّ «السَّكِينَةَ» صَولَةٌ تُورِثُ خمُودَ الهَيبَةِ أَحيَاناً.(٤) [و«الطُّمَأْنِينَةُ» سُكُونُ أَمنٍ فيه(٥) استِرَاحَةُ أُنسٍ.

وَالثَّاني : أَنَّ «السَّكِينَةَ» تَكُونُ نَعتاً(٦) ، وَتَكُونُ حِيناً بَعدَ حِينٍ ، وَ«الطُّمَأْنينَةُ» لاَ تُفَارِقُ صَاحِبَهَا».

«الطمأنينة» موجب(٧) السكينة. وأثر من آثارها ، وكأنها نهاية السكينة.

---

(١) في أ زيادة «الصالحين» وهي غير ملائمة.

(٢) قال السيوطي في الدر المنثور ٨/ ١١٥ ، وأخرج الطبراني وابن عساكر عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل : «قل: اللهم إني أسألك نفساً مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بعطائك».

(٣) في المنازل «بينه» وفي نهاية قوله «لا تفارق صاحبها» في المنازل ٨٥ «نعت لا يزايل صاحبه».

(٤) من هنا بداية السقط من نسخة : ب.

(٥) في البقية عدا س ، ج : «في».

(٦) في أ ، غ ، ح ، ج ، ق «معناً» وفي م «نفياً».

(٧) في الأصل ، م : «توجب» وهذا اللفظ لا يلائم قول المؤلف : «وكأنها نهاية السكينة».

فقوله : «سُكُونٌ يُقَوِّيهِ أَمنٌ» أي سكون القلب مع قوته [١] بالأمن الصحيح الذي لا يكون [٢] أمن غرور ، فإن القلب قد يسكن إلىٰ أمن الغرور ، ولكن لا يطمئن به لمفارقة ذلك السكون له. والطمأنينة لا تفارقه [٣] ، فإنها مأخوذة من الإقامة. يقال : اطمأن بالمكان والمنزل : إذا أقام به.

وسبب صحة هذا الأمن المقوِّي [٤] للسكون : شبهه بالعيان ، بحيث لا يبقىٰ معه شيء من مجوزات الظنون والأوهام ؛ بل كأن صاحبه يعاين ما يطمئن به ، فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتيابه.

وأما الفَرْقَان اللذان ذكَرَهُما [٥] بينها وبين السكينة ، فحاصل الفرق الأول : أن «السكينة» تصول علىٰ الهيبة الحاصلة في القلب. فتخمدها في بعض الأحيان [٦] ، فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السكون ، وذلك في بعض الأوقات ، فليس حكماً دائماً مستمراً ، وهذا لا يكون لأهل الطمأنينة دائماً ، ويصحبه الأمن والراحة بوجود الأنس ، فإن الاستراحة في السكينة قد تكون من الخوف والهيبة فقط ، والاستراحة في منزل الطمأنينة تكون مع زيادة أنس

---

(١) في البقية عدا ج ، س ، ق ، م «مع قوة الأمن».

(٢) في ق : «في غرور».

(٣) في الأصل ، م ، س «لا تفارق» والمثبت كما في البقية لوجود الضمير.

(٤) في ح ، ج ، س «القوي».

(٥) في ج ، م ، س : «بينهما».

(٦) في غ «الوقت».

وذلك فوق مجرد الأمن ، وقدر زائد عليه.

وحاصل الفرق الثاني (١) : أن الطمأنينة ملكة ، ومقام لا يفارق ، والسكينة تنقسم إلىٰ سكينة هي مقام ونعت لا يزول ، وإلىٰ سكينة تكون وقتاً دون وقت، هذا حاصل كلامه.

تفريق ابن القيم بين السكينة والطمأنينة

والذي يظهر لي في الفرق بينهما أمران ، سوىٰ ما ذكر.

أحدهما : أن ظفره وفوزه بمطلوبه الذي حصل له السكينة ، فالسكينة (٢) بمنزلة من واجهه عدو يريد هلاكه ، فهرب منه عدوه ، فسكن روعه ، والطمأنينة بمنزلة (٣) حصن رآه مفتوحاً فدخله ، وأمن فيه ، وتقوىٰ بصاحبه وعدته ، فللقلب ثلاثة أحوال :

أحدها : الخوف والاضطراب والقلق من الوارد الذي يزعجه ويقلقه.

الثاني : زوال ذلك الوارد [الذي يزعجه ويقلقه] (٤) عنه وعدمه.

الثالث : ظفره وفوزه بمطلوبه الذي كان ذلك الوارد حائلاً بينه وبينه.

وكل منهما يستلزم الآخر (٥) ويقاربه، فالطمأنينة تستلزم السكينة ولا تفارقها،

---

(١) في أ ، غ ، ح : «الفرقان».

(٢) «فالسكينة» ساقطة من ط وفي جميع النسخ كما أثبت.

(٣) في م «بمثابة» و س : «بمنزلة من واجهة حصن».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، ق.

(٥) «الآخر» ساقطة من غ ، ح.

وكذلك بالعكس ، لكن (١) استلزام الطمأنينة للسكينة أقوىٰ من استلزام السكينة للطمأنينة.

الثاني : أن «الطمأنينة» أعم. فإنها تكون في العلم والخبر به ، واليقين والظفر بالمعلوم ، ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به ، ومعرفته والهداية به في ظُلم الآراء والمذاهب ، واكتفت به منها ، وحكمته عليها وعزلتها ، وجعلت له الولاية بأسرها كما جعلها الله ، فبه (٢) خاصمت ، وإليه حاكمت ، وبه صالت ، وبه دفعت الشبه.

وأما السكينة : فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه ، وسكونه وزوال قلقه واضطرابه ، كما يحصل لحزب الله عند مقاتلة (٣) العدو وصولته [والله سبحانه أعلم] (٤).

فصـــل

درجات الطمأنينة الدرجة الأولى

قال : «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ : [الدَّرَجَةُ] (٥) الأُولَىٰ : طُمأْنِينَةُ القَلْبِ بِذِكرِ

(١) «لكن» ساقطة من ق.

(٢) في غ ، أ ، ح ، ج : «فيه».

(٣) في البقية عدا س : «مقابلة».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٥) الزيادة من الجميع.

اللهِ ، وَهِيَ طُمَأْنِينَةُ الخَائِفِ إِلَىٰ الرَّجَاءِ ، وَالضَّجِرِ إِلَىٰ الحُكمِ[١] ، وَالمُبتَلَىٰ إِلَىٰ المَثُوبَةِ».

قد تقدم أن الطمأنينة بذكر الله بكلامه وكتابه ، ولا ريب أن الذي ذكره في هذه الدرجة : هو من جملة الطمأنينة بذكره. وهي أعم[٢] من ذلك ، فذكر طمأنينة الخائف إلىٰ الرجاء، [فإن الخائف][٣] إذا طال عليه الخوف واشتد به، وأراد الله أن يريحه ، ويحمل عنه : أنزل عليه السكينة[٤] ، فاستراح قلبه إلىٰ الرجاء واطمأن به ، وسكن لهيب خوفه.

وأما «طُمَأْنِينَةُ الضَّجِرِ إِلَىٰ الحُكمِ»[٥] .

فالمراد[٦] بها : أن من أدركه الضجر من قوة التكاليف ، وأعباء الأمر وأثقاله – ولا سيما فيمن[٧] أقيم مقام التبليغ عن الله ، ومجاهدة أعداء الله ، وقطاع الطريق إليه[٨] – فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويتحملونه ،

---

(١) في م «الحلم» وانظر قوله في المنازل ص٨٥ و ٨٦.

(٢) في ط «أهم».

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) في ق : «فاشتد».

(٥) في م : «الحلم».

(٦) في ق : «فالمراد به إدراكه».

(٧) في ط : «من».

(٨) «إليه» ساقطة من م.

فلابد [أن][1] يدركه الضجر، ويضعف صبره، فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه: أنزل عليه سكينته[2]، فاطمأن إلىٰ حكمه الديني، وحكمه القدري، ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين، وبحسب[3] مشاهدته لهما تكون طمأنينته، فإنه إذا اطمأن إلىٰ حكمه الديني علم أنه دينه الحق، وهو صراطه[4]، وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم.

وإذا اطمأن إلىٰ حكمه الكوني: علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه ما شاء[5] كان وما لم يشأ لم يكن. فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين[6] والإيمان، فإن المحذور[7] المخوف: إن لم يقدر فلا سبيل إلىٰ وقوعه، وإن قدر فلا سبيل إلىٰ صرفه بعد أن أبرم تقديره، فلا جزع حينئذ[8] لا مما قُدِّر، ولا مما لم يقدَّر.

نعم إن كان[9] في هذا النازل حيلة، فلا ينبغي أن يعجز عنه، وإن لم يكن

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في س: «السكينة» وفي ح، ج «سكينة».

(٣) في ج، س «مشاهدتهما».

(٤) في ط زيادة: «المستقيم».

(٥) في البقية عدا س، م «يشاء».

(٦) في ج، ق: «النفس».

(٧) في البقية عدا ج، س: «والمخوف».

(٨) «لا» ساقطة من غ، س.

(٩) في ط: «وإن كان له في هذه النازلة حيلة فلا ينبغي أن يضجر عنها».

فيه[1] حيلة فلا ينبغي أن يجزع منه، فهذه طمأنينة الضجر إلىٰ الحكم [وفي مثل هذا قال القائل:

ما قد قُضِيْ يا نفس فاصطبري له ... ولكِ الأمان من الذي لم يُقدرِ
وتحققي أن المقدَّر كائنٌ ... يجري عليك حذرتِ أم لم تحذري][2]

وأما «طُمَأنِينَةُ المُبتَلَىٰ إِلَىٰ المثُوبَةِ».

فلا ريب أن المبتلىٰ إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض، وإنما يشتد به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب، وقد تقوىٰ ملاحظة العوض حتىٰ يستلذ بالبلاء ويراه نعمة[3]، ولا تستبعد هذا، فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذ به، وملاحظته لنفعه تغنيه[4] عن تألمه بمذاقه أو تخففه عنه[5]، والعمل والمعول إنما هو علىٰ البصائر[6].

والله أعلم.

---

(١) في ط: «فيها حيلة فلا ينبغي أن يضجر منها».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س وسقط البيت الثاني من ح، أ.

(٣) في ج: «ولا يستبعد».

(٤) في البقية عدا س «تغيبه».

(٥) في ط: «والعمل المعول عليه إنما».

(٦) «والله أعلم» ساقطة من م، س.

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : طُمَأْنِينَةُ الرُّوحِ فِي القَصدِ إِلَىٰ الكَشفِ[1] ، وَفِي الشَّوقِ إِلَىٰ العِدَةِ ، وَفِي التَّفرِقَةِ إِلَىٰ الجَمعِ».

«طُمَأْنِينَةُ الرُّوحِ» أن تطمئن[2] في حال قصدها ، ولا تلتفت إلىٰ ما وراءها.

والمراد بالكشف : كشف الحقيقة][3] ، لا الكشف الجزئي السفلي ، وهو ثلاث درجات :

كشف عن الطريق الموصل إلىٰ المطلوب ، وهو الكشف عن حقائق الإيمان وشرائع الإسلام[4] ، وكشف عن معانيها ومتاهاتها[5] وآفاتها ، وهو الكشف عن عيوب النفس وآفات الأعمال[6].

وكشف عن[7] المطلوب المقصود بالسير ، وهو معرفة الأسماء والصفات ، ونوعي التوحيد وتفاصيله ، ومراعاة ذلك حق رعايته[8].

---

(١) «في» ساقطة من أ ، غ ، ح ، ج ، م ، ق ، وانظر : قوله في المنازل ٨٦.

(٢) في س ، ج ، م : «أن يظهر».

(٣) نهاية السقط من : ب.

(٤) سقط من ط إلى قوله «وكشف عن المطلوب».

(٥) في م : «مقاماتها» وبعدها سقط من ج «وآفاتها وهو الكشف».

(٦) في ب : «العمل».

(٧) في أ ، ب «المقصود المطلوب».

(٨) الكشف : في اللغة رفع الحجاب ، وفي الاصطلاح : هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من

....

المعاني الغيبية ، والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً. التعريفات ٢٣٥.

وقال الطوسي في اللمع ٤٢٢ : بيان ما يستتر عن الفهم فيكشف عنه للعبد كأنه رأي عين.

وقد تحدث ابن القيم - رحمه الله - في كتابه المدارج في عدة مواضع عن الكشف ، ويتبين من خلال كلامه أن الكشف ينقسم إلى قسمين هما :

١- الكشف الجزئي المشترك بين المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار ، كالكشف عما في دار فلان أو عما في يده. وقال : ليس هذا مراد الشيخ.

٢- كشف الحقيقة : وهو ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : كشف عن الطريق الموصل إلى المطلوب ، وهو الكشف عن حقائق الإيمان وشرائع الإسلام.

الدرجة الثانية : كشف عن المطلوب بالسير. وهو معرفة الأسماء والصفات ، ونوعي التوحيد وتفاصيله ، ومراعاة ذلك حق رعايته ، ثم قال : وليس وراء ذلك إلا الدعاوى والشطح والغرور.

الدرجة الثالثة : كشف العين وظهور الذات المقدسة لعيانه حقيقة. قال ابن القيم : من ظن ذلك فقد غلط أقبح الغلط. وقال : ولا يعتقد أن الذات المقدسة والأوصاف برزت وتجلت للعبد - كما تجلى سبحانه للطور ، وكما يتجلى سبحانه يوم القيامة للناس - إلا غالط فاقد للعلم.

وقال عن الصادقين العارفين - مبيناً مرادهم بالكشف - وإنما يشيرون إلى كمال المعرفة وارتفاع حجب الغفلة والشك والإعراض ، واستيلاء سلطان المعرفة على القلب بمحو شهود السوى بالكلية فلا يشهد القلب سوى معروفه.

وقال أيضاً : - بأن مرادهم - أن يكشف للسائل عن طريق سلوكه ليستقيم عليها ، وعن عيوب نفسه ليصلحها ، وعن ذنوبه ليتوب منها.

انظر : مدارج السالكين ٢/ ٥١٧ ، و٣/ ١١٠ و ١١١ و ١٣٩ و ٢٢٧ و ٢٢٩.

وليس(١) وراء ذلك إلا الدعاوىٰ والشطح والغرور.

وقوله : «وَفِي الشَّوقِ إِلَىٰ العِدَةِ».

يعني أن الروح تطمئن في حال (٢) اشتياقها إلىٰ ما وعدت به ، وشوقت إليه ، فطمأنينتها بتلك العدة : تسكن عنها لهيبَ اشتياقِها ، وهذا شأن كل مشتاق إلىٰ محبوب (٣) وعلىٰ محصوله إنما تحصل (٤) لروحه الطمأنينة بسكونها إلىٰ وعد اللقاء ، وعلمها بحصول الموعود به.

قوله : «وَفِي التَّفرِقَةِ إِلَىٰ الجَمعِ».

أي وتطمئن (٥) الروح في حال تفرقتها إلىٰ ما اعتادته من الجمع ، بأن توافيها روحه ، فتسكن إليه وتطمئن به ، كما يطمئن الجائع الشديد الجوع إلىٰ ما عنده من الطعام ، ويسكن إلىٰ قلبه ، وهذا إنما يكون لمن أشرف علىٰ الجمع من وراء حجاب رقيق ، وشام برقه (٦) ، فاطمأن بحصوله ، وأما من بينه وبينه الحجب الكثيفة : فلا يطمئن به (٧).

---

(١) «وراء» ساقطة من م.

(٢) في البقية عدا ج : «تظهر» وسقط من ط «حال» وفي ج «حال استئنافها» وفي ق «اشتياقها وهذا».

(٣) في ط : «وعد فحصوله».

(٤) في البقية عدا س : «يحصل».

(٥) في س ، م «وتظهر».

(٦) شام برقه : أي رقبه ينتظر حصوله. انظر : المصباح المنير ٣٢٩.

(٧) «به» ساقطة من ق.

فصل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ(١) : طُمَأْنِينَةُ شُهُودِ الحَضرَةِ إِلَىٰ اللُّطفِ ، وَطُمَأْنِينَةُ الجَمعِ إِلَىٰ البَقَاءِ ، وَطُمَأْنِينَةُ المَقَامِ إِلَىٰ نُورِ الأَزَلِ»(٢). الدرجة الثالثة

هذه الدرجة الثالثة تتعلق بالفناء والبقاء ، فالواصل إلىٰ شهود الحضرة : مطمئن إلىٰ لطف الله. و«حضرة الجمع» يريدون بها(٣) الشهود الذاتي.

فإن الشهود عندهم مراتب بحسب تعلقه، فشهود الأفعال : أول مراتب الشهود ، ثم فوقه : شهود الأسماء والصفات ، ثم فوقه : شهود الذات الجامعة للأفعال(٤) والأسماء والصفات ، والتجلي عند القوم : بحسب هذه الشهودات الثلاث. الشهود والفناء

فأصحاب تجلي الأفعال : مشهدهم(٥) توحيد الربوبية ، وأصحاب تجلي الأسماء والصفات : مشهدهم توحيد الإلهية ، وأصحاب تجلي الذات : يغنيهم به عنهم.

وقد يعرض لبعضهم بحسب قوة الوارد وضعف المحل(٦) عجز عن القيام

---

(١) «طمأنينة» ساقطة من ح.

(٢) في م «ما بعد» وانظر قوله في المنازل ٨٦.

(٣) في غ ، ح «به».

(٤) في ط «إلى الأفعال».

(٥) في ق زيادة «تجلى» وهو خطأ لعدم مناسبتها.

(٦) «عجز» ساقطة من م.

والحركة ، فربما عطل بعض الفروض ، وهذا له حكم أمثاله من أهل العجز والتفريط ، والكاملون منهم قد(١) يفترون في تلك الحال عن الأعمال الشاقة. ويقتصرون علىٰ الفرائض وسننها وحقوقها ، ولا يقعد بهم ذلك الشهود والتجلي عنها ، ولا يؤثرون عليه شيئاً من النوافل والحركات التي لم تفرض (٢) عليهم البتة ، وذلك في طريقهم رجوع وانقطاع.

وأكمل من هؤلاء : من يصحبه (٣) ذلك في حال حركاته ونوافله ، فلا يعطل ذرة من أوراده ، والله سبحانه قد فاوت بين قوىٰ القلوب (٤) أشد من تفاوت قوىٰ الأبدان. وفي كل شيء له آية ، وصاحب هذا المقام آية من آيات الله لأولي الألباب والبصائر.

والمقصود : أنه لولا طمأنينته إلىٰ لطف الله لمحقه شهود الحضرة وأفناه جملة ، فقد خر موسىٰ صعقاً لما تجلىٰ ربه للجبل (٥). وتدكدك الجبل وساخ في الأرض من تجليه سبحانه.

هذا(٦) ولا يتوهم أن الحاصل في الدنيا للبشر كذلك ، ولا قريب منه أبداً ،

---

(١) في م «يفترقون».

(٢) في ط : «تعرض».

(٣) في ق : «تصحبه».

(٤) في ج : «القلب».

(٥) «وتدكدك الجبل» ساقطة من أ ، غ ، ح ، ب.

(٦) «هذا» ساقطة من م ، وفي ط : «هذا ولا يتوهم متوهم».

وإنما هي المعارف ، واستيلاء مقام الإحسان علىٰ القلب فقط ، وإياك[1] وترهات القوم ، وخيالاتهم[2] ورعوناتهم ، وإن سموك محجوباً[3] ، فقل : اللهم زدني من هذا الحجاب الذي ماوراءه إلا الخيالات والترهات والشطحات ، فكليم الرحمن واحد[4] ، ومع هذا لم تتجل الذات له ، وأراه ربه[5] تعالىٰ أنه لايثبت لتجلي ذاته[6] ، بما أشهده من حال الجبل ، وخر الكليم صعقاً مغشياً عليه[7] لما رأىٰ من حال الجبل عند تجلي ربه له ، ولم يكن تجلياً

---

(١) الترهات : هي الطرق الصغار غير الجادة ، واحدها ترهة ، ثم استعير في الباطل. انظر : مختار الصحاح ٧٧.

(٢) رعونات : بضم الراء والعين هي الحمق وقيل نقصان الفكر .

وفي اصطلاح الصوفية : هي الوقوف مع حظوظ النفس ومقتضى طباعها انظر : مختار الصحاح ٢٤٨ ، معجم اصطلاحات الصوفية ١٦٨.

(٣) المحجوب : يقصدون بالمحجوب هو الذي لم يصل إلى أعلى المقامات - بل هو محجوب عن حال أعظم من هذا الحال والمقام الذي هو فيه - بسبب رؤيته لأعماله الصالحة وعظمها في عينيه فهو محجوب عن الله بهذه الرؤية. فالعامة - عند الصوفية - هم المحجوبون وقد يسمونهم «بأهل الفرق». انظر : مدارج السالكين ١/ ٢٥٧ و ٢٦٥ و ٢٧٠ و ٢٧١ ، وانظر زيادة في كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٣٧٦ ، التعريفات ١١٥ ، اللمع ٤٢٨ ، مختار الصحاح ١٢٢ ، معجم اصطلاحات الصوفية ٨١.

(٤) في البقية عدا ج ، م ، س ، ق : «وحده».

(٥) في م : «الله».

(٦) في البقية عدا س ، م : «لما».

(٧) «عليه» ساقطة من ح.

مطلقاً. قال الضحاك ـ رضي الله عنه ـ: أظهر الله من نور الحجب مثل منخر ثور[١]، وقال عبدالله بن سلام[٢]، وكعب الأحبار[٣] ـ رضي الله عنهما ـ: ما تجلىٰ من عظمة الله للجبل إلا مثل سم الخياط حتىٰ صار دكاً.

وقال السدي ـ رحمه الله ـ: ما تجلىٰ إلا قدر الخصر[٤].

وفي صحيح[٥] الحاكم ـ من حديث ثابت[٦] ـ عن أنس ﷺ: «أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية، وقال: هكذا ـ ووضع الإبهام علىٰ المفصل الأعلىٰ

---

(١) انظر: هذه الأقوال في تفسير البغوي ٣/ ٢٧٧ و ٢٧٨.

(٢) هو عبدالله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ثم الأنصاري كان من بني قينقاع، قيل أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة وقيل قبل وفاته بعامين، مات بالمدينة سنة ٤٣، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٨٠، ٨١، وتقريب التهذيب ١/ ٤٢٢.

(٣) هو كعب بن ماتع الحميري، تابعي مخضرم أسلم في عهد أبي بكر وقيل عمر، وكان قبل ذلك على دين اليهود، مات في خلافة عثمان ـ رضي الله عنهما ـ.
انظر: تهذيب التهذيب ٨/ ٤٣٨ - ٤٤٠ (٧٩٣)، وتقريب التهذيب ٢/ ١٣٥ (٥٣).

(٤) في أ زيادة «مثل» وهي غير موجودة في كلام السدي.

(٥) في ط «مستدرك» والحاكم هو محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه أبو عبدالله بن البَيِّع النيسابوري الشافعي صاحب المستدرك على الصحيحين توفي ـ رحمه الله ـ سنة ٤٠٥ هـ.
انظر سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٦٢ - ١٧٧ (١٠٠) شذرات الذهب ٢/ ١٧٦ و ١٧٧.

(٦) في ط زيادة (البناني) وهو ثابت بن أسلم أبو محمد البناني البصري، مات ـ رحمه الله ـ سنة ١٢٣ وعمره ٨٦ سنة. انظر: التاريخ الكبير ٢/ ١٥٩ و ١٦٠، وحلية الأولياء ٢/ ٣١٨ - ٣٣٣، وصفة الصفوة ٣/ ٢٦٠ - ٢٦٣.

من الخنصر – فساخ الجبل» [1] وإسناده على شرط مسلم ، ولما حدث به حميد[2] عن ثابت استعظمه بعض أصحابه وقال : تحدث بمثل هذا [3] فضرب بيده في صدره ، وقال : يحدث به ثابت عن أنس عن رسول الله ﷺ وتنكره أنت أَوَلاَ [4] أحدث به؟

فإذا شهد لك المخدوعون بأنك محجوب عن ترهاتهم وخيالاتهم ، فتلك الشهادة لك بالاستقامة ، فلا تستوحش منها. وبالله التوفيق. وهو المستعان.

---

(١) هذا الحديث أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٥٤٥ وقال : وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي في الكامل وأبو الشيخ والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في كتاب الرؤية.
والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٧٧ وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، والترمذي في السنن كتاب التفسير ، باب ومن سورة الأعراف ٥/ ٢٦٥ (٣٠٧٤) وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة ، وفي إسناد آخر بنحوه قال هذا حديث حسن ٥/ ٢٦٦.

(٢) هو حميد بن ربيعة القرشي الشامي ، سمع المقدام وأبا أمامة وروى عنه محمد بن حرب.
انظر : التاريخ الكبير ٢/ ٣٤٨ ، والجرح والتعديل ٣/ ٢٢١.

(٣) في البقية «تحدث بهذا» وقد أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٥٤٥ بلفظ «يا أبا محمد – أي ثابت البناني – ما تريد إلى هذا؟ فضرب في صدره وقال : من أنت يا حميد ، وما أنت يا حميد؟! يحدثني أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ وتقول أنت ما تريد إلى هذا».

(٤) في البقية عدا س «ولا أحدث به».

فصل

وأما «طُمَأنِينَةُ الجَمعِ إِلَىٰ البَقَاءِ» فمشهد شريف فاضل، وهو مشهد الكمّل فإن حضرة الجمع تعفي الآثار(١)، وتمحو الأغيار(٢)، وتحول بين الشاهد وبين رؤية [القلب](٣) الخلقَ، فيرىٰ الحق سبحانه وحده قائماً بذاته ويرىٰ(٤) كل شيء قائم به، متوحداً في كثرة(٥) أسمائه وأفعاله وصفاته، ولا يرىٰ معه غيره(٦)، عكس حال من(٧) يشهد غيره ولا يشهده، وليس الشأن في هذا الشهود، فإن صاحبه في مقام الفناء. فإن لم ينتقل منه إلىٰ مقام البقاء وإلا انقطع انقطاعاً كلّياً، ففي هذا المقام: إن لم يطمئن إلىٰ حصول البقاء وإلا عطل الأمر، وخلع(٨) رَبقةَ العبودية من عنقه، فإذا اطمأن إلىٰ البقاء طمأنينة من

---

(١) عفا: بمعنى كثر، والأكثر على أن معناها خفي وانمحى. انظر: المصباح المنير ٤١٩، وتفسير غريب الحديث ١٦٩.

(٢) الأغيار: غير بمعنى سوى، والجمع أغيار. والمقصود هنا هو التعلق بغير الله من الأصحاب والأوطان ونحوهما. انظر: كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٣٩٣، مختار الصحاح ٤٨٦، مدارج السالكين ٢/ ٣٧٣ و٣/ ٧٦.

(٣) الزيادة من الجميع عدا ج، س، ق، م، وفي ط بعدها «للخلق».

(٤) «يرى» ساقطة من ب، ق.

(٥) في غ: «وصفاته وأفعاله».

(٦) في ط زيادة: «ولا يشهده».

(٧) في ب، ح، أ، غ: «من يشهده وليس» وفي ط سقط: «ولا يشهده».

(٨) قال ابن الأثير: مفارقة الجماعة ترك السنة واتباع البدعة، والربقة في الأصل عروة في حبل

يعلم أنه لابد له منه - وإن لم يصحبه وإلا فسد وهلك - كان هذا من طمأنينة الجمع إلىٰ البقاء. [والله أعلم][1].

فصل

وأما «**طُمَأنِينَةُ المَقَامِ إِلىٰ نُورِ الأَزَلِ**».

فيريد به: طمأنينة مقامه إلىٰ السابقة التي سبق بها في[2] الأزل، فلا تتغير[3] ولا تتبدل ولهذا قال» طمأنينة المقام «ولم يقل: طمأنينة الحال، فإن الحال يزول ويحول، ولو لم يحل لما سمي حالاً، بخلاف المقام.

فإذا اطمأن إلىٰ السابقة[4]، والحسنىٰ التي سبقت[5] له من الله في الأزل، كان هذا طمأنينة المقام إلىٰ الأزل، وهذا هو شهود أهل البقاء بعد الفناء. [والله أعلم][6].

يجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها، فاستعارها للإسلام، يعني ما يشد به المسلم نفسه من عرى الإسلام: أي حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه. النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٩٠، وانظر: مختار الصحاح ٢٣١.

(١) الزيادة من الجميع عدا م، س.

(٢) «في» ساقطة من الجميع.

(٣) في ج: «فلا يتغير ولا يتبدل».

(٤) «الواو» ساقطة من غ.

(٥) «له» ساقطة من ق.

(٦) الزيادة من الجميع عدا س، م.

فصل

[منزلة الهمة]

منزلة الهمة ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة: «الهمّة».

وقد صدرها صاحب المنازل بقوله تعالىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، وقد تقدم: أنه صدر بها باب «الأدب» و[قد] (١) ذكرنا وجهه.

وأما وجه تصدير «الهمة» بها: فهو الإشارة إلىٰ أن همته ﷺ ماتعلقت بسوىٰ مشهوده، وما أقيم فيه، ولو تجاوزته همته: لتبعها بصره.

و«الهمة» فعلة من الهم، وهو مبدأ الإرادة، ولكن خصوها بنهاية الإرادة فالهم مبدؤها، والهِمَّةُ نهايتها (٢).

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: في بعض الآثار الإلهية [يقول الله تعالىٰ] (٣) «إني لا أنظر إلىٰ كلام الحكيم. وإنما أنظر إلىٰ همته».

---

(١) الزيادة من ب، وانظر المدارج ٢/ ٣٨٢.

(٢) قال في التعريفات ٣١٣: «الهم: هو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل من خير أو شر. والهمة توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال له أو لغيرة»، وانظر تفسير غريب الحديث ٢٥٢، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٧١ و ٧٢ و٣٠٤ و ٣٠٥.

(٣) الزيادة من البقية عدا س، م، ج، ق، والأثر ذكره أبو نعيم في الحلية ٥/ ٢١٣ بلفظ: «يقول إني لست كلام الحكيم أتقبل إنما أتقبل همه وعمله...»، والدارمي في السنن باب

قال: والعامة تقول: قيمة كل امرئ ما يحسن. والخاصة تقول: قيمة كل امرئ ما يطلب، يريد: أن قيمة المرء(١) همته ومطلبه.

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ: «**الهِمَّةُ: مَا يَمْلِكُ الانبِعَاثَ لِلمَقصُودِ صِرفاً**(٢). **لاَ يَتَمَالَكُ صَاحِبَهَا، وَلاَ يَلتَفِتُ عَنهَا**».

قوله: «**يَملِكُ الانبِعَاثَ لِلمَقصُودِ**» أي يستولي عليه كاستيلاء المالك [على المملوك](٣) و «صرفاً» أي خالصاً صرفاً.

والمراد: أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلباً خالصاً صادقاً(٤) محضاً فتلك هي الهمة العالية، التي «لا يتمالك صاحبها» أي لا يقدر على المهلة(٥). ولا يتمالك صبره، لغلبة الهمة العالية – التي لا يتمالك صاحبها(٦) – عليه وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود «**وَلاَ يَلتَفِتُ عَنهَا**» إلى ما سوى أحكامها، وصاحب هذه الهمة: سريع وصوله وظفره بمطلوبه، ما لم تعقه

العمل بالعلم وحسن النية فيه ١/ ٩١ ولفظه: «ولكن أتقبل همه وهواه...».

(١) في م: «قيمة كل امرء».

(٢) سقط من م إلى قوله «أي يستولي» وانظر: المنازل ٨٦.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) في ط: «صادقاً خالصاً».

(٥) في س: «الملكة».

(٦) في البقية عدا س، ق، ج، م: «سلطانه عليه» وجملة «العالية التي لا يتمالك صاحبها» ساقطة من الجميع.

العوائق (١) ، وتقطعه العلائق (٢) [والله أعلم] (٣).

فصـــل

درجات الهمة

قال : «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : هِمَّةٌ تَصُونُ القَلْبَ(٤) عَن وَحشَةِ الرَّغبَةِ فِي الفَانِي ، وَتَحمِلُهُ عَلَىٰ الرَّغبَةِ فِي البَاقِي ، وَتُصَفِّيهِ مِن كَدَرِ التَّوَانِي».

الدرجة الأولى

«الفاني» الدنيا وما عليها (٥) ، أي يزهد القلب فيها وفي أهلها ، وسمىٰ الرغبة فيها «وحشة» ؛ لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها ، وقلوب الزاهدين فيها.

أما الراغبون فيها (٦) : فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم(٧) ، إذ فاتها ما خلقت له ، فهي في وحشة لفواته.

وأما الزاهدون فيها : فإنهم يرونها موحشة لهم ؛ لأنها تحول بينهم وبين

---

(١) في غ ، ح ، ج «الهمة» والعوائق قد سبق التعريف بها. انظر : الفهرس

(٢) العلائق : قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه الفوائد ١٥٤ : «وأما العلائق فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها...» وانظر : اللمع ٤٣٨.

(٣) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٤) في المنازل «من خسة الرغبة» وانظر قوله ٨٦.

(٥) في غ ، أ ، ح ، ب «أن» وس «أي تزهيد».

(٦) «أرواحهم» ساقطة من م.

(٧) في غ ، ح : «أجسادهم».

مطلوبهم، ولا شيء أوحش عند القلب ممن(١) يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه ولذلك(٢) كان من نازع الناس أموالهم، وطلبها منهم: أوحش شيء إليهم وأبغضه.

وأيضاً فالزاهدون فيها : إنما ينظرون إليها بالبصائر ، والراغبون : [ينظرون إليها](٣) بالأبصار ، فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب. كما قيل :

وإذا أَفاقَ القلبُ واندَمَل الهوىٰ رَأَت القُلوبُ ، ولم تَرَ الأبصارُ

وكذلك هذه الهمة تحمله علىٰ الرغبة في الباقي لذاته، وهو الحق سبحانه، والباقي بإبقائه وهو(٤) الدار الآخرة.

«وَتُصفِّيهِ مِن كَدَرِ التَّوَانِي» أي تخلصه وتمحصه من أوساخ الفتور والتواني ، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط. [والله أعلم](٥).

فصل

الدرجة الثانية قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : هِمَّةٌ تُورِثُ أَنَفَةً مِن المُبَالاَةِ بِالعِلَلِ ، وَالنُّزولِ عَلَىٰ العَمَلِ ، وَالثِّقَةِ بِالأَمَلِ»(٦).

---

(١) في ط : «مما».

(٢) في ج : «وكذلك».

(٣) الزيادة من الجميع عدا س.

(٤) في ط بدون «الواو».

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٦) منازل السائرين ٨٧.

«العلل» ههنا [١] : هي علل الأعمال من رؤيتها ، أو رؤية ثمراتها وإراداتها [٢] أو نحو ذلك [٣] ، فإنها عندهم علل.

فصاحب هذه الهمة : يأنف علىٰ همته ، وقلبه من أن يبالي بالعلل ، فإن همته فوق ذلك ، فمبالاته بها ، وفكرته فيها : نزول من الهمة.

وعدم هذه المبالاة : إما لأن العلل لم تحصل له ؛ لأن علو همته حال بينه وبينها ، فلا يبالي بما لم يحصل له ، وإما لأن همته [٤] وسعت مطلبه [٥] ، وعلوه يأتي علىٰ تلك العلل [٦] ، ويستأصلها ، فإنه إذا علق همته بما هو أعلىٰ منها تضمنتها الهمة العالية ، فاندرج حكمها في حكم الهمة العالية ، وهذا موضع غريب عزيز جداً ، وما أدري قصده الشيخ أو لا؟

وأما أنفته [٧] من النزول علىٰ العمل : فكلام يحتاج إلىٰ تقييد وتبيين ، وهو

---

(١) العلة : هي ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً مؤثراً فيه.

التعريفات ١٩٩ ، وانظر : معجم اصطلاحات الصوفية ، ١٤٨.

(٢) في البقية عدا أ ، ب : «وإراتها»

(٣) في البقية عدا عدا س : «بالواو».

(٤) «همته» ساقطة من م.

(٥) في البقية عدا س ، م ، ق «مطلوبه».

(٦) في غ زيادة «الهمم» وهي غير مناسبة.

(٧) أنف : يأتي على عدة معاني منها الاستنكاف والاستكبار والكراهة والتنزه. انظر : المصباح المنير ٢٦.

أن العالي الهمة مطلبه العالي فوق مطلب العمال والعباد[١] ، وأعلىٰ منه ، فهو يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي ، إلىٰ مجرد العمل والعبادة ، دون السفر بالقلب إلىٰ الله ، ليحصل له ويفوز به ، فإنه طالب لربه تعالىٰ طلباً تاماً بكل معنىٰ واعتبار في عمله ، وعبادته ومناجاته ، ونومه ويقظته ، وحركته وسكونه ، وعزلته وخلطته ، وسائر أحواله ، فقد انصبغ قلبه بالتوجه إلىٰ الله أيَّما صبغة.

وهذا لأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة ، فهم لا يقنعون بمجرد رسوم الأعمال ، ولا بالاقتصار علىٰ الطلب حال العمل فقط.

وأما أنفته من الثقة بالأمل : فإن الثقة [بالأمل][٢] توجب الفتور والتواني وصاحب هذه الهمة : ليس من أهل ذاك[٣] ، كيف؟ وهو طائر لا سائر. [والله أعلم][٤].

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : هِمَّةٌ تَتَصَاعَدُ عَنِ الأَحوَالِ وَالمُعَامَلاَتِ**[٥] ، **وَتزرِي بِالأَعوَاضِ وَالدَّرَجَاتِ ، وَتَنحُو عَنِ النُّعُوتِ نَحوَ الذَّاتِ**»[٦].

أي هذه الهمة أعلىٰ من أن يتعلق صاحبها بالأحوال التي هي آثار الأعمال

---

(١) في م : «العباد والعمال».

(٢) الزيادة من ق.

(٣) في ط : «ذلك»

(٤) الزيادة من الجميع عدا م ، س.

(٥) في ج «الأعمال» وفي المنازل ٨٧ «الأحوال والمقامات».

(٦) في ج : «اللذات» وم «إلى الذات».

والواردات ، أو يتعلق بالمعاملات ، وليس المراد تعطيلها ؛ بل القيام بها مع عدم[1] الالتفات إليها ، والتعلق بها.

ووجه صعود هذه الهمة[2] عن هذا : ما ذكره من قوله : «وَتزرِي بِالأَعوَاضِ وَالدَّرَجَاتِ ، وَتَنحُو[3] عَنِ النُّعوُتِ[4] نَحو الذَّاتِ» أي صاحبها لا يقف عند عوض ولا درجة[5] ، فإن ذلك نزول من همته ، ومطلبه أعلىٰ من ذلك ، فإن صاحب هذه الهمة قد قصر[6] همته علىٰ المطلب الأعلىٰ ، الذي لا شيء أعلىٰ منه ، والأعواض والدرجات دونه ، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عوض ودرجة عالية.

وأما نحوها «نَحْوَ الذَّاتِ» فيريد به : أن صاحبها[7] لا يقتصر علىٰ شهود الأفعال ولا الأسماء[8] والصفات ؛ بل [علىٰ طلب][9] الذات الجامعة لمتفرقات الأسماء والصفات والأفعال. كما تقدم ، والله أعلم.

---

(١) «عدم» ساقطة من م.

(٢) في ط «المهمه» وفي أ ، غ ، ب «الهمة من».

(٣) المثبت كما في غ ، ب ، ج ، ط وفي البقية : «وتنجو».

(٤) في س ، ب ، م : «إلى الذات».

(٥) في ق : «وذلك».

(٦) في س : «قصرت».

(٧) في غ ، ح «صاحبه».

(٨) «لا» ساقطة من ط.

(٩) الزيادة من ج.

فصل

[منزلة المحبة]

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «المحبة» [١]. منزلة المحبة

وهي المنزلة التي تنافس فيها المتنافسون[٢] ، وإليها شخص العاملون ، وإلىٰ علمها شمر السابقون، وعليها تفانىٰ المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وقرة العيون ، وهي الحياة التي من حُرِمَها فهو من جملة الأموات ، والنورُ الذي من فقده ففي [٣] بحار الظلمات ، والشفاءُ الذي من عُدمَه حلَّت بقلبه جميعُ الأسقام ، واللذةُ التي من لم يظفر بها فعيشهُ كله هموم وآلام.

وهي روح الإيمان والأعمال ، والمقامات والأحوال ، التي متىٰ خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه ، تحمل أثقال السائرين إلىٰ بلاد لم يكونوا[٤] إلا بشق الأنفس بالغيها ، وتوصلهم إلىٰ منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها ،

(١) في هامش الأصل «بلغ والحمد لله» وفي هامش أ ، غ «قسم الأحوال عشرة المحبة ، والغيرة ، والشوق ، والقلق ، والعطش ، والوجد ، والدهش ، والهيمان ، والبرق ، والذو»

(٢) في ط : «فيها تنافس» وفي البقية عدا ب «فيها يتنافس المتنافسون».

(٣) «من» ساقطة من ج ، وفي ط : «من فقده فهو في».

(٤) في م زيادة «بالغيه» وهي أيضاً في س ولكنها مطموسة.

وتبوِّئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولا هي[١] داخليها، وهي مطايا القوم التي[٢] مسراهم في[٣] ظهورها دائماً إلىٰ الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلىٰ منازلهم الأولىٰ من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضىٰ [الله] [٤] يوم قدر مقادير[٥] الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة: أن المرء مع من أحب، فيا لها [من] [٦] نعمة علىٰ المحبين سابغة.

تالله لقد سبق القوم السعاة، وهم [علىٰ] [٧] ظهور الفرش نائمون، وقد [٨] تقدموا الركب بمراحل، وهم في سيرهم [٩] واقفون.

مَن لـي بمثل سَـيرِك المدَلَّلِ تمشـي رُويداً وتجِـي في الأوَّلِ[١٠]

---

(١) في ط «لولاها».

(٢) في غ زيادة «هي» وهي غير ملائمة لقرب الضمير.

(٣) في ط «على ظهورها» وبعدها «دائماً» ساقطة من ق.

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) «مقادير» ساقطة من ح، ب.

(٦) الزيادة من ب، م وهي في ط.

(٧) الزيادة من الجميع عدا ب.

(٨) في س: «ولقد».

(٩) في ق: «في مسيرهم».

(١٠) ذكره المؤلف في كتابه مفتاح دار السعادة ١/ ٨٢.

أجابوا مؤذن[١] الشوق إذ نادىٰ[٢] بهم : حي علىٰ الفلاح. وبذلوا أنفسهم[٣] في طلب الوصول إلىٰ محبوبهم ، وكان بذلهم[٤] بالرضىٰ والسماح ، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول مسراهم[٥]، وشكروا مولاهم علىٰ ما أعطاهم ، وإنما يحمد القوم السُّرَىٰ عند الصباح[٦].

فحيهلاً إن كنتَ ذا همَّةٍ فقد ... حَدَا بك حادي الشوق فاطْوِ
وقل لمنادي حبهم ورضاهم ... إذا ما دعا «لبَّيك» ألفاً كواملاً
[ولاتنظر الأطلالَ من دونهمْ فإن ... نظرتَ إلىٰ الأطلال عُدْن حوائلا][٧]
ولا تنظر بالسير رفقةَ قاعد ... ودعْه فإنَّ الشَّوقَ يكفيك حاملا
وخذ منهمُ زاداً إليهمْ وسِرْ على ... طريق الهُدَىٰ والفقرِ تصبحُ واصلاً
وأَحيِ بذكراهمْ سراك إذا وَنَتْ ... رِكَابُك ، فالذِّكْرىٰ تُعيدُك عاملاً

(١) في ط ، أ ، ب «منادي».

(٢) في غ ، ح : «ناداهم».

(٣) في البقية عدا س ، م ، ج : «نفوسهم».

(٤) «بذلهم» ساقطة من ق.

(٥) في ط : «سراهم» والزيادة من الجميع عدا س.

(٦) لعل قائل هذه الأبيات هو ابن القيم ـ رحمه الله ـ ، وقد ذكرها بتمامها في كتابه زاد المعاد ٣/ ٧٥.

(٧) الزيادة من الجميع.

وإمـا تخـافن(١) الكَـلالَ فقُـلْ لهـا ... أمامك وردُ الوَصْل ، فابْغِ المناهلا
وخُذْ قبساً من نُورهم ثم(٢) سِرْ به ... فنـورهُمُ يهـديك لـيس المشاعلا
وحَـيّ عـلىٰ وادي الأراك فَقِـلْ بـه ... عـساك تَـراهُم فيـه إن كنـتَ قـائلا
وإلا (٣) ففـي نُعـمانَ عنـد معـرف الـ ... أحبَّـةِ فـاطلبهم إذا كنـتَ سـائلاً
وإلا ففـــي جمـــعٍ بليلتـــه فـــإن ... تَفُتْ فمتىٰ يا ويح من كـان غـافلا
وحـيَّ عـلىٰ جنَّات عـدن(٤) بقـربِهِم ... منازِلُـك الأولىٰ بهـا كنـت نـازلاً
ولكـن سباك الكاشحون(٥) لأجـل ذا ... وقفت علىٰ الأطلال تبكي المنازلا
[وحـيَّ عـلىٰ يـوم المزيـد بجنـة الـ ... ـخلود فجُدْ بالنفس إن كنتَ باذلا](٦)
فـدعها رسـوماً دارسـات فـما بهـا ... مقيـلٌ وجَاوِزْهـا (٧) فليست منازلاً
رسومٌ عَفَتْ(٨) يفنىٰ بها الخلقُ كـم بهـا ... قتيـل وكـم فيهـا لـذا الخلـق قـاتلاً
وخُذْ يَمْنةً عنهـا علىٰ المنهج الـذي ... عليـه سَرَىٰ وفـدُ المحبـة آهــلا
وقُلْ سَاعِدِيٰ يـا نفسُ بالـصبر سـاعةً ... فعنـد اللقـا ذا الكـد يـصبح زائـلاً

---

(١) في م : «من الكلام».

(٢) في أ ، ب : «فسر به».

(٣) هذا البيت ساقط من غ ، ح.

(٤) في ج : «فقربهم» وفي ح «فإما» وفي زاد المعاد ٣/ ٧٥ «فإنها».

(٥) الكاشح : هو الذي يضمر لك العداوة. انظر : مختار الصحاح ٥٧٢.

(٦) الزيادة من س ، وهي كما في زاد المعاد.

(٧) في الأصل : «بنيانها» وهي غير ملائمة والمثبت كما في البقية.

(٨) في ط : «فجاوزها».

فما هي إلا ساعةٌ ثم تنقضي ويصبحُ ذو الأحزان فَرْحَانَ جاذلاً

أول نقده من أثمان المحبة : بذل الروح ، فما للمفلس الجبان [البخيل][1] وسومها؟

بدم المحبِّ يُباعُ وَصْلهُمُ[2] فمن الذي يبتاع بالثمن؟

تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فينفقها[3] بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق مَنْ يزيد ، فلم يرض لها بثمن دون بذل[4] النفوس ، فتأخَّر البطالون ، وقام المحبون ينظرون ، أيهم يصلح أن يكون ثمناً؟ فدارت السلعة بينهم ، ووقعت في يد[5] ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة : ٥٤].

لما كثر المدَّعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة علىٰ صحة الدعوىٰ ، فلو يُعطَىٰ الناس بدعواهم لادعىٰ الخليُّ[6] حرقة الشجيِّ ، فتنوع المدَّعون في

---

(١) الزيادة من الجميع عدا س ، م ، ب.

(٢) في س «سل وصلهم» وقد ذكره المؤلف في كتابه بدائع الفوائد ٣/ ٢١٦.

(٣) في ط ، ب : «فيبيعها» ، ح «فيبتاعها» وغ «فيغتها».

(٤) «بذل» ساقطة من م.

(٥) في غ : «أيدي».

(٦) الخلي : هو الخالي من الهم. وهو ضد الشجي. والشجو : هوالهم والحزن. والشجا : هو ما ينشب في الحلق من عظم وغيره. انظر : مختار الصحاح ص١٨٩ و ٣٣٠ ، والنهاية في غريب الحديث ٢/ ٧٤ و ٤٤٧ ، وروضة المحبين ص٢٩ و ٣٠.

الشهود ، فقيل : لا تثبت[1] هذه الدعوىٰ إلا ببينة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١].

فتأخر الخلق كلهم ، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه ، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة : ٥٤].

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون ، فقيل لهم : إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم ، فهلموا إلىٰ بيعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة : ١١١].

فلما عرفوا عظمة المشترىٰ ، وفضل الثمن ، وجلالة من جرىٰ علىٰ يديه عقد التبايع : عرفوا قدر السلعة ، وأن لها شأناً ، فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس ، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي[2] ، من غير ثبوت خيار ، وقالوا والله لا نقيلك ولا نستقيلك.

فلما تم العقد وسلموا المبيع ، قيل لهم : مذ صارت نفوسكم وأموالكم[3] لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت[4] ، وأضعافها

---

(١) في البقية عدا س ، م «لا تقبل».

(٢) انظر : زاد المعاد ٣/ ٢٨٨ - ٢٩٢.

(٣) «لنا» ساقطة من غ.

(٤) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : «تأمل قصة جابر بن عبدالله ، وقد اشترى منه ﷺ بعيره ، ثم وفاه

معها[1] ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران ١٦٩ و ١٧٠].

إذا غرست شجرة المحبة في القلب ، وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار ، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها ، أصلها ثابت في قرار القلب وفرعها متصل بسدرة المنتهىٰ.

لا يزال[2] سعي المحب صاعداً إلىٰ حبيبه لا يحجبه دونه شيء ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ ﴾ [فاطر : ١٠].

فصل

لا تحد[3] المحبة بحد أوضح منها ، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء ، فحدها وجودها ، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة.

وإنما[4] يتكلم الناس في أسبابها وواجباتها ، وعلاماتها وشواهدها ،

الثمن وزاده ، ورد عليه البعير ، وكان أبوه قد قتل مع النبي ﷺ في وقعة أحد...» زاد المعاد ٣/ ٧٤ ، وقد ذكر ما نقله هنا.

(١) في ط : «معاً».

(٢) «لا يزال» ساقطة من م.

(٣) في ب «ثم المحبة لا تحد بحد».

(٤) انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٣٠-١٣٢ ، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص٩٨ و ٣٠٧ و ٣٠٨ ، وإحياء علوم الدين ٥/ ٤٥٠ - ٤٧١.

وثمراتها وأحكامها ، فحدودهم ورسومهم دارت علىٰ هذه الستة ، وتنوعت بهم العبارات ، وكثرت الإشارات ، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله ، وملكه للعبارة ، وهذه المادة تدور في اللغة علىٰ خمسة أشياء.

أحدها : الصفاء والبياض ، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها : حبب الأسنان.

الثاني : العلو والظهور. ومنه حبب الماء وحبابه [1] ، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد ، وحبب الكأس منه.

الثالث : اللزوم والثبات ، ومنه : حب البعير وأحب ، إذا برك فلم [2] يقم.

قال الشاعر :

حلت عليه بالفلاة ضرباً ... ضرب بعير السوء إذ أحبا [3]

الرابع : اللب ، ومنه حبة القلب ، للبّه وداخله ، ومنه : الحبة [4] لواحدة الحبوب إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس : الحفظ والإمساك. ومنه حِبُ الماء [5] للوعاء الذي يحفظ فيه

---

(١) «وحبابه» ساقطة من ج ، وبعدها «وهو» وفي ق «وهذا».

(٢) في ط : «فلم».

(٣) القائل هو أبو محمد الفقعسي. انظر : لسان العرب ١/ ٢٩٢ ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ٩/ ٥٦ ، وفيه «بالقفيل» بدلاً من «بالفلات».

(٤) «الحبة» ساقطة من غ ، أ ، ب ، ح.

(٥) سقط من ج ما يقارب ثلاث ورقات أي من هنا إلى ما بعد بداية الفصل الثالث - بعد هذا الفصل - عند قوله «وأن المنكرين لذلك قد أنكروا خاصة الخلق والأمر».

ويمسكه ، وفيه معنىٰ الثبوت أيضاً[١].

ولا ريب أن هذه الخمسة[٢] من لوازم المحبة ، فإنها صفاء المودة ، وهيجان إرادات القلوب[٣] ، وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد ، وثبوت إرادة القلب للمحبوب ، ولزومها لزوماً لا يفارق[٤] ، ولإعطاء المحب محبوبه لبّه ، وأشرف ما عنده ، وهو قلبه ، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه علىٰ محبوبه.

فاجتمعت فيها المعاني الخمسة ، ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمىٰ[٥] غاية المناسبة « الحاء » التي هي من أقصىٰ الحلق ، و«الباء» الشفهية التي هي نهايته.

فللحاء الابتداء ، وللباء الانتهاء ، وهذا شأن المحبة وتعلقها بالمحبوب ، فإن ابتداءها منه وانتهاءها إليه. وقالوا في فعله[٦] : حَبَّه وأَحَبَّه. قال الشاعر :

---

(١) انظر : ما ذكر المؤلف وزيادة في الرسالة القشيرية ٣٢٠ ، وانظر بصائر ذوي التمييز ٢/ ٤١٦ حيث نقل كلام المؤلف.

(٢) «الخمسة» ساقطة من م.

(٣) في البقية «القلب» وفي ط : «القلب للمحبوب».

(٤) في ط : «لا تفارقه».

(٥) «للمسمى» ساقطة من م.

(٦) في البقية عدا س ، ج ، م ، غ «في فعلها».

أحب أباثروان مـن حب تمره ولـم تعلم أن الرفق بالجار أرفـق[١]

فوالله لولا تمـره ما حبـبتـه ولا كان أدنىٰ من عبيد ومشـرق[٢]

ثم اقتصروا علىٰ اسم الفاعل من «أحب» فقالوا : «محب» ، ولم يقولوا : «حاب» ، واقتصروا علىٰ اسم المفعول من «حب» فقالوا : «محبوب» ، ولم يقولوا : «محب» إلا قليلاً. كما قال الشاعر[٣] :

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلـة المحب المكـرم

وأعطوا «الحب» حركة الضم التي هي أشد الحركات وأقواها ، مطابقة لشدة حركة مسماه وقوتها ، وأعطوا «الحب» وهو المحبوب : حركة الكسر لخفتها عن الضمة ، وخفة المحبوب ، وذكره[٤] علىٰ قلوبهم وألسنتهم ، مع[٥] إعطائه حكم نظائره ، كنِهب بمعنىٰ منهوب ، وذِبح للمذبوح[٦] ، وحِمل

---

(١) هذا البيت ساقط من أ ، غ ، ب ، م ، س ، ق.

(٢) في هامش الأصل «هما ولدا هذا الشاعر والبيت مقوي عند أبي عمرو وهو أن تختلف حركات الرَوِي وهو حرف ما بعد القافية» وهما لرؤبة وقيل لعيلان بن شجاع النهشلي ، انظر : مغني اللبيب ٤٧٣ ، وكتاب الأمثال لابن سلام ٢٣٨ ، وروضة المحبين ٣٤.

(٣) في غ «كما قيل» والقائل هو عنترة. انظر : ديوان عنترة للخطيب التبريزي ١٥٣ ، وانظر بصائر ذوي التمييز ٢/ ٤١٧.

(٤) في ط زيادة «خفة».

(٥) في ط «من».

(٦) في ط : «بمعنى مذبوح».

للمحمول ، بخلاف الحمل - الذي هو مصدر - لخفته(١) ، ثم ألحقوا به حملاً لا يشق علىٰ حامله حمله ، كحمل الشجرة والولد.

فتأمل هذا اللطف والمطابقة والمناسبة العجيبة بين الألفاظ والمعاني ، تطلعك علىٰ قدر هذه اللغة ، وأن لها شأناً ليس لسائر اللغات.

فصل(٢)

في ذكر رسوم وحدود قيلت في المحبة ، بحسب آثارها وشواهدها ، والكلام علىٰ ما يحتاج إلىٰ الكلام منها(٣).

الأول(٤) : قيل : المحبة الميل الدائم ، بالقلب الهائم.

وهذا الحد لا تمييز فيه بين المحبة الخاصة والمشتركة ، والصحيحة والمعلولة.

الثاني : إيثار المحبوب ، علىٰ جميع المصحوب.

وهذا حكم من أحكام المحبة وأثر من آثارها.

الثالث : موافقة الحبيب ، في المشهد والمغيب(٥).

---

(١) في غ ، م «الخفة».

(٢) في هامش س : «بلغ مقابلة».

(٣) في ط : « إليه منها».

(٤) المثبت كما في ط و س لمناسبة ما بعده ، وفي البقية «الأولى».

(٥) في م : «المغيبة».

وهذا أيضاً [من] (١) موجبها ومقتضاها ، وهو أكمل من الحدين قبله ، فإنه يتناول المحبة الصادقة الصحيحة خاصة ، بخلاف مجرد الميل والإيثار بالإرادة ، فإنه إن (٢) لم يصحبه (٣) موافقة فمحبته معلولة.

الرابع : محو المحب (٤) لصفاته ، وإثبات المحبوب لذاته.

وهذا أيضاً من أحكام الفناء في المحبة : أن تمحىٰ (٥) صفات المحب ، وتفنىٰ في صفات محبوبه وذاته ، وهذا يستدعي بياناً أتم من هذا ، لا يدركه إلا من أفناه وارد المحبة عنه ، وأخذ منه.

الخامس : مواطأة القلب لمرادات المحبوب.

وهذا أيضاً من موجباتها وأحكامها ، «والمواطأة» الموافقة لمرادات المحبوب وأوامره ومراضيه.

السادس : خوف ترك الحرم (٦) ، مع إقامة الخدمة.

---

(١) الزيادة من غ.

(٢) «إن» ساقطة من ق.

(٣) في البقية عدا س : «تصحبه».

(٤) في ط «الحب».

(٥) في ط : «تنمحي» وفي البقية عدا م : «تمتحي» وفي الرسالة القشيرية ٣٢١ «محو المحب لصفاته وإثبات المحبوب بذاته».

(٦) في م : «الحركة».

وهذا أيضاً من أعلامها [١] وشواهدها وآثارها : أن يقوم [٢] بالخدمة كما ينبغي ، مع خوفه من ترك الحرمة والتعظيم.

السابع : استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك. وهو[٣] لأبي يزيد ، وهو أيضاً من أحكامها وموجباتها وشواهدها ، والمحب الصادق لو بذل لمحبوبه جميع ما يقدر عليه لاستقلّه واستحيىٰ منه ، ولو ناله من محبوبه أيسر شيء لاستكثره واستعظمه.

الثامن : استكثار القليل من جنايتك ، واستقلال الكثير من طاعتك ، وهو قريب من [٤] الذي قبله ؛ لكنه مخصوص بما من المحبِّ.

التاسع : معانقة الطاعة ، ومباينة المخالفة.

وهو لسهل بن عبدالله ، وهو أيضاً حكم المحبة وموجبها[٥].

العاشر : دخول صفات المحبوب علىٰ البدل من صفات المحب. وهو للجنيد. وفيه غموض ، ومراده : [أن][٦] استيلاء ذكر المحبوب وصفاته

---

(١) في أ : «أعلاها».

(٢) في أ ، غ : «أن يقدم».

(٣) في البقية عدا س ، م : «وهذا قول» ، وانظر نسبته إليه في الرسالة القشيرية ٣٢١.

(٤) في الأصل وس : «وهو قريب من الأول» والمثبت كما في البقية لأنه أدق في التعبير.

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ٣٢١ ففيها الأقوال منسوبة لقائليها كما ذكرها المؤلف هنا.

(٦) الزيادة من البقية عدا س ، غ ، ق ، م.

وأسمائه علىٰ قلب المحب ، حتىٰ لا يكون الغالب عليه إلا ذلك. ولا يكون شعوره وإحساسه في الغالب إلا بها ، فيصير شعوره وإحساسه بها[1] بدلاً من شعوره وإحساسه بصفات نفسه وقد يحتمل معنىٰ أشرف من هذا. وهو : تبدل صفات المحب الذميمة - التي لا توافق صفات المحبوب - [2] بالصفات الجميلة المحبوبة التي توافق صفاته. والله أعلم.

الحادي عشر : أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقىٰ لك منك شيء.

وهو لأبي عبدالله القرشي[3] ، وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها ، والمراد : أن تهب إرادتك[4] وعزماتك وأفعالك ونفسك وما لك ووقتك لمن تحبه ، وتجعلها حبساً في مرضاته ومحابه ، فلا تأخذ منها لنفسك[5] إلا ما أعطاك فتأخذه منه له.

الثاني عشر : أن تمحو من القلب ما سوىٰ المحبوب ، وهو للشبلي[6] ،

---

(١) «بها» ساقطة من الجميع عدا س ، وسقط من ق ، م «بدلاً من شعوره وإحساسه».

(٢) «التي» ساقطة من أ ، غ ، ح.

(٣) انظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٢١ ، ولعل المقصود بالقرشي محمد بن سعيد أبو عبدالله القرشي صاحب كتاب (شرح التوحيد). توفي في القرن الثالث. انظر : الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي ٤/ ٥٦٩-٥٧١ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٣٧-٣٣٩.

(٤) في ط : «وعزمك» ، والصواب عزائمك ؛ لأن مفردها عزيمة.

(٥) في الجميع عدا س ، م «فلا تأخذ لنفسك منها».

(٦) هو دلف بن جحدر الشبلي ، ولد سنة ٢٤٧هـ ، بغدادي المولد والمنشأ وأصله من خراسان

وكمال المحبة [1] يقتضي ذلك ، فإنه ما دامت في القلب بقية لغيره ومسكن لغيره فالمحبة مدخولة.

الثالث عشر : إقامة العتاب على الدوام [2] ، وهو لابن عطاء ، وفيه غموض.

ومراده : أن لا تزال عاتباً على نفسك في مرضاة المحبوب ، وأن لا ترضى له منها [3] عملاً ولا حالاً.

الرابع عشر : أن تغار على المحبوب : أن يحبه مثلك [4] ، وهو للشلبي أيضاً. وفيه كلام سنذكره إن شاء الله في منزلة «الغيرة» ومراده : احتقارك لنفسك واستصغارها : أن يكون مثلك من محبّيه.

الخامس عشر : إرادة غرست أغصانها في القلب ، فأثمرت الموافقة

صحب الجنيد ومن في عصره ، عاش ٨٧سنة ، وتوفي سنة ٣٣٤ هـ.

انظر : الرسالة القشيرية ص٤١٩ و ٤٢٠ ، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٢٢٦-٢٣٠ ، وانظر قوله هذا ، والآخر في الرسالة القشيرية ص٣٢١ و ٣٢٢.

(١) في غ ، م ، ح ، س : «تقتضي» وفي هامش غ : «بيان وكمال».

(٢) في أ : «وفيه غموض وهو لابن عطاء» وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآمدي ، صحب الجنيد وإبراهيم المارستاني ، توفي سنة ٣٠٩هـ ، وقيل ٣١١هـ.

انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٢ - ٣٠٥ ، طبقات الشعراني ١/ ٢١٠ - ٢١٤ ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٢٦.

(٣) في البقية عدا س ، م : «فيها».

(٤) «وهو» ساقطة من س.

والطاعة.

السادس عشر : أن ينسىٰ المحب حظه من[1] محبوبه ، ، وينسىٰ حوائجه إليه، وهو لأبي يعقوب السوسي[2] ، مراده : أن استيلاء سلطانها علىٰ قلبه غيَّبه عن حظوظه وعن حوائجه ، واندرجت كلها في حكم المحبة.

السابع عشر : مجانبة السلو علىٰ كل حال ، وهو للنصراباذي[3]. وهو أيضاً من لوازمها وثمراتها ، كما قيل [4] :

مرت بأرجاء الخيال طيوفه ... فبكت علىٰ رسم السلو الدارس

الثامن عشر : توحيد المحبوب بخالص الإرادة وصدق الطلب.

التاسع عشر: سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب، وهو لمحمد بن الفضل[5]. ومراده : توحيد المحبوب بالمحبة.

---

(١) في البقية عدا س ، م : «في محبوبه» وقوله في الرسالة القشيرية ٣٢٢ ، وهذا نصه : «حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله عز وجل وينسى حوائجه إليه».

(٢) أبو يعقوب السوسي لم أجد في كتب التراجم هذه الكنية منسوبة إلى السوسي غير ما ذكره القشيري في رسالته عند ترجمته لأبي يعقوب النهرجوري حيث قال : وصحب أبا يعقوب السوسي. انظر الرسالة القشيرية ٤٣٨.

(٣) في م «أيضاً وهو «وفي ب» أيضاً «ساقطة والنصراباذي تقدمت ترجمته وهو إبراهيم بن محمد بن أحمد النيسابوري ويسمى النصر اباذي. وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٢٢٣.

(٤) ذكره المؤلف أيضاً في روضة المحبين ١٢٩.

(٥) هو محمد بن الفضل البامجي (ويسمى البلخي) وتقدمت ترجمته ص ١٨٦ ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٢٣.

العشرون : غض طرف القلب عما سوىٰ المحبوب غيرة ، وعن المحبوب هيبة ، وهذا يحتاج إلىٰ تبيين.

أما الأول : فظاهر.

وأما الثاني[١] : فإن غض طرف القلب [٢] عن المحبوب - مع كمال محبته - كالمستحيل ، ولكن عند استيلاء سلطان [٣] الهيبة يقع في مثل هذا ، وذلك من علامات المحبة المقارنة للهيبة والتعظيم ، وقد قيل : إن هذا تفسير قول النبي ﷺ : **«حبك الشيء يعمي ويصم»** [٤] أي يعمي عما سواه غيرة ، وعنه هيبة.

وليس هذا مراد الحديث ، ولكن المراد به : أن حبك الشيء يعمي ويصم عن تأمل قبائحه ومساويه ، فلا تراها ولا تسمعها ، وإن كانت فيه ، وليس المراد به ذكر المحبة المطلوبة المتعلقة بالرب ، ولا يقال في حب الرب تبارك

---

(١) في غ : «فإنه».

(٢) «عن المحبوب» ساقطة من أ ، ب.

(٣) «سلطان» ساقطة من ط.

(٤) الحديث رواه أبو داود في السنن في كتاب الأدب ، باب في الهوى ٥/ ٣٤٦ (٥١٣٠) ، وأحمد في المسند ٥/ ١٩٤ و ٦/ ٤٥٠ ، والحديث اختلف فيه العلماء فمنهم من حكم عليه بالوضع ومنهم من قال ضعيف ومنهم من قال حسن ومنهم من قال صحيح لذاته أو لغيره. انظر : بقية من خرجه وهذه الأقوال على أن الأكثر قالوا بتحسينه أو تضعيفه.

انظر : الجامع الصغير ص٢٢٤ (٣٦٧٤) ، وكشف الخفاء ١/ ٣٤٣ (١٠٩٥) ، ومشكاة المصابيح ٣/ ١٧٩٠ ، وسلسلة الأحاديث الضعيفة ٤/ ٣٤٨ و ٣٤٩ (١٨٦٨).

وتعالىٰ : حبك الشيء ، ولا يوصف صاحبها بالعمىٰ والصمم[1].

ونحن لا ننكر المرتبتين المذكورتين ، فإن المحب قد يعمي ويصم[2] عن [ما] سوىٰ محبوبه ، وقد يعمي ويصم عنه بالهيبة والإجلال ، ولكن لا توصف محبة العبد لربه تعالىٰ بذلك ، وليس أهلها من أهل العمىٰ والصم ؛ بل هم[3] أهل الأسماع والأبصار علىٰ الحقيقة ، ومن سواهم هم الصم[4] البكم [العمي] الذين لا يعقلون.

الحادي والعشرون : ميلك إلىٰ الشيء[5] بكليتك ، ثم إيثارك له علىٰ نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

قال الجنيد : سمعت الحارث المحاسبي ـ رحمه الله ـ[6] يقول : ذلك.

الثاني والعشرون : المحبة نار في القلب ، تحرق ما سوىٰ مراد المحبوب.

سمعت شيخ الإسلام[7] ابن تيمية – رحمه الله – يقول : لمت بعض

---

(١) في ط «الصم».

(٢) سقط من ط إلى قوله «عنه هيبة» والزيادة من البقية عدا س ، م ، ق.

(٣) «هم» ساقطة من س.

(٤) في ط : «البكم العمي الصم» والزيادة من الجميع.

(٥) في البقية عدا س ، م ، ق : «للشيء».

(٦) هو أبوعبدالله الحارث بن أسد المحاسبي صاحب التصانيف المشهور بالزهد ، بصري الأصل مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ. انظر : الرسالة القشيرية ص٤٢٩ و ٤٣٠ ، وتقريب التهذيب ١/ ١٣٩ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٧٣ - ١١٠ ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٢٤.

(٧) في ط : «وسمعت».

المباحيـة [1] فقال لي ذلك ، ثم قال : والكون كله مراده ، فأي شيء أبغض منه؟

قال الشيخ فقلت له : إذا كان المحبوب قد أبغض أفعالاً وأقوالاً وأقواماً وعاداهم وطردهم [2] ولعنهم فأحببتهم أنت : كنت [3] موالياً للمحبوب أو معادياً له؟ قال : فكأنما ألقم حجراً ، وافتضح بين أصحابه ، وكان مقدماً فيهم مشاراً إليه.

وهذا الحد صحيح : وقائله إنما أراد : أنها تحرق من القلب ما سوىٰ مراد المحبوب الديني الأمري ، الذي يحبه ويرضاه ، لا المراد الذي قدره وقضاه ؛ ولكن [4] لقلّة حظ المتأخرين منهم وغيرهم من العلم : وقعوا فيما وقعوا فيه من الإباحة والحلول والاتحاد ، والمعصوم من عصمه الله.

الثالث والعشـرون : المحبة بذل المجهود ، وترك الاعتراض علىٰ المحبوب [5]. وهذا أيضاً من حقوقها وثمراتها وموجباتها.

---

(١) في ط «الإباحية» وهم صنفان صنف قبل الإسلام كالمزدكية ، وصنف بعد ظهور الإسلام وهم المعروفون بالمحمرة سموا بذلك لاستباحتهم المحرمات والإباحية أيضاً تطلق على فرقة من المتصوفة ، قالوا ليس لنا قدرة على الاجتناب عن المعاصي ولا على الإتيان بالمأمورات انظر : الفرق بين الفرق ص٢٠١ و ٢٠٢ ، والملل والنحل ١/ ٢٤٩ و ٢٥٠ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ١/ ١٥٤ و ١٥٥ ، والاستقامة لابن تيمية ٢/ ١٩٤-١٩٨.

(٢) في البقية عدا س ، م «فطردهم».

(٣) «أنت» ساقطة من ط ، وفي ط «تكون» وفي أ ، ب ، ح ، غ «أكنت».

(٤) في البقية عدا س ، م «الواو» ساقطة.

(٥) «المحبوب» ساقطة من أ ، غ ، ب.

الرابع والعشرون(١) : سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، ثم السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف ، وأنشد [بعضهم](٢) :

فأسكَرَ القومَ دور الكأس بينهم   لكنَّ سُكرِي نشا من رؤية الساقي

وينبغي صون المحبة والحبيب عن هذه الألفاظ ، التي غاية صاحبها : أن يعذر بصدقه وغلبة الوارد عليه ، وقهره له ، فمحبة الله أعلىٰ وأجلُّ من(٣) أن تضرب لها هذه الأمثال ، وتجعل عرضة للأفواه المتلوِّثة ، [والألفاظ المبتدعة](٤) ، ولكن الصادق في خفارة صدقه.

الخامس والعشرون : أن لا يؤثر علىٰ المحبوب غيره ، وأن لا يتولىٰ أموره(٥) غيره.

السادس والعشرون : الدخول تحت رق المحبوب وعبوديته ، والحرية من استرقاق ما سواه.

---

(١) «الرابع والعشرون» ساقطة من م.

(٢) الزيادة من ب والبيت ذكره القشيري في رسالته من غير نسبة ٣٢٦.

ونصه :

فأسكر القوم دور كأس   وكان سكري من المدير

(٣) «من» ساقطة من غ ، وفي س : «من أن يضرب».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٥) في الجميع «أمورك» والمثبت كما في الأصل وهو الأولى حتى تتوافق مع بداية القول «أن لا يؤثر» والمقصود بالخطاب واحد وهو «المحب».

السابع والعشرون: المحبة [1] سَفَر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره علىٰ الدوام.

قلت [2]: أما سفر القلب في طلبه [3]: فهو الشوق إلىٰ لقائه، وأما لهج اللسان بذكره: فلا ريب أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

الثامن والعشرون: [أن] [4] المحبة هي ما لا ينقص بالجفاء. ولا يزيد[5] بالبر، وهو [6] ليحيىٰ بن معاذ؛ بل الإرادة والطلب والشوق إلىٰ المحبوب لذاته فلا ينقص ذلك جفاؤه، ولا يزيده برُّه.

وفي هذا[7] ما فيه، فإن المحبة الذاتية تزيد بالبر ولا ينقصها [8] زيادتها بالبر، وليس ذلك بعلة، ولكن مراد يحيىٰ: أن القلب قد امتلأ بالمحبة الذاتية، فإذا جاء البر من محبوبه، لم يجد في القلب[9] مكاناً خالياً من حبه تشغله[10] محبة

---

(١) «المحبة» ساقطة من م.

(٢) سقط من م إلى قوله: «فلا ريب».

(٣) في البقية عدا س «طلب المحبوب»

(٤) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٥) في البقية عدا س، م: «ولا تزيد».

(٦) في أ، ب، غ، ح، س: «وهي» وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٢٢.

(٧) في ط: «ذلك».

(٨) في البقية عدا س، م: «ولا تنقصها».

(٩) سقط من أ، غ: «القلب» وفي ب: «قلبه».

(١٠) في ط، م: «يشغله».

البر [١] ؛ بل تلك المحبة قد استحقت عليه بالذات بلا سبب ، ومع هذا فلا يزيل الوهم ، فإن المحبة لا نهاية لها ، وكلما قويت المعرفة والبر قويت المحبة ، ولا نهاية لجمال المحبوب ولا بره ، فلا نهاية لمحبته ؛ بل لو اجتمعت محبة الخلق كلهم وكانت علىٰ قلب رجل واحد منهم لكان [٢] ذلك دون ما يستحقه الرب جل جلاله ، ولهذا لا تسمىٰ محبة العبد لربه عشقاً - كما سيأتي - [٣] لأنه إفراط المحبة ، والعبد لا يصل في محبة الله إلىٰ [٤] حد الإفراط ، ألبتة. والله أعلم.

التاسع والعشرون : المحبة أن يكون [٥] كلك بالمحبوب مشغولاً ، وكلك [٦] له مبذولاً.

الثلاثون وهو من أجمع ما قيل فيها - : قال أبو بكر الكتاني [٧] ـ رحمه الله ـ :

(١) «بل» ساقطة من أ ، غ ، ح ، ب ، وفي س زيادة «كان» وهي غير ملائمة.

(٢) في البقية عدا م ، س ، ق «كان».

(٣) في أ ، غ ، ب «أنه».

(٤) «إلى حد الإفراط» ساقطة من م.

(٥) في أ ، غ ، ب : «بالتاء».

(٦) في البقية عدا س ، م ، ق : «وذلك».

(٧) هو أبو بكر محمد بن علي الكتاني ، بغدادي الأصل صحب الجنيد والخراز والنوري ، وأقام بمكة إلى أن مات سنة ٣٢٢هـ. انظر : الرسالة القشيرية ٤٢٧ ، وطبقات الشعراني ٢٣٨-٢٤٠ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٥٧ و ٣٥٦ ، وقوله في الرسالة القشيرية ٣٢٧.

«جرت مسألة في المحبة بمكة أعزها الله - أيام الموسم - فتكلم الشيوخ فيها[1]، وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فقالوا : هات ما عندك يا عراقي ، فأطرق رأسه ، ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق[2] قلبه أنوارُ هيبته ، وصفا شربه من كأس وده[3]، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله.

فبكىٰ الشيوخ وقالوا : ما علىٰ هذا مزيد جبرك الله[4] يا تاج العارفين » .

فصــل

في الأسباب الجالبة للمحبة ، والموجبة لها. وهي عشرة : الأسباب الجالبة

أحدها : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به[5] ، كتدبر الكتاب للمحبة الذي يحفظه العبد ويشرحه ، ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني : التقرب إلىٰ الله بالنوافل بعد الفرائض ، فإنها توصله إلىٰ درجة المحبوبية بعد المحبة.

---

(١) في أ ، ، غ ، ح ، ب : «فكان».

(٢) في ط «أحرقت».

(٣) في م : «مودته».

(٤) في غ زيادة «من» والمثبت كما في البقية والرسالة القشيرية ، وفي ط «جزاك الله».

(٥) «به» ساقطة من أ ، غ ، ح.

الثالث : دوام ذكره علىٰ كل حال : باللسان والقلب ، والعمل والحال. فنصيبه من المحبة علىٰ قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع : إيثار محابه علىٰ محابك عند غلبات الهوىٰ، والتسنم(١) إلىٰ محابه، وإن صعب المرتقىٰ.

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ، ومشاهدتها ومعرفتها ، وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها(٢) ، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله : أحبه لا محالة ، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية(٣) قطاع الطريق علىٰ القلوب بينها وبين الوصول إلىٰ المحبوب.

السادس : مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ، ونعمه الباطنة(٤) والظاهرة ، فإنها

---

(١) في ب : «والتنسم»

(٢) في البقية عدا س ، م «ومباديها ».

(٣) **التعطيل في اللغة** : التفريغ. ويقصد به إنكار ما يجب لله تعالى وهو أقسام : فمنه تعطيل كلي كتعطيل الجهمية ، وتعطيل جزئي كتعطيل الأشعرية. انظر : الملل والنحل ١/ ٨٦ - ٩٤/ مختار الصحاح ٤٤٠ ، والتحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية ٣١ ، والصفدية لابن تيمية ١/ ٢٦٣ - ٢٦٦.

والفرعونية : نسبة إلى فرعون القائل : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾[القصص : ٣٨].

والجهمية : هم المنسوبون إلى الجهم بن صفوان ، وهذه الفرقة من الفرق الضالة التي أنكرت الأسماء والصفات وزعمت أن الجنة والنار تفنيان وغير ذلك من الضلالات. انظر : الملل والنحل ١/ ٨٦-٨٨ ، والفرق بين الفرق ص١٥٨ و ١٥٩ ، ولوامع الأنوار البهية ١/ ٧٧.

(٤) في أ ، ب «الظاهرة والباطنة».

داعية إلىٰ محبته.

السابع : وهو من أعجبها [١] - انكسار القلب بكليته بين يديه [٢] ، وليس في التعبير عن هذا المعنىٰ غير الأسماء والعبارات.

الثامن : الخلوة [٣] به وقت النزول الإلهي ، لمناجاته وتلاوة كلامه ، والوقوف بالقلب والتأدب [٤] بين يديه ، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلماتهم [٥] كما ينتقىٰ أطايب الثمر ، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام ، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ، ومنفعته لغيرك.

العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة ، وصل المحبون إلىٰ منازل المحبة ، ودخلوا علىٰ الحبيب ، وملاك ذلك كله أمران : استعداد الروح لهذا الشأن ، وانفتاح عين البصيرة والله المستعان [٦].

---

(١) «من» ساقطة من م.

(٢) في البقية عدا ح ، س ، م ، ق ، غ : «يدى الله تعالى».

(٣) «به» ساقطة من ح.

(٤) في ط زيادة «بأدب العبودية».

(٥) في البقية عدا س ، م «كلامهم».

(٦) في البقية عدا م ، س ، ق «وبالله التوفيق».

فصل

محبة الرب لعبده والعبد لربه والرد على من خالف

والكلام في هذه المنزلة يتعلق(١) بطرفين : طرف محبة العبد لربه ، وطرف محبة الرب لعبده ، والناس في إثبات ذلك ونفيه أربعة أقسام : فأهل [السنة والجماعة] (٢) يحبهم ويحبونه علىٰ إثبات الطرفين ، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر ، ولا نسبة لسائر المحاب إليها ، وهي حقيقة « لا إله إلا الله »(٣) وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله : صفة زائدة علىٰ رحمته ، وإحسانه وعطائه ، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها ، فإنه لما أحبهم كان نصيبُهم من رحمته وإحسانه وبره أتمَّ نصيب.

والجهمية المعطلة(٤) عكس هؤلاء(٥) ، فإنه عندهم لا يُحِبُّ ولا يحَب ، ولم يمكنهم تكذيب النصوص ، فأوَّلوا(٦) نصوص محبة العباد له : علىٰ محبة طاعته وعبادته ، والازدياد من الأعمال لينالوا بها الثواب ، وإن أطلقوا بها عليهم(٧) لفظ

---

(١) في م «متعلق» وفي البقية «معلق».

(٢) الزيادة من م.

(٣) في م : «الذلك».

(٤) هذا هو القسم الثاني الذي ذكره ابن القيم - رحمه الله - من الأقسام الأربعة التي كان سيذكرها ولكنه أخذ بالرد على هؤلاء ونسي أن يذكر بقية الأقسام.

(٥) في أ ، ب ، غ ، ق : «فإن».

(٦) في غ : «فأولوا محبة نصوص» وفي أ «نصوص» ساقطة.

(٧) الزيادة من الجميع عدا غ ، س ، م ، وفي ط : «عليهم بها».

«المحبة» فلما ينالون به من الثواب والأجر. والثواب المنفصل عندهم : وهو المحبوب لذاته ، والرب تعالىٰ محبوب لغيره حب الوسائل.

وأولوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم ، وإعطائهم الثواب ، وربما أولوها بثنائه عليهم ومدحه لهم ، ونحو ذلك ، وربما أولوها بإرادته لذلك ، فتارة يؤولونها بالمفعول المنفصل ، وتارة يؤولونها بنفس الإرادة.

ويقولون : الإرادة إن (١) تعلقت بتخصيص العبد بالأحوال والمقامات العلية : سميت «محبة» ، وإن تعلقت (٢) بالعقوبة والانتقام : سميت «غضباً» ، وإن تعلقت بعموم الإحسان سميت رحمة ، وإن تعلقت بالإحسان (٣) والإنعام الخاص : سميت «براً» ، وإن تعلقت بإيصاله في خفاء ، من حيث لا يشعر ، ولا يحتسب : سميت «لطفاً» وهي واحدة ، ولها أسماء وأحكام باعتبار متعلقاتها.

ومن جعل محبته للعبد ثناءه عليه ومدحه له : ردها إلىٰ صفة الكلام ، فهي عنده من صفات الذات ، لا(٤) من صفات الأفعال ، ومن جعلها نفس الإنعام والإحسان فهي عنده من صفات الأفعال ، والفعل عنده(٥) نفس المفعول ، فلم يقم بذات الرب محبة لعبده ، ولا لأنبيائه ورسله ألبتة.

---

(١) «إن» ساقطة من غ ، أ.

(٢) سقط من م إلى قوله «بعموم الإحسان».

(٣) سقط من ط قوله «سميت رحمة وإن تعلقت بالإحسان».

(٤) «من صفات الذات لا» ساقطة من أ ، غ ، ح ، م ، ب.

(٥) سقط من الجميع إلى قوله «والفعل عنده».

ومن ردها إلىٰ صفة « الإرادة » جعلها من صفات الذات باعتبار أصل الإرادة ، ومن صفات الأفعال باعتبار تعلقها.

ولما رأىٰ هؤلاء أن المحبة إرادة ، وأن الإرادة لا تتعلق إلا بالمحدث المقدور ، والقديم يستحيل أن يراد : أنكروا محبة العباد ، والملائكة والأنبياء ، والرسل له وقالوا : لا معنىٰ لها إلا إرادة التقرب إليه ، والتعظيم له ، وإرادة عبادته ، فأنكروا خاصة الإلهية ، وخاصة العبودية ، واعتقدوا [أن] هذا (١) من موجبات التوحيد والتنزيه(٢) ، فعندهم لا يتم التوحيد والتنزيه إلا بجحد حقيقة الإلهية ، وجحد حقيقة العبودية.

وجميع طرق الأدلة - عقلاً ونقلاً وفطرة ، وقياساً واعتباراً ، وذوقاً ووجداً - تدل علىٰ إثبات محبة العبد لربه ، والرب لعبده.

وقد ذكرنا من ذلك(٣) قريباً من مائة طريق في كتابنا الكبير في المحبة(٤) وذكرنا فيه فوائد المحبة(٥) ، وما تثمر لصاحبها من الكمالات ، وأسبابها

---

(١) الزيادة من الجميع عدا م ، وسقط من م «هذا».

(٢) «التنزيه» ساقطة من م.

(٣) في البقية عدا س ، م ، ق «الذلك».

(٤) لم أجد ما قصد المؤلف هنا في كتابه المذكور... ولكن انظر إلى كتابه الصواعق المرسلة ٤/ ١٤٣٤ وما بعدها ، وانظر كلامه في المحبة في كتاب طريق الهجرتين ص٤٤٠ - ٤٨٣. والمؤلف له كتاب كبير في المحبة غير موجود وهو غير كتابه روضة المحبين انظر كتاب ابن قيم الجوزية لمؤلفه الشيخ بكر أبو زيد ص ١٥٧ و ١٧٩ المؤلف رقم ٤٦ و ٧٦.

(٥) انظر : روضة المحبين وبالأخص الأبواب الخمسة الأول ، والباب الثالث عشر ، والباب العشرون ، والحادي والعشرون ، والثاني والعشرون ، من هذا الكتاب.

وموجباتها ، والرد علىٰ من أنكرها ، وبيان فساد قوله ، وأن المنكرين لذلك قد أنكروا خاصة الخلق والأمر ، والغاية التي وجدوا لأجلها ، فإن الخلق والأمر، والثواب ، والعقاب : إنما نشأ عن «المحبة» ولأجلها ، وهي الحق الذي خلقت به(١) السموات والأرض ، وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي ، وهي سِرُّ(٢) التأليه ، وتوحيدها : هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وليس كما زعم(٣) المنكرون : أن «الإله» هو الرب الخالق ، فإن المشركين كانوا مقرِّين بأنه لا ربَّ إلا الله ، ولا خالق سواه ، وبأنه وحده المنفرد بالخلق والربوبية ، ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية ، وهو المحبة والتعظيم ، بل كانوا يتألهون(٤) مع الله غيره ، وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ، ، وصاحبه ممن اتخذ من دون الله أنداداً.

تفسير قوله تعالى يحبونهم كحب الله

قال [الله](٥) تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] فأخبر أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالىٰ : فهو ممن اتخذ من دون الله نِدّاً(٦) ، فهذا نِدٌّ في المحبة ، لا في

---

(١) «به» ساقطة من أ ، ب ، غ ، وفي ط «به خلقت» وفي هامش غ : «لعله لأجله».

(٢) في ط : «التألية».

(٣) في م : «المشركون» وفي غ : «المنكرون للإله».

(٤) في ط : «يؤلهون».

(٥) الزيادة من الجميع عدا س.

(٦) في البقية عدا ، م ، ق ، س «أنداداً».

الخلق والربوبية ، فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند[١] ، بخلاف ند المحبة ، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم ، ثم قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وفي تقدير الآية قولان[٢] :

أحدهما : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتم التي يحبونها ، ويعظمونها من دون الله.

والثاني : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله ، فإن محبة المؤمنين خالصة ، و محبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة : أشد من المشتركة ، والقولان مرتبان علىٰ القولين في [قوله تعالىٰ][٣] : ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ فإن فيه قولان أيضاً[٤] :

أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله ، فيكون قد أثبت لهم محبة لله[٥] ، ولكنها محبة شركوا[٦] فيها مع الله أندادهم[٧].

والثاني : أن المعنىٰ يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ، ثم بيَّن أن

---

(١) في ط زيادة «في الربوبية».

(٢) انظر : الدر المنثور ١/ ٤٠١ - ٤٠٣ ، وتفسير البغوي ١/ ١٧٨ و ١٧٩.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) «أيضاً» ساقطة من ط ، أ ، غ ، ب.

(٥) في البقية عدا م «الله».

(٦) في البقية عدا س ، م : «يشركوا» وفي ط : «يشركون».

(٧) في ط : «أنداداً».

محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذموا بأن شركوا [١] بين الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه هي[٢] التسوية المذكورة في قوله تعالىٰ حكاية عنهم، وهم في النار أنهم [٣] يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٨)﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم، وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أي يعدلون به غيره في العبادة، التي هي المحبة والتعظيم، وهذا أصح القولين.

وقيل: الباء، بمعنىٰ «عن»، والمعنىٰ[٤]: ثم الذين كفروا عن ربهم[٥] يعدلون

---

(١) في ط: «أشركوا» وانظر التحفة العراقية ٣٨٩.

(٢) «هي» ساقطة من ط، م، وفي أ، غ، ح، ب: «وهذه في».

(٣) «إنهم» ساقطة من ط، وفي ب: «إذ يقولون».

(٤) «والمعنى» ساقطة من م،، وسقط من ج: «ثم الذين كفروا».

(٥) في الأصل والبقية «بربهم» والمثبت كما في ج، م، ط، وهو الأقرب للتصريح «بعن»، وانظر هذا القول في تفسير البغوي ٣/ ١٢٦.

إلىٰ عبادة [١] غيره، وهذا ليس بقوي، إذ لا تقول العرب عدلت بكذا أي عدلت عنه، وإنما جاء هذا في فعل السؤال، نحو: سألت بكذا [٢]، أي عنه، كأنهم ضمنوه: اعتنيت به واهتممت، ونحو ذلك.

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذه [٣] تسمىٰ آية المحبة [٤] [قال أبو سليمان الداراني: لما ادعت القلوب محبة الله: أنزل الله لها محنة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾] [٥].

قال بعض السلف [٦]: ادعىٰ قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحبة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وقال: «يحببكم الله» [٧] إشارة إلىٰ دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ﷺ، وفائدتها وثمرتها: محبة المرسل [٨] لكم،

---

(١) في ط زيادة «عن عبادته».

(٢) «نحو: سألت بكذا» سقطت من م هنا وذكرت بعد «وضمنوه».

(٣) في البقية عدا س، م: «وهي».

(٤) في ج، ح، ب «آية المحنة» والزيادة من الجميع عدا س، م، ولعلها حذفت من الأصل لوجود قوله «قال بعض السلف».

(٥) سقط من ج إلى قوله: «﴿ يحببكم الله ﴾ إشارة».

(٦) انظر: الدر المنثور ٢/ ١٧٧ - ١٧٩.

(٧) «وقال يحببكم الله» ساقطة من م، س.

(٨) في أ، غ «الرسل».

فما لم[١] تحصل المتابعة فلا[٢] محبتكم له حاصلة ، و محبته لكم منتفية.

وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، ذكر[٣] لهم أربع علامات :

أحدها : أنهم «أذلة علىٰ المؤمنين» قيل : معناه أرقاء ، رحماء مشفقين عليهم ، عاطفين عليهم ، فلما ضمّن «أذلة» هذا المعنىٰ عداه بأداة «علىٰ» قال عطاء ﷺ[٤]: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده، وعلىٰ[٥] الكافرين كالأسد علىٰ فريسته ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[٦] [الفتح : ٢٩].

العلامة الثالثة : الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد ، واللسان والمال ، وذلك تحقيق دعوىٰ المحبة.

العلامة الرابعة : أنهم لا يأخذهم في الله لومة لائم ، وهذا علامة صحة[٧]

---

(١) في غ «فإن له» وج «فمتى لا تحصل».

(٢) في ط «فليست».

(٣) في ط زيادة «فقد».

(٤) انظر هذا القول في تفسير البغوي ٧/ ٣٢٣ و ٣٢٤.

(٥) «الواو» ساقطة من ب وهذه هي العلامة الثانية ، وقد تزيد هذه العلامات على ما ذكره ابن القيم إذا اعتبرت محبة الله لهم و محبتهم لله من صفاتهم. راجع تفسير أبي السعود ٣/ ٥٠ ، ٥١.

(٦) في هامش ح لعلها الثانية.

(٧) «صحة» ساقطة من غ.

المحبة ، فكل محب أخذه [١] اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة ، كما قيل :

لا كان مَن لِسِواكَ فيه بقيَّةٌ ... يجدُ السبيلَ بها [٢] إليه اللُّوَّمُ

وقال تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء : ٥٧] ، فذكر المقامات الثلاث : الحب ، وهو ابتغاء القرب إليه ، والتوسل [إليه] [٣] بالأعمال الصالحة ، والرجاء والخوف : يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

بطلان تأويل الجهمية للمحبة

ومن المعلوم قطعاً : أنه لا ينافس [٤] إلا في قرب من يُحب [٥] قربه ، وحُبِّ قربه تبع لمحبة ذاته ؛ بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه ، وعند الجهمية والمعطلة : ما من ذلك كله [٦] شيء ، فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شيء ، ولا يقرب من ذاته شيء ، ولا يُحَب لذاته ، ولا يُحِب.

---

(١) في ط «يأخذه».

(٢) في ج «لها» والبيت ذكره المؤلف في كتابه طريق الهجرتين ص٣٥٣ و ٤٣٩ ، وآخره «إليه العذل».

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) في ط «أنك» وبعدها في البقية عدا س ، م «لا يتنافس».

(٥) في البقية عدا ج ، س ، م «تجد».

(٦) في أ ، غ «كل».

فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلىٰ نعيم الدنيا والآخرة، ولذلك ضربت قلوبهم (١) بالقسوة، وضربت دونهم ودون الله حجاب (٢) علىٰ معرفته و محبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته (٣)، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم؛ بل يعاقبون (٤) من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله، ويرمونهم بالأدواء (٥) التي هم أحق بها وأهلها، وحسب ذي البصيرة وحياة القلب، ما يرىٰ علىٰ كلامهم من القسوة والمقت، والتنفير عن محبة الله ومعرفته وتوحيده، والله المستعان.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل ١٩، ٢٠]، فجعل غاية الأبرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ (٦) ٱللَّهَ أَعَدَّ

---

(١) في ج: «القلوب».

(٢) في ط: «حجب».

(٣) سقط من أ، ب، غ، ح إلى قوله: «ونعوت جلاله».

(٤) في هامش ح «لعله ويعادون أهل محبته المثبتين لأسمائه وصفاته».

(٥) في ب «بالأذى» والأدواء: جمع داء وهو المرض. انظر: مختار الصحاح ٢١٤.

(٦) سقط من ج، ق إلى قوله: «وهذه الإرادة».

الأحاديث في المحبة

﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الأحزاب : ٢٩] ، فجعل إرادته غير إرادة الآخرة ، وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة ، كما في صحيحي[1] الحاكم وابن حبان في الحديث المرفوع عن النبي ﷺ : أنه كان يدعو : «اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك علىٰ الخلق : أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضىٰ ، وأسألك القصد في الفقر والغنىٰ ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضىٰ بعد القضاء ، وأسألك[2] برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، وأسألك[3] الشوق إلىٰ لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين»[4].

---

(١) في أ ، غ ، ب ، ح : «صحيح» وفي ط : «كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان».

(٢) «وأسالك» ساقطة من الجميع عدا س ، م.

(٣) «وأسألك» ساقطة من م.

(٤) الحديث رواه النسائي في كتاب السهو ، باب نوع آخر من الدعاء رقم الباب ٣٦٢ ، ٣/ ٥٤ و ٥٥ (١٣٠٥) ، وقال الألباني : إسناده جيد ، انظر : مشكاة المصابيح ٢/ ٧٦٩ و ٧٧٠ (٢٤٩٧) ، وابن حبان في صحيحه (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان) في ذكر جواز دعاء المرء في الصلاة بما ليس في كتاب الله ٣/ ٢١٢ و ٢١٣ (١٩٦٨) ، وأورده السيوطي في الجامع الصغير وسكت عنه بعد قوله رواه النسائي والحاكم ص٩٦ (١٥٣٧) ، ورواه أحمد في المسند ٤/ ٢٦٤ ، والحاكم في المستدرك «ومعه التلخيص» ١/ ٥٢٤ و ٥٢٥ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف علىٰ ثبوت لذة النظر إلىٰ وجه الله، وعلىٰ ثبوت الشوق إلىٰ لقائه، وعند الجهمية لا وجه له سبحانه ولا ينظر إليه، فضلاً أن يحصل له لذة كما سمع بعضهم داعياً يدعو بهذا الدعاء فقال: ويحك! هب أن له وجهاً، أفتلتذ بالنظر إليه؟

وفي الصحيحين[1] عن أنس[2] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن**[3] **حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحب إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد أن أنقذه الله منه - كما يكره أن يقذف في النار**»[4].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالىٰ: من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن**

---

(١) في البقية عدا س، م: «وفي الصحيح».

(٢) في ط زيادة «بن مالك».

(٣) «بهن» ساقطة من م.

(٤) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان ١/ ٩ و ١٠، ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ١/ ٦٦ (٤٣).

استعاذني لأعيذنه»[١].

وفي الصحيحين عنه أيضاً عن النبي ﷺ: «إذا أحب الله العبد دعا جبريل، فقال: إني أحب فلاناً، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[٢]، وذكر في البغض مثل[٣] ذلك.

وفي الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ في حديث أمير السرية الذي كان يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لأصحابه في كل صلاة، وقال[٤]: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن[٥] أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله يحبه»[٦].

وفي جامع الترمذي من حديث أبي إدريس الخولاني[٧] عن أبي الدرداء رضي الله عنه

---

(١) رواه البخاري وغيره وتقدم ص ٢١١.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ٨/ ١٩٥، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى العباد ٣/ ٢٠٣٠ (٢٦٣٧).

(٣) في البقية عدا س، م، ج «عكس».

(٤) في م «أنها».

(٥) «أن» ساقطة من غ.

(٦) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ٨/ ١٦٤ و ١٦٥، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد ١/ ٥٥٧ (٨١٣).

(٧) هو عائذ الله بن عبدالله الخولاني، ولد في حياة النبي ﷺ يوم حنين وسمع من كبار الصحابة، كان عالم الشام بعد أبي الدرداء، مات سنة ثمانين.
انظر: تقريب التهذيب ١/ ٣٩٠، وحلية الأولياء ٥/ ١٢٢ - ١٢٩.

عن النبي ﷺ أنه قال: «كان دعاء داود عليه السلام: اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد»[1].

وفيه أيضاً من حديث عبدالله بن يزيد الخطمي[2]: أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب»[3].

والقرآن والسنة مملوآن بذكر من يحبه سبحانه من عباده[4]، وذكر ما يحبه

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الدعوات الباب (٧٣) ٥/ ٥٢٢ و ٥٢٣ رقم (٣٤٩٠) وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم في المستدرك ومعه التلخيص ٢/ ٤٣٣، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: قلت: بل عبدالله هذا - يقصد ابن يزيد الدمشقي كما جاء في إسناد الحاكم - قال أحمد أحاديثه موضوعة.

(٢) هو عبدالله بن يزيد بن زيد بن حصين الأنصاري الخطمي، له ولأبيه صحبة، شهد بيعة الرضوان وهو صغير، وهو أمير الكوفة على عهد عبدالله بن الزبير وهو جد عدي بن ثابت أبو أمه. انظر: التاريخ الكبير ٥/ ١٢ و ١٣، الإصابة ٤/ ١٤٣، تقريب التهذيب ١/ ٤٦١ (٧٤٢)

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، الباب (٧٤) ٥/ ٥٢٣ (٣٤٩١) وقال: هذا حديث حسن غريب وأبو جعفر الخطمي اسمه عمير بن يزيد بن خماشة، والحديث حسنه السيوطي في الجامع الصغير ص٩٠ (١٤٦٩).

(٤) في ط زيادة «المؤمنين».

من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم(١)، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٦]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٤ و ١٤٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف : ٤]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ٧٦]، وقوله في ضد(٢) ذلك : ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة : ٢٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد : ٢٣]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران : ٥٧ و ١٤٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء : ٣٦].

وكم في السنة أحب الأعمال إلىٰ الله كذا [وكذا](٣)، وإن(٤) الله يحب كذا [وكذا](٥) كقوله : **«أحب الأعمال إلىٰ الله الصلاة علىٰ وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله»**(٦) و **«أحب الأعمال إلىٰ الله : الإيمان بالله، ثم الجهاد**

---

(١) «وأخلاقهم» ساقطة من أ، ب، غ.

(٢) «في ضد» ساقطة من أ، ب، غ.

(٣) الزيادة من الجميع عدا م، س

(٤) في أ، ب : «وأنه» وغ، ج : «وأنه يجب».

(٥) الزيادة من الجميع عدا م، س.

(٦) رواه البخاري بلفظ مقارب في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها ١/ ١٣٤، وكذا مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ١/ ٨٩ (٨٥).

في سبيل الله، ثم حج مبرور»[١] و«أحب العمل إلىٰ الله: ما داوم عليه صاحبه»[٢] و[٣] «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه»[٤].

وأضعاف ذلك وفرحه العظيم بتوبة عبده الذي هو أشد فرح يعلمه العباد، وهو من محبته للتوبة وللتائب.

تعلق المحبة بجميع مقامات الإيمان والإحسان

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مَقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير[٥]، فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه، ونسبتها إلىٰ الأعمال كنسبة الإخلاص إليها؛ بل هي حقيقة الإخلاص؛ بل هي نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة؛ بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله فإن «الإلــه» هو الذي يألـه العباد حباً وذلاً، وخـوفاً ورجـاءً، وتعظيماً وطاعةً.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب من قال أن الإيمان هو العمل ١/ ١٢، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ١/ ٨٨ (٨٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل ٧/ ١٨١، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل العمل الدائم من قيام الليل وغيره ١/ ٥٤٠ و ٥٤١ (٧٨٢).

(٣) في ط زيادة: «وقوله».

(٤) رواه أحمد في المسند ٢/ ١٠٨، وابن حبان في صحيحه ١/ ٢٨٤، والحديث صححه السيوطي في الجامع الصغير ص١١٦ (١٨٩٤)، وصححه الألباني. انظر: إرواء الغليل ٣/ ٦-١٣.

(٥) في ط زيادة «إلى الله».

أله[١] : بمعنىٰ «مألوه» وهو الذي تألهه القلوب ، أي تحبُّه وتَذِلُّ له.

وأصل «التأله» التعبد ، و «التعبد» [٢] آخر مراتب الحب ، يقال [٣] : عبّده الحب وتيمه : إذا ملكه وذلـله لمحبوبه [٤].

فـ«المحبة» حقيقة العبودية ، وهل يمكن [٥] الإنابة بدون المحبة والرضىٰ ، أو الحمد [٦] والشكر ، أو الخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين؟ فإنهم إنما يتوكلون [٧] علىٰ المحبوب في حصول محابه ومراضيه.

وكذلك «الزهد» في الحقيقة : هو زهد المحبين ، فإنهم يزهدون في محبة ما سواه [٨] لمحبتهم.

وكذلك «الحياء» في الحقيقة : إنما هو حياء المحبين ، فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم ، وأما ما لا يكون عن محبة : فذلك[٩] خوف محض.

---

(١) في ط : «وطاعة له بمعنى».

(٢) «التعبد» ساقطة من ق.

(٣) سقط من م : «يقال عبّده الحب».

(٤) في ج : «بمحبوبه».

(٥) في ط ، ج ، م : «تمكن».

(٦) في ق «الرجاء» بدلاً من «الحمد» ، وفي البقية عدا س ، م «الحمد والشكر والخوف والرجاء».

(٧) في البقية : «فإنه إنما يتوكل».

(٨) في ط : «ما سوى محبوبهم».

(٩) في م : «فذاك».

وكذلك مقام «الفقر» فإنه في الحقيقة فقر الأرواح إلىٰ محبوبها ، وهو أعلىٰ أنواع الفقر ، فإنه لا فقر أتم من فقر القلب إلىٰ من يحبه ، لا سيما إذا وجده (١) في الحب ، ولم يجد منه عوضاً سواه ، وهذا (٢) حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك (٣) «الغنىٰ» هو غنىٰ القلب بحصول محبوبه ، وكذلك «الشوق» إلىٰ الله تعالىٰ ولقائه ، فإنه لبُّ المحبة وسرُّها ، كما سيأتي (٤).

فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب : معطل لذلك كله ، وحجابه أكثف الحجب ، وقلبه أقسىٰ القلوب ، وأبعدها (٥) عن الله ، وهو منكر لخلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، فإن «الخلة» كمال المحبة ، وهو يتأول (٦) «الخليل» بالمحتاج ، فخليل الله عنده : هو المحتاج ، فكم - علىٰ قوله - لله من (٧) خليل بر وفاجر ؛ بل مؤمن وكافر ، إذ كثير من الكفار (٨) من ينزل حوائجه كلها بالله صغيرها وكبيرها ، ويرىٰ نفسه أحوج شيء إلىٰ ربه في كل حالة.

---

(١) في ط : «وحَّده».

(٢) «الواو» ساقطة من الجميع.

(٣) «الواو» ساقطة من غ ، أ.

(٤) هي المنزلة الثانية التي سيتحدث عنها بعد منزلة المحبة.

(٥) في ق : «وأبعد».

(٦) في م «يتناول».

(٧) في ط زيادة «من».

(٨) في ط زيادة : «الفجارو».

فلا بالخلة أقر المنكرون، ولا بالعبودية، ولا بتوحيد الإلهية، ولا بحقائق الإسلام، والإيمان، والإحسان، ولهذا ضحىٰ خالد بن عبدالله القسري[1] بمقدم هؤلاء وشيخهم جعد بن درهم[2]، وقال في يوم العيد الأكبر[3]، عقيب خطبته «أيها الناس، ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد ابن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسىٰ تكليماً، تعالىٰ الله عما يقول الجعد علواً كبيراً» ثم نزل فذبحه[4]، فشكر المسلمون سعيه ـ رحمه الله ـ تعالىٰ وتقبل منه.

فصل

مراتب المحبة وأسماؤها

في مراتب المحبة وهي عشرة[5].

---

(١) أبو الهيثم خالد بن عبدالله بن يزيد بن أسد القسري ولد سنة ٦٦هـ، وهو يماني الأصل من أهل دمشق قتل في أيام الوليد بن يزيد سنة ١٣٦هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٣/ ٨٨ و ٨٩، والأعلام ٢/ ٢٩٧.

(٢) هو الجعد بن درهم من الموالي، مبتدع ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً، وقال بخلق القرآن، قتله خالد بن عبدالله القسري يوم النحر سنة ١١٨هـ.
انظر: البداية والنهاية ٩/ ٣٥٠ و ٣٥١ و الأعلام ٢/ ١١٤.

(٣) في البقية عدا س، م «عبدالله».

(٤) رواه الآجري في كتابه الشريعة ٩٧، والبخاري في كتابه خلق أفعال العباد ١٢ رقم (٣) وقال محققه: وإسناده ضعيف.

(٥) سقط من ط: «وهي عشرة» وقد ذكر في كتابه روضة المحبين (٥٠) اسماً للمحبة وتكلم عنها، انظر ص٣١ - ٦٩.

أولها «العلاقة» : وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب. قال الشاعر :

أعُلاقةً أمَّ الوليدِ بعد[1] ما　　　أفنانُ رأسِكِ كالثَّغَام المخلِس[2]

الثانية «الإرادة» : وهي ميل القلب إلىٰ محبوبه وطلبه له.

الثالثة «الصبابة» : وهي انصباب القلب إليه ، بحيث لا يملكه[3] صاحبه ، كانصباب الماء في الحدور ، واسم[4] الصفة منها «صب» والفعل «صبا[5]» إليه يصبو صباً ، وصبابة ، فعاقبوا بين المضاعف والمعتل ، وجعلوا الفعل من المعتل والصفة من المضاعف ، ويقال : صباً وصبوة ، وصبابة ، فالصبا : أصل الميل. والصبوة : فوقه ، والصبابة : الميل اللازم. وانصباب القلب بكليته.

الرابعة « الغرام » : وهو الحب اللازم للقلب ، الذي لا يفارقه ؛ بل يلازمه كملازمة الغريم [لغريمه][6] ، ومنه سمي عذاب النار غراماً للزومه لأهله ،

---

(١) في ط ، ج : «بعيد ما» وانظر : الحب بمعنى العلاقة في مختار الصحاح ٤٥٠.

(٢) الثغام : نبت إذا يبس صار أبيض. والمخلس : المختلط رطبه بيابسه.

وهذا البيت قيل هو للمرار الأسدي وقيل للمرار العدوي. انظر : المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية ١/ ٤٧٢ ، ولسان العرب ١٠/ ٢٦٢ ، وتحقيق مغني اللبيب ٤٠٩ ، وقد ذكره المؤلف في روضة المحبين ٣٩ ، والجواب الكافي ١٢٩ ، وبدائع الفوائد ١/ ١٥٢ و ٢/ ٣٢١.

(٣) في ب «لا يمنعه».

(٤) في البقية عدا س ، م ، ج «فأسم».

(٥) سقط من م إلى قوله «والصبابة الميل» وانظر الصبابة في مختار الصحاح ٣٥٤.

(٦) الزيادة من الجميع ، وانظر : الغرام في مختار الصحاح ٤٧٣.

وعدم مفارقته لهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

الخامسة «الوداد»: وهو صفو المحبة، وخالصها ولبها، و «الودود» من أسماء الرب تعالىٰ. وفيه قولان:

أحدهما: أنه المودود. قال البخاري - رحمه الله - في صحيحه «الودود الحبيب»[1].

والثاني: أنه الواد لعباده. أي المحب لهم. وقرنه باسمه «الغفور»[2] إعلاماً بأنه يغفر الذنب، ويحب التائب منه، ويوده، فحظ التائب: نيل المغفرة منه والود[3]، وعلىٰ القول الأول يكون سر الاقتران [- أي اقتران الودود بالغفور -][4] استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسمه[5] «الغفور».

---

(١) لعله يقصد ما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «والودود الحبيب» وذلك في كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء ٨/ ١٧٥.

(٢) قال في روضة المحبين ٦٣ في اقتران الغفور بالودود (قوله: ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ [البروج: ١٤] وبالرحيم في قوله: ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ [هود: ٩٠].

(٣) في ط: «وعلى القول الأول «الودود» في معنى يكون سر الاقتران أي اقتران «الودود بالغفور» وفي البقية عدا س، م، ق «والودود».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س، م، ق، وانظر: معنى الود في مختار الصحاح ٧١٤.

(٥) في ط «باسم» وملخص القول كما ذكر في كتاب روضة المحبين:

١ - أن الودود بمعنى مودود وهو الحبيب كما فسره البخاري.

٢ - وقيل ودود بمعنى واد كغفور بمعنى غافر وشكور بمعنى شاكر.

السادسة «الشغف» : يقال : شغف بكذا ، فهو مشغوف به [١] ، وقد شغفه المحبوب ، أي وصل حبه إلىٰ شغاف قلبه ، كما قال النسوة عن امرأة العزيز : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف : ٣٠] ، وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه [٢] الحب المستولي علىٰ القلب ، بحيث يحجبه عن غيره ، قال الكلبي : حجب حبه قلبها [٣] حتىٰ لا تعقل سواه.

الثاني : أنه [٤] الحب الواصل إلىٰ داخل القلب ، قال صاحب هذا القول : المعنىٰ [٥] أحبته حتىٰ دخل حبه شغاف قلبها ، أي داخله.

الثالث : أنه الحب الواصل إلىٰ غشاء القلب. و «الشغاف» غشاء القلب إذا وصل الحب إليه وباشر القلب ، قال السدي : الشغاف جلدة رقيقة [٦] علىٰ القلب. يقول : دخله الحب حتىٰ أصاب القلب.

وقرأ بعض السلف[٧] : (شعفها) بالعين المهملة ، ومعناه : ذهب الحب لها

---

(١) «به» ساقطة من ج ، وانظر : الشغف في مختار الصحاح ٣٤٠.

(٢) «أنه» ساقطة من م ، وجميع ما سيذكره المؤلف هنا حول هذه الآية هو موجود في تفسير البغوي ٤/ ٢٣٦.

(٣) في أ ، غ ، ح «قلبه حبها» وهو خطأ.

(٤) «أنه» ساقطة من البقية عدا م ، س ، ج.

(٥) «المعنى» ساقطة من ج.

(٦) سقط من ج إلى قوله «جلدة رقيقة».

(٧) في تفسير البغوي ٤/ ٢٣٦ (وقرأ الشعبي والأعرج) وفي ق (وقرؤا عن).

كل مذهب، وبلغ [بها] [١] أعلىٰ مراتبه، ومنه: شعف الجبال، لرؤوسها.

السابعة «العشق»: وهو الحب المفرط الذي يخاف علىٰ صاحبه منه، وعليه تأول [٢] إبراهيم، ومحمد بن عبدالوهاب: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال محمد: هو العشق.

ورفع إلىٰ ابن عباس [٣] - رضي الله عنهما - شاب وهو يعرفه [٤] قد صار كالخلال [٥]. فقال ما به؟ قالوا: العشق، فجعل ابن عباس - رضي الله عنهما - عامة دعائه [بعرفة] [٦]: الاستعاذة من العشق.

وفي اشتقاقه قولان:

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) ما ذكره المؤلف هنا موجود في تفسير البغوي ١/ ١٣٥٨ ولعله يقصد بإبراهيم إبراهيم النخعي وقد تقدمت ترجمته.

ومحمد بن عبدالوهاب هو أبو علي محمد بن عبدالوهاب الثقفي لقي أبا حفص وحمدون القصار، وكان إماماً في أكثر علوم الشرع، ثم عطل أكثر علومه واشتغل بعلم الصوفية، ومات سنة ٣٢٨هـ. انظر: طبقات الشعراني ١/ ٢٣٣، والرسالة القشيرية ٤٠٢.

(٣) في ط «ابن عباس شاب رضي الله عنهما يعرفه».

(٤) عرفة: حدها من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبال عرفة، وقيل سميت بعرفة لأن الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف وقيل غير ذلك. انظر: معجم البلدان ٤/ ١٠٤ و١٠٥.

(٥) **الخلال**: هو العود الذي يتخلل به، مختار الصحاح ١٨٧، وقد ذكر المؤلف هذا في كتابه الجواب الكافي ١٩٠ بلفظ: «قد نحل حتى عاد جلداً على عظم».

(٦) الزيادة من الجميع.

أحدهما : أنه من العشقة[1] ، وهي نبت أصفر يلتوي على الشجر ، فشبه به العاشق.

والثاني : أنه من الإفراط. وعلى القولين : فلا يوصف به الرب تعالى ، ولا[2] العبد في محبة ربه ، وإن أطلقه سكران من المحبة قد أفناه الحب عن تمييزه ، كان في خفارة صدقه و محبته.

الثامنة «التتيم»[3] : وهو التعبد ، والتذلل ، يقال : تيمه الحب أي ذلله وعبَّده وتيم الله : عبد الله ، وبينه وبين «اليتم» - الذي هو الانفراد - تلاقي في الاشتقاق الأوسط[4]، وتناسب في المعنى، فإن «المتيم» منفرد[5] بحبه وشجوه ، كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه ، وكل منهما مكسور ذليل ، هذا كسره يتم ، وهذا كسره تتيم.

التاسعة : «التعبد» : وهو فوق التَّتيم ، فإن العبد الذي[6] قد ملك المحبوب

---

(١) في ط زيادة «محركة» وانظر المصباح المنير ٤١٢.

(٢) «لا» ساقطة من غ ، أ ، ب ، ح.

(٣) انظر : لسان العرب ١٠/ ٧٥ ، والجواب الكافي ١٦٦.

(٤) الاشتقاق : نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتهما معنى وتركيباً ومغايرتهما في الصيغة ، وقيل : هو الإتيان بألفاظ يجمعها أصل واحد مع زيادة أحدهما على الآخر في المعنى ، وقيل غير ذلك وما ذكره المؤلف يقصد به : أن يكون بين اللفظين تناسب في اللفظ والمعنى دون الترتيب. انظر التعريفات ٤٩ ، والأشباه والنظائر ١/ ٦١.

(٥) في ط : «المنفرد».

(٦) في ط زيادة «هو» وانظر المصباح المنير ٣٨٩ ، والجواب الكافي ١٦٢.

رقة فلم يبق له شيء من[١] نفسه البتة ؛ بل [هو][٢] كله عبد لمحبوبه ظاهراً وباطناً، وهذا هو حقيقة العبودية ، ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم ﷺ هذه المرتبة : وصفه الله بها في أشرف مقاماته ، مقام الإسراء ، كقوله : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء : ١] ، ومقام الدعوة ، كقوله : ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن : ١٩] ومقام التحدي كقوله : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة : ٢٣] وبذلك استحق التقديم علىٰ الخلائق في الدنيا والآخرة.

وكذلك يقول المسيح ـ عليه السلام ـ لهم ، إذا طلبوا منه الشفاعة – بعد الأنبياء عليهم السلام– «اذهبوا إلىٰ محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[٣].

فسمعت[٤] شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – يقول : فحصلت له تلك المرتبة. بتكميل عبوديته لله تعالىٰ ، وكمال[٥] مغفرة الله له.

---

(١) في س «في».

(٢) الزيادة من ب.

(٣) هذا جزء من حديث الشفاعة رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ١/ ٢٠٠ و ٢٠١ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١/ ١٨٠ – ١٨٦ رقم ١٩٣ و ١٩٤.

(٤) في ط «سمعتك».

(٥) «كمال» ساقطة من ق.

وحقيقة العبودية : الحب التام ، مع الذل التام والخضوع للمحبوب ، تقول العرب : «طريق معبد» أي قد ذللته الأقدام وسهلته. حقيقة العبودية

العاشرة : «مرتبة الخلة» : التي انفرد بها الخليلان[1] - إبراهيم ومحمد صلىٰ الله عليهما وسلم - كما صح عنه [أنه قال][2] : «إن الله اتخذني خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً» وقال «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الرحمن»[3] ، والحديثان في الصحيح ، وهما يبطلان قول من قال «الخلة» لإبراهيم ، و«المحبة» لمحمد ، فإبراهيم خليله ، ومحمد حبيبه.

و«الخلة» هي المحبة التي قد[4] تخللت روح المحب وقلبه ، حتىٰ لم يبق

---

(١) في الأصل و م «الخليل» والمثبت كما في البقية.

(٢) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٣) في ق «الله» وقد رواهما مسلم في حديث واحد بلفظ مقارب دون قوله : «ولكن صاحبكم خليل الرحمن» في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ١/ ٣٧٧ و ٣٧٨ (٥٣٢) ، والترمذي ٥/ ٦٠٦ رقم (٣٦٥٥) بلفظ «ولو كنت متخذاً لاتخذت ابن أبي قحافة خليلاً وإن صاحبكم خليل الله» وقال هذا حديث حسن صحيح ، والبخاري في كتاب فضائل الأصحاب ، باب قول النبي ﷺ سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر بلفظ «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوة الإسلام ومودته» ٤/ ١٩٠ و ١٩١.

(٤) «قد» ساقطة من ط ، وانظر : الكلام عن الخلة في لسان العرب ١١/ ٢١٧ و ٢١٨ ، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٢/ ٥٥٦ - ٥٥٨.

فيه[١] موضع لغير المحبوب ، كما قيل :

قد تخلَّلتَ مسلكَ الرُّوحِ منِّي بِذا[٢] سمّيَ الخليـل خليلا

وهذا هو السر الذي لأجله - والله أعلم - أمر الخليل بذبح ولده ، وثمرة فؤاده وفلذة كبده ؛ لأنه لما سأل الولد فأعطيه ، تعلقت به شعبة من قلبه ، و«الخلة» منصب لا تقبل الشركة والقسمة ، فغار الخليل علىٰ خليله : أن يكون في قلبه موضع لغيره ، فأمره بذبح الولد ، ليخرج المزاحم من قلبه ، فلما وطَّن نفسه علىٰ ذلك ، وعزم عليه عزماً جازماً : حصل مقصود الأمر ، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة ، فحال بينه وبينه ، وفداه بالذبح العظيم ، وقيل له : ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ [الصافات : ١٠٤ و ١٠٥] أي عملت عمل المصدق ، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ نجزي من بادر إلىٰ طاعاتنا بأن نُقِرَّ[٣] عينَه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا ، وإبقاء الولد وسلامته ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ وهو اختبار المحبوب لمحبه ، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته ، فيتم نعمته عليه[٤] ، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معاً.

---

(١) في م «منه».

(٢) في ط : «ولذا» ، وانظر البيت في ديوان الصبابة ٢٢ ، بصائر ذوي التمييز ٢/ ٥٥٧ ، وذكره المؤلف في روضة المحبين ٦٤.

(٣) في ط : «إلى طاعتنا فنقر» وفي أ ، غ ، ب «أن».

(٤) في ط «عليه نعم».

وهذه الدعوة إنما دعا الله(١) بها خواص خلقه، وأهل الألباب والبصائر منهم(٢) ، فما كل أحد يجيب داعيها ، ولا كل عين قريرة بها ، وأهلها هم الذين حصلوا في وسط قبضة اليمين يوم القبضتين ، وسائر أهل اليمين في أطرافها.

فما كل عين بالحبيب قريرة ... ولا كل من نودي يجيب المناديا
ومن لم(٣) يجب داعي(٤)هداك فخلِّه ... يجب كل من أضحىٰ إلىٰ الغي داعيا
وقل للعيون الرمد إياك أن ترىٰ ... سنا الشمس فاستغشىٰ ظلام اللياليا
وسامح نفوساً لم تهيأ(٥) لحبهم ... ودعها وما اختارت ولا تك جافيا
وقل للذي قد غاب يكفي عقوبة ... مغيبك عن ذا الشأن لو كنت واعيا
ووالله لو أضحىٰ نصيبك وافراً ... رحمت عدواً حاسداً لك قاليا
ألم تر آثار القطيعة قد بدت ... علىٰ حاله فارحمه إن كنت رائيا
خفافيش(٦) أغشاها النهار بضوئه ... ولائمها(٧) قطع من الليل باديا

---

(١) في البقية عدا س ، م ، ج ، ق : «دعا إليها بها».

(٢) في غ : «معهم».

(٣) في البقية عدا ج ، س ، ق : «لا يجب».

(٤) في ج ، ق «هواك».

(٥) في البقية عدا س ، م «تهبها».

(٦) في غ «خفافيش» والمثبت كما في أ ، ب ، ق ، وفي البقية أعشاها.

والخفافيش : التي تطير بالليل ، والخفش صغر العين وضعف البصر خلقة ، والغشاء العطاء ومنه قوله تعالى : ﴿ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ انظر : مختار الصحاح ص١٨٢ و ٤٧٥.

(٧) في ج : «ولا بها» وفي ب : «ولا زمها».

فجالـت وصـالـت فيـه حتـىٰ إذا النـ ـهار بـدا اسـتخفت وأعطـت تواريـا
فيا محنة الحسناء تهدي إلىٰ امرىء ضريـر وعنـين مـن الوجـد خاليـا
إذا ظلمـة الليـل انجلـت بـضيائها يعـود لعينيـه ظلامـاً كـما هيـا
فـضِنَّ بهـا إن كنـت تعـرف قـدرَها إلىٰ أن تـرىٰ كُفْـؤاً أتـاك موافيـا
فما مهرها شيء سوىٰ الروح أيُّها الـ ـجبانُ تـأخَّرْ لـست كُفْـؤاً مـساويا
فكن أبداً حيث استقلَّت(١) ركائبُ الـ ـمحبة في ظهـر العـزائم سـاريا
وأدلج ولا تخش الظـلام فإنـه سيكفيك وجه الحب في الليل هاديـاً
وسـقها بـذكراه مطايـاك إنـه سيكفي المطايا طيب ذكراه حادياً
وعدها بروح الوصل تعطيك سيرها فـما شئت واستبق(٢) العظام البواليا
وأقـدم فإمـا مُنيـة أو مَنيَّـة تريحك من عيش به لست راضيا
فـما ثـمَّ إلا الوصل أو تلف(٣) بهـم وحسبك فـوزاً ذاك إن كنـت واعيـا
أمـا سَئِمَتْ من عيشها نفسُ والـهٍ تبيتُ(٤) بنـار البعـد تلقـىٰ المكاويـا
أمـا موتـه فـيهم حيـاة وذلـة هـو العـز والتوفيـق مـا زال غاليـا
أما يستحي من يدَّعي الحبَّ باخِلاً بـما لحبيـب عنـه يـدعوه ذا ليـا
أمـا تلك دعوىٰ كاذبٍ ليس حظُّه مـن الحـب إلا قولـه والأمانيـا

(١) في أ، ب، غ: «اتصلت» ومعنى استقل: أي مضى وارتحل، مختار الصحاح ٥٤٩.
(٢) في م: «واسبق»، وب: «والتبق».
(٣) في ط: «أو كلف».
(٤) في م: «قرنت».

أمـا أنفـس العـشاق قـول حبيبـة ... بإجماع أهل الحب وما زال فاشيا
أمـا سـمع العـشاق قـول حبيبـة ... لصب بها وافي من[1] الحب شاكيا
ولما شكوت[2] الحب قالت كذبتني ... فما لي[3] أرىٰ الأعضاء منك كواسيا
فلا حب حتىٰ يلصق القلب بالحشا ... وتخرس حتىٰ لا تجيب المناديا
وتنحل حتىٰ لا يبقىٰ لك الهوىٰ ... سوىٰ مقلة تبكي بها وتناجيا[4]

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله - .

«المَحَبَّةُ : تَعَلُّقُ القَلْبِ بَينَ الهِمَّةِ وَالأُنسِ»[5].

يعني: تعلق القلب بالمحبوب تعلقاً مقترناً بهمة المحب، وأنسه بالمحبوب، في حالتي بذله ومنعه، وإفراده بذلك التعلق، بحيث لا يكون لغيره فيه نصيب.

---

(١) «من» ساقطة من أ، غ. في م: «سلوت».

(٢) في م: «سلوت».

(٣) في الأصل، م، س: «ألست» والمثبت كما في البقية وهو كما في الرسالة القشيرية ٣٢٤.

(٤) ذكر القشيري في رسالته الثلاث الأبيات الأخيرة منها في رسالة من السري إلى الجنيد.
انظر: الرسالة القشيرية ٣٢٤، وقد ذكر المؤلف بعض هذه الأبيات في كتابه الفوائد ٧٧، وطريق الهجرتين ٤٦٥.

(٥) منازل السائرين ٨٨، وفيه «المحبة تعلق القلب بين الهمة والأنس في البذل والمنع على الأفراد».

وإنما أشار إلىٰ أنها «بين الهمة والأنس» ، لأن الهمة(١) لما كانت هي نهاية شدة الطلب ، وكان المحب شديد الرغبة والطلب : كانت «الهمة» من مقومات حُبِّه ، وجملة صفاته(٢) ، ولما كان الطلب بالهمة قد يعري(٣) عن الأنس ، وكان المحب لا يكون إلا مستأنساً بجمال محبوبه ، وطمعه بالوصول إليه ، فمن هذين يتولد الأنس : وجب أن يكون المحب موصوفاً بالأنس ، فصارت المحبة قائمة بين الهمة(٤) والأنس.

ويريد «بالبذل والمنع» أحد أمرين : إما بذل الروح والنفس لمحبوبه ، ومنعها عن غيره ، فيكون «البذل والمنع» صفة المحب ، وإما بذل الحبيب ومنعه ، فتتعلق همة المحب به في حالتي بذله ومنعه.

ويريد بالإفراد معنيين : إما إفراد المحبوب وتوحيده بذلك التعلق ، وإما فناؤه في محبته ، بحيث ينسىٰ نفسه وصفاته في ذكر محاسن محبوبه ، حتىٰ لا يبقىٰ إلا المحبوب وحده.

والمقصود : إفراد المحب لمحبوبه بالتوجُّه(٥) والمحبة. [والله أعلم](٦).

---

(١) في البقية عدا س ، م : «لأن المحبة».

(٢) في م : «صفاءه».

(٣) في م : «يقوى».

(٤) في أ : «المحبة».

(٥) في البقية عدا س ، م ، ج : «بالتوحيد».

(٦) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

فصل

قال : «وَالمحَبَّةُ : أَوَّلُ أَودِيَةِ الفَنَاءِ ، وَالعَقَبَةُ الَّتِي يَنحَدِرُ مِنهَا عَلَىٰ مَنَازِلِ المَحوِ ، وَهِيَ آخِرُ مَنزِلٍ(١) تَلتَقِي فِيهِ مُقَدِّمَةُ العَامَّةِ ، وَسَاقَةُ الخَاصَّةِ».

إنما كانت «المحبة» أول أودية الفناء : لأنها تفني خواطر المحب عن التعلق بالغير، وأول ما يفنىٰ من المحب(٢): خواطره المتعلقة بسوىٰ(٣) محبوبه ؛ لأنه إذا انجذب قلبه بكليته إلىٰ محبوبه انجذبت خواطره تبعاً [له](٤).

ويريد بمنازل المحو «مقاماته» (٥).

وأولها: محو الأفعال في فعل الحق تعالىٰ، فلا يرىٰ لنفسه ولا لغيره فعلاً.

والثاني : محو الصفات التي في فعل الحق تعالىٰ ، فيراها عارية أُعيرَها ، وهبة وُهِبَها ، ليستدل بها علىٰ بارئه وفاطره ، وعلىٰ وحدانيته وصفاته ، فيعلم بواسطة حياته : معنىٰ حياة ربه (٦) ، وبواسطة علمه وقدرته وإرادته ، وسمعه

(١) في المنازل ٨٨ : «تلقى فيه مقدمة العامة ساقة الخاصة».

(٢) في ق : «المحبوب».

(٣) في ط «بما سوى» ، أ ، ب ، غ «سوى».

(٤) الزيادة من ق.

(٥) المحو : قال في اللمع ٤٣١ : «المحو : ذهاب الشيء إذا لم يبق له أثر».

وقال في التعريفات ٢٥٨ : «المحو : فناء أفعاله في أفعال الحق».

(٦) في ق زيادة : «وقدرته» ولعلها غير مناسبة لذكره لها بعد ذلك.

وبصره، وكلامه وغضبه ورضاه [1]: معنىٰ علم ربه، وقدرته وإرادته، وسمعه وبصره، وكلامه، وغضبه ورضاه، ولولا هذه الصفات فيه لما عرفها من ربه.

وهذا أحد التأويلات في الأثر الإسرائيلي «اعرف نفسك تعرف ربك»[2].

وهذه الصفات في الحقيقة: أثر الصفات الإلهية فيه، فإنها أفعال الحق، وأفعاله موجَبُ صفاته وأسمائه، فإذن [3] عاد الأمر كله إلىٰ أفعاله، وعادت أفعاله إلىٰ صفاته.

ففي هذه المنزلة يمحو العبد شهود صفاته ووجودها الذي ليس بحقيقي، [ويثبت] [4] شهود صفات المعبود ووجودها الحقيقي، فالله سبحانه منح عبده هذه الصفات ليعرفه بها، ويستدل بها عليه، فإن لم يفعلها[5] عطل عليه طريق المعرفة والاستدلال بها، فصارت بمنزلة العدم، ولهذا يوصف الغافل عن الله بالصمم والبكم والعمي والموت، وعدم العقل.

الثالث: محو الذات، وهو شهود تفرد الحق تعالىٰ بالوجود أولاً وأبداً[6]،

---

(١) سقط من ج إلى قوله: «ولولا هذه الصفات».

(٢) في هامش ب: «قف اعرف نفسك تعرف ربك». وانظر كلام المؤلف عنه في المدارج ١/ ٤٢٧.

(٣) في ق: «فإذا».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س، م.

(٥) في س، ق: «يعقلها».

(٦) في أ: «أبداً وأزلاً».

وأنه الأول الذي ليس قبله شيء ، والآخر الذي ليس بعده شيء ، ووجود كل ما سواه قائم به ، وأثر صنعه فوجوده هو الوجود الواجب الحق ، الثابت لنفسه أزلاً وأبداً وأنه المتفرد بذلك.

وهذا «المحو» يصح باعتبارين :

أحدهما : اعتبار الوجود الذاتي ، ولا ريب في إثبات محوه بهذا الاعتبار ، إذ ليس مع الله موجود بذاته سواه ، وكل ما سواه فوجوده (١) بإيجاده سبحانه.

الاعتبار الثاني : المحو في المشهود (٢) فلا يشهد فاعلاً غير الحق سبحانه (٣) ولا صفات غير صفاته، ولا موجوداً سواه، لغيبته بكمال شهوده عن شهود غيره.

وأما محو ذلك من الوجود جملة : فهو محو الزنادقة (٤) وطائفة الاتحادية ، وصاحب المنازل وكل ولي لله بريء منهم (٥) حالا وعقيدة.

والمقصود : أن من عقبة المحبة ينحدر المحب علىٰ منازل المحو.

ولما كانت منازل المحو والفناء غاية عند صاحب المنازل جعل المحبة عقبة ينحدر منها إليها.

---

(١) في ط : «فموجود».

(٢) في ط : «المشهد» وفي غ ، ح ، ق : «المشهود».

(٣) في ق : «عن».

(٤) الزنادقة : تقدم التعريف بهم ص ٢٦٦٢ وكذلك الاتحادية نسبة لقولهم بالاتحاد وقد تقدم ص ٢٥٥٥ .

(٥) في ق : «يرجى منه».

وأما من جعل المحبة غاية : فمنازل المحو عنده أوديةٌ يصعد منها إلىٰ روح المحبة ، وليس بعد المحبة الصحيحة إلا منازل البقاء ، وأما الفناء والمحو : فعقاب[١] وأودية في طريقها عند هؤلاء. والله أعلم.

قوله : «وَهِيَ آخِرُ مَنزِلَةٍ تَلتَقِي فِيهَا مُقَدِّمَةُ العَامَّةِ وَسَاقَةُ الخَاصَّةِ»[٢].

هذا بناء علىٰ الأصل الذي ذكره ، وهو : أن المحبة[٣] ينحدر منها علىٰ أودية الفناء ، فهي أول أودية الفناء ، فمقدمة العامة : هم[٤] في آخر مقام المحبة ، وساقة الخاصة في أول منزلة الفناء[٥]. ومنزلة الفناء متصلة بآخر منزلة المحبة ، فالتقىٰ[٦] حينئذ مقدمة العامة بساقة الخاصة ، هذا شرح كلامه.

وعند الطائفة الأخرىٰ[٧] : الأمر بالعكس ، وهو أن مقدمة أرباب الفناء يلتقون بساقة أرباب المحبة ، فإنهم أمامهم في السير ، وهم أمام الركب دائماً ، وهذا بناء علىٰ أن أهل البقاء في المحبة أعلىٰ شأناً من أهل الفناء ، وهو الصواب. والله أعلم.

---

(١) في ط : «فعقبات». وبقية النسخ كما أثبت.

(٢) في المنازل ٨٨ «وهي آخر منزل تلقى فيه مقدمة العامة ساقة الخاصة».

(٣) في ج : «المنحة».

(٤) في غ : «وهي».

(٥) في البقية عدا س ، ح ، م «منزل الفناء» وبعدها سقط من ج ، «ومنزلة الفناء».

(٦) في ط : «فتلتقي».

(٧) لعله يقصد أهل الحق لقوله : «وهو الصواب».

فصل

قال: «وَمَا دُونَهَا: أَغرَاضٌ لِأعوَاضٍ»(١).

يعنىٰ ما دون المحبة من المقامات: فهي(٢) أغراض من المخلوقين لأجل أعواض ينالونها، وأما المحبون: فإنهم عبيد له(٣) والعبد ونفسه وعمله ومنافعه مِلْكٌ لسيده، فكيف يعاوضه علىٰ ملكه؟ والأجير عند أخذ أجره(٤) ينصرف والعبد في الباب لا ينصرف، فلا عبودية إلا عبودية أهل المحبة الخالصة(٥)، أولئك هم الفائزون بشرف الدنيا والآخرة، وأولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

فصل

قال: «وَالمحَبَّةُ هِيَ سِمَةُ الطَّائِفَةِ [وَعُنوانُ الطَّرِيقَةِ، وَمَعقِدُ النِّسبَةِ».

يعني: سمة هذه الطائفة](٦) المسافرين إلىٰ ربهم، الذين ركبوا جناح السفر إليه، ثم لم يفارقوه إلىٰ حين اللقاء، وهم الذين قعدوا علىٰ الحقائق، وقعد

(١) منازل السائرين ٨٩.

(٢) في أ، غ، ح «أعراض».

(٣) «له» ساقطة من الجميع.

(٤) في ط «الأجرة» وفي ب «أجرته».

(٥) في ج: «الخاصة» وبعدها في ط: «أولئك هم».

(٦) الزيادة من الجميع، وقوله في منازل السائرين ٨٩.

من سواهم علىٰ الرسوم.

و «عُنوَانُ طَرِيقتِهم» أي دليلها ، فإن العنوان يدل علىٰ الكتاب ، والمحبة تدل علىٰ صدق الطالب ، وأنه من (١) أهل الطريق.

«وَمَعقِدُ النِّسبَةِ» (٢) أي النسبة التي بين الرب و [بين] (٣) العبد ، فإنه لا نسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد والألوهية (٤) من الرب ، وليس في العبد شيء من الألوهية (٥) ، ولا في الرب شيء من العبودية ، فالعبد عبد من كل وجه ، والرب تعالىٰ هو الإله الحق من كل وجه ، ومعقد نسبة العبودية هو المحبة ، فالعبودية معقودة بها ، بحيث متىٰ انحلت المحبة ، انحلت العبودية. [والله أعلم] (٦).

فصل

درجات المحبة الدرجة الأولى

قال : «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : مَحَبَّةٌ تَقطَعُ الوَسَاوِسَ ، وَتَلَذُّ الخِدمَةَ ، وَتُسَلِّي عَنِ المَصَائِبِ» (٧).

---

(١) «من» ساقطة من غ.

(٢) «أي النسبة» ساقطة من س.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) في ط : «والربوبية».

(٥) في ط : «والربوبية».

(٦) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٧) منازل السائرين ٨٩.

قوله : «تَقطَعُ الوَسَاوِسَ» فإن الوساوس والمحبة متناقضتان [١] ، فإن المحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب علىٰ القلب ، والوساوس تقتضي غيبته عنه ، حتىٰ توسوس له نفسه بغيره ، فبين المحبة والوسواس [٢] تناقض شديد ، كما بين الذكر والغفلة ، فعزيمة المحبة : تنفي تردد القلب بين المحبوب وغيره ، وذلك سبب الوسواس [٣] ، وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغاً لوسواس [الغير] [٤] ، لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه ، وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض [٥] [عن الله تعالىٰ؟ ومن أين المحب والوسواس] [٦].

لا كان من لسواك فيه بقية ... فيها يقسم فكره ويوسوس [٧]

قوله : «وتَلَذُّ الخِدْمَةَ» أي المحب يلتذ بخدمة محبوبه ، فيرتفع عن رؤية التعب الذي يراه الخلي في أثناء الخدمة ، وهذا معلوم بالمشاهدة.

قوله : «وَتُسَلِّي عَنِ المَصَائِبِ» فإن المحب يجد في لذة المحبة ما ينسيه المصائب ولا يجد من مسِّها ما يجد غيره ، حي كأنه قد اكتسىٰ طبيعة ثانية

---

(١) في ط ، ج ، م : «متناقضان».

(٢) في البقية عدا س ، م «الوساوس».

(٣) في ط : «الوساوس».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٥) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٦) في ط : «ومن أين يجتمع الحب والوسواس».

(٧) ذكره المؤلف في كتابه الفوائد ٦٨ ، وطريق الهجرتين ٣٥٣ و ٤٣٩ ، وفي آخره : «يجد السبيل بها إليه العذل».

ليست بطبيعة[١] الخلق ؛ بل يقوىٰ سلطان المحبة ، حتىٰ يلتذ [المحب] [٢] بكثير من المصائب [التي يصيبه بها حبيبه] [٣] أعظم من التذاذ الخلي بحظوظه وشهواته ، والذوق والوجود شاهد بذلك. [والله أعلم] [٤].

فصل

منبت المحبة وثباتها ونماؤها

قال : «وَهِيَ مَحَبَّةٌ تَنبُتُ مِن مُطَالَعَةِ المِنَّةِ ، وَتَثبُتُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ ، وَتَنمُو عَلَىٰ الإِجَابَةِ بِالفَاقَةِ» [٥].

قوله : «تَنبُتُ مِن مُطَالَعَةِ [المِنَّةِ]»[٦] أي تنشأ من مطالعة العبد[٧] منة الله عليه ، ونعمه الباطنة والظاهرة ، فبقدر مطالعته[٨] ذلك تكون قوة محبته[٩] ، فإن القلوب مجبولة علىٰ حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها ، وليس للعبد قط إحسان إلا من الله ، ولا إساءة إلا من الشيطان.

---

(١) في البقية «طبيعة».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٣) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٤) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٥) منازل السائرين ٨٩ وفيه «للفاقة».

(٦) الزيادة من الجميع.

(٧) «العبد» ساقطة من أ ، ب ، غ.

(٨) «مطالعته» ساقطة من أ ، ب ، غ.

(٩) في ط «المحبة».

ومن أعظم مطالعة منَّة الله علىٰ عبده منَّة [١] تأهيله لمحبته ومعرفته ، وإرادة وجهه ، ومتابعة حبيبه ، وأصل هذا : نور يقذفه الله في قلب العبد ، فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته : أشرقت له ذاته [٢] ، فرأىٰ فيه نفسه ، وما أُهِّلت له من الكمالات والمحاسن ، فعَلَتْ به همتُه ، وقويت عزيمته ، وانقشعت عنه ظلمات نفسه[٣] وطبعه ؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرد أحدهما صاحبه ، فرقيت [الروح] [٤] حينئذ بين الهيبة والأنس إلىٰ الحبيب الأول .

نقل فؤادك حيثُ شئتَ من الهوى ما الحبُّ إلا للحبيب الأوَّلِ

كم منزلٍ في الأرض يأْلَفُه الفتى وحنينُه أبداً لأوَّل منزِلِ[٥]

وهذا النور كالشمس في قلوب المقربين السابقين[٦] ، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين ، وكالنجم في قلوب عامة المؤمنين[٧] ، فكما بين الزهرة والسهىٰ.

---

(١) «منه» ساقطة من الجميع عدا ، س ، م ، ق.

(٢) «له» ساقطة من الحميع عدا س ، م ، ق ، ج.

(٣) «نفسه» ساقطة من الجميع عدا س ، م ، ق ، ط.

(٤) في غ «فترقت» والزيادة من الجميع.

(٥) هما لأبي تمام. انظر : ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ٤/ ٢٥٣.

(٦) «السابقين» ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح.

(٧) في ط زيادة : «وتفاوتهم فيه كتفاوت» وفي س : «فكم وفي هامش ح :«أي التفاوت الذي بين أنوار الإيمان في قلوب المؤمنين كالتفاوت بين نور الزهرة والسهى ، وهما نجمان معروفان ، والسهى لا يراه إلا حاد البصر لخفائه».

قوله [١] : «وَتَثبُتُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ» أي ثباتها بمتابعة [٢] الرسول ﷺ في أعماله وأقواله وأخلاقه ، فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها ، وبحسب نقصانه يكون نقصانها ، كما تقدم : أن هذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معاً ، ولا [٣] يتم الأمر إلا بهما ، فليس الشأن في أن تحب الله ؛ بل الشأن في أن يحبك الله ، ولا يحبك [الله] [٤] إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً ، وصدقته خبرا ، وأطعْتَه أمراً ، وأحببته دعوة ، وآثرته طوعاً ، وفنيت عن حكم غيره بحكمه ، وعن محبة غيره من الخلق [٥] بمحبته ، وعن طاعة غيره بطاعته ، وإن لم يكن ذلك [٦] فلا تتعب [٧] ، [وارجع من حيث شئت فالتمس نوراً] فلست علىٰ شيء.

وتأمل قوله : ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] أي الشأن في أن الله يحبكم ، لا في أنكم تحبونه ، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب.

قوله : «وَتَنمُو عَلَىٰ الإِجَابَةِ بِالفَاقَةِ» [٨] الإجابة بالفاقة : أن يجيب الداعي

---

(١) «قوله» ساقطة من ق.

(٢) في ط زيادة «إنما يكون» وبعدها في غ «باتباع».

(٣) في م «فلا».

(٤) الزيادة من الجميع عدا س.

(٥) «الخلق» ساقطة من ق.

(٦) في م : «فإن لم تكن كذلك».

(٧) في الجميع فلا «تتعن» ثم الزيادة من الجميع.

(٨) منازل السائرين ٨٩ ، وفيه «للفاقة».

بوفور[1] الأعمال ، وهو خال منها ، كأنه لم يعملها ؛ بل يجيب دعوته بمجرد الإفلاس والفقر التام، فإن طريقة الفقر والفاقة: تأبىٰ أن يكون لصاحبها عمل ، أو حال أو مقام ، وإنما يدخل علىٰ ربه بالإفلاس المحض ، والفاقة المجردة ، ولا ريب أن المحبة تنمو علىٰ هذا المشهد ، وهذه الإجابة ، وما أعزه من مقام [وأعلاه من مشهد][2] وما أنفعه للعبد! وما أجلبه للمحبة! والله المستعان[3].

فصـــل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : مَحَبَّةٌ تَبعَثُ عَلَىٰ إِيثَارِ الحَقِّ عَلَىٰ غَيرِهِ ، وَتُلهِجُ اللِّسَانَ بِذكرِه ، وَتُعَلِّقُ القَلبَ بِشُهُودِهِ ، وَهِيَ مَحَبَّةٌ تَظهَرُ مِنْ مُطَالَعَةِ الصِّفَاتِ ، والنَّظَرِ إِلَىٰ الآيَاتِ ، وَالارتِيَاضِ بِالمقَامَاتِ»[4].

هذه الدرجة الثانية أعلىٰ مما[5] قبلها ، باعتبار سببها وغايتها ، فإن سبب الأولىٰ : مطالعة الإحسان والمنَّة ، وسبب هذه : مطالعة الصفات[6] ، وشهود معاني آياته المسموعة ، والنظر إلىٰ آياته المشهودة ، وحصول الملكة في مقامات السلوك ، وهو الارتياض بالمقامات ، وكذلك[7] غايتها أعلىٰ من غاية

---

(١) في البقية عدا س ، ج : «بموفور».

(٢) الزيادة من الجميع عدا س ، م.

(٣) هنا نهاية النسخة س.

(٤) منازل السائرين ٨٩ ، وفيه : «في الآيات».

(٥) في م : «من التي».

(٦) في أ ، ب زيادة : «والنظر إلى الآيات والارتياض» وعدمها أولى لحصول التكرار.

(٧) في البقية عدا م ، ق : «ولذلك» وفي ط بعدها زيادة «كانت».

ما قبلها.

فقوله : «تَبعَثُ عَلَىٰ إِيثَارِ الحَقِّ عَلَىٰ غَيرِهِ» أي لكمالها وقوتها [1] تقتضي من المحب [2] أن يترك لأجل الحق ما سواه ، فيؤثره علىٰ غيره ، ولا يؤثر غيره عليه وتجعل اللسان لهجاً بذكره ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

«وَتُعَلِّقُ القَلبَ بِشُهُودِهِ» لفرط استيلائه علىٰ القلب ، وتعلقه به ، حتىٰ كأنه لا يشاهد غيره.

وقوله : «وَهِيَ مَحَبَّةٌ تَظهَرُ مِن مُطَالَعَةِ الصِّفَاتِ» يعني : إثباتها أولاً [3]. ومعرفتها ثانياً، ونفي التحريف والتعطيل[4] عن نصوصها ثالثاً ، ونفي التمثيل[5] والتكييف[6] عن معانيها رابعاً ، فلا يصح له مطالعة الصفات الباعثة علىٰ

---

(١) في ط زيادة «فإنها».

(٢) في ق : «المحبة».

(٣) سقط من ق إلى قوله «ثانياً».

(٤) التحريف : هو العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره ، وهو نوعان تحريف لفظه وتحريف معناه. الصواعق المرسلة ١/ ٢١٥.

(٥) التمثيل : هو المساواة بين شيئين لمعنى مشترك بينهما.

وقد يطلق التمثيل ويراد به التشبيه ، وهو قسمان : أحدهما : تشبيه المخلوق بالخالق ، والثاني : تشبيه الخالق بالمخلوق.

انظر : الفرق بين الفرق ص١٧٠-١٧٤ ، والملل والنحل ١/ ١٠٣ - ١٧٣ ، ومختار الصحاح ٦١٤ ، والتعريفات ٨٥ و ٨٦ و ٩٥.

(٦) التكييف : هو حكاية كيفية الصفة ويقصد به التأويل الباطل. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : ومراد

المحبة الصحيحة إلا بهذه الأمور الأربعة ، وكلما أكثر قلبه من مطالعتها ، ومعرفة معانيها : ازدادت محبته للموصوف بها ، ولذلك كان [1] الجهمية - قطاع طريق المحبة - بين المحبين وبينهم السيف الأحمر.

وقوله : «وَالنَّظَرِ إِلَىٰ الآيَاتِ» أي نظر الفكر والاعتبار إلىٰ آياته المشهودة ، وفي آياته المسموعة ، وكل منهما[2] داع قوي إلىٰ محبته ؛ لأنها أدلة علىٰ صفات كماله ، ونعوت جلاله ، وتوحيد ربوبيته وإلهيته ، وعلىٰ حكمته وبره ، وإحسانه ولطفه ، وجوده وكرمه ، وسعة رحمته ، وسبوغ نعمه [3] ، فإدامة النظر فيها داع - لا محالة - إلىٰ محبته ، وكذلك الارتياض بالمقامات ، فإن من كانت له رياضة وملكة في مقامات [4] الإسلام والإيمان والإحسان : كانت محبته أقوىٰ ؛ لأن محبة الله له [5] أتم ، وإذا أحب الله عبداً أنشأ في قلبه محبته.

السلف بقولهم بلا كيف هو نفي التأويل ، فإنه التكييف الذي يزعمه أهل التأويل ، فإنهم هم الذين يثبتون كيفية تخالف الحقيقة. اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٢٢ ، وانظر : فتح رب البرية بتلخيص الحموية ٨-١١ والمصباح المنير ٥٤٦.

(١) في البقية «كانت» وفي ح : «وبذلك كانت».

(٢) وفي م : «منها».

(٣) في ط «نعمته». وسبوغ النعمة : أي كاملة وافية واسعة. انظر : مختار الصحاح ٢٨٤.

(٤) في ق : «مقام».

(٥) «له» ساقطة من ج ، م.

فصـل

الدرجة الثالثة قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : محَبَّةٌ خَاطِفَةٌ ، تَقطَعُ العِبَارَةَ ، وَتَدفَعُ الإِشَارَةَ ، وَلاَ تَنتهِي بِالنُّعُوتِ»(١).

يعني : أنها تخطف قلوب المحبين ، لما يبدو لهم من جمال (٢) محبوبهم ، ويشير الشيخ ـ رحمه الله ـ بذلك إلىٰ الفناء في المحبة والشهود (٣) ، وإن ا العبارة تنقطع دون حقيقة تلك المحبة ، ولا تبلغها ، ولا تصل (٤) إليها الإشارة ، فإنها فوق العبارة والإشارة.

وحقيقتها عندهم : فناء الحدوث في القدم ، واضمحلال الرسوم في نور الحقيقة التي تظهر لقلوب المحبين، فتملك(٥) عليها العبارة والإشارة والصفة(٦) فلا يقدر المحب أن يعبر عما يجده ؛ لأن واردها قد خطف (٧) فهمه ، والعبارة

---

(١) منازل السائرين ص٨٩ و ٩٠ ، وفيه : «وتدقق الإشارة» وفي هامش ق هذا التعليق : «أن الناظر إذا نظر إلى المحبة الصادق الذي قد كملت شروط المحبة فيه خطفته المحبة وجذبه الله من حاله... الله به ذلك فاشتغل أن يرى المحبَّ أحدٌ إلا مال إليه بقلبه وقالبه والله أعلم».

(٢) في ج : «كمال».

(٣) في ب : «المشهود».

(٤) في م : «ولا تطل».

(٥) في م : «فيمتلك».

(٦) في غ : «يصفه»

(٧) في ب : «يتخطف».

تابعة للفهم، فلا يقدر المحب أن يشير إليه أيضاً (١) إشارة تامة.

و «العبارة» عندهم: تحت «الإشارة» وأبعد منها، ولذلك (٢) جعل حظَّها القطع، وحظَّ الإشارة الدفع (٣)، فإن مقام المحبة يقبل العبارة، وهذه الدرجة الثالثة [لا تقبل] (٤) إشارة ما، ولا تقبل عبارة.

وعندهم (٥): إنما تمتنع العبارة والإشارة في مقام التوحيد، حيث لا يبقىٰ للمحبة (٦) رسم، ولا اسم، ولا إشارة، وهو الغاية عندهم كما سيأتي (٧).

والصواب: أن توحيد المحبة أكمل من هذا التوحيد الذي يشيرون إليه، وأعلىٰ مقاماً، وأجل مشهداً، وهو مقام الرسل والأنبياء، وخواصّ المقربين.

وأما توحيد الفناء، فدونه بكثير، وليس ذلك من مقامات الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، فإن توحيدَهم بقاءٌ ومحبةٌ، لا توحيد فناء وغيبة، وسكر (٨) واصطلام.

---

(١) «أيضاً» ساقطة من الجميع عدا م.

(٢) في ج: «وكذلك».

(٣) في م: «الرفع».

(٤) الزيادة من الجميع عدا ج، م، ق.

(٥) في غ: «أن تمنع»، م «تنفع».

(٦) في ح: «للمحب» وبعدها في م: «راسم».

(٧) أي بعد هذا الفصل.

(٨) السكر: قال الجرجاني: غفلة بغلبة السرور على العقل بمباشرة ما يوجبها من الأكل

ولما كان المحب عند أرباب الفناء لم يخلص إلىٰ مقام توحيد الفناء بالكلية؛ بل رسوم المحبة معه بعد ، جعلوا «المحبة» هي العقبة التي ينحدر منها إلىٰ أودية(١) الفناء كما تقدم.

والصواب الذي لاريب فيه ، عند أرباب التحقيق والبصائر :أن لسان «المحبة» أتم ، ومقامها أكمل ، وحالها أشرف ، وصاحبها من أهل الصحو بعد السكر ، والتمكين (٢) بعد التلوين (٣) ، والبقاء بعد الفناء ، ولسانه نائب عن كل لسان ، وبيانه واف بكل ذوق (٤) ، ومقامه أعلىٰ من كل مقام ، فهو أمير علىٰ

والشرب وعند الصوفية : هو غيبة بوارد قوي ، وهو يعطي الطرب والالتذاذ ، وهو أقوى من الغيبة وأتم منها. التعريفات ١٥٩وقيل: هو أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء، التعرف لمذهب أهل التصوف ١٣٨.

والاصطلام : قال الكاشاني : هو الوله الغالب على القلب وهو قريب من الهيمان.
معجم اصطلاحات الصوفية ٥٥.

وقيل : هو غلبة ترد على العقول فيستلبها بقوة سلطانه وقهره. اللمع ٤٥٠ ، وهو نوع من أنواع الفناء. انظر : زيادة في ذلك مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٣٧ - ٣٤٣ و ٥٩٣-٥٩٦.

(١) في ح «وادي» وانظر كلامه الذي أشار إليه في الفصل السادس قبل هذا الفصل.

(٢) التمكين : وهي منزلة من المنازل وسيأتي حديث المؤلف عنها وهي عندهم : البقاء بعد الفناء. انظر : المدارج ٣/ ٢١٥ و ٢١٦.

(٣) التلوين : قال في التعريفات ٩٥ ، وهو مقام الطلب والفحص عن طريق الاستقامة.
وقال الطوسي : معنى التلوين معنى التغيير ومعناه تلون العبد في أحواله. اللمع ٤٤٣ ، وانظر: معجم اصطلاحات الصوفية ١٧٤ و ١٧٥.

(٤) في م : «دون» والذوق : يقصدون به نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه يفرقون

[كل] [1] من دونه من أرباب المقامات ؛ لأن مقامه أمير علىٰ المقامات كلها.

أمير أمين[2] عليه النـدىٰ ... جـواد بخيل بأن لا يجودا

وأما كون نعوت المحبة لا تتناهىٰ : فلأن لها في كل مقام نسبة وتعلقاً به ، وهي روح كل مقام ، والحاملة له ، وأقدام السالكين إنما تتحرك بها ، فلها تعلق بكل[3] قدم ، وحال ومقـام ، فلا تتناهـىٰ نعوتها ألبتة. [والله أعلم] [4].

فصـــل

قوله : «وَهَذِهِ المحَبَّةُ : هِيَ قُطْبُ هَذَا الشَّأْنِ ، وَمَا دُونَهَا محَاب ، نَادَتْ عَلَيهَا الألَسُنُ ، وَادَّعتْهَا الخَلِيقَةُ ، وَأَوجَبْتهَا العُقُولُ» [5].

به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره. التعريفات ١٤٣.

وقال الكاشاني : هو أول درجات شهود الحق بالحق في أثناء البوارق المتوالية عند أدنى لبث من التجلي البرقي. معجم اصطلاحات الصوفية ١٨١.

وقال الطوسي : الذوق ابتداء الشرب ، وعرف الشرب بأنه تلقي الأرواح والأسرار الطاهرة لما يرد عليها من الكرامات وتنعمها بذلك. اللمع ٤٤٩.

(١) في البقية عدا م ، ج : «أمين» والزيادة من الجميع عدا م.

(٢) في ط : «أمين أمين».

(٣) «فلها تعلق بكل» ساقطة من م ، أ ، غ.

(٤) الزيادة من الجميع عدا م.

(٥) منازل السائرين ٩٠.

يريد : أن مدار شأن[1] السالكين المسافرين إلىٰ الله : علىٰ هذه المحبة الثالثة.

وإنما كان [ذلك] [2] كذلك لخلوصها من الشوائب والعلل والأغراض ، وصاحبها مراد ، ومجذوب ومطلوب ، وما دونها من المحاب : فصاحبها باق مع إرادته من محبوبه ، أما محبة الإحسان والأفعال : فظاهر.

وأما محبة الصفات : فصاحبها مع لذة روحه ونعيم قلبه بمطالعات الصفات ، فإن لذة الأرواح والعقول لا محالة في مطالعة صفات الكمال ، ونعوت الجمال[3].

وصاحب هذه المحبة الثالثة : قد ارتقىٰ عن هاتين الدرجتين ، وأخذ منه ، وغيب عنه ، وهذا مبني علىٰ أصله في كون الفناء غاية ، وقد عرفته.

وقوله : «وَنَادَت عَلَيهَا [الأَلْسُنُ]» أي وصفتها الألسن ، فأكثرت صفاتها وتمكنت من التعبير عنها.

«وَ ادَّعتْهَا][4] الخَلِيقَةُ» بخلاف الدرجة الثالثة ، فإنه لا وصول لأحد إليها إلا بالحق تعالىٰ ، فهي غير كسبية ، ولا تنال بسبب ، فلا يمكن فيها الدعوىٰ ، فإن

---

(١) في ق بدل «مدار شأن» «أرشاد».

(٢) الزيادة من الجميع عدا م ، ج ، وبعدها «كذلك» ساقطة من ق ، ح.

(٣) في ب : «الجلال».

(٤) الزيادة من الجميع.

شأنها أجلُّ من ذلك.

وقوله(١) : «وَأَوجَبَتْهَا العُقُولُ» يريد : أن العقل يحكم بوجوبها ، وهو كما قال ، فإن العقول تحكم بوجوب تقديم(٢) محبة الله علىٰ محبة النفس والأهل والمال والولد ، وكل ما سواه ، وكل من لم يحكم عقله بهذا ، فلا تعبأ بعقله ، فإن العقل والفطرة والشرعة والاعتبار(٣) ، والنظر(٤) يدعو(٥) إلىٰ محبته سبحانه ؛ بل إلىٰ توحيده في المحبة ، وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر والعقول [كما قيل](٦) :

هب الرسلَ لم تأت من عنده ... ولا أخبرت عن جمال الحبيب
أليس الواجب المستحق ... محبته في اللقا والمغيب
فمن لم يكن عقلُه آمراً ... بذا مَا لَهُ في الحِجَىٰ من نصيب
وإن العقولَ لتدعو إلىٰ ... محبة فَاطِرِها من قريب

---

(١) في البقية عدا م ، ج : «بدون الواو».

(٢) «تقديم» ساقطة من م.

(٣) الاعتبار : هو رد الشيء إلى نظيره بأن يحكم عليه بحكمه ومنه سمي الأصل الذي ترد إليه النظائر عبره. كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ٢١٥ ، وانظر التعريفات ٥٣.

(٤) النظر : هو الفكر الذي يطلب به علم أو غلبة ظن ، وهو قسمان صحيح يؤدي إلى المطلوب وفاسد يقابله. انظر : المواقف في علم الكلام ص٢١-٢٣ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ٢٠٠ - ٢٠٧.

(٥) في ط زيادة «كلها».

(٦) الزيادة من الجميع عدا م.

أليست [١] على ذاك مجبولة ... ومفطورة لا بكسب غريب
أليس الجمالُ حبيبَ القلوب ... لذات الجمال وذات [٢] القلوب
أليس جميلاً يحب الجمال؟ ... تعالىٰ إله الورىٰ عن نسيب
أما بعد ذلك إحسانه ... بداع إليه لقلب المنيب
أليس إذا كملا أوجبا ... كمال المحبة للمستجيب
فمن ذا يشابه أوصافه ... تعالىٰ إله الورىٰ عن ضريب
ومن [٣] ذا يكافئ إحسانه ... فيألهه قلب عبد منيب
وهذا دليل علىٰ أنه ... إلىٰ كل ذي الخلق أولىٰ حبيب
فيا منكراً ذاك والله ... أنت عين الطريد وعين الحريب
ويا من [٤] يحب سواه ... كمثل محبته أنت عبد الصليب
ويا من يوحد محبوبه ... ويرضيه في مشهد أو مغيب
ولو سخط الخلق في حبه [٥] ... لقال هواناً ولو بالنسيب
حظيت وخابوا فلا تبتئس ... بكيد العدو وهجر القريب [٦]

---

(١) في ح ، ج ، ق : «أليس».

(٢) في غ : «ذوات».

(٣) في ج ، ق : «وذا من».

(٤) في البقية عدا م ، ط : «فيا من».

(٥) في ط : «وجهه».

(٦) في البقية عدا م : «الرقيب».

فصل

[منزلـة الغيرة]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة: «الغيرة». منزلة الغيرة

قال الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[١] [الأعراف: ٣٣].

وفي الصحيح عن أبي الأحوص[٢] عن عبدالله بن مسعود[٣] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أغير من الله، ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وما أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه، وما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين»[٤].

---

(١) سقط من ق إلى قوله وما بطن.

(٢) أبو الأحوص عوف بن مالك بن نظلة الجُشَمِي مشهور بكنيته سمع علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود، وروى عنه أبو إسحاق وعطاء بن السائب، قتل في ولاية الحجاج على العراق.

انظر: التاريخ الكبير ٧/ ٥٦ و ٥٧، وتقريب التهذيب ٢/ ٩٠، وتاريخ بغداد ١٢/ ٢٩٠ و ٢٩١، وطبقات ابن سعد ٦/ ١٨١ و ١٨٢.

(٣) أبو عبدالرحمن هو عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي صحابي جليل مات سنة ٣٢هـ، انظر: الجرح والتعديل ٥/ ١٤٩، تقريب التهذيب ١/ ٤٥٠، الإصابة ٤/ ١٢٩.

(٤) رواه مسلم بلفظ مقارب في كتاب التوبة، باب غيرة الله وتحريم الفواحش ٣/ ٢١١٣ و ٢١١٤ (٢٧٦٠) وروى البخاري بعضه في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى:

وفي الصحيح أيضاً، من حديث أبي سلمة [١]، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وَغَيرة الله: أن يأتي العبد ما حرم الله» [٢].

وفي الصحيح أيضاً: «أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني» [٣].

ومما يدخل في الغيرة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

قال السري لأصحابه: أتدرون[٤] ما هذا الحجاب؟ حجاب الغيرة. ولا أحد

﴿ويحذركم الله نفسه﴾ وقوله جل ذكره: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ ٨/ ١٧١، وانظر: فتح الباري ١٣/ ٢٨٣، وصحيح الجامع الصغير وزيادته ٢/ ١٢٠٣ (٧١٦٥).

(١) هو الصحابي عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم المخزومي من السابقين الأولين إلى الإسلام أسلم بعد عشرة أنفس وكان أخاً للنبي ﷺ من الرضاعة مشهور بكنيته أكثر من اسمه. توفي ـ رضي الله عنه ـ في السنة الرابعة من الهجرة. انظر: الإصابة ٤/ ٩٥، والبداية والنهاية ٤/ ٩٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة – باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش ٣/ ٢١١٤ (٢٧٦١)، والبخاري في كتاب النكاح باب الغيرة بلفظ: «إن الله يغار وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله» ٦/ ١٥٦.

(٣) رواه البخاري في كتاب الحدود – باب من رأى مع امرأته رجلاً فقتله ٨/ ٣١، ومسلم في كتاب اللعان ٢/ ١١٣٦ (١٤٩٩).

(٤) المثبت كما في م و ط والرسالة القشيرية والبقية «تدرون».

أغير من الله. إن الله تعالىٰ [١] لم يجعل الكفار أهلاً لفهم كلامه ، ولا أهلاً لمعرفته وتوحيده ومحبته. فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجاباً مستوراً عن العيون ، غيرة عليه أن ينال من ليس أهلاً له.

و «الغيرة» منزلة شريفة [٢] عظيمة جداً. جليلة المقدار. ولكن الصوفية المتأخرين منهم من قلب موضوعها [٣]. وذهب بها مذهباً آخر باطلاً. سماه «غيرة» فوضعها في غير موضعها. ولُبِّس عليه أعظم تلبيس. كما ستراه.

الغيرة وأنواعها

«والغيرة» نوعان : غيرة من الشيء. وغيرة علىٰ الشيء.

والغيرة من الشيء : كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك.

والغيرة علىٰ الشيء : هي شدة حرصك علىٰ المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك في الفوز به.

و «الغيرة» أيضاً نوعان : غيرة العبد من نفسه علىٰ نفسه لنفسه [٤] ، كغيرته من نفسه علىٰ قلبه [٥]، ومن تفرقته علىٰ جمعيته ، ومن إعراضه علىٰ إقباله ، ومن

---

(١) «إن الله تعالى» ساقطة من م. وفي الرسالة القشيرية : هذا حجاب الغيرة يعني أنه لم يجعل الكافرين أهلاً لمعرفة صدق الدين. ٥٥.

(٢) في أ : «عظيمة شريفة».

(٣) في غ ، أ : «موضعها».

(٤) «لنفسه» ساقطة من الجميع عدا ج.

(٥) قال ابن القيم - رحمه الله - في المدارج ٣/ ٥٠٧ : الجمع في اللغة الضم والاجتماع الانضمام. والتفريق : ضده. وأما في اصطلاح القوم : فهو شخوص البصيرة إلى من صدرت

صيانته علىٰ ابتذاله[1] ، ومن صفاته المذمومة علىٰ صفاته الممدوحة. وهذه الغيرة خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية. وما للنفس الدنية المهينة فيها نصيب. وعلىٰ قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة.

ثم «الغيرة» أيضاً نوعان : غيرة الحق تعالىٰ علىٰ عبده[2] ، وغيرة العبد لربه لا عليه. فأما غيرة الرب علىٰ عبده : فهي أن لا يجعله للخلق[3] [عبداً] ؛ بل يتخذه لنفسه عبداً. فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين ؛ بل يفرده لنفسه. ويضن به[4] علىٰ غيرة. وهذه أعلىٰ الغيرتين.

عنه التفرقات كلها؟. وهو ثلاثة أنواع جمع وجود ، وجمع شهود ، وجمع قصود ، ومنها الصحيح والفاسد ، وكذلك ينقسم الفرق إلى صحيح وفاسد - أعني إلى مطلوب في السلوك وقاطع عن السلوك - وهو ثلاثة أنواع : فرق طبيعي وفرق إسلامي وفرق إيماني.

وقال في موضع آخر : المراد بالجمع : شهود الأفعال منسوبة إلى موجدها الحق تعالى والتفرقة : تفرق القلب في أودية الإرادات وشعابها. المدارج ٢/ ١٤٣.

وقال الكاشاني : الجمع شهود الحق بلا خلق. وقال أيضاً عن الجمعية والتفرقة : الجمعية : اجتماع الهمم في التوجه إلى الله ، والاشتغال به عما سواه. وبإزائها التفرقة : وهي توزع الخاطر للاشتغال بالخلق. معجم اصطلاحات الصوفية ٦٧.

وانظر : التعريفات ٩٢ و ١١٠ ، واللمع ٤١٦ ، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص١٤٢ و١٤٣.

(١) سقط من ط قوله : «ومن صيانته على ابتذاله».

(٢) سقط من م إلى قوله : «فهي أن لا يجعله».

(٣) الزيادة من الجميع عدا ج ، ق.

(٤) في ج : «فيه».

وغيرة العبد لربه ، نوعان أيضاً : غيرة من نفسه ، وغيرة من غيره. فالتي من نفسه : أن لا يجعل شيئاً من أعماله وأقواله وأحواله ولا أوقاته(١) وأنفاسه لغير ربه ؛ والتي من غيره : أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون. ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون.

وأما الغيرة علىٰ الله : فأعظم الجهل وأبطل الباطل. وصاحبها من أعظم الناس جهلاً. وربما أدت بصاحبها إلىٰ معاداته لربه (٢) وهو لا يشعر. وإلىٰ انسلاخه من أصل الدين والإسلام. وربما كان صاحبها شراً علىٰ السالكين إلىٰ الله من قطاع الطريق ؛ بل هو من قطاع طريق السالكين حقيقة. وأخرج قَطْع الطريق في قالب الغيرة. وأين هذا من الغيرة لله؟ التي توجب تعظيم حقوقه ، وتصفية أعماله وأحواله [لله] (٣) فالعارف يغار لله. والجاهل يغار علىٰ الله. فلا يقال : أنا أغار علىٰ الله. ولكن أنا (٤) أغار لله.

وغيرة العبد من نفسه: أهم من غيرته من غيره. فإنك إذا غِرْتَ من نفسك صَحَّت لك(٥) غيرتك لله من غيرك، وإذا غِرْت له من غيرك، ولم تغر من نفسك: فالغيرة مدخولة معلولة ولا بد(٦). فتأملها وحقق النظر فيها.

---

(١) في البقية : «وأوقاته» وقبلها في ق : «وأفعاله» بدل «أحواله».

(٢) «لربه» ساقطة من الجميع عدا ج ، م ، ق.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) «أنا» ساقطة من م.

(٥) في غ : «بك».

(٦) «ولا بد» ساقطة من م.

فليتأمل السالك اللبيب هذه الكلمات في هذا المقام، الذي زلت فيه أقدام كثير من السالكين. والله الهادي الموفق المثبت(١).

كما حكىٰ عن واحد(٢)، أنه قال: لا أستريح حتىٰ لا أرىٰ(٣) من يذكر الله. يعني غيرة عليه من أهل الغفلة وذكرهم.

والعجب أن هذا يعد من مناقبه و محاسنه.

وغاية هذا: أن يعذر فيه لكونه مغلوباً علىٰ عقله. وهو من أقبح الشطحات. وذكر الله علىٰ الغفلة وعلىٰ كل حال: خير من نسيانه بالكلية. والألسن متىٰ تركت ذكر الله - الذي هو محبوبه(٤) - اشتغلت بذكر ما يبغضه ويمقت عليه. فأي(٥) راحة للعارف في هذا؟ وهل هو إلا أشق شيء(٦) عليه، وأكرهه(٧) إليه؟

وقول آخر: لا أحب أن أرىٰ الله ولا أنظر إليه. فقيل له: كيف؟ قال: غيرة عليه من نظر [مثلي](٨) إليه.

---

(١) في م: «المسبب».

(٢) في ط زيادة: «من مشهوري الصوفية» ويقصد به دلف الشبلي. انظر: الرسالة القشيرية ٢٥٦.

(٣) في م: «أحداً».

(٤) في ط: «محبوبها».

(٥) في غ، أ، ح زيادة: «شيء» وهي غير مناسبة هنا.

(٦) «شيء» ساقطة من الجميع عدا م، ج، ق.

(٧) في ط: «أكره» و م: «وأكرهه عليه».

(٨) الزيادة من الجميع «وإليه» ساقطة من ط، وانظر هذا في الرسالة القشيرية ص٢٥٦ و ٢٥٨.

فانظر إلىٰ هذه الغيرة القبيحة ، الدالة علىٰ جهل صاحبها ، مع أنه في خفارة ذلّه وتواضعه وانكساره واحتقاره لنفسه.

ومن هذا ما يحكىٰ عن الشبلي ـ رحمه الله ـ : أنه لما مات ابنه دخل الحمام ونوَّر لحيته ، حتىٰ أذهب شعرها كله. فكل من أتاه معزياً ، قال : إيش هذا يا أبا بكر؟ قال : وافقت أهلي في قطع شعورهم. فقال له بعض أصحابه : أخبرني لم فعلت هذا؟ فقال : علمت أنهم يعزونني علىٰ الغفلة. ويقولون : آجرك الله(١) ففديت ذكرهم لله بالغفلة(٢) بلحيتي.

فانظر إلىٰ هذه الغيرة المحرمة القبيحة، التي تضمنت أنواعاً من المحرمات: حلق الشعر عند المصيبة ، وقد قال رسول الله ﷺ : «ليس منا من حلق وسَلَقَ وخرق»(٣) أي حلق شعره ، ورفع صوته بالندب والنياحة. وخرق ثيابه.

ومنها : حلق اللحية ، وقد أمر رسول الله ﷺ بإعفائها وتوفيرها.

ومنها : منع إخوانه من تعزيته ونيل ثوابها.

---

(١) في م زيادة : «فيها» وهي غير موجودة كما ذكرت الحكاية في الرسالة القشيرية.

(٢) في ط : «على الغفلة» وانظر : الرسالة القشيرية ٢٥٨.

(٣) الحلق والخرق معروفان وهما حلق الشعر وخرق الثوب وفي رواية شقه. والسلق : رفع الصوت أو شدة الكلام. انظر : مختار الصحاح ٣١٠.

والحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية ١/ ١٠٠ و ١٠١ (١٠٤).

ومنها : كراهته لجريان ذكر اسم[1] الله علىٰ ألسنتهم بالغفلة. وذلك خير بلا شك من ترك ذكره.

فغاية صاحب هذا : أن تغفر له هذه الذنوب ويعفىٰ عنه[2]. وأما أن يعد ذلك في[3] مناقبه ، وفي الغيرة المحمودة : فسبحانك. هذا بهتان عظيم.

ومن هذا : ما ذكر عن أبي الحسين النوري : أنه سمع رجلاً يؤذن. فقال : طعنه وسم الموت.

وسمع كلباً ينبح ، فقال : لبيك وسعديك. فقالوا له[4] : هذا ترك للدين. وصدقوا والله ، يقول للمؤذن في تشهده : طعنه. وسم الموت. ويلبي نباح الكلب؟.

فقال : أما ذاك فكان يذكر الله على[5] رأس الغفلة. وأما الكلب : فقد قال تعالىٰ : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء : ٤٤].

---

(١) في البقية عدا ق : «ذكر الله».

(٢) أي غاية ما يصل إليه صاحب هذا الفعل من منزلة أن يرجى له المغفرة والعفو على فعله البدعي ، وإلا فهو على خطر عظيم فكيف إذاً تجعل موارد الهلكة مناقب ومفاخر يثنى بها عليه؟!!

(٣) في ب : «من».

(٤) «له» ساقطة من ب ، م وبعدها في غ : «هذه».

(٥) المثبت كما في ج و ق والرسالة القشيرية وفي البقية : «عن» وقوله هذا في الرسالة القشيرية ص٢٥٨ و ٢٥٩.

فيا لله!! ماذا ترىٰ رسول الله ﷺ يواجه به[1] هذا القائل لو رآه يقول ذلك أو عمر بن الخطاب ، أو من عَدَّ ذلك في المناقب والمحاسن؟!.

وسمع الشبلي رجلاً يقول : جلَّ الله. فقال : أحب أن تجله عن هذا[2].

وأذن مرة. فلما بلغ الشهادتين ، قال[3] : لولا أنك أمرتني ما ذكرت معك غيرك. وقال بعض الجهال من القوم «لا إله إلا الله» من أصل القلب ، و «محمد رسول الله» من القرط[4].

ونحن نقول : محمد[5] رسول الله ، من تمام قول لا إله إلا الله. فالكلمتان يخرجان من أصل القلب ، من مشكاة واحدة. لا تتم إحداهما إلا بالأخرىٰ.

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله - :

(بَابُ الغيْرَةِ) قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ - حَاكِياً عَن نَبِيِّهِ سُلَيمَانَ عَلَيهِ السَّلاَمُ - :

(١) «به» ساقطة من الجميع عدا ق.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٥٩.

(٣) في الأصل ، غ ، م ، ق : «فقال» والمثبت كما في البقية والرسالة القشيرية وقد ذكر فيها هذين القولين في ٢٥٩.

(٤) القرط : هو ما يعلق في شحمة الأذن من الحلي. انظر : النهاية في غريب الحديث ٤/ ٤١ ، تفسير غريب الحديث ١٩٥ ، مختار الصحاح ٥٣٠ ، والقائل هو : أبو الحسن الخزفاني. الرسالة القشيرية ٢٥٩.

(٥) «محمد» ساقطة من م.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[ص :٣٣](١).

ووجه استشهاده بالآية : أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان يحب الخيل. فشغله استحسانها ، والنظر إليها - لما عُرضت عليه - عن صلاة النهار ، حتى توارت الشمس بالحجاب. فلحقته الغيرة لله من الخيل ، إذ استغرقه استحسانها ، والنظر إليها عن خدمة [مولاه](٢) وحقه. فقال : ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف غيرة لله.

قال : «**الغيرَةُ : سُقُوطُ الاحتِمَالِ ضنًّا ، وَالضِّيقُ عَن الصَّبرِ نَفَاسَةً**»(٣).

أي عجز الغيور(٤) عن احتمال ما يشغله عن محبوبه ، ويحجبه(٥) عنه ضنا به - أي بخلاً به - أن يعتاض عنه بغيره. وهذا البخل : هو محض الكرم عند المحبين الصادقين.

وأما «**الضِّيقُ عَن الصَّبرِ نَفَاسَةً**» فهو أن يضيق ذرعه بالصبر عن محبوبه.

---

(١) منازل السائرين ٩٠.

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) منازل السائرين ٩٠ ، وفي الرسالة القشيرية ٢٥٥ ، الغيرة : كراهة مشاركة الآخرين. وقال الكاشاني الغيرة : نفاسة رسم المحبوب عند المحب والضن به عن أن يتعلق المحبة بغيره أو يشغله عنه شيء أو يحجبه بحيث لا يحتمل ذلك ولا يصبر عليه. معجم اصطلاحات الصوفية ٣٠٩. وانظر : التعريفات ٢١٠.

(٤) في م : «الصبور».

(٥) في م : «ويشغله».

وهذا هو الصبر الذي لا يذم من أنواع الصبر سواه ، أو ما كان من [1] وسيلته. والحامل له علىٰ هذا الضيق : مغالاته بمحبوبه. وهي النفاسة. فإنه - لمنافسته ورغبته فيه [2] - لا يسامح نفسه بالصبر عنه. و «المنافسة» هي كمال الرغبة في الشيء ، ومنع الغير منه : إن لم تمدح [3] فيه المشاركة أو [4] المسابقة إليه إن[5] مدحت فيه المشاركة.

قال تعالىٰ : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] وبين «المنافسة» و« الغبطة » جمع وفرق، وبينهما وبين « الحسد » أيضاً جمع وفرق.

فالمنافسة : تتضمن : مسابقة واجتهاداً[6] وحرصاً. والحسد : يدل علىٰ مهانة الحاسد وعجزه ، وإلا فنافس[7] من حسدته. فذلك[8] أنفع لك من حسده ، كما قيل :

إذا أعجبتْكَ خـلالُ امـرئ   فكنْـهُ يَكُـن منك ما يعجبُـك

---

(١) «من» ساقطة من ب.

(٢) «فيه» ساقطة من الجميع عدا م ، ق ، ج.

(٣) في البقية عدا م : «بالياء».

(٤) في ط و ح : «بالواو» وفي ج : «أو المنافسة».

(٥) «أن» ساقطة من أ ، غ ، ح ، م ، ب.

(٦) في أ ، ب ، ح ، غ : «أو اجتهاداً أو حرصاً».

(٧) في غ : «والانفاس».

(٨) «فذلك» ساقطة من م.

فليس علىٰ الجـود والمكرمـا(١) ت إذا جئتَهـا حاجبٌ يحجبـُك

و «الغبطة» تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط ، واستحسان لحاله(٢).

فصـل

درجات الغيرة

قال : «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : غيرَةُ العَابِدِ عَلَىٰ ضَائِعٍ يَستَرِدُّ(٣) ضَيَاعَهُ ، وَيَستَدرِكُ فَوَاتَهُ ، وَيَتَدَارَكُ قُوَاهُ».

الدرجة الأولى

«العابد» هو العامل - بمقتضىٰ العلم النافع - للعمل الصالح. فغيرته علىٰ ما ضاع عليه من عمل صالح. فهو يسترد ضياعه بأمثاله. ويجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع التقرب(٤) بفعل أمثالها ، من جنسها و [من](٥) غير جنسها. فيقضىٰ ما ينفع فيه القضاء ، ويعوض ما يقبل فيه القضاء ، ويعوض ما يقبل العوض ، ويجبر ما يمكن جبره.

وقوله : «وَيستَدرِك فَوَاتَهُ» الفرق بين استرداد ضائعه ، واستدراك فائته ، أن الأول : يمكن أن يُسترد بعينه ، كما إذا فاته الحج في عام تمكّن منه. فأضاعه

---

(١) في غ : «والكرامات» والبيتان قيل هما : لداود بن جهور ، وقيل : لأبي العيناء. انظر : بهجة المجالس ٢/ ٧٩٦ ، ومحاضرات الأدباء ١/ ١٤٩ ، ١٥٠.

(٢) في أ ، ب ، غ : «له» بدل : «لحاله».

(٣) في ط : «يستر» وقوله في المنازل ٩٠.

(٤) في ط : «القرب».

(٥) الزيادة من م.

في ذلك العام : استدركه في العام المقبل. وكذلك إذا أخّر الزكاة عن وقت وجوبها استدركه [١] بعد تأخيرها ، ونحو ذلك.

وأما الفائت : فإنما يستدرك بنظيره. كقضاء الواجب المؤقت [٢] إذا فات وقته.

أو كون مراده باسترداد الضائع ، واستدراك الفائت [٣] : نوعي التفريط في الأمر والنهي. فيسترد ضائع هذا بقضائه وفعل أمثاله. ويستدرك فائت هذا- أي سالفه - بالتوبة والندم.

وأما «تَدَارُكُ قُوَاه» فهو أن يتدارك قوته ببذلها في الطاعة قبل أن تتبدل بالضعف. فهو يغار عليها : أن تذهب في غير طاعة الله. أو [٤] يتدارك قوىٰ العمل الذي لحقه الفتور [عنه] [٥] ، بأن يكسوه قوة ونشاطاً ، غيرة له وعليه.

فهذه [٦] غيرة العباد [علىٰ الأعمال. والله أعلم] [٧].

---

(١) في ط ، م : «استدركها» والضمير عائد على الوقت.

(٢) في ج ، ق : «في الوقت».

(٣) في ج : «الغائب».

(٤) في ط ، أ : «بالواو».

(٥) الزيادة من الجميع عدا م.

(٦) «الهاء» ساقطة من ط.

(٧) الزيادة في الجميع عدا م ، حيث سقط منها : «والله أعلم».

فصل

الدرجة الثانية قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : غَيرَةُ المُرِيدِ. وَهِيَ غيرَةٌ عَلَىٰ وَقتٍ فَاتَ. وَهِيَ غَيرَةٌ قَاتِلَةٌ. فَإِنَّ الوَقتَ وَحيُّ التَّقَضِّي ، أبِيُّ الجَانِبِ ، بَطِيُّ الرُّجُوعِ»(١).

و «المريدون» هم أرباب الأحوال ، و «العباد» أرباب الأوراد والعبادات وكل مريد عابد. وكل عابد مريد ؛ لكن القوم خصوا أهل المحبة وأذواق حقائق الإيمان باسم «المريد»، وخصوا أصحاب العمل المجرد باسم «العابد»، وكل مريد لا يكون عابداً [فهو](٢) زنديق ، وكل عابد لا يكون مريداً فمُراءٍ.

و «الوقت» عند العابد : هو وقت العبادة والأوراد. وعند المريد : هو وقت الإقبال علىٰ الله ، والجمعية عليه ، والعكوف عليه بالقلب كله.

و«الوقت» أعز شيء عليه ، يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك. فإذا فاته الوقت فلا(٣) يمكنه استدراكه ألبتة ؛ لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص ، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلىٰ تداركه. كما في المسند مرفوعاً : «من أفطر يوماً من رمضان ، من غير عذر : لم يقضه عنه صيام الدهر ، وإن صامه»(٤).

---

(١) منازل السائرين ٩٠ ، ٩١ ، وفيه : «وحي الغضب ، وقوله : «وهي غيرة» غير موجودة في المنازل.

(٢) الزيادة من م.

(٣) في البقية عدا م : «لا يمكنه».

(٤) رواه أحمد في المسند ٢/ ٣٨٦ و ٤٤٢ و ٤٥٨ ، والترمذي في الصوم - باب ما جاء في

وقوله : «وَهِيَ غَيرةٌ قَاتِلَةٌ» يعني : مضرة ضرراً شديداً بيِّنا يشبه القتل ؛ لأن حسرة الفوت قاتلة . ولا سيما إذا علم المتحسر : أنه لا سبيل له إلىٰ الاستدراك[1].

وأيضاً فالغيرة علىٰ التفويت تفويت آخر ، كما يقال : [الاشتغال][2] بالندم علىٰ الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر. ولذلك[3] يقال : الوقت سيف. فإن[4] لم تقطعه ، قطعك.

ثم بين الشيخ ـ رحمه الله ـ السبب في كون هذه الغيرة قاتلة. فقال :

«فَإِنَّ الوَقتَ وَحِيُّ التَّقَضِّي» أي سريع الانقضاء ، كما تقول العرب : «الوحا

الإفطار متعمداً ٣/ ١٠١ (٧٢٣) بلفظ مقارب وقال : لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وسمعت محمداً - أي البخاري - يقول : أبو المطوس اسمه يزيد بن المطوس ولا أعرف له غير هذا الحديث ، وقال البخاري : ويذكر عن أبي هريرة رفعه صحيح البخاري كتاب الصوم باب إذا جامع في رمضان ٢/ ٢٣٥ ، ورواه أبو داود في الصوم باب التغليظ فيمن أفطر متعمداً ٢/ ٣٢٦ (٢٣٩٦) وابن ماجه في الصيام باب ما جاء في كفارة من أفطر يوماً في رمضان ١/ ٥٣٥ (١٦٧٢) والحديث حسنه السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ٥١٧ (٨٤٩٢) وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه ص١٢٩ (٣٦٨).

(١) في غ : «استدراك».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في م : «ولهذا».

(٤) في م : «فإن لم تعطيه حقه قطعك» وفي البقية : «إن لم تقطعه إلا قطعك» وانظر : هذا القول في الرسالة القشيرية ٥٥.

الوحا أي(١) العجَل العجل» والوَحْىٰ الإعلام في خفاء وسرعة. ويقال : جاء فلان وحيًّا أي مجيئاً سريعاً. فالوقت منقضٍ بذاته ، متصرم (٢) بنفسه. فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته ، وعظم فواته ، واشتدت حسراته. فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع. وطلب الرُّجْعَىٰ فحيل بينه وبين الاسترجاع. وطلب تناول الفائت. وكيف يرد الأمس في اليوم الجديد؟ ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ : ٥٢] ومنع مما يحبه ويرتضيه ، وعلم أن ما اقتناه ليس مما (٣) ينبغي للعاقل [أن] (٤) يقتنيه ، وحيل بينه وبين ما يشتهيه.

فيا حسرات ، ما إلىٰ ردِّ مثلها سبيل ولو رُدَّت لهان التحسُّر
هي الشهواتُ اللاءِ كانت تحولت إلىٰ حسرات حين عزّ التصبرُّ(٥)
فلو أنها ردت بصبر وقوة تحولن لذات. وذو اللب يبصر

ويقال : إن(٦) أصعب الأحوال المنقطعة : انقطاع الأنفاس. فإن أربابها إذا صعدوا النفس [الواحد](٧) صعدوه إلىٰ نحو محبوبهم ، صاعداً إليه ، متلبساً

---

(١) «أي» ساقطة من ط ، وانظر : مختار الصحاح ٧١٣.

(٢) في البقية : «منصرم» والتصرم التقطع. انظر : مختار الصحاح ٣٦٢.

(٣) «مما» ساقطة من ج ، ق.

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في ب : «التبصر».

(٦) «أن» ساقطة من م.

(٧) في البقية عدا م ، ج ، ق : «صعد النفس» والزيادة من الجميع عدا م.

بمحبته والشوق إليه.

فإذا أرادوا دفعه لم يدفعوه حتىٰ يتبعوه نفساً آخر مثله. فكل[١] أنفاسهم بالله. وإلىٰ الله ملتبسة[٢] بمحبته، والشوق إليه والأنس به. فلا يفوتهم نفس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم. وكثير منهم يرىٰ في نومه: أنه كذلك، لالتباس روحه وقلبه به[٣]، فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته. ولا تستنكر هذا[٤] الحال. فإن المحبة إذا غلبت علىٰ[٥] القلب وملكته: أوجَبَت[٦] ذلك لا محالة.

والمقصود: أن الواردات والأوقات[٧] سريعة الزوال. تمر أسرع من مر[٨] السحاب، وينقضي الوقت بما فيه. فلا يعود عليك منه إلا أثره، وحكمه. فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقت. فإنه عائد عليك لا محالة ولهذا يقال للسعداء: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] و[٩] للأشقياء: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾

---

(١) في ق: «فكان».

(٢) في ط، م: «متلبسة» و أ، غ بعدها: «المحبته».

(٣) «به» ساقطة من الجميع عدا ج.

(٤) في البقية عدا ج: «هذه».

(٥) في الأصل: «من» وهو خطأ.

(٦) في ط زيادة: «له».

(٧) «والأوقات» ساقطة من ط.

(٨) «مر» ساقطة من الجميع عدا ج، م.

(٩) في ط زيادة: «يقال».

[غافر : ٧٥].

الدرجة الثالثة قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : غيرَةُ العَارِفِ عَلَىٰ عَينٍ غَطَّاهَا غَينٌ. وَسِرٍّ[١] غَشِيَهُ رَينٌ ، وَنَفَسٍ عُلِّق بِرَجَاءٍ ، أَوْ التَفَتَ إِلَىٰ عَطَاءٍ»[٢].

أي يغار علىٰ بصيرة غطاها ستر أو حجاب. فإن «الغين» [٣] بمنزلة الغطاء والحجاب. وهو غطاء رقيق جداً. وفوقه «الغيم» وهو لعموم المؤمنين. وفوقه «الرين. والران» وهو للكفار.

وقوله : «وَسِرٍّ غَشِيَهُ رَينٌ» أي حجاب أغلظ من [٤] الأول.

و«السرُّ» ههنا : إما اللطيفة [٥] المدركة من الروح ، وإما الحال التي بين العبد وبين الله. فإذا غشيه رين النفس والطبيعة استغاث صاحبه ، كما يستغيث المعذب في عذابه ، غيرة علىٰ سرِّه من ذلك الرين.

---

(١) في غ ، ح : «وستر» وهو فيها كذلك فيما سيأتي من تكرار هذه اللفظة.

(٢) منازل السائرين ٩١.

(٣) قال الكاشاني : «الغين دون الرين وهو الصدأ المذكور ، فإن الصدأ حجاب رقيق ينجلي بالتصفية ، ويزول التجلي لبقاء الإيمان معه. ثم قال : والغين : ذهول عن الشهود واحتجاب عنه مع صحة الاعتقاد. معجم اصطلاحات الصوفية ١٨٦ ، وانظر : التعريفات ٢١٠.

والرين : حجاب كثيف بين القلب والإيمان بالحق. وانظر : نفس الإحالة السابقة.

(٤) في ط زيادة : «الغيم» وهي موجودة في أ وطمس عليها.

(٥) اللطيفة : كل إشارة دقيقة المعنى يلوح منها في الفهم معنى لا تسعه العبارة. معجم اصطلاحات الصوفية ٩١.

قوله[1] : «وَنَفَسٍ عُلِّقَ بِرَجَاءٍ ، وَالتَفَتَ إِلَىٰ عَطَاءٍ».

يعني : أن صاحب النفس يغار علىٰ نفسه إذا تعلق برجاء من ثواب منفصل ، ولم يتعلق بإرادة الله و محبته. فإن بين النَّفَسين كما بين متعلقيهما.

وكذلك قوله : «أَو التَفَتَ إِلَىٰ عَطَاءٍ» يعني : أنه يلتفت إلىٰ[2] عطاء دون الله فرضي به. ولا ينبغي أن يتعلق إلا بالله ، ولا يتلفت إلا إلىٰ المعطي[3] وحده. والله أعلم.

* * *

---

(١) في ط : «وقوله».

(٢) «إلى» ساقطة من ق وفي ط : «إلى عطاء من دون».

(٣) في ط زيادة : «الغني الحميد وهو الله».

فصل

[منزلة الشوق]

منزلة الشوق

ومن منازل : « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «الشوق»(١).

قال تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ [العنكبوت :٥].

قيل : هذا تعزية للمشتاقين ، وتسلية لهم. أي أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إليَّ. فقد أجَّلتُ له (٢) أجلاً يكون عن قريب. فإنه آت لا محالة ، وكل آت قريب.

وفيه لطيفة أخرىٰ. وهي تعلل (٣) المشتاقين برجاء اللقاء.

لولا التعلل بالرجاء تقطّعت(٤) نفسُ المحب صَبابة وتشوقا
ولقد يكاد يذوب منه قلبُه مما يقاسي حسرة وتحرقا

---

(١) الشوق : قيل نزاع النفس إليه. وقيل : اهتياج القلوب إلىٰ لقاء المحبوب. وقيل : هو حركة الشوق إلىٰ الله بالمحبة المنبعثة من مطالعة تجليات الصفات. وهذا الأخير كما في معجم اصطلاحات الصوفية ٣١١ ، وانظر : الرسالة القشيرية ٣٢٩ ، والمصباح المنير ٣٢٧ ، والتعريفات ١٦٩ ، وطريق الهجرتين ٤٨٣.

(٢) «له» ساقطة من ق والقائل هو أبو عثمان الحيري. انظر : طريق الهجرتين ٤٨٤ ، والرسالة القشيرية ٣٣٢.

(٣) في ط ، ق : «تعليل».

(٤) في ط : «لقطعت».

حتــىٰ إذا رَوْحُ الرجـــاء أصابـــه ... ســكن الحريـقُ إذا تعلـل باللقـــا

وقد قال[١] النبي ﷺ في دعائه : «أسألك لذة النظر إلىٰ وجهك ، والشوق إلىٰ لقائك»[٢].

قال بعضهم :[٣] النبي ﷺ كان دائم الشوق إلىٰ لقاء الله. لم يسكن شوقه إلىٰ لقائه قط. ولكن الشوق مائة جزء[٤]. تسعة وتسعون له. وجزء مقسوم علىٰ الأمة[٥]. فأراد أن يكون ذلك الجزء مضافاً إلىٰ ما له من الشوق الذي يختص به. [والله أعلم][٦].

فصل

و«الشوق» أثر من آثار المحبة ، وحكم من أحكامها. فإنه سَفَر القلب إلىٰ المحبوب في كل حال.

---

(١) في ط : «وقد كان النبي ﷺ يقول».

(٢) تقدم تخريجه. ص ٢٨١٠ وأوله «اللهم بعلمك الغيب».

(٣) في ط زيادة : «كان» وسقطت بعد قوله : «وسلم» والقائل أبو علي الدقاق. انظر : الرسالة القشيرية ٣٣٢.

(٤) المثبت كما في غ ، ط لأجل المعنىٰ والبقية بزيادة (واو).

(٥) هذا مما لا ينبغي أن يقال إلا بدليل ، ولا أعلم في تقسيم الشوق بين النبي ﷺ وبين أمته دليلاً يركن إليه ، ولعله نقله عن كتب القوم ، وانظر في ذلك الرسالة القشيرية ص ٣٣٢.

(٦) الزيادة من الجميع عدا م.

وقيل : هو اهتياج القلوب ، إلىٰ لقاء المحبوب[١].

وقيل : هو احتراق الأحشاء[٢] ، وتلهب القلوب وتقطّع الأكباد.

و «المحبة» أعلىٰ منه ؛ لأن الشوق عنها يتولد ، وعلىٰ قدرها يقوىٰ ويضعف.

قال يحيىٰ بن معاذ - رحمه الله - : علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات[٣].

وقال أبوعثمان - رحمه الله - : علامته حب الموت[٤]، مع الراحة والعافية، كحال يوسف لما أُلقي في الجب لم يقل «توفني» ، ولما أدخل[٥] السجن لم يقل ﴿تَوَفَّنِى﴾ ولما تمَّ له الأمر [والأمن][٦] والنعمة ، قال : ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ [يوسف : ١٠١].

قال ابن خفيف[٧] ـ رحمه الله ـ : « الشوق ارتياح القلوب بالوجد ، ومحبة

---

(١) القائل هو القشيري. انظر : الرسالة القشيرية ٣٢٩.

(٢) في ط ، أ ، ب ، ح ، غ زيادة : «ومنها يتهيج ويتولد». والقائل هو أحمد بن عطاء وهذه الزيادة ليست من كلامه. انظر : الرسالة القشيرية ٣٣٠.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٣٠.

(٤) في الأصل و م : «القرب» والمثبت كما في البقية والرسالة القشيرية ٣٣٠. وأبو عثمان هو سعيد الحيري النيسابوري. وتقدمت ترجمته.

(٥) في غ : «دخل».

(٦) الزيادة من الجميع عدا م.

(٧) هو أبو عبد الله محمد بن خفيف من أصحاب رويم وأبو العباس بن عطاء من مؤلفاته التثبيت

اللقاء والقرب »[١].

وقيل : هو لهيب [٢] ينشأ بين أثناء الحشىٰ ، يسنح عن الفرقة ، فإذا وقع اللقاء طفئ.

هل الشوق يزول باللقاء

قلت : هذه مسألة نزاع بين المحبين. وهي أن الشوق هل يزول باللقاء أم لا؟ ولا يختلفون أن المحبة لا تزول [باللقاء] [٣].

فمنهم من قال : يزول باللقاء ؛ لأن الشوق هو سفر القلب [٤] إلىٰ محبوبه. فإذا قدم عليه ، ووصل إليه ، صار مكان الشوق قُرَّة عينه به. وهذه القرَّة تجامع المحبة ولا تنافيها.

قال هؤلاء : وإذا كان الغالب علىٰ القلب مشاهدة المحبوب ، لم يطرقه الشوق.

وقيل لبعضهم [٥] : هل تشتاق إليه؟ فقال : لا. إنما الشوق إلىٰ غائب. وهو حاضر.

في الوصول. توفي سنة ٣٧١هـ. انظر : حلية الأولياء ١٠/ ٣٨٥ و ٣٨٩ ، وانظر : قوله في الرسالة القشيرية ٣٣١.

(١) في البقية عدا م ، ق ، ج : «بالقرب».

(٢) في البقية عدا م : «لهب» وانظر هذا القول من دون نسبه لقائل في الرسالة القشيرية ٣٣١.

(٣) الزيادة من الجميع عدا م. وانظر : زيادة في ذلك طريق الهجرتين ٤٩٠.

(٤) في ق : «المحب».

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ٣٣١.

وقالت طائفة : بل يزيد الشوق بالقرب والوصول ، ولا يزول ؛ لأنه كان قبل الوصول علىٰ الخبر والعلم، وبعده: قد صار علىٰ العيان والشهود. ولهذا قيل:

وأبرحُ ما يكـون الشـوق يومـاً إذا دَنَتِ الخيـامُ من الخيـام[1]

قال الجنيد : سمعت السري يقول : الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق فيه وإذا تحقق في الشوق لها من كل شيء يشغله[2] عمن يشتاق إليه. وعلىٰ هذا : فأهل الجنة[3] دائما في شوق إلىٰ الله ، مع قربهم منه ورؤيتهم له.

قالوا : ومن الدليل علىٰ أن الشوق يكون حال اللقاء أعظم : أنك[4] ترىٰ المحب يبكي عند لقاء محبوبه. وذلك البكاء إنما هو من شدة شوقه إليه ، ووجده [به][5] ، ولذلك يجد عند لقائه نوعاً من الشوق ، لم يجده في حال غيبته عنه[6].

وفصل[7] النزاع في هذه المسألة : أن الشوق يراد به : حركة القلب ،

---

(١) انظر : ديوان الصبابة ٢١ ، والرسالة القشيرية ٣٣٢ ، وروضة المحبين ٤٣٥ ، وطريق الهجرتين ٤٩٠ ، وآخره : إذا دنت الديار من الديار.

(٢) في ج ، ح : «يشغل» وانظر : قوله في الرسالة القشيرية ٣٣٢.

(٣) في م :«المحبة» وبعدها في الأصل ، و م : «دائماً في الشوق» والمثبت كما في البقية وهو الأنسب.

(٤) في ط : «أنا نرىٰ» والبقية عدا م : «أما ترىٰ».

(٥) الزيادة من الجميع.

(٦) «عنه» ساقطة من م.

(٧) في البقية عدا أ ، ب ، ج : «فصل».

واهتياجه للقاء المحبوب. فهذا يزول باللقاء. ولكن يعقبه شوق آخر أعظم منه، تثير حلاوة الوصل ومشاهدة جمال المحبوب[١]. فهذا يزيد باللقاء والقرب ولا يزول. والعبارة عن هذا : وجوده. والإشارة إليه : حصوله.

وبعضهم سمَّىٰ النوع الأول : شوقاً. والثاني : اشتياقاً.

قال القشيري [٢] : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق ـ رحمه الله ـ يفرق بين الشوق والاشتياق ، ويقول : الشوق يسكن [٣] باللقاء ، والاشتياق لا يزول باللقاء ، قال : وفي معناه أنشدوا :

ما يرجع الطرفُ عنه عند رؤيته حتىٰ يعود إليه الطرفُ مشتاقاً

وقال النصراباذي ـ رحمه الله ـ : للخلق كلهم مقام الشوق ، وليس لهم مقام الاشتياق ، ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه ، حتىٰ لا يرىٰ له [٤] فيه أثر ولا قرار.

---

(١) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في طريق الهجرتين ٤٩٠ :«وفصل الخطاب في المسألة أن المحب إذا اشتاق إلىٰ لقاء محبوبه فإذا حصل له اللقاء زال ذلك الشوق الذي كان متعلقاً بلقائه ، وخلفه شوق آخر أعظم منه...إلىٰ أن قال : فاعلم أن الشوق نوعان شوق إلىٰ اللقاء ، فهذا يزول باللقاء ، وشوق في حال اللقاء وهو تعلق الروح بالمحبوب تعلقاً لا ينقطع أبداً..».

(٢) أبو القاسم عبدالكريم بن هوزان القشيري الخرساني الشافعي صاحب الرسالة القشيرية ، توفي سنة ٤٦٥هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٢٧-٢٣٣ (١٠٩) ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٣٢٩.

(٣) سقط من ق قوله : «ويقول : الشوق يسكن».

(٤) «له» ساقطة من ج ، ح ، ب ، م.

قال الدقاق ـ رحمه الله ـ في قول موسىٰ : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه : ٨٤] قال : معناه شوقاً إليك ، فستره[١] بلفظ الرضىٰ.

وقيل : إن أهل الشوق إلىٰ لقاء الله يتحسسون[٢] حلاوة القرب عند وروده - لما قد كشف [لهم][٣] من روح الوصول - أحلىٰ من الشهد ، فهم في سكراته في أعظم لذة وحلاوة ، وقيل : من اشتاق إلىٰ الله اشتاق إليه كل شيء ، كما[٤] قال بعضهم : أنا أدخل في الشوق والأشياء تشتاق إليّ ، وأتأخر عن جميعها ، وفي مثل هذا قيل :

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت عن الماء فاشتاقت إليها المناهل[٥]

وكانت عجوز مغيبة ، فقدم غائبها من السفر ، ففرح به أهله وأقاربه، وقعدت [هي][٦] تبكي ، فقيل لها : ما يبكيك؟ فقالت: ذكرني قدوم هذا[٧]

---

(١) في غ : «فستراه» والقائل أبو علي الدقاق. انظر : الرسالة القشيرية ٣٣١.

(٢) في ط ، ب ، ح : «يتحسون» والمثبت كما في غ والرسالة القشيرية ، وفي البقية مع الأصل «يتحسبون».

(٣) الزيادة من الجميع عدا م ، وانظر : هذا القول في الرسالة القشيرية ٣٣٢ وفيها «حلاوة الموت» بدل «حلاوة القرب».

(٤) انظر : الرسالة القشيرية ٣٣٣ ، و«كما» ساقطة من م.

(٥) ذكره المؤلف في كتابه بدائع الفوائد ٣/ ٧٣٠.

(٦) الزيادة من الجميع عدا م.

(٧) «هي» ساقطة من ح ، وانظر هذا القول في الرسالة القشيرية ٣٣٠.

الفتىٰ يوم القدوم علىٰ الله تعالىٰ.

يا من شكا شوقه من طول فرقته   اصبر لعلك تلقىٰ من تحب غدا(١)

وقيل : خرج داود ـ عليه السلام ـ يوماً إلىٰ الصحراء منفرداً ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: ما لي أراك منفرداً؟ فقال: إلهي استأثر شوقي إلىٰ لقائك علىٰ قلبي، فحال بيني وبين صحبة الخلق ، فقال : ارجع إليهم ، فإنك إن أتيتني بعبد آبق(٢) أثبتك في اللوح المحفوظ جهبذا(٣).

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

«الشَّوقُ : هبُوبُ القَلبِ إِلىٰ غَائِبٍ ، وَفِي مَذهَبِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ عِلَّةُ الشَّوقِ عَظيمة ، فَإِنَّ الشَّوقَ إِنَّمَا يَكُونُ إِلىٰ الغَائِبِ ، وَمَذهَبُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ إِنَّما قَامَ عَلىٰ المُشَاهَدَةِ ، وَلِهَذِهِ العِلَّةِ لَم يَنطِق القُرآنُ بِاسمِهِ»(٤).

(١) قال عبدالله بن منازل : سمعته من أبي علي الثقفي ، انظر طريق الهجرتين ٤٦٤ ، وروضة المحبين ٤٣٥.

(٢) الآبق : أي الهارب. انظر : مختار الصحاح ٢.

(٣) الجهبذ : هي لفظة فارسية وتعني الناقد أو العارف بتمييز الجيد من الرديء ، وما نقله المؤلف هنا سمعه القشيري عن أبي علي الدقاق يقول : خرج داود عليه السلام... إلىٰ آخره.
انظر الرسالة القشيرية ٣٣٠.

(٤) منازل السائرين ٩١.

معارضة المؤلف للهروي في الشوق والمشاهدة

قلت : هو صدر الباب ، بقوله تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ﴾ [فكأنه] (١) جعل «الرجاء» شوقاً بلسان الاعتبار ، لا بلسان التفسير ، أو أن دلالة «الرجاء» علىٰ الشوق باللزوم ، لا بالتضمن ولا بالمطابقة. قوله : «هبُوبُ القَلبِ إِلىٰ غَائِبٍ» يعني : سفره إليه ، وهويه (٢) إليه.

وأما العلة التي ذكرها في الشوق : فقد تقدم أن من الناس من جعل «الشوق» في حال اللقاء أكمل منه في حال المغيب ، فعلىٰ قول هؤلاء [لا] (٣) علة فيه.

وأما ما جعله سفر القلب إلىٰ المحبوب في حال غيبته عنه (٤) ، فعلىٰ قوله : يجيء كلام المصنف ـ رحمه الله ـ ووجهه مفهوم (٥) ، فإن مذهب هذه الطائفة - يريد أهل الفناء (٦) - إنما قام علىٰ المشاهدة ، فإن بدايته - كما قرره هو - المحبة التي هي نهاية مقامات المريدين ، والفناء إنما يكون مع المشاهدة ، [ومع المشاهدة] (٧) لا عمل للشوق.

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في ج ، م : «هبوبه».

(٣) الزيادة من الجميع عدا ح ، أ ، وهذا القول ذكره قبل الفصل الماضي.

(٤) «عنه» ساقطة من ج ، م.

(٥) في ط زيادة «وقوله».

(٦) في أ ، ب ، غ ، ح : «أهل الفناء يريد الفناء» ، وط : «الذي هو الفناء يريد أن الفناء».

(٧) الزيادة من الجميع.

فيقال : هذا باطل من وجوه.

أحدها : أن المشاهدة لا تُزيل الشوقَ ؛ بل تزيده ، كما تقدم [١].

الثاني : أنه لا مشاهدة أكمل من مشاهدة أهل الجنة ، وهم إلىٰ يوم المزيد -وهو يوم الجمعة - أشوق [٢] شيء ، كما في الحديث [٣] ، وكذلك هم أشوق [شيء][٤] إلىٰ رؤيته وسماع كلامه ، وهم في الجنة ، فإن هذا إنما يحصل لهم في حال دون حال ، كما في حديث ابن عمر في[٥] المسند وغيره : «إن أعلىٰ

---

(١) وهو في الفصل الماضي.

(٢) في م : «أكمل».

(٣) الحديث الذي ورد في أن يوم الجمعة هو يوم المزيد حديث طويل أوله : «أتاني جبريل - عليه السلام - وفي يديه مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء فقلت ما هذه يا جبريل ، قال هذه الجمعة... إلىٰ أن قال : فليسوا إلىٰ شيء أحوج منهم إلىٰ يوم الجمعة ليزدادوا فيه كرامة وليزدادوا فيه نظراً إلىٰ وجهه تبارك وتعالىٰ ولذلك دعي يوم المزيد» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤٢٤ رواه البزار والطبراني في الأوسط بنحوه ، وأبو يعلىٰ باختصار ورجال أبي يعلىٰ رجال الصحيح وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح غير عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان وقد وثقه غير واحد وضعفه غيرهم وإسناد البزار فيه خلاف.
وقد ذكر ابن كثير كلام العلماء علىٰ هذا الحديث وأشار بأنه روي من طرق أخرىٰ جيدة ، وأورد كلام العلماء فيه. انظر : النهاية في الفتن والملاحم ٢/ ٣٥٧ - ٣٦٠ ، وانظر الشريعة للآجري ص٢٦٥ و ٢٦٦.

(٤) الزيادة من الجميع وبعدها في ط : «رؤية ربهم».

(٥) «في» ساقطة من ط وابن عمر هو الصحابي الجليل عبدالله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - ولد سنة ثلاث من البعثة ومات سنة ٧٤هـ وقيل غير ذلك.
انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ١٠٧ - ١٠٩.

أهل الجنة منزلة : من ينظر إلىٰ وجه ربه كل يوم مرتين»[1].

ومعلوم قطعاً أن شوق هذا إلىٰ الرؤية قبل حصولها أعظم شوق[2] يقدر، وحصوله المشاهدة لأهل الجنة أتم[3] منها لأهل الدنيا.

الثالث : أنه لا سبيل في الدنيا إلىٰ مشاهدة تزيل الشوق ألبتة، ومن ادعىٰ هذا فقد كذب[4] فإنه لم يحصل هذا لموسىٰ بن عمران، كليم الرحمن، فضلاً عمن دونه، فما هذه المشاهدة التي[5] مذهب هذه الطائفة مبني عليها بحيث لا يكون معها شوق؟ أهي كمال المشاهدة عياناً وجهرة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

---

(١) الحديث أوله : «إن أدنىٰ أهل الجنة منزلة» رواه أحمد في المسند ٢/ ١٣، والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة القيامة ٥/ ٤٣١ (٣٣٣٠) وقال ورواه عبدالملك بن أبجر عن ثوير عن ابن عمر موقوفاً، وذكر سنداً آخر وقال «ولم يرفعه» وذكره الآجري في الشريعة ٢٦٩، والحاكم في المستدرك ومعه التلخيص ٢/ ٥٠٩ و ٥١٠، وقال : حديث مفسر في الرد علىٰ المبتدعة وثوير وإن لم يخرجاه فلم ينقم عليه غير التشيع وقال الذهبي : قلت بل هو واهي الحديث. وحكم السيوطي علىٰ الحديث بالضعف. انظر الجامع الصغير ١/ ١٣٣ (٢١٩٤) وكذلك الألباني قال : ضعيف. انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٤/ ٤٥٠ و ٤٥١ (١٩٨٥).

(٢) في ق : «شيء».

(٣) في ج زيادة «أو» وهي غير مناسبة.

(٤) في ط زيادة : «وافترىٰ».

(٥) في ط : «التي مبنىٰ مذهب هذه الطائفة».

أم نوع من مشاهدة القلب لمعروفه، مع اقترانها [1] بالحجب الكثيرة، التي لا يحصيها إلا الله، فهل تمنع هذه المشاهدة الشوق إلىٰ كمالها وتمامها؟ وهل الأمر إلا بالعكس في العقل والفطرة والحقيقة؟ لأن من شاهد محبوبه من بعض الوجوه، كان شوقه إلىٰ كمال [2] مشاهدته أشد وأعظم، وتكون تلك المشاهدة الجزئية سبباً لاشتياقه إلىٰ كمالها وتمامها [3]، فأين العلة في الشوق؟ وأين المشاهدة المانعة من الشوق؟

وهذا بحمد الله ظاهر [ومن نازع فيه كان مكابراً] [4]. والله أعلم.

فصل

درجات الشوق الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: شَوقُ العَابِدِ إِلَىٰ الجَنَّةِ، لِيَأْمَنَ الخَائِفُ، وَيَفرَحَ الحَزِينُ، وَيَظفَرَ الآمِلُ» [5].

يعني: شوق العابد إلىٰ الجنة فيه هذه الحكم الثلاث.

أحدها: حصول الأمن الباعث علىٰ العمل [6]، فإن الخوف المجرد عن

---

(١) في غ: «اقترانه».

(٢) «كمال» ساقطة من م.

(٣) في غ: «مقامها».

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) منازل السائرين ص٩١ و ٩٢ وفيه «ثم هو علىٰ ثلاث درجات».

(٦) في البقية عدا م، ق، ج: «الأمل».

الأمن من (١) كل وجه ، لا ينبعث صاحبه لعمل ألبتة ، إن لم يقارنه أمن (٢) ، فإن تجرد عنه قطع وصار قنوطاً (٣).

الثاني : فرح الحزين ، فإن الحزن (٤) المجرد أيضاً إن لم يقترن به الفرح قتل صاحبه ، فلولا روح الفرح لتعطّلت قوىٰ الحزين وقعد به (٥) حزنه ، ولكن إذا قعد به الحزن قام به روح الفرح.

الثالث : روح الظفر ، فإن الآمل إن لم يصحبه روح الظفر ، مات أمله. [والله أعلم] (٦).

فصل

الدرجة الثانية

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : شَوقٌ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، زَرَعَهُ الحُبُّ الَّذِي يَنبُتُ عَلَىٰ حَافاتِ المِنَنِ ، فَعَلَّقَ قَلبَهُ بِصِفَاتِهِ المقَدَّسَةِ ، فَاشتَاقَ إِلَىٰ مُعَايَنَةِ لَطَائِفِ كَرَمِهِ ، وَآيَاتِ تَدَبُّرِهِ ، وَأَعلامِ فَضلِهِ ، وَهَذَا شَوقٌ تَغشَاه المَبَارُّ ، وَتخَالجُهُ المَسَارُّ ، وَيُقَاوِمُهُ الاصطِبَارُ**» (٧).

---

(١) في ح : «عن».

(٢) في ط : «أمل».

(٣) القنوط : اليأس. مختار الصحاح ٥٥٢.

(٤) في ق : «الحزين».

(٥) «به» ساقطة من أ ، ب ، غ ، وفي البقية عدا ج ، م ، ق : «حزنه به».

(٦) الزيادة من الجميع.

(٧) منازل السائرين ٩٢ ، وفيه «نبت» بدل «ينبت وآخره» وهذا الشوق تغشاه المبار وتخالجه المسار ويقاومه الاصطبار .

الشوق إلىٰ الله[1] لا ينافي الشوق إلىٰ الجنة ، فإن أطيب ما في الجنة قربه ورؤيته ، وسماع كلامه ورضاه ، نعم الشوق إلىٰ مجرد الأكل والشرب [2] ، والحور العين في الجنة ناقص جداً ، بالنسبة إلىٰ شوق المحبين إلىٰ الله تعالىٰ؛ بل لا نسبة له إليه ألبتة ، وهذا الشوق درجتان.

أحدهما [3] : شوق زرعه الحب الذي سببه الإحسان والمنَّة ، وهو الذي قال[4] «يَنبُتُ عَلَىٰ حَافاتِ المِنَنِ» فسببه ، مطالعة منَّةِ الله ، وإحسانه ونعمه.

وقد تقدم بيان ذلك في منزلة «المحبة» ، وتبين أن محبة الأسماء والصفات أكمل وأقوىٰ من محبة الإحسان والآلاء [5].

وفي قوله : «تَنبُتُ عَلَىٰ حَافاتِ المِنَنِ» أي جوانبه ، إشارة إلىٰ عدم تمكنها

---

(١) «إلىٰ الله لا ينافي الشوق» ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح.

(٢) في ق «والشراب».

(٣) في ب ، ط : «أحداهما» ولم يصرح ابن القيم بالثاني ولكن أحال إلىٰ ما ذكره فيما تقدم ويقصد الفصول الثلاثة قبل الفصل الأخير في منزلة المحبة.

وقد قال في طريق الهجرتين ٤٩٣ في شرحه لكلام صاحب المنازل : «وفيه إشارة إلىٰ أن هذا الحب الذي هو نابت علىٰ الحافات والجوانب ، بعده حب أكمل منه وهو الحب الناشئ من شهود كمال الأسماء والصفات ، وليس هذا من نبات الحافات ولكن من الحب الأول يدخل في هذا كما تقدم».

(٤) في ط زيادة «فيه».

(٥) في أ ، غ : «الآراء».

وقوتها ، وأنها من نبات الحافات التي هي جوانب المنن ، لا من نبات الأسماء والصفات.

قوله(١) : «فَعَلَّقَ قَلْبَهُ بِصِفَاتِهِ المُقَدَّسَةِ» يعني الصفات المختصة بالمنن والإحسان كالبر [والمنان](٢) ، والمحسن ، والجواد ، والمعطي ، والغفور ، ونحوها.

وقوله : «المُقَدَّسَةِ» يعني المطهرة المنزهة عن تأويل المحرفين ، وتشبيه الممثلين(٣) ، وإنما قلنا : إن مراده هذه الصفات الخاصة لوجهين.

أحدهما : أن تعلق القلب بالصفات العامة إنما يكون في الدرجة الثالثة.

الثاني : أن جعل ثمرة هذا التعلق شوق العبد إلىٰ معاينة لطائف كرم الرب ومننه وإحسانه ، وآيات برِّه ، وهي علامات برِّه بالعبد ، وإحسانه إليه ، وكذلك «أعلام فضله» وهو ما يفضله به(٤) علىٰ غيره.

قوله : «وَهَذَا شَوقٌ تَغشَاهُ المَبَارُّ» يعني : أنه شوق معلول ، ليس خالصاً لذات المحبوب ؛ بل لما ينال منه من المبار «فقد غشيته» أي أدركته المبار.

وقوله(٥) : «وَتُخَالِجُه المَسَارُّ» أي تجاذبه ، فإن المخالجة هي المجاذبة ،

---

(١) في ط : «وقوله».

(٢) الزيادة من الجميع عدا م ، ج.

(٣) في ط زيادة : «وتعطيل المعطلين» و «به» بعد الزيادة ساقطة من م.

(٤) في ط زيادة «يفضل عليه به».

(٥) في البقية عدا أ «الواو» ساقطة.

فإذا خالط هذا الشوق الفرح ، كان ممزوجاً بنوع من الحظّ.

وقوله : «وَيُقَاوِمُه الاصطِبَارُ» أي أن صاحبه يقوىٰ علىٰ الصبر ، فيقاوم صبره شوقه ولا يغلبه ، بخلاف الشوق في الدرجة الثالثة.

فصـل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : نَارٌ أَضرَمَهَا [1] صَفوُ المَحَبَّةِ ، فَنَغَّصَتْ العَيْشَ ، وَسَلَبت السَّلوةَ ، وَلمَ يُنَهْنِهْهَا [2] مَقَرٌّ [3] دُونَ اللِّقَاءِ». الدرجة الثالثة

يريد : أن الشوق في هذه المرتبة شبيه النار [4] التي أضرمها صفو المحبة ، وهو خالصها وشبه [5] بالنار لالتهابه في الأحشاء.

وفي قوله : «صَفوُ المَحَبَّةِ» إشارة إلىٰ أنها محبة لم تكن لأجل المنة والنعم. ولكن محبة متعلقة بالذات والصفات.

قوله : «فَنَغَّصت العَيشَ» أي منعت صاحبها السكون إلىٰ لذيذ العيش ، و«التنغيصُ» قريب من التكدير.

وقوله : «وَسَلبت السَّلوةَ» أي نهبت السُّلو وأخذته قهراً.

---

(١) في ب «أضرمتها».

(٢) في ح ، ب : «يهنها».

(٣) في ط : «معزىٰ» وانظر قوله في المنازل ٩٢ ، وفيه «معز دون».

(٤) في ط «بالنار».

(٥) في البقية عدا م : «وشبهه».

و«السَّلوة» هي الخلاص من كرب المحبة ، وإلقاء حملها عن الظهر ، والإعراض عن المحبوب تناسياً.

وقوله : «**لَمَ يُنَهْنِها**[1] **مَقَرٌّ دُونَ اللِّقَاءِ**» أي لم يكفها و[لم] [2] يردها قرار دون لقاء المحبوب ، وهذه لا يقاومها الاصطبار ؛ لأنه لا يكفها دون لقاء من يحب قرار[3].

* * *

(١) في غ ، ح ، ب : «يهنها» وط : «ينهنها معزىً».

(٢) الزيادة من ق.

(٣) «قرار» ساقطة من ق.

فصل

[منزلة القلق]

منزلة القلق

وقد يقوي هذا الشوق، ويتجرد عن الصبر، فيسمىٰ «قلقاً» وبذلك سماه صاحب المنازل، واستشهد عليه بقوله - حاكياً عن كليمه موسىٰ -: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، فكأنه فهم أن عجلته إنما حمله عليها القلق، وهو (١) تجريد الشوق للقائه وميعاده.

وظاهر الآية أن الحامل لموسىٰ علىٰ العجلة (٢) طلب رضىٰ ربه، وأن رضاه في المبادرة إلىٰ أوامره، والعجلة إليها ولهذا (٣) احتج السلف بهذه الآية علىٰ أن الصلاة في أول الوقت أفضل، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية(٤) يذكر ذلك، قال: لأن (٥) رضىٰ الرب في العجلة إلىٰ أوامره.

ثم حده صاحب المنازل - رحمه الله - بأنه: «تَجرِيدُ الشَّوقِ بِإِسقَاطِ الصَّبرِ» أي تخليصه(٦) من كل شائبة بحيث يسقط معه الصبر، فإن

---

(١) في م: «وهي».

(٢) في ط زيادة «هو» وبعدها في أ، غ «طلب رضائه».

(٣) في غ: «وكهذا»

(٤) انظر مجموع الفتاوىٰ ٢٢/ ٧٦

(٥) في البقية عدا ج، م، ق «إن»

(٦) منازل السائرين ٩٣، وفيه «تحريك الشوق» وفي البقية بعده عدا م «تخلصه».

قارنه[١] اصطبار فهو شوق.

درجات القلق

ثم قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : قَلَقٌ يُضَيِّقُ الخُلُقَ ، وَيَبغِّضُ الخَلقَ ، وَيُلَذِّذُ المَوتَ»[٢].

الدرجة الأولى

يعني : يضيق خلق صاحبه عن احتمال الأغيار، فلا يبقىٰ فيه اتساع لحملهم، فضلاً عن تقييدهم له ، وتعوقه[٣] بأنفاسهم.

و «يُبَغِّضُ الخَلقَ» يعني : لا شيء أبغض إلىٰ صاحبه من اجتماعه بالخلق ، لما في ذلك من التنافر بين حاله وبين خلطتهم.

وحدثني بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - قال : كان في بداية أمره : يخرج أحياناً إلىٰ الصحراء يخلو عن الناس ، لقوة ما يرد عليه ، فتبعته يوماً فلما أصحر تنفس الصعداء ثم جعل يتمثل بقول الشاعر - وهو لمجنون ليلىٰ[٤] من قصيدته الطويلة - :

والقلق : في اللغة الانزعاج. انظر : مختار الصحاح ٥٤٩.

ويقصدون به هنا كما عرفه الكاشاني بقوله : تحريك الشوق صاحبه بإسقاط صبره ، ثم ذكره أوصافه في البدايات والأبواب والمعاملات. انظر : معجم اصطلاحات الصوفية ٣١٣.

(١) في ج «فاز به».

(٢) منازل السائرين ٩٣.

(٣) في م «وتعويقه».

(٤) من هنا إلىٰ بداية البيت ساقط من ق. ومجنون ليلىٰ هو قيس بن الملوح العامري ، توفي سنة ٦٨هـ ، وانظر البيت في ديوان مجنون ليلىٰ شرح يوسف فرحات ٢١٢.

وأخرجُ من بين البيوت لعلّني أُحدِّثُ عنك النفسَ بالسِّر خالياً

وصاحب هذه الحال : إن لم يرده [الله] [1] سبحانه إلىٰ الخلق بتثبيت وقوة ، وإلا فإنه لا صبر له علىٰ مخالطتهم.

وقوله[2] : «وَيُلَذِّذُ المَوتَ» فإن صاحبه يرجو فيه لقاء محبوبه ، فإذا ذكر الموت الْتذَّ به ، كما يلتذ المسافر بتذكر قدومه علىٰ أهله وأحبابه.

فصل

الدرجة الثانية

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : قَلَقٌ يُغَالِبُ العَقلَ ، وَيُخلِي السَّمعَ ، وَيُطَاوِلُ الطَّاقَةَ»[3]. أي يكاد[4] يقهر العقل ويغلبه ، فهو والعقل تارة وتارة ، ولكن لما لم[5] يصل إلىٰ درجة الشهود لم يصطلمه ، فإن العقل لا يصطلمه إلا الشهود ، ولذلك قال «يغالب» ولم يقل «يغلب».

وأما إخلاؤه السمع[6] فهو يتضمن إخلاءه من شيء ، وإخلاءه لشيء ، فيخليه من استماعه ذكر الغير ، ويخليه لاستماعه أوصاف المحبوب، وذكره وحديثه،

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) في البقية عدا م ، ج «قوله».

(٣) منازل السائرين ٩٣ وفيه «ويصاول» وفي م «الطاعة».

(٤) في ج زيادة «لا» وهي غير مناسبة.

(٥) «لما» ساقطة من م ، «لم» ساقطة من غ.

(٦) في الأصل ، م ، ج «للسمع» والمثبت كما في البقية موافقة للمنازل.

وقد يقوىٰ إلىٰ أن يبعد بين قلب صاحبه وبين إدراك الحواس ، لانقهار الحس لسلطان القلق.

وقوله [١] : «وَيُطَاوِلُ الطَّاقَةَ» يعني يصابرها ويقاومها ، فلا تقدر طاقة الاصطبار علىٰ دفعه وردِّه. [والله أعلم] [٢].

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : قَلَقٌ لاَ يَرحَمُ [٣] أَبَداً ، وَلاَ يَقبَلُ أَمَداً ، وَلاَ يُبقِي أَحَداً»، يريد : أن هذا القلق له القهر والغلبة ؛ لأنه ربما كان عن شهود ، فإذا لق بالقلب لم يبق عليه حتىٰ يلقيه في فناء الشهود.

«وَلاَ يَقبَلُ أَمَداً» أي لا يقبل حداً ومقداراً يقف عنده ، وينقضي به ، كما ينقضي ذو الأمد ، فإنه حاكم غير محكوم عليه ، مالك للقلب غير مملوك له.

«وَلاَ يُبقِي أَحَداً» أي يلقىٰ صاحبه في الشهود الذي تفنىٰ فيه الرسوم ، وتضمحل ، فلا يبقي معه علىٰ أحد رسمه حين [٤] يفنيه [والله أعلم].

---

(١) في البقية بدون «الواو».

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) في ج «لا يزاحم» وقوله في المنازل ٩٣.

(٤) في ط : «حتىٰ» والزيادة من الجميع.

فصل

[منزلة العطش]

منزلة العطش

ثم يقوىٰ هذا «القلق» ويتزايد حتىٰ يورث القلب حالة شبيهة بشدة ظمأ الصادي الحرّان إلىٰ الماء، وهذه الحالة هي التي يسميها صاحب المنازل «العطش» واستشهد عليه بقوله تعالىٰ عن الخليل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] كأنه أخذ من إشارة الآية، أنه [١] لشدة عطشه إلىٰ لقاء محبوبه - لما رأىٰ الكوكب - قال هذا ربي، فإن العطشان إذا رأىٰ السراب ذكّره [٢] الماء، فاشتدّ عطشه إليه.

وهذا ليس معنىٰ الآية قطعاً، وإنما القوم مولعون بالتعلُّق [٣] بالإشارات، وإلا فالآية قد قيل إنها علىٰ تقدير الاستفهام، أي أهذا ربي؟ وليس بشيْء وقيل: إنها علىٰ وجه إقامة الحجة علىٰ قومه، فتصور بصورة الموافق، ليكون أدعىٰ إلىٰ القبول [٤]، ثم توسل بصورة الموافقة إلىٰ

---

(١) «أنه» ساقطة من غ، ح، ب.

(٢) في ط «ذكر به».

(٣) «بالتعلق» ساقطة من ط.

(٤) ذكر الإمام البغوي هذه الأقوال وغيرها وخلاصتها أن بعضهم قال: كان إبراهيم - عليه السلام - مسترشداً طالباً للتوحيد.. وأنكر آخرون هذا القول وقالوا: لا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو موحد وبه عارف.. ثم قالوا: فيه أربعة أوجه من

إعلامهم[1] بأنه لا يجوز أن يكون المعبود ناقصاً آفلا ، فإن المعبود الحق لا يجوز أن يغيب عن عابديه وخلقه ، ويأفل عنهم ، فإن ذلك منـــاف لربوبيته لهـــم ، أو أنه انتقـل في[2] مراتب الاستدلال علىٰ المعبود حتىٰ أوصله الدليل إلىٰ الذي فطر السماوات والأرض ، فوجه إليه وجهه حنيفاً موحداً ، مقبلاً عليه ، معرضاً عما سواه. [والله سبحانه أعلم][3].

فصـل

قال : «العَطَشُ : كِنَايَةٌ عَن غَلَبَةِ وُلُوعٍ بِمَأْمُولٍ»[4].

«الوُلُوعُ» بالشيء : هو التعلق به بصفة المحبة ، مع أمل الوصول إليه.

وقيل في حد « الولوع » إنـه كثرة ترداد القلب إلىٰ الشيء المحبوب. كما

التأويل : أحدها : أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أراد أن يستدرج القوم بهذا القول... والوجه الثاني : أنه قاله علىٰ وجه الاستفهام تقديره أهذا ربي... والوجه الثالث : أنه علىٰ وجه الاحتجاج عليهم ، يقول : هذا ربي بزعمكم؟... الوجه الرابع : فيه إضمار وتقديره يقولون هذا ربي

انظر : تفسير البغوي ٣/ ١٦١ و ١٦٢.

(١) في ق : «بإعلامهم».

(٢) في البقية عدا م : «من».

(٣) الزيادة من الجميع عدا ب ، م.

(٤) منازل السائرين ٩٤ ، وفي معجم اصطلاحات الصوفية ٣١٥ هو عطش السالك إلىٰ ما يبلغه إلىٰ المطلوب ويروّحه بشهود المحبوب.

يقال : فلان مولع بكذا ، وقد ولع به[1].

وقيل : هو لزوم القلب للشيء. فكأنه مثل : أُغْرِىٰ به ، فهو مُغرىٰ.

درجات العطش الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. [الدَّرَجَةُ][2] الأُولَىٰ : عَطَشُ المُرِيدِ إِلَىٰ شَاهِدٍ يُروِيه[3] ، أَو إِشَارَةٍ تَشفِيه ، أَو عَطفَةٍ تُروِيه»[4].

لما كان المريد من أهل طلب الشواهد والشاهد[5] علىٰ الاعتبار ، ومثير العزمات ، وتعلق العباد بالأعمال.

وقوله : «شَاهِدٍ يُروِيه» يحتمل : أنه من الرواية. أي يرويه عمن أقامه له. فيكون ذلك إشارة إلىٰ شواهد العلم. فهو شديد العطش إلىٰ شواهد يرويها عن الصادقين من أهل السلوك ، يزداد بها تثبيتاً وقوة وبصيرة[6]. فإن المريد إذا تجددت له حالة ، أو حصل له وارد : استوحش من تفرده بها. فإذا قام عنده بمثلها شاهد حال لمريد[7] آخر صادق ، قد سبقه إليها : استأنس بها أعظم استئناس. واستدل بشاهد ذلك المريد علىٰ صحة شاهده. فلذلك يشتد عطشه

---

(١) في ط «أولع به» وم «ولع بكذا» وانظر النهاية في غريب الحديث ٥/ ٢٢٦.

(٢) الزيادة من ح.

(٣) في م «مشاهدة ترويه» وبعدها في ق «وإشاره».

(٤) في ح «عطفيه» وق «عطف» وط «عطفه تؤديه» وهو كذلك في المنازل.

(٥) «والشاهد» ساقطة من الجميع عدا ش ، م ، ق.

(٦) في البقية عدا ق ، م «وقوة بصيره» وفي م «وتبصر».

(٧) في ق : «بمثلها حال المريد» و ج «شاهد حال المريد».

إلىٰ شاهد يرويه عن الصادقين.

ويحتمل : أنه من الرِّيِّ - فيكون مضموم الياء - [١] : إذا حصل له الرِّيُّ بذلك الشاهد. ونزل علىٰ قلبه منزلة [٢] الماء البارد من الظمآن. فقرت عنده صحته [٣] ، وأنه شاهد حق.

ويُرجح هذا : ذكر الرِّي مع العطش.ويُرجح الأول : ذكره لفظة [٤] «الري» في قوله : «أَو عَطفَةٍ تُروِيه» والأمر قريب.

قوله : «أَو إِشَارَةٍ [٥] تَشفِيه» أي تشفي قلبه من علة عارضة. فإذا وردت عليه الإشارة إما من صادق مثله ، أو من عالم ، أو من شيخ مسلك[٦] ، أو من آية فهمها ، أو عبرة ظفر بها - : اشتفىٰ [٧] بها قلبه . وهذا معلوم عند من له ذوق.

قوله : «أَو إِلَىٰ عَطفَةٍ تُروِيه» أي عطفة من جانب محبوبه عليه ، تروي لهيب عطشه وتبرده[٨]. فلا شيء أروىٰ لقلب المحب من عطف محبوبه عليه. ولا

---

(١) في ط زيادة «يعمي» وبعدها في م «فإذا».

(٢) في ج «بمنزلة».

(٣) في م «فقرب عند صحته» وفي البقية «فقرر عنده».

(٤) في غ ، ق : «لفظ».

(٥) «أو إشارة» ساقطة من ب.

(٦) في أ ، غ : «ملك».

(٧) في غ : «استشفىٰ» و م «أشفىٰ».

(٨) في الأصل وم : «وترده» والمثبت كما في البقية لموافقة ما قبلها.

شيء أشد للهيبه وحريقه[1] من إعراض محبوبه عنه. ولهذا كان عذاب أهل النار باحتجاب[2] ربهم عنهم : أشد عليهم مما هم فيه من العذاب الجسماني. كما أن نعيم أهل الجنة - برؤيته تعالىٰ وسماع خطابه ورضاه وإقباله- أعظم من نعيمهم الجسماني.

فصل

الدرجة الثانية

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : عَطَشُ السَّالِكِ إِلَىٰ أَجَلٍ يَطوِيه ، وَيَومٍ يُرِيه[3] مَا يُغنِيه، وَمَنزِلٍ يَستَرِيحُ فِيه**»[4].

إما أن يريد بالأجل الذي يطويه : انقضاء مدة سجن القلب والروح في البدن ، حتىٰ تصل إلىٰ ربها وتلقاه ، وهذا هو الظاهر من كلامه.

وإما أن يريد به : عطشه إلىٰ مقصود السلوك من وصوله إلىٰ محبوبه ، وقرة عينه وجمعيته عليه. فهو يَطْوي مراحل سيره حثيثاً ، ليصل إلىٰ هذا المقصود ، وحينئذ يعود له[5] سير آخر وراء هذا السير ، مع عدم مفارقته له. فإنه إنما وصل به[6]. فلو فارقه لانقطع انقطاعاً كلياً. ولكن يبقىٰ له سير ، وهو مستلق علىٰ

---

(١) في م : «وإحراقه».

(٢) في ج : «احتجاب».

(٣) في غ : «يرويه».

(٤) منازل السائرين ، ٩٤.

(٥) في البقية عداج : «إليه».

(٦) في ط زيادة «له».

ظهره ، يسبق به السُّعاة.

ويرجح هذا المعنىٰ الثاني : أن المريد الصادق لا يحب الخروج من الدنيا ، حتىٰ يقضي نحبه [١] ، لعلمه أنه لا سبيل له [٢] إلىٰ انقضائه في غير هذه الدار ، فإذا علم أنه قد قضىٰ نحبه : أحبّ حينئذ الخروج منها ، ولكن لا يقضي العبد[٣] نحبه حتىٰ يوفّي ما عليه.

والناس ثلاثة: موف قد قضىٰ نحبه ، ومنتظر للوفاء ساع[٤] فيه حريص عليه ، ومفرط في وفاء ما عليه من الحقوق. والله المستعان.

قوله : «وَيَومٍ يُرِيه[٥] مَا يُغنِيه» أي يوم يرىٰ فيه ما يغْني قلبه ، ويسد فاقته من قرة عينه بمطلوبه ومراده.

وقوله[٦] : «وَمَنزِلٍ يَستَرِيحُ فِيه» أي منزل من منازل السير ، ومقام من مقامات الصادقين ، يستريح فيه قلبه ، ويسكن فيه. ويخلص من تلون الأحوال عليه. فإن المقامات منازل ، والأحوال مراحل ؛ فصاحب الحال ، شديد العطش إلىٰ

---

(١) في غ : «لا لعلمه» وهو خطأ. والنحب : المدة والوقت ومنه قضىٰ نحبه أي مات. مختار الصحاح ٦٤٨.

(٢) «له» ساقطة من الجميع عدا ج ، م.

(٣) «العبد» ساقطة من الجميع عدا م.

(٤) في غ : «وساع».

(٥) في غ : «يرويه».

(٦) في البقية عدا ق ، م ، ج «قوله».

مقام يستقر فيه وينزله.

فصل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : عَطَشُ المُحِبِّ إِلَىٰ جَلوةٍ ، مَا دُونَهَا سَحَابُ عِلَّةٍ ، وَلاَ يُغَطِّيهَا حِجَابُ تَفْرِقَةٍ ، وَلاَ يُعَرِّجُ دُونهَا عَلَىٰ انتِظَارٍ»[1]. الدرجة الثالثة

عطش المحب : فوق عطش المريد ، والسالك. وإن كان كل محب سالكاً وكل مريد سالكاً. وكل سالك ومريد محب[2]. لكن خص «المحب» بهذا الاسم لتمكنه في[3] المحبة ، ورسوخ قلبه فيها. والمريد والسالك : يشمران إلىٰ علمه الذي رفع له ، ووصل إليه. ولذلك جعل الأولىٰ : لأهل البدايات. والثانية للمتوسطين. والثالثة : لأهل النهايات.

قوله : « عَطَشُ المُحِبِّ إِلَىٰ جَلوةٍ مَا دُونَهَا سَحَاب » .

يريد بالجلوة[4] : استجلاء القلب لصفات المحبوب ومحاسنه ، وانكشافها له.

وقوله : «مَا دُونَهَا سَحَاب» أي لا يسترها شيء من سُحُب النفس. وهي

---

(١) منازل السائرين ٩٤.

(٢) في أ ، ب ، غ ، ح : «وكل سالك مريد وكل مريد محب»

(٣) في ط ، ج «من»

(٤) في م : «بالخلوه»

سحب العلل التي هي بقايا في العبد ، تحول بينه وبين استجلابه[1] صفات محبوبه ، وتعوقه عنه. فمهما بقي في العبد بقية من نفسه ، فهي سحاب وغيم ساتر علىٰ قدره. فكثيف ورقيق ، وبين بين.

قوله : «وَلاَ يُغَطِّيهَا حِجَاب» الحجب[2] في لسان الطائفة : النفس وصفاتها وأحكامها ، وهم مجمعون علىٰ أن النفس من أعظم الحجب ؛ بل هي الحجاب الأكبر ، فإن حجاب الرب سبحانه عن ذاته هو «النور. لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه»[3] ، وحجابه من عبده : هو نفسه وظلمته ، فلو كشف عنه هذا الحجاب لوصل إلىٰ ربه. والوصول عند القوم : عبارة عن ارتفاع هذا الحجاب وزواله[4]. فالحجاب الذي يشتد علىٰ

---

(١) في م : «استحلائه» وفي البقية عدا ب : «استجلائه».

(٢) في ط «الحجاب» ، والحجاب كما عرفه الجرجاني : كل ما يستر مطلوبك ، وهو عندهم : انطباع الصور الكونية في القلب المانعة لقبول تجلي الحق. التعريفات ١١٥ . وقال في اللمع ٤٢٨ : «والحجاب : حائل يحول بين الشيء المطلوب المقصود وبين طالبه وقاصده» .
وانظر : معجم اصطلاحات الصوفية ٨١.

(٣) الحديث أوله : «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام» رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب قوله عليه السلام إن الله لا ينام وفي قوله حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه ١/ ١٦١-١٦٢ (١٧٩) ، ومعنىٰ سبحات وجهه كما جاء في هامش صحيح مسلم في الإحالة السابقة : نوره وجلاله وبهاؤه. وانظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٣٢.

(٤) في م زيادة : «والحجاب» وهي غير مناسبة.

المحب(١) ، ويشتد عطشه إلىٰ زواله : هو حجاب الظلمة والنفس. وهو الحجاب الذي بينه هو (٢) وبين الله.

مشاهدة الله في الدنيا أمر محال

وأما الحجاب الذي بين الله وبين خلقه - هو (٣) حجاب النور - فلا سبيل إلىٰ كشفه في هذا العالم ألبتة. ولا يطمع في ذلك بشر. ولم يكلم الله بشراً إلا من وراء حجاب وهذا الحجاب كاشف للعبد ، موصل له إلىٰ مقام الإحسان الذي يعبر عنه القوم بمقام «المشاهدة» والأول ساتر للعبد. قاطع له ، حائل بينه وبين الإحسان ، وحقيقة الإيمان.

والتفرقة كلها عندهم حجب ، إلا تفرقة في الله وبالله ولله. فإنها لا تحجب العبد عنه بل توصله إليه ، فلذلك قال : «وَلاَ يُغَطِّيهَا حِجَابُ تَفرِقَة» فإن التفرقة إنما تكون حجاباً إذا كانت بالنفس ولها.

قوله : «وَلاَ يُعَرِّجُ دُونهَا عَلَىٰ انتِظَار» يعني : لا يعرج المشاهد(٤) لما يشاهده علىٰ انتظار أمر آخر وراءها. كما يعرج المحب المحجوب علىٰ انتظار زوال حجابه. والمراد : أنه حصل له مشهد تام. لا يبقىٰ له بعده ما ينتظره.

---

(١) في أ ، ب ، غ : «الحجب».

(٢) «هو» ساقطة من ط.

(٣) في ط : «وهو» وج ، ح : «فهو».

(٤) في غ : «المشاهدة» وهو خطأ.

وهذا عندي وهْمٌ بيِّن. فإنه لا غاية لجمال المحبوب ، وكمال صفاته. بحيث يصل المشاهد لها إلىٰ حالة لا ينتظر معها شيئاً آخر.

[هذا] (١). وسنبين - إن شاء الله - أنه لا يصح لأحد في الدنيا مقام «المشاهدة» أبداً ، وأن هذا من أوهام القوم وتُرَّهَاتهم. وإنما غاية ما يصل إليه العبد : الشواهد. ولا سبيل لأحد قط في الدنيا إلىٰ مشاهدة الحق. وإنما وصوله إلىٰ شواهد الحق. ومن زعم غير هذا فلغلبة الوهم عليه ، وحسن ظنه بترهات القوم وخيالاتهم.

ولله در الشبلي حيث سئل عن المشاهدة؟ فقال : من أين لنا مشاهدة الحق؟ لنا شاهد الحق (٢). هذا ، وهو صاحب الشطحات المعروفة ، وهذا من أحسن كلامه وأمتنه (٣).

وأراد بشاهد الحق : ما يغلب علىٰ القلوب الصادقة العارفة [الصافية] (٤) : من ذكره ومحبته، وإجلاله وتعظيمه ووقاره (٥)، بحيث يكون ذلك حاضراً فيها،

---

(١) الزيادة من الجميع. وسوف يتكلم المؤلف عن ذلك في منزلة المشاهدة.

(٢) «لنا شاهد الحق» ساقطة من ق ، ج ، وانظر قوله في الرسالة القشيرية ٨٦ بلفظ : «الحق لنا شاهد» ، وانظر شيئاً من شطحاته في ترجمته في الطبقات الكبرىٰ للشعراني ص١٤٨-١٥١ ومن شطحاته أيضاً انظر اللمع ص٤٧٨-٤٩١.

(٣) في البقية عدا م ، ج ، ق : «وأبينه».

(٤) الزيادة من الجميع عدا م.

(٥) في ط : «وتوقيره».

مشهوداً بها [١] غير غائب عنها. ومن أشار إلىٰ غير ذلك فمغرور مخدوع. وغايته : أن يكون في خفارة صدقه ، وضعف تمييزه وعلمه.

ولا ريب أن القلوب تشاهد [٢] أنواراً بحسب استعدادها. تقوىٰ تارة ، وتضعف أخرىٰ [٣]. ولكن تلك أنوار الأعمال والإيمان والمعارف ، وصفاء البواطن والأسرار. لا أنها أنوار الذات المقدسة. فإن الجبل لم يثبت لليسير من ذلك النور حتىٰ تدكدك وخرَّ الكليم صعقاً ، مع عدم تجليه له فما الظن بغيره؟

فإياك ثم إياك وترهات القوم وخيالاتهم وأوهاومهم. فإنها عند العارفين أعظم من حجاب النفس وأحكامها. فإن المحجوب بنفسه معترف بأنه في ذل[٤] الحجاب. وصاحب هذه الخيالات والأوهام [٥] يرىٰ أن [٦] الحقيقة قد تجلت له أنوارها. ولم يحصل ذلك لموسىٰ بن عمران كليم الرحمن. فحجاب هؤلاء أغلظ بلا شك من حجاب أولئك. ولا يقر لنا بهذا إلا عارف قد شرق في باطنه نور[٧] المحمدية. فرأىٰ ما الناس فيه. وما أعز ذلك في الدنيا. وما

(١) في الجميع عدا م : «لها».

(٢) في ج : «نوراً».

(٣) «لكن» ساقطة من ب وبعدها «الأعمال» ساقطة من م.

(٤) في البقية عدا م ، ق ، ج : «ذلك».

(٥) في م : «لأوهام الخيالات».

(٦) «أن» ساقطة من غ ، ب.

(٧) في ط زيادة «السنة».

أغربه[1] بين الخلق! والله المستعان.

فالصادقون في أنوار معارفهم وعباداتهم وأحوالهم ليس إلا وأنوار ذات الرب تبارك وتعالىٰ وراء ذلك كله وهذا الموضع من مقاطع الطريق. ولله كم زلّت فيه أقدام ! وضلَّت فيه أفهام ! وحارت فيه أوهام ! ونجا منه صادق البصيرة ، تام المعرفة ، علمه متصل بمشكاة النبوة. وبالله التوفيق.

* * *

(١) في ج : «وما أعز».

فصـــل

[منزلة الوجد]

ومن منازل « إيك نعبد وإياك نستعين » منزلة : «الوجد». منزلـة الوجـد

ثبت في الصحيحين من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد أن أنقذه الله منه - كما يكره أن يقذف في النار» [1].

وقد استشهد صاحب المنازل - رحمه الله - بقوله تعالىٰ في أهل الكهف : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف :١٤] ، وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد. فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر. فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوحيد[2]. وذاقوا حلاوته. وباشر قلوبهم. فقاموا من[3] بين قومهم ، وقالوا : ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

والربط علىٰ قلوبهم : يتضمن الشدّ عليها بالصبر والتثبيت ، وتقويتها

---

(١) الحديث تقدم تخريجه ص ٢٨١١.

(٢) في البقية عدا م ، ق : «والتوفيق».

(٣) «من» ساقطة من م.

وتأييدها بنور الإيمان، حتىٰ صبروا علىٰ هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش، وفروا بدينهم إلىٰ الكهف.

والربط علىٰ القلب: عكس الخذلان. فالخذلان: حله من رباط التوفيق. فيغفل عن ذكر ربه، ويتبع هواه، ويصير أمره فرطا.

والربط علىٰ القلب: شده[1] برباط التوفيق. فيتصل بذكر ربه، ويتبع مرضاته، ويجتمع عليه شمله[2]. فلهذا استشهد عليه بهذه الآية في مقام «الوجد».

الوجد

والشيخ ـ رحمه الله ـ جعل مقام «الوجد» غير مقام «الوجود» كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ[3]، فإن «الوجود» عند القوم هو الظفر بحقيقة الشيء. و«الوجد»[4] هو ما يصادف القلب، ويرد عليه من واردات المحبة والشوق، والإجلال والتعظيم، وتوابع ذلك.

المواجيد

«والمواجيد» عندهم فوق الوجد. فإن «الوجد» مصادفة. «والمواجيد»

---

(١) في ق «شده».

(٢) سقط من م من هنا إلىٰ قوله «كما سيأتي».

(٣) تقدم التعريف به وستأتي منزلته في القسم الأخير من الكتاب.

(٤) الوجد: قيل: اضطراب الفؤاد من خوف الفراق. وقيل: عجز الروح عن احتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر. وقيل: شعلة متأججة من نار العشق يستفيق لها الروح بلمع نور أزلي وشهود دفعي. انظر مزيداً من ذلك في كشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ٢٩٢-١٩٣، ومعجم اصطلاحات الصوفية ٣١٧، والتعريفات ٣٠٥.

ثمرات الأوراد. وكلما كثرت الأوراد قويت المواجيد.

و«الوجود» عندهم فوق ذلك. وهو الظفر بحقيقة المطلوب، ولايكون إلا بعد خمود البشرية. وانتساخ [1] أحكام النفس نسخاً كلياً. الوجود

قال الجنيد - رحمه الله -: علم التوحيد مباين لوجوده، ووجوده مباين لعلمه. ولا يريد بالمباينة: المخالفة والمناقضة. فإنه يطابقه مطابقة العلم للمعلوم [2]، وإنما يريد بالمباينة: أن حال [3] الموحد وذوقه للتوحيد، وانصباغ قلبه بحاله: أمر وراء علمه به، ومعرفته به. والمباينة بينهما كالمباينة بين علم الشوق والتوكل والخوف ونحوها، وبين حقائقها ومواجيدها.

فالمراتب أربعة: أضعفها «التواجد» [4]، وهو نوع تكلف وتعمل واستدعاء. واختلفوا فيه: هل يسلم لصاحبه أم لا؟ علىٰ قولين [5]. التواجد

فطائفة قالت: لا يسلم لصاحبه. وينكر عليه، لما فيه من التكلف والتصنع المباين لطريق [6] الصادقين. وبناء هذا الأمر علىٰ الصدق المحض.

---

(١) في البقية عدا م، ق، ج: «وانسلاخ... انسلاخاً» وانظر ما قاله المؤلف في كتاب الرسالة القشيرية ٦٢.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية ص٦٢و٦٣.

(٣) «حال» ساقطة من ج.

(٤) في ح، ب «الوجد».

(٥) انظر: الرسالة القشيرة ٦١.

(٦) في ج: «لطرق».

وطائفة قالت: يسلم لصاحبه إذا كان قصده استدعاء الحقيقة، لا التشبه بأهلها واحتجوا بقول عمر ﷺ، وقد رأىٰ رسول الله ﷺ وأبا بكر يبكيان في شأن أسارىٰ بدر، وما قبلوا منهم من الفداء - «أخبراني ما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإلا تباكيت»[1]، ورووا أثراً: «ابكوا. فإن لم تبكوا فتباكوا»[2].

قالوا: والتكلف والتعمل في أوائل السلوك والسير[3] لابد منه. إذ لا يطالب صاحبه بما يطالب به صاحب الحال وتعمله[4] بنية حصول الحقيقة لمن يرصد[5] الوجد لايذم.

و«التواجد» يكون بما يتكلفه العبد من حركات ظاهرة «والمواجيد» لما

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم ٢/ ١٣٨٣-١٣٨٥ (١٧٦٣) وغيره.

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء ٢/ ١٤٠٣ (٤١٩٦)، وقال الألباني ضعيف وهو مختصر الحديث: «إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا) ذكره في باب حسن الصوت بالقرآن. انظر ضعيف سنن ابن ماجه ص٩٩ و ٣٤٥ رقم ٢٨١ و ٩١٨، وانظر ضعيف الجامع الصغير وزيادته ص٢٩٤ (٢٠٢٥).

(٣) في الجميع «السير والسلوك» وبعدها في أ، غ، ح «لابد فيه».

(٤) في ط: «ومن تأمله» وفي البقية عدا ج، م، ق: «وتأمله». والمثبت هو الصواب لأنه تقدم قوله: «والتكلف والتعمل».

(٥) في م: «يريد» و أ، ب، ط: «رصد» وفي هامش ح «لعله يقصد».

ينازله [1] من أحكام باطنة.

المرتبة الثانية : المواجيد، وهي نتائج الأوراد وثمراتها.

المرتبة الثالثة : «الوجد» وهو [2] ثمرة أعمال القلوب ، من الحب في الله والبغض فيه ، كما جعله النبي ﷺ ثمرة كون الله ورسوله أحب إلىٰ العبد مما سواهما. وثمرة الحب فيه ، وكراهة عوده في الكفر كما يكره أن يقذف في النار. فهذا «الوجد» ثمرة هذه [3] الأعمال القلبية ، التي هي الحب والبغض لله وفي الله [4].

المرتبة الرابعة : «الوجود» وهي أعلىٰ ذروة مقام الإحسان. فمن مقام الإحسان يرقىٰ إليه. فإنه إذا غلب علىٰ قلبه مشاهدة معبوده ، حتىٰ كأنه يراه وتمكن في ذلك - صار له ملكة خَمِدَتْ [5] أحكام نفسه، وتبدل بها أحكاماً أخر، وطبيعة ثانية ، حتىٰ كأنه أنشىٰء [6] نشأة أخرىٰ غير نشأته الأولىٰ ، وولد ولاداً جديداً.

---

(١) في ط : «المن يتأوله» وج ، غ : «لما يتأوله» و ب «يتكلفه».

(٢) في ج : «وهي».

(٣) «هذه» ساقطة من ق.

(٤) في ب ، ح ، ط : «الحب في الله والبغض في الله» وفي ج : «لحب لله والبغض لله وفي الله» وفي أ ، غ «الحب لله والبغض في الله».

(٥) في ط ، م ، ح : «أخمدت».

(٦) «انشىٰء» ساقطة من م.

ومما يذكر عن المسيح ـ عليه السلام ـ أنه قال: «يا بني إسرائيل، لن تلجوا ملكوت السماء حتىٰ تولدوا مرتين»[1].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يذكر ذلك[2]. ويفسره بأن الولادة نوعان:

أحدهما: هذه المعروفة.

والثانية: ولادة القلب والروح وخروجهما من مشيمة النفس، وظلمة الطبع.

قال: وهذه الولادة لما كانت بسبب الرسول ﷺ كان كالأب للمؤمنين، وقد قرأ أبي بن كعب ﷺ[3]: «النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم. وهو أب لهم».

---

(١) ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا في كتابه طريق الهجرتين ٢٧٦ وقال: فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبت قلبه إلىٰ الله... إلىٰ أن قال: وولد ولادة أخرىٰ تكون نسبة قلبه فيها إلىٰ الدار الآخرة كنسبة جسمه إلىٰ هذه الدار بعد أن كان في بطن أمه، فيولد قلبه ولادة حقيقة كما ولد جسمه حقيقه... إلىٰ آخر ما ذكر.

(٢) انظر منهاج السنة النبوية ٤/ ٣٦٩ و ٥/ ٢٣٧ و ٢٣٨.

(٣) أبو المنذر أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي سيد القراء من فضلاء الصحابة اختلف في سنة موته فقيل ١٩هـ وقيل ٣٢هـ وقيل غير ذلك. انظر: تقريب التهذيب ١/ ٤٨ (٣٢١)، التاريخ الكبير ٢/ ٣٩ (١٦١٥).

قال : ومعنىٰ هذه [الآية] (١) والقراءة في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب :٦] ، إذ ثبوت أمومة أزواجه لهم : فرع علىٰ (٢) ثبوت أبوته.

قال : فالشيخ والمعلم والمؤدب أب الروح (٣). والوالد أب الجسم.

ويقال في الحب «وجد» ، وفي الغضب (٤) «موجدة» ، وفي الظفر «وجدان ووجود».

فصـــل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ :

«وَالوَجدُ : لهَيبٌ يَتَأَجَّجُ مِن شُهُودِ عَارِضٍ مُقلِقٍ» (٥).

لما كان «الوجود» أعلىٰ من «الوجد» جعل سبب «الوجد» شهوداً عارضاً. وجعل «الوجود» نفس الظفر بالشيء ، كما سيأتي (٦). وإنما أوجب اللهيب لأن

---

(١) الزيادة من الجميع عدا م ، ق.

(٢) في ط «عن» وثبوت «ساقطة من م. وانظر ما تقدم في تفسير البغوي ٦/ ٣١٨ و ٣١٩ ، والدر المنثور ٦/ ٥٦٦-٥٦٨ ، وتفسير أبي السعود ٧/ ٩١ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٨٧ و٤٨٨.

(٣) في ق «الزوج».

(٤) في م : «البغض».

(٥) منازل السائرين ٩٤ ، وفيها : «لهب» وهو كذلك في ط و «مقلق» ساقطة من م ، وفي ط : «القلق».

(٦) يقصد ما سيذكره في منزلة الوجود.

صاحبه لما شهد محبوبه: أورثه ذلك لهيب القلب إليه، ولما لم يظفر به أورثه[١] القلق. فلذلك جعله لهيباً مقلقاً[٢].

درجات الوجد الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: وَجدٌ عَارِضٌ يَستَفِيقُ لَهُ شَاهِدُ السَّمعِ، أَو شَاهِدُ البَصَرِ، أَو شَاهِدُ الفِكرِ. أَبقَىٰ عَلَىٰ صَاحِبِه أَثَراً أَو لَم يُبقِ»[٣].

قوله: «وَجدٌ عَارِضٌ» أي متجدد. ليس بلازم «يَستَفِيقُ لَهُ شَاهِدُ السَّمعِ» أي ينتبه السمع[٤] من سنته لوروده عليه. وهذا إذا كان المنبه له خطاباً من خارج أو من نفسه. وأما «إِفَاقَةُ شَاهِدِ البَصَرِ» فلما يراه ويعاينه[٥] من آيات الله. فينتقل منها إلىٰ ما نصبت آية له وعليه. وأما «إِفَاقَةُ شَاهِدِ الفِكرِ»[٦] فيما يفتح له من باب المعاني التي أوقعه عليها فكره وتأمّله.

وهذه الشواهد الثلاثة [هي][٧] التي دعا الله سبحانه عباده إلىٰ تبنيها والاستشهاد بها. وقبول الحق الذي تشهد به. وترتيب حكم هذه الشهادة

---

(١) في ق: «ورثه».

(٢) في أ زيادة «فصل الدرجة الثانية» وهو خطأ.

(٣) منازل السائرين ص٩٤، ٩٥.

(٤) «أي ينته السمع» ساقطة من م.

(٥) «ويعاينه» ساقطة من م.

(٦) في ط: «ففيما».

(٧) الزيادة من أ.

عليها، من التوحيد والإقرار والإيمان. قال [الله][1] تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج :٤٦]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون :٦٨] وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد :٢٤]، وقال: ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس :١٠١]، وقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران :١٩١][2]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم :٨]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل :٤٤]، والقرآن مملوء من هذا.

فإذا استفاق شاهد السمع والبصر والفكر[3]، وجد القلب حلاوة المعرفة والإيمان، وخرج من جملة النيام والغافلين[4].

قوله: «أَبقَىٰ علَىٰ صَاحِبِه أَثَراً أَو لَم يُبقِ» يعني: أن ذلك الوجد العارض قد يُبقي علىٰ واجده أثراً من أحكامه بعد مفارقته[5]. وقد لايُبقي. والظاهر: أنه لابد أن يُبقي أثراً، لكن قد يخفىٰ، وينغمر بما يعقبه بعده، ويخلفه من أضداده.

---

(١) الزيادة من الجميع.

(٢) الآية السابقة ساقطة من م، ط، والآية التي بعدها ساقطة من م أيضاً.

(٣) في ط «ووجد القلب حلاوة المعرفة» وقبلها «الفكر» ساقطة من ب، ج، وفي ج «القلب».

(٤) «الواو» ساقطة من الجميع عدا م، ب، غ.

(٥) في ج: «مفارقة».

فصل

الدرجة الثانية

«(١) الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : وَجْدٌ تَستَفِيقُ لَه الرُّوحُ بِلمعِ نُورٍ أَزليٍّ. أَو سَمَاعِ نِدَاءٍ (٢) أَوَّليٍّ ، أَو جَذبٍ حَقِيقِيٍّ. إِن بَقِيَ عَلَىٰ صَاحِبِهِ لِبَاسُه ، وَإلاَّ أَبقَىٰ عَلَيهِ نُورَهُ».

إنما (٣) كان هذا الوجد أعلىٰ من الوجد الأول : لأن محل اليقظة فيه هو الروح ، ومحلها في الأول : السمع والبصر والفكر. والروح هي الحاملة للسمع والبصر والفكر. وهذه أوصاف (٤) من صفاتها.

وأيضاً فلعلو وجد الروح سبب آخر. وهو علو متعلقه ، فإن متعلق وجد السمع (٥) والبصر والفكر : الآيات والبصائر. ومتعلق وجد الروح : تعلقها بالمحبوب لذاته. ولذلك جعل سببه «لمع نور أزلي» يعني شهودها لمع نور (٦) الحقيقة الأزلي. وهذا الشهود لاحظَّ فيه للسمع ولا للبصر ولا للفكر ؛ بل تستنير به الأسماع والأبصار ؛ لأن الروح لما استنارت بهذه اليقظة والإفاقة أتم استناره استنارت بنورها (٧) الأسماع والأبصار. لا سيما وصاحبها في هذه

---

(١) في ط زيادة «قال».

(٢) في م زيادة «خطاب» وانظر المنازل ٩٥.

(٣) في ج : «وإنما» وق بعدها : «لهذا».

(٤) في ط : «الأوصاف».

(٥) في م : «لأن متعلق السمع».

(٦) «نور» ساقطة من ح.

(٧) في الجميع عدا ق ، م «ثم استنارت بنورهما».

الحال إنما يسمع بالله ويبصر به وإذا كان سمعه وبصره وبطشه بالله ، فما الظن بحركة روحه وقلبه وأحكامها؟

قوله : «أَو سَمَاعِ نِدَاءٍ أَوَّليٍّ» إن أراد به : تعرف الحق تعالىٰ إلىٰ عباده بواسطة الخطاب علىٰ ألسنة رسله - وهذا هو الخطاب الأَوَّليُّ[1] - فصحيح. وإن أراد به خطاب الملك له : فليس بخطاب أَوَّليٍّ[2]. وإن أراد ما يسمعه[3] في نفسه من الخطاب : فهو خطاب وهمي. وإن ظنه أوليّاً[4]. فإياك والأوهام والغرور.

ونحن لا ننكر الوجود ، ولا ندفع الشهود. وإنما نتكلم مع القوم في مرتبته ومنشئه[5] ، ومن أين بدأ؟ وإلىٰ أين يعود؟ فلا ننكر واعظ الله في قلب عبده المؤمن الذي يأمره وينهاه. ولكن ذاك[6] في قلب كل مؤمن جعله الله واعظاً له يأمره وينهاه ، ويناديه ويحذره[7] ، ويبشره وينذره. وهو الداعي الذي يدعو فوق الصراط. والداعي علىٰ رأس الصراط : كتاب الله. كما في[8] المسند والترمذي

---

(١) في م : «الأول» وفي البقية «الأزلي».

(٢) في ط ، ج : «أزلي».

(٣) في البقية عدا م ، ج : «ما سمعه».

(٤) في ط : «أزلياً».

(٥) في ط ، ب : «رتبته وإنشائه» و أ ، ح ، غ : «رتبته ونشأته».

(٦) في البقية عدا ق «ذلك» وبعدها «في» ساقطة من م.

(٧) «ويحذره» ساقطة من ق.

(٨) في غ : «وفي».

من حديث النواس بن سمعان[١] عن النبي ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً: صراطاً مستقيماً. وعلىٰ جنبتي الصراط سوران. وفي السورين أبواب مفتحة، وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو علىٰ رأس الصراط، وداع يدعو فوق الصراط، فالصراط المستقيم: الإسلام، والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتىٰ يكشف الستر. والداعي علىٰ رأس الصراط: كتاب الله. والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن»[٢].

فما ثم خطاب قط إلا من جهةٍ من[٣] هاتين: إما خطاب القرآن، وإما خطاب هذا الواعظ.

ولكن لما كانت الروح قد تتجرد[٤] ويقوىٰ تعلقها بالحق تعالىٰ ويضعف تعلقها[٥]؛ بل[٦] يتلاشىٰ بما سواه. وقد يقترن بذلك نوع غيبة

---

(١) هو النواس بن سمعان بن خالد بن عمرو بن قرط بن عبدالله بن أبي بكر بن كلاب العامري الكلابي أو الأنصاري، صحابي مشهور، سكن الشام. انظر: تقريب التهذيب ٢/ ٣٠٨، وأسد الغابة ٦/ ٢٥٧.

(٢) رواه أحمد في المسند ٤/ ١٨٢ و ١٨٣، والحاكم في المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٧٣ وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقد صححه الألباني. انظر: مشكاة المصابيح ١/ ٦٧ (١٩١، ١٩٢) وصححه السيوطي أيضاً. انظر: الجامع الصغير ص٣٢١ (٥٢١١).

(٣) «من» ساقطة من م، ب، ق.

(٤) في البقية عدا ج، ط، ق: «وتجرد».

(٥) سقط من ط «ويضعف تعلقها».

(٦) في ط زيادة «قد».

عن[1] حسّه ويقوىٰ داعي هذا الواعظ. ويستولي علىٰ قلبه وروحه، بحيث يمتلىٰء به، فتؤديه الروح إلىٰ الأذن، فيرجع[2] عن الأذن إليها. إذ هي مبدؤه. وإليها يعود، فيظنه خطاباً خارجياً[3]، وينضاف إلىٰ ذلك[4] نوع من ضعف العلم ومعرفة المراتب. فينشأ الغلط والوهم. قوله: «أَو جَذبٍ حَقِيقِيٍّ» يعني: أن من أسباب هذا «الوجد» جذبه حقيقة[5] من جذبات الرب تعالىٰ لعبده، استفاقت لها روحه من منامها. وحييت بها بعد مماتها. واستنارت بها بعد ظلماتها. فالوجد خلعة[6] هذه الجذبة.

قوله: «وَإِن أَبقَىٰ عَلَىٰ صَاحِبِهِ لِبَاسَهُ، وَإِلاَّ أَبقَىٰ عَلَيهِ نُورَهُ».

يريد بلباسه مقامه، يعني إن أبقىٰ[7] عليه تحقق مقامه فيه، وإلا أبقىٰ عليه

---

(١) في البقية عدا ج، ق، م «من».

(٢) في ط: «فيخرج».

(٣) في البقية عدا ج، م «خارجاً».

(٤) في ج زيادة «كل» وهي غير مناسبة.

(٥) في ح، م، ب «حقيقة» والجذبة: قال الطوسي عن هذه العبارة وما قاربها «وما يشاكل ذلك: فإن أكثر ذلك عبارات تعبر عن التوفيق والعناية، وما يبدو علىٰ القلوب من أنوار الهداية علىٰ مقدار قرب الرجل وبعده وصدقه وصفائه في وجده» اللمع ٤٢٥.

وقال الكاشاني: «الجذبة: وهو تقريب العبد بمقتضىٰ العناية الإلهية المهيئة له كل ما يحتاج إليه في طيِّ المنازل إلىٰ الحق بلا كلفة وسعي منه. معجم اصطلاحات الصوفية ص٦٥.

(٦) في ج: «خلق».

(٧) في غ: «بقي» وكذلك الثانية بعدها.

أثره. فمقامه يورثه عزاً ومهابة وخلافه نبوة ، ومنشور صديقية. وأثره يورثه حلاوة وسكينة ، وأنساً في نفسه وأنساً للقلوب به ، وهوىٰ الأفئدة إليه.

فصـــل

الدرجة الثالثة

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : وَجْدٌ يخطِفُ العَبدَ مِن يَدِ الكَونَينِ ، وَيُمَحِّصُ مَعنَاه مِن دَرَنِ الحَظِّ ، وَيَسلِبُه مِن رِقِّ المَاءِ وَالطِّينِ ؛ إِن سَلَبَه أَنسَاهُ اسْمَهُ ،**[1] **وَإِن لَم يَسلِبْه أَعَارَهُ رَسمَهُ**».

قوله[2] : «**يَخطِفُ العَبدَ مِن يَدِ الكَونَينِ**» أي يغنيه عن شهود ما سوىٰ الله من كوني الدنيا والآخرة. فيختطف القلب من شهود هذا وهذا بشهود[3] المكوّن.

قوله : «**وَيُمَحِّص مَعنَاه مِن دَرَنِ الحَظِّ**» أي يخلص عبوديته التي هي حقيقته وسره من وسخ حظوظ نفسه وإراداتها[4] ، المزاحمة لمراد ربه منه. فإن تحقيق العبودية - التي هي معنىٰ العبد - لايكون إلا بفقد النفس الحاملة للحظوظ. فمتىٰ فقدت حظوظها تمحضت[5] عبوديتها. وكلما مات منها حظ حيي منها[6]

---

(١) في م : «وإن ألقاه لم يسلبه أعماره رسمه» وانظر منازل السائرين ٩٥.

(٢) في ط : «فقوله».

(٣) في أ ، غ «بشهوده».

(٤) في غ ، ح «إرادته وفي أ ، ب ، ج «إرادتها».

(٥) في البقية عدا م ، ج : «بالصاد».

(٦) في ق : «فيها».

عبودية ومعنىٰ. وكلما حيي فيها حظ ماتت منها [١] عبودية حتىٰ يعود الأمر علىٰ نفسين [٢] وروحين وقلبين: قلب حي، وروح حية بموت نفسه [٣] وحظوظها، وقلب ميت، وروح ميتة بحياة نفسه وحظوظه. وبين ذلك مراتب متفاوتة في الصحة والمرض، وبين بين، لا يحصيها إلا الله.

قوله: «وَيَسلِبُهُ مِن رِقِّ المَاءِ وَالطِّينِ» [٤] أي يعتقه ويحرره من رق الطبيعة والجسم المركب من الماء والطين، إلىٰ رق رب العالمين، فخادم الجسم الشقي بخدمته عبد الماء والطين، كما قيل:

يا خادمَ الجسم كم تشقىٰ بخدمته ... [وتطلبُ الربحَ فيما فيه خسرانُ
أقبل علىٰ الروح واستكمل فضائلها] [٥] ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسانُ

والناس في هذا المقام ثلاثة: عبد محض. وحر محض، ومكاتب قد أدىٰ بعض كتابته. وهو يسعىٰ في بقية الأداء.

فالعبد المحض: عبد الماء والطين. الذي قد استعبدته نفسه وشهوته،

---

(١) «منها» ساقطة من الجميع عدا م.

(٢) في ط «نفسيين» وغ «نفيس».

(٣) في ق «نفسها».

(٤) سقط من م إلىٰ قوله «رب العالمين».

(٥) الزيادة من ح، م، وقد ذكر المؤلف هذا البيت بدون الزيادة في كتابه الروح ١٩٨، ومفتاح دار السعادة ١/١٠٨، وهو في التبيان لأبي الفتح البستي، انظر كتاب أبو الفتح البستىٰ حياته وشعره ٣١١.

وملكته وقهرته. فانقاد لها انقياد العبد إلىٰ سيده الحاكم عليه.

والحر المحض: هو الذي قهر نفسه وشهوته [١] وملكها. فانقادت معه [٢] وذلت له ودخلت تحت رقّه وحكمه.

والمكاتب: من قد [٣] عقد له سبب الحرية. وهو يسعىٰ في كمالها. فهو عبد من وجه حر من وجه وللبقية [٤] التي بقيت عليه من الأداء كان [٥] عبداً ما بقىٰ عليه درهم. فهو عبد ما بقي عليه حظٌّ من حظوظ نفسه.

فالحر من تخلص من رق الماء والطين. وفاز بعبودية [٦] رب العالمين، فاجتمعت له العبودية والحرية. فعبوديته من كمال حريته، وحريته من كمال عبوديته.

قوله: «إِن سَلَبَه أَنسَاهُ اسْمَه، وَإِن لَمَ يَسلِبْه أَعَارَه رَسمَه» أي هذا الوجد إن سلب صاحبه بالكلية: فأفناه عنه، وأخذه [٧] منه: أنساه اسمه؛ لأن الاسم [٨] تبع

---

(١) في البقية عدا م «فهر شهوته ونفسه»

(٢) «معه وذلت له» ساقطة من م.

(٣) «قد» ساقطة من غ، ح، وبعدها في ج «عقل».

(٤) في ح: «والبقية» وفي البقية عدا م، ج، ق: «وبالبقية».

(٥) في ط: «يكون».

(٦) في أ: «بعبادة».

(٧) في ب زيادة «إن» وهي غير ملائمة.

(٨) هنا في غ، ح تكرار من قوله «أي هذا» - المذكور قبل قليل - إلىٰ هنا.

للحقيقة. فإذا سلب الحقيقة [١] : نسي اسمها ، وإن لم يسلبه بالكلية ؛ بل أبقىٰ منه رسماً ، فهو معار عنده بصدد الاسترجاع. فإن العواري يوشك أن تسترد.

يشير [٢] بالأول : إلىٰ حالة الفناء الكامل. وبالثاني : إلىٰ حالة الغيبة التي يئوب [٣] غائبها. والله أعلم.

* * *

(١) «الحقيقة» ساقطة من ب.

(٢) في ط : «ويشير» ويقصد المؤلف «بالأول» هو قول الهروي «إن سلبه أنساه اسمه» ويقصد بالثاني. قول الهروي : «وإن لم يسلبه أعاره رسمه».

(٣) في م «تورث» وبعدها في ط زيادة «منها».

فصــل

[منزلة الدهش]

منزلة الدهش

وقد يعرض للسالك«دهشة»(١) في حال سلوكه ، شبيهة بالبهتة التي تحصل للعبد عند مفاجأة رؤية محبوبه. وليست من منازل السلوك. خلافاً [للشيخ](٢) أبي إسماعيل الأنصاري حيث جعلها من المنازل(٣) ؛ بل من غاياتها(٤). فإن هذه الحالة ليست مذكورة في القرآن. ولا في السنة. ولا في كلام السالكين. ولا عدَّها أحد من المتقدمين من المنازل والمقامات. ولهذا لم يجد ما يستشهد به عليها سوىٰ حال النسوة مع يوسف ـ عليه السلام ـ ، لما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن.

فصدر الباب بقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ [يوسف :٣١] أي أعظمنه.

فإن كان مقصوده : ما حصل لهن من إعظامه وإجلاله : فذلك منزلة التعظيم. وإن كان مراده : ما ترتب علىٰ رؤيته (٥) ، من غيبتهن عن أنفسهم وعن أيديهن ، وما فيها حتىٰ قطعنها : فتلك منزلة الفناء.

---

(١) في غ : «وحشه».

(٢) الزيادة من م ، ج.

(٣) في ب «من منازلها».

(٤) في غ «من غايتها».

(٥) في غ «عليه رؤيته» وبعدها في ط زيادة «لهن».

وإن كان مقصوده: الدهشة والبهتة التي حصلت لهن عند مفاجأته - وهو الذي قصده - فذلك أمر عارض[من عوارض الطريق][1] عند مفاجأة ما يغلب علىٰ صبر الإنسان وعقله. ولا ريب أن ذلك عارض من عوارض [الطريق][2] ليس بمقام للسالكين، ولا منزل مطلوب لهم. فعوارض الطريق شيء[3]. ومنازلها [ومقاماتها][4] شيء.

فلذلك قال في تعريفه: «**الدَّهشُ: بَهتَةٌ تَأخُذُ العَبدَ**[5] **عِندَ مُفَاجَأةِ مَا يَغلبُ عَلَىٰ عَقلِهِ، أَو صَبرِهِ، أَوَ عِلمِهِ**»[6].

يشير إلىٰ الشهود الذي يغلب عقله[7]، والحب الذي يغلب صبره[8]، والحال الذي يغلب[9] علمه.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا م ثم سقط من ج إلىٰ قوله «ليس بمقام».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) «شيء» ساقطة من أ، ب، غ.

(٤) الزيادة من الجميع.

(٥) في منازل السائرين ٩٦: «إذ فجأه ما يغلب عقله أو صبره أو علمه».

(٦) وكذلك قال الكاشاني في معجم اصطلاحات الصوفية ٣١٩ وقال الطوسي في اللمع ٤٢١: والدهشة سطوة تصدم عقل المحب من هيبة محبوبه إذا لقيه عند الإياس لم يجد لها عاهة إذا انقضت. وفي اللغة معنىٰ دهش: تحير، انظر مختار الصحاح ٢١٣.

(٧) في ط زيادة «علىٰ» وبعدها سقط من غ قوله «والحب».

(٨) في ط زيادة «علىٰ».

(٩) في البقية عدا ج، ق: «والحال التي تغلب» وفي ط «والحال التي تغلب علىٰ علمه».

درجات الدهش

الدرجة الأولى

قال : «**وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الأُولَىٰ : دَهشَةُ المُرِيدِ عِندَ صَولَةِ الحَالِ عَلَىٰ عِلمِهِ ، وَالوَجْدِ عَلَىٰ طَاقَتِهِ ، وَالكَشفِ عَلَىٰ هِمَّتِهِ**»(١).

يعني : أن علمه يقتضي شيئاً ، وحاله يصول(٢) عليه بخلافه ، فهذا غايته : أن يكون معذوراً إن لم يكن مفرطاً ، فإن الحال لا يصول علىٰ العلم إلا وأحدهما فاسد. إما الصائل ، أو المصول عليه. فإذا اقتضىٰ العلم سكوناً ، فصال عليه الحال بحركته : فهي حركة فاسدة. غاية صاحبها : أن يكون معذوراً لامشكوراً. وإذا اقتضىٰ العلم حركة ، فصال الحال عليه بسكونه : فهو سكون فاسد.

مثال الأول : اقتضاء العلم للسكون والخشوع عند وارد السماع القرآني. وصولة الحال عليه ، حتىٰ يزعق أو يشهق أو يخرق(٣) ثيابه ، أو يُلقي نفسه لورود ما يدهشه من معاني المسموع علىٰ قلبه. فيصول حاله علىٰ علمه ، حتىٰ لو كان في صلاة تعرض(٤) ، لأبطلها وقطعها.

---

(١) منازل السائرين ٩٦ وفيه «الدرجة الأولىٰ».

(٢) صال : بمعنىٰ استطال أو وثب كما في مختار الصحاح ٣٧٣.

وقال الطوسي في اللمع ٤٢٣ الصول : الاستطالة باللسان من المريدين والمتوسطين علىٰ أبناء جنسهم بأحوالهم وهو مذموم.

(٣) في ط «ويشق» وفي البقية عدا م ، ق : «أو يشق ثيابه».

(٤) في ط «فرض».

ومثال الثاني : اقتضاء العلم لحركة [١] مفرقة في رضىٰ المحبوب. فيصول الحال عليها بسكونه وجمعيته ، حتىٰ يقهرها. وهذه من مقاطع القوم وآفاتهم. وما نجا منها إلا أهل البصائر منهم ، العاملون علىٰ تجريد العبودية. وكثرة صور هذا مغنية عن كثرة الأمثلة. فإن أكثرهم يقدم حال الجمعية علىٰ ملابسة الأغيار والأعداء في الجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويصول حال الجمعية عنده علىٰ الحركة التي يأمر بها العلم. كما صالت حركة الأول علىٰ السكون الذي يأمر به العلم.

قوله : «**وَالوَجْدِ عَلَىٰ الطَّاقَةِ**» يعني : أن وجد المحب ربما غلب صبره. وصال علىٰ طاقته. فصرخ إلىٰ محبوبه ، واستغاث به ، حتىٰ يأتيه [٢] النصر من عنده ؛ بل صراخه به واستغاثته به عين نصره [٣] إياه ، حيث حفظ عليه وجده ولم يرد[٤] فيه إلىٰ صبر يسلو به ويجفو ، فيكون ذلك نوع طرد.

قوله : «**وَالكَشفِ عَلَىٰ هِمَّتِهِ**» يعني أن الهمة تستدعي صدق الطلب ودوامه والكشف : هو الشهود. وهو في مظنة[٥] فسخ الهمة ؛ وإبطال حكمها. لأنها

---

(١) في ط «حركة» وق «الحركة» وفي البقية عدا ج «بحركة».

(٢) في البقية عدا ج ، م «يأتي النصر» و «حتىٰ» ساقطة من م.

(٣) في م «عن بصره» وغ ، ب «غير نصره».

(٤) في ط «ولم يرده».

(٥) في ب «مظنته» وفي ج ، ق بعدها «نسخ».

تقتضي الطلب. وهو يقتضي الفتور ؛ لأن الطلب لغائب[1] عن المطلوب ، فهمته متعلقة بتحصيله. وصاحب الكشف : في حضور مع مطلوبه. فكشفه صائل على[2] همته ، كما قال بعضهم : إذا برقت بارقة من بوارق الحقيقة لم يبق معها حال ولا همة[3].

وهذا أيضاً عارض مطلوب الزوال. والبقاء معه انقطاع كلي. فإن السالك في همّةٍ ما دامت روحه في جسده. فإذا فارقته الهمة انقطع واستحسر.

فصل

الدرجة الثانية

«[4] **الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : دَهشَةُ السَّالِكِ عِندَ صَولَةِ الجَمعِ عَلَىٰ رَسمِهِ ، وَالسبقِ عَلَىٰ وَقتِهِ ، وَالمُشَاهَدَةِ عَلَىٰ رُوحِهِ**»[5].

«الجمع» عند القوم : ما أسقط التفرقة. وقطع الإشارة. وباين الكائنات و «رسم العبد» عندهم : هو صورته الظاهرة والباطنة. فشهود الجمع : يقتضي أن ستولىٰ علىٰ فناء تلك الرسوم فيه. فللجمع صولة علىٰ رسم السالك ، يغشاه

(١) في البقية عدا ج ، م «للغائب».

(٢) في ق «عن».

(٣) سقط من أ ، ب ، ح ، غ من هنا إلىٰ قوله «ما دامت» و «ما دامت» ساقطة من ج.

(٤) في ط زيادة «قال».

(٥) منازل السائرين ٩٦.

عنده[1] بهته، هي «الدهشة» المشار إليها.

وأما «صَولَةُ السّبقِ عَلَىٰ وَقتِهِ» فالسبق: هو الأزل. وهو سابق علىٰ وقت السالك. وإنما صال الأزل علىٰ وقته: أن وقته حادث فانٍ. فهو يرىٰ فناءه في بقاء الأزل وسبقه، فيغلبه شهود السبق، ويقهره علىٰ شهود وقته، فلا يتسع له.

وأما «صَولَةُ المشَاهَدةِ عَلَىٰ رُوحِهِ» لما[2] كانت المشاهدة تعلق إدراك الروح بشهود الحق تعالىٰ، فهي شهود الحق بالحق - كما قال تعالىٰ[3] «فبي يسمع، وبي يبصر»[4] - اقتضىٰ هذا الشهود صولة علىٰ الروح. فحيث صار الحكم له دونها فانطوىٰ[5] حكم الشاهد في شهوده. وقد عرفت ما في ذلك فيما تقدم[6].

---

(١) في ط: «عندهم» وفي الأصل وم، ق، أ «عند» والمثبت كما في البقية. ومعنىٰ الكلام أن السالك يغشاه عند صولة الجمع علىٰ الرسم بهته وهذه البهتة هي الدهشة وهي كما فسرها الهروي وقد سبق.

(٢) في ط «فلما».

(٣) في ط زيادة «في الحديث القدسي».

(٤) الحديث تقدم ص٢٦٦٤ بلفظ «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وهو حديث «من عادىٰ لي ولياً»

(٥) في ط «انطوىٰ».

(٦) لايقصد المؤلف هنا موضعاً واحداً وإنما جميع ماذكر حول مسألة الشاهد والمشاهدة وانظر فيما تقدم قريباً في منزلة الوجد وفي أول الكتاب عند حديثه علىٰ منزلة التوبة وشرحه لقول الهروي: «اللطيفة الثالثة أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة». وفي القسم الأخير من الكتاب في منزلة المكاشفة والمشاهدة والوجود.

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : دَهشَةُ المُحِبِّ عِندَ صَولَةِ الاتِّصَالِ عَلَىٰ لُطفِ العَطِيَّةِ ، وَصَولَةِ نُورِ القُربِ عَلَىٰ نُورِ العَطفِ ، وَصَولَةِ شَوقِ العِيَانِ عَلَىٰ شَوقِ الخَبَرِ»[١].

الاتصال عنده علىٰ ثلاثة مراتب : اتصال الاعتصام ، واتصال الشهود ، واتصال الوجود ، كما سيأتي الكلام عليه[٢] إن شاء الله. وبيان ما فيه من حق وباطل ، يجل عنه جناب الحق تعالىٰ.

و[٣] «العطية ههنا[٤]» : هي الواردات التي ترد في لطف وخفاء علىٰ قلب العبد من قبل الحق تعالىٰ. وهي ألطاف يعامل المحبوب بها محبة ، وتوجب قرباً خاصاً[٥] هو المسمىٰ : بالاتصال. فيصول ذلك القرب علىٰ لطف العطية. فيغيب العبد عنها وعن شهودها. وينسيه إياها. لما أوجبه[٦] له ذلك القرب من الدهش[٧]. وقد يكون سبب ذلك[٨] : تواتر أنواع العطايا عليه حتىٰ يدهشه

---

(١) منازل السائرين ٩٦.

(٢) «عليه» ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح ، ويقصد المؤلف كلامه عليه في باب الاتصال فيما سيأتي.

(٣) في ح زيادة «وهي ألطاف» وهي غير مناسبة.

(٤) «هي» ساقطة من ب.

(٥) في البقية عدا ج ، ق ، م ، خالصاً.

(٦) «له» ساقطة من غ.

(٧) في ج زيادة : «والعطية فيغيب» وهي تكرار لما سبق. وغير مناسبة هنا.

(٨) «ذلك» ساقطة من ج.

كثرتها وتنوّعها. فيوجب له كثرتها دهشة، تمنعه من مطالعتها، مع انضمام ذلك إلىٰ صولة القرب. وهو واردات وأنوار يتصل بعضها ببعض. تمحو ظلم رسمه ونفسه[١].

وأما «صَولَةُ نُورِ القُربِ عَلَىٰ نُورِ العَطفِ» فهو قريب من هذا. أو هو بعينه وإنّما كرر المعنىٰ بلفظ آخر. فإن «لطف العطية»[٢] كله نور عطف، و«الاتصال» هو القرب نفسه. تعالىٰ الله عن غير ذلك من اتصال يتوهمه ملاحدة الطريق وزنادقتهم.

وأما «صَولَةُ شَوقِ العيَانِ عَلَىٰ شَوقِ الخَبَرِ».

فمراده به[٣]: أن المريد في أول الأمر سالك علىٰ شوق الخبر في مقام الإيمان. فإذا ترقىٰ عنه إلىٰ مقام الإحسان، وتمكن منه: بقي شوقه شبيهاً[٤] بشوق العيان. فصال هذا الشوق علىٰ الشوق الأول. فإن كان هذا مراده، وإلا فالعيان في الدنيا لا سبيل لبشر[٥] إليه البتة. ومن زعم خلاف ذلك فأحسن أحواله: أن يكون ملبوساً عليه، وليس فوق الإحسان للصديقين [مرتبة][٦] إلا

---

(١) في البقية عدا م، ج: «نفسه ورسمه».

(٢) في م: «لفظ العطية» وب «لطف العطف».

(٣) في ط «بها».

(٤) «شبيهاً» ساقطة من الجميع عدا ج، م، ق.

(٥) في ط: «للبشر».

(٦) الزيادة من الجميع.

بقاؤهم فيه. فإن سمىٰ ذلك عياناً فالتسمية الشرعية المخلصة التي لا لبس فيها: أولىٰ وأحرىٰ.

وأكثر آفات الناس من الألفاظ. ولا سيما في هذه المواضع التي يعز فيها وقصور الحق علىٰ ما هو عليه، والتعبير المطابق، فيتولد من ضعف التصور، وقصور التعبير: نوع تخبيط. ويتزايد علىٰ ألسنة السامعين له وقلوبهم، بحسب قصورهم[1]، وبعدهم من العلم. فتفاقم الخطب، وعظم الأمر. والتبست[2] طريق أولياء الله الصادقين بطريق[3] الزنادقة الملحدين. وعزَّ المفرِّق بينهما. فدخل علىٰ الدين من الفساد من ذلك ما لا يعلمه إلا الله. وأشير إلىٰ أعظم الخلق[4] كفراً بالله وإلحاداً في دينه: بأنه من شيوخ التحقيق والمعرفة والسلوك.

ولولا ضمان الله بحفظ دينه، وتكفله بأن يقيم له من يجدد أعلامه، ويحيي منه ما أماته المبطلون. وينعش ما أخمله الجاهلون: لهمدت أركانه، وتداعىٰ بنيانه، ولكن الله ذو فضل علىٰ العالمين.

---

(١) في ق، ج «تصورهم».

(٢) في البقية عدا ج، م، ق «التبس».

(٣) في البقية عدا م، ق «بطرائق».

(٤) «الخلق» ساقطة من ج.

فصل

[منزلة الهيمان] [١]

منزلة الهيمان

وقد يعرض للسالك عند ورود بعض المعاني والواردات العجيبة علىٰ قلبه: فرط تعجب، واستحسان واستلذاذ، يزيل عنه تماسكه، فيورثه ذلك «الهيمان» وليس ذلك من مقامات السير، ولا منازل الطريق المقصودة بالنزول فيها للمسافرين. خلافاً لصاحب المنازل [٢]. حيث عَدَّ ذلك من أعلىٰ المنازل وغاياتها، وعبر عنه بمنزلة «الهيمان» ولهذا ليس له ذكر في القرآن، ولا في السنة، ولا في لسان سلف القوم.

وقد تكلف له صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ الاستشهاد بقوله تعالىٰ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف :١٤٣] وما أبعد الآية من استشهاده. وكأنه ظن أنه [٣] ذهب عن تماسكه، لما ورد عليه في حالة الخطاب والتكليم الإلهي. فأورثه ذلك هيماناً صُعق منه، وليس كما ظنه. وإنما صعق موسىٰ عند تجلي الرب تعالىٰ للجبل واضمحلاله، وتدكدكه من تجلي الرب تعالىٰ. فالاستشهاد بالآية في منزلة «الفناء» التي تضمحل فيها الرسوم أنسب وأظهر؛ لأن تدكدك الجبل: هو اضمحلال رسمه عند ورود نور التجلي عليه. و «الصعق» فناء في

---

(١) في ط «في منزلة الهيمان».

(٢) في م «فإنه» بدل «حيث».

(٣) في ط «أن موسىٰ».

هذه الحال لهذا الوارد المفنىٰ لبشرية موسىٰ عليه السلام.

وقد حده بأنه «الذَّهَابُ عَن التَّمَاسُكِ تَعَجُّباً أَو حَيرَةً»(١). يعني : أن [الهائم](٢) لا يقدر علىٰ إمساك نفسه للوارد تعجباً منه أو حيرة(٣).

قال : «وَهُوَ أَثبَتُ دَوَاماً ، وَأَملَكُ بِالنَّعتِ(٤) مِن الدَّهشِ» .

يعني : أن الهائم قد يستمر هيمانه مدة طويلة. بخلاف المدهوش. وصاحب «هيمان» يملك عنان القول. فيصرفه كيف يشاء . ويتمكن من التعبير عنه(٥). أما الدهش : فلضيق معناه ، وقصر زمانه : لم يملكه(٦) النعت. فالهائم أملك بنعت حاله ووارده من المدهوش.

درجات الهيمان الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ : الأُولىٰ : هَيَمَانٌ في شَيْم أَوَائِلِ بَرقِ اللُّطْف

---

(١) في غ «بأن» وقوله في المنازل ٩٧ وأوله «الهيمان ذهاب».

والهيمان في اللغة: يأتي علىٰ عدة معاني فقيل : هو أشد العطش. وقيل : داء يأخذ الإبل فتهيم لا ترعىٰ. وقيل : هو كالجنون من العشق والهيام بالكسر الإبل العطاشىٰ. انظر : مختار الصحاح ٧٠٤ ، وروضة المحبين ص٦٦ ، ٦٧.

وقد عرفه الكاشاني بقوله : هو دوام الحيرة وثباتها. معجم اصطلاحات الصوفية ٣٢٠.

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) في ط «بالواو».

(٤) في البقية عدم ، ج «للنعت» وقوله في منازل السائرين ٩٧.

(٥) في غ «العبر».

(٦) في ط «يملك».

عِندَ قَصدِ الطَّرِيقِ ، مَعَ مُلاَحظَةِ العَبدِ خِسَّةَ قَدْرِهِ ، وَسفَالَةَ مَنزِلَتِهِ ، وَتَفَاهَةَ قِيمَتِهِ»(١).

يريد : أن القاصد للسلوك إذا نظر إلىٰ مواقع لطف ربه به (٢) - حيث أهّله لما لم يؤهّل (٣) له أهل البلاء ، وهم أهل الغفلة والإعراض عنه - أورثه ذلك النظر تعجباً يوقعه في نوع من(٤) الهيمان. قال بعض العارفين في الأثر المروي «إذا رأيتم أهل البلاء فسلوا الله العافية»(٥) تدرون من أهل البلاء؟ هم أهل الغفلة عن الله.

وتقوىٰ هذه الحال إذا انضاف إليها شهود العبد لخسة(٦) قدر نفسه.

---

(١) منازل السائرين ٩٧ وفيه «الدرجة الأولىٰ» و «سفال منزلته».

(٢) «به» ساقط من م.

(٣) في غ «لما يؤهل» وم «ما لا» وج «إلىٰ ما لم».

(٤) «من» ساقطة من م.

(٥) الحديث رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الدعاء ، باب الرجل يرىٰ المبتلىٰ ما يدعو به ١٠/ ٣٩٥ (٩٧٨٥) وأوله «ما من رجل يرىٰ مبتلىٰ» ورواه عبدالرزاق في المصنف ١٠/ ٤٤٥ (١٩٦٥٥) وأوله «كان يقال : إذا استقبل الرجل شيئاً من هذا البلاء فقال : الحمد لله...» والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٢٧٠ ، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٦٥ ، والطبراني في المعجم الصغير ٢/ ٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ١٠٨ وأوله «إذا رأىٰ أحدكم مبتلىٰ فقال الحمد لله...» وضعفه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٤٤ (٦٢٣) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ١٥٧ (٥٥٥) وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٨.

(٦) في غ ، ح ، ب «بخسة» وط «خسة».

فاستصغرها أن تكون أهلاً لما أهلت له. وكذلك شهود «سَفَالَةِ مَنزِلَتِهِ» أي انحطاط رتبته، وكذلك شهود «تَفَاهَةِ قِيمَتِهِ» أي خستها وقلتها.

وحاصل ذلك كله: احتقاره لنفسه، واستعظامه للطف ربه به [1]، وتأهيله له. فيتولد من بين هذين: الهيمانُ المذكور. ولا ريب أنه يتولد من بين هذين الشهودين: أمور أخرىٰ، أجل وأعظم، وأشرف من الهيمان - من محبة وحمد وشكر، وعزم وإخلاص، ونصيحة في العبودية، وسرور وفرح بربه، وأنس به - هي مطلوبة لذاتها. بخلاف عارض الهيمان. فإنه لا يطلب لذاته. وليس هو [2] من منازل العبودية.

فصل

الدرجة الثانية قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: هَيَمَانٌ فِي [3] تَلاطُمِ أَمْوَاجِ التَّحقِيقِ، عِندَ ظُهُورِ بَرَاهِينِهِ، وَتَوَاصُلِ عَجَائِبِهِ، وَلَوَامِعِ أَنْوَارِهِ».

يريد: أن السالك والمريد إذا لاحت له أنوار تحقيق [4] العلم والمعرفة: اهتدىٰ بها إلىٰ القصد، عن بصيرة مستجدة، ويقظة مستجده [5]. فاستنار بها

---

(١) «به» ساقطة من أ، م.

(٢) «هو» ساقطة من ح، م.

(٣) «في» ساقطة من م، وقوله في المنازل ٩٧، وفيه «ولياح أنواره».

(٤) في البقية عداج، ق، م «تحقق».

(٥) في ط «مستعده» و «يقظة مستجده» ساقطة من ق.

قلبه ، وأشرق لها سره. فتلاطمت عليه أمواج التحقيق عند ظهور البراهين. فهام قلبه فيها. وهذا أمر يعرفه بالذوق كل طالب لأمر عظيم انفتحت له الطرق والأبواب إلىٰ تحصليه.

ويريد «بتَوَاصُلِ عَجَائِبِهِ» تتابع عجائب التحقيق ، وأن بعضها لا يحجب عن بعض ، ولا يقف في طريق بعض. وكذلك «لَوامِعُ أَنوارِهِ»وأعظم ما يجد هذا الواجد [1] : عند استغراقه في تدبر القرآن. ويحصل ذلك بحسب استعداده وأهليته للفهم. ونسبة ما دون ذلك إليه : كتفلة في بحر.

فصل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : هَيَمَانٌ عِندَ الوُقُوعِ فِي عَينِ القِدَمِ ، وَمُعَايَنَةِ سُلطَانِ الأَزَلِ ، وَالغَرَقِ فِي بَحرِ الكَشْفِ» [2]. الدرجة الثالثة

يريد : هيمان الفناء. و «الوُقُوعُ فِي عَينِ القِدمِ»إنما يكون باضمحلال الرسم وفنائه في شهود القدم. فإنه يفنىٰ من لم يكن شهوداً [3]. ويبقىٰ من لم يزل. وكذلك معاينة سلطان الأزل [4] لا يبقىٰ معها معاينة رسول الكائنات وأطلال الحادثات [5].

---

(١) في ب «الوجد».

(٢) منازل السائرين ٩٧.

(٣) في ط «مشهوداً» وفي أ «مشهوداً وسيبقىٰ». وفي م : «وشهود أن يبقىٰ من لم يزل».

(٤) «سلطان الأزل لا يبقىٰ معها معاينة» ساقطة من غ ، ح.

(٥) **الأطلال** : جمع طلل وهو ما شخص من آثار. انظر : مختار الصحاح ٣٦٩ ، ويقصد المؤلف

وأما «بَحرُ الكَشْفِ» الذي أشار إليه : فهو انكشاف الحقيقة لعين القلب. ولا تعتقد أن للسالك وراء مقام الإحسان شيئاً أعلىٰ منه ؛ بل الإحسان مراتب. وأما الكشف الحقيقي للحقيقة : فلا سبيل إليه في الدنيا ألبتة [١].

والقوم يلوح لأحدهم أنوار هي ثمرات الإيمان. ومعاملات القلوب ، وآثار الأحوال الصادقة ، فيظنونها نور الحقيقة. ولا يأخذهم في ذلك لومة لائم. وإنما هي أنوار في بواطنهم ليس إلا ، وباب العصمة عن غير الرسل مسدود إلا عمَّ [٢] اتفقت عليه الأمة. والله أعلم.

* * *

أن القوم لاستغراقهم في الفناء فإنهم لا يشهدون الرسوم ولا الآثار لوقوعهم في بحر الفناء.

(١) أي رؤية الله في هذه الحياة الدنيا.

(٢) في ط «عمن» وغ ، أ «الأعمال».

فصـل

[منزلة البرق]

ومن أنوار « إياك نعبد وإياك نستعين » نور : «البرق» الذي يبدو للعبد عند دخوله في طريق الصادقين ، وهو لامع يلمع لقلبه. يشبه لامع البرق. منزلة البرق

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ : «البَرْقُ : بَاكُورَةٌ تَلمَعُ لِلعَبدِ ؛ فَتَدعُوهُ إِلَىٰ الدُّخُولِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ»(١).

واستشهد عليه بقوله تعالىٰ : ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه : ٩ ، ١٠].

وجه(٢) الاستشهاد : أن النار (٣) التي رآها موسىٰ كانت مبدأ في طريق نبوته.

و«البرق» مبدأ في طريق الولاية التي هي وراثة النبوة.

وقوله : « بَاكُورَةٌ » الباكورة : هي أول الشيء ، ومنه باكورة الثمار

---

(١) في أ «الطريقة» وهو في منازل السائرين ٩٨ ، والبرق : كما عرفه الكاشاني : هو أول مايبدو من أنوار التجليات ، فيدعو العبد إلىٰ الدخول في الولايات أي : السير في الله بالفناء. معجم اصطلاحات الصوفية ١٢١ ، وانظر : التعريفات ٧١.

والبارقة : هي لائحة ترد من الجانب الأقدس وتنطفىء سريعاً ، وهي من أوائل الكشف ومباديه. التعريفات ٦٦ ، وانظر معجم اصطلاحات الصوفية ٦٢.

(٢) في ط «ووجه».

(٣) في ج «هي» بدل «التي».

وهي[١] لما سبق نوعه في[٢] النضج.

قوله[٣] : **«يَلمَعُ لِلعَبدِ»** أي يبدو له ويظهر **«فَيدعُوهُ إِلَىٰ الدُّخُولِ فِي هَٰذِهِ الطَّرِيق»** ولم يرد[٤] طريق أهل البدايات. فإن تلك هي «اليقضة» التي ذكرها في أول كتابه ، وإنما أراد : طريق أرباب[٥] التوسط والنهايات.

وعلىٰ هذا : فالبرق - الذي أشار إليه - هو برق الأحوال ، لا برق الأعمال ، أو برق لا سبب له من السالك. إنما هو مجرد موهبة.

والدليل علىٰ أنه أراد ما يحصل لأرباب التوسط والنهايات : أنه أخذ - بعد تعريفه - يفرق[٦] بينه وبين الوجد.

فقال : **«وَالفَرقُ بَينَهُ وَبَينَ الوَجْدِ : أَنَّ الوَجدَ يَقَعُ بَعدَ الدُّخُولِ فِيهِ. وَالبَرق قَبلَه. فَالوَجْدُ زَادٌ ، وَالبَرقُ إذنٌ»**[٧].

يريد: أن «البرق» نور يقذفه الله في قلب العبد، ويبديه له. فيدعوه إلىٰ[٨]

---

(١) في ط ، أ ، ب ، ح «وهو» والباكورة أول الثمار. انظر مختار الصحاح ٦١.

(٢) في ق «عند».

(٣) في ط «وقوله ».

(٤) في ج «ولم يطرد».

(٥) في م «أهل».

(٦) يفرق «ساقطة من ق.

(٧) منازل السائرين ٩٨ بدون «والبرق بعده».

(٨) في ط زيادة «به».

الدخول في الطريق. و «الوجد» هو شدة الطلب ، وقوته الموجبة لتأجج[1] اللهيب من الشهود ، كما تقدم.

«والوَجْدُ زَادٌ» يعني : أنه يصحب السالك كما يصحبه زاده ؛ بل هو من نفائس زاده «وَالبَرقُ إذنٌ» يعني إذناً في السلوك ، و «الإذن» إنما يفسح للسالك في المسير لا غير.

درجات البرق

قال : «وَهُوَ علَىٰ[2] ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الأُولَىٰ : بَرقٌ يَلمَعُ مِن جَانِبِ العِدَةِ فِي عَينِ الرَّجَاءِ. فَيستكثِرُ فِيهِ العَبدُ القَلِيلَ مِن العَطَاءِ ، وَيستَقِلُّ فِيهِ الكَثِيرَ مِنَ الإِعْيَاء ، وَيَستَحلِي فِيهِ مَرَارَةَ القَضَاءِ».

الدرجة الأولى

يعني بالعدة : ما وعد الله به[3] أولياءه من أنواع الكرامة في هذه الدار وعند اللقاء.

وقوله : «يَلمَعُ فِي عَينِ الرَّجَاءِ» أي يبدو في حقيقة «الرجاء»[4] من أفقه وناحيته. فيوجب له ذلك استكثار القليل ، ولا قليل من الله من عطائه ، والحامل له علىٰ هذا الاستكثار : أربعة أمور.

أحدها : نظره إلىٰ جلالة معطيه وعظمته .

---

(١) في ط «التأجيج» وقوله «كما تقدم» أي في منزلة الوجد.

(٢) «علىٰ» ساقطة من ط وقوله في المنازل ٩٨ وفيه «الدرجة الأولىٰ» و «يستكثر» و «الأعباء».

(٣) «به» ساقطة من ط.

(٤) في الأصل « ومرافقة » وهو خطأ وفي م كذلك وطمس عليها. والمثبت كما في البقية.

والأفق : هو الناحية من الأرض والسماء. المصباح المنير ، ١٦.

الثاني : احتقاره لنفسه. و[1] ازدراؤه لها ، يوجب استكثار ما يناله من سيده.

الثالث : محبته له. فإن المحبة إذا تمكنت من العبد استكثر قليل ما يناله من محبوبه.

الرابع : أن هذا - قبل هذا[2] العطاء - لم يكن له إلف به ، ولا اتصال بالعطية. فلما فاجأته[3] : استكثرها.

وأما «استِقلالُه لِلكَثِيرِ[4] مِن الإِعيَاءِ» -وهو التعب والنصب- فلأنه لما بدا له برق الوعود[5] من أفق الرجاء : حمله ذلك علىٰ الجد والطلب. وحمل عنه مشقة السير. فلم يجد من مَسِّ الإعياء والنصب ما يجده من لم يشم ذلك.

وكذلك « استِحلاَؤُهُ - في هذا البرق - مَرَارَةَ القَضَاءِ» وهو البلاء الذي يختبر به الله عز وجل عباده[6] ، ليبلوهم أيهم أصبر وأصدق ، وأعظم إيمانا ، ومحبة وتوكلا وإنابة؟ وإذا[7] لاح للسالك هذا البرق : استحلىٰ فيه مرارة القضاء.

---

(١) في ط «فإن».

(٢) «هذا» ساقطة من الجميع عدا م و «قبل» ساقطة من ح ، ب.

(٣) في أ ، غ ، ح ، ب «فاجأه» وق «جأته».

(٤) في البقية عدا م ، ج ، ق «الكثير».

(٥) في م «الوعد».

(٦) في م «يختبر الله عز وجل به عباده».

(٧) في ط «فإذا».

فصل[1]

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : بَرقٌ يَلمَعُ مِن جَانِبِ الوَعِيدِ فِي عَينِ الحَذَرِ. فَيستَقْصِرُ فِيهِ العَبدُ الطَّوِيلَ مِن الأَمَلِ ، وَيَزهَدُ فِي الخَلْقِ عَلَىٰ القُرْبِ ، وَيَرغَبُ فِي تَطهِيرِ السِّرِّ»[2].

هذا البرق أفقه وعينه : غير أفق البرق الأول. فإن هذا يلمع من أفق الحذر ، وذاك من أفق الرجاء. فإذا شام هذا البرق : استقصر فيه الطويل من الأمل. وتخيل في كل وقت : أن المنية[3] تغافصه وتفاجئه. فاشتد حذره من هجومها ، مخافة أن تحل به عقوبة الله ، ويحال بينه وبين الاستعتاب والتأهب للقاء. فيلقىٰ ربه قبل الطهر[4] التام. فلا يؤذن له بالدخول عليه بغير طهارة. كما أنه لم يأذن[5] له في دار التكليف بالدخول عليه للصلاة بغير طهارة.

وهذا يُذكِّر العباد بالتطهر[6] للموافاة والقدوم عليه ، والدخول وقت اللقاء

(١) «فصل» ساقطة من ج.

(٢) منازل السائرين ٩٨.

(٣) في ط «تعافصه» بالعين. والمغافصة : هي المغالبة والأخذ علىٰ غرة. انظر مختار الصحاح ٤٧٧ ، والمصباح المنير ٤٤٩.

(٤) في ج : «التصهر».

(٥) في ط : «يؤذن».

(٦) في غ : «بالنظر».

لمن عقل عن الله ، وفهم أسرار العبادات. فإذا كان [العبد][١] لا يدخل عليه حتىٰ يستقبل بيته[٢] بوجهه ، ويستر عورته ، ويطهر بدنه وثيابه ، وموضع مقامه بين يديه. ثم يخلص له النية. فهكذا الدخول عليه وقت اللقاء ، لا يحصل إلا بأن يستقبل ربه بقلبه كله. ويستر عوراته[٣] الباطنة بلباس التقوىٰ. ويطهر قلبه وروحه وجوارحه من أدناسها الظاهرة والباطنة. ويتطهر لله طهراً كاملاً. ويتأهب للدخول أكمل تأهب. وأوقات الصلاة نظير وقت الموافاة.

فإذا تأهب العبد قبل الوقت : جاءه الوقت وهو متأهب فدخل[٤] علىٰ الله. وإذا فرط في التأهب : خيف عليه من خروج الوقت قبل التأهب. إذ هجوم وقت الموافاة مضيق لا يقبل التوسعة. فلا يمكّن العبد من التطهر والتأهب[٥] عند هجوم الوقت ؛ بل يقال له : هيهات ، فات ما فات ، وقد بعدت بينك وبين الطَّهور[٦] المسافات. فمن شام برق الوعيد بقصر الأمل : لم يزل علىٰ طهارة.

---

(١) الزيادة من الجميع عدا م.

(٢) في ط زيادة «المحرم».

(٣) في ج : «عورته».

(٤) في البقية عدا ج ، م ، ق : «فيدخل».

(٥) سقط من غ ، ح قوله «عند هجوم الوقت».

(٦) في ج : «التطهير» والبقية عدا م «التطهر» والطَّهور : مصدر بمعنىٰ التطهر. انظر : مختار الصحاح ٣٩٩.

وأما «تَزهِيدُهُ فِي الخَلقِ عَلَىٰ القُرْبِ» أي[1] وإن كانوا [من][2] أقاربه أو مناسبيه أو مجاوريه وملاصقيه، أو معاشريه ومخالطيه : فلكمال حذره، واستعداده واشتغاله بما أمامه وملاحظة الوعيد من أفق ذلك البارق الذي[3] ليس بخُلَّب[4]، بل هو أصدق بارق.

ويحتمل أن يريد بقوله «عن قرب» أي عن أقرب وقت. فلا ينتظر بزهده فيهم : أملاً يؤمّله. ولا وقتاً يستقبله.

قوله : «وَيَرغَبُ فِي تَطْهِيرِ السِّرِّ» يعني تطهير[5] سِرِّه عما سوىٰ الله. وقد تقدم بيانه.

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : بَرقٌ يَلمَعُ مِن جَانِبِ اللُّطْفِ فِي عَينِ الافتِقَارِ. فيُنشِئُ سَحَابَ السُّرُورِ، وَيُمطِرُ قَطْرَ[6] الطَّرَبِ، وَيجرِي مِن نَهرِ الافتِخَارِ».

---

(١) «أي» ساقطة من ط.

(٢) الزيادة من م.

(٣) «الذين» ساقطة من ج.

(٤) الخُلَّب : الخداع الكاذب. والبرق الخلب والسحاب الخلب : الذي لا مطر فيه كأنه خادع.

ومنه قيل لمن يعد ولا ينجز : إنما أنت كبرقٍ خلب. مختار الصحاح ١٨٣.

(٥) «تطهير» ساقطة من ج وقوله «وقد تقدم بيانه» أي في أول هذا الفصل.

(٦) في ط «مطر» وقوله في المنازل ٩٨، وآخره «ويجري نهر الافتخار».

هذا البرق يلمع من أفق ملاطفة الرب تعالىٰ لعبده[١] بأنواع الملاطفات. ومطلع هذا البرق : في عين الافتقار[٢] ، الذي هو باب السلوك إلىٰ الله تعالىٰ ، والطريق الأعظم الذي لا يدخل عليه إلا منه. وكل طريق سواه فمسدود. ومع هذا فلا يصل العبد منه إلا بالمتابعة. فلا طريق إلىٰ الله البتة أبداً - ولو تعنىٰ[٣] المتعنون، وتمنىٰ المتمنون - إلا الافتقار ، ومتابعة الرسول فقط[٤]. فلا يتعب السالك نفسه علىٰ[٥] غير هذه الطريق. فإنه علىٰ غير شيء. وهو صيد الوحوش والسباع.

قوله : «فَيُنشِئُ سَحَابَ السُّرُورِ» أي ينشئ للعبد سرورا خاصاً[٦] وفرحا بربه لا عهد له بمثله ، ولا نظير له في الدنيا ، ونفحة من نعيم الجنة ، ونسمة من ريح[٧] شمالهم. فإذا نشأ له ذلك السحاب أمطر عليه طيب[٨] الطرب ،

---

(١) في ق «بأنوار».

(٢) في ط «الافتخار».

(٣) في ج «فلو تعنىٰ» ومعنىٰ تعنىٰ : أي قصد وأراد ، انظر المصباح المنير ٤٣٤ ، ومختار الصحاح ٤٥٩.

(٤) «فقط» ساقطة من م.

(٥) في ط «في» وبعدها قوله «الطريق فإنه عمل غير» ساقطة من أ ، ح ، ب.

(٦) في غ «خالصاً».

(٧) «ريح» ساقطة من م. والنفحة : القطعة أو الرائحة. ونسمة الريح : أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد. والشمال : الريح التي تهب من ناحية القطب. انظر : مختار الصحاح ص٣٤٧ و ٦٥٨ و ٦٧١.

(٨) في ط «صيب».

فطرب باطنه وسره لما ورد عليه من عند سيده ووليه. وإذا اشتد ذلك الطرب. جرىٰ به نهر الافتخار، بتميزه[1] به عن أبناء جنسه بما خصه الله به.

فإما[2] أن يريد به: افتخاره علىٰ الشيطان وهزَّ عِطفه[3]، طربا وافتخاراً عليه. فإن الله لا يكره ذلك. ولهذا يحب المختال بين الصفين عند الحرب، لما في ذلك من مراغمة أعدائه، ويحب الخيلاء عند الصدقة - كما جاء ذلك مصرحا به في الحديث[4] - لسر عجيب، يعرفه أولوا[5] الصدقات والبذل من نفوسهم عند ارتياحهم للعطاء، وابتهاجهم به، واختيالهم علىٰ النفس الشحيحة الأمارة بالبخل. وعلىٰ الشيطان المزين لها ذلك[6]، فهذا الافتخار من تمام العبودية.

---

(١) في م: «فيميزه» وفي البقية «يتميز به».

(٢) في الجميع عدا م، ج «وأما».

(٣) في البقية عدا م: «وهذه مخيلة محمودة» والعطف: بالكسر جنب الرجل من رأسه إلىٰ وركيه. انظر: مختار الصحاح ٤٤٠، المصباح المنير ٤١٦.

(٤) كما جاء في الحديث الذي أوله «من الغيرة ما يحب الله - إلىٰ أن قال - وإن من الخيلاء ما يبغض الله، ومنها ما يحب الله: فأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل نفسه عند القتال واختياله عند الصدقة..» الحديث رواه أبو داود في كتاب الجهاد باب في الخيلاء في الحرب، ٣/ ١١٤ و ١١٥ (٢٦٥٩) وابن حبان في صحيحه ٧/ ١٢٩، وأحمد في المسند ٥/ ٤٤٦، والطبراني في المعجم الكبير ٢/ ١٨٩ (١٧٧٢)، وابن خزيمة في صحيحه ٤/ ١١٣ (٢٤٧٨) قال الشوكاني في نيل الأوطار ٨/ ٦٨: الحديث سكت عنه أبو داود والمنذري وفي إسناده عبدالرحمن بن جابر بن عتيك وهو مجهول وقد صحح الحديث الحاكم.

(٥) في م: «أهل».

(٦) في ط زيادة هذه الأبيات:

أو يريد به أنه حريٌّ[١] بالافتخار بما تميز به. ولم يفتخر به إبقاء علىٰ عبوديته وافتقاره. وكلا المعنيين صحيح. والله أعلم.

وسر ذلك : أن العبد إذا لاحَظَ ما هو فيه[٢] من الألطاف ، وشهده من عين المنّة ، ومحض الجود ، وشهد مع ذلك فقره إليه في كل لحظة ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين[٣]. كان ذلك من أعظم أسباب الشكر، وأسباب المزيد، وتوالي النعم عليه. وكلما توالت عليه النعم : أنشأت في قلبه سحائب السرور. وإذا انبسطت[٤] هذه السحائب في سماء قلبه ، وامتلأ أفقه بها[٥] : أمطرت عليه وابل الطرب بما هو فيه من لذيذ السرور. فإن لم يصبه وابل فطل. وحينئذ[٦] يجري علىٰ لسانه وظاهره نهر الافتخار من غير عجب ولا فخر ؛ بل فرحا بفضل الله ورحمته ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس :٥٨]. فالافتخار علىٰ ظاهره ، والافتقار والانكسار في باطنه ، ولا

وهم ينفذون المال في أول الغنىٰ ... ويستأنفون الصبر في آخر الصبر
مغاوير للعليا ، مغابير للحمىٰ ... مفاريج للغُمَّىٰ مداريك للوتر
وتأخذهم في ساعة الجود هزة ... كما تأخذ المطراب عن نزوة الخمر

(١) في م ، ق ، ب ، «حر» ثم بعدها في ق ، ب : «بالافتخار لما».

(٢) «فيه» ساقطة من م.

(٣) في ط : «فكان ذلك من أعظم أبواب».

(٤) في ج : «استميطت».

(٥) في ط : «بها أفقه».

(٦) في ب : «فحينئذ».

ينافي أحدهما الآخر.

وتأمل قول النبي ﷺ : «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[١] كيف أخبر بفضل الله ومنته عليه ، وأخبر أن ذلك لم يصدر منه افتخاراً به علىٰ من دونه ، ولكن إظهاراً لنعمة الله عليه ، وإعلاما للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله ، وعلو منزلته [لديه][٢]. لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم.

ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزيز : ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف :٥٥] ، فإخباره عن نفسه بذلك ، لما كان متضمنا لمصلحة تعود علىٰ العزيز وعلىٰ الأمة ، وعلىٰ نفسه : كان حسنا. إذ لم يقصد به الفخر عليهم ، فمصدر الكلمة والحامل عليها يحسنها[٣] وبهجتها وصورتها[٤] واحدة.

---

(١) في البقية عدا م ، ق «فكيف» والحديث رواه بنصه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب ذكر الشفاعة ٢/ ١٤٤٠ (٤٣٠٨) وقد رواه البخاري ومسلم بدون «ولا فخر» بلفظ : «**أنا سيد الناس يوم القيامة**» في حديث الشفاعة ، وقد تقدم بلفظ : «اذهبوا إلىٰ محمد» ورواه أبو داود في كتاب المناقب باب فضل النبي ﷺ ٥/ ٥٨٧ (٣٦١٥) بلفظ أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. وقال هذا حديث حسن صحيح. وكذا في التفسير باب ومن سورة بنىٰ إسرائيل ٥/ ٣٠٨ (٣١٤٨) ، وأحمد في المسند ٣/ ٢ و ١٤٤ وحسنه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ١٦١ (٢٦٩٣).

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في م : « بحسنها» وح «لحسنها» وبعدها في الجميع عدا م ، ج «يهجنها».

(٤) في ط : «وصورته».

فصل

[ومنها منزلة الذوق]

منزلة الذوق

و«الذوق» مباشرة الحاسة الظاهرة أو الباطنة للملائم أو المنافر(١). ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن؛ بل ولا في لغة العرب. قال تعالىٰ: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠، الحج: ٢٢]. وقال: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران ١٠٦، الأنعام: ٣٠]، الأنفال: ٣٥] وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]، وقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس، ليدل علىٰ مباشرة المذوق(٢) وإحاطته وشموله. فأفاد الإخبار عن إذاقته: أنه واقع مباشر غير منتظر. فإن المخوف(٣) قد يتوقع ولا يباشر، وأفاد الإخبار عن لباسه: أنه محيط شامل كاللباس للبدن.

تذوق طعم الإيمان

وفي الصحيح عنه ﷺ: **«ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»**(٤)، فأخبر: أن للإيمان طعماً، وأن القلب يذوقه كما

---

(١) في البقية عدا غ، م، ق، ج: «والباطنة للملائم والمنافر».

(٢) في م، ق: «الذوق» والذوق تقدم تعريفه في الدرجة الثالثة من المحبة.

(٣) في الجميع «الخوف».

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن من رضي بالله رباً.. فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي والكبائر ١/ ٦٢ (٣٤).

يذوق الفم طعم الطعام والشراب.

وقد عبر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان والإحسان ، وحصوله للقلب ومباشرته له : بالذوق تارة ، وبالطعام والشراب تارة ، وبوجود الحلاوة تارة ، كما قال : **«ذاق طعم الإيمان»** ، وقال : **«ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن كان يكره أن يرجع في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقىٰ في النار»** [1].

ولما نهاهم عن الوصال قالوا : **«إنك تواصل ، قال : إني لست كهيئتكم ، إني أُطعَم وأُسقَىٰ»** وفي لفظ **«إني أظلُّ عند ربي يطعمني ويسقيني»** وفي لفظ **«إن لي مطعما يطعمني ، وساقيا يسقيني»** [2].

وقد غلظ حجاب من ظن أن هذا طعام وشراب حِسِّي للفم. ولو كان كما ظنه هذا[3] : لما كان صائماً ، فضلاً عن أن يكون مواصلاً. ولما صح جوابه بقوله : **«إني لست كهيئتكم»** فأجاب بالفرق بينه وبينهم. ولو كان يأكل

---

(١) الحديث تقدم تخريجه ص٢٨١١.

(٢) انظر هذه الروايات في البخاري كتاب الصوم باب بركة السحور من غير إيجاب ، وباب الوصال ومن قال ليس في الليل صيام ، وباب التنكيل لمن أكثر الوصال ، وباب الوصال إلىٰ السحر ٢/ ٢٣٢ و ٢٤٢ و ٢٤٣. ومسلم في كتاب الصيام باب النهي عن الوصال في الصوم ١/ ٧٧٤-٧٧٦ (١١٠٢-١١٠٥).

(٣) في ط زيادة «لظان» وقبلها «هذا» ساقطة من غ ، ح.

ويشرب بفيه الكريم حسًّا ، لكان الجواب أن يقول : وأنا لست أواصل أيضا. فلمّا أقرهم علىٰ قولهم «إنك تواصل» علم أنه كان يمسك عن الطعام والشراب ، ويكتفي بذلك الطعام [1] والشراب العالي الروحاني ، الذي يغني عن الطعام والشراب المشترك الحسي.

وهذا الذوق هو الذي استدل به هرقل [2] علىٰ صحة النبوة ، حيث قال لأبي سفيان [3] : «فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ فقال: لا. قال: وكذلك الإيمان، إذا خالط بشاشة القلوب» [4].

فاستدل بما يحصل لأتباعه من ذوق الأيمان - الذي خالطت بشاشته

---

(١) سقط من ق إلىٰ قوله «عن الطعام».

(٢) هرقل : ملك الروم ، كان قبل أن يكون ملكاً بطريقاً في بعض الجزائر فعمر بيت المقدس وبنىٰ الكنائس ، وبعد مضي سبع سنين من ملكه هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة. توفي هرقل في سنة ٢٠ من الهجرة وقيل أنه أسلم سراً ، انظر البداية والنهاية ٧/ ١٠١ ، ومروج الذهب ومعادن الجوهر ١/ ٣٢٨ ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ١/ ٣٢.

(٣) أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي وكان يكنىٰ أيضاً أبا حنظلة ، كان أكبر من النبي ﷺ بعشر سنين أسلم عام الفتح وكان قبل ذلك رأس المشركين يوم أحد ويوم الأحزاب ، وقد اختلف في سنة وفاته فقيل : توفي سنة ٣٤هـ وقيل غير ذلك. الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٢٣٧ و ٢٣٨.

(٤) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ الرسول ﷺ ١/ ٤-٧ ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب كتاب النبي ﷺ إلىٰ هرقل ٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧ (١٧٧٣).

القلوب : لم يسخطه ذلك القلب أبداً - علىٰ أنه دعوة نبوة ورسالة ، لا دعوىٰ ملك ورياسة.

والمقصود : أن ذوق حلاوة (١) الإيمان والإحسان ، أمر يجده القلب. تكون نسبته إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلىٰ الفم ، وذوق حلاوة الجماع إلىٰ آلته(٢). كما قال النبي ﷺ : «حتىٰ تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»(٣) فللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد. ولا تزول الشبه والشكوك (٤) إلا إذا وصل العبد إلىٰ هذه الحال. فباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة (٥) ، فيذوق طعمه ويجد حلاوته (٦).

فصـــل

قال صاحب المنازل : «بَابُ الذَّوقِ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ [ص :٤٩]» في تنزيل هذه الآية علىٰ الذوق صعوبة. والذي يظهر - والله أعلم - أن الشيخ

---

(١) «حلاوة» ساقطة من ق.

(٢) في م «إلىٰ اللذة» وفي البقية «إلىٰ ألفة النفس».

(٣) رواه البخاري في كتاب الطلاق باب من أجاز طلاق الثلاث ٦/ ١٦٥ ولفظه : «حتىٰ يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته». ومسلم في كتاب النكاح باب لا تحل المطلقة ثلاث لمطلقها حتىٰ تنكح زوجاً غيره ويطأها ثم يفارقها وتنقضي عدتها ٢/ ١٠٥٥ و ١٠٥٦ (١٤٣٣).

(٤) في ط زيادة «عن القلوب».

(٥) في ط «المباشر».

(٦) في ط زيادة «والله الموفق».

أراد : أن الذوق مقدمة الشراب[1] ، كما أن التذكر مقدمة المعرفة ، ومنه يدخل إلىٰ مقام الإيمان والإحسان. فإنه إذا تذكر أبصر الحقيقة ، كما قال تعالىٰ : ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف :٢٠١] فالتذكر يوجب التبصر[2] ، فيكون له الإيمان بعد التبصر ذوقاً وعياناً. ولهذا قال بعده[3] : ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [ص٤٩ ، ٥٠] فالتذكر بهذا الذكر الذي قصه الله يشهد صاحبه الإيمان بالمعاد ، وما أعد الله لأوليائه عند لقائه. فيصير إيمانهم بذلك ذوقاً[4] ، لا خبراً محضاً ؛ لأنه نشأ عن تذكرهم بذكره سبحانه ، وتأملهم حقائقه وأسراره ، وما فيه من الهدىٰ والبيان. فالتذكر سبب الذوق. والله أعلم.

فصل

قال : «الذَّوقُ : أَبقَىٰ مِن الوَجْدِ ، وَأَجلَىٰ مِن البَرقِ»[5].

يريد به[6] أن منزلة «الذوق» أثبت وأرسخ من منزلة «الوجد» وذلك أن»[7]

---

(١) في البقية عدا م ، ج ، ق «الشراب».

(٢) سقط من ج قوله «فيكون له الإيمان بعد التبصر».

(٣) «بعده» ساقطة من ق.

(٤) في غ : «الأجزاء».

(٥) منازل السائرين ٩٩.

(٦) «به» ساقطة من م.

(٧) في البقية عدا م «لأن».

أثر الذوق يبقىٰ في القلب ، ويطول بقاؤه. كما يبقىٰ أثر ذوق الطعام والشراب في القوة الذائقة(١). ويبقىٰ علىٰ البدن والروح. فإن «الذوق» مباشـرة - كما تقدم - و«الوجد» عند الشيخ «لهيب يتأجج من شهود عارض مقلق» فهو(٢) عنده من العوارض ، كالهيمان والقلق. فإنه ينشأ من مكاشفة لا تدوم. فلذلك جعله أبقىٰ من الوجد.

وأما قوله : «وَأَجلَىٰ مِن البَرقِ» فإن البرق أسرع انقضاء ، وكشفه دون كشف الذوق. وهذا صحيح.

ولكن جَعْلَه «الذوقَ» أبقىٰ من «الوجد» وأعلىٰ منه : فيه نظر. وقد يقال : [إن](٣) النبي ﷺ جعل «الوجد» فوق «الذوق» وأعلىٰ منزلة منه ، فإنه قال «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» (٤) وقال في الذوق «ذاق طعم الإيمان»(٥) فوَجْدُ حلاوة الشيء المذوق : أخص من مجرد ذوقه. ولما كانت الحلاوة أخص من الطعم : قرن بها الوجد الذي هو أخص من الذوق(٦). فقرن الأخص بالأخص ، والأعم بالأعم.

---

(١) في م «النافعة».

(٢) في غ «فهي».

(٣) الزيادة من الجميع عدا ج.

(٤) في ط زيادة «الحديث» وقد تقدم تخريجه ص٢٨١١.

(٥) تقدم تخريجه ص٢٩٤٦.

(٦) في ط زيادة «مجرد».

وليس المراد بوجد حلاوة الإيمان : الوجد الذي هو لهيب القلب. فإن ذلك مصدر وجد بالشيء وجدا ، وإنما هو من الوجود الذي هو الثبوت. فمصدر هذا الفعل : الوجود والوجدان ، فوجد الشيء يجده وجدانا : إذا حصل له وثبت. كما يجد الفاقد الشيء الذي فقد[1] منه ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النور :٣٩] ، وقوله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء :١١٠] وقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحىٰ :٦-٨] ، وقوله : ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص :٤٤] فهذا كله من الوجود والثبوت. وكذلك قوله : «وجد بهن حلاوة الإيمان».

فوجدان الشيء : ثبوته واستقراره. ولا ريب أن ذوق طعم الإيمان وجدان له. إذ يمتنع حصول هذا الذوق من غير وجدان. ولكن اصطلاح كثير من القوم علىٰ أن الذائق أخص من الواجد. فكأنه شارك الواجد في الحصول ، وامتاز عنه بالذوق. فإنه قد يجد الشيء ولا يذوقه الذوق التام.

وهذا ليس كما قالوه ؛ بل وجود هذه الحقائق للقلب : ذوق لها وزيادة ثبوت[2] واستقرار. والله أعلم.

---

(١) في البقية عدا م «بعد» وبعدها «منه» ساقطة من أ ، غ ، ب.

(٢) في البقية عدا م «وزيادة وثبوت».

فصل

درجات الذوق

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : ذَوقُ التَّصدِيقِ طَعْمَ العِدَةِ. فَلاَ يَعقِلُه ظَنٌّ ، وَلاَ يَقطَعُه أَمَلٌ ، وَلاَ تَعُوقُه أُمنِيَةٌ»[1].

الدرجة الأولى

يريد : أن العبد المصدق إذا ذاق طعم الوعد من الله علىٰ إيمانه وتصديقه وطاعته : ثبت علىٰ حكم الوعد واستقام.

«فَلَم يَعقِلْهُ ظَنٌّ» أي لم يحبسه ظن ، تقول : عقلت فلانا عن كذا ، أي عقته[2] عنه وصددته ، ومنه عقال البعير ؛ لأنه يحبسه عن الشرود. ومنه : العقل؛ لأنه يحبس صاحبه عن فعل مالا يحسن ولا يجمل. ومنه : عقلت الكلام ، وعقلت معناه : إذا حبسته في صدرك ، وحصلته في قلبك ، بعد أن لم يكن حاصلا عندك. ومنه : العقل للدية ؛ لأنها تمنع آخذها من العدوان علىٰ الجاني وعصبته.

والمقصود : أن ذوق طعم الإيمان بوعد الله يمنع الذائق [أن][3] يحبسه ظن عن الجد في الطلب[4] ، والسير إلىٰ ربه. و «الظن» هو الوقوف عن الجزم بصحة الوعد والوعيد ، بحيث لا يترجح عنده جانب التصديق.

---

(١) منازل السائرين ، ٩٩.

(٢) في ط : «منعته».

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) في غ «في السير والطلب».

وكأن الشيخ يقول: الذائق بالتصديق طعم الوعد، لا يعارضه ظن يعقله عن صدق الطلب، ويحبس[١] عزيمته عن الجد فيه. وفي حديث «سيد الاستغفار» قوله: **«وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت»**[٢] أي مقيم علىٰ التصديق بوعدك، وعلىٰ القيام بعهدك، بحسب استطاعتي.

والحامل علىٰ هذه الإقامة والثبات: ذوق طعم الإيمان، ومباشرته للقلب. ولو كان الإيمان مجازاً[٣] - لا حقيقة - لم يثبت القلب علىٰ حكم الوعد، والوفاء بالعهد. ولا يقيمه[٤] في هذا المقام إلا ذوق طعم[٥] الإيمان. وثوب العارية لا يجمل صاحبه[٦]. ولا سيما إذا عرف الناس أنه ليس له، وأنه عارية عليه، كما قيل[٧]:

ثوب الرياء يشفُّ عما تحته   فإذا اشتملت به فإنك عار

---

(١) في الأصل، ج، ق: تحبسه «والمثبت كما في البقية لصحة المعنىٰ.

(٢) الحديث أوله: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي...**» رواه البخاري في كتاب الدعوات باب فضل الاستغفار ٧/ ١٤٥.

(٣) المجاز: هو استعمال الكلام في وجه غير الوجه الذي وضع له في الأصل. والحقيقة: اللفظ المستعمل في معناه الحقيقي. قاموس المصطلحات اللغوية ص١٨٨ و ٣٤٢ وانظر التعريفات ص٢٥٥-٢٥٧.

(٤) في البقية عدا م «ولا يفيد».

(٥) «طعم» ساقطة من ب، أ، غ.

(٦) في البقية عدا م «لابسه».

(٧) القائل هو أبو الحسن علي بن محمد التهامي انظر ديوانه ٣١١.

وكان بعض الصحابة يكثر التلبية في إحرامه ، ثم يقول «لبيك ، لو كان رياء لاضمحل» (١). وقد نفىٰ الله تعالىٰ الإيمان عمن ادعاه. وليس له (٢) فيه ذوق. فقال تعالىٰ : ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات :١٤] فهؤلاء مسلمون ، وليسوا بمؤمنين ؛ لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه ، فذاق طعمه (٣). وهذا حال أكثر المنتسبين إلىٰ الإسلام. وليس هؤلاء كفاراً. فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله : ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ (٤) ولم يرد : قولوا بألسنتكم ، من غير مواطأة القلب. فإنه فرق بين قولهم «آمنا» ، وقولهم «أسلمنا» ؛ ولكن لما لم يذوقوا طعم الإيمان ، قال «لم تؤمنوا» (٥) ووعدهم سبحانه – مع ذلك- علىٰ طاعتهم أن لا ينقص (٦) من أجور أعمالهم شيئا.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه ، وهم الذين آمنوا به وبرسوله. ثم لم يرتابوا في إيمانهم. وإنما انتفىٰ عنهم الرّيب : لأن الإيمان قد باشر قلوبهم.

---

(١) القائل من كبار التابعين وهو عبدالرحمن بن أبي نعيم مات بعد المائة. انظر : حلية الأولياء ٥/ ٧٠ ، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٦٣.

(٢)«له» ساقطة من ح.

(٣) في ط زيادة : «حلاوته».

(٤) سقط من ق إلىٰ قوله : «ولكن لما».

(٥) في ب : «ووعد لهم».

(٦) في البقية عدا م : «ينقصهم».

وخالطتها[1] بشاشتُه. فلم يبق للرّيب فيها موضع. وصَدَّق ذلك الذوقَ : بذلُهم أحب شيء إليهم في رضىٰ ربهم تعالىٰ. وهو أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع : حصول هذا البذل من غير ذوق طعم[2] الإيمان ، ووجود حلاوته. فإن ذلك يصدق الذوق والوجد[3]. كما قال الحسن ـ رحمه الله ـ : «ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل» [4].

فالذوق والوجد : أمر باطن ، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشك والنفاق. أمر باطن. والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد. فاليقين : يثمر الجهاد ، ومقامات الإحسان. فعلىٰ حسب قوته تكون ثمرته ونتيجته. والريب والشك : يثمر الأعمال المناسبة له. وبالله التوفيق.

وقوله[5] : **«وَلاَ يَقطَعُه أَمَلٌ»** أي من علامات الذوق : أن لا يقطع صاحبه عن

---

(١) في ج ، ح : «وخالطها» وبعدها في ط «للريب فيه».

(٢) في ب ، ح ، م : «الطعم».

(٣) في ط زيادة : «إنما يحصل» وبعدها في أ «الوجد والذوق».

(٤) في الرواية عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال السيوطي : ضعيف. انظر : الجامع الصغير ٢/ ٤٦٤ (٧٥٧٠) وقال الألباني : موضوع. انظر : ضعيف الجامع الصغير ص٧٠٤ (٤٨٨٠). والصحيح أنه من قول الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وقد رواه ابن أبي شيبة في المصنف ١١/ ٢٢ (١٠٤٠٠) وذكره أبو نعيم في الحلية عن عبيد بن عمير ٣/ ٢٧٣.

(٥) في البقية عدا م : «قوله».

طلبه أمل [١] دنيا، وطمع في غرض من أغراضها[٢]. فإن الأمل والطمع يقطعان طريق القلب في سيره إلىٰ مطلبه [٣].

ولم يقل الشيخ «إنه لا يكون له أمل»؛ بل قال[٤]: «**لاَ يَقْطَعُه أَمَلٌ**» فإن الأمل إذا قام به ولم يقطعه: لم يضره، وإن عوق سيره بعض التعويق[٥]. وإنما البلاء في الأمل القاطع للقلب عن سيره إلىٰ الله.

وعند الطائفة: أن كل ما سوىٰ الله، فإرادته: أمل قاطع، كائنا ما كان. فمن كان ذلك أمله، ومنتهىٰ طلبه: فليس من أهل ذوق الإيمان. فإنه[٦] من ذاق حلاوة معرفة الله والقرب منه، والأنس به: لم يكن له أمل في غيره. وإن تعلق أمله بسواه، فهو لإعانته له [٧] علىٰ مرضاته ومحابه. فهو يؤمله لأجله، لا يؤمله معه.

فإن قلت: فما الذي يقطع به [٨] هذا الأمل؟

---

(١) في البقية عدا م، ج، ق: «أمر».

(٢) في البقية عدا م، ج، ق «غرض من أغراضها» والعرض: هو متاع الدنيا ومنه يبيع دينه بعرض. انظر: تفسير غريب الحديث ١٦٣.

(٣) في البقية عدا م، ج، ق «مطلوبه».

(٤) «قال» ساقطة من غ، أ، ح، ق.

(٥) في ق: «العوائق».

(٦) في ب: «فإن».

(٧) «له» ساقطة من الجميع عدا م، ج.

(٨) في ط زيادة «العبد».

قلت: قوة رغبته في المطلب[1] الأعلىٰ، الذي ليس شيء أعلىٰ منه. ومعرفته بخسة ما يؤمَّل دونه، وسرعة ذهابه ووشك[2] انقطاعه. وأنه في الحقيقة كخيال طيف، أو سحابة صيف[3]. فهو ظل زائل، ونجم قد تدلىٰ للغروب. فهو عن قريب آفل. قال النبي ﷺ: «ما لي وللدنيا؟ إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها»[4]، وقال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليمِّ، فلينظر: بم ترجع؟»[5] فشبه الدنيا في جنب[6] الآخرة بما يعلق علىٰ الإصبع من البلل حين تغمس في البحر.

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «لو أن الدنيا من أولها إلىٰ آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة من رأىٰ في منامه ما يسره. ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء»[7].

---

(١) في ج «الطلب».

(٢) في البقية عدا م، ج، ق: «فيوشك».

(٣) في أ، غ «فهل».

(٤) رواه أبو داود في كتاب الزهد، باب (٤٤) ٤/ ٥٨٨ و ٥٨٩ (٢٣٧٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب الزهد باب مثل الدنيا ٢/ ١٣٧٦ (٤١٠٩)، وأحمد ١/ ٣٩١و ٤٤١ والحاكم ٤/ ٣١٠ والحديث صححه السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ٤٨٧ (٧٩٧٦) والألباني في الصحيحة ١/ ٧٢٣ و ٣٧٤ (٤٣٨و٧٣٩).

(٥) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٣/ ٢١٩٣ (٢٨٥٨) وأوله والله ما الدنيا في الآخرة».

(٦) في أ، ب، غ: «يجنب».

(٧) بمعناه ذكره أبو نعيم في الحلية عن أبي هاشم الزاهد ١٠/ ٢٢٥.

وقال مطرف بن عبدالله(١) - أو غيره - : «نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة : أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا».

ومن حدق عين بصيرته في الدنيا والآخرة : علم أن الأمر كذلك.

فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة : أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيم لا يزول ، ولا يضمحل؟ فضلا [عن](٢) أن يقطعه عن طلب من نسبة هذا النعيم الدائم إلىٰ نعيم معرفته ومحبته ، والأنس به ، والفرح بقربه ، كنسبة نعيم الدنيا إلىٰ نعيم الجنة؟ قال تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة :٧٢] فيسير من رضوانه - ولا يقال له يسير - أكبر من الجنات(٣) وما فيها.

وفي حديث الرؤية : «فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إلىٰ وجهه»(٤) ، وفي حديث آخر : «إنهم إذا رأوه لم يلتفتوا إلىٰ شيء مما هم فيه من

(١) أبو عبد الله مطرف بن عبدالله بن الشخير العامري البصري ولد في حياة النبي ﷺ وتوفي بالطاعون سنة ٨٧هـ . انظر : تهذيب التهذيب ١/ ١٥٧و ١٥٨ ، والتاريخ الكبير ٧/ ٣٩٦ و٣٩٧ وقوله هذا ذكره أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٩٩ . وقد ورد عن أنس وهو ضعيف بلفظ : «لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتي... » الجامع الصغير ٢/ ٤٥٣ (٧٣٩٨).

(٢) الزيادة من الجميع عدا م.

(٣) في ق «أكثر من الجنان».

(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالىٰ ١/ ١٦٣ (١٨١).

النعيم ، حتىٰ يتوارىٰ عنهم» (١).

فمن قطعه عن هذا أمل ، فقد فاز بالحرمان : ورضي لنفسه بغاية الخسران ، والله المستعان. وعليه التكلان. وما شاء الله كان.

قوله : «وَلاَ تَعُوقُه أُمْنِيةٌ» الأمنية : هي ما يتمناه العبد من الحظوظ. وجمعها أماني. والفرق بينها وبين «الأمل» أن الأمل يتعلق بما يرجىٰ وجوده. والأمنية : قد تتعلق بما لا يرجىٰ حصوله. كما يتمنىٰ العاجز المراتب العالية.

والأماني الباطلة : هي رؤوس أموال المفاليس. بها (٢) يقطعون أوقاتهم ويلتذون(٣) بها ، كالتذاذ من زال عقله بالمسكر ، [أو](٤) بالخيالات الباطلة.

وفي الحديث المرفوع : «الكيِّسُ من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت. والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنىٰ علىٰ الله الأماني» (٥).

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه في المقدمة ١/ ٦٥ و ٦٦ (١٨٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٠١ رواه البزار وفيه الفضل بن عيسىٰ الرقاشي بن إبان الرقاشي وهو ضعيف. وفي مصباح الزجاجة ١/ ٢٦ قال : ضعيف لضعف الفضل بن عيسىٰ بن إبان الرقاشي ، وقال الألباني : ضعيف ، انظر : ضعيف ابن ماجه ص١٤ (٣٣).

(٢) في غ ، ب (بما).

(٣) في غ ، ح : «ويتلذذون بها كالتذاذ من عقله» وفي م «كما يلتذ من زال» وبعدها في ج «زال عقولهم بالسكر».

(٤) الزيادة من الجميع عدا ق.

(٥) رواه أحمد ٤/ ١٢٤ ، وابن ماجه في كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٣ (٤٢٦٠) والترمذي في كتاب صفة القيامة ، باب (٢٥) ٤/ ٦٣٨ (١٤٥٩) وقال : هذا

ولا يرضىٰ بالأماني من[1] الحقائق إلا النفوس الدنيئة الساقطة. كما قيل[2]:

واترك مُنَىٰ النفس لاتحسَبْه يشبعها   إن المنىٰ رأسُ أموال المفاليس

وأمنية الرجل تدل علىٰ علو همته وخستها[3]. وفي أثر إلهي «إني لا أنظر إلىٰ كلام الحكيم، وإنما أنظر إلىٰ همته»[4] والعامة تقول: قيمة كل امرىٰء ما يحسن[5]. والعارفون يقولون: قيمه كل امرىٰء ما يطلب.

فصل

الدرجة الثانية قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: ذَوقُ الإِرَادَةِ طَعْمَ الأُنسِ. فَلاَ يَعلَقُ بِه شَاغِلٌ، وَلاَ يُفسِدُه عَارِضٌ، وَلاَ تُكَدِّرُه تَفرِقَةٌ»[6].

حديث حسن، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٧و ٥٨ وقال: صحيح علىٰ شرط البخاري وتعقبه الذهبي وقال: لا والله أبو بكر واه.

وانظر: كشف الخفاء ٢/ ١٣٦ (٢٠٢٩) وصححه السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ٤٠٢ (٦٤٦٨) وقال الألباني: ضعيف. انظر: ضعيف الجامع الصغير ص٦٢٥ (٤٣٠٥).

(١) في ط «عن الحقائق إلا ذوو النفوس».

(٢) انظر معجم لآلي الشعر ٢١٤ مع اختلاف في الشطر الأول.

(٣) في م «وحسنها».

(٤) ذكره الدارمي في السنن في مقدمته ١/ ١٦٢ بلفظ إني لست كل كلام الحكيم أتقبل، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٢١٣، وابن المبارك في الزهد ١٦.

(٥) في ط «ما يحسنه».

(٦) منازل السائرين ٩٩ وفيه «ولا يفتنه عارض».

«الإرادة» وصف المريد. والفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها. أن الأولىٰ وصف حال العابد الذي ذاق تصديقه (١) طعم وعد الرب عز وجل ، فجد في العبادة.وأعمال البر ، لثقته (٢) بالوعد عليها. وصاحب هذه الدرجة : ذاقت إرادته طعم الأنس. فهي حال المريد.

ولهذا علق [حال] (٣) صاحب الدرجة الأولىٰ : بالوعد الجميل. وعلق [حال](٤) صاحب هذه [الدرجة](٥) بالأنس بالله. والأنس به (٦) سبحانه أعلىٰ من الأنس بما يرجوه العابد من نعيم الجنة. فإذا ذاق المريد طعم الأنس جد في إرادته واجتهد في حفظ أنسه ، وتحصيل الأسباب المقوية له.

«فَلاَ يَعلَقُ بِهِ شَاغِلٌ» أي لا يتعلق به شيء يشغله عن سلوكه، وسيره إلىٰ الله، لشدة طلبه الباعث عليه أنسه ، الذي قد ذاق طعمه ، وتلذذ بحلاوته.

والأنس بالله : حالة وجدانية. وهي من مقامات [الإحسان](٧) ، تقوىٰ بثلاثة أشياء : دوام الذكر ، وصدق المحبة ، وإحسان العمل.

---

(١) في ط «بتصديقه».

(٢) في أ «لنفسه» بدل «لثقته».

(٣) الزيادة من الجميع عدا م.

(٤) الزيادة من الجميع عدا م.

(٥) الزيادة من الجميع عدا ق ، ج ، م.

(٦) في ج «بقربه».

(٧) الزيادة من الجميع.

وقوة الأنس وضعفه : علىٰ حسب قوة القرب. وكلما[1] كان القلب من ربه أقرب ، كان أنسه به أقوىٰ. وكلما كان [منه][2] أبعد ، كانت الوحشة بينه وبين ربه أشد.

قوله : «وَلاَ يُفسِدُه عَارِضٌ» العارض المفسد : هو الذي يعذل المحب ، ويلومه علىٰ النشاط في رضىٰ محبوبه وطاعته ، ويدعوه إلىٰ الالتفات إليه. والوقوف معه دون مطلبه العالي. فهو كالذي يجيء عرضا يمنع المار في طريقة عن المرور ، ويلفته عن جهة مقصده إلىٰ غيرها.

وهذا[3] «العارض» عند القوم : هو إرادة السوىٰ. فإن كل ما سوىٰ الله فهو عارض. وإرادة السوىٰ : توقف السالك ، وتنكس الطالب ، وتحجب الواصل. فإياك وإرادة السوىٰ وإن علا. فإنك تُحجب عن الله بقدر إرادتك لغيره. قال تعالىٰ إخبارا عن عباده المقربين : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان :٩] وقال : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام :٥٢] وقال : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل :١٩ ، ٢٠].

قوله : «وَلاَ تُكَدِّرُه تَفرِقَةٌ» الكدر : ضد الصفاء. والتفرقة : ضد الجمعية.

---

(١) في ط : «فكلما».

(٢) الزيادة من الجميع.

(٣) في أ ، ب «فهذا».

والجمعية : هي جمع القلب والهمة (١) علىٰ الله بالحضور معه بحال الأنس ، خاليا من تفرقة الخواطر. و «التفرقة» من أعظم مكدرات القلب. وهي تزيل الصفاء الذي أثمره (٢) له الإسلام والإيمان والإحسان. فإن القلب يصفو بذلك. فتجيء التفرقة. فتكدر عليه ذلك الصفاء ، وتشعث القلب. فيجد الصادق ألم ذلك الشعث وأذاه. فيجتهد في لمِّه ، ولا يلم شعثَ القلوب شيءٌ (٣) غير الإقبال علىٰ الله والإعراض عما سواه. فهناك يلم شعثه ، ويزول كدره ، ويصح سقمه (٤). ويجد روح الحياة ، ويذوق طعم الحياة الملكية.

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : ذَوقُ الانقِطَاعِ : طَعمَ الاتِّصالِ ، وَذَوقُ الهِمَّةِ : طَعمَ الجَمْعِ ، وَذَوقُ المُسَامَرَةِ (٥) : طَعْمَ العَيَانِ».

الفرق بين هذه الدرجة ، والتي قبلها : أن تلك بقاء مع الأحوال. وهذه الدرجة : خروج وفناء عن الأحوال. فإن المتمكن في حال فنائه عن الأسباب - أعمالاً كانت ، أو أحوالاً - هو الذي يجد طعم الاتصال حقيقة. فإنه علىٰ

(١) «علىٰ الله» ساقطة من م.

(٢) في ق «أي أثمر» ، ج «أثمرت».

(٣) في ط : «بشيء».

(٤) في البقية عدا م «سفره».

(٥) في ق «المسافر» ، وقوله في المنازل ٩٩.

حسب تجرده عن الالتفات إلىٰ (١) الأسباب يكون اتصاله. وعلىٰ حسب التفاته إليها يكون انقطاعه. وكلما تمكن في جمع همِّه علىٰ الحق سبحانه ، وجد لذة الجمع عليه ، وذاق طعم القرب منه ، والأنس به.

فالانقطاع عند القوم : هو أنس القلب بغيره ، والتفاته (٢) إلىٰ ما سواه. والاتصال : تجريد التعلق به وحده. والانقطاع عما سواه بالكلية.

إذا عرفت هذا. فلنرجع إلىٰ تفسير كلامه.

فقوله(٣) : «**ذَوقُ الانقِطَاعِ طَعمَ الاتِّصَالِ**» استعارة ، وإلا فالذائق هو صاحب الانقطاع ، لا نفس الانقطاع . فإنه هو الذي ذاق الانقطاع والاتصال . وبالجملة : فالمراد أن المنقطع هو المحجوب ، والمتصل هو المشاهد بقلبه ، المكاشف بسره.

وأحسن من التعبير بالاتصال : التعبير بالقرب. فإنها العبارة السديدة (٤) التي ارتضاها الله ورسوله في هذا المقام.

وأما التعبير بالوصل والاتصال : فعبارة غير سديدة(٥) ويتشبث بها الزنديق

---

(١) في ج «عن».

(٢) في البقية عدا م «والالتفات».

(٣) في ج «قوله».

(٤) «السديدة» ساقطة من غ ، ح ، ب.

(٥) في ط «سديدة يتثبت» وفي ق «شديدة».

الملحد ، والصديق الموحّد. فالموحد : يريد بالاتصال : القرب. وبالانفصال والانقطاع : البعد. والملحد يريد به (١) الحلول تارة والاتحاد تارة.

حتىٰ قال بعض هؤلاء : المنقطع ليس في الحقيقة منقطعا ؛ بل لم يزل متصلا ، لكنه كان غائبا عن المشاهدة. فلما شاهد وجد نفسه لم يكن منقطعا ؛ بل لم يزل متصلا.

قال(٢) : وليس قولنا : «لم يزل متصلا» بسديد. فإن الاتصال لا يصح إلا بين اثنين. فلا المحجوب منقطعا. ولا المكاشف متصلا. وإنما هي عبارات للتقريب والتفهيم. وأنشد في ذلك :

ما بال عينيكَ(٣) لا يقُر قرارُها وإلامَ ظِلُّك لا يَني متنقّلا

فلسوف تعلمُ أن سيرَك لم يكن إلا إليك إذا بلغت المنزلا

وبإزاء هؤلاء طائفة غلظ حجابهم ، وكثفت أرواحهم عن هذا الشأن. فزعموا : أن القرب والبعد والأنس ليس(٤) له حقيقة تتعلق بالخالق سبحانه. وإنما ذلك القرب من داره وجنته بالطاعات ، وأنس القلب بما وعد عليها من

---

(١) «به» ساقطة من ج.

(٢) «قال» ساقطة من م ولعله يقصد بالقائل العفيف التلمساني شارح كلام الهروي. انظر : شرحه ٢/ ٤٤٥.

(٣) في الجميع «عيسك» والمثبت كما في الأصل وقد ذكر المؤلف هذين البيتين فيما تقدم بلفظ «عينك» انظر المدارج آخر منزلة الصدق وقبيل منزلة الإيثار ٢/ ٢٨٩.

(٤) «ليس» ساقطة من غ.

الثواب ، والبعد ضد ذلك. لا أن العبد لا يقرب من ربه [١]. ولا يبعد منه [٢]. ولا يأنس به. وصرحوا بأنه لا يريده ولا يحبه. فلا يصح تعلق الإرادة والمحبة به. فسار [٣] هؤلاء مغربين. وسار أولئك مشرقين. كما قيل :

سارت مشرِّقةً وسرت مغرِّبا شتان بين مشــرق ومغــرب

ومصباح الموحد السالك علىٰ درب الرسول وطريقه : يتوقد ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ﴾ [النور :٣٥].

قوله :«وَذَوقُ الهِمَّةِ : طَعمَ الجَمعِ» جعل الهمة ذائقة والذوق [٤] لصاحبها توسعاً ، و «الهمة» قد عبر عنها الشيخ فيما تقدم [٥] بأنها «مَا يملِكُ الانبِعَاثَ إلىٰ المقصُودِ صِرفاً» أي حالة وصفه [٦] لها سطوة وملكة ، تحمل صاحبها علىٰ المقصود. وتبعثه عليه بعثاً لا يخالطه غيره.

فالهمة عندهم : طلب الحق ، من غير التفات إلىٰ غيره. و«الجمع» شهود

(١) في ب ، ح ، غ ، ط «لأن العبد لا يقرب من ربه ولا يبعد».

(٢) في ط ، ج «عنه».

(٣) في م «فإن».

(٤) في ط زيادة «إنما».

(٥) وذلك في أول منزلة الهمة.

(٦) في ق «وصف» وفي البقية عدا ج ، م ، «وصفية».

الفردانية التي تفنىٰ فيها رسوم المشاهد[١] وهذا جمع في الربوبية.

وأعلىٰ منه: الجمع في الألوهية وهو جمع قلبه وهمه[٢] وسره علىٰ محبوبه ومراضيه ومراده[٣] منه. فهو عكوف القلب بكليته علىٰ الله. لا يلتفت عنه يمنة ولا يسرة. فإذا ذاقت الهمة طعم هذا الجمع: اتصل اشتياق صاحبها، وتأججت نيران المحبة والطلب في قلبه، وعدَّ[٤] صبره عن محبوبه من أعظم كبائره. كما قيل:

والصبرُ يُحمدُ في المواطن كلِّها إلا عليك فإنّه لا يُحمدُ[٥]

وقد تقدم ذكر الأثر الإلهي: «إني لا أنظر إلىٰ كلام الحكيم. وإنما أنظر إلىٰ همته»[٦].

فلله همة نفس قطعت جميع الأكوان، وسارت فما ألقت عصىٰ السير إلا بين يدي الرحمن، فسجدت بين يديه سجدة الشكر علىٰ الوصول إليه. فلم تزل ساجدة حتىٰ قيل لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً

---

(١) في ق: «المشاهدة».

(٢) في ج «همه وقلبه».

(٣) «ومراده» ساقطة من ق.

(٤) في الجميع «ويجد».

(٥) ورد هذا البيت في الرسالة القشيرية ١٨٤ هكذا:

والصبر يجمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يجمل

وقد ذكره المؤلف في روضة المحبين ص٢٧٤ و ٤٣٤.

(٦) تقدم ذكره وتخريجه في أول منزلة الهمة ص ٢٧٦٨.

مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر :٢٧ ، ٢٨].

فسبحان من فاوت بين الخلق (١) في هممهم ، حتىٰ ترىٰ بين الهمتين أبعد مما (٢) بين المشرقين والمغربين ؛ بل أبعد مما بين أسفل سافلين وأعلىٰ عليِّين. وتلك مواهب العزيز الحكيم ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد :٢١ ، والجمعة : ٤].

قوله : «**وَذَوقُ المُسَامَرةِ : طَعمَ العَيَانِ**» مرادهم بالمسامرة : مناجاة القلب ربه، وإن سكت اللسان فلشدة(٣) استيلاء ذكره تعالىٰ، ومحبته علىٰ قلب العبد، وحضوره بين يديه ، وأنسه به ، وقربه منه ، [حتىٰ] (٤) يصير كأنه يخاطبه ويسامره ، ويعتذر إليه تارة ، ويتملقه تارة ، ويثني عليه تارة ، حتىٰ يبقىٰ القلب ناطقا بقوله : أنت الله الذي لا إله إلا أنت. من غير تكليف(٥) له بذلك ؛ بل يبقىٰ هذا حالاً له ومقاماً. ولا تُنكر وصولَ القوم إلىٰ هذا. فقد قال ﷺ : «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**»(٦) ، فإذا بلغ في مقام الإحسان

---

(١) في ج : «الخلائق».

(٢) في ق : «أبعد ما بين المشرق والمغرب».

(٣) في الجميع «فلذة» وفي م قبلها «وإن سلت عن اللسان فلذة».

(٤) الزيادة من الجميع عدا ق.

(٥) في البقية عدا م ، ج «تكلف».

(٦) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ١/ ١٨ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/ ٣٦ ـ ٤٠ حديث (١ ـ ٧).

بحيث[١] كأنه يرىٰ الله سبحانه. فهكذا مخاطبته ومناجاته له.

لكن الأولىٰ العدول عن لفظ «المسامرة» إلىٰ لفظ [٢] «المناجاة» فإنه اللفظ الذي اختاره رسول الله ﷺ في هذا. وعبَّر به عن حال العبد بقوله: «إذا قام أحدكم في الصلاة؟ فإنه يناجي ربه»[٣]. وفي الحديث الآخر: «كلكم يناجي ربه. فلا يجهر بعضكم علىٰ بعض»[٤].

فلا تعدل عن ألفاظه. فإنها معصومة [٥]، صادرة عن معصوم [٦]، والإجمال والإشكال في اصطلاحات الناس [٧] وأوضاعهم. وبالله التوفيق.

---

(١) في ط زيادة «يكون».

(٢) «لفظ» ساقطة من الجميع عدا م.

(٣) رواه البخاري في كتاب الصلاة بألفاظ متقاربة ١/ ١٠٦ و١٠٧، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها ١/ ٣٩١ (٥٥١).

(٤) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل ٢/ ٨٣ (١٣٣٢) ورواه مالك في الموطأ بلفظ مقارب في كتاب الصلاة باب العمل في القراءة ١/ ٨٠، وأحمد في المسند ٢/ ٣٦ و٦٧ و١٢٩ و٣/ ٩٤ ورواه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث حسن صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال الذهبي علىٰ شرطهما المستدرك ومعه التلخيص ١/ ٣١١.

(٥) في ب «وردت».

(٦) في م «والاحتمال».

(٧) في ط «القوم».

فصل

[في منزلـة اللحظ]

قال شيخ الإسلام : منزلة اللحظ

« (بَابُ اللحظِ) قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ » .

قلت : يريد - والله أعلم - بالاستشهاد بالآية : أن الله سبحانه أراد أن يُرِيَ موسىٰ ﷺ من كمال عظمته وجلاله ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار لا تثبت لرؤيته ومشاهدته عيانا. لصيرورة[1] الجبل دكًّا عند تجلي ربه سبحانه أدنىٰ تجلٍّ. كما رواه ابن جرير[2] في تفسيره من حديث حماد بن سلمة[3] : أخبرنا ثابت عن أنس عن النبي ﷺ : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال حماد : هكذا - ووضع الإبهام علىٰ مفصل الخنصر الأيمن- فقال حميد لثابت : أتُحدِّث بمثلي هذا؟ فضرب ثابت صدر حميد ضربة بيده. وقال :

---

(١) في ق «بالصيرورة».

(٢) أبو جعفر محمد بن يزيد بن كثير بن غالب الإمام الطبري ولد سنة ٢٢٤هـ وقد كانت وفاته سنة ٣١٠هـ ، انظر : البداية والنهاية ١١/ ١٤٥-١٤٧ ، وانظر : مقدمة تاريخ ابن جرير ١/ ٣-٩ ، وانظر هذا النقل في تفسيره ١/ ٩٩.

(٣) أبوسلمة حماد بن سلمة بن دينار البصري ثقة عابد تغير حفظه بآخر عمره توفي سنة ١٦٧هـ، انظر حلية الأولياء ٦/ ٢٤٩-٢٥٧ ، وتقريب التهذيب ١/ ١٩٧.

رسول الله ﷺ يحدث به وأنا لا أحدث به؟»[1] رواه الحاكم في صحيحه وقال: هو علىٰ شرط مسلم. وهو كما قال.

والمقصود: أن الشيخ استشهد بهذه الآية في باب «اللحظ» لأن[2] الله سبحانه أمر موسىٰ أن ينظر إلىٰ الجبل حين تجلىٰ له ربه. فرأىٰ أثر التجلي في الجبل[3]، فخر [موسىٰ][4] صعقاً.

قال الشيخ: «**اللَّحظُ: لمَحٌ مُستَرَقٌ**»[5] الصواب قراءة هذه الكلمة علىٰ الصفة بالتخفيف. فوصف «اللمح» بأنه «مسترق» كما يقال: سارقته النظر. وهو لمح بخفية من[6] حيث لا يشعر الملموح.

ولهذا الاستراق أسباب. منها: تعظيم الملموح وإجلاله. فالناظر يسارقه

(١) «به» ساقطة من أ، ح، غ، وقد تقدم تخريجه في آخر منزلة الطمأنينة ص٢٧٦٥.

(٢) في الأصل وم «أن» والمثبت كما في البقية.

(٣) في ط زيادة «دكا».

(٤) الزيادة من الجميع عدا ج، م، ق.

(٥) منازل السائرين ١٠٠، واللحظ في اللغة: هو النظر بمؤخرة العين. انظر: مختار الصحاح ٥٩٣، ويقصدون باللحظ كما قال الكاشاني: ملاحظة نور الكشف الملبس لباس التولي، والمذيق طعم التجلي، العاصم من عوار التسلي. معجم اصطلاحات الصوفية ٣٢٥ وقال الطوسي في اللمع ٤٣١ اللحظ: إشارة إلىٰ ملاحظة أبصار القلوب لما يلوح لها من زوائد اليقين بما آمن به في الغيوب.

(٦) في البقية عدا ج، م: بحفيه بحيث «وفي ط بعدها» لا يشعر به الملموح».

النظر. ولا يحده[1] إليه إجلالا له. كما كان أصحاب النبي ﷺ لا يحدون النظر إليه إجلالا له. وقال عمرو بن العاص : «[2] لم أكن أملأ عيني منه إجلالا له. ولو سئلت : أن أصفه لكم لما قدرت. لأني لم أكن أملأ عيني منه»[3].

ومنها : خوف الملموح وسطوته [4].

ومنها محبته.

[ومنها][5] الحياء منه.

ومنها ضعف القوة الباصرة عن التحديق فيه. وهذا السبب هو السبب الغالب في هذا الباب.

ويجوز أن تقرأ بكسر الراء وتشديد القاف. أي نظرا يسترِقُّ صاحبه. أي يأسر قلبه ويجعله رقيقا - أي عبداً مملوكا للمنظور - لأنه[6] لما شاهد من

---

(١) في ط زيادة : «ولا يحد نظره».

(٢) هو الصحابي عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي أمير مصر يكنىٰ أبا عبدالله وأبا محمد أسلم قبل الفتح سنة ثمان ، وهو من المعروفين بالشجاعة والفطنة والدهاء والحزم ، توفي - رضي الله عنه - سنة ٤٣هـ ، وقيل غير ذلك ، انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ٥/ ٢ و ٣ ، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٥٤-٧٧.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب كون الإيمان يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج ١/ ١١٢ (١٢١) وغيره.

(٤) في البقية عدا ج ، م ، ق «اللامح سطوته» و «منها محبته» ساقطة من ح.

(٥) الزيادة من الجميع.

(٦) في البقية عدا م «إليه» وبعدها في غ «شهد».

جماله وكماله فاسترق قلبه له [١]. فلم يكن بينه وبين رقّه له إلا مجرد وقوع لحظه عليه [٢].

فهكذا صاحب هذه الحال إذا لاحظ بقلبه جلال الربوبية. وكمال الرب سبحانه، وكمال نعوته، ومواقع لطفه وفضله، وبره وإحسانه: استرق قلبه له وصارت له عبودية خاصة.

درجات اللحظ الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ فِي هَذَا البَابِ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ. الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: مُلاَحَظَةُ الفَضلِ سَبقًا. وَهِيَ تَقطَعُ طَرِيقَ السُّؤَالِ، إلاَّ مَا استَحَقَّتْه الرُّبُوبِيَّةُ مِن إظهَارِ التَّذَلُّلِ لهَا. وَتُنبتُ السُّرُورَ، إلاَ مَا يَشُوبُه مِن حَذَرِ المَكْرِ. وَيبعثُ عَلَىٰ الشُّكرِ إلاَّ مَا قَامَ بِهِ الحَقُّ عَزَّ وَجَلَّ مِن حَقِّ الصِّفَةِ» [٣].

الشيخ عادته في كل باب أن يقول: وهو علىٰ ثلاث درجات[٤]. وقال ههنا: **«وَهُوَ فِي هَذَا البَابِ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ»** فعين هذا الباب هنا دون غيره من الأبواب. لأن «اللحظ» مشترك بين لحظ البصر، ولحظ البصيرة.

والشيخ إنما أراد [ههنا] [٥] هذا الثاني دون الأول. فإن كلامه فيه خاصة.

---

(١) «له» ساقطة من الجميع عدا ق.

(٢) في أ، ب، غ، ح «إليه».

(٣) منازل السائرين ص ١٠٠ و ١٠١ وفيه وط «وتبنت... وتبعث».

(٤) سقط من أ إلىٰ قوله «فعين».

(٥) الزيادة من البقية عدا ج، م، ق.

وهو لما صدر بالآية والأمر بالنظر فيها : إنما توجه إلىٰ الأمر بنظر العين ، استدرك كلامه.

وقال : اللحظ الذي نشير إليه في هذا الباب ليس هو لحظ [1] العين. والله أعلم.

قوله : «مُلاَحَظَةُ الفَضْلِ سَبقًا» الفضل : هو العطاء الإلهي. و «السبق» هو ما سبق به له بالتقدير [2] قبل خروجه إلىٰ الدنيا. كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء :١٠١] ، وقال : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات :١٧١-١٧٣] وهذا الكلام يُفسَّر علىٰ معنيين.

أحدهما : أن العبد إذا رأىٰ أن [3] ما قدَّره الله له قد سبق به تقديره - وهو [4] واصل إليه لا محالة ولا بد أن يناله - سكن جأشُه. واطمأنَّ قلبُه ، ووطّن نفسَه ، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه. وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وأنه ما يفتح الله له [5] من رحمة فلا ممسك لها. وما يمسكه عنه [6] فلا مرسل له

---

(١) في ج «نظر».

(٢) « به » ساقطه من الجميع عدا م.

(٣) «أن» ساقطة من الجميع. والمعنىٰ الثاني سيذكره المؤلف في نهاية الفصل.

(٤) في البقية عدا م «فهو».

(٥) في ط زيادة «وللناس» وفي م «ما يفتح الله للناس».

(٦) في الجميع «وما يمسك فلا مرسل».

من بعده. فإذا تيقن ذلك ، وذاق طعم الإيمان به : قطع ذلك عليه طريق الطلب من ربه ؛ لأن ما سبق له به القدر كائن واصل إليه [1] لا محالة.

سؤال العبد ربه

ثم استدرك الشيخ : أن العبد لا بد له من سؤال ربه ، والطلب منه. فقال : «إِلاَّ ما استَحقَّتْه الرُّبُوبيَّةُ مِن إِظْهَارِ التَّذَلُّلِ لهَا» أي لا يعتقد أن سؤاله وطلبه يجلب له ما ينفعه. ويدفع عنه ما يحذره. فإن القدر السابق قد استقر بوصول المقدور إليه ، سأله أو لم يسأله. ولكن يكون سؤاله علىٰ وجه التذلل ، وإظهار فقر العبودية ، وذلها بين يدي عز الربوبية. فإن الرب تعالىٰ يحب من عبده أن يسأله ويرغب إليه. لا [2] لأنَّ وصول بره وإحسانه إليه موقوف علىٰ سؤاله ؛ بل هو المتفضل به ابتداء بلا سبب من العبد ، ولا توسط سؤاله وطلبه ؛ بل قَدَّرَ له ذلك الفضل بلا سبب من العبد. ثم أمره بسؤاله والطلب منه ، إظهاراً لمرتبة العبودية والفقر والحاجة واعترافا بعز الربوبية. وكمال غنىٰ الرب ، وتفرده بالفضل والإحسان ، وأن العبد لا غنىٰ له عن فضله طرفة عين ، فيأتي بالطلب والسؤال إتيان من يعلم : أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله شيئا. ولكن ربه تعالىٰ يحب أن يسأل ، ويرغب إليه ، ويطلب منه كما قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر :٦٠] وقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ

---

(١) «إليه» ساقطة من الجميع عدا م.

(٢) «لا» ساقطة من البقية عدا ج ، ح ، م.

يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة :١٨٦] ، وقال : ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء : ٣٢] ، وقال : ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان :٧٧] ، وقال : ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف :٥٥]، وقال : ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف : ٥٦].

وقال النبي ﷺ : «**ليسأل أحدكم ربه كل شيء ، حتىٰ شسع نعله إذا انقطع. فإنه إن لم ييسره لم يتيسر**»[١] ، وقال : «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[٢] وقال : «**سلوا الله من فضله. فإن الله يحب أن يسأل. وما سئل الله شيئاً**

---

(١) رواه الترمذي في آخر كتاب الدعاء ، وقال : هذا حديث غريب ، ورواه أيضاً مرسلاً وفيه زيادة «حتىٰ يسأله الملح» وقال : هذا أصح من حديث قطن عن جعفر بن سليمان ، وهذا الحديث ساقط من مطبوعة سنن الترمذي. انظر : الضعيفة للألباني ٣/ ٥٣٨ ، ورواه ابن حبان في صحيحه ٢/ ١٢٦ (٨٩١ و ٨٩٢) وصححه السيوطي بدون الزيادة وضعفه بالزيادة انظر الجامع الصغير ٢/ ٤٦٣ (٤٥٦٢ و ٧٥٦٣) وقد سبق أن حسن الألباني لهذا الحديث ثم استقر علىٰ تضعيفه وكذلك الزيادة وهي قوله «حتىٰ يسأله الملح» وبين أن هذا الحديث ساقط من نسخة الترمذي طبع بولاق ، انظر : الضعيفة ٣/ ٥٣٧-٥٤١(١٣٦٢).

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات الباب الثاني ٥/ ٤٥٦ (٣٣٧٣) وأحمد ٢/ ٤٤٢ والبخاري في الأدب المفرد ص٢٢٤ (٦٥٨) ، وابن ماجه في كتاب الدعاء باب فضل الدعاء ٢/ ١٢٥٨ (٣٨٢٧) والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩١ وقال : هذا حديث صحيح. وذكر الحافظ في الفتح ١١/ ٩٥ أن فيه (الخوزي) وأنه مختلف فيه وذكر أحاديث تؤيده والحديث حسنه الألباني. انظر صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٢٤. وفي ط زيادة «وروىٰ الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ ».

أحب إليه من العافية»[1]، وقال: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات. فتعرضوا لنفحاته. واسألوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم»[2].

وقال: «ما من داع يدعو الله بدعوة إلا آتاه بها إحدىٰ ثلاث: إما أن يعجل له حاجته، وإما أن يعطيه من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها. قالوا: إذاً نكثر يا رسول الله؟ قال: فالله أكثر»[3].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات باب في انتظار الفرج وغير ذلك وفيه: «يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج» وقال: هكذا روىٰ حماد بن واقد هذا الحديث وقد خولف في روايته. وقال: وروىٰ أبو نعيم هذا الحديث عن إسرائيل عن حكيم بن جبير عن رجل عن النبي ﷺ مرسل وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح ٥/ ٥٦٥ و ٥٦٦ (٣٥٧١) وقال العجلوني: رواه الترمذي عن ابن مسعود، قال العراقي ضعيف وحسنه الحافظ ابن حجر. كشف الخفاء ١/ ٤٦٠ (١٥٠٧) وصححه السيوطي في الجامع الصغير ص٢٨٩ (٤٧٠١) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص٤٨١ (٣٢٧٨).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن محمد بن سلمة ١٩/ ٢٣٣ وكذا في الأوسط ٣/ ١٨٠ وقال: لا يروىٰ هذا الحديث عن محمد بن سلمة إلا بهذا الإسناد تفرد به أحمد بن عبده. وقد ذكر ابن كثير هذا الحديث في تفسيره ٤/ ٨٧وقال الهيثمي رواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه وفيه من لم أعرفهم ومن عرفتهم وثقوا. مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣٤، وانظر كشف الخفاء ١/ ٢٣١ (٧٠٨) والحديث ضعفه السيوطي في الجامع الصغير ص١٤٥ (٢٣٩٨) وكذا الألباني في ضعيف الجامع ص٢٧٧ (١٩١٧).

(٣) رواه الترمذي بلفظ: «ما من أحد يدعو بدعاء» وبلفظ آخر: «ما علىٰ الأرض مسلم يدعو الله بدعوة» في كتاب الدعوات باب أن دعوة المسلم مستجابة وباب في انتظار الفرج وغير ذلك ٥/ ٤٦٢ و ٥٦٦ (٣٣٨١و ٣٥٧٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وأحمد ٥/ ٣٢٩ والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٩٨٥ (٥٦٣٧).

وقال : «ليس شيء أكرم علىٰ الله من الدعاء»[(١)].

وقال تعالىٰ[(٢)] فيما رواه عنه رسوله ﷺ : «يا عبادي ، كلكم جائع إلا من أطعمته. فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي ، كلكم عار إلا من كسوته. فاستكسوني أكسكم. يا عبادي ، كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدوني أهدكم. يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار. وأنا أغفر الذنوب جميعاً. فاستغفروني. أغفر لكم»[(٣)] وقال ﷺ : «وأما السجود : فاجتهدوا في الدعاء ، فقمن أن يستجاب لكم»[(٤)].

وقال عمر بن الخطاب : «إني لا أحمل هم الإجابة. ولكن[(٥)] هم الدعاء.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعاء باب ما جاء في فضل الدعاء ٥/ ٤٥٥ (٣٣٧٠) وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمران القطان وأحمد ٢/ ٣٦٢ والبخاري في الأدب المفرد ص٢٤١ (٧١٣) وابن ماجه في كتاب الدعاء باب فضل الدعاء ٢/ ١٢٥٨ (٣٨٢٩) وابن حبان ٢/ ١١٥ (٨٦٧ والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٠ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. والحديث حسنه الألباني ـ رحمه الله ـ. انظر صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٢٤.

(٢) في ط زيادة «في الحديث القدسي فيما رواه مسلم عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ».

(٣) الحديث أوله «يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي» رواه مسلم في كتاب البر والصلة والأدب باب تحريم الظلم ٣/ ١٩٩٤ (٢٥٧٧) وغيره.

(٤) الحديث أوله «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة» رواه مسلم في كتاب الصلاة باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ١/ ٣٤٨ (٤٧٩) وغيره.

(٥) في ط زيادة «أحمل» والأثر لم أجده. ولكن ورد في الحديث بلفظ : «من أعطىٰ أربعاً أعطي

فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه».

وفي هذا يقول القائل :

لو لم تُرد نيلَ [1] ما أرجو وأطلبه من جود كفِّك ما عوّدتني الطَّلَبَا

والله سبحانه يحب تذلل عبيده بين يديه ، وسؤالهم إياه. وطلبهم حوائجهم منه ، وشكواهم منه [2] إليه ، وعياذهم به منه ، وفرارهم منه إليه. كما قيل :

قالوا أتشكو إليه ما ليس يخفىٰ عليه

فقلت ربي يرضىٰ ذلَّ العبيد لديه

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : حدثنا عبد الوهاب [3] عن إسحاق [4] عن مطرف قال : «تذكرت [5] : ما جماع الخير. فإذا الخير كثير : الصيام ، والصلاة وإذا هو في يد الله تعالىٰ. وإذا أنت لا تقدر علىٰ ما في يد الله إلا أن تسأله ،

أربعاً» وفيه «من أعطي الدعاء أعطي الإجابة». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٥٢ رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه ابن العباس وهو ضعيف.

(١) في البقية عدا ج ، م ، ق «بذل» والبيت ذكره المؤلف في كتابه عدة الصابرين ٤٧.

(٢) «منه» ساقطة من البقية عدا م ، ج ، ق.

(٣) أبو نصر عبدالوهاب بن عطاء الخفاف العجلي البصري سكن بغداد وروىٰ عن سليمان التيمي وحميد الطويل ، وغيرهم وروي عنه أحمد وإسحاق وابن معين وغيرهم مات سنة ٢٠٤هـ وقيل ٢٠٦هـ. انظر : تهذيب التهذيب ٦/ ٣٩٨-٤٠٠ ، والتاريخ الكبير ٦/ ٩٨.

(٤) هو إسحاق بن إبراهيم بن علية الأسدي البصري أخو إسماعيل بن علية روىٰ عنه عبدالوهاب بن عطاء. انظر : التاريخ الكبير ١/ ٣٧٨.

(٥) في ط : «بن عبدالله قال : تذاكرت».

فيعطيك. فإذا جماع الخير : الدعاء»[1].

القدر والدعاء

وفي هذا المقام غلط طائفتان من الناس :

طائفة : ظنت أن القدر السابق يجعل الدعاء عديم الفائدة.

قالوا : فإن المطلوب إن كان قد قدر ، فلا بد من وصوله ، دعا العبد أو لم يدع ، وإن لم يقدر[2] ؛ فلا سبيل إلىٰ حصوله ، دعا أو لم يدع.

ولما رأوا الكتاب والسنة والآثار قد تظاهرت بالدعاء وفضله ، والحث عليه وطلبه ، قالوا : هو عبودية محضة. لا تأثير له في المطلوب ألبتة. وإنما تعبدنا الله به[3]. وله أن يتعبد عباده بما شاء كيف شاء.

والطائفة الثانية : ظنت أن بنفس الدعاء والطلب ينال المطلوب ، وأنه موجِبٌ لحصوله ، حتىٰ كأنه سبب مستقل. وربما انضاف إلىٰ ذلك شهودها[4] أن هذا السبب منها وبها وأنها[5] هي التي فعلته وأحدثته ، وإن علمت أن الله خالق أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم وإراداتهم ، فربما غاب عنها شهود[6]

---

(١) انظر : الزهد للإمام أحمد ٢٩٥.

(٢) في ط : «وإن لم يكن قد قدر».

(٣) «به» ساقطة من غ ، ح وفي البقية عدا ج ، م ، ق ، ب «به الله» وبعدها «أن» ساقطة من غ.

(٤) في ط «شهودهم».

(٥) في ط «منهم وبهم وأنهم هم الذين فعلوه وأن نفوسهم هي التي... عنهم».

(٦) في ط «عنهم... لا بهم ولا منهم... الذي حركهم».

كون ذلك بالله ومن الله ، لا بها ولامنها. وأنه هو الذي حركها للدعاء. وقذفه في قلب العبد. وأجراه علىٰ لسانه.

فهاتان الطائفتان غالطتان أقبح غلط. وهما محجوبتان عن الله.

فالأولىٰ : محجوبة عن رؤية حكمته في الأسباب ونصبها لإقامة العبودية ، وتعلق الشرع والقدر بها. فحجابها كثيف عن معرفة حكمة الله سبحانه في شرعه وأمره وقدره.

والثانية : محجوبة عن رؤية مِنَنِه وفضله ، وتفرده بالربوبية والتدبير. وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن. وأنه لا حول للعبد ولا قوة له - بل ولا للعالم أجمعه -[1] إلا به سبحانه. وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ومشيئته.

وقول الطائفة الأولىٰ : «إن المطلوب إن قدر فلابد[2] من حصوله ، و[إنه][3] إن لم يقدر فلا[4] مطمع في حصوله».

جوابه ، أن يقال : بقي قسم ثالث ، لم تذكروه. وهو أنه قدر بسببه. فإن وجد سببه وجد [ما رُتِّب][5] عليه وإن لم يوجد سببه لم يوجد. ومن أسباب

---

(١) في ط «أجمع».

(٢) في البقية عدا ج ، م ، ق «لا بد».

(٣) الزيادة من الجميع عدا ج ، م ، ق.

(٤) في م «فلا سبيل إلىٰ حصوله».

(٥) الزيادة من الجميع وسقط من أ إلىٰ قوله «أن من أسباب الولد».

المطلوب : الدعاء والطلب اللذين إذا وُجدا وُجِدَ ما رُتِّب عليهما.كما أن أسباب الولد : الجماع. ومن أسباب الزرع : البذر ونحو ذلك. وهذا القسم الثالث هو الحق.

ويقال للطائفة الثانية : لا موجِب إلا مشيئة الله تعالىٰ. وليس ههنا سبب مستقل غيرها. فهو الذي جعل السبب سبباً. وهو الذي رتب عليه[١] حصول المسبَّب. ولو شاء لأوجده بغير ذلك السبب. وإذا شاء منع سببية السبب، وقطعه[٢] عن اقتضاء أثره[٣]. وإذا شاء أقام له مانعا يمنعه عن اقتضاء أثره، مع بقاء قوته فيه. وإن[٤] شاء رتب عليه ضد مقتضاه وموجبه.

فالأسباب طوع مشيئته وقدرته، وتحت تصريفه[٥] وتدبيره. يقلِّبُها كيف شاء. فهذا أحد المعنيين في كلامه.

والمعنىٰ الثاني : أن من لاحَظَ بعين قلبه ما سبق له من ربه من جزيل الفضل والإحسان والبر من غير معاوضة، ولا سبب من العبد أصلاً - فإنه سبقت له تلك السابقة وهو في العدم. لم يكن شيئا ألبتة - شغلته

(١) في ط «علىٰ السبب».

(٢) في البقية «وقطع عنه».

(٣) «وإذا شاء أقام له مانعاً يمنعه عن اقتضاء أثره» ساقطة من ق.

(٤) في ط «وإذا».

(٥) في البقية عدا م «تصرفه».

تلك(١) الملاحظة بطلب الله و محبته(٢) وإرادته عن الطلب منه. وقطعت عليه طريق السؤال ، اشتغالا بذكره وشكره ، ومطالعة منَّته عن مسألته. لا لأن مسألته والطلب منه نقص ؛ بل لأنه في هذه الحال لا يتسع للأمرين ، بل استغراقه في شهود المنة وسبق الفضل قطع عليه طريق الطلب والسؤال. وهذا لا يكون مقاما(٣) لازماً له لا يفارقه ؛ بل هذا حكمه في هذه الحال. والله أعلم.

فصل

قوله : «ويُنبِتُ السُّرُورَ ، إلاَّ مَا يَشُوبُه من حَذَرِ المَكْرِ».

يعني : أن هذا اللحظ من العبد ينبت له السرور ، إذا علم أن فضل ربه قد سبق له بذلك قبل أن يخلقه ، مع علمه به وبأحواله وتقصيره ، علىٰ التفصيل. ولم يمنعه علمه به : أن يقدر له ذلك الفضل والإحسان. وهو (٤) أعلم به إذ أنشأه من الأرض ، وإذ هو جنين في بطن أمه. ومع ذلك فقدر له من الفضل والبر(٥) والجود ما قدره بدون سبب منه ؛ بل مع علمه بأنه يأتي من الأسباب بما

---

(١) في ق بدل «تلك» «عن».

(٢) «وإرادته» ساقطة من ق ، ج.

(٣) في م «شأناً» بدل «مقاماً» وبعدها في ج «له» ساقطة.

(٤) في البقية «فهو».

(٥) «والبر» ساقطة من الجميع عدا م ، ج ، ق.

يقتضي قطع ذلك ومنعه منه [١].

الفرح المحمود والمذموم

فإذا شاهد العبد ذلك : اشتد سروره بربه ، وبمواقع فضله وإحسانه. وهذا فرحٌ محمود غير مذموم. قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس :٥٨] : ففضله : الإسلام والإيمان ، ورحمته : العلم والقرآن. وهو يحب من عبده : أن يفرح بذلك ويُسَرَّ به ؛ بل يحب من عبده : أن يفرح بالحسنة إذا عملها ويسر بها[٢]. وهو في الحقيقة فرح بفضل الله ، حيث وفقه [الله][٣] لها ، وأعانه عليها ويسرها له [٤]. ففي الحقيقة : إنما يفرح[٥] بفضل الله وبرحمته.

ومن أعظم مقامات الإيمان : الفرح بالله ، والسرور به. فيفرح به إذ هو عبده ومحبه. ويفرح به سبحانه ربّاً وإلهاً ، ومنعماً ومربياً ، أشد من فرح العبد بسيده المخلوق المشفق عليه، القادر علىٰ مايريده العبد[٦]. المتنوع في الإحسان إليه، والذبّ عنه.

وسيأتي – عن قريب إن شاء الله – تمام هذا المعنىٰ في باب «السرور».

---

(١) في ط «عنه».

(٢) في ط زيادة «أن».

(٣) الزيادة من الجميع عدا ق ، ج.

(٤) «له» ساقطة من أ ، ب ، غ ، ح.

(٥) في ط زيادة «العبد».

(٦) في ط زيادة «ويطلبه منه» وبعدها في الأصل وم «المتبوع» والمثبت كما في البقية وهو الصحيح.

وقوله(١) : «**إِلاَّ مَا يَشُوبُه مِن حَذَرِ المَكْرِ**» أي يمازجه. فإن السرور والفرح يبسط النفس وينمِّيها. وينسيها عيوبها (٢) وآفاتها ونقائصها. إذ لو شهدت ذلك وأبصرته لشغلها (٣) عن الفرح.

الحديث عن المنكر

وأيضاً فإن الفرح بالنعمة قد ينسيه المنعم. ويشتغل(٤) بالخلعة التي خلعها عليه عنه. فيطفح عليه السرور ، حتىٰ يغيب بنعمته عنه. وهنا يكون المكر إليه أقرب من اليد للفم.

ولله كم ها هنا من مسترد منه ما وهب له غيرة(٥) وحكمة! وربما كان ذلك رحمة به. إذ لو استمر علىٰ تلك الولاية لخيف عليه من الطغيان. كما قال تعالىٰ : ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق : ٦ ، ٧] فإذا كان هذا غنىٰ بالحطام الفاني، فكيف بالغنىٰ بما هو أعلىٰ من ذلك وأكبر(٦) فصاحب هذا المقام(٧) إن لم يصحبه حذر المكر : خيف عليه أن يسلبه وينحط عنه.

و «المكر» الذي يخاف عليه منه : أن يُغيِّب الله سبحانه عنه شهود أوليته في

(١) في البقية عدا م «قوله».

(٢) في ب «ونفائعها وآفاتها».

(٣) في ط زيادة «ذلك» وفي م «يشعلها».

(٤) في ط «فيستغل» و م «ويستعمله».

(٥) في البقية عدا م ، ج «عزة».

(٦) في البقية عدا م «وأكثر».

(٧) «المقام» ساقطة من الجميع عدا ج ، م ، ق.

ذلك ومنته وفضله ، وأنه محض منته عليه ، وأنه به وحده ، ومنه وحده. فيغيب[1] عن شهود حقيقة قوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل :٥٣] ، وقوله : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران :١٥٤] ، وقوله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس : ١٠٧] ، وقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص :٨٦] ، وقوله : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور : ٢١] وأمثال ذلك. فيغيبه عن شهود ذلك. ويحيله علىٰ معرفته وكسبه[2] وطلبه. فيحيله علىٰ نفسه التي لها الفقر بالذات ، ويحجبه عن الحوالة علىٰ الملي الوفي الذي له الغنىٰ التام[3] كله بالذات فهذا من أعظم أسباب المكر. والله المستعان.

ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ ، فلا ينبغي له أن يفارقه هذا الحذر. وقد خافه خيار خلقه ، وصفوته من عباده. قال شعيب ﷺ ، وقد قال له قومه : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا

---

(١) في ب «عنه».

(٢) في البقية عدا م ، ج «معرفته في كسبه» وفي ج بعدها «وظلمه».

(٣) في ج ، م «كله التام».

يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾ [الأعراف : ٨٨-٨٩] ، فردَّ الأمر إلىٰ مشيئة الله تعالىٰ وعلمه ، أدباً مع الله ، ومعرفة بحق الربوبية ، ووقوفاً مع حد العبودية. وكذلك قال إبراهيم لقومه - وقد خوفوه بآلهتهم - فقال : ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام : ٨٠] فرد الأمر إلىٰ مشيئة الله وعلمه. وقد قال تعالىٰ : ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف : ٩٩].

الأمن من المكر

وقد اختلف السلف : هل يكره أن يقول العبد في دعائه : اللهم لا تؤمِّنِّي مكرَك؟

فكان بعض السلف يدعو بذلك. ومراده : لا تخذلني ، حتىٰ آمن مكرك ولا أخافه ؛ وكرهه مطرف بن عبدالله بن الشخير.

قال(١) الإمام أحمد : حدثنا عبدالوهاب عن إسحاق عن مطرف «أنه كان يكره أن يقول : اللهم لا تنسني ذكرك ، ولا تؤمني مكرك. ولكن أقول : اللهم لا تنسني ذكرك ، وأعوذ بك أن آمن مكرك ، حتىٰ تكون أنت تؤمنني»(٢).

وبالجملة فمن أحيل علىٰ نفسه فقد مكر به.

---

(١) في ط ، ج «وقال».

(٢) الزهد للإمام أحمد ٢٩٥.

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد(١)- مولىٰ بني هاشم- حدثنا الصلت(٢) ابن طريف المعولي حدثنا غيلان(٣) بن جرير عن مطرف قال : «وجدت هذا الإنسان ملقىٰ بين الله عز وجل وبين الشيطان. فإن يعلم الله في قلبه خيرا يجبذه إليه وإن لا يعلم فيه خيراً : وكله إلىٰ نفسه. ومن وكله إلىٰ نفسه فقد هلك»(٤).

وقال جعفر بن سليمان(٥) : حدثنا ثابت عن مطرف قال : «لو أُخرج قلبي فجعل في يدي هذه في اليسار. وجيء بالخير فجعل في هذه اليمنىٰ. ثم قربت من الأخرىٰ ما استطعت أن أولج قلبي منه شيئاً حتىٰ يكون الله عز وجل يضعه»(٦).

---

(١) أبو سعيد عبدالرحمن بن عبيد البصري مولىٰ بني هاشم نزيل مكة لقبه جردقة. قال عنه ابن حجر صدوق ربما أخطأ من التاسعة مات سنة ٩٧هـ. تقريب التهذيب ١/ ٤٨٧ (١٠٠٧)، وتهذيب التهذيب ٦/ ١٩٠ (٤٢٩).

(٢) هو الصلت بن طريف المعولي روىٰ عن الحسن وأبي شمر وروىٰ عنه أبو قتية وموسىٰ بن إسماعيل وسهل بن بكار. انظر : التاريخ الكبير ٣/ ٣٠٣، والجرح والتعديل ٤/ ٤٤١.

(٣) هو غيلان بن جرير المعولي الأزدي البصري روىٰ عن أنس بن مالك ومطرف بن عبدالله وغيرهما قال أحمد وابن معين وأبو حاتم والنسائي ثقة مات سنة ١٢٩هـ. انظر : تهذيب التهذيب ٨/ ٢٢٧، والتاريخ الكبير ٧/ ١٠١ و ١٠٢.

(٤) الزهد للإمام أحمد ٢٩٦.

(٥) أبو سليمان جعفر بن سليمان الضبعي الجرشي البصري مولىٰ بن جريش وكان ينزل في بني ضبيعة روىٰ عن ثابت ومالك بن دينار وأبي عمران الجوني وغيرهم مات سنة ٢٧٧هـ انظر الجرح والتعديل ٢/ ٤٨١، والتاريخ الكبير ٢/ ١٩٢.

(٦) ذكره أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٠١، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٩٠.

ومما يدل علىٰ أن الفرح من أسباب المكر، مالم يقارنه خوف: قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقال قوم قارون له[1]: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦] فالفرح متىٰ كان بالله، وبما مَنَّ الله[2]، مقارنا للخوف والحذر: لم يضر صاحبه، ومتىٰ خلا عن ذلك: ضرَّه ولا بد.

قوله: «**وَيَبعَثُ عَلَىٰ الشُّكرِ إلاّ مَا قَامَ بِهِ الحَقُّ عَزَّ وَجَلَّ مِن حَقِّ الصِّفَةِ**» هذا الكلام يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يريد أن هذه الملاحظة تبعثه علىٰ الشكر لله في السراء والضراء في كل حين، إلا ما عجزت قدرته عن شكره. فإن الحق سبحانه هو الذي يقوم به لنفسه بحق كماله المقدس، وكمال صفاته ونعوته. فتلك الملاحظة تبسط العبد للشكر إلا الشكر[3] الذي يعجز عنه، ولا يقدر أن يقوم به. فإن شكر العبد لربه: نعمة من الله أنعم بها عليه. فهي تستدعي شكرا آخر عليها. وذلك الشكر نعمة أيضاً. فيستدعي شكراً ثالثاً. وهلمَّ جرًّا. فلا سبيل إلىٰ القيام بشكر الرب علىٰ الحقيقة. ولا يشكره علىٰ الحقيقة سواه. فإنه

(١) «له» ساقة من غ، ح، ج، م، ب.

(٢) في ط زيادة «به».

(٣) في البقية عدا م «تبسط للعبد الشكر الذي يعجز عنه».

المنعم[1] بالنعمة وبشكرها. فهو الشكور لنفسه، وإن سمىٰ عبده شكوراً. فمدحة الشكر في الحقيقة: راجعة إليه، وموقوفة عليه. فهو الشاكر لنفسه بما أنعم به[2] علىٰ عبده. فما شكره في الحقيقة سواه، مع كون العبد عبداً والرب رباً. فهذا أحد المعنيين في كلامه.

المعنىٰ الثاني: أن هذا اللحظ ينشطه[3] للشكر الذي هو وصفه وفعله. لا الشكر الذي هو صفة الرب جل جلاله وفعله. فإنه سمىٰ نفسه بالشكور، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧] وقال أهل الجنة: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤] فهذا الشكر الذي هو وصفه سبحانه لا يقوم إلا به. ولا يبعث العبد علىٰ[4] الملاحظة المذكورة إلا علىٰ وجه واحد. وهو أنه: إذا لاحظ سبق الفضل منه سبحانه، علم أنه فعل ذلك لمحبته للشكر. فإنه تعالىٰ يحب أن يشكر. كما قال موسىٰ «يا رب، هَلاَّ سويت بين عبادك؟ فقال: إني أحب أن أشكر»[5].

---

(١) في ط زيادة «هو».

(٢) «به» ساقطة من الجميع عدا م.

(٣) في البقية عدا م «يبسطه».

(٤) في ق، ب «عليه».

(٥) القائل هو آدم ـ عليه السلام ـ والحديث في صحيح الحاكم ٢/ ٣٢٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقد ذكر المؤلف هذا الحديث بتمامه في كتابه شفاء العليل ١/ ٩.

وإذا كان يحب الشكر فهو أولىٰ أن يتصف به، كما أنه سبحانه وتر، يحب الوتر، جميل يحب الجمال، محسن يحب المحسنين، صبور يحب الصابرين، عفو يحب العفو، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف. فكذلك هو شكور يحب الشاكرين. فملاحظة العبد سبق الفضل تشهده صفة الشكر. وتبعثه علىٰ القيام بفعل الشكر. والله أعلم.

فصل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: مُلَاحَظَةُ نُورِ الكَشْفِ. وَهِيَ تُسبِلُ لِبَاسَ التَّوَلِّي، وَتُذِيقُ طَعْمَ التَّجَلِّي، وَتَعْصِمُ مِن عَوَارِ التَّسَلِّي»[1].

هذه الدرجة: أتم مما قبلها. فإن تلك الدرجة: ملاحظة ما سبق بنور العلم. وهذه ملاحظة كشف[2] [بحال قد استولىٰ علىٰ قلبه، حتىٰ[3] شغله عن الخلق. فأسبل عليه لباس توليه لله[4] وحده وتوليه عما سواه.

ونور الكشف عندهم: هو مبدأ الشهود. وهو نور تجلي معاني الأسماء الحسنىٰ علىٰ القلب. فتضيء به ظلمة القلب. ويرتفع به حجاب الكشف.

ولا تلتفت إلىٰ غير هذا، فتزل قدم بعد ثبوتها. فإنك تجد في كلام بعضهم:

---

(١) منازل السائرين ١٠١.

(٢) من هنا بداية سقط من نسخة «أ». عند قوله «وسيلة إلىٰ العمل».

(٣) في ق «حين».

(٤) في البقية عدا م: «الله».

امتناع رؤية الله في الدنيا

تجلي الذات يقتضي كذا وكذا، وتجلي الصفات يقتضي كذا وكذا، وتجلي الأفعال يقتضي كذا وكذا[١]، والقوم عنايتهم بالمعاني أكثر من[٢] عنايتهم بالألفاظ. فيتوهم المتوهم: أنهم يريدون تجلي[٣] حقيقة الذات والصفات والأفعال للعيان، فيقع من يقع منهم في الشطحات والطامات. والصادقون العارفون برآء من ذلك.

وإنما يشيرون إلىٰ كمال المعرفة، وارتفاع حجب[٤] الغفلة والشك والإعراض، واستيلاء سلطان المعرفة علىٰ القلب بمحو[٥] شهود السوىٰ بالكلية. فلا يشهد القلب سوىٰ معروفه.

ويُنظِّرون هذا بطلوع الشمس. فإنها إذا طلعت انطمس نور الكواكب. ولم تعدم الكواكب. وإنما غطىٰ عليها نور الشمس. فلم يظهر لها وجود. وهي موجودة في أماكنها وهكذا[٦].

نور المعرفة إذا استولىٰ علىٰ القلب وقوي[٧] سلطانها، وزالت الموانع

---

(١) انظر: التجلي والتجلي الأول والثاني والتجلي الشهودي في معجم اصطلاحات الصوفية ص١٧٣ و ١٧٤، والتعريفات ٧٨. وفيه التجلي: ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب...

(٢) قوله «عنايتهم بالمعاني أكثر من» ساقطة من الجميع عدا م.

(٣) في ج زيادة «بالمعاني» وهي غير مناسبة لأن المؤلف يفسر لفظاً.

(٤) في ق «حجاب».

(٥) في م، ج، ق، ح، غ «يمحص».

(٦) في ط: «وهي في الواقع في أماكنها وهكذا».

(٧) في ط «القلب قوي».

والحجب عن القلب.

ولا ينكر هذا إلا من ليس من أهله.

ولا يعتقد أن الذات المقدسة والأوصاف: برزت وتجلت للعبد -كما تجلىٰ سبحانه للطور، وكما يتجلىٰ يوم القيامة للناس- إلا غالط فاقد للعلم. وكثيراً ما يقع الغلط من التجاوز من نور العبادات والرياضة والذكر إلىٰ نور الذات والصفات.

فإن العبادة الصحيحة والرياضة الشرعية[1]، والذكر المتواطئ عليه القلب واللسان: يوجب نورا علىٰ قدر قوّته وضعفه. وربما قوي ذلك النور حتىٰ يشاهد بالعيان. فيغلط فيه ضعيف العلم والتمييز بين خصائص الربوبية ومقتضيات العبودية. فيظنه نور الذات وهيهات! ثم هيهات! نور الذات لا يقوم له[2] شيء ولو كشف سبحانه الحجاب عنه لتدكدك العالم كله، كما تدكدك الجبل وساخ لما ظهر له ذلك[3] القدر اليسير من التجلي.

وفي الصحيح عنه ﷺ: **«إن الله سبحانه لا ينام. ولا ينبغي له أن ينام،**

(١) أي الرياضة الموافقة للشرع. ويقصدون بالرياضة: ترك الحظوظ والاقتصار علىٰ الحقوق مع تمرين الجوارح علىٰ موافقة الشرع ومخالفة مقتضىٰ الطبع، معجم اصطلاحات الصوفية ٢٠١، وانظر التعريفات ١٥٠.

(٢) في م: «لها».

(٣) «ذلك» ساقطة من البقية عدا ج، م، ق.

يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل. حجابه النور. لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه» [١].

فالإسلام له نور. والإيمان له نور أقوىٰ منه. والإحسان له نور أقوىٰ منهما. فإذا اجتمع نور[٢] الإسلام والإيمان والإحسان، وزالت الحجب الشاغلة عن الله: امتلأ القلب والجوارح بذلك النور. لا بالنور الذي هو صفة الرب تعالىٰ. فإن صفاته لا تحل في شيء من مخلوقاته. كما أن مخلوقاته لا تحل فيه. فالخالق بائن عن المخلوق بذاته وصفاته. فلا اتحاد، ولا حلول، ولا ممازجة. تعالىٰ الله عن ذلك كله علواً كبيراً.

قوله: « **وَيَعصِمُ مِن عَوَارِ التَّسَلِّي** » العوار: العيب. و« التسلي »[٣] عن المحبوب الذي لا حياة للقلب ولا نعيم إلا بحبه والقرب منه، والأنس بذكره[٤]. فإن سلوَّ القلب وغفلته عن ذكره: هو من أعظم العيوب. فهذه

---

(١) رواه مسلم وسبق تخريجه ص ٢٨٩٨ .

(٢) «نور» ساقطة من البقية عدا ج، م، ق.

(٣) في ج تكرار لما سيأتي وهو قوله: «فإن سلو القلب وغفلته عن ذكره» والعوار كما ذكر المؤلف «العيب» .

انظر: مختار الصحاح ٤٦٢ وكلمة «العوار» ساقطة من ق، وفي ط «العيب والتسلي والسلوه عن المحبوب».

(٤) سقط من م إلىٰ قوله «من أعظم العيوب».

الملاحظة إذا صدقت عصمت صاحبها من[١] عيب سلوته عن مطلوبه ومراده. فإنه في هذه الدرجة [٢] مستغرق في شهود الأسماء والصفات. وقد استولىٰ [علىٰ قلبه نور الإيمان بها ومعرفتها، ودوام ذكرها. ومع هذا: فباب السلوة][٣] عليه مسدود، وطريقها عليه مقطوع. والمحب يمكنه التسلي قبل أن يشاهد جمال محبوبه، ويستغرق في شهود كماله، ويغيب به[٤] عن غيره. فإذا وصل إلىٰ هذه الحال كان كما قيل:

مرَّتْ بأرجَاءِ الخيَالِ طُيوفُه ... فبكَتْ علىٰ رسْمِ السُّلُوِّ الدَّارس[٥]

فصل

الدرجة الثالثة قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: مُلاحَظَةُ عَينِ الجَمْعِ. وَهِيَ تُوقِظُ لاستِهَانَةِ المُجَاهَدَاتِ. وَالتَّخَلُّصِ مِن رُعُونَةِ المعَارَضَاتِ. وَتُفِيدُ مُطَالَعَةَ البِدَايَاتِ»[٦].

هذه الدرجة عنده: أرفع مما قبلها. فإن ما قبلها مطالعة كشف. وأنوار[٧] تشير

---

(١) في البقية عدا م، ج، ق «عن».

(٢) «الدرجة» ساقطة من م.

(٣) الزيادة من الجميع.

(٤) «به» ساقطة من م.

(٥) ذكر المؤلف هذا البيت في كتابه روضة المحبين ١٢٩.

(٦) منازل السائرين ١٠١.

(٧) في البقية عدا ج، م، ق «كشف الأنوار».

إلىٰ نوع كسب واختيار. وهذه مطالعة تجذب القلب من التفرق في أودية الإرادات، وشعاب الأحوال والمقامات، إلىٰ ما استولىٰ عليه من عين الجمع، الناظر إلىٰ الواحد الفرد، الأول الذي ليس قبله شيء[1]، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، فسبق[2] كل شيء بأوليته. وبقي بعد كل شيء بآخريته. وعلا فوق كل شيء بظهوره. وأحاط بكل شيء ببطونه.

فالنظر بهذه العين: يوقظ قلبه لاستهانته بالمجاهدات.

ومعنىٰ ذلك: أن السالك في[3] مبدأ أمره له شِرَّة، وفي طلبه حدة، تحمله علىٰ أنواع المجاهدات، وترميه عليها لشدة طلبه. ففتوره نائم، واجتهاده يقظان.

الجمعية على الله وغلط من عطل الفرائض والنوافل

فإذا وصل إلىٰ هذه الدرجة: استهان بالمجاهدات الشَّاقة في جنب ما حصل له من مقام الجمع علىٰ الله. واستراح من كدِّها. فإن ساعة من ساعات الجمع علىٰ الله: أنفع وأجدىٰ[4] من القيام بكثير من المجاهدات البدنية[5]،

---

(١) في ق «كمثله».

(٢) في ط «سبق».

(٣) «في» ساقطة من غ، ح، ب.

(٤) في ط زيادة «عليه».

(٥) سقط من ح إلىٰ قوله «المجاهدات وتعبها».

التي لم يفرضها الله عليه. فإذا جمع همَّه وقلبَه كلَّه علىٰ الله وزال عنه[١] كل مفرق ومشتت: كانت هذه هي ساعات عمره في الحقيقة. فتعوَّض بها عما كان يقاسيه من كَدِّ المجاهدات وتعبها.

وهذا موضع غلط فيه طائفتان من الناس.

إحداهما: غَلَت فيه[٢]، حتىٰ قدمته علىٰ الفرائض والسنن. ورأت نزولها عنه إلىٰ القيام بالأوامر انحطاطا من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ. حتىٰ قيل لبعض[٣] من ذاق ذلك: قم إلىٰ الصلاة، فقال:

يطالب بالأوراد من كان غافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد

وقال آخر: لا تسيب واردك لو ردك[٤]:

وهؤلاء بين كافر وناقص.

فمن لم ير القيام بالفرائض - إذا حصلت له الجمعية - فهو كافر، منسلخ من الدين. ومن عطّل لها ما مصلحته[٥] - راجحة كالسنن الرواتب، والعلم النافع، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنفع العظيم

---

(١) «عنه» ساقطة من البقية عدا ج، م، ق.

(٢) «فيه» ساقطة من ج.

(٣) في ط زيادة «زعم أنه».

(٤) في م «أورادك».

(٥) في ط «لها مصلحة».

المتعدي- فهو ناقص.

والطائفة الثانية : لا تعبأ بالجمعية ، ولا تعمل عليها. ولعلها لا تدري ما مسماها وحقيقتها [١].

وطريقة الأقوياء ، أهل الاستقامة : القيام بالجمعية في التفرقة ما أمكن. فيقوم بالعبادات [٢] ، ونفع الخلق ، والإحسان إليهم ، مع جمعيته علىٰ الله. فإن ضعف عن اجتماع الأمرين ، وضاق عن ذلك : قام بالفرائض. ونزل عن الجمعية. ولم يلتفت إليها ، إذا كان لا يقدر علىٰ تحصيلها إلا بتعطيل الفرض. فإن ربه سبحانه يريد منه [٣] أداء فرائضه. ونفسه تريد الجمعية ، لما فيها من الراحة واللذة ، والتخلص من ألم التفرقة وشعثها [٤]. فالفرائض حق ربه. والجمعية حظُّه هو.

فالعبودية الصحيحة : توجب عليه تقديم أحد الأمرين علىٰ الآخر. فإذا جاء إلىٰ النوافل ، وتعارض عنده الأمران : فمنهم من يرجح الجمعية.

ومنهم من يرجح النوافل. ومنهم من يؤثر هذا في وقت وهذا في وقت [٥].

---

(١) في ط «ولا حقيقتها».

(٢) في ط «فيقوم أحدهم».

(٣) سقط من م إلىٰ قوله «الجمعية».

(٤) في ب : «وشعبها».

(٥) سقط من م : «وهذا في وقت».

والتحقيق - إن شاء الله - أن تلك النوافل إن كانت مصلحتها أرجح من مصلحة[1] الجمعية، ولا تعوضه الجمعية عنها: اشتغل بها، ولو فاتته[2] الجمعية، كالدعوة إلىٰ الله، وتعليم العلم النافع، وقيام وسط الليل، والذكر أول النهار[3] وآخره، وقراءة القرآن بالتدبر. ونفل الجهاد، والإحسان إلىٰ المضطر، وإغاثة الملهوف. ونحو ذلك. فهذا كله مصلحته أرجح من مصلحة الجمعية.

وإن كانت مصلحته دون مصلحة[4] الجمعية - كصلاة الضحىٰ، وزيارة الإخوان، والتبتل[5] لحضور الجنائز، وعيادة المرضىٰ، وإجابة الدعوات، وزيارة القدس، وضيافة الإخوان ونحو ذلك - فهذا فيه تفصيل.

فإن قويت جمعيته وظهر تأثيرها فيه فهي أولىٰ له[6]، وأنفع من ذلك. وإن ضعفت الجمعية، وقوي إخلاصه في هذه الأعمال: فهي أنفع له، وأفضل من الجمعية.

والمعول عليه في ذلك[7]: إيثار أحب الأمرين إلىٰ الرب تعالىٰ.

---

(١) «مصلحة» ساقطة من ط.

(٢) في البقية عدا م «فاتت».

(٣) في البقية عدا م، ج، ق «الليل».

(٤) «مصلحة» ساقطة من ط.

(٥) في ط: «والغسل».

(٦) «له» ساقطة من غ، ح.

(٧) في ط: «والمعول عليه في ذلك كله» و«عليه» ساقطة من ج، ق.